

الفوائد الذهبية

علاج العقيدة الواسطية

للشيخ الإسلام ابن تيمية

تأليف

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزُّعكري

محفوظ
جميع الحقوق

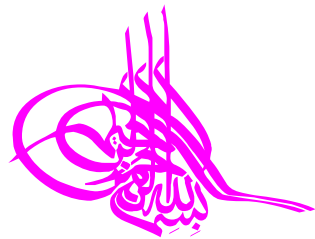
الطبعة الأولى

١٤٣٤ هـ

الفوائد الذهبية

على العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام ابن تيمية



مقدمة الشارح

الحمد لله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وأشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا سمِّي ولا نِدَّ ولا ولد وأشهد أن محمداً
عبده ورسوله وكل من أفرد الله ووحد.

أمّا بعد، فإنّ من النعم الجليلات والمنن العظيمة والأعمال الفضيلات لهو
إفراد ربّ الأرض والسموات بما له من الحقوق في ألوهيّته وربوبيّته وما له من
الأسماء الحسنی الجليلات والصفات العلی الكاملات وذلك لأنّ الأعمال
الفاضلات بشرف معلومها وأشرفها علم توحيد ربّ البریّات وقد یسرّ الله
وله المِنَّة والفضل تدريس كتاب العقيدة الواسطيّة لشيخ الإسلام أحمد بن
عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية والتعليق على ما حوته من الآيات
القرآنيّة والأحاديث الصحيحة النبويّة والعقائد السلفيّة فشرحته وقربته ثمّ
هدّبه بعد تفريغه ورتبته ثمّ إنّي لا أدعي أنني أتيت ببدع من الشرح والتعليق
بل أنا متبع لا مبتدع ومقتفي لا مبتدي لكن أحببت أن أدلي بدلوي مع الدلاء
لعلّ الله أن يُكرمني بما أكرم به الفضلاء النبلاء من أهل الإصلاح والزكاء
وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

والاهتمام بالعقيدة الصحيحة طريقة سلفيّة وسنّة نبويّة ففي صحيح
البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩) عن ابن عبّاس قال: لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ
مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ أَهْلِ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ

أَهْلَ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُوْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقْرَأُوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ».

وفي الصحيحين البخاري (٨) ومسلم (١٦) عن ابن عمر قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ».

وعند ابن ماجه (٦١) عن جندب قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَارْدَدْنَا بِهِ إِيْمَانًا».

وأخرج مسلم (١٧٣١) عن بريدة قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا أَمَرَ أَمِيرَ عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ خَاصَّتَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَلَا تَعُتُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَمْتَلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيُّهُمْ مَا أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّكُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّكُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرَى عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلِّهِمْ

الْجَزِيَّةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ. وَإِذَا حَاصِرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ. وَإِذَا حَاصِرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا».

وفي مسلم (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد أن رسول الله قال يوم خيبر: «لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ». قَالَ فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا ، قَالَ: فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ كُلُّهُمْ يَرْجُونَ أَنْ يُعْطَاهَا فَقَالَ: «أَيُّنَ عَلَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ؟». فَقَالُوا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ ، قَالَ: فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأَتَى بِهِ فَبَصَّقَ رَسُولُ اللَّهِ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ فَقَالَ عَلِيُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقَاتِلْهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا. فَقَالَ: «انْفِذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ».

وفي سنن الدارقطني (١٨٦) عن طارق المحاربي قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ، وَأَنَا فِي بَاعَةِ لِي أَبِيعُهَا، وَمَرَّةً وَعَلَيْهِ جُبَّةٌ لَهُ حُمْرَاءُ، وَهُوَ يَنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

تُفْلِحُوا» قَالَ: وَرَجُلٌ يَتَّبِعُهُ بِالْحِجَارَةِ قَدْ أَدْمَى كَعْبِيهِ وَعَرَفُوْنِيهِ، وَيَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تُطِيعُوهُ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا غُلَامٌ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قُلْتُ: فَمَنْ هَذَا الَّذِي يَتَّبِعُهُ يَرْمِيهِ؟ قَالُوا: عَمُّهُ عَبْدُ الْعُزَّى، وَهُوَ أَبُو هَبٍ، قَالَ: فَلَمَّا ظَهَرَ الْإِسْلَامُ قَبَلَ الْمَدِينَةَ، أَقْبَلْنَا فِي رَكْبٍ مِنَ الرِّبْدَةِ، حَتَّى نَزَلْنَا قَرِيبًا مِنَ الْمَدِينَةِ، وَمَعَنَا طَعِينَةٌ لَنَا، قَالَ: فَبَيْنَا نَحْنُ قُعُودٌ إِذْ أَتَانَا رَجُلٌ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَبْيَضَانِ، فَسَلَّمَ، فَرَدَدْنَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: «مِنْ أَيْنَ أَقْبَلَ الْقَوْمُ؟» قُلْنَا: مِنَ الرِّبْدَةِ، وَجِيُوبِ الرِّبْدَةِ، قَالَ: وَمَعَنَا جَمَلٌ أَحْمَرٌ، قَالَ: «تَبِيعُونِي الْجَمَلَ؟» قَالَ: قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «بِكَمْ؟» قَالَ: قُلْتُ: بِكَذَا وَكَذَا صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، قَالَ: فَمَا اسْتَنْقَصْنَا شَيْئًا، وَقَالَ: قَدْ أَخَذْتُهُ، قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ بِرَأْسِ الْجَمَلِ حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ، فَتَوَارَى عَنَّا، فَتَلَاوَمْنَا بَيْنَنَا، قُلْنَا: أُعْطِيتُمْ حِمْلَكُمْ رَجُلًا لَا تَعْرِفُونَهُ، قَالَتِ الطَّعِينَةُ: لَا تَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ وَجْهَهَا مَا كَانَ لِيُخْفِرَكُمْ، مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ بِالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، مِنْ وَجْهِهِ، قَالَ: فَلَمَّا كَانَ الْعِشَاءُ أَتَى رَجُلٌ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، وَإِنَّهُ يَأْمُرُكُمْ، أَنْ تَأْكُلُوا حَتَّى تَشْبَعُوا، وَتَكْتَالُوا حَتَّى تَسْتَوْفُوا، فَأَكَلْنَا حَتَّى شَبِعْنَا، وَاكْتَلْنَا حَتَّى اسْتَوْفَيْنَا، قَالَ: فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ، دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ يُخْطِبُ النَّاسَ، وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، يَدُ الْمُعْطِيِّ الْعُلْيَا، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، أُمِّكَ وَأَبَاكَ، أُخْتُكَ، وَأَخَاكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ، أَدْنَاكَ» فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَؤُلَاءِ بَنُو ثَعْلَبَةَ بْنِ يَرْبُوعَ الَّذِينَ قَتَلُوا فُلَانًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَخُذْ لَنَا بَثَارَنَا مِنْهُ، قَالَ: فَرَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطِيهِ، فَقَالَ: «أَلَا لَا تَجْنِي أُمُّ عَلَى وَلَدٍ، أَلَا لَا تَجْنِي أُمُّ عَلَى وَلَدٍ».

والشاهد من الحديث دعوته إلى تحقيق لا إله إلا الله، وإنها سقته بتمامه للفائدة.

وعند مسلم (٨) عن يحيى بن يعمر قال: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبُدُ الْجُهَنِيِّ فَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَمِيرِيُّ حَاجِّينَ أَوْ مُعْتَمِرِينَ فَقُلْنَا لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ فَوَفَّقَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ فَكَتَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ فَقُلْتُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ - وَأَتَتْهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَا قَدَرَ وَأَنَّ الْأَمْرَ أُتْفُ. قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أَوْلَيْكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَتَتْهُمْ بُرَاءٌ مِنِّي، وَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لَأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» قَالَ صَدَقْتَ. قَالَ فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ : «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» قَالَ صَدَقْتَ، قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ

تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحَفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». قَالَ ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟». قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

وما زال السلف يناظرون من أجلها، فعن ابن عباس عند عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١١٢٩)، قال : لَمَّا خَرَجَتْ الْحُرُورِيَّةُ اجْتَمَعُوا فِي دَارٍ وَهُمْ سِتَّةُ آلَافٍ أَتَيْتُ عَلِيًّا فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَبْرِدْ بِالظُّهْرِ لَعَلِّي آتِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ فَأُكَلِّمُهُمْ. قَالَ: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ. قَالَ قُلْتُ: كَلَّا. قَالَ: فَخَرَجْتُ أَتِيَهُمْ وَلَبِسْتُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنْ حُلَلِ الْيَمَنِ فَاتَيْتُهُمْ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ فِي دَارٍ وَهُمْ قَائِلُونَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: مَرْحَبًا بِكَ يَا أَبَا عَبَّاسٍ فَمَا هَذِهِ الْحُلَّةُ؟ قَالَ قُلْتُ: مَا تَعْيِبُونَ عَلَيَّ لَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الْحُلَلِ وَنَزَلَتْ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، قَالُوا: فَمَا جَاءَ بِكَ؟ قُلْتُ: أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ صَحَابَةِ النَّبِيِّ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لِأُبَلِّغَكُمْ مَا يَقُولُونَ وَتُخْبِرُونِي بِمَا تَقُولُونَ فَعَلَيْهِمْ نَزَلَ الْقُرْآنُ وَهُمْ أَعْلَمُ بِالْوَحْيِ مِنْكُمْ وَفِيهِمْ أَنْزَلَ وَلَيْسَ فِيكُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا تُخَاصِمُوا قُرَيْشًا فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَأَتَيْتُ قَوْمًا لَمْ أَرِ قَوْمًا قَطُّ أَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنْهُمْ مُسَهَّمَةً وَجُوهُهُمْ مِنَ السَّهَرِ كَأَنَّ أَيْدِيَهُمْ وَرُكْبَهُمْ ثِقَنَ عَلَيْهِمْ قُمْصٌ مَرَحَضَةٌ قَالَ بَعْضُهُمْ لِنُكَلِّمَنَّهُ وَلَنَنْظُرَنَّ مَا يَقُولُ. قُلْتُ: أَخْبِرُونِي مَاذَا

نَعَمْتُمْ عَلَى ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ وَصِهْرِهِ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ قَالُوا: ثَلَاثًا. قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالُوا: أَمَّا إِحْدَاهُنَّ فَإِنَّهُ حَكَمَ الرَّجَالَ فِي أَمْرِ اللَّهِ قَالَ اللَّهُ : ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وَمَا لِلرَّجَالِ وَمَا لِلْحُكْمِ. فَقُلْتُ: هَذِهِ وَاحِدَةٌ. قَالُوا: وَأَمَّا الْأُخْرَى فَإِنَّهُ قَاتَلَ وَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ فَلَيْنَ كَانَ الَّذِينَ قَاتَلَ كُفَّارًا لَقَدْ حَلَّ سَبِيهِمْ وَغَنِيمَتُهُمْ وَإِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مَا حَلَّ قِتْلَهُمْ قُلْتُ: هَذِهِ ثِنْتَانِ فَمَا الثَّلَاثَةُ؟ قَالُوا: إِنَّهُ حَا اسْمَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ أَمِيرُ الْكَافِرِينَ. قُلْتُ: أَعِنْدَكُمْ سِوَى هَذَا؟ قَالُوا: حَسْبُنَا هَذَا. فَقُلْتُ لَهُمْ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَرَأْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَمِنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ مَا يَرُدُّ بِهِ قَوْلَكُمْ أَتَرْضَوْنَ؟ قَالُوا: نَعَمْ فَقُلْتُ لَهُمْ: أَمَّا قَوْلُكُمْ حَكَمَ الرَّجَالَ فِي أَمْرِ اللَّهِ فَأَنَا أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ مَا قَدْ رُدَّ حُكْمُهُ إِلَى الرَّجَالِ فِي ثَمَنِ رُبْعِ دِرْهَمٍ فِي أَرْبَبٍ وَنَحْوِهَا مِنَ الصَّيْدِ فَقَالَ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، فَشَدَّدْتُكُمْ بِاللَّهِ أَحْكُمُ الرَّجَالَ فِي أَرْبَبٍ وَنَحْوِهَا مِنَ الصَّيْدِ أَفْضَلُ أَمْ حُكْمُهُمْ فِي دِمَائِهِمْ وَإِصْلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ وَأَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَوْ شَاءَ لَحَكَمَ وَلَمْ يُصَيِّرْ ذَلِكَ إِلَى الرَّجَالِ وَفِي الْمَرْأَةِ وَزَوْجِهَا قَالَ اللَّهُ : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥]، فَجَعَلَ اللَّهُ حُكْمَ الرَّجَالِ سُنَّةَ مَاضِيَةٍ أَخْرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: وَأَمَّا قَوْلُكُمْ قَاتَلَ فَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ أَتَسْبُونَ أَمْكُمْ عَائِشَةَ ثُمَّ تَسْتَحِلُّونَ مِنْهَا مَا يُسْتَحَلُّ مِنْ غَيْرِهَا فَلَيْنَ فَعَلْتُمْ لَقَدْ كَفَرْتُمْ وَهِيَ أُمُّكُمْ وَلَيْنَ قُلْتُمْ لَيْسَتْ بِأُمَّنَا لَقَدْ كَفَرْتُمْ! فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، فَأَنْتُمْ تَدُورُونَ بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ أَيْهَمَا صَرْتُمْ إِلَيْهَا صَرْتُمْ إِلَى ضَلَالَةٍ فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قُلْتُ: أَخْرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. وَأَمَّا

قَوْلُكُمْ مَحَا نَفْسَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنَا أَتَيْكُمْ بِمَنْ تَرْضَوْنَ أُرِيكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ النَّبِيَّ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ كَاتَبَ الْمُشْرِكِينَ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرِو وَابَا سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ: «اَكْتُبْ يَا عَلِيُّ هَذَا مَا اضْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لَا وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا قَاتَلْنَاكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُكَ اكْتُبْ يَا عَلِيُّ هَذَا مَا اضْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ». فَوَاللَّهِ لَرَسُولُ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ عَلِيٍّ وَمَا أَخْرَجَهُ مِنَ النَّبَوَّةِ حِينَ مَحَا نَفْسَهُ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: (فَرَجَعَ مِنَ الْقَوْمِ أَلْفَانِ وَقُتِلَ سَائِرُهُمْ عَلَى ضَلَالَةٍ).

وعند مسلم (١٩١) عن يزيد الفقيه قال: كُنْتُ قَدْ شَغَفَنِي رَأْيٌ مِنْ رَأْيِ الْخَوَارِجِ فَخَرَجْنَا فِي عَصَابَةِ ذَوِي عَدَدٍ نُرِيدُ أَنْ نَحْجَّ ثُمَّ نَخْرُجَ عَلَى النَّاسِ، قَالَ: فَمَرَرْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ فَإِذَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ - جَالِسٌ إِلَى سَارِيَةٍ - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ، قَالَ: فَإِذَا هُوَ قَدْ ذَكَرَ الْجَهَنَّمِيِّينَ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ، مَا هَذَا الَّذِي تُحَدِّثُونَ؟ وَاللَّهِ يَقُولُ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، فَمَا هَذَا الَّذِي تَقُولُونَ؟! قَالَ: فَقَالَ: أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ يَعْنِي الَّذِي يَبْعَثُهُ اللَّهُ فِيهِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّهُ مَقَامُ مُحَمَّدٍ الْمُحْمُودُ الَّذِي يُخْرِجُ اللَّهُ بِهِ مَنْ يُخْرِجُ. قَالَ: ثُمَّ نَعَتْ وَضَعَ الصِّرَاطَ وَمَرَّ النَّاسِ عَلَيْهِ، قَالَ: وَأَخَافُ أَنْ لَا أَكُونَ أَحْفَظُ ذَلِكَ، قَالَ: غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ زَعَمَ أَنَّ قَوْمًا يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ أَنْ يَكُونُوا فِيهَا، قَالَ: يَعْنِي فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ عِيدَانُ السَّمَاوَاتِ. قَالَ: فَيَدْخُلُونَ مَهْرًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَغْتَسِلُونَ

فِيهِ فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ الْقَرَاطِيسُ. فَرَجَعْنَا قُلْنَا: وَيَحْكُمُ! أَتَرَوْنَ الشَّيْخَ يَكْذِبُ
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ؟! فَرَجَعْنَا، فَلَا وَاللَّهِ، مَا خَرَجَ مِنَّا غَيْرُ رَجُلٍ وَاحِدٍ.

إلى غير ذلك من الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية والآثار المروية.

وأسميت هذا الشرح الفوائد الذهبية على العقيدة الواسطية لشيخ
الإسلام ابن تيمية .

فأسأل الله أن ينفع بهذا الشرح كما نفع بأصله، وأن يغفر لي ولوالديّ
ولمشايخي وللمسلمين.

وكان تدريسي لهذا الكتاب من السبت الثالث من شهر محرم الحرام لعام
١٤٣٤ هـ، والحمد لله رب العالمين.

عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزُّعْكَري

٨ / جمادى الأولى / ١٤٣٤

فوائد تتعلق بالبسملة

قال المصنف :

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ).

افتتح كتابه بالبسملة اقتداءً بكتاب الله العزيز قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾.

وجاء عن النبيؐ كما في الصحيحين البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٢) من حديث ابن عباس أن النبيؐ كتب في كتابه إلى هرقل: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ» الحديث.

وعند مسلم (١٧٨٤) عن أنس ، أن النبيؐ لما كتب الصلح بينه وبين قريش، قال لعلي بن أبي طالب : «اكتب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ سُهَيْلٌ أَمَّا بِاسْمِ اللَّهِ فَمَا نَذَرِي مَا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَكِنْ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ.

وجاء عن البراء بن عازب عند مسلم (١٧٨٣) قَالَ: لَمَّا أُخْصِرَ النَّبِيُّؐ عِنْدَ الْبَيْتِ، صَاحَهُ أَهْلُ مَكَّةَ عَلَى أَنْ يَدْخُلَهَا فَيَقِيمَ بِهَا ثَلَاثًا، وَلَا يَدْخُلَهَا إِلَّا بِجُلْبَانِ السَّلَاحِ، السَّيْفِ وَقِرَابِهِ، وَلَا يُخْرِجَ بِأَحَدٍ مَعَهُ مِنْ أَهْلِهَا، وَلَا يَمْنَعُ أَحَدًا يَمْكُثُ بِهَا مِمَّنْ كَانَ مَعَهُ، قَالَ لِعَلِيٍّ: «اكتبِ الشَّرْطَ بَيْنَنَا، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، فَقَالَ لَهُ الْمُشْرِكُونَ: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ تَابَعْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَأَمَرَ عَلِيًّا أَنْ

يَمَحَاهَا، فَقَالَ عَلِيٌّ: لَا وَاللَّهِ، لَا أَمَحَاهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «أَرِنِي مَكَانَهَا»، فَأَرَاهُ مَكَانَهَا فَمَحَاهَا، وَكَتَبَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَأَقَامَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا أَنْ كَانَ يَوْمُ الثَّلَاثِ قَالُوا لِعَلِيٍّ: هَذَا آخِرُ يَوْمٍ مِنْ شَرْطِ صَاحِبِكَ، فَأَمْرُهُ فَلْيُخْرِجْ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «نَعَمْ»، فَخَرَجَ.

و في كتاب النبي إلى بني أقيش عند أحمد: (٢٣٠٧٧) عَنْ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ قَالَ: كُنَّا بِهَذَا الْمَرْبِدِ بِالْبَصْرَةِ قَالَ: فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ مَعَهُ قِطْعَةُ أَدِيمٍ، أَوْ قِطْعَةُ جِرَابٍ، فَقَالَ: هَذَا كِتَابُ كُتُبِهِ لِي النَّبِيِّ ، قَالَ أَبُو الْعَلَاءِ: فَأَخَذْتُهُ فَقَرَأْتُهُ عَلَى الْقَوْمِ، فَإِذَا فِيهِ: « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، لِبَنِي زُهَيْرِ بْنِ أَقِيشٍ: إِنَّكُمْ إِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ، وَأَدَيْتُمُ الزَّكَاةَ، وَأَعْطَيْتُمُ مِنَ الْمَغَانِمِ الْخُمْسَ وَسَهْمَ النَّبِيِّ وَالصَّغِيِّ، فَأَنْتُمْ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَأَمَانِ رَسُولِهِ » قَالَ: قُلْنَا: مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ يُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ».

وقص الله تعالى في القرآن أن سليمان لما كتب إلى ملكة اليمن قال:

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠].

وتُسمَّى الجملة بالبسملة، و(الحمد لله) بالحمدلة، و(سبحان الله) بالسبحلة، و(حسبي الله ونعم الوكيل) بالحسيلة، وتُسمَّى (حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح) بالحيعة، و(لا حول ولا قوة إلا بالله) بالحوقة و(لا إله إلا الله) بالهيللة، ويُقال لهذا النوع من الكلام النحت، والعرب تنحّت من كلمتين أو ثلاث كلمة واحدة.

و(الباء) في بسم الله للاستعانة، وقيل للمصاحبة، والصحيح الأول، وتأني عدة معان تراجع لها المطولات.

والاسم مشتق من السمو وهو العلو والارتفاع وهذا مذهب أهل البصرة؛ وذهب الكوفيون إلى أنه مشتق من الوسم، وهو العلامة والصحيح الأول فيقالون في تصرفه سميت ولا يقولون وسمت وفي جمعه أسماء لا أوسام وفي تصغيره سمي لا وسيم. ويقال لصاحبه مسمى لا يقال مؤسوم.

(الله) لفظ الجلالة علم على الذات العلية وهو أعرف المعارف وكل الأسماء الحسنى تابعة له قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٢) ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٣) ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤]، وما جاء في قول الله: ﴿الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (١) ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١-٢]، فالعطف عطف بيان لا عطف نسق والفرق بين العطفين أن عطف البيان مبين لما قبله وعطف النسق يكون تابعا لما قبله، مثاله: جاء زيد وعمرو، فيكون عمرو تابعا لزيد، وفي عطف البيان جاء أبو حفص عمر فعمر موضح لأبي حفص ومبين له.

ولفظ الجلالة (الله) مشتق على الصحيح من أقوال أهل العلم، وهو مشتق من الإله والإله هو المعبود محبة وتعظيما حتى قال رؤبة بن العجاج:

لِلّهِ دَرْ الْعَانِيَاتِ الْمُدَّةِ سَبَّحْنَ وَاسْتَزَجَعْنَ مِنْ تَأْلُفِي
أي: من تعبدي.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد (١ / ٢٢):

زعم أبو القاسم السهيلي وشيخه ابن العربي: أن اسم الله غير مشتق لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها واسمه تعالى قديم والقديم لا مادة له فيستحيل الاشتقاق ولا ريب أنه إن أريد بالاشتقاق هذا المعنى وأنه مستمد من أصل آخر فهو باطل ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ولا ألم بقلوبهم وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية كسائر أسماء الحسنى كالعليم والقدير والغفور والرحيم والسميع والبصير فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب وهي قديمة والقديم لا مادة له فما كان جوابكم عن هذه الأسماء فهو جواب القائلين باشتقاق اسم الله ثم الجواب عن الجميع أننا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى لا أنها متولدة منها تولد الفرع من أصله وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه أصلا وفرعا ليس معناه أن أحدهما تولد من الآخر وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة. اهـ

وهو الاسم الأعظم على الصحيح، وورد في خصوص (اسم الله الأعظم)
عدة أحاديث، أشهرها:

حديث أبي أمامة أن رسول الله قال: «اسمُ الله الأعظمُ في سُورِ
مِنَ الْقُرْآنِ ثَلَاثٌ: فِي (الْبَقَرَةِ) وَ(آلِ عِمْرَانَ) وَ(طه)».

رواه ابن ماجه (٣٨٥٦) وفي سنده غيلان بن أنس مجهول.

وحديث أنس أنه كان مع رسول الله جالسا ورجل يصلي ثم دعا: (اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم)، فقال النبي: «لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دُعِيَ به أجاب وإذا سُئِلَ به أعطى».

رواه الترمذي (٣٥٤٤)، وأبوداود (١٤٩٥)، والنسائي (١٣٠٠)، وابن

ماجه (٣٨٥٨).

وحديث بريدة بن الحصيب، أن رسول الله سمع رجلا يقول: (اللهم إني أسألك أني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)، فقال: «لقد سألت الله بالاسم الذي إذا سُئِلَ به أعطى وإذا دُعِيَ به أجاب».

رواه الترمذي (٣٤٧٥)، وأبوداود (١٤٩٣)، وابن ماجه (٣٨٥٧).

قال الحافظ ابن حجر: وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك.

وحديث أسماء بنت يزيد، أن النبي قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَاللَّهُمَّ اكْبُرْ لَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، وفاتحة سورة آل عمران: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾».

رواه الترمذي (٣٤٧٨)، وأبوداود (١٤٩٦)، وابن ماجه (٣٨٥٥).

والحديث ضعيف، فيه عبيد الله بن أبي زياد وشهر بن حوشب، وكلاهما ضعيف.

وقد اختلف أهل العلم في (اسم الله الأعظم).

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١١ / ٢٢٤) : وقد أنكره قوم كأبي جعفر الطبري وأبي الحسن الأشعري وجماعة بعدهما كأبي حاتم بن حبان والقاضي أبي بكر الباقلاني فقالوا لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض ونسب ذلك بعضهم لمالك لكرهيته ان تعاد سورة أو تردد دون غيرها من السور لئلا يظن أن بعض القرآن أفضل من بعض فيؤذن ذلك باعتقاد نقصان المفضل عن الأفضل وحملوا ما ورد من ذلك على أن المراد بالأعظم العظيم وأن أسماء الله كلها عظيمة وعبارة أبي جعفر الطبري اختلفت الآثار في تعيين الاسم الأعظم والذي عندي أن الأقوال كلها صحيحة إذ لم يرد في خبر منها انه الاسم الأعظم ولا شيء أعظم منه فكأنه يقول كل اسم من أسمائه تعالى يجوز وصفه بكونه أعظم فيرجع إلى معنى عظيم كما تقدم وقال بن حبان الاعظمية الواردة في الاخبار إنما يراد بها مزيد ثواب الداعي بذلك كما اطلق ذلك في القرآن والمراد به مزيد ثواب القارئ وقيل المراد بالاسم الأعظم كل اسم من أسماء الله تعالى دعا العبد به مستغرقا بحيث لا يكون في فكره حالتئذ غير الله تعالى فان من تأتي له ذلك استجيب له ونقل معنى هذا عن جعفر الصادق وعن الجنيد وعن غيرهما وقال اخرون استأثر الله تعالى بعلم الاسم الأعظم ولم يطلع عليه أحدا من خلقه.

(١٦) في الزوائد في إسناده مقال. وعبدالله بن عكيم وثقه الخطيب وعده من الصحابة. ولا يصح له سماع. وأبو شيبة لم أر من جرحه ولا من وثقه. وباقى رجال الإسناد ثقات. انتهى قلت: أبو شيبة كذبه أبو حاتم وقال البخاري في حديثه عن ابن عكيم نظر.

أخرجه أصحاب السنن إلا النسائي وحسنه الترمذي وفي نسخة صححه. وفيه نظر؛ لأنه من رواية شهر بن حوشب.

الخامس: (الحي القيوم) أخرج ابن ماجه (٣٨٥٦) من حديث أبي أمامة الاسم الأعظم في ثلاث سور البقرة وآل عمران وطه قال القاسم الراوي عن أبي أمامة التمسته منها فعرفت أنه الحي القيوم. وقواه الفخر الرازي واحتج بأنهما يدلان من صفات العظمة بالربوبية مالا يدل على ذلك غيرهما كدلالتهما.

السادس: (الحنان المنان بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام الحي القيوم) ورد ذلك مجموعاً في حديث أنس عند أحمد والحاكم وأصله عند أبي داود والنسائي وصححه ابن حبان.

السابع: (بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام) أخرجه أبو يعلى من طريق السري بن يحيى عن رجل من طي واثنى عليه قال كنت أسأل الله أن يريني الاسم الأعظم فأريته مكتوباً في الكواكب في السماء.

الثامن: (ذو الجلال والإكرام) أخرج الترمذي من حديث معاذ بن جبل قال: سمع النبي رجلاً يقول: (يا ذا الجلال والإكرام) فقال: «قد استجيب لك فسل». واحتج له الفخر بأنه يشمل جميع الصفات المعتبرة في الإلهية؛ لأن في (الجلال) إشارة إلى جميع السلوب وفي (الإكرام) إشارة إلى جميع الإضافات.

التاسع: (الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) أخرجه أبوداود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث بريدة وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك.

العاشر: (رب رب) أخرجه الحاكم من حديث أبي الدرداء وابن عباس بلفظ: «اسمُ الله الْأَكْبَرُ رَبُّ رَبِّ». وأخرج بن أبي الدنيا عن عائشة: «إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: لَبَّيْكَ عَبْدِي، سَلْ تُعْطَ» رواه مرفوعاً وموقوفاً.

الحادي عشر: (دعوة ذي النون) أخرج النسائي والحاكم عن فضالة بن عبيد رفعه: «دَعْوَةُ ذِي النَّوْنِ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ».

الثاني عشر: نقل الفخر الرازي عن زين العابدين أنه سأل الله أن يعلمه الاسم الأعظم فرأى في النوم: (هو الله الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم).

الثالث عشر: هو مخفي في الأسماء الحسنى ويؤيده حديث عائشة المتقدم لما دعت ببعض الأسماء وبالأسماء الحسنى فقال لها : إنه لفي الأسماء التي دعوت بها.

الرابع عشر: كلمة التوحيد نقله عياض. انتهى

قوله: (الرحمن) اسم من أسماء الله الحسنى، وهو علمٌ على الذات العليّة وهو من الأسماء المختصة بالله كاسم الله والقاهر والقهار والجبار والصمد وغيرها من الأسماء المختصة بالله التي لا يجوز أن يُسمّى بها غيره وهو على وزن فعالن، وصيغته أبلغ من وزن فاعل وعند علماء البيان والبلاغة أن الزيادة في الأحرف تدلّ على معنى أوسع.

قال ابن القيم بدائع الفوائد (١ / ٢٧): استبعد قوم أن يكون الرحمن نعتاً لله تعالى من قولنا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقالوا: (الرحمن) علم والأعلام لا ينعت بها، ثم قالوا: هو بدل من اسم الله، قالوا: ويدل على هذا أن (الرحمن) علم مختص بالله تعالى لا يشاركه فيه غيره فليس هو كالصفات التي هي العليم القدير والسميع والبصير ولهذا تجري على غيره تعالى قالوا ويدل عليه أيضاً وروده في القرآن غير تابع لما قبله كقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، و﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١-٢]، و﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُم مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ [الملك: ٢٠] وهذا شأن الأسماء المحضة لأن الصفات لا يقتصر على ذكرها دون الموصوف.

قال السهيلي: والبدل عندي فيه ممتنع وكذلك عطف البيان لأن الاسم الأول لا يفتقر إلى تبين فإنه أعرف المعارف كلها وأبينها ولهذا قالوا: وما الرحمن ولم يقولوا وما الله ولكنه وإن جرى مجرى الأعلام فهو وصف يراد به الثناء وكذلك الرحيم إلا أن الرحمن من أبنية المبالغة كغضبان ونحوه وإنما دخله معنى المبالغة من حيث كان في آخره ألف ونون كالتثنية فإن التثنية في الحقيقة تضعيف وكذلك هذه الصفة فكأن غضبان وسكران كامل لضعفين من الغضب والسكر فكان اللفظ مضارعا للفظ التثنية لأن التثنية ضعفان في الحقيقة ألا ترى أنهم أيضاً قد شبهوا التثنية بهذا البناء إذا كانت لشيئين متلازمين فقالوا الحكماء والعلماء وأعربوا النون كأنه اسم لشيء واحد فقالوا اشترك باب فعلاان وباب التثنية ومنه قول فاطمة يا حسنان يا حسينان برفع النون لابنيها ولمصارعة التثنية امتنع جمعه فلا يقال غضباين وامتنع تأنيثه فلا

يقال غضبانه وامتنع تنوينه كما لا تنون نون المثني فجرت عليه كثير من أحكام التثنية لمضارعتة إياها لفظاً ومعنى.

وفائدة الجمع بين الصفتين الرحمن والرحيم الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلة وخاصة وعامة تم كلامه.

قلت: أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت فإنها دالة على صفات كماله فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية فالرحمن اسمه تعالى ووصفه لا تنافي اسميته وصفيته فمن حيث هو صفة جرى تابعا على اسم الله ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورود الاسم العلم.

ولما كان هذا الاسم مختصاً به تعالى حسن مجيئه مفرداً غير تابع كمجيء اسم الله كذلك وهذا لا ينافي دلالة على صفة الرحمن كاسم الله تعالى فإنه دال على صفة الألوهية ولم يجيء قط تابعا لغيره بل متبوعاً وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة فتأمل هذه النكتة البديعة يظهر لك بها أن الرحمن اسم وصفة لا ينافي أحدهما الآخر وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعاً.

وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم فكان الأول للوصف والثاني للفعل فالأول دال أن الرحمة صفته والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته.

وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] ولم يجيء قط

رحمن بهم فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها. اهـ

ويُقدَّر الفعل مؤخراً، وقدر فعلاً لأن الأصل في العمل للأفعال، وقدر مؤخراً حتى يُتبرَّك بذكر الله قبل كل شيء وحتى لا يسبق اسم (الله) شيء.

قال ابن بدائع الفوائد (١ / ٢٨): لحذف العامل في بسم الله فوائد عديدة: منها أنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه سوى ذكر الله فلو ذكرت الفعل وهو لا يستغني عن فاعله كان ذلك مناقضاً للمقصود فكان في حذفه مشاكلة اللفظ للمعنى، ليكون المبدوء به اسم الله كما نقول في الصلاة الله أكبر ومعناه من كل شيء ولكن لا نقول هذا المقدر وليكون اللفظ مطابقاً لمقصود الجنان وهو أن لا يكون في القلب إلا الله وحده فكما تجرد ذكره في قلب المصلي تجرد ذكره في لسانه.

ومنها: أن الفعل إذا حذف صح الابتداء بالتسمية في كل عمل وقول وحركة وليس فعل أولى بها من فعل فكان الحذف أعم من الذكر فإن أي فعل ذكرته كان المحذوف أعم منه.

ومنها: أن الحذف أبلغ لأن المتكلم بهذه الكلمة كأنه يدعي الاستغناء بالمشاهدة عن النطق بالفعل فكأنه لا حاجة إلى النطق به لأن المشاهدة والحال دالة على أن هذا وكل فعل فإنما هو باسمه تبارك وتعالى والحوالة على شاهد الحال أبلغ من الحوالة على شاهد النطق كما قيل:

وَمِنْ عَجَبٍ قَوْلُ الْعَوَازِلِ مَنْ بِهِ وَهْلٌ غَيْرُ مَنْ أَهْوَى يُحِبُّ وَيَعْشَقُ
انتهى.

وقد حثَّ الشارع على البدء بالبسملة في كثير من الأمور منها: حال الكتابة
كما تقدم وعند إتيان الرجل أهله، قَالَ النَّبِيُّ : «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ
قَالَ: جَبْنَنِي الشَّيْطَانُ وَجَنَّبِ الشَّيْطَانُ مَا رَزَقْتَنِي، فَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ
الشَّيْطَانُ» من حديث ابن عباس في البخاري (٣٢٨٣) ومسلم
(١٤٣٤)، وبوّب عليه البخاري في صحيحه باب ذكر الله عند الوقاع وغيره.

وعند الخروج من البيت لما صحَّ عن أم سلمة وأنس أَنَّ النَّبِيَّ
كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ»، رواه أبو داود (٥٠٩٥)،
الترمذي (٣٤٢٧).

وعند ركوب الدابة لما صحَّ عن علي بن أبي طالب ، فَعَنْ عَلِيٍّ بْنِ
رَبِيعَةَ قَالَ: شَهِدْتُ عَلِيًّا أَتَى بِدَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ قَالَ بِسْمِ
اللَّهِ ثَلَاثًا فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِهَا قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا
هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ ثَلَاثًا، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ثَلَاثًا،
سُبْحَانَكَ إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. ثُمَّ
ضَحِكَ، قُلْتُ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ
صَنَعَ كَمَا صَنَعْتُ ثُمَّ ضَحِكَ، فَقُلْتُ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟
قَالَ: «إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ
غَيْرُكَ». أخرجه أبو داود (٢٦٠٢) والترمذي (٢٤٤٣).

وقال تعالى في قصة نوح : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [هود: ٤١] [هود: ٤١].

وعند دخول البيت لما صحَّ عن النبيِّ من حديث جابر بن عبد الله عند مسلم (٢٠١٨)، قال : « إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ ».

وعند الطعام والشراب ولحديث عمر بن أبي سلمة ، قال النبيُّ : « يَا غُلَامُ، سَمَّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ »، البخاري (٥٣٧٦)، مسلم (٢٠٢٢)، ولحديث حذيفة عند مسلم (٢٠١٧) قَالَ: كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ طَعَامًا لَمْ نَضَعْ أَيْدِيَنَا حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ اللَّهِ فَيَضَعُ يَدَهُ وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَامًا فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَانَتْهَا تُدْفَعُ فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ بِيَدِهَا ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَانَتْهَا يُدْفَعُ فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذْكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ جَاءَ بِهِذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا فَجَاءَ بِهَذَا الْأَعْرَابِيُّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهَا ».

وعند إغلاق الأبواب لحديث جابر في مسلم (٢٠١٢) قال النبيُّ : « غَطُّوا الْإِنَاءَ، وَأَوْكُوا السَّقَاءَ، وَأَغْلِقُوا الْبَابَ، وَأَطْفِئُوا السَّرَاجَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَحُلُّ سِقَاءً، وَلَا يَفْتَحُ بَابًا، وَلَا يَكْشِفُ إِنَاءً، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُكُمْ إِلَّا أَنْ

يَعْرِضُ عَلَى إِنَائِهِ عُودًا، وَيَذْكُرُ اسْمَ اللَّهِ، فَلْيَفْعَلْ، فَإِنَّ الْفَوَيْسِقَةَ تُضْرِمُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ بَيْتَهُمْ».

وعند النوم كما صحَّ عن النبي : «إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتَ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكَتَ نَفْسِي فَأَرْحَمَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَأَحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»، من حديث أبي هريرة في البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤).

وعند القيام من النوم، قال الرسول : «بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا» من حديث حذيفة عند البخاري (٦٣١٢)، وعن البراء في مسلم (٢٧١١).

وعند الصباح والمساء، لما صحَّ من حديث عثمان بن عفان ، قال النبي : «مَنْ قَالَ بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ، فِي الْأَرْضِ، وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَمْ تُصِبْهُ فَجَاءَةٌ بَلَاءٍ، حَتَّى يُصْبِحَ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَمْ تُصِبْهُ فَجَاءَةٌ بَلَاءٍ حَتَّى يُمْسِيَ»، عند أبي داود (٥٠٨٨)، الترمذي (٣٣٨٨)، ابن ماجه (٣٨٦٩).

وعند العلاج وغير ذلك، لما صحَّ عن النبي أنه كان إذا جاءه الرجل فيه الجرح بلل إصبعه ثم وضعها في التراب ثم وضعها على مكان الألم ثم قال : «بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ»، من حديث أبي سعيد عند مسلم (٢١٨٦)، ومن حديث عثمان بن أبي العاص أنه شكَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَجَعًا يَجِدُهُ

فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ : «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأْلَمُ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ بِاسْمِ اللَّهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ» عند مسلم (٢٢٠٢)، (٣٥٢٢)، وَلَمَّا جَاءَ جِبْرَائِيلُ، أَتَى النَّبِيَّ ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اسْتَكَيْتَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ، أَوْ حَاسِدٍ اللَّهُ يَشْفِيكَ، بِسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ» من حديث أبي سعيد عند ابن ماجه (٣٥٢٣)، ومسنده أحمد (١١٢٢٥).

وعند إرسال الرسل وتوديع الأصحاب والإخوان لما صحَّح عن النبي من حديث بريدة : «اغزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغزُوا وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْتَلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا» مسلم (١٧٣١).

وعند الرمي لما جاء من حديث صهيب ، أَنَّ ذَلِكَ الْغُلَامَ لَمَّا عَجَزَ الْمَلِكُ عَنْ قَتْلِهِ قَالَ: «إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعْ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ» مسلم (٣٠٠٥).

وعند إرسال الكلب المعلم، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤]، وقال

الرسول : «إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ الْمَعْلَمَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ، فَإِنْ أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ، فَإِذَا أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ»، من حديث عدي بن حاتم عند البخاري (١٧٥) ومسلم (١٩٢٩).

وقال: «إِذَا رَمَيْتَ سَهْمَكَ فَأَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ فَإِنْ وَجَدْتَهُ قَدْ قَتَلَ فَكُلْ إِلَّا أَنْ تَجِدَهُ قَدْ وَقَعَ فِي مَاءٍ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي الْمَاءُ قَتَلَهُ أَوْ سَهْمُكَ»، من حديث عدي بن حاتم عند مسلم (١٩٢٩).

ولما نحر النبي أُضْحِيَّتُهُ قال: «مَنْ كَانَ ذَبَحَ أُضْحِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ - أَوْ نُصَلِّيَ -، فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى، وَمَنْ كَانَ لَمْ يَذْبَحْ، فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللَّهِ»، من حديث جندب بن سفيان عند مسلم (١٩٦٠)، وما لم يذكر اسم الله عليه حال التذكية لا يجوز أكله بحال قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨]، وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (١١٨) وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ﴿[الأنعام: ١١٩]﴾.

قال الشوكاني في فتح القدير : نهى الله سبحانه عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، بعد أن أمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه، وفيه دليل على تحريم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه.

وقد اختلف أهل العلم في ذلك، فذهب ابن عمر، ونافع مولاة، والشعبي، وابن سيرين وهو رواية عن مالك وعن أحمد بن حنبل، وبه قال أبو ثور، وداود الظاهري أن ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح حرام من غير فرق بين العامد

والناسي لهذه الآية. ولقوله تعالى في آية الصيد: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤] ويزيد هذا الاستدلال تأكيداً قوله سبحانه في هذه الآية: ﴿وَإِنَّهُ لَفَسْقٌ﴾.

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة، الأمر بالتسمية في الصيد وغيره. وذهب الشافعي وأصحابه، وهو رواية عن مالك، ورواية عن أحمد: أن التسمية مستحبة لا واجبة، وهو مروى عن ابن عباس، وأبي هريرة، وعطاء بن أبي رباح، وحمل الشافعي الآية على من ذبح لغير الله، وهو تخصيص للآية بغير مخصص. وقد روى أبو داود في المرسَل أن النبي قال: «ذَبِيحَةُ الْمُسْلِمِ حَلَالٌ، ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ أَوْ لَمْ يَذْكُرْ» وليس في هذا المرسَل ما يصلح لتخصيص الآية، نعم حديث عائشة أنها قالت للنبي: «إِنْ قَوْمًا يَأْتُونَنَا بِلَحْمَانِ لَا نَدْرِي أَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ أَمْ لَا؟ فَقَالَ: «سَمُّوْا أَنْتُمْ وَكُلُّوْا»^(١) يفيد أن التسمية عند الأكل تجزئ مع التباس وقوعها عند الذبح. وذهب مالك، وأحمد في المشهور عنهما، وأبو حنيفة وأصحابه، وإسحاق بن راهويه، أن التسمية إن تركت نسياناً لم تضر، وإن تركت عمداً لم يحل أكل الذبيحة. وهو مروى عن علي، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعطاء وطاووس، والحسن البصري، وأبي مالك، وعبدالرحمن بن أبي ليلى، وجعفر بن محمد، وربيعة بن أبي عبدالرحمن، واستدلوا بما أخرجه البيهقي عن ابن عباس، عن النبي قال: «الْمُسْلِمُ إِنْ نَسِيَ أَنْ يُسَمِّيَ حِينَ يَذْبَحُ فَلْيَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ وَلْيَأْكُلْهُ» وهذا الحديث رفعه خطأ، وإنما هو من قول ابن عباس. وكذا أخرجه من قوله عبدالرزاق، وسعيد ابن

(١) أخرجه البخاري.

منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر؛ نعم يمكن الاستدلال لهذا المذهب بمثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] كما سبق تقريره، ويقول: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنَّسْيَانُ». وأما حديث أبي هريرة الذي أخرجه ابن عدي أن رجلاً جاء إلى النبي فقال: يا رسول الله، أرايت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى؟ فقال النبي: «اسْمُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» فهو حديث ضعيف، قد ضعفه البيهقي وغيره. انتهى

وعند السقوط والتعثر، فعَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ، فَعَثَرْتُ دَابَّةً، فَقُلْتُ: تَعَسَ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: «لَا تَقُلْ تَعَسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْبَيْتِ، وَيَقُولُ: بِقُوْنِي، وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ»، عند أبي داود (٤٩٨٢)، ومسنده أحمد (٢٠٥٩١).

ولما قطعت إصبع طلحة بن عبيد الله قال: حَسَّ، فقال رَسُولُ اللَّهِ : «لَوْ قُلْتَ: بِسْمِ اللَّهِ لَرَفَعْتُكَ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ»، رواه النسائي (٣١٤٩).

هذه بعض المواطن التي تشرع فيها التسمية، وهناك مواطن أخرى لمن أراد التقصي ونسأل الله العون والسداد، ومنها ما تكون التسمية عليه واجبة ومنها ما تكون مستحبة، على تفصيل في كتب الفقه، والله أعلم.

فوائد تتعلق بالحمدلة

قال المصنف :

«الحمد لله».

لما ابتدأ بالبسملة ثنى بالحمدلة، الحمد: هو الإخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه. قاله ابن القيم في البدائع (٩٣/٢). وهذا أحسن تعريف لها؛ وإلا فإن أكثر العلماء يذهبون في تعريفها إلى أنها: الشاء على الله، وذهب بعضهم إلى أنها شكر الله ، وسيأتي الفرق بينهما إن شاء الله تعالى.

وقال كما في بدائع التفسير (١٢٢/١): نجد تحت هذه الكلمة إثبات كل كمال للرب تعالى فعلاً ووصفاً واسماً، وتنزيهه عن كل سوء وعيب فعلاً ووصفاً واسماً فهو محمود في أفعاله وأوصافه وأسمائه منزّه من العيوب والنقائص في أفعاله وأوصافه وأسمائه. اهـ

كما أن قول: (سبحان الله) يتضمن تنزيه الله عن جميع النقائص والعيوب، ويستلزم إثبات جميع المحامد.

ولعظم هذه الكلمة (الحمد لله) افتتح بها خمس سور من القرآن الفاتحة والأنعام والكهف وسبأ وفاطر.

وكم يجمع الله ورسوله بينهما وبين التسييح لما تقدم بيانه.

وقد قال رسول الله ﷺ كما في حديث أبي مالك الأشعري عند مسلم (٢٢٣): «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

وقال كما في حديث أبي سلام عن مولى رسول الله ﷺ عند أحمد (٤٤٣/٣)، وهو في الصحيح المسند لشيخنا «بَخَّ بَخَّ! لِحَمْسٍ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يَتَوَقَّى فَيَحْتَسِبُهُ وَالِدَاهُ».

ويسمع الله لحامده كما في حديث أبي موسى عند مسلم (٤٠٤) قال النبي ﷺ: «وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ يَسْمَعُ اللَّهُ لَكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ».

وأخرج الإمام مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة في قراءة الفاتحة في الصلاة، وفيه: «فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي».

وهي من أحب الكلام إلى الله، كما في حديث سمرة بن جندب: «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ. لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ» أخرجه مسلم (٢١٣٧).

قال ابن القيم في الصواعق المرسلة (١٢٢٣/٤): فإنه سبحانه يحمد على أفعاله كما حمد نفسه عليها في كتابه وحمده عليها رسله وملائكته والمؤمنون من عباده فمن لا فعل له البتة كيف يحمد على ذلك فالأفعال هي

المقتضية للحمد ولهذا تجده مقروناً بها كقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وكقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]. اهـ

قال السمعاني في تفسير سورة الفاتحة (١ / ٣٦٤): ثم اعلم أن حمد الله تعالى لنفسه حسن لا كحمد المخلوقين لأنفسهم لأن المخلوق لا يخلوا عن نقص فلا يخلوا مدحه نفسه عن كذب فيقبح منه أن يمدح نفسه وأما الله جل جلاله بريء عن النقص والعيب فكان مدحه نفسه حسناً. اهـ

الفرق بين الحمد والشكر:

وقد ذهب ابن جرير إلى أن الحمد لله هو الشكر لله ورد هذا التعريف ابن كثير في تفسيره : فقال: وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر لأنه اشتهر عند كثير من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية والشكر لا يكون إلا على المتعدية ويكون بالجنان واللسان والأركان كما قال الشاعر:

أَفَادَتْكُمْ النِّعْمَاءُ مِنِّْي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

وهذا التعريف الذي ذهب إليه ابن كثير قد رده ابن القيم كما في البدائع (٩٥ / ٢) وبين أن الثناء هو الحمد إذا تكرر فقال:

فإن الإخبار عن المحاسن إما بتكرار أو لا فإن تكرار فهو الثناء وإن لم يتكرر فهو الحمد فالثناء مأخوذ من الثني وهو العطف ورد الشيء بعضه إلى بعض ومنه تثنية الثوب ومنه تثنية الاسم، واستدل على ذلك بحديث أبي هريرة عند الإمام مسلم (٣٩٥): «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمْدِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَتْنِي عَلَى عَبْدِي»؛ لأنه كرر الحمد.

واللام في الحمد للاستغراق أي إستغراق جميع أجناس الحمد وثبوتها لله تعالى تعظيماً وتمجيذاً قاله القاسمي في تفسيره .

وقال القرطبي في التفسير (١/١٧٧): الحمد في كلام العرب، معناه: الثناء الكامل، والألف واللام للإستغراق الجنسي من المحامد؛ فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلاء. اهـ

وكل ما شمله ملكه وقدرته شمله حمده، قاله ابن القيم . اهـ من طريق الهجرتين .

وقد تقدم ذكر بعض الفروق بين الحمد والشكر من حيث أن الشكر أعم آله أي أنه يكون بالقلب خضوعاً واستكانة وباللسان ثناءً واعترافاً وبالجوارح طاعةً وانقياداً بينما الحمد يكون باللسان وبالقلب فقط.

والشكر يكون على الصفات المتعدية فقط، فتقول شكرته على إحسانه وفضله وعدله ولا تقول شكرته على سمعه وبصره وجماله.

بينما الحمد يكون على الصفات المتعدية واللازمة، تقول حمدته على جماله وإحسانه وحمدته على سمعه وبصره. اهتصرف من المدارج (٢/٢٤٦).

قال ابن كثير : واختلفوا أيهما أعم الحمد أم الشكر على قولين والتحقيق أن بينهما عموم وخصوص ثم ذكر بنحو ما تقدم من كلام ابن القيم.

وقد تكلم أهل العلم في هذه الفروق، وأجمعها ما قال ابن القيم في البدائع : فنقول الإخبار عن محاسن الغير له ثلاث اعتبارات:

اعتبار من حيث المخبر به، واعتبار من حيث الإخبار عنه بالخبر، واعتبار من حيث حال المخبر.

فمن حيث الاعتبار الأول ينشأ التقسيم إلى الحمد والمجد، فإن المخبر به إما أن يكون من أوصاف العظمة والجلال والسعة وتوابعها، أو من أوصاف الجمال والإحسان وتوابعها، فإن كان الأول فهو المجد، وإن كان الثاني فهو الحمد، وهذا لأن لفظ (م ج د) في لغتهم يدور على معنى الإتساع والكثرة، فمنه قولهم: أجد الدابة علفاً أي أوسعها علفاً، ومنه مجد الرجل فهو ماجد إذا كثر خيره وإحسانه إلى الناس، قال الشاعر:

أَنْتَ تَكُونُ مَاجِدٌ نَيِّلُ إِذَا تَهَبُّ شَمْلٌ بَلِيلُ

ومنه قولهم في شجر الغار: واستمجد المرخ والعفار، أي كثرت النار فيهما.

ومن حيث اعتبار الخبر نفسه ينشأ التقسيم إلى الثناء والحمد، فإن الخبر عن المحاسن إما متكرر، أو لا، فإن تكرر فهو الثناء، وإن لم يتكرر فهو الحمد، فإن

الثناء مأخوذ من الشئ وهو العطف ورد الشئ بعضه على بعض، ومنه ثنيت الثوب، ومنه التثنية في الاسم فالمثنى مكرر لمحاسن من يثنى عليه مرة بعد مرة.

ومن جهة اعتبار حال المخبر ينشأ التقسيم إلى المدح والحمد، فإن المخبر عن محاسن الغير إما أن يقترن بإخباره حب له وإجلال أو لا، فإن اقترن به الحب فهو الحمد، وإلا فهو المدح، فحصل هذه الأقسام وميزها. اهـ

مسألة: اختلف العلماء أيهما أفضل قول: (الحمد لله رب العالمين) أم قول: (لا إله إلا الله)، فقال بعضهم: (الحمد لله رب العالمين) أفضل؛ لأن في ضمنه التوحيد الذي هو لا إله إلا الله ففي قوله: (توحيد وحمد)، وفي قول لا إله إلا الله توحيد فقط، وقالت طائفة لا إله إلا الله أفضل؛ لأنها تدفع الكفر والإشراك وعليها يقاال الخلق، وهذا القول هو الراجح لعموم أدلة فضل لا إله إلا الله.

وبدأ بالحمد اقتداءً بكتاب الله ، وعملاً بسنة رسول الله حيث كان يفتتح خطبه بالحمد لله كما هو المشهور من خطبة الحاجة ففي حديث عبد الله بن مسعود عند أبي داود (٢١١٨) قال: عَلَّمَنَا رَسُولُ اللَّهِ خُطْبَةَ الْحَاجَةِ: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴿٧٠﴾ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿٧١﴾، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧٢﴾﴾، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٣﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾».

وفي حديث جابر عند مسلم رقم (٨٦٧) قال: كان رسول الله ﷺ يخطب الناس ويحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول: «مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَخَيْرُ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ».

وفي رواية: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بَدْعٍ ضَلَالَةٌ».

وفي حديث ابن عباس عند مسلم (٨٦٨) أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَرْدِ شَنْوَاءَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللَّهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ قَالَ: فَلَقِيَهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ وَإِنَّ اللَّهَ يَشْفِي عَلَى يَدَيَّ مَنْ شَاءَ فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَمَّا بَعْدُ».

والكلام على الحمد ومواطنه يطول، فيا حبذا لو يُفرد بمؤلف مستقل، فهذا اللفظ من أحب الكلام إلى الله ﷻ كما هو معلوم.

وقد اختلف العلماء أيهما أفضل (الحمد لله) أو (لا إله إلا الله) فذهب بعضهم إلى أن الحمد لله أفضل لأنها متضمنة لمعنى لا إله إلا الله ولأن النبي ﷺ صحَّ عنه أنه قال: «وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»، من حديث أبي مالك الأشعري عند مسلم (٢٢٣).

وأحب الكلام إلى الله ﷻ سبحانه الله وبحمده وسبحان الله العظيم، قال الرسول ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى

الرَّحْمَنُ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»، لحديث أبي هريرة عند البخاري (٦٤٠٦)، مسلم (٢٦٩٤)، ولما صحَّ عن النبيِّ أَنَّهُ قَالَ: «بَخَّ بَخَّ، لِحَمْسٍ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فِي حَتْسَبِهِ، وَالِدَاهُ» من حديث أبي سلمى عند أحمد (١٥٦٦٢)، في أحاديث كثيرة والصحيح أن لا إله إلا الله أفضل لما صحَّ عن النبيِّ أَنَّهُ قَالَ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ»، من حديث جابر بن عبد الله عند الترمذي (٣٣٨٣).

والحمد جاء في مواطن:

منها: بعد الصلاة إذ صحَّ عن النبيِّ أَنَّهُ أَمَرَ بِحَمْدِ اللَّهِ من حديث كعبة بن عجرة في مسلم (٥٩٦): «مُعَقَّبَاتٌ لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ - أَوْ فَاعِلُهُنَّ - دُبُرُ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَسْبِيحَةً وَثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَحْمِيدَةً وَأَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ تَكْبِيرَةً».

ومنها: عند النوم لما صحَّ عن النبيِّ من حديث عليٍّ عند البخاري (٣١١٣) ومسلم (٢٧٢٧) واللفظ له، أَنَّ فَاطِمَةَ اشْتَكَتْ مَا تَلَقَّى مِنَ الرَّحَى فِي يَدِهَا وَأَتَى النَّبِيَّ سَبِيٌّ فَأَنْطَلَقَتْ فَلَمْ تَجِدْهُ وَلَقِيَتْ عَائِشَةَ فَأَخْبَرَتْهَا فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ أَخْبَرَتْهُ عَائِشَةُ بِمَجِيءِ فَاطِمَةَ إِلَيْهَا فَجَاءَ النَّبِيُّ إِلَيْنَا وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا فَذَهَبْنَا نَقُومُ فَقَالَ النَّبِيُّ «عَلَى مَكَانِكُمْ»، فَقَعَدَ بَيْنَنَا حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمِهِ عَلَى صَدْرِي ثُمَّ قَالَ «أَلَا أَعْلَمُكُمْ خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَا إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمْ أَنْ تُكَبِّرَا اللَّهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ وَتُسَبِّحَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتَحْمَدَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ خَادِمٍ»، وفي

مسند أحمد (٦٩١٠) من طرق شعبة، عن عطاء بن السائب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: «خصلتان - أو خلتان - لا يحافظ عليهما رجل مسلم إلا دخل الجنة، هما يسير، ومن يعمل بهما قليل، تسبح الله عشراً، وتحمّد الله عشراً، وتكبر الله عشراً في دبر كل صلاة، فذلك مائة وخمسون باللسان، وألف وخمسون مائة في الميزان، وتسبح ثلاثاً وثلاثين، وتحمّد ثلاثاً وثلاثين، وتكبر أربعاً وثلاثين - عطاء لا يدري أيتهن أربع وثلاثون - إذا أخذ مضجعه، فذلك مائة باللسان، وألف في الميزان، فأيتكم يعمل في اليوم ألفين وخمسون مائة سيئة؟»، قالوا: يا رسول الله، كيف هما يسير ومن يعمل بهما قليل؟ قال: «يأتي أحدكم الشيطان إذا فرغ من صلاته، فيذكره حاجة كذا وكذا، فيقوم ولا يقوّمها، فإذا اضطجع يأتيه الشيطان فينومه قبل أن يقوّمها»، فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدهن في يده.

ومنه قبل الدعاء، لما صحّ أن أم سليم، غدت على النبي ﷺ، فقالت: علّمني كلمات أقولهن في صلاتي، فقال: «كبري الله عشراً، وسبحي الله عشراً، وأحمدي عشراً، ثم سلي ما شئت»، من حديث أنس الترمذي (٤٨١)، النسائي (١٢٩٩).

وعند الصباح والمساء، قال الله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧-١٨].

وبعد قراءة القرآن وحضور المجالس، قال الرسول ﷺ: «كلمات لا يتكلم بهن أحد في مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفر بهن عنه، ولا يقوّلن في مجلس

خَيْرٍ وَمَجْلِسٍ ذِكْرٍ إِلَّا خُتِمَ لَهُ مِنْ عَلَيْهِ كَمَا يُخْتَمُ بِالْخَاتَمِ عَلَى الصَّحِيفَةِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»، أبي داود (٤٨٥٧) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ، ومن حديث أبي هريرة عند الترمذي (٣٤٣٣)، وجاء عن عائشة .

وهو من أحب الكلام إلى الله، كما تقدّم قوله : «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر».

وهي من غراس الجنة، كما قال إبراهيم إلى محمد : «أَقْرَى أُمَّتِكَ مِنِّي السَّلَامَ وَأَخْبِرُهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيَعَانُ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ»، من حديث ابن مسعود عند الترمذي (٣٤٦٢)، وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»، من حديث جابر بن عبدالله عند الترمذي (٣٤٦٤)، وجاء من حديث النعمان بن بشير أن النبي قال: «إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللَّهِ التَّسْبِيحَ، وَالتَّهْلِيلَ، وَالتَّحْمِيدَ يَنْعَطِفُنْ حَوْلَ الْعَرْشِ، هُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِي النَّحْلِ، تَذْكُرُ بِصَاحِبِهَا، أَمَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَوْ لَا يَزَالَ لَهُ مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ؟»، ابن ماجه (٣٨٠٩).

وعند ركوب الدابة، فقد صحّ عن النبي قال: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنْ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعَثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ»، من حديث ابن عمر في

مسلم (١٣٤٢)، وقد تقدم في حديث علي أنه قال: الحمد لله حين وضع رجله في الغرز.

وعند الانتهاء من الطعام، قال الرسول : «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرِبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»، من حديث أنس بن مالك عند مسلم (٢٧٤٣)،

وقد حمد الله نفسه في عدة مواطن من القرآن: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ﴾ [الفاتحة: ٢]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، وقال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١]، وقال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ كَرُسُلًا﴾ [فاطر: ١]، وحمد نفسه بعد الانتهاء من القضاء بين العباد حيث قال : ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، أدخل أهل الجنة الجنة بفضلهم وأدخل أهل النار النار بعدله وفي حديث عائشة عند ابن ماجه (٣٨٠٣) وابن عمر عند أبي داود (٥٠٥٨)، قال : «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

وأجمل حديث في الحمد وأتمه حديث أبي هريرة قَالَ: دَعَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَهْلِ قُبَاءِ النَّبِيِّ فَأَنْطَلَقْنَا مَعَهُ، فَلَمَّا طَعِمَ وَغَسَلَ يَدَيْهِ - أَوْ قَالَ: يَدَهُ - قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، مَنْ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنَ أَبْلَانَا الْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مُودَّعٍ وَلَا مُكَافِيٍّ وَلَا مَكْفُورٍ وَلَا مُسْتَعْنَى عَنْهُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَى مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَا مِنَ الْعُرْيِ،

وَهَدَى مِنَ الضَّلَالَةِ وَبَصَّرَ مِنَ الْعَمَايَةِ وَفَضَّلَ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، الْحَمْدُ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» أخرجه الحاكم في المستدرک (١ / ٧٣١).

إلى غير ذلك وإنما هذه إشارات إلى فضل هذه الكلمة، وهي متضمنة
لإثبات كل كمال لله ومستلزمة لنفي جميع النقائص عن الله .

بيان قوله :

(الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِأَهْدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ؛ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا).

قوله: (الذي) اسم موصول عائد على الله وهو بدل منه.

وقوله: (أرسل) الإرسال هو البعث والإطلاق ومنه أرسل الناقة أي أطلقها ومنه إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقوله: (رسوله): أي محمد ، والرسول له شروط:

🕯 **الأول:** أن يكون من بني آدم.

🕯 **الثاني:** أن يكون ذكراً لقول الله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩].

🕯 **الثالث:** أن يكون حُرّاً، فقولنا (ذكر) خرج به الإناث فليس من النساء نبيّة ولا رسولة خلافاً لابن حزم .

وقولنا: (من بني آدم) خرج به الجنّ فليس من الجنّ رسل وإنّما منهم نُذُر قال الله : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٢٩) قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ [الأحقاف: ٢٩-٣٠]، وأمّا قول الله : ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فهو مثل قول الله : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ (١٩) يَنْهَمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ

وَالْمَرْجَاتُ ﴿الرحمن: ١٩-٢٢﴾، وإِنَّمَا يَخْرُجُ اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ مِنَ الْبَحْرِ الْمَالِحِ لَا الْعَذْبَ عَلَى مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ، وَقَوْلُهُ: ﴿يَكْمَعُشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾، أَي رَسُلٌ مِنْ بَعْضِكُمْ وَهُمْ مِنَ الْإِنْسِ.

وقولنا (حرّ) خرج به العبدفليس من العبيد أنبياء لأنّ الرّق فيه قيود والرقيق كالحيوان يُباع ويُشترى ويُورث والنبيّ والأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعاً أحرار، وكانوا يُبعثون من أشرف قومهم كما قال هرقل لأبي سفيان لما سأله عن نسبه، قال: (هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ)، قال هرقل: (فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا) من حديث عبدالله بن عباس عند البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣).

واختلف العلماء في الفرق بين النبيّ والرسول إلى أقوال أصحّها أنّ الرسول من أوحى إليه بشرع وأرسل إلى قوم مخالفين والنبيّ من أوحى إليه بشرع ولم يُرسل إلى قوم مخالفين، وإِنَّمَا هُوَ كَالْمَجْدِّدِ لِرِسَالَةِ الرَّسُولِ الَّذِي قَبْلَهُ، وَذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ النَّبِيَّ مِنْ أَوْحَى إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِتَبْلِيغِهِ وَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِذَا كَانَ عَوَامُ الْمُسْلِمِينَ مَأْمُورِينَ بِذَلِكَ عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ فِي آخِرِ الْكِتَابِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - فَمِنْ بَابِ أَوْلَى الْأَنْبِيَاءِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وقوله: (رسوله) الإضافة هنا للتشريف، والمراد به محمد وسيأتي الكلام على أنواع الإضافات في بابه إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وقوله: (الهدى) هو العلم النافع، قال الله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ

أَلْمُشْرِكُونَ ﴿التوبة: ٣٣﴾، وكان مبعث النبيِّ بخمس آيات من أول سورة اقرأ، قال الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿العلق: ١-٥﴾ وكان إرساله بخمس آيات من أول سورة المدثر، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿المدثر: ١-٥﴾، والعلم النافع هو علم كتاب الله وسنة رسوله .

الْعِلْمُ قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ قَالَ الصَّحَابَةُ لَيْسَ خُلْفٌ فِيهِ والنبيُّ يقول: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»، من حديث معاوية عند البخاري (٧١)، مسلم (١٠٣٧)، وصح عن ابن عباس عند الترمذي (٢٦٤٥)، وعن أبي هريرة عند ابن ماجه (٢٢٠)، ويقول : «إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»، من حديث عثمان عند البخاري (٥٠٢٨)، وفي رواية: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»، البخاري (٥٠٢٧)، ودعا لابن عباس : «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»، البخاري (١٤٣) ومسلم (٢٤٧٧)، والهداية تنقسم إلى أربعة أقسام:

❦ **الأول:** هداية التوفيق وهذه خاصة بالله ، قال الله : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال الله : ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، وقال الله آمراً عباده: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .

❦ **الثاني:** هداية الدلالة والإرشاد وهذه عامة يدخل فيها الأنبياء وغيرهم، قال الله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، أي تدلّ وترشد.

الثالث: وهي هداية إلى الجنة والنار، قال الله: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٢٣]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

الرابع: وهي الهداية العامة التي هي تيسير الناس إلى معاشهم ومكاسبهم بل تيسير جميع المخلوقات لذلك، قال الله: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

والدعاء من أعظم أسباب الهداية بل الله قد افترض علينا أن نقول في كل ركعة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، وكان رسول الله يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى» أخرجه مسلم (٢٧٢١) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وعن علي رضي الله عنه علمه رسول الله أن يقول: «قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالسَّدَادَ» أخرجه مسلم (٢٧٢٥)، وفي حديث الحسن بن علي رضي الله عنه عند الترمذي (٤٦٤): «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ».

وفي مسلم (٧٧٠) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال سألت عائشة أم المؤمنين بأي شيء كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يفتتح صلاته إذا قام من الليل قالت كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللَّهُمَّ رَبِّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ

وَإِسْرَافِيلَ فَاطْرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وقوله: (دين الحق) هو العمل الصالح.

قال شيخ الاسلام في الجواب الصحيح (٣/ ١٠٢): والمسلمون جمعوا
بين العلم النافع والعمل الصالح بين الزكا والذكاء فإن الله أرسل رسوله
باهدى ودين الحق فالهدى يتضمن العلم النافع ودين الحق يتضمن العمل
الصالح ليظهره على الدين كله والظهور يكون بالعلم واللسان ليبين أنه حق
وهدى ويكون باليد والسلاح ليكون منصورا مؤيدا والله أظهره هذا الظهور
فهم أهل الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا غير المغضوب عليهم الذين يعرفون
الحق ولا يعملون به كاليهود ولا الضالين الذين يعملون ويعبدون ويزهدون
بلا علم كالنصارى. اهـ

فالله أرسل رسوله بالعلم النافع وبالعمل الصالح، قال الله :
﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَتَوَصَّوْا بِالْحَقِّ وَتَوَصَّوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ [العصر: ١-٣]، وقال : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا
مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، قال الله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، في ست وخمسين آية قرآن فيها
الله الإيمان بالعمل الصالح كما ذكرها الآجري في شريعته.

وقوله: (ليظهره على الدين كله) ظهور الدين بأمرين:

﴿الْأَوَّلُ﴾: العلم النافع.

﴿الثاني﴾: العمل الصالح. على ما تقدم بيانه.

وقد قال النبيّ : «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ»، من حديث معاوية عند البخاري (٣٦٤١)، مسلم (١٠٣٧) واللفظ له.

وقوله: (الدين) يأتي بمعنى الجزاء مثال قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، ويأتي بمعنى الملة وهو هنا على الملة والطاعة قال الراغب في مفردات القرآن : والدين يقال للطاعة والجزاء واستعير للشرعة، والدين كالملة لكنه يقال اعتباراً بالطاعة والانقياد للشرعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥] أي: طاعة، ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦]. انتهى

وهذا الظهور يكون إلى قرب قيام الساعة، ففي مسلم (٢٩٠٧) عن عائشة قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ كُنْتُ لَأُظَنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] أَنَّ ذَلِكَ تَأَمَّماً، قَالَ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجَعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ».

وقوله: (وكفى بالله شهيداً) قال القرطبي في أحكام القرآن (٢٠) / (٣٢٦): أي كفى الله شهيداً لنبيه ، وشهادته له تبين صحة نبوته بالمعجزات. وقيل: (شهيداً) على ما أرسل به، لأن الكفار أبوا أن يكتبوا: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله. انتهى

ومن أسماء الله تعالى الشهيد، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨]، وقال: ﴿وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَشْءٌ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦] في آيات كثيرات.

قال السعدي (ص: ٩٤٨): (الشهيد) أي: المطلع على جميع الأشياء. سمع جميع الأصوات خفيها وجليها، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليها صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه. انتهى

وللشهادة عدة معان:

منها: الإطلاع، قال الله : ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنُّ شُهَدَائِهِمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

وتأتي بمعنى الإخبار، كما قال ابن عباس : «شَهِدَ عِنْدِي رَجُلٌ مَرَضِيُونَ وَأَرْضَاهُمْ عِنْدِي عُمَرُ» البخاري (٥٨١).

وتأتي بمعنى الحكم، كما قال الله : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف:

[٢٦].

وتأتي بمعنى الحضور، قال الله : ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وتأتي بمعنى الإقرار، قال الله : ﴿شَهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧].

قول المصنف :

«وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

(أشهد) أي أقر وأعترف أنه لا معبود بحق إلا الله، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، وأفرد الشهادة على ما تقدم من عدم الإنابة في هذا الموطن.

هذه الكلمة هي: كلمة الإخلاص، وكلمة التوحيد، والحسنة، والعروة الوثقى، والكلمة الباقية في عقب إبراهيم إلى يوم الدين، التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨]، ولها أسماء غير هذه.

وتتكون من ركنين أساسيين:

الأول: النفي.

الثاني: الإثبات.

وَجُمِعَ بَيْنَ النِّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ؛ لِأَنَّ النِّفْيَ الْمُحْضَرَ عَدَمٌ وَالْعَدَمُ لَيْسَ بِشَيْءٍ
وَالْإِثْبَاتُ وَحْدَهُ لَا يَمْنَعُ الْمِشَارَكَةَ، فَكَانَ الْإِثْبَاتُ بِالنِّفْيِ وَالْإِثْبَاتُ لَمَنْعِ الْمِشَارَكَةِ
وَبَيَانِ اخْتِصَاصِ اللَّهِ بِالْإِلَوهِيَةِ الْحَقَّةِ وَحَصَرِهَا فِيهِ.

وهي أفضل الكلام، لحديث الرسول : «أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ
قِيلِي دُعَاءَ يَوْمَ عَرَفَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»، رواه الطبراني (٨٧٤)،
وكما قال النبي : «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، من حديث جابر بن عبد الله
عند ابن ماجه (٣٨٠٠).

وقد أمر الله بالعلم بها، قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَأَسْتَغْفِرْ لَذُنُوبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

ومن مات وهو يعلمها ويعمل بمقتضاها دخل الجنة، كما في حديث عثمان
عند مسلم (٢٦): «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ».

ومن مات غير شاك بها كان من أهل الجنة، لحديث أبي هريرة وأبي سعيد
في مسلم (٢٧) أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي
رَسُولُ اللَّهِ لَا يَلْقَى اللَّهُ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرُ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، وفي مسلم (٣١)
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كُنَّا قُعُودًا حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ مَعَنَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فِي نَفَرٍ
فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا وَخَشِينَا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا وَفَزِعْنَا
فَقُمْنَا فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزَعَ فَخَرَجْتُ أَبْتَغِي رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى أَتَيْتُ حَائِطًا
لِلْأَنْصَارِ لِبَنِي النَّجَّارِ فَدُرْتُ بِهِ هَلْ أَجِدُ لَهُ أَبَا فَلَمْ أَجِدْ فَإِذَا رِبِيعٌ يَدْخُلُ فِي
جَوْفِ حَائِطٍ مِنْ بئرٍ خَارِجَةٍ - وَالرَّبِيعُ الْجُدُولُ - فَاحْتَفَزْتُ كَمَا يَحْتَفِزُ الثَّعْلُبُ
فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ: «أَبُو هُرَيْرَةَ؟». فَقُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ،

قَالَ: «مَا سَأَلْتُكَ؟». قُلْتُ: كُنْتُ بَيْنَ أَظْهَرِنَا فَقُمْتَ فَأَبْطَأْتَ عَلَيْنَا فَخَشِينَا أَنْ تُقْتَطَعَ دُونَنَا فَفَزَعْنَا فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزَعَ فَأَتَيْتُ هَذَا الْحَائِطَ فَاحْتَفَزْتُ كَمَا يُحْتَفِزُ الثَّعْلُبُ وَهَؤُلَاءِ النَّاسُ وَرَائِي، فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ» وَأَعْطَانِي نَعْلَيْهِ قَالَ: «أَذْهَبْ بِنَعْلَيْ هَاتَيْنِ فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيَقِنًا بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ» فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِيتُ عُمَرُ، فَقَالَ: مَا هَاتَانِ النَّعْلَانِ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ فَقُلْتُ: هَاتَانِ نَعْلَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعَثَنِي بِهِمَا مَنْ لَقِيتُ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيَقِنًا بِهَا قَلْبُهُ بِشَرُّهُ بِالْجَنَّةِ. فَضَرَبَ عُمَرُ بِيَدِهِ بَيْنَ تَدْيِي فَخَرَزْتُ لِاسْتِي فَقَالَ: ارْجِعْ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَجْهَشْتُ بُكَاءً وَرَكِبَنِي عُمَرُ فَإِذَا هُوَ عَلَى أَثَرِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا لَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟» قُلْتُ: لَقِيتُ عُمَرَ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي بَعَثَنِي بِهِ فَضَرَبَ بَيْنَ تَدْيِي ضَرْبَةً خَرَزْتُ لِاسْتِي قَالَ: ارْجِعْ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عُمَرُ، مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ؟». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! أَبْعَثْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ بِنَعْلَيْكَ مَنْ لَقِيَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيَقِنًا بِهَا قَلْبُهُ بِشَرُّهُ بِالْجَنَّةِ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَتَكَلَّ النَّاسُ عَلَيْهَا فَخَلَّاهُمْ يَعْمَلُونَ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَخَلَّاهُمْ».

وفضائلها جليلة وعظيمة ليس هذا موطن بسطها.

وهي أول واجب على العبيد، خلافاً للمعتزلة الذين أوجبوا النظر، ويُرد عليهم بما أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) عَنْ ابْنِ عُمَرَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ

مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ».

وفيها البخاري (١٣٩٩) ومسلم (٢٠) عن أبي هريرة ، قَالَ: لَمَّا تَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، فَقَالَ عُمَرُ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ» فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَنَّا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهَا. قَالَ عُمَرُ: فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ.

وفي مسلم (٢١) عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢].

وفيه (٢٣) عن طارق بن أشيم قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَرَّمَ مَالُهُ وَدَمُّهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ».

وبها يخرج المؤمن من الدنيا، ففي مسلم (٩١٦) عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

وفيه (٩١٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

وهذه الشروط مأخوذة بالتبع والاستقراء، وقد نظمها الشيخ حافظ حكمي بقوله:

الْعِلْمُ وَالْيَقِينُ وَالْقَبُولُ وَالْإِنْقِيَادُ فَادِرُ مَا أَقُولُ
وَالصِّدْقُ وَالْإِخْلَاصُ وَالْمَحَبَّةُ وَفَقَّكَ اللَّهُ لِمَا أَحَبَّه
ونظمها بعضهم بقوله:

عِلْمٌ يَقِينٌ وَإِخْلَاصٌ وَصِدْقٌ مَعَ مَحَبَّةٍ وَإِنْقِيَادٍ وَالْقَبُولُ لَهَا
وأضاف بعضهم شرطاً ثامناً ونظمه بقوله:
وَزَيْدٌ ثَامِنُهَا الْكُفْرَانُ مِنْكَ بِمَا سِوَى الْإِلَهِ مِنَ الْأَوْثَانِ قَدْ أَهْأَا
بيان قوله :

«وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ».

قوله: (وحده) تأكيداً للإثبات وقوله (لا شريك له) تأكيداً للنفي فالله لا شريك له في ملكه ولا شريك له في خلقه ولا شريك له في ربوبيته وإلهيته ولا شريك له في أسمائه وصفاته بل ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١-٢]، وقال : ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال : ﴿وَاللَّهُ كُفَرُ إِلَهٌ وَحِيدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقد تنوع كفر المشركين فبعضهم يجعل لله شريكاً في ملكه وبعضهم يجعل لله شريكاً في خلقه وبعضهم يجعل لله شريكاً في أسمائه وصفاته وكل ذلك نهى الله عنه وبين أن الوقع على خلافه فقال : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١-٢]،

أي الذي تصمد إليه جميع الخلائق، وقال : ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ (٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفُوًا أَحَدٌ ﴿[الإخلاص: ٣-٤]، ليس له كفؤ ولا نظير ولا معين ولا ظهير ، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

بيان قوله :

إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا.

قوله: (إقرارًا به) أي أشهد هذه الشهادة وأنطق بهذه إقرارًا والمراد: إقرار القلب واللسان.

وقوله: (توحيدًا) التوحيد مصدر وحد يوحده. وهو إفراد الله بما يجب له وبُعث النبي وجميع الرسل بالدعوة إلى التوحيد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وصحَّ عن النبي من حديث ابن عباس أن النبي لما بعث معاذًا إلى اليمن قال : «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى»، البخاري (٧٣٧٢).

وفي لفظ: لما أرسل رسول الله معاذًا إلى اليمن قال: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ،

فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ فترُدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»، وفي لفظ: «فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ»، الحديث في البخاري (٧٣٧) ومسلم (١٩).

وفي حديث ابن عمر في مسلم (١٦)، أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسَةٍ، عَلَى أَنْ يُوحَّدَ اللَّهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَالْحَجِّ».

والتوحيد هو إفراد الله بما يجب له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وتوحيد الله تعالى ثلاثة أقسام:

أولاً: توحيد الربوبية:

فأما توحيد الربوبية فهو الإقرار بأن الله وحده هو الخالق للعالم والمدبر له، والمالك، والرازق، إلى غير ذلك من خصائص ربوبيته، ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر.

والإقرار بهذا النوع مركوز في الفطرة لا يكاد ينزع فيه أحد من الأمم كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿[المؤمنون: ٨٤-٨٥].

وهذا في القرآن كثير، ولم ينكر توحيد الربوبية، ويحجد الرب إلا شواذ من المجموعة البشرية تظاهروا بإنكار الرب مع اعترافهم به في الباطن، وإنكارهم له إنما هو من باب المكابرة كما ذكر الله عن فرعون قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقد خاطبه موسى بقوله: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، وهم لم يستندوا إلى حجة في جحودهم، كما قال: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ومن أكبر الشواهد على وحدانية الله آياته الكونية قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَلْقُوتُ﴾ ٣٥ ﴿أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

وقال الشاعر:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

ومن المعلوم أن رسول الله قاتل هذه الأصناف التي كانت تقر بأن الله هو الخالق الرازق المالك المدبر مع أن بعضهم يعبد الأحمجار، وبعضهم الأشجار، وبعضهم الملائكة، وبعضهم الشياطين.

وربما اتخذوهم وسائط ووسائل للقربة إلى الله تعالى فلم ينفعهم ذلك قال الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

فمن أقر بتوحيد الربوبية لزمه الإقرار بتوحيد الألوهية قال الشيخ سليمان بن عبد الله في تيسير العزيز الحميد (١٧): وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الإسلام، بل لا بد أن يأتي مع ذلك بلازمه من توحيد الإلهية؛ لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مقرّون بهذا التوحيد لله وحده قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] الآية، فهم كانوا يعلمون أن جميع ذلك لله وحده ولم يكونوا بذلك مسلمين، بل قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، قال مجاهد: في الآية: إيمانهم بالله قولهم: إن الله خلقنا وبرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره. اهـ

ثانياً: توحيد الألوهية:

وهو أفراد الله بالعبادة.

والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.

وهذا أشمل أنواع التعاريف، فالدين كله داخل في العبادة، فالعبادة المأمور بها تتضمن ثلاثة أركان المحبة والرجاء والخوف، وهذا التوحيد يسمى بتوحيد القصد والطلب، وتوحيد الإرادة، والتوحيد العملي.

وهو الذي دعت إليه جميع الرسل قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ومن أجله خلقت السموات والأرضين والإنس والشیاطین، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاریات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، في آيات كثيرات في هذا الباب.

وهذا التوحيد مبني على إخلاص التآله لله تعالى: وهي عبادته محبة وتعظيمًا ومن العبادة: المحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرغبة، والدعاء لله وحده، ويبني على ذلك إخلاص العبادات كلها ظاهرها، وباطنها لله وحده لا شريك له، لا يجعل فيها شيئاً لغيره لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل فضلاً عن غيرهما، وهذا التوحيد هو الذي تضمنه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وهذا التوحيد هو أول الأمر وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل، وآخرها، وهو معنى قول: (لا إله إلا الله)، فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة، والخشية، والإجلال، والتعظيم، وجميع أنواع العبادة، ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه افترق الناس

إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة، وأشقياء أهل النار... وهذا التوحيد هو أول واجب على المكلف.

وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح، وأبدأ فيه وأعاد، وضرب لذلك الأمثال بحيث إن كل سورة في القرآن فيها الدلالة على هذا التوحيد. وسأذكر من أنواع العبادة ما يكون دلالة إلى ما سواها فمن صرف شيئاً منها لغير الله مما يختص به فقد ناقض معنى لا إله إلا الله، فمنها:

١- المحبة، فمن أشرك بين الله وبين غيره في المحبة التي لا تصلح إلا لله فهو مشرك، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ۝١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝١٦٦ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُ فَنَتَّبِعُ لَهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ۝١٦٧﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

٢- ومنها التوكل، فلا يتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾ [المائدة: ٢٣]، والتوكل على غير الله فيما يقدر عليه شرك أصغر.

٣- ومنها الخوف، فلا يخاف خوف السرِّ إلا من الله، ومعنى خوف السر هو أن يخاف العبد من غير الله تعالى أن يصيبه مكروه بمشيئته وقدرته وإن لم يباشره، فهذا شرك أكبر؛ لأنه اعتقاد للنفع والضرر في غير الله، قال تعالى: ﴿فَإِنِّي فَارَّهَبُونِ ۝٥١﴾ [النحل: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ

لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنَّ يُرِيدُكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ ﴿[يونس: ١٠٧].

٤- ومنها الرجاء، فيما لا يقدر عليه إلا الله، كمن يدعو الأموات، أو غيرهم راجياً حصول مطلوبه من جهتهم، فهذا شرك أكبر قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وقال علي: لا يرجون عبداً إلا ربه.

٥- ومنها الدعاء، فيما لا يقدر عليه إلا الله، سواء كان طلباً للشفاعة أو غيرها من المطالب، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ أَنْوَا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣].

٦- ومنها الصلاة والركوع والسجود، قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحِرْ﴾ [الكوثر: ٢]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

٧- ومنها الذبح، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٢) ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

٨- ومنها النذر، قال تعالى: ﴿يُؤْفُونَ بِالْأَنذَارِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَلْيُؤْفُوا نَذْرَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩].

٩- ومنها الطواف، فلا يطاف إلا ببيت الله ، قال تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

١٠- ومنها التوبة، فلا يتاب إلا لله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

١١- ومنها الاستعاذة، فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١].

١٢- ومنها الاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال الله تعالى: ﴿إِذَا تَسْتَعِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

فمن أشرك بين الله تعالى وبين مخلوق فيما يختص بالخالق تعالى فهو مشرك، وإنما ذكرنا هذه العبادات خاصة؛ لأن عبادة القبور صرفوها للأموات من دون الله تعالى، أو أشركوا بين الله تعالى وبينهم، وإلا فكل نوع من أنواع العبادة، من صرفه لغير الله ، أو أشرك بين الله تعالى وبين غيره فيه فهو مشرك قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

وهذا الشرك في العبادة هو الذي كفر الله به المشركين وأباح دماءهم وأموالهم ونساءهم، وإلا فهم يعلمون أن الله هو الخالق الرازق المدبر ليس له

شريك في ملكه، وإنما كانوا يشركون به في هذه العبادات ونحوها وكانوا يقولون في تلبيتهم: (لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك).

ومن أنواع الشرك المنتشرة في البلاد الإسلامية صرف العبادات للقبور والمقبورين، يقفون بساحاتها فتسكب العبرات وتنزل بها الحاجات، وتتعلق بها القلوب، وترجى في دفع المضرات، وجلب المنافع، وتطلب منها الأرزاق، وتنحرف في ساحاتها الجزور، ويقع عندها من الزور ما الله به عليم.

قال ابن الأمير في تطهير الاعتقاد (٥٠): وقد عرفت من هذا كله أن من اعتقد في شجر أو حجر أو قبر أو ملك أو جني أو حي أو ميت أنه ينفع أو يضر أو أنه يقرب إلى الله أو يشفع عنده في حاجة من حوائج الدنيا، بمجرد التشفع به والتوسل إلى الرب تعالى، إلا ما ورد في حديث فيه مقال، في حق نبينا محمد أو نحو ذلك، فإنه قد أشرك مع الله غيره، واعتقد ما لا يحل اعتقاده، كما اعتقد المشركون في الأوثان، فضلا عما ينذر بهاله وولده لميت أو حي أو يطلب من ذلك الميت ما لا يطلب إلا من الله تعالى من الحاجات، من عافية مريضه أو قدوم غائبه أو نيله لأي مطلب من المطالب، فإن هذا هو الشرك بعينه الذي كان ويكون عليه عباد الأصنام.

والنذر بالمال على الميت ونحوه والنحر على القبر والتوسل به وطلب الحاجات منه هو بعينه الذي كانت تفعله الجاهلية، وإنما كانوا يفعلونه لما يسمونه وثنا وصنما، وفعله القبوريون لما يسمونه وليا وقبرا ومشهدا، والأسماء لا أثر لها ولا تغير المعاني، ضرورة لغوية وعقلية وشرعية، فإن من شرب الخمر

وسماها ماء، ما شرب إلا خمرًا وعقابه عقاب شارب الخمر، ولعله يزيد عقابه للتدليس والكذب في التسمية.

وقد ثبت في الأحاديث أنه يأتي قوم يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها، وصدق فإنه قد أتى طوائف من الفسقة يشربون الخمر ويسمونها نبيذاً، وأول من سمى ما فيه غضب الله وعصيانه بالأسماء المحبوبة عند السامعين إبليس لعنه الله، فإنه قال لأبي البشر: ﴿يَتَّكِدُمْ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]، فسمى الشجرة التي نهى الله آدم عن قربانها شجرة الخلد، جذبا لطبعه إليها وهزا لنشاطه لقربانها وتدليسا عليه بالاسم الذي اخترعه، كما يسمي إخوانه المقلدون له الحشيشة بلقمة الراحة، وكما يسمي الظلمة ما يقبضونه من أموال عباد الله ظلما وعدوانا أدبا، فيقولون أدب القتل وأدب السرقة وأدب التهمة، بتحريف اسم الظلم إلى اسم الأدب، كما يحرفونه في بعض المقبوضات إلى اسم (النفاة) وفي بعضها إلى اسم (السياقة) وفي بعضها أدب المكايل والموازين.

وكل ذلك اسمه عند الله ظلم وعدوان، كما يعرفه من شم رائحة الكتاب والسنة، وكل ذلك مأخوذ عن إبليس حيث سمى الشجرة المنهي عنها شجرة الخلد.

وكذلك تسمية القبر مشهدا ومن يعتقدون فيه وليا لا تخرجه عن اسم الصنم والوثن، إذ هم معاملون لها معاملة المشركين للأصنام ويطوفون بها طواف الحجاج ببيت الله الحرام ويستلمونها استلامهم لأركان البيت ويخاطبون

الميت بالكلمات الكفرية، من قولهم: على الله وعليك، ويهتفون بأسمائهم عند الشدائد ونحوها.

وكل قوم لهم رجل ينادونه، فأهل العراق والهند يدعون عبدالقادر الجيلاني، وأهل التهائم لهم في كل بلد ميت يهتفون باسمه، يقولون: (يا زيلعي، يا ابن العجيل). وأهل مكة وأهل الطائف: (يا ابن العباس). وأهل مصر: (يا رفاعي، يا بدوي)، والسادة البكرية وأهل الجبال: (يا أبا طير). وأهل اليمن: (يا ابن علوان).

وفي كل قرية أموات يهتفون بهم وينادونهم ويرجونهم لجلب الخير ودفع الضر، وهذا هو بعينه فعل المشركين في الأصنام، كما قلنا في الأبيات النجدية:

أَعَادُوا بِهَا مَعْنَى سُوعٍ وَمَثَلِهِ يَغُوثَ وَوَدَّ بِئْسَ ذَلِكَ مِنْ وَدٍّ
وَقَدْ هَتَفُوا عِنْدَ الشَّدَائِدِ بِأَسْمِهَا كَمَا يَهْتَفُ الْمُضْطَرُّ بِالصَّمدِ الْفَرْدِ
وَكَمْ نَحَرُوا فِي سُوحِهَا مِنْ نَحِيرَةٍ أَهَلَّتْ لِغَيْرِ اللَّهِ جَهْرًا عَلَى عَمْدِ
وَكَمْ طَائِفٍ حَوْلَ الْقُبُورِ مُقْبِلًا وَيَسْتَلِمُ الْأَرْكَانَ مِنْهُمْ بِالْأَيْدِ

إلى غير ذلك من الشرك بالله العظيم، نسأل الله السلامة، وحسن الخاتمة.

ثالثًا: توحيد الأسماء والصفات:

وهو الإقرار والإيمان بما سمى ووصف الله به نفسه في كتابه وبما سماه ووصفه به رسوله ، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكيف، ولا تمثيل، وسيأتي الكثير من ذلك ضمن هذا الكتاب بما يشفي ويكفي إن شاء الله .

قال الشيخ سليمان في تيسير العزيز الحميد (١٩): وهذا أيضًا لا يكفي في حصول الإسلام، بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمه من توحيد الربوبية، والإلهية، والكفار يقرون بجنس هذا النوع، وإن كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك إما جهلاً، وإما عنادًا كما قالوا: لا نعرف الرحمن إلا رحمن الياومة، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠]، قال الحافظ ابن كثير: والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود، وعناد وتعنت في كفرهم، فإنه قد وجد في بعض أشعار الجاهلية تسمية الله بالرحمن قال الشاعر:

(وَمَا يَشَأُ الرَّحْمَنُ يَعْقِدُ وَيُطْلِقُ)

وقال الآخر:

(أَلَا قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا)

وهما جاهليان.

وقال زهير:

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفْسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللَّهُ يَعْلَمِ

قلت: ولم يعرف عنهم إنكار شيء من هذا التوحيد إلا في اسم الرحمن خاصة، ولو كانوا ينكرونه لردوا على النبي ذلك كما ردوا عليه توحيد الآلهية، فقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، لا سيما والسور المكية مملوءة بهذا التوحيد. اهـ

وأهل البدع يشمئزون من ذكر التوحيد ومن الدعوة إلى التوحيد ومن التصريح بالتوحيد بل إن أعظم نُظَّارهم لا يعرف الفوارق بين توحيد الإلهية

وتوحيد الربوبية ويظنّهما واحدة وقد ألّف عبدالمجيد الزنداني كتاب (توحيد الخالق) ذهب فيه إلى تقرير توحيد الربوبية الذي أقرّ به اليهود والنصارى والمشركون بل هو نهاية قول المجوس فكلّهم يُقرّون بأنّ الله هو الخالق الرازق المالك المدبّر وإنّما وقعت منهم المخالفة أكثر في توحيد الإلهوية.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَزِيدًا.

فَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ سَلَامَةَ بْنِ وَفْشٍ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ، قَالَ: كَانَ لَنَا جَارٌ مِنْ يَهُودٍ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ بَيْسِيرٍ، فَوَقَفَ عَلَى مَجْلِسِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ سَلَمَةُ: وَأَنَا يَوْمَئِذٍ أَحَدُ مَنْ فِيهِ سِنًا، عَلَيَّ بُرْدَةٌ، مُضْطَجِعًا فِيهَا بِفَنَاءِ أَهْلِي، فَذَكَرَ الْبَعْثَ وَالْقِيَامَةَ وَالْحِسَابَ، وَالْمِيزَانَ، وَالْجَنَّةَ، وَالنَّارَ فَقَالَ: ذَلِكَ لِقَوْمٍ أَهْلٍ شَرِكٍ، أَصْحَابِ أَوْثَانٍ، لَا يَرَوْنَ أَنَّ بَعَثًا كَائِنٌ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَقَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ يَا فَلَانُ تَرَى هَذَا كَائِنًا؟ إِنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَى دَارٍ فِيهَا جَنَّةٌ، وَنَارٌ يُجْزَوْنَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ، قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي يُخْلَفُ بِهِ لَوْ أَنَّ لَهُ بِحَظِّهِ مِنْ تِلْكَ النَّارِ أَعْظَمَ تَنُورٍ فِي الدُّنْيَا، يُحْمَوْنَهُ ثُمَّ يُدْخِلُونَهُ إِيَّاهُ فَيُطَبَّقُ بِهِ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ النَّارِ غَدًا، قَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَبِيٌّ يُبْعَثُ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ مَكَّةَ، وَالْيَمَنِ، قَالُوا: وَمَتَى تَرَاهُ؟ قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيَّ وَأَنَا مِنْ أَحَدِهِمْ سِنًا، فَقَالَ: إِنْ يَسْتَنْفِذَ هَذَا الْغُلَامُ عُمُرَهُ يُدْرِكُهُ، قَالَ سَلَمَةُ: فَوَاللَّهِ مَا ذَهَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ، وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَأَمَّنَّا بِهِ وَكَفَرْنَا بِهِ بَغْيًا وَحَسَدًا، فَقُلْنَا: وَيْلَكَ يَا فَلَانُ أَلَسْتَ بِالَّذِي قُلْتَ لَنَا فِيهِ مَا قُلْتَ؟ قَالَ: بَلَى. وَلَيْسَ بِهِ.

وعند ابن حبان (٦٥٨٠) عَنِ الْفَلْتَانِ بْنِ عَاصِمٍ قَالَ: كُنَّا قُعودًا مَعَ النَّبِيِّ فِي الْمَسْجِدِ، فَشَخَصَ بَصَرَهُ إِلَى رَجُلٍ يَمْشِي فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: «يَا فَلَانُ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «أَتَقْرَأُ التَّوْرَةَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «وَالْإِنْجِيلَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «وَالْقُرْآنَ؟» قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَشَاءَ لَقَرَأْتُهُ، قَالَ: ثُمَّ أُنْشِدَهُ، فَقَالَ: «تَجِدُنِي فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ؟» قَالَ: نَجِدُ مِثْلَكَ، وَمِثْلَ أُمَّتِكَ، وَمِثْلَ مُحَرِّجِكَ، وَكُنَّا نَرْجُو أَنْ تَكُونَ فِينَا، فَلَمَّا خَرَجْتَ نَحْوَفْنَا أَنْ

تَكُونُ أَنْتَ، فَنَظَرْنَا فَإِذَا لَيْسَ أَنْتَ هُوَ، قَالَ: «وَلَمْ ذَاكَ؟» قَالَ: إِنَّ مَعَهُ مِنْ أُمَّتِهِ سَبْعِينَ أَلْفًا، لَيْسَ عَلَيْهِمْ حِسَابٌ، وَلَا عِقَابٌ، وَإِنْ مَا مَعَكَ نَقَرٌ يَسِيرٌ، قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنَا هُوَ، وَإِنَّمَا لَأُمْتِي، وَإِنَّهُمْ لَأَكْثَرُ مِنْ سَبْعِينَ أَلْفًا وَسَبْعِينَ أَلْفًا وَسَبْعِينَ أَلْفًا».

ومن الإيمان به أن تؤمن أنه خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فمن اعتقد أن بعد النبي نبي أو رسول فقد كفر، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، أي وآخرهم، ليس كما يقول القاديانية ومن إليهم من الكفرة والزنادقة أن المراد بخاتم النبيين زينة النبيين، ففي الحديث قال النبي: «مِثْلِي وَمِثْلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمِثْلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبَنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٥٣٥)، مسلم (٢٢٨٦)، وفي بعض الروايات: «لَا نَبِيَّ بَعْدِي وَلَا رَسُولَ»، فمن ادعى أن بعد النبي رسولاً أو نبياً فقد كفر.

ومن الإيمان بالنبي الإيمان بأنه رسول الله إلى الناس كافة، قال الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبا: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقد جاء في حديث جابر وأبي هريرة وغيرهم أن النبي قال: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّغْبِ، وَأُحِلَّتْ

لِي الْغَنَائِمِ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ» مسلم (٥٢٣)، وَعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ». وَذَكَرَ خَصْلَةً أُخْرَى. وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ : «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة ، ومن العجب أنها قد ظهرت طائفة من القوميين العرب والنصارى يزعمون أن الرسول رسول إلى العرب فقط وهذا الاعتقاد فيهم كفر وإن أقروا بنبوته ورسالته فإن حصرها على العرب وحدهم كفر وزندقة، وردُّ للقرآن، والسنة، فإنَّ النبيَّ قد أُرسل إلى قيصر وكسرى وإلى النجاشي والمقوقس وأُرسل إلى صاحب البحرين يدعوهم إلى الإسلام ويدلُّ على ذلك أن كثيرًا من النصارى قد أقروا بنبوته ورسالته فأقرَّ بها النجاشي وأسلم وأقرَّ بها هرقل وأبى الإسلام بسبب الملك، وأقرَّ بها ورقة بن نوفل وأسلم على الصحيح نقول هذا لأنَّ كثيرًا من الناس قد جهلوا معنى الإيمان بالرسول ، ومن الإيمان بالرسول طاعته فيما أمر قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢] وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢] والانتهاه عما نهى عنه وزجر قال تعالى: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [النور: ٦٣] وتصديقه فيما أخبر قال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿[الأعراف: ١٥٨] وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقوله: (عبده) ردُّ على الصوفيَّة الذين يصرفون له الكثير من العبادات من دون الله فيذبحون له ويرجون له ويتوكلون عليه ويسألونه الشفاعة إلى غير ذلك حتى قال بعضهم:

يَا مُحَمَّدُ كُنْ حَيِّي يَا مُحَمَّدُ كُنْ طَيِّبِي
وَأَجِرْنِي مِنْ هَيْبِي إِنَّ أَوْزَارِي ثَقَالُ

مع أن الله يقول مخبراً عن إبراهيم : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، والنبِّيُّ هو القائل: «أَذْهَبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءٌ لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»، من حديث عائشة عند مسلم (٢١٩١)، وابن ماجه (١٦١٩)، وأحمد (٥٦٥)، يدعو النبيُّ أن يكفر ذنوبه وأن يُنَجِّيه من النَّار. وهو القائل فيما أخبر الله عنه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]. ولما قالت المرأة:

(وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَعْلَمُ مَا فِي غَدِ)

قال: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أُطْرِيَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» من حديث عمر عند البخاري (٣٤٤٥).

بل قد غلو في مولده حتى جعلوه أفضل من ليلة القدر حتى قال بعضهم:
صِفْ لَيْلَةَ الْمَوْلِدِ وَصِفَا حَسَنًا مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ سِوَاهَا عِنْدَنَا
وقد وصف الله نبيه بالعبودية في أشرف المواطن: كالإسراء، فقال:
﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، والمعراج، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وعند الامتنان بإنزال الكتاب، قال تعالى:
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، وقال: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١].

وقوله: (ورسوله) فيه ردٌّ على زنادقة الفلاسفة ومن إليهم من الباطنية الذين هم أكفر من اليهود والنصارى ممن يزعمون أن محمداً ما هو إلا رجلٌ ذكِّي استطاع أن يُجَيِّلَ للناس تحيَّلات فجمعهم على دينه فخرج في بيئة عربية يُحِبُّون النساء وأخبرهم أن في الجنة غانيات، فيها من النساء ما تعجز الألسن عن وصفهنَّ حتَّى إنَّ إحداهنَّ لَيُنْظَرُ إلى مخِّ ساقِها ولَمَّا كانوا يُحِبُّون الخمر أخبرهم أن في الجنة نهرًا من الخمر ولَمَّا كانوا يُحِبُّون العسل أخبرهم أن في الجنة نهرًا من العسل، وهكذا أنهار من لبن ولَمَّا كانوا يسكنون الخيام أخبرهم أن في الجنة خيمة من لؤلؤة واحدة مجوَّفة طولها في السماء ستون ميلاً ويُحِبُّون القصور ويُحِبُّون الطيور وهكذا جعل يُجَيِّلُ لهم فخوفهم بالنار وطمعهم في الجنة ويقولون ليس هناك ملائكة ولا جنٌّ وإنما هي قوى خيرٍ وشرٍّ.

ولفظ الرسول يُشعر بأن هنالك مُرسل وهو الله وقد خير الله نبيه بين أن يكون عبداً رسولاً أو ملك رسول فاختار أن يكون عبداً رسولاً، كما صحَّ عن النبي من حديث أبي هريرة عند أحمد (٧١٦٠)، قَالَ: جَلَسَ جَبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ، فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ جَبْرِيلُ: «إِنَّ هَذَا الْمَلَكُ مَا نَزَلَ مُنْذُ يَوْمِ خُلِقَ، قَبْلَ السَّاعَةِ»، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: «يَا مُحَمَّدُ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ، أَفَمَلِكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ، أَوْ عَبْدًا رَسُولًا؟ قَالَ جَبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ. قَالَ: بَلْ عَبْدًا رَسُولًا».

وقوله: (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ) الصلاة من الله ذكره له في الملاء الأعلى والصلاة من الخلق الدعاء، قال الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، أي: ادع لهم وقال النبي لما جاء عبدالله بن أبي أوفى بالصدقة: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى»، من حديث عبدالله بن أبي أوفى عند البخاري (١٤٩٧)، مسلم (١٠٨٧)، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وفضل الصلاة على النبي عظيم ففي مسلم عن أبي هريرة (٤٠٨)، قال النبي: «مَنْ صَلَّى عَلَى وَاحِدَةٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا»، وعن كعب بن عجرة قال: أَلَا أَهْدِي لَكَ هَدِيَّةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ فَقُلْتُ بَلَى فَأَهْدِيهَا لِي، فَقَالَ: سَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ؟ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ عَلَّمَنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ، قَالَ: قُولُوا: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى

إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»، رواه البخاري (٣٣٧٠) ومسلم (٤٠٦)، والصلاة خاصة بالنبي على ما بيّته في شرح السنة للبرهاري

وقوله: (وعلى آله) الآل يُطلق ويُراد به أهل الرجل ويُطلق ويُراد به أتباعه وقد اختلف العلماء في الآل هنا هل هم أتباع محمد أم هم آل بيته؟ فذهب بعض أهل العلم إلى أنهم آل بيته الذين حُرِّموا الصدقة وهم آل علي وآل جعفر وآل العباس وآل عقيل كما في حديث زيد بن أرقم عند مسلم (٢٤٠٨)، قال عندما سأله حُصَيْنٌ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ؟ يَا زَيْدُ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حُرِّمَ الصَّدَقَةُ بَعْدَهُ، قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ آلُ عَلِيٍّ وَآلُ عَقِيلٍ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ عَبَّاسٍ قَالَ: كُلُّ هَؤُلَاءِ حُرِّمَ الصَّدَقَةُ؟ قَالَ: نَعَمْ.

ومولى القوم منهم فيشمل تحريم الصدقة على مواليتهم وعلى نسائهم كما في حديث أنس عند البخاري (٦٨٦١)، أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ: «مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ».

والقول الثاني: أَنَّ آل الرجل هم أتباعه وهذا القول أيضًا صحيحٌ وعليه أدلته وهو اختيار كثير من أهل العلم، حتّى قال نشوان الحميري:

أَلِ النَّبِيِّ هُمْ أَتْبَاعُ مِلَّتِهِ مِنَ الْأَعَاجِمِ وَالسُّودَانِ وَالْعَرَبِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ أَلُهُ إِلَّا قَرَابَتُهُ صَلَّى الْمُصَلِّي عَلَى الطَّاعِي أَبِي هَبٍ

وبعض أهل العلم يُفصّل ويقول إذا ذكر الآل والصحب فالمراد بالآل من حُرْم الصدقة والمراد بالصحب من لقي النبي مؤمنًا به ومات على ذلك ولو تخلّلت ردّة على الصحيح وهذا هو أحسن التعاريف في الصحابي.

وقوله: (وسلّم تسليماً مزيداً) هو دعاء بالسلامة وينبغي أن يُقرن بين الصلاة والسلام لأنّ الله أمر بهما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

بيان قوله :

أمّا بعد.

كلمة يؤتى بها للفصل بين الحمد والثناء في الخطبة وبين ما بعدها وغالبًا ما يؤتى بعدها بـ(الفاء)، وتقدير الجملة ومهما ما يكن من شيء بعد فإنّه كذا وقد اختلفوا في أول من قالها، فقال بعض العلماء هي فصل الخطاب الذي أوتيّه داود في قوله الله : ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، وقال بعضهم أول من قالها القس ابن ساعدة وقيل غير ذلك والذي يهمنّا أنّ النبي كان يقولها في خطبه ومواعظه وبوّب البخاري في صحيحه (باب قول الخطيب أمّا بعد) واستدلّ بحديث أبي أسيد الساعدي قَالَ: اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ رَجُلًا عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ، يُدْعَى ابْنُ اللَّثْبِيَّةِ، فَلَمَّا جَاءَ حَاسِبُهُ، قَالَ: هَذَا مَا لَكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ، حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا» ثُمَّ خَطَبَنَا، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ». رواه البخاري (٦٩٧٩) ومسلم (١٨٣٢).

وهكذا من حديث جابر عند مسلم (٨٦٧)، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ، وَيَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَيَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»، ثُمَّ يَقُولُ: «أَنَا أَوَّلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلَأَهْلِهِ وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِيَاعًا فَلِإِيٍّ وَعَلَى».

بيان قوله :

فَهَذَا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

قوله: (فَهَذَا).

اسم إشارة يشير إلى ما في هذا الكتاب، من العقائد السلفية فهذا الذي سأذكره لكم في هذا الكتاب هو اعتقاد الفرقة الناجية.

قوله: (اعْتِقَادُ). مصدر اعتقد وأصله من (عقد الحبل) ثم استخدم في الاعتقاد الجازم.

قوله: (الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ الْمَنْصُورَةُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ).

هذه أوصاف أهل السنة والجماعة فمن أسمائهم الفرقة -بكسر الفاء- الناجية، ناجون من البدع وناجون من النار إن شاء الله لحديث النبي : «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فِإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ

فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «الْجَمَاعَةُ»،
 من حديث عوف بن مالك عند ابن ماجه (٣٩٩٢)، وجاء عن معاوية
 وله طرق يصحح بها.

فالفرقة يراد بها الطائفة قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]، والفرقة بالضم المراد بهم أهل البدع، فهم أهل
 الفرقة والاختلاف ولا يكون الاعتقاد حقاً إلا أن يكون موافقاً لاعتقاد هذه
 الفرقة.

وهم السواد الأعظم فعن سَعِيدُ بْنُ جُهْمَانَ قَالَ: أَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى
 وَهُوَ مَحْجُوبُ الْبَصَرِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، قَالَ لِي: مَنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا سَعِيدُ بْنُ
 جُهْمَانَ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ وَالِدُكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: قَتَلْتُهُ الْأَزَارِقَةَ، قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ
 الْأَزَارِقَةَ، لَعَنَ اللَّهُ الْأَزَارِقَةَ، حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ : «أَنْتُمْ كِلَابُ النَّارِ»، قَالَ:
 قُلْتُ: الْأَزَارِقَةُ وَحَدَهُمْ أَمْ الْحَوَارِجُ كُلُّهَا؟ قَالَ: (بَلِ الْحَوَارِجُ كُلُّهَا). قَالَ:
 قُلْتُ: فَإِنَّ السُّلْطَانَ يَظْلِمُ النَّاسَ، وَيَفْعَلُ بِهِمْ، قَالَ: فَتَنَاوَلْ يَدِي فَعَمَزَهَا بِيَدِهِ
 غَمَزَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ قَالَ: (وَيْحَكَ يَا ابْنَ جُهْمَانَ عَلَيْكَ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ، عَلَيْكَ
 بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ إِنْ كَانَ السُّلْطَانُ يَسْمَعُ مِنْكَ، فَأْتِهِ فِي بَيْتِهِ، فَأَخْبِرْهُ بِمَا تَعْلَمُ،
 فَإِنْ قَبِلَ مِنْكَ، وَإِلَّا فَدَعُهُ، فَإِنَّكَ لَسْتَ بِأَعْلَمَ مِنْهُ). أخرجه أحمد (١٩٤١٥).

وهم الجماعة ووصفهم النبي أن الذين يُطيعهم أقل ممن يعصيههم وهم
 نزاع من القبائل يصلحون إذا فسد الناس.

وقوله: (المنصورة) يدلّ عليها حديث معاوية في مسلم (١٠٣٧)، قال النبيّ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ»، وفي بعض الروايات (منصورة)، وأخرج مسلم (١٩٢٠) عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ».

قوله: «لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ». المخالف لهذه الطائفة هم أهل البدع ومن إليهم سواء البدع المَكْفُرَة أو المفسّقة ويدخل فيهم جميع المخالفين من اليهود والنصارى وغيرهم فهذا وعد رسول الله المبلّغ عن الله الذي لا خُلف له، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، فما زال أهل السنّة والحمد لله ظاهرون قاهرون لغيرهم مع كثرة المخالفين، بهم حفظ الله الدين وبه رُفِعوا، فالحمد لله ربّ العالمين.

وقوله: «وَلَا مِنْ خَذَلَهُمْ» إشارة إلى أنّ التخذيل قد يقع عليهم من داخل الصفّ السلفي، ومع ذلك هم منصورون.

تنبيه: السرورية ومن إليهم يُفَرِّقون بين الفرقة الناجية والطائفة المنصورة فعندهم أهل السنّة السلفيون هم الطائفة الناجية والنصر حليف الإخوان المسلمين والسروريين والجهاديين على حدّ تعبيرهم واصطلاحهم الذي صار عليه مثل سفر الحوالي وسلمان العودة ومن إليهم والصحيح أنّ الفرقة الناجية والطائفة المنصورة وأهل السنّة والجماعة وأهل الحديث وأهل الأثر كلّها أسماء لمسمّى واحد وهم أهل السنّة والجماعة أتباع النبيّ .

وفي البخاري (٣٦٤٠) ومسلم (١٩٢١) عَنِ الْمُغِيرَةِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «لَنْ يَزَالَ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ»، وفي صحيح مسلم (١٥٦) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، قَالَ: «فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تُكْرِمُهُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ» وقد مر معنا أَنَّ سبب ظهور هذه الطائفة هو العلم والعمل، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]، وهذه الطائفة المنصورة، الفرقة الناجية تُسَمَّى بأهل الحديث نسبة إلى حديث النبي حيث يتعبّدون لله به ويُسمّون بأهل السنّة نسبة إلى سنّة النبي كما أشار ويُسمّون بالجماعة نسبة إلى اجتماعهم على الحقّ والأخذ بما كان عليه الجماعة وهم الصحابة رضوان الله عليهم ويُسمّون بالسلفين نسبة إلى السلف الصالح رضوان الله عليهم والسلف إذا أُطلق يدخل فيه الصحابة ابتداءً وذروتهم هو النبي ودليلها قوله : «فَإِنِّي نِعَمَ السَّلَفُ أَنَا لَكَ»، من حديث عائشة في البخاري (٦٢٨٥) ومسلم (٢٤٥٠)، وضدّ السلف الخلف وتأتي الخلف على المدح والذمّ فإذا قيل وهذه طريقة السلف والخلف فالمراد بالسلف المتقدّم والخلف المتأخّر من أهل السنّة الذين ساروا على سيرهم وإذا قيل هذا اعتقاد السلف الصالح وخالفهم الخلف فيكون المراد بالخلف أهل البدع لكن إذا كانت بالتسكين الخلف فلا يكون إلّا على الذمّ قال تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

قوله : «إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ» المراد به قرب قيام الساعة، قلنا ذلك لأن النبي يقول كما في حديث أنس عند مسلم (١٤٨) : «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ اللَّهُ اللَّهُ»، وفي مسلم (١٩٢٤) عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ الْمُهْرِيِّ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ مَسْلَمَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شَرَارِ الْخَلْقِ، هُمْ شَرٌّ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَدْعُونَ اللَّهَ بِشَيْءٍ إِلَّا رَدَّهُ عَلَيْهِمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، فَقَالَ لَهُ مَسْلَمَةُ: يَا عُقْبَةُ، اسْمَعْ مَا يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ، فَقَالَ عُقْبَةُ: هُوَ أَعْلَمُ، وَأَمَّا أَنَا فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ، يَقُولُ: «لَا تَزَالُ عَصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَجَلٌ، «ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا كَرِيحِ الْمُسْكِ مَسُّهَا مِنَ الْحَرِيرِ، فَلَا تَتْرُكُ نَفْسًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا قَبَضَتْهُ، ثُمَّ يَبْقَى شَرَارُ النَّاسِ عَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ»، وقال الرسول : «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ رِيحًا مِنَ الْيَمَنِ أَلَيْنَ مِنَ الْحَرِيرِ، فَلَا تَدْعُ أَحَدًا فِي قَلْبِهِ - قَالَ أَبُو عَلْقَمَةَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ، وَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ: مِثْقَالَ ذَرَّةٍ - مِنْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ»، من حديث أبي هريرة عند مسلم (١١٧)، فإذا جاءت الآيات العظام قبض الله المؤمنين ويرفع الله القرآن من المصاحف ومن صدور الرجال، قال النبي : «يُدرَسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يُدرَسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدرَى مَا صِيَامٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا نُسْكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ. وَلَيْسَرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ فِي لَيْلَةٍ فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ»، من حديث حذيفة بن اليمان عند ابن ماجه (٤٠٤٩).

قوله: (أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ). بدل من الفرقة، والسنة هي الطريقة، والمراد بها هنا طريقة رسول الله .

وقد اختلف الناس في معنى الجماعة على خمسة أقوال:

أحدها: إنها السواد الأعظم من أهل الإسلام، وهو الذي يدل عليه كلام أبي غالب: إن السواد الأعظم هم الناجون من الفرق، فما كانوا عليه من أمر دينهم فهو الحق، ومن خالفهم مات ميتة جاهلية، سواء خالفهم في شيء من الشريعة، أو في إمامهم وسلطانهم فهو مخالف للحق.

ومن قال بهذا أبو مسعود الأنصاري وابن مسعود، فروى أنه لما قتل عثمان سئل أبو مسعود الأنصاري عن الفتنة فقال: عليك بالجماعة، فإن الله لم يكن ليجمع أمة محمد على ضلالة، واصبر حتى تستريح أو يستراح من فاجر. وقال: إياك والفرقة، فإن الفرقة هي الضلالة.

وقال ابن مسعود: بالسمع والطاعة فإنها حبل الله الذي أمر به، ثم قبض يده، وقال: إن الذي تكرهون في الجماعة خير من الذين تحبون في الفرقة.

وعن الحسين قيل له: أبوبكر خليفة رسول الله ؟ فقال: أي والذي لا إله إلا هو، ما كان الله ليجمع أمة محمد على ضلالة.

فعلى هذا القول يدخل في الجماعة مجتهدو الأمة وعلمائها وأهل الشريعة العاملون بها، ومن سواهم داخلون في حكمهم؛ لأنهم تابعون لهم ومقتدون بهم، فكل من خرج عن جماعتهم فهم الذين شذوا، وهم نهبه الشيطان، ويدخل

في هؤلاء جميع أهل البدع؛ لأنهم مخالفون لمن تقدم من الأمة لم يدخلوا في سوادهم بحال.

والثاني: إنها جماعة أئمة العلماء المجتهدين، فمن خرج مما عليه علماء الأمة مات ميتة جاهلية؛ لأن جماعة الله العلماء جعلهم الله حجة على العالمين، وهم المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ لَنَ يَجْمَعَ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ» عن عبدالله بن عباس أخرجه الحاكم (١/١١٦). وذلك أن العامة عنها تأخذ دينها، وإليها تفزع من النوازل، وهي تبع لها، فمعنى قوله: (لن تجتمع أمتي) لن يجتمع علماء أمتي على ضلالة.

ومن قال بهذا عبدالله بن المبارك وإسحاق بن راهوية وجماعة من السلف، وهو رأي الأصوليين، فقليل لعبدالله بن المبارك: من الجماعة الذين ينبغي أن يقتدي بهم؟ قال: أبوبكر وعمر فلم يزل يحسب حتى انتهى إلى محمد بن ثابت والحسين بن واقد فقليل: هؤلاء ماتوا: فمن الأحياء؟ قال: أبو حمزة السكري.

وعن المسيب بن رافع قال: كانوا إذ جاءهم شيء من القضاء ليس في كتاب الله ولا سنة رسول الله سموه صوافي الأمراء، فجمعوا له أهل العلم، فما أجمع رأيهم عليه فهو الحق، وعن إسحاق بن راهوية نحو مما قال ابن المبارك.

والثالث: إن الجماعة هي الصحابة على الخصوص فإنهم الذين أقاموا عماد الدين وأرسوا أوتاده، وهم الذين لا يجتمعون على ضلالة أصلاً، وقد يمكن فيمن سواهم ذلك، ألا ترى قوله عليه الصلاة والسلام: «وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ: اللَّهُ اللَّهُ» أخرجه مسلم (١٤٨) عن أنس ، وقوله: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ» أخرجه مسلم (٢٩٤٩) عن ابن مسعود ،

فقد أخبر عليه الصلاة والسلام أن من الأزمان أزماناً يجتمعون فيها على ضلالة وكفر، قالوا: ومن قال بهذا القول عمر بن عبدالعزيز، فروى ابن وهب عن مالك قال: كان عمر بن عبدالعزيز يقول: سن رسول الله ﷺ وولاه الأمر من بعده سنناً الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر فيها! من اهتدى بها مهتد، ومن استنصر بها منصور، ومن خافها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى وأصله جهنم وساءت مصيراً، فقال مالك: فأعجبني عزم عمر على ذلك.

فعلى هذا القول فلفظ الجماعة مطابق للرواية الأخرى في قوله عليه الصلاة والسلام: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي».

والرابع: إن الجماعة هي جماعة أهل الإسلام إذا أجمعوا على أمر فوجب على غيرهم من أهل الملل اتباعهم، وهم الذين ضمن لنبيه عليه الصلاة والسلام أن لا يجمعهم على ضلالة فإن وقع بينهم اختلاف فوجب تعرف الصواب فيما اختلفوا فيه.

قال الشافعي: الجماعة لا تكون فيها غفلة عن معنى كتاب الله ولا سنة ولا قياس، وإنما تكون الغفلة في الفرقة.

وكأن هذا القول يرجع إلى الثاني وهو يقتضي أيضاً ما يقتضيه، أو يرجع إلى القول الأول وهو الأظهر وفيه من المعنى ما في الأول من أنه لا بد من كون المجتهدين فيهم، وعند ذلك لا يكون مع اجتماعهم على هذا القول بدعة أصلاً فهم إذا الفرقة الناجية.

والخامس: ما اختاره الطبري الإمام من أن الجماعة جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير فأمر عليه الصلاة والسلام بلزومه ونهى عن فراق الأمة فيما اجتمعوا عليه من تقديمه عليهم؛ لأن فراقهم لا يعدو إحدى حالتين، إما للنكير عليهم في طاعة أميرهم والطعن عليه في سيرته المرضية لغير موجب بل بالتأويل في إحداث بدعة في الدين كالحرورية التي أمرت الأمة بقتالها، وسماها النبي مارقة من الدين، وإما لطلب إمارة من انعقاد البيعة لأمر الجماعة فإنه نكث عهد ونقض عهد بعد وجوبه، وقد قال : «مَنْ جَاءَ إِلَى أُمَّتِي لِيُفَرِّقَ جَمَاعَتَهُمْ فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ كَانَتْ مَن كَانَ» عن عرفجة أخرجه مسلم (١٨٥٢). قال الطبري: فهذا معنى الأمر بلزوم الجماعة.

وحاصله: أن الجماعة راجعة إلى الاجتماع على الإمام الموافق للكتاب والسنة، وذلك ظاهر في أن الاجتماع على غير سنة خارج عن معنى الجماعة المذكور في الأحاديث المذكورة كالخوارج ومن جرى مجراهم. فهذه خمسة أقوال دائرة على اعتبار أهل السنة والاتباع وأنهم المرادون بالأحاديث. قاله الشاطبي في الاعتصام (٢/٢٥٠-٢٥٥).

وقد أمر رسول الله بلزوم الجماعة فصيح عن الحارث الأشعري عند الترمذي (٢٨٦٣): «وَأَنَا أَمْرُكُمْ بِحَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعُ، وَالطَّاعَةُ، وَالْجِهَادُ، وَالْهَجْرَةُ، وَالْجَمَاعَةُ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ».

وفي البخاري (٧٠٨٤) ومسلم (١٨٤٧) عن حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قال: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ

يُذَرِكُنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخْنٌ» قُلْتُ: وَمَا دَخْنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هُدًى، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا؟ فَقَالَ: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَلْزِمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ».

ثم إن أساس الجماعة هم أصحاب محمد وخلافهم ضلال وفساد قال الله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

والمؤمنون هنا هم أصحاب محمد أذكى الناس عقولاً وأطهرهم قلوباً، وأصفاهم معتقداً فمن سلك غير سبيلهم جاهلاً زل، ومن تركه متعمداً ضل، قال الله: ﴿وَالسَّيْقُوتِ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وفي حديث أبي موسى عند مسلم (٢٥٣١) قال: صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ قَالَ: فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: «مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ، ثُمَّ قُلْنَا:

نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ، قَالَ: «أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ» قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبَتْ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ».

وفي حديث ابن مسعود عند أحمد (٣٦٠٠): «إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَآءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا، فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ».

بيان قوله :

هُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ،
وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ؛ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ.

هذه هي الأصول الستة التي اتفقت عليها الرسل عليهم الصلاة والسلام فجميع الرسل من نوح إلى أن ختم الله الرسالة بالنبي متفقون على هذه الأصول الستة وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، حُلوه ومُرّه، قال الله : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فهذه الآية تضمّنت خمس أصول والأصل السادس هو

المذكور في قول الله : ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وفي قول الله : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكُنْ بِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالِكُنْ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ ءَالْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال : ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ءَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وفي حديث عمر قال: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ ءَالْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، انفرد به مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب وهو المشهور بحديث جبريل واتفق عليه البخاري (٥٠) و(٤٧٧٧)، مسلم (٨) و(٩) من حديث أبي هريرة ولفظه: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ ءَالْآخِرِ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الْأُمَّةُ رَبَّهَا، فَذَٰكَ مِنْ

أَشْرَاطُهَا، وَإِذَا كَانَتِ الْعُرَاةُ الْحُفَاةُ رُءُوسَ النَّاسِ، فَذَٰكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رِعَاءُ الْبَهْمِ فِي الْبُنْيَانِ، فَذَٰكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ تَلَا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤] قَالَ: ثُمَّ أَذْبَرَ الرَّجُلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «رُدُّوْا عَلَيَّ الرَّجُلَ»، فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوهُ، فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «هَٰذَا جَبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ».

• الأصل الأول: الإيمان بالله :

ويتضمن هذا الأصل أربعة أركان لا يتم إيمان العبد بالله إلا بها:

❦ **الأول:** الإيمان بوجود الله ، وهذا دليله عقلي وفطري ونقلي.

أما العقلي: فقليل لأعرابي: بم عرفت ربك؟ فقال: الأثر يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على السميع البصير؟

وأما الفطري: فالناس مفطورون على الإيمان بالله وأنه هو خالقهم ورازقهم ومدبرهم إلا من تغيرت فطرته وقد علم ضرورة حاجة الناس إلى الخالق المالك المدبر.

وأما النقلي: فهو كثير في الكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، وكل ما سوى الله عالم.

﴿الثاني﴾: الإيمان بربوبية الله وهو أن الله هو الخالق، المالك، الرازق، المدبر، كما قال : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقال : ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِوَبُ﴾ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ مِنْ يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

﴿الثالث﴾: الإيمان بالوحيته وهي أفراد الله بأفعال المكلفين، فلا يُعبد إلا هو ولا يُذبح إلا له، ولا يُنذر إلا له، وبهذا أرسل الرسل وأنزل الكتب، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿وَاللَّهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش: ﴿أَجْعَلِ الْأِلَهَةَ إِلَّاهَا وَجِدًّا إِنَّا هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥].

﴿الرابع﴾: الإيمان بأسماء الله وصفاته وسيتكلم شيخ الإسلام في هذا المصنّف على هذا النوع من أركان الإيمان بالله .

• الأصل الثاني: الإيمان بالملائكة:

وملائكة الله خلق من خلقه خلقهم من نور كما في حديث عائشة
قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ
مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»، مسلم (٢٩٩٦).

وقوله: (مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ) أي: في القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً
فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ
أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] وقال تعالى:
﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٦-٧].

والملائكة خلق من خلق الله خلافا لما يقوله الفلاسفة والعقلانيون حيث
يزعمون أن الملائكة قوى خير والصحيح أن الملائكة خلق له أجنحة كما قال
الله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى
وَتَلَتْ وَرُبِعَ﴾ [فاطر: ١]، ولهم قدرة عظيمة على التكيف رزقهم الله إياها. وقد
صح عن أم سلمة أنها رأت جبريل. وراه غير واحد من الصحابة .
وصح عن طلحة بن عبيدالله أنه قال: رأيت عن يمين رسول الله
وعن يساره يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض لم أر أحسن منهما. والنبى
يقول: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ وَلَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ»، من حديث ابن مسعود عند
أحمد (٤٣٩٦)، وقال : «رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظْمَ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ
السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ»، من حديث عائشة رواه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم
(١٧٧)، ويقول : «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةٍ

الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ، من حديث جابر بن عبد الله عند أبي داود (٤٧٢٨).

ويُطلق عليهم رجال لحديث سمرة عند البخاري (٧٠٤٧)، قال النبي : «وَأَمَّا الرَّجُلُ الْكَرِيهُ الْمَرَاةُ، الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يُحْشُهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ»، وفي لفظ (٣٢٣٦) قال النبي : «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي قَالَا الَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ وَهَذَا مِيكَائِيلُ». وللحديث السابق: رأيت عن يمين رسول الله رجلين. إلى غير ذلك من الأحاديث.

وهم ذكور ومن زعم أنهم إناث فقد كفر، قال الله : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكُنُّبُ شَهِدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩]، حيث كان كفار قريش يعتقدون - تعالى الله عن قولهم - أن الله يتزوج بسروات الجن فتنجب الملائكة وجعلوهم بنات الله تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، لم يكن له صاحبة ولا ولد، قال تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ ١٤٩ ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ ١٥٠ ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴾ ١٥١ ﴿ وَلَدَّ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ١٥٢ ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ ١٥٣ ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ١٥٤ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ١٥٥ ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُّبِينٌ ﴾ ١٥٦ ﴿ فَأَتُوا بِكُنْيَاكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ١٥٧ ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَالًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ ١٥٨ ﴿ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٤-١٥٩]

ويكون الإيهام بما أخبرنا الله من أسمائهم كجبريل ، وإسرافيل وميكائيل ومالك خازن النار وملك الموت ولم يثبت أن اسمه عزرائيل وهكذا

خازن الجنة لم يثبت أن اسمه رضوان، ونؤمن أنهم مكلفون بأعمال كثيرة ذكرها الله في أول سورة الصافات حيث قال تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١﴾ فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا ۝٢﴾ فَالْمُتَلَيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ [الصافات: ١-٣]، وفي أول سورة المرسلات فقال : ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١﴾ فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا ۝٢﴾ وَالنَّشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣﴾ فَالْفَرْقَاتِ فَرْقًا ۝٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ [المرسلات: ١-٥]، وفي سورة النازعات: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١﴾ وَالنَّشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢﴾ وَالسَّيْحَاتِ سَبْحًا ۝٣﴾ فَالسَّيْقَاتِ سَبْقًا ۝٤﴾ فَالْمُدِيرَاتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات: ١-٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ۝٣١﴾ [المدثر: ٣١]، وذكر النبي أنه رأى ليلة أُسري به البيت المعمور ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك آخر ما عليهم وقد ذكر أن مع كل قطرة ملك ينزل بها والله أعلم وهناك ملائكة موكلون بالأرحام على ما في حديث عبدالله بن مسعود وحذيفة بن أسيد وأنس ، ولفظ ابن مسعود عند البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣) قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ وَيُقَالُ لَهُ اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

وهناك ملائكة موكلون بالقبر وبما فيه، وهم المذكورون في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَتَاهُ

مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يَفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوِّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ، نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأَخْبِرْهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ الْعُرْسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: التَّيْمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَمِمْ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ» أخرجه الترمذي (١٠٧١).

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ عِنْدَ أَحْمَدَ (١٨٥٣٤) قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُثُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا»، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَحِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، أَخْرِجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ». قَالَ: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةٍ مِسْكٍ

وَجَدْتُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ» قَالَ: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَى مَلَاٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ يَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، يَقُولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيْنِ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى». قَالَ: «فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيَجْلِسَانِهِ، يَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ يَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، يَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ يَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، يَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ يَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ، يَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ يَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ، فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْبُسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ». قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيْبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّةَ بَصَرِهِ». قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرَّيْحِ، يَقُولُ: أَبَشِّرُ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، يَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهَكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، يَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، يَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي». قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّةَ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، يَقُولُ: آيَتُهَا النَّفْسُ الْحَبِيشَةُ، أَخْرِجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ». قَالَ: «فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جَيْفَةٍ وَجَدَتْ

عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بَاقِبَحَ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُتَهَيَّ بِهَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠]، «فَيَقُولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِّينَ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتَطْرَحُ رُوحُهُ طَرَحًا» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، «فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرَشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشُرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوَعِّدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يُجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ».

والنبي كان إذا قام من الليل قال: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، من حديث عائشة عند مسلم (٧٧٠)، يتوسل إلى

الله برؤسائه الملائكة، فجبريل موكل بحياة الأرواح، وميكائيل هو الموكل بالقطر الذي به حياة الأبدان، وإسرافيل هو الموكل بالنفخ في الصور للإماتة والإحياء ومنهم الكرام الكاتبين: ﴿كَرَامًا كُنِينٍ﴾ [الأنفطار: ١١]، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، وخلقوا للطاعة قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْـَٔفُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨]، وقال النبي: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدْ التَّقَمَ الصُّورَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَضْغَى سَمْعَهُ، يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ»، من حديث أبي سعيد عند أحمد (١١٦٩٦)، وقال النبي: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَنْطَ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعْدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ»، من حديث أبي ذرّ عند الترمذي (٢٣١٢)، ابن ماجه (٤١٩٠).

• الأصل الثالث: الإيمان بالكتب:

كتب الله المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام كثيرة، قال الله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]، هذه الآية يُستدل بها العلماء على أن كتب الله كثيرة

والمذكور منها الزبور والتوراة والإنجيل، وصحف إبراهيم وموسى والقرآن، فيجب علينا الإيمان بها جُملةً بأنَّ الله كتباً أنزلها إلى رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام ونؤمن بأنَّ التوراة والإنجيل وغير القرآن قد دخله التحريف والتبديل كما أخبر الله وإنَّما الذي يجب علينا أن نؤمن به إجمالاً وتفصيلاً هو القرآن العظيم: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وهو الكتاب المحفوظ، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، والمهيمن على غيره، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وله أسماء كثيرة ذكرها السيوطي في الاتقان وكل اسم يتضمن صفة من الصفات.

• الأصل الرابع: الإيمان بالرسل:

رسل الله كثيرة، قال الله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [١١٣] ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [١٦٤] ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، بعد أن ذكر ثمانية عشر رسولاً. وقد صح عن أبي أمامة عند الطبراني في الكبير (٧٥٤٥)، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا

رَسُولَ اللَّهِ، أَنَبِيًّا كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ، وَإِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: «عَشْرَةُ قُرُونٍ». قَالَ: كَمْ كَانَ بَيْنَ نُوحٍ، وَإِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: «عَشْرَةُ قُرُونٍ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَمْ كَانَتِ الرُّسُلُ؟ قَالَ: «ثَلَاثُ مِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ». وهو في الجامع الصحيح لشيخنا مقبل برقم (٢٢٨٨).

ومن كفر برسول واحد أو نبي واحد أو ملك واحد فقد كفر بهم جميعاً كما قال الله: ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، ومن الإيمان بالرسول عليهم الصلاة والسلام الإيمان بمحمد وأنهم خاتمهم وسيدهم وأنه صفوتهم وأنه بُعث للناس كافة والإيمان بما جاء به جملة وتفصيلاً: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] على ما تقدّم، والحمد لله.

• الأصل الخامس: الإيمان بالبعث بعد الموت:

والعث في اللغة هو التحريك والإثارة وهو إخراج الناس من قبورهم بعد موتهم قال الله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [٧٨] قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس: ٧٨-٧٩]، وفي هذه الآيات ذكر قدرته على الإعادة والإعادة أسهل من البداءة: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠]، وفي الحديث قال النبي: «لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: حَتَّى يَشْهَدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، بَعَثَنِي بِالْحَقِّ، وَحَتَّى يُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَحَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ»، من حديث عليّ عند أحمد (٧٥٨).

وقد أجمعت الرسل عليهم والسلام على ذكر البعث والنشور وعلى ذكر ما فيه ويدخل في الإيمان بالبعث الإيمان بأشراط الساعة الكبرى والإيمان بالصراط والميزان والحوض على ما يأتي بيانه في أواخر الكتاب.

• الأصل السادس: الإيمان بالقدر:

القدر من التقدير والقدر هو سر الله وعلم الله لم يُطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا والخير والشر من الله قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وقال رسول الله: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ أَوْ الْكَيْسُ وَالْعَجْزُ»، من حديث عبدالله بن عمر عند مسلم (٢٦٥٥) ولا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى علم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وسيأتي الكلام على أغلب هذه الأركان في الكتاب وإنما هذه إشارات.

بيان قوله :

ومن الإيمان بالله.

(من) للتبعض وقد مرّ بنا أنّ أركان الإيمان بالله أربعة وهي الإيمان بوجوده وإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته.

بيان قوله :

الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، مِنْ غَيْرِ: تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ: تَكْيِيفٍ وَلَا تَمَثِيلٍ.

طريقة أهل السنة في هذا الباب ما قرره شيخ الإسلام وغيره، قال في منهاج السنة (٢/٥٢٣): وطريقة سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل، إثبات الصفات ونفي مماثلة المخلوقين، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فقولهم في الصفات مبني على أصليين:

الأول: أن الله تعالى منزّه عن صفات النقص كالسنة والنوم والعجز.

الثاني: أنه متصف بصفات الكمال التي لا نقص فيها على وجه الاختصاص بما له من الصفات، فلا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات. اهـ

وأما المخالفون لطريقهم فكلهم على ضلال مبين، وطريق غير مستقيم وهم أقسام عدة، يبينه قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وهذه الأقسام مجموعة في:

القسم الأول: قول الجهمية والقرامطة ومن نحا نحوهم، وذلك أنهم يصفون الله بالسلوب على وجه التفصيل ولا يثبتون إلا وجودًا مطلقًا لا حقيقة له عند التحصيل، وإنما يرجع إلى وجود في الأذهان يمتنع تحققه في الأعيان، فقولهم يستلزم غاية التعطيل، وغاية التمثيل، فإنهم يمثلونه بالمتنعات والمعدومات والجمادات ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلًا يستلزم نفى الذات، فغالبيتهم يسلبون عنه النقيضين فيقولون: لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت، ولا جاهل ولا عالم؛ لأنهم بزعمهم إذا وصفوه بالإثبات شبهوه بالموجودات، وإذا وصفوه بالنفي شبهوه بالمعدومات ولا يخفى فساد قولهم.

القسم الثاني: طائفة من الفلاسفة وأتباعهم فوصفوه بالسلوب والإضافات دون صفات الإثبات، فيقولون: ليس بعالم ليس بسميع ولا بصير، ثم يرجعون وينفون النفي فيقولون: ولا ليس بعالم ولا ليس بسميع ولا هو خارج العالم ولا هو داخله^(١).

(١) (السلوب) أي بالصفات السلبية أي بالنفي، فالسلب هو النفي.

(والإضافات) هي الصفات الإضافية، والإضافة هي النسبة والشيء الإضافي هو الشيء النسبي، فهو ليس أمرًا وجوديًا بل أمر اعتباري معنوي، فالصفة الإضافية هي المعنى الذي لا يعقل إلا بوجود مقابل له، ومثال ذلك القبلية والبعدية والأبوة والبنوة، فالقبلية مثلاً ليست صفة ذاتية للشيء، بل صفة باعتبار ما بعده وكذا الأبوة فهي صفة باعتبار ابنه وإن كان هذا =

القسم الثالث: المعتزلة ومن وافقهم فأثبتوا له الأسماء دون ما تضمنته من الصفات، فمنهم من جعل العليم والسميع والبصير كالأعلام المحضة المترادفات، ومنهم من قال: عليم بلا علم، قدير بلا قدرة، سميع بصير بلا سمع ولا بصر، فأثبتوا الاسم دون ما تضمنه من الصفات.

وكل هذه الطوائف معطلة، ويدخل فيهم الأشاعرة، فهم يثبتون بعض الصفات، وينفون غيرها على ما يأتي تقريره إن شاء الله تعالى.

القسم الرابع: أهل التمثيل وهم الذين يثبتون لله الصفات، ولكنهم يشبهونها بصفات المخلوقين رادّين قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فتعالى الله عن أقوال هذه الأقسام علوًّا كبيرًا.

القسم الخامس: وهم أهل التجهيل، وهم من أشر أهل البدع كما قال شيخ الإسلام، وهم المفوضة الذين يثبتون ألفاظ الصفات كما وردت في الكتاب

= الأب ابنًا باعتبار أبيه، فهو اكتسب الصفة بالنسبة لغيره، وليست صفة ملازمة له كيده وطوله ولونه.

ويلاحظ أن هذه الصفات الإضافية لا وجود لها حقيقة، وإنما وجودها عقلي معنوي. ومن الأمثلة التي تذكر لذلك تسمية الفلاسفة لله تعالى العلة الأولى، وهذا مثل تسمية المتكلمين لله تعالى بالقديم.

فكون الشيء علة يقتضي معلولًا، فالعلية صفة إضافية باعتبار وجود معلول، فهي صفة إضافية نسبية لا وجود لها حقيقة، بخلاف صفة الخلق واسم الخالق فالله تعالى هو الخالق اسمًا ووصفًا، ولو لم يوجد خلق فهو لم يكتسب هذه الصفة من شيء خارج عنه -وهو الخلق- كما تكتسب العلة وصف العلية باعتبار وجود المعلول، وكما يكتسب الأب وصف الأبوة بوجود ابن له.

والسنة مع تفويضهم العلم بمعانيها إلى الله تعالى، فلا يعلم معناها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولا أحد أبداً.

ولازم قولهم أن الله خاطبنا بكلام لا نعرف معناه، والله يقول: ﴿حَمَّ ۝١ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كَذَّبُ فُصِّلَتْ ءَايَتُهُ، فَرَأَيْنَا عَرِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ١-٣].

وقوله: ﴿الرَّ كَذَّبُ أَحْكَمَتْ ءَايَتُهُ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١]، ويُجْهَلُونَ رسول الله وأصحابه الكرام وأنهم لم يعرفوا مراد الله إلى غير ذلك، أو أنهم عرفوا ثم كتموا، وكلا القولين ضلال مبين، ولا حول ولا قوة إلا بالله الملك الحق المبين.

الشبه التي أوصلت المبتدعة إلى التعطيل والتمثيل والرد عليها

الرد على أنواع أهل البدع في هذا الباب:

إن أهل الزيغ والضلال قد تخطوا وخطوا في هذا الباب وغيره غاية التخليط والتخييط، بل تجد العجب العجيب من تناقضاتهم، فيفرون من شيء فيقعون في شر منه، وسنناقش بإذن الله تعالى هذا التناقض باختصار غير مخل، فالله يوفق ويسدد.

الرد على الجهمية:

تقدم معتقد الجهمية في الأسماء والصفات، وأنهم انقسموا إلى قسمين: قسمٌ منهم يصفونه بالصفات السلبية على وجه التفصيل ولا يشتون إلا وجودًا مطلقًا لا حقيقة له عند التحصيل. وقسم يصفونه بالسلوب والإضافات دون صفات الإثبات وجعلوه هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق.

معنى: قولهم أنهم يصفون الله بالصفات السلبية على وجه التفصيل، أي كقولهم: ليس بمستوي على عرشه، ولا يغضب، ولا يحب، ولا ينزل... إلى غير ذلك، وهذا خلاف معتقد السلف، فإن طريقة الرسل وأتباعهم هو الإثبات المفصل: تقول سميع بصير حي مريد... إلى غير ذلك، والنفي المجمل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

وأما قولهم بإثبات الوجود المطلق، فمعناه أن الوجود المطلق هو المجرد عن جميع الصفات، وهذا الوجود لا حقيقة له إلا في الذهن، وليس له وجود

خارجي بتاتاً؛ لأن الذات لا تتحقق بلا صفة أصلاً، كمن يقول: أثبت نخلة لا جذع لها ولا ساق ولا ليف ولا غير ذلك.

قال شيخ الإسلام في التدمرية بعد ذكر قولهم السابق (ص ١٥-١٦):
فقولهم يستلزم غاية التعطيل وغاية التمثيل، فإنهم يمثلونه بالمتنعات
والمعدومات والجمادات، ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلاً يستلزم نفي
الذات، فغالبيتهم يسلبون عنه النقيضين، فيقولون: لا موجود ولا معدوم ولا
حي ولا ميت، ولا عالم ولا جاهل؛ لأنهم -بزعمهم- إذا وصفوه بالإثبات
شبهوه بالموجودات، وإذا وصفوه بالنفي شبهوه بالمعدومات، فسلبوا عنه
النقيضين، وهذا ممتنع في بدائه العقول، وحرفوا ما أنزل الله من الكتاب، وما
جاء به الرسول ، ووقعوا في شر مما فروا منه، فإنهم شبهوه بالمتنعات. اهـ

ولتعلم أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان في آن واحد، بل يلزم من
ثبوت أحدهما عدم الآخر، ومن نفي أحدهما ثبوت الآخر.

وأما قول أصحاب القسم الثاني، الذين يصفونه بالسلوب والإضافات،
فالسلوب جمع سلب، والسلب هو النفي، وذلك مثل قولهم: إن الله ليس
بجسم ولا عرض ولا متحيز.

والإضافات: هي الأمور المتضايفة التي لا يعقل الواحد منها إلا بتعقل
مقابله، مثل قولهم: إن الله مبدأ الكائنات وعلة الموجودات، أي أنه لا تعقل
العلة إلا بمعلولها، ولا المعلول إلا بعلة، ومن أمثلة الأمور المتضايفة الأبوة
والبنوة، فلا تعقل الأبوة إلا ببنوة ولا بنوة إلا بأبوة.

وقولهم: دون صفات الإثبات، أي أن الله تعالى مجرد عن الصفات الثبوتية ليس له حياة ولا علم ولا قدرة ولا كلام.

قوله: (وجعلوه هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق)، يعني أن وجود الله مشروط بسلب كل أمر ثبوتي وعدمي، أو بسلب الأمور الثبوتية كما قال بعضهم، أفاده صاحب التحفة المهدية (٥٢).

قال شيخ الإسلام في التدمرية (ص ١٧): وقد علم بصريح العقل أن هذا لا يكون إلا في الذهن، لا فيما خرج عنه من الموجودات، وجعلوا الصفة هي الموصوف، فجعلوا العلم عين العالم مكابرة. اهـ

شبهة الجهمي والرد عليها:

ويقال لهذا الجهمي: لماذا تنفي الأسماء والصفات؟ فيقول: لأن إثبات ذلك يستلزم التشبيه بالموجود الحي العليم القدير.

قيل له: وكذلك إذا قلت: ليس بموجود ولا حي ولا عليم ولا قدير كان ذلك تشبيهاً بالمعدومات، وذلك أقبح من التشبيه بالموجودات؟

فإن قال: أنا أنفي النفي والإثبات؟ قيل له: فيلزمك التشبيه بالممتنعات، فإنه يمتنع أن يكون الشيء موجوداً معدوماً أو لا موجود ولا معدوم. اهـ التدمرية (ص ٣٦).

الرد على المعتزلة الذين أثبتوا الأسماء دون ما تضمنته من صفات:

فهم انقسموا إلى قسمين كما بين ذلك شيخ الإسلام في التدمرية قسم جعلوا أسماء الله كالأعلام المحضة المترادفات -أي الأعلام الخالصة الخالية من الدلالة على شيء آخر- والمترادفات على ذات واحدة.

وقسم قالوا: عليم بلا علم، قدير بلا قدرة، فأثبتوا الاسم دون ما تضمنته من الصفات. اهـ بزيادة.

وهؤلاء عطلوا الله مما يختص به فراراً من التشبيه فوقعوا في شر منه - أي التشبيه بالمعدومات والممتنعات- مع ما يلزمهم من التحريفات والتعطيلات.

قال شيخ الإسلام في التدمرية (ص ٢٠): وإذا كان من المعلوم بالضرورة أن في الوجود ما هو واجب قديم بنفسه -أي خالق وهو الله تعالى- وما هو محدث ممكن -أي مخلوق- يقبل الوجود والعدم، فمعلوم أن هذا موجود وهذا موجود ولا يلزم من اتفاقهما في مسمى الوجود أن يكون وجود هذا مثل وجود هذا، بل وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه... فلا يقول عاقل: (العرش شيء موجود وأن البعوض شيء موجود)، إن هذا هو هذا لاتفاقهما في مسمى الشيء والوجود...

ولهذا سمي الله نفسه بأسماء، وسمى صفاته بأسماء، فكانت تلك الأسماء مختصة به، إذا أضيفت إليهم توافق تلك الأسماء إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص، ولم يلزم من تماثل الاسمين تماثل مساهما، واتحاده عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص...

فقد سمي الله نفسه حيًّا قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥، آل عمران: ٢]، وسمى بعض عباده حيًّا، فقال: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم: ١٩]، وليس هذا الحي مثل هذا الحي؛ ثم استطرد في ذكر بعض ما سمي الله به نفسه وسمى به بعض مخلوقاته والخالق منزّه عن مشابهة المخلوق.

شبهة المعتزلي والرد عليها:

ويقال للمعتزلي الذي يثبت الأسماء وينفي الصفات، ما ذكره شيخ الإسلام في التدمرية (ص ٣٥): لا فرق بين إثبات الأسماء وبين إثبات الصفات، فإنك إن قلت: إثبات الحياة والعلم والقدرة يقتضي تشبيهاً وتجسيماً لأننا لا نجد في الشاهد متصفاً بالصفات إلا ما هو جسم؟

قيل له: ولا تجد في الشاهد مسمى بأنه حي عليم قدير إلا ما هو جسم، فإن نفيت الصفات لكونه لا يوجد في الشاهد إلا ما هو جسم فانف الأسماء، بل وكل شيء؛ لأنك لا تجد في الشاهد إلا ما هو جسم. اهـ

وإن قال المعتزلة: إثبات العلم والقدرة والإرادة يستلزم تعدد الصفات، وهذا تركيب ممتنع.

قيل: وإذا قلت أنه موجود واجب وعقل وعاقل ومعقول، أفليس المفهوم من هذا هو المفهوم من هذا، فهذه معاني متعددة متغايرة في العقل، وهذا تركيب عندكم؟

فإن قالوا: هذا توحيد في الحقيقة وليس تركيباً ممتنعاً.

قيل: واتصاف الذات بالصفات اللازمة لها توحيدًا في الحقيقة، وليس هو تركيبًا ممتنعًا.

القول في الصفات كالقول في الذات

وكذلك من الرد عليهم: أن القول في الصفات كالقول في الذات، فإذا أثبت لله ذاتًا حقيقية لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل صفات سائر الذوات.

قال ابن القيم في الصواعق المرسلة (٧٢٨/٢): ومن ذلك خروجهم عن صريح العقل في قولهم: إن الرب عالم بلا علم، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، قدير بلا قدرة، حي بلا حياة، فأنكر عليهم ذلك طوائف العقلاء. اهـ

الرد على الأشاعرة ومن وافقهم ممن يثبتون الأسماء وبعض الصفات فقط:

من المعلوم أن الأشاعرة ومن وافقهم يثبتون سبع صفات جمعها أحدهم نظرًا:

حَيٌّ مُرِيدٌ قَادِرٌ عَالِمٌ لَهُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْكَلَامُ

ويقولون هذه الصفات دل عليها العقل، فيجعلونها حقيقة، ثم ينازعون في المحبة والرضا والسخط ويفسرونها إما بالإرادة أو ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات.

قيل له: القول في بعض الصفات كالقول في بعض؟

فإن قلت: له إرادة كإرادة المخلوقين، فكذلك محبته وغضبه وهذا هو التمثيل بعينه، وإن قال له: إرادة تليق به، قيل له: وكذلك له محبة تليق به.

فإن قال: الغضب غليان الدم في القلب لطلب الانتقام؟ قيل له: الإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة ودفع مضرة.

فإن قال: هذه إرادة المخلوق؟ قيل له: هذا غضب المخلوق.

فإن قال: هذه الصفات السبع إثباتها بالعقل؛ لأن الحادث دل على قدرة والتخصيص دل على الإرادة والإحكام دل على العلم، وهذه الصفات مستلزمة للحياة، والحي لا يخلو من السمع والبصر والكلام أو ضد ذلك؟
قيل له: لك جوابان:

الأول: افرض أن العقل لم يدل عليها، فقد دل عليها دليل آخر وهو الكتاب والسنة، وانتفاء الدليل لا يلزم منه انتفاء المدلول.

الثاني: يمكن إثبات هذه الصفات بنظير ما أثبت به تلك -أي العقل- فيقال: نفع العباد بالإحسان إليهم يدل على الرحمة وإكرام الطائعين يدل على محبتهم وعقاب الكفار يدل على بغضهم؟ وهكذا دوليك.

الرد على المثلة:

أقسام المثلة:

الأول: من شبه ذات الرب بذات المخلوق، ومن أمثلة هذه السبئية والهاشمية.

السبئية: هم الذين قالوا إن علياً إله، وشبهوه بذات الله.

والهاشمية: هم أتباع هشام بن الحكم لعنه الله الذي قال: إن الله سبعة أشبار بشبر نفسه، تعالى الله عن هذا البهتان علواً كبيراً.

الثاني: من شبه صفات رب العالمين بصفات غيره من المخلوقات، وضلال مذهبهم ظاهر البطلان، فالله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، اهـ من القواعد الكلية (ص ٤٣-٤٤).

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٦٤): فليس فيها (أي النصوص والآثار) أن صفة المخلوق هي صفة الخالق، بل ولا مثلها، بل فيها الدلالة على الفرق بين صفة الخالق وبين صفة المخلوق، فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. اهـ

وقال في (٥/ ٣٢٥): فإن التماثل في الصفات والأفعال يتضمن التماثل في الذات، فإن الذاتين المختلفين يمتنع تماثل صفاتها وأفعالها؛ إذ تماثل الصفات والأفعال يستلزم تماثل الذوات. اهـ

وقال (٣/ ٨٧): فإن الحقيقتين إذا تماثلتا جاز على كل واحدة ما يجوز على الأخرى، ووجب لها ما وجب للأخرى، فيلزم أن يجوز على الخالق القديم الواجب بنفسه ما يجوز على المحدث المخلوق من العدم والحاجة، وهذا مما يعلم به بطلان قول المشبهة؛ اهـ بتصرف.

فَعُلِمَ من هذا أن الله تعالى مُتَّصِفٌ بِالْكَمَالِ المقدس من كل وجه، وقد تقدم معنا أن المثبت لا بد أن يتخلى من محضوري التكيف والتمثيل، لأن من أثبت المثل لله تعالى فقد وصفه بالنقص وعطله من كماله المقدس، ثم عطل أدلة الأسماء والصفات مما دلت عليه من الكمال، ولهذا قيل كل ممثل معطل. ثم من المحال أن يكون القيوم الصمد ممثلاً للمخلوق المحتاج الناقص.

الرد على أهل التفويض:

سماهم ابن القيم أهل التجهيل؛ لأنهم جهلوا السلف والأنبياء رضوان الله وسلامه عليهم أجمعين، فقال في الصواعق المرسلّة (٢/٤٢٢):
الصف الثالث أهل التجهيل الذين قالوا نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها، ولا ندري ما أراد الله ورسوله بها، ولكن نقرها ألفاظاً لا معاني لها، ونعلم أن لها تأويلاً لا يعلمه إلا الله وهي عندنا بمنزلة:
﴿كَهَيْعَصَ﴾ [مريم: ١]، ﴿حَمَّ﴾ ① ﴿عَسَقَ﴾ [الشورى: ١-٢]،
﴿الْمَصَّ﴾ [الأعراف: ١]... إلى أن قال: «وبنوا هذا المذهب على أصليين:

أحدهما: أن هذه النصوص من المتشابه.

الثاني: أن للمتشابه تأويلاً لا يعلمه إلا الله.

فنتج من هذين الأصلين تجهيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأنهم كانوا يقرءون: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ويروون: «يُنْزَلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»، ولا يعرفون معنى ذلك.

ولازم قولهم: أن الرسول كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه، ثم تناقضوا أقبح تناقض، فقالوا: تجري على ظواهرها وتأويلها مما يخالف الظواهر باطل، ومع ذلك فلها تأويل لا يعلمه إلا الله، فكيف يثبتون لها تأويلاً ويقولون تجري على ظواهرها، ويقولون: الظاهر منها غير مراد، والرب منفرد بعلم تأويلها، وهل في التناقض أقبح من هذا.

فهؤلاء غلطوا في التشابه وفي كون التشابه لا يعلم معناه إلا الله، وفي جعل هذه النصوص من التشابه، فأخطئوا في المقدمات الثلاث. اهـ

ومن الأدلة على بيان فساد منهجهم قول الله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال تعالى واصفاً القرآن بأنه عربي، والكلام العربي يُعقل ويعرف المراد منه، قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (١٩٤) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥]، إلى غير ذلك من الآيات في هذا الباب.

وقد دلت النصوص على تيسير القرآن للناس حتى يفهموه ويعقلوه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

وأمر بالتدبر سبحانه، وإنما يكون التدبر لما يعقل ويفهم، قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَفَآمُرُ

عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿[محمد: ٢٤]﴾، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ ﴿[المؤمنون: ٦٨]﴾، إلى غير ذلك من النصوص الواردة في الكتاب والسنة.

وكذلك كثرة الآيات الدالة على إثبات الصفات، ولم يرد في حرف واحد أن الصحابة رضوان الله عليهم سألوا عن معانيها، أو ما المراد بها؛ لأنهم فقهوا قول الله ومراد الله .

ويستحال عقلاً أن النبي الذي علمنا كل شيء حتى الخراءة كما قال سلمان ، وترك هذا الباب بدون بيان، وهو القائل: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتُهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرُهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ».

وعلم الأسماء والصفات هو أشرف العلوم، فمن المحال أنهم لا يعرفون معاني الآيات ورسول الله بين أظهرهم لا يسألونه ولا يعلمهم، وقد تقدم النقل عن ابن القيم في بيان تناقض مذهبهم، وما هذا إلا لبطلانه وفساده.

هذه الجملة تضمّنت معتقد أهل السنة في باب الأسماء والصفات، وقد تناقلها علماء أهل السنة قاطبة وقد أمر الله بالإيمان بالكتاب، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكُنَّ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالِكُنَّ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]، ويدخل في الإيمان بالله والرسول والكتاب الإيمان بكل ما أخبر الله به وبما أخبر به رسوله وما تضمّنه القرآن ويدخل في ذلك الإيمان بالأسماء والصفات وما جاء عن رسول الله كما جاء عن الله من حيث الحجية قال تعالى: ﴿وَمَا ءَانِكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، ومنه أسماء الله وصفاته قال الله : ﴿وَمَا

يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ [النجم: ٣-٤]، وفي هذه القاعدة من الفوائد العظيمة أنَّ باب الأسماء والصفات توقيفي لا مجال للعقل فيه وإنَّما يُتَلَقَّى من الكتاب والسنة والدليل على ذلك قول الله : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ولا يعرف كيف هو إلَّا هو فلا تُتَلَقَّى أسماء الله وصفاته إلَّا من كتاب الله وسنة نبيه وهنا إشارة للمسلم إلى ما يجب سلوكه في هذا الباب وهو الجمع بين النفي والإثبات فيثبت لله ما أثبتته لنفسه وما أثبتته له رسوله ويُنفى عنه ما نفاه عن نفسه وما نفاه عنه رسوله مع الحذر من أمرين حال الإثبات ومن أمرين حال النفي، أمَّا حال الإثبات فالتمثيل والتكييف وكلاهما كفر فمن مثل الله بخلقه كفر، فمن زعم مثلاً أنَّ وجه الله كوجه المخلوق فهو كافر بالله العظيم ومن كيف صفات الله فقد كفر لأنَّه يقول على الله بغير علم ولأنَّ الإنسان مهما تخيل الكمال لله فعقله عاجزٌ وناقص لا يمكن أن يثبت لله الكمال المقدس، لأنَّ قدرة العقل محدودة ولهذا جاء في الأثر (تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في الله)، وأيضًا عند تنزيه الله من مشابهة ومماثلة المخلوقين كن على حذر من التحريف والتعطيل.

التحريف: لغة هو التغير والتبديل والإمالة قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦].

وينقسم التحريف إلى قسمين:

تحريف لفظي، وتحريف معنوي.

وغالبًا ما ينتج عن التحريف اللفظي التحريف المعنوي، فمثلاً جاء رجل إلى أبي عمرو بن العلاء فقال له: (يا أبا عمرو اقرأ: وكَلَّمَ الله موسى)، وسيكون المعنى؟ أن الله هو المُكَلَّم وأن موسى هو المُتَكَلَّم، وهكذا قال المبتدعة في قول الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، قالوا استولى فزادوا (اللام) فهذا التحريف اللفظي أدى إلى التحريف المعنوي وهو تعطيل الله من صفة الاستواء وأما التحريف المعنوي فقد لا يكون باللفظ لكن تقول له: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، قال المراد باليد النعمة، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، قالوا المراد بالوجه الإحسان، فيُحَرِّفون الكلم عن مواضعه.

التعطيل: التعطيل في اللغة مأخوذ من العطل الذي هو الخلو والفراغ والترك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَبِثُّ مَعْطَلَةً﴾ [الحج: ٤٥]، أي أهملها أهلها وتركوا وردّها.

وهو في الاصطلاح تعطيل الله من أسمائه وصفاته أو تعطيل أسمائه عمّا تتضمن من الصفات وتعطيل الأدلة عمّا تدلّ عليه من المعاني الجليلة العظيمة اللائقة بالله تعالى. والتعطيل في حق الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تعطيل مصنوع عن صانعه وخالقه، وهو المتمثل فيمن ينكر وجود خالق لهذا الكون، مثل تعطيل الإشتراكيين والطبائعيين ومن إليهم من الملحدين.

القسم الثاني: ما يجب له من حقيقة التوحيد وإفراده بالعبادة، وهو المتمثل في أهل الشرك الذين صرفوا شيئاً من العبادة لغير الله .

القسم الثالث: تعطيل الله عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله، وهذا القسم هو المراد هنا.

التمثيل: التمثيل والتشبيه بمعنى واحد في هذا الباب، وإن كان بينهما فروق عند أهل اللغة.

فالمماثلة هي: المساواة من كل وجه.

والمشابهة هي: مساواة الشيء لغيره في أكثر الوجوه، والأولى التعبير بنفي التمثيل لمجئ القرآن به.

ولهذا لم يقل ولا تشبيه ولأن التمثيل جاء بنفيه القرآن قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ثم إن التمثيل هو المساواة من كل وجه والتشبيه يطلقه المبتدعة على كل من أثبت لله الأسماء والصفات.

التكييف: التكييف من (كَيْف، يُكَيِّف، تَكْيِيفًا)، أي يجعل للصفة كيفية معلومة، وهو حكاية كيفية الصفة من غير أن يقيدها بمماثل.

بينما التمثيل: هو اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين.

والتكييف أعم من التمثيل، فكل تمثيل تكييف؛ لأن من مثل صفات الخالق بصفات المخلوقين فقد كَيَّف تلك الصفة.

وليس كل تكييف تمثيل؛ لأن من التكييف ما ليس فيه تمثيل مثل قولهم: طولُه كعرضه.

ومعنى قول أهل السنة: من غير تكييف: أي من غير تكييف يعقله البشر، وليس المراد أنهم ينفون الكيف مطلقاً، فإن كل شيء لا بد أن يكون له كيفية ما، ولكن المراد أنهم ينفون علمهم بالكيف إذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته إلا هو سبحانه.

فأهل السنة يفوضون معرفة الكيف ويثبتون المعاني والمفوضة يفوضون المعاني والكيف وهم ضالّون مبتدعون مخطئون وأهل السنة موقفون مسددون مصيبون، وكيفية الصفة لا تُعلم إلا بثلاثة أمور:

❶ **الأول:** النظر إلى الصفة.

❷ **الثاني:** النظر إلى مثلها.

❸ **الثالث:** إخبار من رآها عنها، وكلّ هذا متفتي في حق الله تعالى.

بيان قوله :

بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

أي: طريقة أهل السنة الإيمان بأنّ الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله معظّمين الله المتصف بصفات الجمال والجلال والكمال والعظمة معتمدين في إثباتهم ونفيهم على هذه الآية العظيمة التي هي عمدة في الباب فجمعت بين النفي والإثبات فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ردّ على الممثلة والمكيّفة وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ

الْبَصِيرُ ﴿الشورى: ١١﴾، رُدُّ على المعطلة من الجهمية والمعتزلة الذين يزعمون أنَّ الله لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلَّم إلى غير ذلك، وفيها إشارة إلى الجمع بين النفي والإثبات على ما تقدَّم وفيها وجوب الأخذ بدلالة الآية جميعاً فالمعطلة أخذوا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وعطلوا الله من صفاته والممثلة أخذوا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فمثّلوا الله بخلقه وأهل السنّة أثبتوا له صفات تليق بجلاله .

وقد اختلف المفسّرون في (الكاف) في هذه الآية، فقال بعضهم هي صلة وتوكيد، ويكون تقدير العبارة (ليس مثله شيء)، وقال بعضهم هي داخلة على محذوف وهو (ليس مثل مثله شيء)، فلو قُدِّرَ لله مثل فليس كمثل مثله شيء فكيف بالله ؟ وقالوا غير ذلك.

والصحيح أنّها صلة وتوكيد كقول الشاعر:

لَيْسَ كَمِثْلِ الْفَتَى زَهِيرٌ خُلِقَ يُوازِيهِ فِي الْفَضَائِلِ

أي ليس مثل زهير أحدٌ يوازيه في الفضائل فالمراد هنا بـ (ليس كمثل شيء) أي ليس مثل الله شيء.

تلخّص أنّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿الشورى: ١١﴾، عمدة في هذا الباب، المعطلة يستدلّون بالشرط الأوّل منها: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، فيقولون الله ليس له صفات، والممثلة يستدلّون بالشرط الثاني منها: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فيقولون يسمع كسمعنا ويبصر كبصرنا، أهل السنّة يستدلّون بها جميعاً فوفّقوا إلى سواء السبيل، فالله موصوف بصفات الكمال والجلال وهو منزّه عن مماثلة المخلوقين.

قال في أضواء البيان : قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى الْكِلَ الْتَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤] الآية.

هذه الآية الكريمة وأمثالها من آيات الصفات كقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] ونحو ذلك. أشكلت على كثير من الناس إشكالاً ضل بسببه خلق لا يحصى كثرة، فصار قوم إلى تعطيل وقوم إلى التشبيه - سبحانه وتعالى علواً كبيراً عن ذلك كله - والله جل وعلا أوضح هذا غاية الإيضاح، ولم يترك فيه أي لبس ولا إشكال، وحاصل تحرير ذلك أنه جل وعلا بين أن الحق في آيات الصفات متركب من أمرين:

أحدهما: تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة الحوادث في صفاتهم عن ذلك علواً كبيراً.

والثاني: الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، أو وصفه به رسوله . لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] فمن نفى عن الله وصفاً أثبتته لنفسه في كتابه العزيز، أو أثبتته له رسوله زاعماً أن ذلك الوصف يلزمه ما لا يليق بالله جل وعلا، فقد جعل نفسه أعلم من الله ورسوله بما يليق بالله جل وعلا. ﴿سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

ومن اعتقد أن وصف الله يشابه صفات الخلق، فهو مشبه ملحد ضال، ومن أثبت لله ما أثبتته لنفسه أو أثبتته له رسوله مع تنزيهه جل وعلا عن مشابهة الخلق، فهو مؤمن جامع بين الإيمان بصفات الكمال والجلال، والتنزيه

عن مشابهة الخلق، سالم من ورطة التشبيه والتعطيل، والآية التي أوضح الله بها هذا. هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فنفي عن نفسه جل وعلا مماثلة الحوادث بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وأثبت لنفسه صفات الكمال والجلال بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فصرح في هذه الآية الكريمة بنفي المماثلة مع الاتصاف بصفات الكمال والجلال.

والظاهر أن السر في تعبيره بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ دون أن يقول مثلاً: وهو العلي العظيم أو نحو ذلك من الصفات الجامعة أن السمع والبصر يتصف بهما جميع الحيوانات. فبين أن الله متصف بهما، ولكن وصفه بهما على أساس نفي المماثلة بين وصفه تعالى، وبين صفات خلقه. ولذا جاء بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ففي هذه الآية الكريمة إيضاح للحق في آيات الصفات لا لبس معه ولا شبهة البتة. انتهى

بيان قوله :

فَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ: مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ.

لأن نفي ما وصف الله به نفسه ردُّ للقرآن والسنة والواجب علينا تصديق خبر الله وخبر رسوله وهنا قاعدة عند العلماء وهي أن الخبر إذا توفّر فيه ثلاثة أمور وجب قبوله:

① الأول: صدق المخبر.

② الثاني: بيان المخبر.

الثالث: علم المخبر.

والله : ﴿يَكُلُّ شَيْءٌ عِلْمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، وهو أصدق قيلاً وأحسن حديثاً قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، فلا يتردد في قبول خبره إلا من سفه نفسه، قال الله : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وأيضاً النبي أصدق حديثاً من غيره من البشر وكان يُسمى بالصادق الأمين وأعلم بالله من غيره لأن الله أوحى إليه، قال الله : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ءَانَتْكُمْ الرِّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وأيضاً قال : «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٩٧٧)، مسلم (٥٢٣)، فهو أفصح من نطق بالضاد كما يقال، أفصح البشر ومن خصائصه على بقيّة الأنبياء فضلاً عن غيرهم أن الله بعثه بجوامع الكلم وهي الكلمة المختصرة التي تدلّ على معاني عظيمة ومنها حديث سفيان بن عبد الله عند مسلم (٣٨)، قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ - قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: بَعْدَكَ - قَالَ: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمَّ».

فهذه الكلمة تشتمل على الإيمان والدين كلّ وفيها الحثّ على الاستمرار والثبات عليه وفيها الحذر من الزيغ والانحراف وفيها وجوب الاستمرار على الطاعات إلى غير ذلك من المعاني التي إذا أردنا أن نتوسّع فيها لخرجنا عن المقصود، وأيضاً جاء رجل إلى الرسول فقال: أَوْصِنِي، قَالَ: «لَا تَغْضَبْ»

فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: «لَا تَغْضَبْ»، من حديث أبي هريرة رواه البخاري (٦١١٦) واللفظ له، الترمذي (٢٠٢٠)، مسند أحمد (٨٧٤٤)، فقال الراوي: فنظرنا فإذا الغضب يحوي ذلك كله، كلِّ بلاء سببه الغضب لغير الله ، وهكذا قال النبيّ : «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ»، من حديث جابر أخرجه البخاري (٦٠٢١)، وعن عبدالله بن يزيد الخطمي عند أحمد (١٨٧٤١)، وأعرف المعروف لا إله إلا الله وأدناه إزالة الأذى عن الطريق، إذا الدين كله داخل في هذا الحديث، زد على ذلك أن النبيّ أنصح الناس للناس فلا يتردد في قبول خبره إلا سفيه رادٌّ لخبر الله ولخبر رسوله وكذلك رادٌّ لأمر الله ولأمر رسوله ، فإذا علمنا هذا فلا يجوز أن ننفي عن الله ما أثبتته لنفسه وما أثبتته له رسوله .

فكيف يُخبر الله عن نفسه بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ثم يقول هذا المعطل ليس له يدان، نعوذ بالله من الخذلان.

بيان قوله :

وَلَا يُحَرِّفُونَ: الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ.

ومن طريقة أهل السنة أنهم لا يحرفون الكلم عن مواضعه كما هو صنيع المعتزلة والجهمية ومن إليهم وتحريف الكلام عن مواضعه طريقة يهودية لا طريقة إسلامية، أمّا المسلمون فقد وصفهم الله في قوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وأمّا اليهود فقد قال الله عنهم: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ

تَطْلُعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴿[المائدة: ١٣]﴾، فالخيانة وتحريف الكلم وتبديل الحق ولبس الحق بالباطل دين اليهود والنصارى قال الله تعالى: ﴿يَتَّهَلَّوْنَ بِالْكِتَابِ لِمَ تَلْسُوتَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُّمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]، والتحريف هو الميل، حرف الشيء أي أماله فيُحَرِّفُونَ كلام الله عن دلالته الحقّة إلى دلالة باطلة على ما يأتي في باب الصفات فحين يقرءون قول الله : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، يقولون بل نعمته، ويقولون بل قوّته، ويقولون بل قدرته، وهذا سيأتي فساداً في كلامنا على صفة اليدين بإذن الله ، فأهل السنّة لا يُحَرِّفُونَ الكلم عن مواضعه، أثبت الله له وجهاً ثبت له وجهاً، أثبت له سمعاً وبصراً ثبت له سمعاً وبصراً، أثبت له قدرة وإرادة ثبت له قدرة وإرادة، وهكذا.

بيان قوله :

وَلَا يُلْحِدُونَ فِي: أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَآيَاتِهِ.

(ل ح د) تأتي بمعنى الإمالة ومنه لحد القبر فاللحد هو الشق الذي يُدخل به إلى داخل القبر إلى جهة القبلة وقال النبي : «اللَّحْدُ لَنَا وَالشَّقُّ لِغَيْرِنَا»، من حديث ابن عباس عند أبي داود (٣٢٠٨)، الترمذي (١٠٤٥)، النسائي (٢٠٠٩)، ابن ماجه (١٥٥٤)، ولما قُبر النبي لُحِدَ له حتّى قال سعد بن أبي وقاص : «الْحُدُّوا لِي لَحْدًا، وَأَنْصِبُوا عَلَيَّ اللَّبْنَ نَصْبًا، كَمَا صُنِعَ بِرَسُولِ اللَّهِ»، رواه مسلم (٩٦٦)، فالإلحاد في آيات الله هو الميل بها عن دلالتها إلى غير ذلك وهو أنواع تُجْمَلُ فيما يأتي:

❶ **النوع الأول:** إلحاد الجهمية وهو تعطيل الله من أسمائه وصفاته فلا يُسمّون الله ولا يصفونه ويقولون إنّ الأسماء التي هي لله هي لأسماء لمخلوقاته، وإنّما هي مجاز في حق الله تعالى.

❷ **النوع الثاني:** إلحاد المعتزلة وهم يؤمنون بالأسماء ويقولون نحن نؤمن بأسماء الله: (الله، الرحمن، الرحيم، الملك، القدّوس، العليم...)، لكن هذه الأسماء لا تتضمّن صفات ولا تدلّ على شيء من المعاني وإنّما هي كالأسماء المجردة وهذا إلحاد لأنّ كلّ اسم من أسماء الله يتضمّن صفة كمال ومدح ولهذا قال الله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

❸ **النوع الثالث:** إلحاد الأشاعرة وهم يُثبتون الأسماء وسبع صفات ويُعطّلون بقية الصفات لا سيّما صفات الأفعال وصفات الأخبار فيقولون: حَيٌّ، مُرِيدٌ، قَادِرٌ، عَالِمٌ لَهُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْكَلَامُ قالوا هذه الصفات السبع دلّ عليها العقل فيقولون وجود المخلوقات يدلّ على القدرة والتخصيص دلّ على الإرادة والاتقان دلّ على العلم وهذه الصفات تدلّ على الحياة والحيّ إمّا أن يكون سميعاً بصيراً متكلماً أو العكس، وإذا قلت لهم الله يرضى، يُحبّ، يسخط، في العلوّ قالوا لا، هذه عندهم لا يدلّ عليها العقل مع أنّ العقل دالّ عليها وهي ثابتة بأدلة الكتاب والسنة فإن خالف العقل الكتاب والسنة فهو للوث ولمرض فيه، وأمّا العقل الصحيح كما قال شيخ الإسلام : (لا يناقض النقل الصحيح).

🕒 **النوع الرابع:** إلحاد الممثلة وهم الذين يقولون لله صفات، نؤمن أن لله صفة السمع، واليد، والبصر، والقدرة، والوجه، والأصابع، وغير ذلك مما ذكره الله في كتابه والنبى في سنته إلا أننا لا نعرف سمعاً إلا كسمع المخلوق، ولا بصرًا إلا كبصر المخلوق، ولا يدًا إلا كيد المخلوق، وهذا إلحاد لأتيم مثلوا الله الكامل من كل وجه بالمخلوق الناقص.

🕒 **النوع الخامس:** إلحاد المشركين الكفار الذين يشتقون لأهتهم أسماء من أسماء الله كما صنع كفار قريش حين سموا اللات واشتقوه من اسم الإله، ومناة من المنان، والعزى من العزيز.

🕒 **النوع السادس:** إلحاد النصارى والصوفية ومن إليهم الذين يُسمون الله بما لم يُسم به نفسه، فيُسمونه بالأب والابن والعلّة الفاعلة والعشق والعاشق واللذة وهكذا، وهذا إلحاد لأتيم يُسمون الله بأسماء لم تأت في الكتاب والسنة وفيه قلة أدب مع الله مع ما يؤدى إليه من المعاني الباطلة.

🕒 **النوع السابع:** إلحاد المفوضة وهم الذين يقولون بأن أدلة الأسماء والصفات ليست لها معاني على ما تقدم.

والإلحاد جناية عظيمة في حق ، قال : ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وآيات الله منها الكوني والشرعي فالإلحاد في الآيات الكونية يكون بدعوى أن مع الله معين أو ظهير أو شريك والإلحاد في الآيات الشرعية يكون بالتكذيب والتحريف والردّ وغير ذلك فنسأل الله أن يرزقنا القبول والانقياد.

بيان قوله :

وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتٍ خَلَقَهُ لَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ: لَا سَمِيٍّ لَهُ، وَلَا كُفٍّ لَهُ، وَلَا نِدٍّ لَهُ.

فيه أن أهل السنة يُثبتون لله ما يليق بجلاله ولا يقولون إن صفات الله كصفات المخلوقين لأن الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ويقول: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

قال الطبري : والكُفُوُ والكُفَى والكِفَاءُ في كلام العرب واحد، وهو المثل والشُّبُه، ومنه قول نابغة بني ذبيان:

لَا تَقْذِفَنِي بِرُكْنٍ لَا كِفَاءَ لَهُ وَلَوْ تَأْتَفَكَ الْأَعْدَاءُ بِالرَّفْدِ

يعني: لا كِفَاءَ له: لا مثل له. انتهى

ويقول : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وهذا استفهام إنكاري وضابطه أنه بمعنى حرف النفي، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شبهاً.

وكذلك قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن جريج وغيرهم.

ويقول تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، قال أبو جعفر الطبري: والأنداد جمع ند، والند: العِدْلُ والمِثْل، كما قال حسان بن ثابت:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِنْدٌ فَشَرُّكُمْ لِحَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

يعني بقوله: (ولست له بند)، لست له بمثل ولا عدل. وكل شيء كان نظيراً لشيء وله شبيهاً فهو له ند. انتهى وهذه العبارات الثلاث (لا كفؤ، ولا سمي ولا ند له) معانيها متقاربة.

وقوله: (لَا تَنْهَ سُبْحَانَهُ لَا سَمِيَّ لَهُ.. إلخ) تعليل لقوله عن أهل السنة لا

يمثلون على ما تقدم.

بيان قوله :

لا يقاس الله بخلقه .

قال الخطيب في الفقيه والمتفقه : القياس على ضربين: ضرب منه في التوحيد، وضرب في أحكام الشريعة: فالقياس في التوحيد على ضربين: ضرب هو القياس الصحيح وهو: ما استدل به على معرفة الصانع تعالى وتوحيده، والإيمان بالغيب، والكتب، وتصديق الرسل، فهذا قياس محمود فاعله، مذموم تاركة والضرب الثاني من القياس في التوحيد: هو القياس المذموم الذي يؤدي إلى البدع والإلحاد، نحو تشبيه الخالق بالخلق، وتشبيه صفاته بصفات المخلوقين، ودفع قايسه ما أثبت الله تعالى لنفسه، ووصفته به رسله مما ينفيه القياس بفعله وأما الضرب الثاني من الأصل وهو المتعلق بأحكام الشريعة فهو على وجهين أيضًا: أحدهما: قياس الشيء على نظيره وشبيهه، فذلك محمود والآخر: قياسه على غير نظيره وشبيهه، فذلك مذموم. انتهى

وقال ابن عبد البر في جامع بيان العلم : لا خلاف بين فقهاء الأمصار وسائر أهل السنة، وهم أهل الفقه والحديث في نفي القياس في التوحيد وإثباته في الأحكام إلا داود بن علي بن خلف الأصفهاني ثم البغدادي ومن قال بقولهم، فإنهم نفوا القياس في التوحيد والأحكام جميعا، وأما أهل البدع فعلى

قولين في هذا الباب سوى القولين المذكورين، منهم من أثبت القياس في التوحيد والأحكام جميعاً، ومنهم من أثبت في التوحيد ونفاه في الأحكام. انتهى والقياس في باب التوحيد ثلاثة أقسام:

(١) **قياس الأولى:** ومضمونة كل كمال ثبت للمخلوق وجاز أن يتصف الله به؛ فالله أولى به، وكل نقص تنزه عنه المخلوق، فالخالق أحق بالتنزه عنه.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٣٥٠ / ١٢): ولهذا كانت الطريقة النبوية السلفية أن يستعمل في العلوم الإلهية قياس الأولى، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، إذ لا يدخل الخالق والمخلوق تحت قضية كلية تستوي أفرادها، ولا يتماثلان في شيء من الأشياء، بل يعلم أن كل كمال لا نقص فيه بوجه ثبت للمخلوق فالخالق أولى به، وكل نقص وجب نفيه عن المخلوق فالخالق أولى بنفيه عنه. اهـ

(٢) **قياس التمثيل:** وهو القياس الذي يستوي فيه الأصل والفرع والله منزّه عن هذا بل هذا النوع من الأقيسة في حقه كفر وضلال؛ لأن من مثل الله بخلقه كفر.

(٣) **قياس الشمول:** وهو الذي تستوي أفرادُه وضابطه عندهم الاستدلال بكلي على جزئي بواسطة اندراج ذلك الجزئي مع غيره تحت هذا الكلي، وهذا قياس باطل وضلال وكفر؛ لأنه يؤدي إلى مماثلة الخالق بالمخلوق.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٢٠٠ / ٥): ومعلوم أن كل كمال حصل للمخلوق فهو من الرب وله المثل الأعلى، فكل كمال حصل

للمخلوق فالخالق أحق به، وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أحق أن ينزه عنه؛ ولهذا كان لله المثل الأعلى، فإنه لا يقاس بخلقه ولا يمثل بهم، ولا تضرب له الأمثال. فلا يشترك هو والمخلوق في قياس تمثيل بمثل؛ ولا في قياس شمول تستوي أفرادهم، بل: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]. اهـ

فالواجب على المسلمين أن يثبتوا ما أثبتته الله لنفسه وما أثبتته رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل مع إثبات الكمال المقدس لله، وسيأتي بيان مذهب السلف الصالح في هذا الباب إن شاء الله تعالى. فكما أن القياس محرم في باب التوحيد والعقائد، ولا يجوز كذلك رد الأدلة بالأقيسة الفاسدة، فلا يجوز كذلك ضرب الأمثال الباطلة المخالفة للأدلة والتي تؤدي إلى ترك الحق والسنة، فما جاءك من أمر الله وأمر رسول الله فخذ به واعمل به على ما جاء، سواء كان اعتقاداً، أو عملاً، من غير اتباع الهوى وضرب الأمثال الباطلة؛ فإن اتباع الأهواء سبب للضلال.

بيان قوله :

فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ؛ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلاً، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ.

بيان وتعليل لصحة طريقة السلف في هذا الباب وغيره، حيث أخذوا العلوم من الكتاب والسنة، ومعلوم أن الوحي من الله تعالى، وهو أعلم بنفسه وبغيره، قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، وهو تعالى أصدق قِيلاً، وأحسن حديثاً قال : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال :

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وهذا بيان من المصنف إلى وجوب قبول خبر الله تعالى.

بيان قوله :

ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مُصَدِّقُونَ.

أي صادقون في أنفسهم، مصدوقون من ربهم ومليكهم.

قال الهراس:

وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا تَقْصُرُ دَلَالَتُهُ عَلَى الْمَعَانِي الْمُرَادَةِ مِنْهُ لِأَحَدٍ ثَلَاثَةً أَسْبَابٍ: إِمَّا لِجَهْلِ الْمُتَكَلِّمِ وَعَدَمِ عِلْمِهِ بِمَا يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَإِمَّا لِعَدَمِ فَصَاحَتِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْبَيَانِ، وَإِمَّا لَكُذِبِهِ وَغَشِّهِ وَتَدْلِيلِهِ، وَنُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةُ بَرِيئَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، فَكَلَامُ اللَّهِ وَكَلَامُ رَسُولِهِ فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ وَالْبَيَانِ؛ كَمَا أَنَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي الصِّدْقِ وَالْمُطَابَقَةِ لِلْوَاقِعِ؛ لِصُدُورِهِ عَنْ كَمَالِ الْعِلْمِ بِالنَّسَبِ الْخَارِجِيَّةِ، وَهُوَ كَذَلِكَ صَادِرٌ عَنْ تَمَامِ النَّصْحِ، وَالشَّفَقَةِ، وَالْحَرَصِ عَلَى هِدَايَةِ الْخَلْقِ وَإِرْشَادِهِمْ.

فَقَدْ اجْتَمَعَتْ لَهُ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي هِيَ عَنَاصِرُ الدَّلَالَةِ وَالْإِفْهَامِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ. فَالرَّسُولُ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِمَا يُرِيدُ إِخْبَارَهُمْ بِهِ، وَهُوَ أَقْدَرُهُمْ عَلَى بَيَانِ ذَلِكَ وَالْإِفْصَاحِ عَنْهُ، وَهُوَ أَحْرَصُهُمْ عَلَى هِدَايَةِ الْخَلْقِ، وَأَشَدُّهُمْ إِرَادَةً لِدَلِّكَ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَ فِي كَلَامِهِ شَيْءٌ مِنَ النِّقْصِ وَالْقُصُورِ؛ بِخِلَافِ كَلَامِ غَيْرِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ نَقْصٍ فِي أَحَدِ هَذِهِ الْأُمُورِ أَوْ جَمِيعِهَا، فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُعَدَلَ

بِكَلَامِهِ كَلَامٌ غَيْرُهُ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُعَدَلَ عَنْهُ إِلَى كَلَامٍ غَيْرِهِ؛ فَإِنَّ هَذَا هُوَ غَايَةُ الضَّلَالِ، وَمُنْتَهَى الْخِذْلَانِ. انتهى

بيان قوله :

بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ.

أي: من أهل البدع والإلحاد والتعطيل والتمثيل فكل من ضلّ في هذا الباب فهو بسبب قوله بغير علم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وذلك بسبب بعدهم عن فهم السلف الصالح رضوان الله عليهم.

بيان قوله :

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

قَوْلُهُ: (وَلِهَذَا قَالَ.. إلخ) تعليل لما تقدّم من كون كلام الله وكلام رسوله أكمل صدقًا، وأتمّ بيانًا ونُصْحًا، وأبعد عن العيوب والآفات من كلام كلِّ أحد.

و(سُبْحَانَ) اسمُ مُصَدَّرٍ مِنَ التَّسْبِيحِ، الَّذِي هُوَ التَّنْزِيهِ وَالْإِبْعَادُ عَنِ السُّوءِ، وَأَصْلُهُ مِنَ السَّبَحِ، الَّذِي هُوَ السُّرْعَةُ وَالْإِنْطِلَاقُ وَالْإِبْعَادُ، وَمِنْهُ فَرَسٌ سَبُوحٌ؛ إِذَا كَانَتْ شَدِيدَةَ الْعَدْوِ.

وَإِضَافَةُ الرَّبِّ إِلَى الْعِزَّةِ مِنْ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى صِفَتِهِ، وَهُوَ بَدَلٌ مِنَ الرَّبِّ قَبْلَهُ. أفاده المهراس

وكلمة (سبحان الله) يؤتى بها للتنزيه (سبحان ربك) أي: يُنزه ربك عما يصفه به المبطلون ولهذا جاء عن أصحاب النبي أنهم كانوا إذا صعدوا كبروا وإذا نزلوا سبّحوا، قال العلماء في معنى ذلك إن النزول سُفل والله منزّه عن السفّل فناسب أن يُنزه الله بقوله سبحان الله، وهذه الكلمة متضمنة لنفي جميع النقائص عن الله وتستلزم إثبات جميع المحامد لله لأن نفي النقائص يلزم منه إثبات المحامد وهي ضدّ كلمة الحمد لله من ناحية التضمن والالتزام فكلمة الحمد لله تتضمن إثبات جميع المحامد لله وتستلزم نفي جميع النقائص عن الله .

وأضاف الله تعالى الربوبية إلى النبي وهي ربوبية خاصّة تقتضي معنى أخصّ وهو العناية والتوفيق والتسديد والحفظ، والربوبية العامّة يدخل فيها البرّ والفاجر والمؤمن والكافر.

• ونذكر هنا للفائدة بعض المواطن التي يُشرع فيها التسبيح:

﴿فَمِنْهَا فِي دَبْرِ الصَّلَاةِ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ جَاءَ الْفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِيِّ فَقَالُوا ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الْأَمْوَالِ بِالدرَجَاتِ الْعَلَا وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحْجُونَ بِهَا وَيَعْتَمِرُونَ وَيُجَاهِدُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، قَالَ : «أَلَا أُحَدِّثُكُمْ إِنْ أَخَذْتُمْ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ تُسَبِّحُونَ وَتُحَمِّدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ فَاخْتَلَفْنَا

بَيْنَنَا فَقَالَ بَعْضُنَا نُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَنَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَنُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ تَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ حَتَّى يَكُونَ مِنْهُمْ كُلُّهُمْ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ»، رواه البخاري (٨٤٣) ومسلم (٥٩٥).

🕯️ **ومنها في الركوع وفي السجود،** لحديث حذيفة عند مسلم (٧٧٢)، قال : صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبَقْرَةَ فَقُلْتُ يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ. ثُمَّ مَضَى فَقُلْتُ يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ فَمَضَى فَقُلْتُ يَرْكَعُ بِهَا. ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ». فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ». ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى». فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ. قَالَ وَفِي حَدِيثٍ جَرِيرٍ مِنَ الزِّيَادَةِ فَقَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ».

🕯️ **ومنها عند النوم،** فعن أبي هريرة عند البخاري (٦٣٢٠) ولفظه عند مسلم (٢٧١٤)، قال النبي ﷺ : «إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَأْخُذْ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ فَلْيَنْفُضْ بِهَا فِرَاشَهُ وَلْيُسَمِّ اللَّهَ فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا خَلْفَهُ بَعْدَهُ عَلَى فِرَاشِهِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَضْطَجِعَ فَلْيَضْطَجِعْ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ وَلْيَقُلْ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبِّي بِكَ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ إِنْ أَمْسَكَتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاخْفِظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ».

🕯️ **ومنها عند النزول،** لحديث جابر بن عبد الله قال: «كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا»، رواه البخاري (٢٩٩٣).

🕯️ ومنها عند رؤية سماع ما يُتَعَجَّبُ منه، فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أَسْمَاءَ سَأَلَتِ النَّبِيَّ عَنْ غُسْلِ الْمَحِيضِ فَقَالَ: «تَأْخُذُ إِحْدَاكُنَّ مَاءَهَا وَسِدْرَتَهَا فَتَطَهَّرُ فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهِ دَلَكًا شَدِيدًا حَتَّى تَبْلُغَ شُئُونَ رَأْسِهَا ثُمَّ تَصُبُّ عَلَيْهَا الْمَاءَ. ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فَتَطَهَّرُ بِهَا». فَقَالَتْ أَسْمَاءُ وَكَيْفَ تَطَهَّرُ بِهَا فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ تَطَهَّرِينَ بِهَا». فَقَالَتْ عَائِشَةُ كَأَنَّمَا تُخْفِي ذَلِكَ تَبَعِينَ أَثَرِ الدَّمِ. وَسَأَلَتْهُ عَنْ غُسْلِ الْجَنَابَةِ فَقَالَ: «تَأْخُذُ مَاءً فَتَطَهَّرُ فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ - أَوْ تُبْلِغُ الطُّهُورَ - ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهِ حَتَّى تَبْلُغَ شُئُونَ رَأْسِهَا ثُمَّ تُفِيضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ». فَقَالَتْ عَائِشَةُ نَعَمْ النِّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ، رواه مسلم (٣٣٢).

🕯️ وعند أن يُذكر الله بسوء، قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصفات: ١٨٠]، أي يُنزه الله عن هذا وهي من أحب الكلام إلى الله ومن أثقل الكلام في الميزان، قال الرسول: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤)، وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند أحمد (٦٥٨٣) قال النبي: «إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ: أَمْرُكَ بِاثْنَتَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنِ اثْنَتَيْنِ، أَمْرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ، لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ، رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ،

كُنْ حَلَقَةً مَبْهَمَةً، فَصَمْتُهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ الْخَلْقُ، وَأَنْهَاكَ عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ».

وقوله: (رب العزة) أي الموصوف بالعزة وقد جاء في الحديث: «اجْعَلْ يَدَكَ الْيُمْنَى عَلَيْهِ - أي الوجل - وَقُلْ بِسْمِ اللَّهِ أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ، وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ، وَأُحَازِرُ، سَبْعَ مَرَّاتٍ، فَقُلْتُ ذَلِكَ، فَشَفَانِي اللَّهُ»، أخرجه ابن ماجه (٣٥٢٢) واللفظ له، وأبوداود (٣٨٩١)، وأحمد (١٦٢٦٨)، من حديث عثمان بن أبي العاص وأصله في مسلم ومن المعلوم أنّ الاستعاذة بالخلق فيما لا يقدر عليه إلا الله لا يجوز، فكانت الاستعاذة هنا بالله وبصفته وفي يمين إبليس: ﴿قَالَ فِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، وفي يمين أيوب: «بَلَى وَعِزَّتِكَ، وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٧٩)، وهي صفة يتضمنها اسم العزيز وهي بمعنى مقارب لمعنى القوة فالله القويّ صاحب العزة الموصوف بها.

وقوله: (عما يصفون) أي عما يصفه به المخالفون للرسول من قولهم إنّ له صاحبة وولداً ويدخل في ذلك من ينكر أسماء الله وصفاته وقوله عما يصفون لكثرة المخالفين في هذا الباب.

بيان قوله :

وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ.

قوله: (وسلام) دعاء بالسلامة والله هو السلام، ولما خلق الله آدم قال: «اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلِيَّكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَاسْتَمِعْ مَا يُحْيِيكَ تَحْيِيَّتَكَ

وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ فَقَالُوا السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ فَلَمْ يَزَلْ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٣٢٦) ومسلم (٢٨٤١)، وفي الحديث: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»، من حديث ثوبان عند مسلم (٥٩١)، وكان الصحابة إذا صلّوا خَلَفَ النَّبِيَّ ، قالوا: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ : «لَا تَقُولُوا السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ»، من حديث ابن مسعود ، رواه البخاري (٧٣١) و (٨٣٥) و (٦٢٣٠) و (٦٣٢٨) و (٧٣٨١)، مسلم (٤٠٢).

وقوله: (على المرسلين) المراد بهم من أرسل الله وأوحى إليهم بشرع ويُرسَل إلى قوم مخالفين على ما تقدّم، ثم إنهم قد جمعوا لكونهم قد اتفقوا في باب العقائد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى الْأَنْبِيَاءِ أَبْنَاءِ عَلَاتٍ وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ عِيسَى نَبِيٌّ» أخرجه مسلم.

بيان قوله :

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

حمد نفسه سبحانه لما له من نعوت الجلال، والكمال، والجمال، والعظمة، وهو سبحانه المتصف بالكمال المقدس من كل وجه، وهو سبحانه يحب المدح ففي عَنِ الْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفِحٍ عَنْهُ. فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ فَوَاللَّهِ لَا أَنَا أَغَيْرُ مِنْهُ وَاللَّهُ أَغَيْرُ مِنِّي مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللَّهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا شَخْصَ أَغَيْرُ مِنَ اللَّهِ وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ اللَّهُ الْمُرْسَلِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمُدْحَةُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْجَنَّةَ». أخرجه مسلم (١٤٩٩)

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغَيْرُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ». أخرجه البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠).

قال أبو جعفر الطبري: قد مضى البيان عن تأويل اسم الله الذي هو (الله)، في (بسم الله)، فلا حاجة بنا إلى تكراره في هذا الموضع.

وأما تأويل قوله: (رَبِّ)، فإنَّ الرَّبَّ في كلام العرب منصرفٌ على معانٍ: فالسيد المطاع فيها يدعى ربًّا، ومن ذلك قول لبيد بن ربيعة:

وَأَهْلَكَنْ يَوْمًا رَبًّا كِنْدَةً وَابْنَهُ وَرَبًّا مَعَدًّا بَيْنَ خَبْتٍ وَعَرَعَرٍ

يعني برَّب كندة: سيّد كندة. ومنه قول نابغة بني ذبيان:

تَخَبُّ إِلَى السُّعْمَانِ حَتَّى تَنَالَهُ فِدَى لَكَ مِنْ رَبِّ طَرِيفِي وَتَالِيدِي

والرجل المصلح للشيء يُدعى ربًّا. انتهى

كل ما سوى الله عالم والعالمون جمع عالم، والعالم: جمع لا واحد له من لفظه، كالأنام والرهط والجيش، ونحو ذلك من الأسماء التي هي موضوعات على جماع لا واحد له من لفظه.

وقوله: (العَالَمِينَ) العالم اسم لأصناف الأمم، وكل صنف منها عالم، وأهل كل قرن من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان. فالإنس عالم، وكل أهل زمان منهم عالم ذلك الزمان. والجن عالم، وكذلك سائر أجناس الخلق، كل جنس منها عالم زمانه. ولذلك جمع فقيلاً: عالمون، وواحد جمع، لكون عالم كل زمان من ذلك عالم ذلك الزمان. ومن ذلك قول العجاج:

* فَخِنْدِفٌ هَامَةٌ هَذَا الْعَالَمُ *

فجعلهم عالم زمانه. وهذا القول الذي قلناه، قول ابن عباس وسعيد بن جبير، وهو معنى قول عامة المفسرين. انتهى

بيان قوله :

فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمَخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ
لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ.

أي نزه نفسه عما وصفه به المخالفون في هذا الباب ولأن قولهم متضمن للتعطيل والتمثيل والتحريف والتأويل بما يؤدي إلى تمثيل الله بالجمادات والمتناقضات.

قوله: (وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ).

سلم على المرسلين لسلامة طريقهم وسلامة ما قالوه، فالمرسلون أعلم الناس بالله تعالى والمبلغون وحيه وتنزيله، فطريقهم هو السبيل القويم، والطريق المستقيم الذي من خالفه مخطئ زل ومن خالفه متعمدا ضل.

قال الشوكاني في تفسيره فتح القدير :

ثم نزه سبحانه نفسه عن قبيح ما يصدر منهم، فقال: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصفات: ١٨٠] العزّة: الغلبة، والقوة، والمراد: تنزيهه عن كل ما يصفونه به مما لا يليق بجنابه الشريف، وربّ العزّة بدل من ربك. ثم ذكر ما يدلّ على تشريف رسله، وتكريمهم، فقال: ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصفات: ١٨١] أي: الذين أرسلهم إلى عباده، وبلغوا رسالاته، وهو من السلام الذي هو: التحية. وقيل: معناه: أمن لهم، وسلامة من المكارة. ﴿وَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات: ١٨٢] إرشاد لعباده إلى حمده على إرسال رسله إليهم مبشرين، ومنذرين، وتعليم لهم كيف يصنعون عند إنعامه عليهم، وما يشنون عليه به. وقيل: إنه الحمد على هلاك المشركين، ونصر الرسل عليهم، والأولى أنه حمد الله سبحانه على كل ما أنعم به على خلقه أجمعين كما يفيد حذف المحمود عليه، فإن حذفه مشعر بالتعميم كما تقرّر في علم المعاني، والحمد هو: الثناء الجميل بقصد التعظيم. انتهى

بيان قوله :

وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيهَا وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ يَنْ: النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ.

أي: جمع الله تعالى بين النفي والاثبات لأن النفي وحده عدم والعدم ليس بشيء والاثبات وحده لا يمنع المشاركة ويشترط في الصفات المنفية أو السلبية أن تكون متضمنة لكمال الضد، قال الله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ تُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، لكمال قوته، وقال الله: ﴿لَمْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]، لقيوميته وحياته، وقال الله: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلُهُ لِعِجْزِهِ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، لكمال علمه وقدرته فكل صفة سلبية دل عليها القرآن والسنة تتضمن كمال الضد، قال الله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، لكمال عدله، والصفات المنفية يشترط فيها أمران:

• **الأول:** دلالة الكتاب والسنة على ذلك.

• **الثاني:** أن لا يكون النفي محضاً، ولهذا قال بعض الشعراء يهجو قبيلته:

فَبَيْلَهُ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ

وقال الآخر:

وَإِنْ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

لأنهم لا يستطيعون الشر أصلاً، وإلا لو كان الإنسان يستطيع الشر وتركه، يكون مدحاً في حقه، فصفات الله الثبوتية تدل على الكمال، السمع والبصر والقدرة والإرادة، وصفات الله المنفية تتضمن كمال الضد.

ومن هذا علم أن الصفات تنقسم إلى قسمين:

• **القسم الأول صفات ثبوتية:** وهي ما أثبتته الله لنفسه وما أثبتته له رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وهي منقسمة إلى ثلاثة أقسام:

❶ **الأول:** صفات ثبوتية معنوية: كالعلم، والقدرة، والسمع، وغير ذلك.

❷ **الثاني:** صفات ثبوتية خبرية: كالوجه، واليدين، والساق، والساعد، وغير ذلك.

❸ **الثالث:** صفات فعلية: كالغضب، والرضا، والسخط، وغير ذلك. وهي المتعلقة بمشيئة الله .

• **القسم الثاني صفات منفية:** وهو ما نفاه الله عن نفسه ونفاه عنه رسوله مع اعتقاد أن هذه الصفات تتضمن كمال الضد.

فائدة: الأصل وصف الله بالصفات الثبوتية لأن الصفات الثبوتية كمال فكلما تعددت وتنوعت ظهر من كمال الله ما لم يكن ظاهرًا من قبل بينما الصفات المنفية يؤتى بها في حق الله لثلاثة أمور:

❶ **الأول:** لدفع توهم نقص كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، لما أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام قد يتوهم متوهم ممن لم يعرف قدرة الله أن الله إنما خلق السموات والأرض في هذه الأيام لعجز أو تعب كما قالت اليهود إنه استراحه في اليوم السابع فقال الله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾.

❦ **الثاني:** دفع ما ادّعاه في حقّه المبطلون كما قال الله : ❦ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ ❦ [الإخلاص: ٣]، لما زعموا أنّ له ولد وأنّ له صاحبة قال سبحانه: ❦ أَفَنُيَكُونُ لَهُ، وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً ❦ [الأنعام: ١٠١].

❦ **الثالث:** لبيان عموم الكمال في مثل قوله: ❦ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفُوًا أَحَدٌ ❦ [الإخلاص: ٤]، وقال تعالى: ❦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ، سَمِيًّا ❦ [مريم: ٦٥]، وقوله تعالى: ❦ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ❦ [الشورى: ١١].

بيان قوله :

فَلَا عُدُولَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ.

العدول هنا بمعنى أي فلا ميل ولا إنحراف، أي تميلون، لأهل السنة والجماعة عَمَّا جاء به المرسلون، ثم هو لا يساون شيئاً بما جائتهم به الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - عن الله تعالى، وفي هذا بيان لأهمية المتابعة للنبي في كل ما جل ودق وكبر وصغر، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، قال الله تعالى: ❦ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ❦ [الأعراف: ٣]. وقال تعالى: ❦ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ❦ [الأحزاب: ٣٦].

وقال تعالى: ❦ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ❦ [النساء: ٦٥].

وقال تعالى: ❦ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ❦ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: (اتَّبِعُوا، وَلَا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفَيْتُمْ، كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ).

وَعَنْ أَبِي الصَّلْتِ قَالَ: كَتَبَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَسْأَلُهُ عَنِ الْقَدَرِ فَكَتَبَ أَمَّا بَعْدُ أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالْإِقْتِصَادِ فِي أَمْرِهِ وَاتِّبَاعِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ وَتَرْكِ مَا أَحَدَثَ الْمُحَدِّثُونَ بَعْدَ مَا جَرَتْ بِهِ سُنَّتُهُ وَكُفُّوا مُؤَنَّتَهُ فَعَلَيْكَ بِالزُّومِ السُّنَّةِ فَإِنَّهَا لَكَ بِإِذْنِ اللَّهِ عِصْمَةٌ ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يَتَدَعِ النَّاسُ بِدْعَةً إِلَّا قَدْ مَضَى قَبْلَهَا مَا هُوَ دَلِيلٌ عَلَيْهَا أَوْ عِبْرَةٌ فِيهَا فَإِنَّ السُّنَّةَ إِنَّمَا سَنَّهَا مَنْ قَدْ عِلِمَ مَا فِي خِلَافِهَا وَلَمْ يَقُلْ ابْنُ كَثِيرٍ مَنْ قَدْ عِلِمَ مِنَ الْخَطِئِ وَالزَّلَلِ وَالْحُمُقِ وَالتَّعَمُّقِ فَارْضَ لِنَفْسِكَ مَا رَضِيَ بِهِ الْقَوْمُ لِأَنفُسِهِمْ فَإِنَّهُمْ عَلَى عِلْمٍ وَقَفُوا وَبَيَّصُوا نَافِذِ كُفُّوا وَهُمْ عَلَى كَشْفِ الْأُمُورِ كَانُوا أَقْوَى وَبِفَضْلِ مَا كَانُوا فِيهِ أَوْلَى فَإِنْ كَانَ الْهُدَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ لَقَدْ سَبَقْتُمُوهُمْ إِلَيْهِ وَلَكِنْ قُلْتُمْ إِنَّمَا حَدَثَ بَعْدَهُمْ مَا أَحَدَثَهُ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِهِمْ وَرَغِبَ بِنَفْسِهِ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ هُمُ السَّابِقُونَ فَقَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ بِمَا يَكْفِي وَوَصَفُوا مِنْهُ مَا يَشْفِي فَمَا دُونَهُمْ مِنْ مَقْصَرٍ وَمَا فَوْقَهُمْ مِنْ مُحْسَرٍ وَقَدْ قَصَرَ قَوْمٌ دُونَهُمْ فَجَفَوْا وَطَمَحَ عَنْهُمْ أَقْوَامٌ فَعَلَوْا وَإِنَّهُمْ بَيْنَ ذَلِكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ كَتَبَتْ تَسْأَلُ عَنِ الْإِقْرَارِ بِالْقَدَرِ فَعَلَى الْخَبِيرِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَعَتْ مَا أَعْلَمُ مَا أَحَدَثَ النَّاسُ مِنْ مُحَدَّثَةٍ وَلَا ابْتَدَعُوا مِنْ بِدْعَةٍ هِيَ أَبَيْنُ أَثَرًا وَلَا أَثَبْتُ أَمْرًا مِنَ الْإِقْرَارِ بِالْقَدَرِ لَقَدْ كَانَ ذِكْرُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْجُهْلَاءِ يَتَكَلَّمُونَ بِهِ فِي كَلَامِهِمْ وَفِي شِعْرِهِمْ يُعَزُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ عَلَى مَا فَاتَهُمْ ثُمَّ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ بَعْدُ إِلَّا شِدَّةً وَلَقَدْ ذَكَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ فِي غَيْرِ حَدِيثٍ وَلَا حَدِيثَيْنِ وَقَدْ سَمِعَهُ مِنْهُ الْمُسْلِمُونَ فَتَكَلَّمُوا بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ

يَقِينًا وَتَسْلِيًا لِرَبِّهِمْ وَتَضَعِيفًا لِنَفْسِهِمْ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ لَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمُهُ وَلَمْ يُخْصِهِ كِتَابُهُ وَلَمْ يَمُضِ فِيهِ قَدْرُهُ وَإِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ لَفِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ مِنْهُ اقْتَبَسُوهُ وَمِنْهُ تَعَلَّمُوهُ وَلَئِنْ قُلْتُمْ لَمْ أَنْزَلِ اللَّهُ آيَةً كَذَا لَمْ قَالَ كَذَا لَقَدْ قَرَأُوا مِنْهُ مَا قَرَأْتُمْ وَعَلِمُوا مِنْ تَأْوِيلِهِ مَا جَهِلْتُمْ وَقَالُوا بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ بِكِتَابٍ وَقَدَرٍ وَكُتِبَتِ الشَّقَاوَةُ وَمَا يُقَدَّرُ يَكُنْ وَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَلَا نَمْلِكُ لِنَفْسِنَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ثُمَّ رَغَبُوا بَعْدَ ذَلِكَ.

بيان قوله :

فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ،
وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ.

تعليل لقوله: (فلا عدول لأهل السنة) فهذا هو السبب الذي يلزم به أهل السنة طريق السلف، قال الله : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، والصراط المستقيم هو الكتاب والسنة ولا يكون إلا واحدا قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال : ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ١ فالصراط كما قال ابن القيم يتضمن خمسة شروط: أن يكون مستقيما، وأن يوصل إلى المطلوب، وأن يكون واسعا، وأن يكون مسلوگا وأن يكون سهلا.

والصراط ينقسم إلى قسمين: صراط حسبي وصراط معنوي، فأما الصراط الحسبي فهو الجسر الممدود على متن جهنم يجوزه المؤمنون يوم القيامة وأما الصراط المعنوي فهو الإسلام كما في حديث النّوّاس بن سميان عند أحمد ، (١٧٦٣٤) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ: « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَيْهِ الصَّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصَّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصَّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصَّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلْجُهُ، وَالصَّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللَّهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مُحَارِمُ اللَّهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصَّرَاطِ: كِتَابُ اللَّهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصَّرَاطِ: وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ ».

فمن سلم على الصراط المعنوي سلم على الصراط الحسبي ومن انحرف عن الصراط المعنوي انحرف عن الصراط الحسبي بقدر انحرافه.

قوله: (أنعم عليهم) بالإسلام، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قال السعدي : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع، ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه.

فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة، من علم الكلام وغيره، فهو جاهل، مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم

والتجهيل لله ولرسوله، ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ الظاهرة والباطنة، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي: اخترته واصطفيته لكم دينا، كما ارتضيتكم له، فقوموا به شكرا لربكم، واحمدوا الذي منَّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها. انتهى

قوله: (من النبيين) من لبيان الجنس لا للتبويض فكل رسل الله تعالى وأنبيائه منعمٌ عليهم، ويدخل في الآية المرسلون دخولاً أولياً لأنهم أفضل من الأنبياء ولأن كل رسول نبي ولا عكس.

قوله: (الصديقين) وهم: الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل، فعلموا الحق وصدقوه بيقينهم، وطبقوه قولاً وعملاً وحالاً وقالوا وهم أفضل الناس بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكان أبو بكر صديقاً وقال تعالى في مريم: ﴿مَا أَلَمَسْ�ِحُ أَبْنُ مَرِيْمَ إِلَّا رَسُوْلٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيْقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

قال الطبري : و(الصِدِّيْقَةُ) (الفِعْلِيَّةُ)، من (الصدق)، وكذلك قولهم: (فلان صِدِّيق)، (فَعِيل) من (الصدق)... وقد قيل إن (أبا بكر الصديق) إنما قيل له: (الصِدِّيق) لصدقه. وقد قيل: إنما سمي (صديقاً)، لتصديقه النبي في مسيره في ليلة واحدة إلى بيت المقدس من مكة، وعوده إليها. انتهى

قوله: (الشهداء) جمع (شهيد)، وهم من قُتل في سبيل الله، وذروتهم من قُتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله تعالى وفي البخاري (٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤) عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حِمِيَّةً

وَيُقَاتِلُ رِيَاءً أَيْ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةً اللَّهُ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

وفي مسلم من حديث أبي هريرة (١٩١٥). عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، قَالَ: «إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذَا لَقِيتُ» قَالُوا: فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونَ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ»، قَالَ ابْنُ مِقْسَمٍ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِيكَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ: «وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ».

وقوله: (الصالحين) جمع (صالح)، وهو كل من صلحت سيرته وعلايته، وهو القائم بحدود الله تعالى وحقوق العباد ويشملهم قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢] مع تفاوت بينهم.

قوله :

وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ.

هذا شروع من المصنف في سوق بعض الأدلة مما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل هو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وهنا قواعد أذكرها قبل الشروع في التفصيل:

القاعدة الأولى: الله موصف بما وصف به نفسه في كتابه الكريم وما صح عن نبيه محمد الصادقين الأمين، وبيان ذلك أن أساء الله توقيفي يتوقف في أثبتها على الكتاب والسنة الصحيحة؛ لأنه لا يعرف كيف الله إلا الله ، وقد أوحى الله بذلك إلى محمد ، وقد تقدم شيء من ذلك.

والدليل على هذه القاعدة: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَأَلَّا تُمَ الْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

القاعدة الثانية: يجب على جميع المسلمين أن ينقادوا للكتاب والسنة، ولا سيما في هذا الباب، فما أثبتته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه، والدليل قوله الله : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]. ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْهَوْا﴾ [الحشر: ٧].

ومثال الإثبات: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]. فثبت لله السمع والبصر.

ومثال النفي: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فينزه الله عن النوم، ومقدماته لكمال قيوميته ؛ ولأنه نفى ذلك عن نفسه. وهنا تنبيه يعرف بالقاعدة الثالثة.

القاعدة الثالثة: عند الإثبات والنفي يجب التخلي من محاذير تجر إلى الباطل والضلال وتجر إلى الزيغ والانحراف.

أولاً: عند الإثبات: الحذر كل الحذر من التكييف والتمثيل، والتكييف: أن تتخيل لصفة الله كيفية وهيئة، فإن اقترن هذا التكييف بشيء موجود كان تمثيلاً، وإن لم يقترن كان تكييفاً، والتكييف والتمثيل من أعظم الإلحاد في أسماء الله وصفاته، فالله يقول: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] ويقول: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] ويقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وفي أثر نعيم بن حماد شيخ البخاري: (من شبه الله بخلقه كفر).

ويجب أن نؤمن أن لصفات الله كيفية وحقيقة لكننا نجهلها؛ لأنها لا تعلم كيفية الشيء إلا بالنظر إليه أو إلى مثيله، أو يحدثك من رآه عنه، وكل هذه منتفية في حق الله تعالى.

وعند التنزيه يجب التخلي من محذورين: الأول: التعطيل، والثاني: التحريف، والتعطيل في اللغة: هو التفريغ وفي الاصطلاح: هو تعطيل الله من معاني الصفات. والتحريف: هو الميل، وفي الاصطلاح: يكون التحريف إما بتغيير اللفظ بزيادة أو نقصان أو بهما أو تغيير المعنى.

ومن هذه الأمثلة المحذورة قول القائل: يد الله كيدي، فهذا باطل وكفر، أو قوله: يد الله كذا وكذا على كيفية ليست كالمخلوقات نقول: وهذا باطل، وكفر وحرام؛ لأنك تقول على الله ما لا تعلم.

ومن أمثلتها في باب التحريف والتعطيل أن يقول القائل: يد الله، هي نعمته، نقول: هذا باطل وحرام وكفر؛ لأنك صرفت اللفظ عن ظاهره الذي

أرداه الله ، وهو إثبات اليد لله سبحانه يداً تليق بجلاله لا تماثل صفات المخلوقين؛ إذ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

القاعدة الرابعة: كل اسم من أسماء الله يتضمن صفة: كقول الله : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فاسم الحي يتضمن صفة الحياة التي لم تسبق بعدم ولا يلحقها فناء، وكقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧] يتضمن اسم السميع صفة السمع واسم العليم صفة العلم؛ لأن أسماء الله أعلام وأوصاف، ولهذا كانت حسنى تدل على الذات وتدل على الوصف.

القاعدة الخامسة: كل فعل إضافة لله إلى نفسه يشتق منه صفة كقوله: ﴿قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى﴾ [آل عمران: ٥٥]، وكقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] فنثبت لله صفة الكلام كما يليق بجلاله وكقول النبي : «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ» الحديث في الصحيحين البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) عن أبي هريرة ، فنثبت لله صفة النزول كما يليق بجلاله.

القاعدة السادسة: ما أضيف إلى الله من المعاني التي تقوم بغيرها كالوجه والعين والكلام واليد وغير ذلك، فهو إضافة صفة إلى موصوف، وما أضيف إلى الله من المعاني التي تقوم بنفسها فإضافتها إلى الله إضافة خلق أو ملك كناية الله .

القاعدة السابعة: كل دليل يدل على وصف الله فإنه يبقى على ظاهره المتبادر للسان العربي، والفطرة السليمة المستقيمة ولا يجوز تحريفه؛ لأن هذا من

الإلحاد الذي حرمه الله : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

ومعلوم أن الله أنزل القرآن: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] فصرف اللفظ من المعاني الحققة إلى معاني باطلة يعتبر جناية على القرآن وعلى رب العالمين.

القاعدة الثامنة: ليعلم أن المتصف بالصفات أكمل من الذين لا صفات له، فلا يعقل أن يكون المخلوق المربوب الضعيف المحتاج يسمع ويبصر ويعلم ويقدر، والله معطل عن ذلك، بل يثبت لله الكمال اللائق به مما أثبتته لنفسه وما أثبتته له رسوله .

القاعدة التاسعة: لسنا أحرص من السلف رضوان الله عليهم، فهم قد أثبتوا لله ما أثبتته لنفسه، وما أثبتته له رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، فلا يلبس علينا شياطين الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، والقرامطة والفلاسفة بشبه أوهى من خيط العنكبوت.

(وَكُلُّ خَيْرٍ فِي اتِّبَاعِ مَنْ سَلَفَ)

القاعدة العاشرة: طريقة السلف أعلم وأحكم، فالسير عليها في جميع جوانب الحياة فما من خير إلا وسبقونا إليه، وما من شر وضير إلا وحذرونا منه، وقد يما قيل: عليك بأثار السلف وإن كرهك الناس.

القاعدة الحادية عشرة: الله أنزل القرآن وذكر فيه صفاته وأسمائه وذكر فيه الأحكام وغير ذلك، وكل هذه الآيات تُتلى على العالم والجاهل والذكر والأنثى، فليبلغ دين الله الحق وخصوصاً في هذا الباب.

القاعدة الثانية عشرة: أن القول في بعض الصفات كالقول في الصفات الأخرى، وهذه القاعدة رد على الأشاعرة الذين يثبتون لله سبع صفات وهي: حيٌّ، مريدٌ، قادرٌ، علام له السمع والبصر والكلام، زاعمين أن هذه دل عليها العقل، فيلزمهم أن يثبتوا لله هذه الصفات التي دل عليها الشرع والعقل الصحيح لا يعارض النقل الصحيح والعقل يعتبر في هذا الباب منقاداً لا قائداً.

قوله :

مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الْإِخْلَاصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ.

جاء من حديث أبي هريرة عند مسلم (٨١٢) عن النبيّ ذلك، قال : «احْشُدُوا، فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»، فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ ، فَقَرَأَ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، ثُمَّ دَخَلَ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: إِنِّي أَرَى هَذَا خَبَرٌ جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَذَاكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ ، فَقَالَ: «إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلَا إِنَّمَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»، في أحاديث كثيرة غير هذا.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُؤْمِنُهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ، وَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ بِهَا هُمْ فِي الصَّلَاةِ مِمَّا يَقْرَأُ بِهِ افْتَتَحَ: بِقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ

حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا، ثُمَّ يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَى مَعَهَا، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ، فَقَالُوا: إِنَّكَ تَفْتَحُ بِهَذِهِ السُّورَةَ، ثُمَّ لَا تَرَى أَنَّهَا تُجْزِئُكَ حَتَّى تَقْرَأَ بِأُخْرَى، فِيمَا تَقْرَأُ بِهَا وَإِمَّا أَنْ تَدْعَهَا، وَتَقْرَأَ بِأُخْرَى فَقَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِهَا، إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أُوْمِّكُمْ بِذَلِكَ فَعَلْتُ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ، وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ، وَكَرِهُوا أَنْ يُؤْمِّهُمْ غَيْرُهُ، فَلَمَّا أَتَاهُمُ النَّبِيُّ أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: «يَا فُلَانُ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ، وَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ» فَقَالَ: إِنِّي أَحِبُّهَا، فَقَالَ: «حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ»، البخاري (١/١٥٥).

وَعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِهِ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ فَقَالَ: «سَلُّوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ»، فَسَأَلُوهُ فَقَالَ: (لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ وَأَنَا أَحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا)، فَقَالَ النَّبِيُّ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ»، رواه البخاري (٧٣٧٥) معلقاً، ومسلم (٨١٣).

وجاء في فضلها أحاديث منها حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري (٥٠١٣) أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ يَرُدُّهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَقَالَّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّمَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

وفي صحيح مسلم (٨١١) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ، قَالَ: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟» قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

وعند أحمد (١٠٩١٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ حَتَّى خَتَمَهَا، فَقَالَ: «وَجَبَتْ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: «الْحِنَّةُ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَرَدْتُ أَنْ آتِيَهُ فَأُبَشِّرُهُ، فَأَثَرْتُ الْغَدَاءَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ، وَفَرِقْتُ أَنْ يَفُوتَنِي الْغَدَاءُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى الرَّجُلِ فَوَجَدْتُهُ قَدْ ذَهَبَ.

وسُمِّيت سورة الإخلاص لخلوصها ودلالاتها على التوحيد، ودلالاتها على توحيد الأسماء والصفات أصرح وأظهر وهي دالة على جميع أنواع التوحيد الثلاثة، فقله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، لفظ الجلالة (الله) مشتق من الإله فهو دالٌّ على توحيد الألوهية و(الأحد) كذلك دالٌّ على إفراد الله سواء في باب الألوهية أو في باب الربوبية أو في باب الأسماء والصفات ودلّت على الأسماء والصفات لأنها تضمّنت أسماء وصفات على ما يأتي بيانه موضحاً إن شاء الله وسورة الكافرون تُسمّى أيضاً بسورة الإخلاص حتى ذكر شيخ الإسلام تعالى في التدمرية أنّ النبيّ كان يقرأ بسورتي الإخلاص في المغرب، وجاء عن ابن عمر عند النسائي (٩٩٢)، قال النبيّ : رَمَقْتُ رَسُولَ اللَّهِ عَشْرِينَ مَرَّةً، يَقْرَأُ فِي الرُّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ وَفِي الرُّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ.

وجاء في الصحيح أنّه كان يقرأ بهما في الفجر، فعن أبي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَرَأَ فِي رُكْعَتَيِ الْفَجْرِ: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. رواه مسلم (٧٢٦).

وفي الطواف جاء عن جابر عند مسلم (١٢١٨) قال: كَانَ يَقْرَأُ فِي الرُّكْعَتَيْنِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الرُّكْنِ فَاسْتَلَمَهُ، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْبَابِ إِلَى الصَّفَا.

وهكذا صحَّ عن أبي بن كعب عند النسائي (١٦٩٩)، أَنَّ النَّبِيَّ كَانَ يُوتِرُ بِثَلَاثِ رَكَعَاتٍ، كَانَ يَقْرَأُ فِي الْأُولَى بِسَبْحِ اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى، وَفِي الثَّانِيَةِ بِقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، وَفِي الثَّالِثَةِ بِقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ.

فت (قل أيها الكافرون) أخلصت توحيد الألوهية، و (قل هو الله أحد) خلصت توحيد الأسماء والصفات، واستدلَّ شيخ الإسلام بهاتين السورتين على أَنَّ أصلي التوحيد هو باب المعرفة والإثبات وهذا متعلق بالأسماء والصفات ويدخل فيه توحيد الربوبية ويدلُّ عليه سورة الإخلاص أي قل هو الله أحد، والأصل الثاني توحيد الشرع والقصد والطلب ويدلُّ عليها: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ﴾ ١ ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١-٢].

قوله :

حَيْثُ يَقُولُ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ.

أي: قل يا محمد، فالأمر للنبيِّ أمر لأُمَّتِهِ، وجاء في سبب نزولها ما لا يثبت، ومنه: ما أخرجه أحمد (٢١٢١٩) الترمذي (٣٣٦٤) وغيرهما من طريق أبي جعفر الرّازي، عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ : يَا مُحَمَّدُ، انْشُبْ لَنَا رَبَّكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ١ ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ٢ ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ٣ وَلَمْ

يَكُنْ لَهُ، كُفُّوا أَحَدٌ ❖. وأخرجه الترمذي (٣٣٦٥) من طريق عبيد الله بن موسى، والطبري (٣٤٣/١) من طريق مهران بن أبي عمر العطار، والعقيلي (١٤١/٤) من طريق أبي النضر هاشم بن القاسم، ثلاثتهم عن أبي جعفر، به مرسلًا. وقال: هذا أصح من حديث أبي سعد. قلنا: وهو ضعيف أيضًا لضعف أبي جعفر الرازي.

وقوله: (الله) اسم الله علم على الذات العلية وهو متضمن لصفة الألوهية ويستلزم إثبات جميع صفات الجلال والكمال والعظمة والكبرياء وهو من الأسماء الخاصة بالله وهو الاسم الأعظم على ما تقدّم.

وقوله: (أحد) من أسماء الله الحسنى وهو يتضمن صفة الأحدية التي تمنع المشاركة والمماثلة، وهو بمعنى الواحد، وبه قال : ❖ وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ❖ [البقرة: ١٦٣]، قال : ❖ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ ❖ [النساء: ١٧١]، وقال تعالى: ❖ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ❖ [الرعد: ١٦]، في البخاري (٤٩٧٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنْ النَّبِيِّ قَالَ: « قَالَ اللَّهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي، كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُوَلَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُؤًا أَحَدٌ ».

في سنن أبي داود (٩٨٥) عَنْ حَنْظَلَةَ بْنِ عَلِيٍّ، أَنَّ مُحَجَّنَ بْنَ الْأَدْرِعِ، حَدَّثَهُ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ قَضَى صَلَاتَهُ، وَهُوَ يَتَشَهَّدُ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ يَا اللَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ

يَكُنْ لَهُ كُفُؤًا أَحَدٌ، أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، قَالَ: فَقَالَ: «قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ» ثَلَاثًا.

قوله :

اللهُ الصَّمَدُ.

عن ابن عباس في قوله: (الصَّمَدُ) يقول: السيد الذي قد كُمل في سُودده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد عظم في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسُودد، وهو الله سبحانه هذه صفته، لا تنبغي إلا له.. أخرجه الطبري فاسم الصمد من الأسماء الحسنى العظيمة المتضمنة لصفة الصمدية المتضمنة لنفي جميع النقائص، والمستلزمة لإثبات جميع صفات الكمال لله .

في سنن أبي داود (١٤٩٣) عن بُرَيْدَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤًا أَحَدٌ، فَقَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِالِاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ».

قوله :

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ.

أي لم يكن له ولد ولم يكن له والد وفي هذا بيان لما عليه أهل الحق من تنزيه الله تعالى عن مماثلة الخلق وفيه ردٌّ على النصارى ومن قال بقولهم من الضالين، وهذه من الصفات المنفية وقد تقدّمت القاعدة وأنّه يُثبت بها كمال الضدّ وهو هنا كمال حياته وقيوميته.

وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠١]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ ٨٨ ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۚ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ٩٢ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۚ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ سُبْحَنَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۚ لَا يَسْبِقُونَهُ ۚ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۚ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الصفّات: ١٥٨-١٥٩]. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: «لَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَدَى سَمِعِهِ مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ» وقد تقدم.

قوله :

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ولم يكن له شبهه ولا مثله وقال آخرون: معنى ذلك، أنه لم يكن له صاحبة. والصحيح

الأول قال الطبري: والكُفُو والكُفَى والكِفَاء في كلام العرب واحد، وهو المثل والشُّبُه؛ ومنه قول نابغة بني ذبيان:

لَا تَقْذِفَنِي بِرُكْنٍ لَا كِفَاءَ لَهُ وَلَوْ تَأَثَّفَكَ الْأَعْدَاءُ بِالرَّفْدِ

يعني: لا كِفَاءَ له: لا مثل له. انتهى

فلم يكن له مثل ولن يكون لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وقال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]

قال السعدي : فإن قوله: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: الله متفرد بالعظمة والكمال، ومتوحد بالجلال والجمال والمجد والكبرياء، يحقق ذلك قوله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أي: الله السيد العظيم الذي قد انتهى في سؤدده ومجده وكماله، فهو العظيم الكامل في عظمته، العليم الكامل في علمه، الحكيم الكامل في حكمه، فهو الكامل في جميع نعوته وأسمائه وصفاته، ومن معاني الصمد أنه الذي تصمد إليه الخلق كلها وتقصده في جميع حاجاتها ومهماتها، فهو المقصود، وهو الكامل المعبود. فإثبات الوجدانية لله ومعاني الصمدية كلها يتضمن إثبات تفاصيل جميع الأسماء الحسنى والصفات العلي، فهذا أحد نوعي التوحيد، وهو الإثبات وهو أعظم النوعين، والنوع الثاني: التنزيه لله عن الولادة والند والكفو والمثل، وهذا داخل في قوله: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، أي: ليس له مكافئ ولا مماثل ولا نظير، فمتى اجتمع للعبد هذه

المقامات المذكورة في هذه السورة، بأن نزه الله وقده عن كل نقص وند وكفؤ ومثيل، وشهد بقلبه انفراد الرب بالوحدانية والعظمة والكبرياء وجميع صفات الكمال التي ترجع إلى هذين الاسمين الكريمين وهما الأحد، الصمد، ثم صمد إلى ربه وقصده في عبوديته وحاجته الباطنة والظاهرة، متى كان كذلك - تم له التوحيد العلمي الاعتقادي والتوحيد العملي، فحق لسورة تشتمل على هذه المعارف أن تعدل ثلث القرآن. اهـ التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة (ص: ٢١).

وهذه السورة تَضَمَّنَتْ قواعد يسير عليها أهل السنة:

القاعدة الأولى: أن الأصل في الإثبات التفصيل لا الإجمال، في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، فتقول (الله السلام، المؤمن، المهيمن، البصير، السميع، القوي، العزيز...)، وتقول (يسمع، يبصر، يتكلم، يريد، يشاء...)، وقد يأتي الإجمال في الإثبات وهذه السورة دالة على ذلك فاسم (الصمد) وإن كان من باب التفصيل كذلك يتضمَّن إجمالاً من حيث أنه السيد الذي كمل في سؤدده فهو متضمَّن لصفات كثيرة ومنه قوله : ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، أي تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين، قال تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، كل هذا من الإجمال في الإثبات على ما يأتي بيانه.

القاعدة الثانية: أن الأصل في النفي الإجمال وهذه السورة تَضَمَّنَتْ ذلك لقوله : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، فهذا إجمال في النفي ويؤتى بالنفي لثلاثة أمور:

الأول: لدفع توهم نقص كما في قوله : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ غُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

الثاني: لبيان عموم كمال كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، وأيضاً قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

الثالث: لدفع ما ادّعاه في حقه المبطلون مثل قوله : ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

فهذه السورة تَضَمَّنَتْ الإجمال في النفي والتفصيل في النفي مثل قوله: ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾، وقد اختلفوا في معنى قول النبي : «إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»، والصحيح أن القرآن أحكام وتوحيد وقصص فكانت سورة الإخلاص ثلث القرآن من حيث أنها تتكلم في التوحيد. وفي هذا الحديث بيان أن القرآن يتفاضل على ما يأتي.

قوله :

وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ.

أي يدخل فيما تقدّم من الكلام فيما وصف به نفسه في أعظم آية من كتاب الله وهذه الآية هي آية الكرسي، جاء عن النبي أنه قال لأبي بن كعب ، فقال : «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ : «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ : «وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»، مسلم (٨١٠)، وقال النبي : «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ

دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ»، من حديث أبي أمامة عند النسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٠) وصححه العلامة مقبل بن هادي الوادعي في الصحيح المسند (٤٧٨)، وحديث أبي يدل على أن أسماء الله وصفاته تتفاضل لأن آية الكرسي من كلام الله وكانت أفضل آية في القرآن وأعظم آية في القرآن فدل على أن الأسماء والصفات تتفاضل، وفي هذا الباب ما أخرجه البخاري (٤٤٧٤) عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى، قَالَ: كُنْتُ أَصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أَصَلِّي، فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]». ثُمَّ قَالَ لِي: «لَأَعْلَمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّورِ فِي الْقُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ». ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: «أَلَمْ تَقُلْ لَأَعْلَمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ»، قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» [١] هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ.

قوله :

حَيْثُ يَقُولُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي لَيْلَةٍ؛ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ.

الحديث الذي أشار إليه المصنف أخرجه البخاري معلقاً (٢٣١١) من حديث أبي هريرة قال: وَكَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَخْتُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا زُفْعَنَكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَأَ حَاجَةٌ شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ» فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَخْتُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَا زُفْعَنَكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَأَ حَاجَةٌ شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ»، فَرَصَدْتُهُ الثَّلَاثَةَ، فَجَاءَ يَخْتُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَا زُفْعَنَكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ قَالَ: دَعْنِي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «مَا هِيَ؟»، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى

تُصْبِحُ - وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ - فَقَالَ النَّبِيُّ : «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطَبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟»، قَالَ: لَا، قَالَ: «ذَلِكَ شَيْطَانٌ». وجاء من حديث أبي الدرداء نحو هذا الحديث.

وهذه الآية تَضَمَّنَتْ معانٍ كثيرة، منها:

إثبات اسم الله الله ، وهو من الأسماء الخاصة به وفيه إثبات صفة الألوهية فكل اسم يتضمن صفة وإن كان اسم (الله) يدل على الذات والصفة بالمطابقة ويدل على صفة الألوهية بالتضمن وتثبت به بقية الصفات بالالتزام لأن الله هو الإله الحق هو الذي يسمع ويبصر ويتكلم ويريد ويشاء ويعلم وغير ذلك من خصائصه .

وقوله: (لا إله إلا هو) هذا معنى لا إله إلا الله، وفيه إثبات اسم الإله الله وهو من الأسماء الحسنى وجمع الله بين النفي والإثبات لأن النفي وحده عدم والعدم ليس بشيء والإثبات وحده لا يمنع المشاركة ولهذا يوصف الله بالنفي والإثبات فقوله (لا إله) نفي للآلهة الباطلة وقوله (إلا الله) إثباته الألوهية الحقّة لله ، ومعنى (لا إله إلا الله) أي لا معبود بحق إلا الله قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِكُ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَكْذُوبُكَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقوله: (الحي القيوم) من أسماء الله الحسنى والحي يتضمن صفة الحياة العظيمة الكاملة التي لم تسبق بعدم ولا يلحقها فناء و(القيوم) يتضمن صفة القيومية وهو الذي يقيم الخلائق وهو قائم بنفسه ولهذا جاء في البخاري (١١٢٠) مسلم (٧٦٩) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ،

كَانَ يَقُولُ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاعْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَآخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» .

و(القيوم والقيام) بمعنى واحد وقد اختلف في الاسم الأعظم فذهب كثير من أهل العلم إلى أنه (الحي القيوم) وهو المذكور في سورة البقرة وآل عمران وسورة طه، واستدلوا بحديث النبي ﷺ في ذلك الرجل الذي قال: «اللهم إني أسألك بأنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الحي القيوم»، وكان النبي ﷺ يقول في دعائه: «يا حي، يا قيوم»، كما في حديث أنس عند أبي داود (١٤٩٥)، ولا دلالة للصوفية ومن إليهم بهذه الآية على أن الله يُذكر بـ(هو، هو، هو)؛ لأن الله له الأسماء الحسنى وليس من أسمائه (هو).

وقوله: (لا تأخذه سنة ولا نوم) هذه من الصفات المنفية، نفى السنة وهي مقدّمة النوم وأوائل النعاس ونفى النوم وهو معروف وتعريف المعروف تكلف فهما صفات سلبيتان منفيّتان والقاعدة عند أهل السنّة والجماعة أنّ الصفات المنفية في حقّ الله لا بدّ أن تتضمّن كمال الضدّ، فقوله: (لا تأخذه سنة ولا نوم) لكمال حياته وقيوميّته وإنّما يحتاج النوم المخلوق الضعيف للراحة، والنوم أخو الموت، فعن جابر عند البيهقي في شعبه

(٤٤١٦) و(٤٧٤٥) قال: سأل رجل رسول الله ﷺ أينام أهل الجنة؟ قال: «النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ، وَلَا يَمُوتُ أَهْلُ الْجَنَّةِ».

وقوله: (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) هذا أيضًا من الوصف المجمل في الإثبات وإن كان يدل على الإثبات المفصل لبيان ملك الله ﷻ وهذا يدل على أن العبيد عبيد الله والملك ملكه، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

وقوله: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) فيه إثبات الشفاعة المثبتة وهي ما توفرت فيها ثلاث شروط: رضى الله عن الشافع، ورضى الله عن المشفوع له، وإذن الله للشافع، قال الله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وهي دالة على الشفاعة المنفية بالمفهوم قال الله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَاسِمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وقال الله: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، ولهذا حين يستشفع الناس بالنبي ﷺ يوم القيامة، يقوم ويسجد لربه ثم يقول له: «اشفع تُشَفِّع»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٣٤٠)، مسلم (١٩٤)، يأذن الله له إكرامًا له وسيأتي الكلام على الشفاعة في بابه إن شاء الله.

وقوله: (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) فيه إثبات علم الله ﷻ وأنه محيط بجميع المعلومات جزئها و كليها خلافاً للمعتزلة وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

وَمَا خَلَفَهُمْ ﴿البقرة: ٢٥٥﴾، أي يعلم ما سلف وما سيأتي، قال الله في شأن الكفار لما سألوهم العودة إلى الأرض: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وسيأتي الكلام على صفة العلم بأوسع من هذا.

وقوله: (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ) استدلل أهل السنة والجماعة بهذه الآية على أن أسماء الله غير محصورة بعدد معلوم لنا وأدلة هذه المسألة كثيرة ذكرتها في كتابي التبيين لخطأ من حصر أسماء الله في تسع وتسعين ، ومن الأدلة على أن أسماء الله غير محصورة بعدد معلوم لنا، قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ومنها أن متبّع القرآن والسنة يجد فيها أكثر من التسعة والتسعين ومنها حديث عائشة أن النبي كان يقول في سجوده: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ»، مسلم (٤٨٦)، والدلالة من هذا الحديث أنه لو كان يعلم أسماء وصفات الله كلها لأحصى الثناء عليه ومنها حديث الشفاعة قال فيه النبي : «فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ عَلَّمَنِيهَا»، من حديث أنس عند البخاري (٧٤١٠) واللفظ له ومسلم (١٩٣)، فلو كان النبي قد أحصى أسماء الله وصفاته لما علم في ذلك الموطن محامد أخرى لأنه يعلمها ويدل على ذلك وهو من أصرحها حديث ابن مسعود عند الإمام أحمد (٣٧١٢) و(٤٣١٨) وغيره: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أُمْتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدُلٌ فِي قَضَاؤِكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ بِهِ نَفْسُكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ

استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهب همي»، والحديث ضعفه بعضهم والصحيح أن الحديث محتج به لأمر بينها الشيخ الألباني في الصحيحة وذكرت معها ما صح من الأحاديث في الكتاب المذكور آنفاً ومن زعم أنها محصورة بتسعة وتسعين وعددٍ معلوم لنا فقد وافق المعطلة من بعض الوجوه ولهذا ذكر شيخ الإسلام في بعض المواطن أن الذين يقولون بهذا القول هم المخطئون المعطلون الضالون المبتدعون ولم يقل بحصر أسماء الله بتسعة وتسعين إلا ابن حزم^(١).

وابن حزم في العقيدة جهمي كما قال ابن عبد الهادي ، وقد نقل الإجماع غير واحد من أهل العلم على أن أسماء الله غير محصورة بعدد معلوم لنا.

ونقل القول بالحصر أيضاً عن ابن كج كما أشار الحافظ في (تلخيص الحبير) وابن كج ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن له غرائب فعل هذا منها.

(١) ابن حزم إمام له زلات وأخطاء وهو ظاهري المذهب ولكن مع ذلك له ترجيحات طيبة ونقولات قوية حتى قيل في من حوى كتابه (المحلّي) و(المغني) لابن قدامة، و(الكبرى) للبيهقي، و(التمهيد) لابن عبد البر فهو العالم حقاً، وزلاته تُترك، وسبب انحرافه في هذا الباب أنه تتلمذ على بعض الفلاسفة ثم بعد ذلك لم يستطع أن ينزع الشبه التي طرأت على عقله فأراد أن يجمع بين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآراء الفلسفية فما استطاع وفي مسائل الإيمان هو من أفاضل من ردّ على الخوارج والمرجئة.

وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، أي لا يعلمون من أسمائه وصفاته إلا ما علمهم ومثل قوله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [النمل: ٢٦] إلا من ارتضى من رسولٍ [الجن: ٢٦-٢٧].

وقوله: (إِلَّا بِمَا شَاءَ) فيه إثبات المشيئة لله ، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قوله (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) فيها إثبات الكرسي، وقد فسره ابن عباس وجاء عن أبي موسى أنه موضع قدمين الرحمن، وهو في مقدمة العرش كالمرفقة التي أمام السرير والعرش هو سرير الملك وسيأتي الكلام عليه في بابه وبعضهم يُنكر الكرسي ويزعم أنه العلم والصحيح أن هذا القول باطل فالكرسي جُرمٌ مخلوق خلقه الله وليس بالعلم، ثم إذا كان الكرسي هو العلم، فيلزم أن ليس في علم الله إلا السماوات والأرض، وذكر هذا التفسير البخاري في صحيحه وليته لم يذكره فإنه قال قال مجاهد الكرسي العلم، وهذا تفسير باطل.

وقوله: (وَلَا يُوَدُّهُ حِفْظُهُمَا) أي لا يكره حفظهما وهذا أيضاً من الصفات السلبية وتتضمن كمال الضد وهو كمال قوة الله وقدرته، ومثله قول الله : ﴿وَمَا كَانَتْ أَلْفُ لَيْعَظِهِ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، وقوله : ﴿وَيَمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

وقوله: (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) فيه إثبات اسم (العليّ) وهو دالٌّ على صفة العلوّ بالمطابقة والتضمن، ويثبت لله العلوّ المطلق من كلّ وجه، علوّ الذات على

عرشه وعلو القهر وعلو القدر، وسيأتي الكلام على صفة العلوم بما يكفي إن شاء الله و(العظيم) اسم من أسماء الله الحسنى وهو دالٌّ على صفة العظمة لله وفيها غير ذلك ولكن هذا مختصر.

📌 فائدة في صيام يوم السبت:

ما أكثر ما يسأل الناس عن صيام يوم السبت، فالصحيح في المسألة وإن كان الشيخ الألباني يرى صحة حديث: «لَا تَصُومُوا يَوْمَ السَّبْتِ إِلَّا فِيْمَا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ»، فإن الحديث على فرض صحة سنده فهو منكر المتن وكثير من الإخوة إن أراد أن يقنع أحداً ناقشه حول الإسناد ولو أنه عاد إلى نكارة المتن لكفى بها للقضاء على دلالة هذا الحديث وردّ هذا الحديث من أوجه كثيرة:

الوجه الأول: أن النبي قال: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ، كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ»، من حديث أبي أيوب الأنصاري عند مسلم (١١٦٤)، ومن المعلوم أن يوم الفطر يتغير، تارة يكون العيد يوم الجمعة ويكون أول الصيام يوم السبت وتارة يكون يوم الإثنين، وإذا صام الناس صياماً متتابعاً سيمروا على السبت، وتارة يكون الخميس ويأتون على السبت.

الوجه الثاني: قال النبي لما سألوه عن أفضل الصيام، قال: «صُمُّ أَفْضَلُ الصَّيَامِ عِنْدَ اللَّهِ، صَوْمَ دَاوُدَ كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا»، من حديث عبدالله بن عمرو عند البخاري (١٩٧٦) ومسلم (١١٥٩)، ولا يُعقل أن هذا الذي يصوم صيام داود لا يمرّ على يوم السبت.

الوجه الثالث: حث النبي على صيام ثلاثة أيام من كلّ شهر من دون تخصيص، وجاء تخصيص صيام أيام البيض، ومن المعلوم أن أيام البيض تأتي

أحياناً يوم السبت ولا بدّ مع تكرّر الأيام والشهور، والنبّي رغب في صوم عرفة، ويوم عرفة يأتي تارة يوم السبت وتارة يوم الجمعة وتارة يوم الإثنين وتارة يوم الأحد وهكذا، ورغب في صيام يوم عشوراء، وكان النبي يصوم شعبان أو أكثر شعبان، وأخبر أنّ أفضل الصيام بعد رمضان صيام شهر الله الحرام، ثم بعد ذلك يُقال بعدم صيام يوم السبت إلّا فيما افترض، هذا الحديث منكر المتن ومطعون في سنده ولو لم يكن فيه ذاك ما قلنا به؛ لأنّه مخالف لما في الصحيحين.

قول الله : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

أي يدخل فيما ذكرنا من وجوب الإيمان بما أخبر الله به عن نفسه وأخبر عنه رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل هو ليس كمثل شيء وهو السميع البصير، إثبات ما تضمنته هذه الآية.

وهذه الآية اشتملت على أربع أسماء لله الحسنى:

(الأوّل): يتضمّن صفة الأوّلية وله الأوّلية المطلقة التي لم تسبق بعدم وربّما عبّر عنها بعض العلماء بالأزلية والأزل في الماضي والأبد في المستقبل فإذا قيل الله متّصف بالصفات أزلاً وأبداً فالأزل ما كان في الماضي وهو القدم المطلق.

وأيضاً من أسمائه (الآخر) ومن أسمائه (الظاهر) ومن أسمائه (الباطن) وهذه الأسماء الأربعة تدلّ على الإحاطة الزمنية والمكانية، فـ (الأوّل والآخر) يدلان على الإحاطة الزمانية، و(الظاهر والباطن) يدلان على الإحاطة المكانية.

وقد فسّر النبيّ هذه الأسماء كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة (٢٧١٣)، قائلاً: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»، وقد استشكل بعض العلماء تفسير النبيّ للأسماء الثبوتية بالسلب والصحيح أنّه لا إشكال فإنّ النبيّ أراد أن يُبين أنّ الله متّصف بالأولية المطلقة فقوله (ليس قبله شيء) دفع لإيهام قد يتصوره البعض أولية نسبية فلمّا قال النبيّ : «فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ»، كان قاطعاً لهذا الإيهام.

وقوله: (الباطن) دليل على معيّة الله وحقيقتها أنّ الله على العرش استوى وأنّه مع خلقه بعلمه وسلطانه وقهره وغير ذلك من خصائص ربوبيّته على ما سيأتي بيانه في آخر الكتاب.

واسم (الظاهر) يدلّ على العلوّ المطلق، بما فيه علو الذات كما سيأتي بابه إن شاء الله .

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] فيه إثبات صفة العلم لله على ما يأتي بيانه.

إثبات صفة الحياة لله

قال :

﴿ وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨].

التوكل هو صدق الاعتماد على الله وهو فعل أمر يُفيد الوجوب، قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

وقوله: (على الحي) أي على الله المتصف بالحياة الأزلية الأبدية التي لم تسبق بعدم ولا يلحقها فناء، الحياة الكاملة من كل وجه، وقد تقدّم قول الله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: (الذي لا يموت) صفة سلبية والصفات السلبية تقدّمت القاعدة فيها وأنها لا بدّ أن تتضمن كمال الضدّ فقوله: (الذي لا يموت) دلّ على كمال حياته وقيوميته وقد جاء في حديث ابن عباس في مسلم (٢٧١٧)، أن النبي كان يقول: «أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجَنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»، وفي الآية عظم التوكل على الله وصدق الاعتماد على الله ، قال النبي : «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»، مسند أحمد (٢٠٥) من حديث عمر ، وقال الله تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣]، وصدق التوكل على الله سبب لتفريج الهموم والغموم قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وقال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ

جَمَعُوا لَكُمْ فَآخَشَوْهُمْ فزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ آل عمران: ١٧٣]، والشاهد من سوق هذه الآية في هذا الوطن إثبات اسم الحيّ لله المتضمّن لصفة الحياة وكذلك ذكر الصفة السلبية التي يؤتى بها لدفع توهم نقص أو لبيان عموم كمال وهي في هذا الوطن جيء بها لدفع توهم نقص وكذلك لبيان عموم الكمال فالذي لا يموت ولا ينام هو الكامل في حياته وقيوميّته.

إثبات صفتي العلم والحكمة

قال :

﴿قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾﴾ [التحریم: ٢].

فيه إثبات صفة العلم لله واسم العليم وله من الأسماء العلام والعالم، قال الله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وهذا من الأسماء المركبة.

فقوله: (العليم) هو الله من أسمائه العليم ومتّصف بصفة العلم، العليم الذي أحاط بكلّ شيء كما قال الله : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال : ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤]، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ويدخل فيه العلم بالكلّيات والجزئيات خلافاً لما قاله المعتزلة القدرية أنّ الله يعلم الكلّيات ولا يعلم الجزئيات فالله يقول: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ويقول: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦]، و(كلّ) من ألفاظ العموم، ويقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزَبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

وقوله: (الحكيم) فيه إثبات اسم الحكيم لله وهو متضمّن لصفة الحكمة لله وقرن الله بين العليم والحكيم لفائدة عظيمة ذكرها ابن القيم وهي أن أسماء الله كلّها حُسنى وإذا قُرُن الاسم بالآخر فيكون له كمال من مجموعهما فهنا مثلاً له كما من علمه وكمال من حكمته وقرن الله حكمته بعلمه وعلمه بحكمته لأنّ الذي يعلم الأشياء من المخلوقين ربّما عاقب سريعاً، ولكن حكمة الله اقترنت بعلمه فالله يعلم ما العباد عاملون ومع ذلك يؤخّر عقابهم لحكمته وكذلك قوله (الحكيم الخبير) على ما تقدّم والخبر يتضمّن صفة الخبرة وهي العلم بالبوطن، ولهذا يجمع الله بين العليم والخبر في كثير من المواطن فيقال العليم بظواهر الأمور والخبر ببواطنها، هذا إذا اجتمعا ولكن إذا افترقا فإنّ العليم يدلّ على مجموعهما والخبر كذلك.

قوله :

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢].

وهذا بيان لعموم علم الله حيث يعلم بالذي يدخل في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها والعروج هو الصعود من أسفل إلى أعلى ومنه سُمّي المعراج.

قال :

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقد جاء تفسير (مفاتيح الغيب) في حديث ابن عمر عند البخاري (١٠٣٩)، وجاء عن غيره: «مِفْتَاحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ: لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي غَدٍ، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي الْأَرْحَامِ، وَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَادَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَمَا يَدْرِي أَحَدٌ مَتَى يَجِيءُ الْمَطَرُ» وهذا ما جاء في قول الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَادَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]، فمن ادعى علم واحدة من هذه الأشياء كفر لأنه ادعى علم الغيب المطلق والغيب ينقسم إلى مطلق ونسبي فالغيب النسبي ما علمه زيد ولم يعلمه عمرو فإذا قال زيد (أنا معي ١٠ ألف) وعمرو لا يعلم ليس فيه ادعاء الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ولكن إذا قال الشخص أنا أعلم ما ستحمل امرأتي هذا من ادعاء علم الغيب المطلق وهو كفر ولا يُشكل ذلك على ما يفعله الأطباء من الكشف بالأجهزة على بطن المرأة فيحددون نوع الجنين لأن هذا ليس من الغيب المطلق في شيء فإن العلم بالجنين قد خرج إلى الملائكة ثم إن الطبيب يحكي شيئاً رآه بالجهاز.

وهذه الآية فيها ردٌّ على المعتزلة الذين يزعمون أن الله لا يعلم الجزئيات فالله يقول: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وهو ما سوى البحر ويُسمى اليابسة فيعلم ما فيه من مساجد وأنهار وبيوت وأودية وجبال وذكور وإناث وحيوان وطير، وكل ما فيه كما قال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبا: ٣].

قال السعدي: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ﴾ أي: الأمور الغائبة عن أبصارنا، وعن علمنا، فكيف بالشهادة؟.

ثم أكد علمه فقال: ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ أي: لا يغيب عن علمه: ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو المئاقيل منها.

﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه، وتضمنه الكتاب المبين، الذي هو اللوح المحفوظ، فالذي لا يخفى عن علمه مِثْقَالُ الذرة فما دونه، في جميع الأوقات، ويعلم ما تنقص الأرض من الأموات، وما يبقى من أجسادهم، قادر على بعثهم من باب أولى، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط. انتهى ويقول: ﴿وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٥٩]، أي ويعلم كل ما في البحر من كائنات عجيبة حتى لو كانت لا ترى إلا بالمجهر، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، سبحانه الله ورقة في ليلة شاتية تسقط في منطقة نائية والله لا يعزب عنه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، كم من أوراق تسقط في اليوم والليلة والله يعلم عددها ويعلم متى وأين وكيف إلى غير ذلك، سبحانه الله، ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٥٩]، حبة في ظلمات الأرض مطروحة في باطن الأرض، ﴿وَلَا رَطْبٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، من الحبوب أو الحيوان، ﴿وَلَا يَأْسٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، من الحجار ونحوها: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، في اللوح المحفوظ: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢]، فهذه الأمور التي تحدث في الكون هي مكتوبة عند الله في كتاب، قال النبي: «أَوَّلُ مَا

خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: الْقَدَرُ قَالَ: فَكُتِبَ مَا يَكُونُ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ»، مسند أحمد (٢٢٧٠٧) من حديث عبادة بن الصامت ، ثم يعتمد هؤلاء وينكرون صفة العلم لله هذه الصفة العظيمة الجليلة التي يدل عليها الكتاب والسنة والعقل والفطرة فإن هذا الكون يدل على وصف الله بالعلم فإن الجاهل لا يمكن أن يأتي بمثل هذه الأشياء، قال الله : ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُعْجِرَهُ، مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤]، لماذا؟ ﴿إِنَّهُ كَانَتْ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ .

قال السعدي في تفسير آية الأنعام:

هذه الآية العظيمة، من أعظم الآيات تفصيلا لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه. وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلا عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار، من الحيوانات، والأشجار، والرمال والحصي، والتراب، وما في البحار من حيواناتها، ومعادنها، وصيدها، وغير ذلك مما تحويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ﴾ من أشجار البر والبحر، والبلدان والقفار، والدنيا والآخرة: ﴿إِلَّا لَا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ﴾ من حبوب الثمار والزروع، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق؛ وبذور النوبات البرية التي ينشئ منها أصناف النباتات.

﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ هذا عموم بعد خصوص: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، قد حواها، واشتمل عليها، وبعض هذا المذكور، يبهر عقول

العقلاء، ويذهل أفئدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته، في أوصافه كلها.

وأن الخلق -من أولهم إلى آخرهم- لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته، لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك، فتبارك الرب العظيم، الواسع العليم، الحميد المجيد، الشهيد، المحيط.

وجل من إله، لا يحصي أحد ثناء عليه، بل كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، فهذه الآية، دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث. انتهى

قوله :

قال تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١].

وهذا بيان لعلم الله العظيم بما في الأرحام كل الأنثى، سواء كانت انثى إنسان، أو حيوان، أو طير وإذا قرأت في كتب الحيوان تجد العجب العجاب من أنواع الكائنات وأنواع الطيور وأنواع الحشرات فسبحان الله الخالق وسبحان الله العالم، فلا تحمل أنثى ولا تضع إلا بعلمه ومع ذلك يرسل الله الملائكة عند بدأ الحمل تكتب رزقه وأجله وعمره وشقي أو سعيد، وفي حديث جابر عند ابن ماجه (٢١٤٤)، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوِي رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حُرِّمَ»، وفي حديث عبدالله بن مسعود عند البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣)، قال النبي : «إِنَّ

أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ وَيُقَالُ لَهُ اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

قوله :

وَقَوْلُهُ: ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

في هذه الآية بيان لعموم قدرة الله تعالى التي لا يخرج عنها شيء، قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وفيها بيان إحاطة علم الله تعالى بجميع المعلومات حتى قلوبنا وما فيها:

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴿[غافر: ١٩-٢٠]،

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكَ وَمَا تَعْلَنُونَ﴾ [النحل: ١٩]، بل يعلم ما لم يكن لو كان

كيف يكون: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وفي

البخاري (٤٨١٧) ومسلم (٢٧٧٥) عن عبدالله بن مسعود قال: اجتمع

عِنْدَ النَّبِيِّ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ كَثِيرَةٌ شَحْمٌ بَطُونُهُمْ قَلِيلَةٌ فَقَهُ

قُلُوبِهِمْ فَقَالَ أَحَدُهُمْ أَتَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ قَالَ الْآخَرُ يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا

وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا وَقَالَ الْآخَرُ إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَإِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا

فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢].

وهكذا في قول الله : ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]، فعن مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادِ بْنِ جَعْفَرٍ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ أَلَا إِنَّهُمْ تَشْتَوِي صُدُورُهُمْ: قَالَ سَأَلْتُهُ عَنْهَا فَقَالَ أَنَاسُ كَانُوا يَسْتَحْيُونَ أَنْ يَتَخَلَّوْا فَيُفَضُّوا إِلَى السَّمَاءِ وَأَنْ يُجَامِعُوا نِسَاءَهُمْ فَيُفَضُّوا إِلَى السَّمَاءِ فَتَزَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٦٨١)، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ مُسْلِمٍ (٢٥٦٤)، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْقُلُوبِ وَيَطَّلِعُ عَلَيْهَا وَالْآيَاتُ الَّتِي فِيهَا إِثْبَاتُ عِلْمِ اللَّهِ الْأَزَلِيِّ الْأَبَدِيِّ كَثِيرَةٌ جَدًّا وَالْأَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ جَدًّا فَالْآيَةُ تَقُولُ: ﴿لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطلاق: ١٢]، وَأَنَّ قُدْرَتَهُ نَافِذَةٌ وَأَنَّهُ لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَافٍ (كُلٌّ) مِنْ أَلْفَاظِ الْعُمُومِ وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ (١٨٧)، قَالَ الرَّسُولُ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ تَعَالَى: «وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»، وَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ أَسْمَاءَ وَصِفَاتِ اللَّهِ وَكَانَ أَكْثَرُهَا مُتَضَمِّنَةً لِإِثْبَاتِ صِفَةِ الْعِلْمِ لِلَّهِ وَمِثْلُ هَذِهِ الصِّفَةِ اسْتِحْضَارُهَا يُوَدِّي إِلَى الْمِرَاقَبَةِ وَتَحْقِيقِ هَذَا الْبَابِ الْعَظِيمِ فَإِنَّا نَحْتَاجُ أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّنَا نَرَاهُ فَإِنْ لَمْ نَكُنْ نَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَانَا، وَفِي آيَةِ الْمَجَادَلَةِ يَقُولُ اللَّهُ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ ﴿[المجادلة:٧]، وهكذا قال : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤].

ومنها قول الله : ﴿قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحریم:٣]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩].

إثبات صفة القوة

قوله :

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

صح عند أبي داود (٣٩٩٣)، وغيره عن عبد الله، قال: أقرأني رسول الله : «إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ».

وفي الآية إثبات اسم (الرزاق) لله ويقال (الرازق) وكلاهما من الأسماء الحسنى وعلى القاعدة كل اسم متضمن لصفة فالرازق يرزق والرزاق صفة مبالغة من الرازق.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

وَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢]، وقوله: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ

رِزْقُهَا ﴿هُود:٦﴾، وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذريات:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ [ق:١٠-١١].

وهذا كله يُرَدُّ عَلَى أَوْلِيَّكَ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ الرِّزْقَ مِنْ غَيْرِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل:٧٣].

وفي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْنِغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٧].

وفي صحيح مسلم (٢٨٠٤) عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «مَا أَحَدٌ أَضْبَرَ عَلَى أَدَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ نِدًّا وَيَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ وَيُعْطِيهِمْ».

وقد كتب الله تعالى مقادير الخلق وأرزاقهم، على ما يأتي بيانه في باب القدر إن شاء الله تعالى، وعند أبي داود (٤٠٢٣) عن أَنَسِ الْجُهَنِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «مَنْ أَكَلَ طَعَامًا ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ، وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» قَالَ: «وَمَنْ لَبَسَ ثَوْبًا فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا الثَّوْبَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي، وَلَا قُوَّةٍ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»، وفي صحيح البخاري (٣٥٠٥) عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ أَحَبَّ الْبَشَرِ إِلَى عَائِشَةَ بَعْدَ النَّبِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ، وَكَانَ أَكْبَرُ النَّاسِ بِهَا، وَكَانَتْ لَا تُمْسِكُ شَيْئًا مِمَّا جَاءَهَا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ إِلَّا تَصَدَّقَتْ.

وفي مسلم (١٠٥٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوَّةً».

(ذو القوّة) أي صاحب القوّة وهذا دليل على وصف الله بصفة القوّة فإنّ القويّ هو ذو القوّة والرحيم هو ذو الرحمة والعزیز هو ذو العزّة، ففيه إثبات صفة القوّة لله وهي من الصفات الذاتية ومعنى الصفات الذاتية أنها الصفات التي يتصف الله بها أزلاً وأبداً ولا تعلق لها بمشيئة الله .

وفي الباب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ صَدِيقًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ رِحْمَةً مِّنَّا وَمِنْ خِزْيٍ يُومِيذُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦] وقوله: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩]، وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقوله تعالى: (المتين) هو من الأسماء الحسنى ورد في القرآن في موطن واحد فقط و(المتين) في حق الله تعالى: (المتناهي في القوة والقدرة).

وقال الخطابي: (والمتين) الشديد القوي الذي لا تنقطع قوته ولا تلحقه في أفعاله مشقة، ولا يمسه لغوب. انتهى

وهو في معنى العزيز أيضاً، يقول ابن كثير : (العزيز) الذي قد عز كل شيء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنباه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه.

إثبات صفتي السمع والبصر

قال :

وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ردُّ على الممثلة، وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ردُّ على المعطلة، و(الكاف) فيه صلة وتوكيد، وتقدير الكلام: (ليس مثله شيء). وللعلماء فيها غير هذا القول، لكن هذا القول هو أحسن الأقوال، وهو كما قالت العرب:

لَيْسَ كَمِثْلِ الْفَتَى زُهَيْرٌ خُلِقَ يُوَاظِيهِ فِي الْفَضَائِلِ

أي: ليس مثل الفتى زهير أحد يواظيه في الفضائل، والنفي هنا لبيان عموم الكمال، فلمَّا كان ليس كمثل شيء كان كاملاً من كل وجه .

وفيه إثبات اسم (السميع) وهو متضمن لصفة السمع، قال الله : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وقال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ الَّذِي يَرِنَكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقْلُبَكَ فِي السَّجْدِينَ ۝ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، وقال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]، وقال: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨١]، وقال: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقال: ﴿إِنِّي

مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى [طه:٤٦]، وَقَالَ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [الزخرف:٨٠].

والله يسمع بسمع يليق بجلاله وهو محيط بالمسموعات، قالت عائشة : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ تُكَلِّمُهُ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ قَوْلَهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، رواه أحمد (٢٤١٩٥).

وقال الله تعالى: ﴿مَا يَكْفُوتُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يَنْتَهُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧]، معية اطلاع وعلم وسماع وغير ذلك من خصائص ربوبيته.

وقد تقدّم معنا الحديث الذي في مسلم (يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أسرنا، قال: إن كان يسمع إن جهرنا فهو يسمع إن أسرنا)، وهكذا إبراهيم يقول لأبيه: ﴿يَتَأْتِيَ لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم:٤٢]، فدلّ أن الإله يسمع ولو كان الإله معطل من هذه الصفة لقال ذلك الكافر: (وربك أيضاً لا يسمع ولا يبصر)، لكن لما كان إبراهيم معيراً لعباد الأصنام لأن آلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضرّ دلّ على أن الله يسمع ويبصر ويبيده النفع الضرّ، قال الله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٨]، وكان في حقّ الله تدلّ على الاستمرار، سميع بسمع، قد يقول قائل يلزم من إثبات السمع

الأذن نقول هذا ليس بلازم فصفات الله ليست كصفات خلقه وأمّا قول النبي : «مَا أَدْنَى اللَّهِ لَشَيْءٍ مَا أَدْنَى لِنَبِيِّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٧٥٤٤)، مسلم (٧٩٢)، والآذن بمعنى الاستماع.

ومّا يدلّ على إثبات صفة السمع لله أنّ النبيّ لما كان في بعض الطرق قال بعض الصحابة : (الله أكبر) يرفع بها صوته، قال : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ»، رواه البخاري (٢٩٩٢) و(٤٢٠٥) و(٦٣٨٤) و(٦٦١٠) و(٧٣٨٦)، مسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى . وفي حديث أبي هريرة عند أبي داود (٤٧٢٨): ثَلَاثَ رُسُلٍ اللَّهُ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَضَعُ إِبْهَامَهُ عَلَى أُذُنِهِ، وَالتَّي تَلِيهَا عَلَى عَيْنِهِ، قال أبو داود : (وَهَذَا رَدُّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ)، وفي هذا الحديث بيان أنّ الله يسمع بسمع ويبصر ببصر حيث أكّده النبيّ بالإشارة ولا تقتضي هذه الإشارة التمثيل وإنّما أراد النبيّ تأكيد السمع والبصر، وقد وردت الإشارة في عدة أحاديث غير هذا، منها: ما أخرجه أحمد (١٢٥ / ٣) عن ثابت البناني أبي محمد، عن أنس، عن النبيّ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] قال: هكذا يعني أنه أخرج طرف الخنصر، فقال له حميد الطويل: ما تُريد من هذا يا أبا محمد؟ قال: فضرب صدره ضربة شديدة وقال: من أنت يا حميد، وما

أنت يا حميد؟! يحدثني به أنس بن مالك عن النبي ثم تقول أنت: ماذا تريد إليه؟!

وأخرج الحديث الترمذي (٤٥١ / ٨) من طريق حماد عن ثابت، عن أنس أن النبي قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] قال حماد: هكذا وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أُنْمَلَةٍ إصبعه اليمنى قال: فانساخ الجبل، ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعَقًا﴾.

وأخرج البخاري (٧٤٠٧) من حديث عبدالله بن عمر قال: وذكر الدجال عند النبي فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ أَعْوَرَ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ».

وفي مسلم (٢٧٨٨) من حديث عبدالله بن عمر يحكي عن رسول الله قال: «يَأْخُذُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَمَآوَاتِهِ وَأَرْضِيهِ بِيَدَيْهِ، فَيَقُولُ: أَنَا اللَّهُ - وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا - أَنَا الْمَلِكُ» حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمُنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي لَا قَوْلَ: أَسَاقِطُ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ؟

وفي مسند أبي يعلى (٢٣١٨) من طريق الأعمش، عَنْ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ جَابِرٍ رَفَعَهُ قَالَ: كَانَ يَقُولُ: «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَخَافُ عَلَيْنَا، وَقَدْ آمَنَّا بِمَا جِئْتَ بِهِ؟ فَقَالَ: «إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ» وَأَشَارَ الْأَعْمَشُ بِإِصْبَعَيْنِ.

وذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري تحت باب رقم (٩) (باب وكان الله سمعياً وبصيراً) من كتاب التوحيد لعقبة بن عامر حديثاً قال:

سمعت رسول الله يقول على المنبر: «إِنَّ رَبَّنَا سَمِيعٌ بَصِيرٌ» وأشار إلى عينيه، قال: وسنده حسن.

فالإشارة لتأكيد الصفة وقد بينت حكمها في كتابي ضوابط تحديث العوام بأحاديث الأسماء والصفات ، واختلف أهل العلم في ذلك فذهب بعضهم إلى أنه يُشار فيما أشار فيه النبي ، وإذا كنت في موطن لا تخشى فيه التمثيل فلك أن تشير وإذا خشيت التمثيل فلا تشر وهذا اختيار شيخنا مقبل وشيخنا يحيى حفظه الله.

واستحضار مثل هذه الأدلة بأن الله يسمع ويبصر ويعلم فيها موعظة عظيمة للعبد على أنه يراقب الله في ليله ونهاره وسره وجهاره وأن الله لا تخفى عليه خافية وفي الآية إثبات صفة البصر لله فالله يبصر بعين وقد نقل الإجماع على إثبات العينين لله ، بل في الحديث الذي تقدم قال : «إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»، رواه البخاري من حديث ابن عمر (٤٤٠٢)، ومسلم (٢٩٣٣) من حديث أنس ، فيه دلالة على إثبات العينين لله ، عينا تليق بجلاله يبصر بهما ويرى بهما على ما يأتي بيانه وآيات إثبات السمع والبصر في القرآن أكثر من أن تُحصر وأشهر من أن تُذكر ومن سنة النبي حديث عائشة ، الذي أخرجه البخاري (٣٢٣١) و(٧٣٨٩)، مسلم (١٧٩٥) أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ : هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أَحَدٍ؟ قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِيَالِيلَ بْنِ عَبْدِكُلَّالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ

رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنَّ شِئْتَ أَنْ أَطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ؟» فَقَالَ النَّبِيُّ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

وفي مسلم (٤٠٤) عَنْ حِطَّانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الرَّقَاشِيِّ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ صَلَاةً فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الْقُعْدَةِ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَقَرَّتِ الصَّلَاةُ بِالْبِرِّ وَالزَّكَاةِ؟ قَالَ فَلَمَّا قَضَى أَبُو مُوسَى الصَّلَاةَ وَسَلَّمْ أَنْصَرَفَ فَقَالَ: أَيُّكُمْ الْقَائِلُ كَلِمَةً كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: فَأَرَمَ الْقَوْمُ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ الْقَائِلُ كَلِمَةً كَذَا وَكَذَا؟ فَأَرَمَ الْقَوْمُ، فَقَالَ: لَعَلَّكَ يَا حِطَّانُ قُلْتَهَا؟ قَالَ: مَا قُلْتُهَا، وَلَقَدْ رَهَبْتُ أَنْ تَبْكَعَنِي بِهَا فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا قُلْتُهَا، وَلَمْ أَرِدْ بِهَا إِلَّا الْخَيْرَ فَقَالَ أَبُو مُوسَى: أَمَا تَعْلَمُونَ كَيْفَ تَقُولُونَ فِي صَلَاتِكُمْ؟ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَنَا فَبَيَّنَ لَنَا سُنَّتَنَا وَعَلَّمَنَا صَلَاتَنَا. فَقَالَ: «إِذَا صَلَّيْتُمْ فَأَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ ثُمَّ لِيُؤْمَمْكُمْ أَحَدُكُمْ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا قَالَ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ❖، فَقُولُوا: آمِينَ، يُجِبْكُمْ اللَّهُ فَإِذَا كَبَّرَ وَرَكَعَ فَكَبِّرُوا وَارْكَعُوا، فَإِنَّ الْإِمَامَ يَرْكَعُ قَبْلَكُمْ، وَيَرْفَعُ قَبْلَكُمْ»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَتِلْكَ بِتِلْكَ وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ يَسْمَعُ اللَّهُ لَكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ وَإِذَا كَبَّرَ وَسَجَدَ فَكَبِّرُوا وَاسْجُدُوا فَإِنَّ الْإِمَامَ يَسْجُدُ قَبْلَكُمْ وَيَرْفَعُ قَبْلَكُمْ» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَتِلْكَ بِتِلْكَ، وَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْقُعْدَةِ فَلْيُكُنْ مِنْ أَوَّلِ قَوْلِ أَحَدِكُمْ: التَّحِيَّاتُ الطَّيِّبَاتُ الصَّلَوَاتُ لِلَّهِ

السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

قوله :

﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

فيه أَنَّ الله يعظ عباده، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وهذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء: ٥٨]، وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه، لاشتغالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما، لأن شارعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون، فكلامه: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وأفعال الله يُشتق منها صفات وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ﴾ [النساء: ٥٨]، (كان) قال ابن عباس وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، فَإِنَّ اللَّهَ سَمَّى نَفْسَهُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَنْحُلْهُ غَيْرُهُ، (وَكَانَ اللَّهُ) أَي: لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ. علقه البخاري ووصله غيره. كما أَنَّ (عسى) في حق الله تدلُّ على الوقوع: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. قال الطبري: و(عسى) من الله واجبة، وإنما وجه قول أهل العلم: عسى من الله واجبة، لعلم المؤمنين أن الله لا يدع أن يفعل بعباده ما أطمعهم فيه من الجزاء على أعمالهم والعوض على طاعتهم إياه ليس من صفته الغرور، ولا شك أنه قد أطمع من قال ذلك له في نفعه، إذا هو

تعاهده ولزمه، فإن لزم المقول له ذلك وتعاهده ثم لم ينفعه، ولا سبب يحول بينه وبين نفعه إياه مع الأطماع الذي تقدم منه لصاحبه على تعاهده إياه ولزمه، فإنه لصاحبه غارّ بما كان من إخلافه إياه فيما كان أطمعه فيه بقوله الذي قال له. وإذا كان ذلك كذلك، وكان غير جائز أن يكون جلّ ثناؤه من صفته الغرور لعباده صحّ ووجب أن كلّ ما أطمعهم فيه من طمع على طاعته، أو على فعل من الأفعال، أو أمر أو نهى أمرهم به، أو نهاهم عنه، فإنه موف لهم به، وإنهم منه كالعدة التي لا يخلف الوفاء بها، قالوا: عسى ولعلّ من الله واجبة. انتهى

إثبات صفة المشيئة

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].

في الآية إثبات صفة المشيئة لله وهي من الصفات الذاتية، قال الله : ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال : ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾ [المدر: ٥٦]، وقال : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقوله : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبَكُمْ بِهِ﴾ [يونس: ١٦]، وقال الله : ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ [الحج: ٥] وقال تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١] وكقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الأنفطار: ٨] وقوله جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِ شَاءَ وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِ شَاءَ وَبَجَعِلُ مَنْ يَشَاءُ عَاقِمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠] وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [العنكبوت: ٦٢] وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥] وقوله : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [الفصص: ٦٨] في كثير من الآيات، وفي المأثور عن الشافعي أنه لما سئل عن القدر فقال:

مَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ
خَلَقْتَ الْعِبَادَ عَلَى مَا عَلِمْتَ فَنِي الْعِلْمِ يَجْرِي الْفَتَى وَالْمُسْنُ
عَلَى ذَا مَنْتَ وَهَذَا خَذَلْتَ وَهَذَا أَعْنَتَ وَذَا لَمْ تُعِنِ
فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ وَمِنْهُمْ قَبِيحٌ وَمِنْهُمْ حَسَنٌ

وفي صحيح مسلم (٢٦٤٥) عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ الْمَكِّيِّ، أَنَّ عَامِرَ بْنَ وَائِلَةَ حَدَّثَهُ،
أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَالسَّعِيدُ مَنْ
وُعِظَ بِغَيْرِهِ، فَاتَى رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ يُقَالُ لَهُ: حُذِيفَةُ بْنُ أَسِيدِ
الْغِفَارِيِّ، فَحَدَّثَهُ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: وَكَيْفَ يَشْقَى رَجُلٌ بِغَيْرِ
عَمَلٍ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَتَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ، يَقُولُ:
«إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ
سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذْكَرُ أَمْ أُنْثَى؟
فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلِكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ، فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا
شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلِكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ
الْمَلِكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلِكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلَا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ». وقال
النبي : «فَإِنَّ اللَّهَ صَانِعُ مَا شَاءَ، لَا مُكْرَهَ لَهُ»، رواه مسلم (٢٦٧٩). وَسَمِعَ
رَسُولُ اللَّهِ رَجُلًا يَقُولُ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ، فَقَالَ: «بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ»،
من حديث ابن عباس عند أحمد (١٩٦٤).

وفي البخاري (١٤٣٢) عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا
جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طَلَبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ
نَبِيِّهِ مَا شَاءَ».

وفي البخاري (٧٤٦٥)، ومسلم (٧٧٥) عن عَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ لَيْلَةً، فَقَالَ لَهُمْ: «أَلَا تُصَلُّونَ؟»، قَالَ عَلِيٌّ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَاَنْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَيَقُولُ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

وفي صحيح البخاري (١٥٩٥) عَنْ أَبِي قَتَادَةَ، قَالَ: سِرْنَا مَعَ النَّبِيِّ لَيْلَةً، فَقَالَ: بَعْضُ الْقَوْمِ: لَوْ عَرَسْتَ بِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَخَافُ أَنْ تَنَامُوا عَنِ الصَّلَاةِ» قَالَ بِلَالٌ: أَنَا أُوقِظُكُمْ، فَاضْطَجَعُوا، وَأَسْنَدَ بِلَالٌ ظَهْرَهُ إِلَى رَاحِلَتِهِ، فَعَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ فَنَامَ، فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ، وَقَدْ طَلَعَ حَاجِبُ الشَّمْسِ، فَقَالَ: «يَا بِلَالُ، أَيْنَ مَا قُلْتُ؟» قَالَ: مَا أُلْقَيْتَ عَلَيَّ نَوْمَةً مِثْلَهَا قَطُّ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَبْضُ أَرْوَاحِكُمْ حِينَ شَاءَ، وَرَدَّهَا عَلَيْكُمْ حِينَ شَاءَ، يَا بِلَالُ، قُمْ فَأَذِّنْ لِلنَّاسِ بِالصَّلَاةِ» فَتَوَضَّأَ، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ وَابْيَاضَتْ، قَامَ فَصَلَّى.

والأحاديث في الباب كثيرة، وإنما هذه إشارات، وبالله التوفيق.

قوله: (قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) فيه إثبات المشيئة لله ، وهذه الجملة تمت محاوره ذكرها تعالى حيث قال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۖ ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أُكْلُهُمَا وَلَمْ تَنْظُرْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ۖ ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۖ ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۖ ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ

خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاءُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبِرْ يَقْلُبْ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيِّنَنِي لِمَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ [الكهف: ٣٢-٤٤].

وقال النبي : «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كُنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَلِكَ أَبِي وَأُمِّي، قَالَ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»، من حديث أبي موسى في البخاري (٤٢٠٥)، مسلم (٢٧٠٤).

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٥٠٠/١١): لأن معنى لا حول لا تحويل للعبد عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة له على طاعة الله إلا بتوفيق الله وقيل معنى لا حول لا حيلة وقال النووي هي كلمة استسلام وتفويض وإن العبد لا يملك من أمره شيئاً وليس له حيلة في دفع شر ولا قوة في جلب خير إلا بإرادة الله تعالى. اهـ

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا
أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فيها بيان لما تقدم من إثبات مشيئة الله تعالى النافذة، وعن أنس بن مالك
عند البيهقي في شعبه (٨٠٧٠)، قال: خدمت رسول الله عشر سنين
فما أرسلني في حاجة قط فلم يتهيأ لي إلا قال لو قضي لكان ولو قدر لكان. أي:
لو شاء الله قدرًا كونيًا لكان واقعًا.

وإثبات المشيئة يدخل في باب الإيمان بالقدر وإن كانت من صفات الله ،
فيؤمن بمشيئة الله النافذة وأن مشيئة العباد مردّها إلى مشيئة الله، وفيه أن الله
يفعل ما يريد والذي يفعل ما يريد أكمل من الذي لا يفعل ما يريد ولهذا قال
الله في وصف نفسه: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، فيغضب ويرضى ويسخط
ويضحك وينزل ويتكلم ويرحم، وقوله: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ صيغة مبالغة من
الفعل، وفيه أن الناس ينقسمون إلى قسمين كما في حديث عبدالله بن عمرو بن
العاص عند الترمذي (٢١٤١)، وأحمد (٦٥٦٣)، قال: خَرَجَ عَلَيْنَا
رَسُولُ اللَّهِ وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ، فَقَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ؟» فَقُلْنَا: لَا يَا
رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا، فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ الْيُمْنَى: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجِلَّ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ
وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا»، ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي شِمَالِهِ: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ
أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجِلَّ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا
يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: فَفِيمَ الْعَمَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَ أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ

مِنْهُ؟ فَقَالَ: «سَدُّوْا وَقَارِبُوْا، فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُحْتَمُّ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُحْتَمُّ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدَيْهِ فَنَبَذَهُمَا، ثُمَّ قَالَ: «فَرَّغَ رَبُّكُمْ مِنَ الْعِبَادِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ».

وقال الله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وهنا المشيئة ليست على الإذن أو الإباحة والتخير بل هو على التهديد: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤]، ومما يدل على ذلك أن الله قال في آخرها: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، في هذه الآية تهديد ووعد لمن خالف أمر الله وخالف توحيده.

إثبات صفة الإرادة لله

قوله :

وَقَوْلُهُ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

في الآية أن التحليل والتحريم حق الله فالأمر أمره والمملك ملكه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وفي حديث أبي سعيد عند مسلم (٥٦٥)، قَالَ: لَمْ نَعُدْ أَنْ فُتِحَتْ خَيْبَرُ فَوْقَنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ فِي تِلْكَ الْبَقْلَةِ الثُّومِ وَالنَّاسُ جِيَاعٌ، فَأَكَلْنَا مِنْهَا أَكْلًا شَدِيدًا، ثُمَّ رُحْنَا إِلَى الْمَسْجِدِ، فَوَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ الرِّيحَ فَقَالَ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْخَيْثَةِ شَيْئًا، فَلَا يَقْرَبُنَا فِي الْمَسْجِدِ» فَقَالَ النَّاسُ: حُرِّمَتْ، حُرِّمَتْ، فَبَلَغَ ذَاكَ النَّبِيَّ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَيْسَ بِي تَحْرِيمٌ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لِي، وَلَكِنَّهَا شَجَرَةٌ أَكْرَهُ رِيحَهَا».

وقد أنكر الله تعالى على المشركين بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

وفي الآية من الأحكام أن الله أحل بهيمة الأنعام وهي البقر والغنم والإبل بالإجماع ولا تصح الأضحية والهدي والعقيقة إلا منها، وذهب بعض أهل العلم لى دخول الوحش المصايد فيها والتحقيق أن الأنعام هي الأزواج الثمانية، قال الله تعالى: ﴿ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَّرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِينَ حَرَّمَ أَمْرَ الْإِنثَيْنِ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنثَيْنِ ﴿١٤٣-١٤٤﴾، فهذه الآية تضمّنت التفصيل في بهيمة الأنعام وأن منها الذكر والأنثى، فمن كل زوج صنفان، ومسائل الأنعام بل وجميع الحيوان والطير المباح منها وغير المباح بابه واسع وعلمه غزير قد بينت بحمد الله كثيراً منه في شرحي على منظومة ما يحل وما يحرم من الحيوان .

وقوله: (إلا ما يتلى عليكم) أي: من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْنَقِيسُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَ كُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وقوله إنه رجس يعود على الخنزير وعلى لحمه ودمه وعظمه وشعره ومن هنا تعلم أنه لا يجوز استعمال الفرشاة التي تُصنع من شعر الخنزير مع أتمها من أحسن الأنواع عند الأطباء.

وقوله: (غير محلي الصيد وأنتم حرم) هذه المسألة لها أحكام كثيرة وهو أنه من قتل صيداً وهو مُحْرَمٌ أو أعان عليه أو أشار يلزمه الفدية يحكم بها ذوا عدل من المسلمين، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدَلٍ مِنْكُمْ هَدِيًّا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: ٩٦]، ففي

الآية أَنَّ كُلَّ حَيَوَانَ الْبَحْرِ حَلَالٌ ذُبِحَ أَوْ لَمْ يُذْبَحْ، وَجَدَ طَافِيًا أَوْ غَيْرَ طَافِيٍّ، وَأَمَّا صَيْدُ الْبَرِّ فَحَرَامٌ عَلَى الْمُحْرَمِ إِذَا صَادَ أَوْ صُيِّدَ لَهُ فِي الصَّجِيجِينَ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَاجًّا وَخَرَجْنَا مَعَهُ، قَالَ: فَصَرَفَ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ أَبُو قَتَادَةَ فَقَالَ: «خُذُوا سَاحِلَ الْبَحْرِ حَتَّى تَلْقَوْنِي». قَالَ فَأَخَذُوا سَاحِلَ الْبَحْرِ. فَلَمَّا انْصَرَفُوا قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْرَمُوا كُلَّهُمْ إِلَّا أَبَا قَتَادَةَ فَإِنَّهُ لَمْ يُحْرَمْ فَبَيَّنَّا هُمْ يَسِيرُونَ إِذْ رَأَوْا حُمْرَ وَحْشٍ فَحَمَلَ عَلَيْهَا أَبُو قَتَادَةَ فَعَقَرَ مِنْهَا أَتَانًا فَنَزَلُوا فَأَكَلُوا مِنْ لَحْمِهَا، قَالَ: فَقَالُوا أَكَلْنَا لَحْمًا وَنَحْنُ مُحْرَمُونَ، قَالَ: فَحَمَلُوا مَا بَقِيَ مِنْ لَحْمِ الْإِتَانِ فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا أَحْرَمْنَا وَكَانَ أَبُو قَتَادَةَ لَمْ يُحْرَمْ فَرَأَيْنَا حُمْرَ وَحْشٍ فَحَمَلَ عَلَيْهَا أَبُو قَتَادَةَ فَعَقَرَ مِنْهَا أَتَانًا فَنَزَلْنَا فَأَكَلْنَا مِنْ لَحْمِهَا فَقُلْنَا نَأْكُلُ لَحْمَ صَيْدٍ وَنَحْنُ مُحْرَمُونَ. فَحَمَلْنَا مَا بَقِيَ مِنْ لَحْمِهَا. فَقَالَ: «هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَمَرَهُ أَوْ أَشَارَ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ». قَالَ قَالُوا لَا، قَالَ: «فَكُلُوا مَا بَقِيَ مِنْ لَحْمِهَا».

ثم قال: (إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ) أي: يشرع ما يريد، وساق هذه الآية على إثبات مشيئة الله الموافقة لإرادته الكونية والإيمان بالإرادة الشرعية وبالتفريق بين الإرادتين الكونية والشرعية تسلم من ضلال المعتزلة القدرية ومن ضلال الجبرية وإن لم تُفرّق بين الإرادتين وقعت في الضلال البعيد، وفيهما عَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَامَةَ اللَّيْثِيِّ أَنَّهُ أَهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِمَارًا وَحْشِيًّا وَهُوَ بِالْأَبْوَاءِ - أَوْ بَوْدَانَ - فَرَدَّهُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ فَلَمَّا أَنْ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا فِي وَجْهِهِ قَالَ: «إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَا حُرْمٌ».

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

قال السعدي :

يقول تعالى -مبيناً لعباده علامة سعادة العبد وهدايته، وعلامة شقاوته وضلاله-: إن من انشرح صدره للإسلام، أي: اتسع وانفسح، فاستنار بنور الإيمان، وحيي بضوء اليقين، فاطمأنت بذلك نفسه، وأحب الخير، وطوعت له نفسه فعله، متلذذاً به غير مستثقل، فإن هذا علامة على أن الله قد هداه، ومنّ عليه بالتوفيق، وسلوك أقوم الطريق.

وأن علامة من يرد الله أن يضلّه، أن يجعل صدره ضيقاً حرجاً. أي: في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين، قد انغمس قلبه في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه خير، لا ينشرح قلبه لفعل الخير كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصعد في السماء، أي: كأنه يكلف الصعود إلى السماء، الذي لا حيلة له فيه.

وهذا سببه، عدم إيمانهم، هو الذي أوجب أن يجعل الله الرجس عليهم، لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان، وهذا ميزان لا يعول، وطريق لا يتغير، فإن من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، يسره الله لليسرى، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى، فسييسره للعسرى. انتهى

والإرادة في الآية كونيّة وهي المرادفة للمشيئة فلا بدّ أن تقع، فمن يرد الله هدايته وتوفيقه وتسديده لا بدّ أن يسلك هذا السبيل ويشرح صدره للإسلام

وللإيمان ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ أَلَا يَمَنُ وَزَيْنُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، والله هو الذي يهدي يشاء فضلاً ويُضِلُّ من يشاء عدلاً والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق وهي خاصة بالله على ما تقدّم بيانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

التفريق بين الإرادتين:

١ - فالإرادة الكونية: هي المعبر عنها بمشيئة الله تعالى، وهذه الإرادة لا يخرج عنها شيء، فالكافر والمسلم تحت هذه الإرادة الكونية سواء، فالطاعات، والمعاصي كلها بمشيئة الرب وإرادته، ومن أمثلتها قوله: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: ١١].

٢ - والإرادة الشرعية: تتضمن محبة الله ورضاه، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

والفرق بينهما:

١ - الإرادة الكونية تكون فيما يحبه الله تعالى وما لا يحبه.

- الإرادة الشرعية لا تكون إلا فيما يحبه الله .

٢ - الإرادة الكونية لا بد أن تقع.

- الإرادة الشرعية قد تقع وقد لا تقع.

٣- الإرادة الكونية مرادفة للمشیئة.

- الإرادة الشرعية مرادفة للمحبة والرضا.

٤- الإرادة الكونية مقصودة لغيرها كخلق إبليس، فإنه رأس الشر لكن خلقه الله لحكمة، فتحقق بسبب وجوده الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك.

- الإرادة الشرعية مقصودة لذاتها.

٥- الإرادة الكونية متعلقة بربوبية الله وخلقها.

- الإرادة الشرعية متعلقة بألوهية الله وشرعه.

٦- الإرادتان تجتمعان في حق المطيع وتفترقان في حق العاصي مثاله إيمان أبي بكر أراده الله كوناً وشرعاً، إما كونه أراده كوناً فوقوقه دليل عليه، وأما أنه أراده شرعاً، فالإيمان محبوب إلى الله ، بينما إيمان أبي جهل أراده الله شرعاً ولم يرده كوناً، ولو أراده كوناً لوقع ^(١).

لأننا نعلم أن مراد الله الكوني لا بد أن يقع كما في حديث ابن عباس ، قال النبي : «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظَكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ

(١) انظر منهاج السنة (٣/ ١٨٠-١٨٣)، الطحاوية (١١٤)، الإبان بالقضاء والقدر (٩٧-٩٩).

اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ
الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»، الترمذي (٢٥١٦) ومسند أحمد (٢٦٦٩)،

إثبات صفة المحبة لله

قوله :

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

في هذه الآية الأمر بالإحسان العام والحث عليه وهو نوعان:

❶ **الأول:** إحسان فيما بين العبد وبين الله :

ويكون بتوحيد الله تعالى وطاعة أمره والانتفاء عن نهيه وزجره، وهذا النوع يدخل دخولا أوليا في الإحسان المأمور به قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

❷ **الثاني:** إحسان يكون بين العباد:

ويكون بكف الأذى وبذل الندى وطلاقة الوجه، وهو المعبر عنه بحسن الخلق، وسيأتي الكلام عليه في آخر الكتاب إن شاء الله تعالى.

فالإنسان محتاج إلى تطبيق الإحسانين وأهمها الذي بينه وبين الله وكثير من الناس يهتم بتطبيق الباب الثاني ويظن أن المطلوب هو الإحسان إلى الخلق فيعطي لهذا ويكرم هذا وهو مضيع لباب العقيدة، مضيع لحق الله .

والأدلة في فضل الإحسان كثيرة، منها حديث شداد بن أوس عند مسلم (١٩٥٥)، قال النبي : «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلِيُجِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلِيُرْخَ ذَبِيحَتَهُ»، ومنها حديث أبي الدرداء أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٢)، قال النبي : «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيَّ»، ومنها حديث أبي هريرة عند ابن عساکر (٨٩٥) قال النبي : «إِنَّ أَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَنْزِلًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا فِي الدُّنْيَا»

وفي الآية إثبات صفة المحبة لله وهي من الصفات الثبوتية الفعلية وقولنا الثبوتية لأنها ثابتة لا منفية وقولنا الفعلية لأنها متعلقة بمشيئة الله ، يُحِبُّ مَنْ شَاءَ مَتَى شَاءَ، وهي منقسمة إلى قسمين:

﴿ **حُجَّةٌ مَقِيدَةٌ بَوْصَفٍ:** مثل ما في هذه الآيات، ومثل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿ **حُجَّةٌ مَقِيدَةٌ بِشَخْصٍ:** مثل ما صح في فضل علي حديث سهل بن سعد عند البخاري (٣٠٩٠) ومسلم (٢٤٠٦)، قال النبي : «لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ».

قال :

قوله: ﴿وَأَقِصُّوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْصِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

فعل أمر بالإقسط وهو العدل ويأتي من قَسَطَ بمعنى الجور، فَالْهَمْزَةُ فِيهِ لِلْسَّلْبِ.

وفيه إثبات صفة المحبة على ما تقدّم والمقسطون هم العادلون، وقد أمر الله بالقيام بالقسط، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]، وفي حديث عبدالله بن عمرو عند مسلم (١٨٢٧)، قال النبي: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُّوا».

وفي صحيح مسلم (٢٨٦٥): عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٌ وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ».

قال :

قوله: ﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

الآية في شأن الكفار الذين بينهم وبين رسول الله عهد، وميثاق مع أن حال الكفار نقض العهود والمواثيق بل حالهم كما قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨) أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ

سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْفُقُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ [التوبة: ٨-١٠]

وفيه إثبات صفة المحبة لله وأنه يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، وفي صحيح مسلم (٢٩٦٥): عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ».

ومن أسباب محبة الله للعبده محبته في الله، أخرج أبوداود (٥١٢٥) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، أَنَّ رَجُلًا كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لِأُحِبُّ هَذَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ : «أَعْلَمْتَهُ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «أَعْلِمُهُ» قَالَ: فَלَحِقَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ، فَقَالَ: أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ.

وَعَنِ الْمُقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرَبَ ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ» أبوداود (٥١٢٤).

وَالْمُتَّقُونَ هُمُ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَسْخَطَاتِ اللَّهِ وَقَايَةً أَوْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّارِ وَقَايَةً، وَأَعْظَمَ مَا تَحَقَّقَ بِهِ التَّقْوَى الْعِلْمُ، وَالنَّبِيُّ يَقُولُ: «وَاللَّهُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي» من حديث عائشة عند مسلم (١١١٠).

وَالتَّقْوَى مِنْ أَسْبَابِ الْفَلَاحِ، قَالَ اللَّهُ : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٢-٥]

ومن أسباب التمييز بين الحق والباطل، قال الله : ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

ومن أسباب تفريج الكرب وقضاء الحاجات وتيسير الأمور، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ ﴿٢﴾ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۖ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۚ ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٤-٥].

وهي من أعظم أسباب دخول الجنة، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: «الْفَمُّ وَالْفَرْجُ». أخرجه الترمذي (٢٠٠٤). إلى غير ذلك.

قوله :

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وفيه إثبات صفة المحبة، وفيها بيان فضيلة التوبة، والتوَّاب التوبة، وقد أمر الله تعالى بالتوبة ورغب فيها فقال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وفضلها عظيم قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ

إِلَهَاءَ آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١]، وهي واجبة على الفور من جميع الذنوب، وتأخيرها معصية تحتاج إلى توبة.

وللتوبة شروط خمسة ذكرتها مع أدلتها في كتابي شروط التوبة إلى الله .

❦ الأول: الإخلاص.

لأن التوبة عبادة والعبادة يُشترط فيها الإخلاص والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥] وقول الرسول : «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»، من حديث عمر عند البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).

❦ الثاني: أن تكون في زمن تُقبل فيه التوبة.

لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] ففي صحيح مسلم (١٥٨): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَا لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَالِدَّجَالُ وَدَابَّةُ الْأَرْضِ». ولحديث النبي : «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرَغْ»، من

حديث ابن عمر أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأحمد (٦١١٠)، ولحديث صفوان بن عسال عند أحمد (٢٤ / ٣٠)، وقال النبي : «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ بِالْمَغْرِبِ بَابًا مَسِيرَةَ عَرَضِهِ سَبْعُونَ عَامًا لِلتَّوْبَةِ، لَا يُغْلَقُ مَا لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ مِنْ قِبَلِهِ».

❦ الثالث: أن يُقلع عن الذنب.

لأن الذي يتعاطى الذنب ويزعم أنه تائب هذا عنده استهزاء بشرع الله وكاذب في دعواه.

❦ الرابع: العزم على عدم العود.

ويكون بالقلب فيعزم أن لا يعود إلى هذا الذنب أبداً وهل هو من شروط التوبة أن لا يقع منه العود مطلقاً، وقد قال بهذا القول بعض أهل العلم، والصحيح أن الله يقبل التوبة إن توفرت شروطها وإن عاد ما لم يكن عازماً على العود، والدليل على ذلك حديث أبي هريرة ، قال الرسول : «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا - وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا - فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ - وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ - فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعْلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ - أَوْ أَصَبْتُ - آخَرَ، فَاغْفِرْهُ؟ فَقَالَ: أَعْلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا، قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ - أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ - آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعْلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»، رواه البخاري (٧٥٠٧)، مسلم (٢٨٥٧).

٥ الخامس: الندم.

قد جاء حديث لا يثبت عن النبي بلفظ: «التَّوْبَةُ نَدَمٌ»، وهو موقوف على عمر ، أخرجه ابن أبي شيبة في المصنّف (٢٧٧٥١) و(٢٧٧٥٢).
هذه شروط التوبة في الذنوب التي بين العبد وبين الله فإذا كان الذنب بين العبد وغيره من العباد. فيلزم شرطا سادسا وهو ردّ الحقوق إلى أهلها والتحلل من ذلك.

فإن كان مالا ردّه وإن كانت غيبة اختلف العلماء فقال بعضهم يستسمح منه وقال بعضهم إن كانت الغيبة وصلته يستسمح منه وإن كانت لم تصله يستغفر له، لا يسيء إليه مرتين مرة بغيبته ومرة بأذيته حين يذهب ويقول أنا اغتبتك وقلت فيك وقلت فيك، هذه أذية فوق الأذية لكن يستغفر له وإن بلغه الكلام في يوم من الأيام يقول والله وقعنا فيك ونطلب منك العذر وإن كان زنا أو لواط أو غير ذلك فهنا لا يجوز أن يذهب ويتحلل ربّا يُفسد على الرجل أهله أو تحصل مشاكل عظيمة ولكن يتوب إلى الله ويستغفره ويكثر من ذلك لعلّ الله أن يتجاوز عنه.

فإن كان الذنب بدعة يُضاف إلى ما تقدّم من الشروط، شرطين مذكورين في كتاب الله :

٥ الأول: الإصلاح.

٥ الثاني: البيان.

لقول الله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ۖ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۖ ﴾ [١٦٠] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿ ۙ ﴾ [١٦١] خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿ ۙ ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٢].

قال السعدي : هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب، وما كتموا من شأن الرسول وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله: ﴿ مِنْ الْبَيِّنَاتِ ﴾ الدالات على الحق المظهرات له، ﴿ وَالْهُدَىٰ ﴾ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم، من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم، بأن يبينوا للناس ما من الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتُموه، فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدين، كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله، فأولئك: ﴿ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ﴾ أي: يبعدهم ويطردهم عن قربهِ ورحمته. ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴾ وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير، يصلي الله عليه وملائكته، حتى الحوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق، وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله، فالكاتم لما أنزل الله، مضاد لأمر الله، مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها، وهذا يطمسها فهذا عليه هذا الوعيد الشديد. ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ أي رجعوا عما هم

عليه من الذنوب، ندما وإقلاعا، وعزما على عدم المعاودة ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما فسد من أعمالهم، فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن.

ولا يكفي ذلك في الكاتم أيضا، حتى يبين ما كتّمه، ويبيد ضد ما أخفى، فهذا يتوب الله عليه، لأن توبة الله غير محجوب عنها، فمن أتى بسبب التوبة، تاب الله عليه، لأنه ﴿التَّوَابُ﴾ أي: الرجاء على عباده بالعفو والصفح، بعد الذنب إذا تابوا، وبالإحسان والنعم بعد المنع، إذا رجعوا، ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي اتصف بالرحمة العظيمة، التي وسعت كل شيء ومن رحمته أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأتابوا، ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم، لطفًا وكرما، هذا حكم التائب من الذنب. انتهى

فإن كان الذنب كفرًا فتكون التوبة منه بالإيمان قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وهل التوبة من الكفر تهدم جميع الذنوب أم لا بد أن يتوب من كل ذنب بعينه؟ الصحيح أنه إن تاب توبة مجملة من الكفر إلى الإسلام فإنها تهدم جميع ذنوبه لحديث عمرو بن العاص رواه مسلم (١٢١)، قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلَأُبَايِعَكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟» قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟» قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: «أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟».

ولكن إن أسلم من الكفر وكان لاجئًا في الزنا أو مريدًا للاستمرار في الزنا أو الخمر هنا يلزمه أيضًا التوبة من الذنب وتكون التوبة من الكفر مكفرة

للذنوب التي لم يعزم عليها لحديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي مُسْلِمٍ (١٢٠)، قَالَ: قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ لِرَسُولِ اللَّهِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَوَاقِدُ بِمَا عَمَلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: «أَمَّا مَنْ أَحْسَنَ مِنْكُمْ فِي الْإِسْلَامِ، فَلَا يُؤَاخِذُ بِهَا، وَمَنْ أَسَاءَ، أُخِذَ بِعَمَلِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ».

وإن كان الذنب نفاقاً وهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر فعلى الشروط التي تقدّمت مع ما هو مبين في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿[النساء: ١٤٥-١٤٧].

قال السعدي : يخبر تعالى عن مآل المنافقين أنهم في أسفل الدرجات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب. فهم تحت سائر الكفار لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجه لا يشعر به ولا يحس. ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق إلا مَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم بِالتَّوْبَةِ مِنَ السَّيِّئَاتِ. ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ له الظواهر والبواطن ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ والتجأوا إليه في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم. ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿لِلَّهِ﴾.

فقصدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة وسلّموا من الرياء والنفاق، فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم كنهه إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما خصوصاً في هذا المقام الحرج الذي يمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافياً كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما. انتهى

وقوله: (يحبّ المتطهّرين) المراد بالتطهّر هنا طهارة البدن وتدخل فيها طهارة القلب قال الله تعالى: ﴿وَيَا بَنِي إِسْرَءِيلَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]، وقد ذكر في أسباب النزول أنّها أنزلت في شأن أصحاب قباء كانوا إذا قضوا حوائجهم استنجوا بالحجارة والماء ولا يثبت لأنه مرسل عن عطاء.

وأخذ الزينة، والنظافة داخل تحت عمومات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وفي صحيح مسلم (٩١): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ». قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ».

قوله :

قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

ساقها المصنف مدلا بها على إثبات صفة المحبة لله تعالى، وفيها بيان أن من علامة محبة الله اتباع النبي وهذا علم أن الله لا يقبل عملاً من أعمال العباد إلا بتوفّر شرطين عظيمين:

❦ الأول: الإخلاص.

❦ الثاني: المتابعة.

قال السعدي : وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسوله في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محبا لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص. انتهى

قوله :

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بُيُوتٌ مَرْضُوضٌ﴾ [الصف: ٤].

فيها إثبات محبة الله وأنه يحب المقاتلين المجاهدين في سبيله وفيه فضيلة الجهاد في سبيل الله، وفي المستدرك عن عبدالله بن سلام قال: قعدنا نفر من أصحاب النبي فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عملنا فأنزل الله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بُيُوتٌ مَرْضُوضٌ ﴿ إلى آخر السورة وقرأها علينا رسول الله .

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ [التوبة: ١١١]، وقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مَنِ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]، وقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُنُكُمْ عَلَى نَجْوَىٰ بُعْدِكُمْ عَنْ عَذَابِ إِلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١]، والشاهد من سوق هذه الآيات إثبات صفة المحبة لله.

إثبات صفة الودّ لله

قوله :

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ [البروج: ١٤].

في الآية إثبات اسمى الغفور، والودود وقد ذكر الغفور في القرآن منها قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، وقوله: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

قال السعدي : ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ الذي يغفر الذنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأتاب.

﴿الْوُدُودُ﴾ الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال، والمعاني والأفعال، فمحبتته في قلوب خواص خلقه، التابعة لذلك، لا يشبهها شيء من أنواع المحاب، ولهذا كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم يكن غيرها تبعاً لها، كانت عذاباً على أهلها، وهو تعالى الودود، الواد لأحبابه، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] والمودة هي المحبة الصافية، وفي هذا سر لطيف، حيث قرن الودود بالغفور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين.

بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحاً بتوبة العبد من هذا براجلته، وهذا أعظم فرح يقدر. فله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه. انتهى

وفيه إثبات صفة المغفرة لله ، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وفيه إثبات صفة الود لله وهي صافي المحبة فالمحبة مراتب ومنها الود والخلة:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَبِذَا سُمِّيَ الْخَلِيلَ خَلِيلًا
فأعلى درجات المحبة الخلة ومنها الود وهو صافي المحبة وكل هذه الآيات مع ما ذكرنا من الأحاديث إثبات صفة المحبة لله وهي من الصفات الفعلية، ومن أسباب المحبة التقرب إلى الله بالعبادات، قال النبيؐ فيما يرويه عن ربه تعالى: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَتْهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٥٠٢).

ومن الأحاديث في إثبات صفة المحبة قول النبي : «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوَضَّعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوَضَّعُ لَهُ الْبُغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ»، من حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٦٣٧)، وأيضًا حديث عائشة وأبي هريرة وعمران بن حصين وأبي موسى وألفاظهم متقاربة قال الرسول :

«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»، رواه البخاري (٦٥٠٧)، مسلم (٢٦٣٨)، وهذه الأحاديث في الصحيح.

وطريقة المعتزلة والأشاعرة أنهم يُعْطِلُونَ الله من صفاته فالمعتزلة ينفون جميع الصفات والأشاعرة لا يثبتون إلا سبعة صفات وهي (الحياة، والقدرة، الإرادة، والعلم، والسمع، والصبر، والكلام)، ومع ذلك لا يثبتونها بدلالة الكتاب لأنها ظنية الدلالة، والكتاب والسنة عاضداً فقط لعقولهم فيقولون نحن نثبت لله صفة القدرة، لأنّ هذا العالم وما فيه يدلّ على أنّه قادر والتخصيص مثاله رجل أبيض وأسود وامرأة وشجرة وكلب وحمار وحجر يدلّ على الإرادة والإتقان يدلّ على العلم، وهذه الصفات لا يتّصف بها إلاّ الحيّ، والحيّ إمّا أن يكون سميعاً، بصيراً، متكلماً، أو العكس وهذه صفات كمال، وضدها نقص، وينفون عن الله بقية الصفات لا سيما الفعلية، ومن هذا الباب نفي صفة المحبة ويُفسّرونها بإرادة الإحسان، بينما المعتزلة يفسرونها

بالإحسان، وهذا تفسير باللازم وهو تفسير باطل يردّه الكتاب والسنة والإجماع.

فإنّ الله أضاف المحبّة إلى نفسه وهي معنى يقوم بغيره فإضافته إلى الله إضافة صفة إلى موصوف، ومّا يدلّ على أنّه يُحبّ أوليائه أنّه يُكرمهم ويُحسن إليهم.

القول في صفة الرحمة

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿يَسْمِ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ [النمل: ٣٠].

هذه الآية وما بعدها متضمنة لإثبات صفة الرحمة، واسم الله واسم الرحمن من الأسماء الخاصة بالله لا يجوز أن يُسمى به غيره ولا نعلم أحداً تسمى بالرحمن إلا مسيلمة الكذاب لعنه الله سَمَّى نفسه رحمان اليمامة، والكفار كانوا يثبتون بعض الأسماء والصفات ولما ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] قالوه مكابرة وإلا ففي أشعار بعضهم:

(أَلَا قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا)

ورحمة الله صفة من صفاته غير مخلوقة فإن استدلل مستدلّ بحديث أبي هريرة ، قال الرسول : «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عَنْهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَأَحِمُ الْخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ»، أخرجه البخاري (٦٠٠٠)، مسلم (٢٧٥٢)، فهذه الرحمة مخلوقة، أمّا الرحمة المضافة إلى الله فهي صفته، وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ : قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحَلَّبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ : «أَتُرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ» قُلْنَا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: «لَهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا»، البخاري (٥٩٩٩)، مسلم (٢٧٥٤)، وقال النبي : «الرَّاحِمُونَ

يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مَّن فِي السَّمَاءِ»، من حديث
عبدالله بن عمرو عند أبي داود (٤٩٤١)، الترمذي (١٩٢٤)، مسند أحمد
(٦٤٩٤)، وقال عيله الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ
فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»، من حديث أبي هريرة عند
البخاري (٧٤٢٢) واللفظ له ومسلم (٢٧٥١).

قال :

قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

هذا دليل على سعة رحمة الله وفيه أن الإنسان لا يقنط من رحمة الله
ويدع ربه أن يعفو عنه ويتجاوز عنه ويتوسل إليه برحمته الواسعة التي وسعت
كل شيء وفي دعاء الملائكة: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا
فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، ويشعر سؤال الله
بعلمه: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبِ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ
خَيْرًا لِّي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِّي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ
وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ
بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ،
وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُّضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُّضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ،
وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُّهْتَدِينَ»، من حديث عمار بن ياسر عند النسائي (١٣٠٥)
و(١٣٠٦)، ومسند أحمد (١٨٣٢٥).

ومن أنواع التوسّل التوسّل بالأسماء والصفات قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ومن أنواع التوسّل المشروع التوسّل بالعمل الصالح: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وهكذا ما جاء في الصحيحين من حديث ابن عمر، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «بَيْنَمَا ثَلَاثَةٌ نَفِرَ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ فَادْعُوا اللَّهَ تَعَالَى بِهَا لَعَلَّ اللَّهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ. فَقَالَ أَحَدُهُمُ اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَأَمْرَاتِي وَلِي صَبِيَّةٌ صَغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ فَلَمْ أَتِ حَتَّى أُمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أَوْقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصَّبِيَّةَ قَبْلَهُمَا وَالصَّبِيَّةُ يَتَضَاعَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَائِي وَدَائِهِمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ. فَفَرَجَ اللَّهُ مِنْهَا فُرْجَةً فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ. وَقَالَ الْآخَرُ اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةٌ عَمَّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدَّ مَا يُحِبُّ الرَّجَالُ النِّسَاءَ وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا فَأَبَتْ حَتَّى آتَيْهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ فَتَعَبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ فَجِئْتُهَا بِهَا فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتَقِ اللَّهَ وَلَا تَفْتَحَ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ. فَقُمْتُ عَنْهَا فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً. فَفَرَجَ لَهُمْ. وَقَالَ الْآخَرُ اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ

اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرْقٍ أُرْزُ فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ أَعْطِنِي حَقِّي. فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرْقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ فَلَمْ أَزَلْ أَزْرِعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقْرًا وَرِعَاءَهَا فَجَاءَنِي فَقَالَ أَتَقِي اللَّهَ وَلَا تَظْلِمُنِي حَقِّي. قُلْتُ أَذْهَبُ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا فَخُذْهَا. فَقَالَ أَتَقِي اللَّهَ وَلَا تَسْتَهْزِئُ بِي. فَقُلْتُ إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ خُذْ ذَلِكَ الْبَقْرَ وَرِعَاءَهَا. فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ. فَفَرَجَ اللَّهُ مَا بَقِيَ».

والنوع الثالث من التوسّل: التوسّل بدعاء الرجل الصالح، عن عطاء بن أبي رباح قَالَ قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ : أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: قُلْتُ بَلَى، قَالَ: هَذِهِ السَّودَاءُ، أَتَتِ النَّبِيَّ ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَضْرَعُ وَأَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي، قَالَ: «إِنْ شِئْتَ صَبَرْتُ، وَلَكَ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتَ، دَعَوْتُ اللَّهَ لَكَ أَنْ يُعَافِيكَ»، قَالَتْ: لَا، بَلْ أَصْبِرُ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ - أَوْ لَا يَنْكَشِفَ عَنِّي - قَالَ: فَدَعَا لَهَا. رواه البخاري (٥٦٥٢)، وعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسُ وَلَهُ وَالِدَةٌ وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَمَرُّوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ». رواه مسلم (٢٥٤٢)، والتوسّل المبتدع هو التوسّل بجاه النبي أو بجاه الصالحين فَإِنْ جَاهُ النَّبِيِّ مَخْتَصٌّ بِهِ وَكَذَلِكَ جَاهُ الصَّالِحِ مَخْتَصٌّ بِهِ فَكَيْفَ تَقُولُ: (اللَّهُمَّ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِجَاهِ مُحَمَّدٍ) بل التوسّل المشروع هو التوسّل بالإيمان بالنبي قال تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

وأما التوسّل بدعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو شرك أكبر مخرج من الملة كأن يقول: (يا محمد اغفر لي، أو يا حسيناه أجب لي) أو غير ذلك.
قال :

قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

هذه الآية تدلّ كسابقتها على إثبات صفة الرحمة لله ، وسعة رحمته للمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧]، هذه الآية تضمنت أصناف الذين يرحمهم الله فإذا أردت معرفة الآية فانظر إلى سياقها، فمثلاً قول الله : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، يستدل بعضهم بهذه الآية على فضيلة الجهاد في سبيل الله ولو نظرت إلى الآية التي تتبع هذه الآية لوجدت أن الشراء يتعدى إلى أصناف كثيرة: ﴿التَّائِبُونَ الْعُقَدُونَ الْحُمِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]، وهكذا قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]،

ومنهم المتقون: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكِبَاطِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٤) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ إِلَّا اللَّهُ وَلَكُمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٤-١٣٥].

قال :

قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وفي الحديث قال النبي : «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٧٤٢٢)، كتب على نفسه وأوجب تفضلاً أن رحمته تسبق غضبه

قال :

قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

فيه إثبات اسم الرحيم لله وفيه إثبات اسم الغفور وإثبات صفة المغفرة قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، أي صاحب الرحمة المتصف بها وفي الحديث قال النبي : «رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»، من حديث ابن عمر عند أبي داود (١٥١٦)، الترمذي (٣٤٣٤)، ابن ماجه (٣٨١٤)، مسند أحمد (٤٧٢٦). وفي الحديث قال النبي : «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ لِيَعِزُّمِ الْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهُ لَا مُكْرَهَ لَهُ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٣٣٩) ومسلم

(٢٦٧٩)، وكان النبي يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّةً، وَجَلَّةً، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ»، من حديث أبي هريرة عند مسلم (٤٨٣)، ودعاء المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

قال :

قوله: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

من أسماء الله (الخير) و(الحافظ)، (الرحمن والرحيم) وقوله: ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، هذا من الأسماء المركبة، وكذلك من الأسماء المزدوجة، فله كمال من إفراده، وكمال من تركيبه، واقتترانه، وقد نقل شيخ الإسلام الإجماع على أن الأسماء المركبة مما يُدعى الله بها، ومنها: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، و: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، و﴿جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩]، و﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، و(مقلب القلوب، مصرف القلوب).

وصفة الرحمة صفة ذاتية من حيث تعلّقها بالذات وصفة فعلية من حيث آحادها، والعجب من الأشاعرة حيث يُثبتون صفة الإرادة بالعقل ويُنفون صفة المحبة وصفة الرحمة مع أنّنا لو استخدمنا الدلالة العقلية على إثبات صفة الإرادة وإثبات صفة الرحمة والمحبة لوجدنا أن دلالتها على صفة الرحمة أقوى من دلالة الاختصاص على الإرادة فإنّنا نرى أنّ الله يرحم أوليائه ويرزقهم

ويوفقهم ويهديهم ويسددهم، ويدافع عنهم وينصرهم، ويُنزل عليهم الأمطار، وينبت لهم الثمار، ويأتيهم بالأرزاق.

وقوله: ﴿أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ دليل على أن عدد أسماء الله غير محصورة بعدد معلوم لنا وبيانه أنك إذا تتبعت القرآن والسنة وجدت أن أسماء الله المذكورة في القرآن مع الأسماء المركبة أكثر من تسعة وتسعين اسماً فإما أن يقول أصحاب هذا القول أن هذه ليست أسماء الله فيلحدون وإما أن يقولوا إنها أسماء الله فيخصمون.

إثبات صفة الرضا لله

قال :

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

صفة الرضا من الصفات الفعلية، وقد دلّ عليها الكتاب والسنة والإجماع، وما ذكره من قول الله تعالى قد تضمنته عدة آيات في القرآن منها قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأَنْصَارُ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٨]، وقال : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وقال الله : ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»، رواه مسلم (٢٧٣٤)، وقال النبي : «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ وَيَسْخَطُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ»، من حديث أبي هريرة عند مسلم (١٧١٥)، وهكذا يقول الله لأهل الجنة كما في الحديث القدسي: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ

رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»، من حديث أبي سعيد الخدري في البخاري (٦٥٤٩)، مسلم (٢٨٢٩)، حديث أنس عند مسلم (٦٧٧) أن الصحابة الذين قُتِلُوا: «إِنَّ إِخْوَانَكُمْ الَّذِينَ قُتِلُوا قَالُوا لِلرَّبِّهِمْ: بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ، فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا»، كل هذا يدل على إثبات صفة الرضا لله وفي حديث أبي هريرة الطويل في قصة الثلاثة من بني إسرائيل عند البخاري (٣٤٦٤)، مسلم (٢٩٦٤)، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»، وفي حديث عائشة عند مسلم (٤٨٦) أن النبي كان يقول: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخِطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»، وفيه الاستعاذة بصفة الله الرضا، فمن زعم أن الرضا هو الإحسان فقد أبعد لأن الإحسان مخلوق والله يقول لنبيه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وهذا الوجه من الأدلة التي يخصص بها المبتدعة.

وَعَنْ جُوَيْرِيَةَ ، أَنَّ النَّبِيَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى، وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: «مَا زِلْتُ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكَ عَلَيْهَا؟» قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ: «لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وَزَنْتَ بِمَا قُلْتُ مِنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنْتَهُنَّ: سُبْحَانَ

اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»، رواه مسلم (٢٧٢٦).

إثبات صفة الغضب لله

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: ٩٣].

فيه إثبات صفة الغضب لله وهي من الصفات الفعلية دل عليها القرآن والسنة والإجماع، وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، وقال : ﴿وَلَكِنَّ مِّن شَرَحٍ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَالْخَمِيسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٩]، وقال : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤] في آيات كثيرات.

ويدل على إثبات صفة الغضب حديث الشفاعة وفيه: «إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي نَفْسِي»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٣٤٠) واللفظ له، ومسلم (١٩٤)، فكل نبي ممن يأتونهم يقول هذا القول، وفي الحديث الذي تقدم: «أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَغْضَبُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»، وفي البخاري (٢٣٥٦) ومسلم (١٣٨) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صَبْرٍ، يَفْتَتِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُّسْلِمٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ»، قَالَ: فَدَخَلَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ، فَقَالَ: مَا يُحَدِّثُكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالُوا: كَذَا وَكَذَا، قَالَ: صَدَقَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فِي نَزَلَتْ، كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ أَرْضُ بِالْيَمَنِ، فَخَاصَمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ فَقَالَ:

«هَلْ لَكَ بَيِّنَةٌ؟» فَقُلْتُ: لَا، قَالَ: «فِيمِئْتُهُ»، قُلْتُ: إِذَنْ يَخْلَفُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ عِنْدَ ذَلِكَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صَبْرٍ، يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ» فَتَنَزَّلَتْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. وَفِي مُسْلِمٍ (٢٥٠٤) حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمٍ، حَدَّثَنَا بِهِزٌ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ، عَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ، أَتَى عَلَى سَلْمَانَ، وَصُهَيْبٍ، وَبِلَالٍ فِي نَفَرٍ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَحَدَتِ سُيُوفُ اللَّهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللَّهِ مَا أَخَذَهَا، قَالَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخٍ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟ فَأَتَى النَّبِيَّ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغَضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتُ أَغَضَبْتَهُمْ، لَقَدْ أَغَضَبْتَ رَبَّكَ» فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهُ أَغَضَبْتُكُمْ؟ قَالُوا: لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَخِي.

وَفِي الْبُخَارِيِّ (٤٠٧٣) وَمُسْلِمٍ (١٧٩٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «أَشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا بِنَبِيِّهِ، يُشِيرُ إِلَى رَبَاعِيَّتِهِ، أَشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

وَفِي الْبُخَارِيِّ (٤٠٧٤) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ: «أَشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ النَّبِيُّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ دَمَوْا وَجْهَ نَبِيِّ اللَّهِ

»

وَفِي الْآيَةِ عِظَمُ قَتْلِ الْمُؤْمِنِ وَقَوْلُهُ: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]، هَذَا إِنْ جَزَاهُ وَإِلَّا فَإِنَّ مِنْ عَقِيدَةِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَإِنْ اقْتَرَفَ الذَّنْبَ فَإِنَّ مَالَهُ إِلَى الْجَنَّةِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنْ قَتَلَهُ مُسْتَحِلًّا

والصحيح إن استحلّ دمه فهو كافر سواء قتله أو لم يقتله وأحاديث النهي عن القتل كثيرة استوعبنا الكثير منها في كتاب أحكام قتل النفس المعصومة .

واللعن هو الطرد من رحمة الله وقد اتفق العلماء على جواز اللعن بالوصف، كأن تقول لعنة الله على الكافرين، ولعنة الله على اليهود والنصارى، ولعنة الله على الكاذبين إلى غير ذلك، واختلفوا في لعن المعين، فذهب جمهورهم إلى تحريم لعن المعين المسلم والكافر الحي مع اتفاقهم على جواز اللعن بالوصف، ففي حديث ابن مسعود في البخاري (٤٨٨٦) ومسلم (٢١٢٥) قال: لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ الْوَاشِمَاتِ، وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، الْمُغَيَّرَاتِ لِخَلْقِ اللَّهِ.

والصحيح جواز لعن المعين إذا فعل ما يستوجب ذلك لحديث عائشة عند مسلم (٢٦٠٠): دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ رَجُلَانِ فَكَلَّمَاهُ بِشَيْءٍ لَا أَدْرِي مَا هُوَ فَأَغْضَبَاهُ فَلَعَنَهُمَا وَسَبَّهُمَا، فَلَمَّا خَرَجَا قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَصَابَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا مَا أَصَابَهُ هَذَانِ قَالَ: «وَمَا ذَلِكَ؟»، قَالَتْ قُلْتُ لَعَنْتُهُمَا وَسَبَبْتُهُمَا قَالَ: «أَوْ مَا عَلِمْتَ مَا شَارِطْتُ عَلَيْهِ رَبِّي قُلْتُ اللَّهُمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ فَأَيُّ الْمُسْلِمِينَ لَعَنْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْهُ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا»، والنبّي يقول كما في حديث أبي هريرة، عائشة وأنس وكلّها في صحيح مسلم (٢٦٠١): «اللَّهُمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، فَأَيُّ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَبْتُهُ، أَوْ لَعَنْتُهُ، أَوْ جَلَدْتُهُ، فَاجْعَلْهَا لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً»، وهذا شرط اشترطه على الله لأنّ دعاء النبيّ يُستجاب غالبًا. ثم إن لعن المسلم دعاء بطرد مؤقّت من رحمة الله واللعن في حقّ الكافر طرد مؤبّد وهذا الترجيح أشار إليه شيخ الإسلام والإمام النووي رحمة

الله عليهما ونقل هذا الخلاف ابن مفلح في كتاب (الآداب الشرعية)، وقد لعن السلف أبا حنيفة والكرابيسي، ولعنوا حفص الفرد وبشراً المريسي ولعنوا غير واحد، وحديث أبي الدرداء أن الرسول قال: «لَا يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، رواه مسلم عن (٢٥٩٨)، على ظاهره ودلالته والمراد به المكثرون اللعن لغير ما حاجة، فعن أبي بَرَزَةَ الْأَسْلَمِيِّ ، قَالَ: بَيْنَمَا جَارِيَةٌ عَلَى نَاقَةٍ، عَلَيْهَا بَعْضُ مَتَاعِ الْقَوْمِ، إِذْ بَصُرَتْ بِالنَّبِيِّ ، وَتَضَاقَقَ بِهِمُ الْجَبَلُ، فَقَالَتْ: حَلْ، اللَّهُمَّ ائْتِنَهَا، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ : «لَا تُصَاحِبُنَا نَاقَةٌ عَلَيْهَا لَعْنَةٌ»، مسلم (٢٥٩٦)، لأنه علم بالوحي أن اللعنة قد أصابتها والدعوة وقعت عليها أو يكون ذلك زجراً عن الإكثار من لعن الدواب والأحجار والأبناء والزوجات، لكن الدعاء على المستحق جائز إجماعاً فكذلك اللعن للمستحق هو دعاء، ويأتي اللعن بمعنى السب، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ»، من حديث عبدالله بن عمرو عند البخاري (٥٩٧٣)، وقد نقلت ذلك في ردِّي على طارق السويدان الذي زعم أنه لا يجوز لعن اليهود والنصارى ويقول: (إيش هذه المهزلة: لعن الله اليهود والنصارى، أنا تتبع القرآن من أوله إلى آخره ما وجدت فيه: لعن الله اليهود والنصارى) لأنه تتبع القرآن -إن كان صادقاً- تتبع الزائعين قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا

يَعْتَدُونَ ﴿[المائدة:٧٨]﴾ وبنوا إسرائيل هم اليهود والنصارى، وقال تعالى: ﴿إِنَّ
 اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤]، وفي الصحيحين البخاري (٤٣٥)،
 مسلم (٥٣١) من حديث ابن عباس ، قال النبي : «لَعَنَ اللَّهُ عَلَى
 الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، وفي مسند أحمد شيء من
 ذلك نقلتها في ذلك الكتاب وبالله التوفيق وله الحمد.

إثبات صفة السخط لله

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨]، وقوله: ﴿لَيْسَ مَا قَدَمْتَ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٨٠].

فيها إثبات صفة السخط وهي من الصفات الفعلية إذ يفعلها الله متى شاء وفي الحديث: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ»، من حديث عائشة عند مسلم (٤٨٦)، وقد تقدّم الحديث قال النبي : «فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخَطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٤٦٤)، مسلم (٢٩٦٤).

وفي وقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨]، بيان من الله تعالى أن من أسباب إحباط الله للعمل اتباع ما يسخط من أنواع المعاصي، وعظيم الأثام، وكراهة الوحي والخير.

قال السعدي : (ذَلِكَ) العذاب الذي استحقوه ونالوه: (ب) سبب: (أَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ) من كل كفر وفسوق وعصيان.

﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه، ولا يدينهم منه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضي الله وكره سخطه، فإنه سيكفر عنه سيئاته، ويضاعف أجره وثوابه. انتهى

وقوله: ﴿لَيْسَ مَا قَدَمْتَ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٨٠].
 أي مما تعطوه من الغلو، واتباع الهوى، وترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتولي الكافرين، والمخالفين لدين رب العالمين، حتى أوصلهم ذلك إلى اللعن والطرده من رحمة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٧٧) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٧-٨١]

إثبات صفة الأسف لله

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا ﴾ أَيُّ أَغْضَبُونَا ﴿ أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أَيُّ بِالْغَرَقِ، كَمَا فِي
أَجْمَعِينَ ﴿ [الزخرف: ٥٥].

والأسف هو شدة الغضب، والانتقام لازمه، وهذه الآية تُبَيِّن ذلك، يقول
الله: ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا ﴾ أَيُّ أَغْضَبُونَا ﴿ أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أَيُّ بِالْغَرَقِ، كَمَا فِي
قوله تعالى: ﴿ وَجَوَّزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا
حَقًّا إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ
الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَالْكَانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ
بِيَدِنَا لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا
لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٠-٩٢]، ويأتي الأسف بمعنى الحزن قال الله تعالى مخبراً عن
يعقوب : ﴿ يَتَأَسَّفُ عَلَى يُوسُفَ وَأَبِصَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ
كَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٨٤]، وهذا يُنَزِّه الله عنه، وهذه الآية قاضية على تأويل
المعطلة الذين يقولون بأن الغضب هو الانتقام كما تقول المعتزلة أو إرادة
الانتقام كما تقول الأشاعرة فهذه الآية فرقت بين الغضب ولزومه، وفي الآية
بيان عظم انتقام الله من قوم فرعون لما طغوا فأغرقهم في البحر نكالا وبطشاً

٣٢٠

فإن قالوا الغضب هو الانتقام قلنا اقرأ الآية على هذا التفسير سيكون (فلما
انتقمنا انتقمنا منهم) هذا الكلام على هذا التقدير فيه ركابة لا يقوله أسمع

العرب فكيف بكلام الله الذي: ﴿لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلُ
مَنْ حَكِيمٌ حَمِيدٌ﴾ [فصلت: ٤٢]، فعُلم أنَّ الانتقام من لوازم الغضب.

إثبات صفة الكراهة لله

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦].

فيه إثبات صفة الكره لله ، ويدل عليها قول النبي : «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ»، من حديث المغيرة بن شعبة عند البخاري (١٤٧٧)، مسلم (٥٩٣)، وهي من الصفات الفعلية وفيه إثبات صفة التثبيط لله وهي من الصفات الفعلية، يُثَبِّطُ المنافقين ومن إليهم ممن في خروجهم ضرر على الإسلام والمسلمين قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٤٧) لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونُ﴾ [التوبة: ٤٧-٤٨]، ومع ذلك لما كان الله علما بسرائرهم كره انبعاثهم فثبَّطَهُمْ، وهذه من حكمة الله ولطفه بعباده المؤمنين.

إثبات صفة المقت لله

قال :

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

ومثلها في إثبات صفة المقت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

وفي حديث عياض بن حمار المشاجعي عند مسلم (٢٨٦٥)، قال النبي : «إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَّتَهُمْ عَرَبُهُمْ وَعَجَمُهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»، فنشبت هذه الصفة على ظاهرها والمقت هو أشد البغض والله مقتٌ يليق بجلاله، كما أنه موصوف بمحبة ورضا وسخط يليق بجلاله، وما أضيف إلى الله من الأفعال يشتق له منه صفة، والله فعال لما يريد فأفعاله لا تنتهي لها وكذلك صفاته ولهذا كان باب الصفات أوسع من باب الأسماء. والمقت والكره والمحبة والغضب والسخط والرحمة والرضا معانٍ تقوم بغيرها فتكون إضافتها إلى الله إضافة صفة إلى موصوف على ما هو مقرر من قواعد أهل السنة والجماعة وفي الآية أن القائل بالحق ينبغي له أن يكون مطبقاً له فإن الله يمقت ويكره الذي يقول ما لا يفعل وفي الحديث قال النبي : «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيُّ فُلَانٍ مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ أَمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ

الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»، من حديث أسامة بن زيد عند البخاري (٣٢٧٦)،
ومسلم، وقد جاء عند الحاكم في مستدركه (٢٨٩٩) عن عبدالله بن سلام
قال: قعدنا نفر من أصحاب النبي فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب
إلى الله عملنا فأنزل الله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾ (١) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ
أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا
كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصٍ ﴿٤﴾ [الصف: ١-٤] إلى آخر السورة وقرأها علينا رسول الله
. وفي الآية التي بعدها إثبات صفة المحبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ
يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصٍ﴾ [الصف: ٤]، والذي يقول
الحق ويعمل بخلافه آثم، قال النبي: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ
تُقَرَّضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِضٍ مِنْ نَارٍ. قَالَ: قُلْتُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: خُطَبَاءُ مِنْ
أَهْلِ الدُّنْيَا مِمَّنْ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ، وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ
الْكِتَابَ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ»، من حديث أنس في مسند أحمد (١٢٢١١)،
خطباء ووعاظ، لكنهم تُقَرَّضهم ألسنتهم ومشافيرهم، لأنهم يأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر ومع ذلك يتعاطون المنكر ويتركون المعروف، وفي حديث
ثوبان الذي أخبر فيه النبي بقوله: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالٍ تَهَامَةٌ بَيْضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ هَبَاءً مَنثورًا»،
رواه ابن ماجه (٤٢٤٥)، عندهم أعمال صالحة من قراءة القرآن والصيام
والحج والقيام وطلب العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم يجعلها الله
هباءً منثورًا، قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا
نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ،

وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ
 انْتَهَكُوهَا»، وقال تعالى مبكتا لبني إسرائيل، ولمن سار على طريقهم هذا
 الباب: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

إثبات صفتي المجيء والإتيان لله

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ
وَالْمَلَائِكَةُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله:
﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ
رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقال : ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ
الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١-٢٢]، وقال
: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

هذه الآيات تضمنت الإخبار عن إثبات صفتي المجيء والإتيان لله وهو مجيء وإتيان حقيقي والمجيء والإتيان معناهما في لغة العرب، وذهب أهل البدع إلى أن المجيء والإتيان مجاز على مجيء أمره، أو ملائكته وهذا تأويل باطل، مخالف لعقيدة السلف.

ومما يدل على أنها حقيقة كونها معنيان يقومان بغيرهما فإضافتهما إلى الله إضافة صفة إلى موصوف والذي يجيء ويأتي أكمل من الذي لا يجيء ولا يأتي وقد عطف الله مجيئه على مجيء الملائكة فلما كان مجيء الملائكة حقيقي كان مجيء الله حقيقي والتفريق بين المتماثلات لا يجوز وإن قالوا بأن المراد بالمجيء مجيء أمره فأمر الله لا يُخصَّص بذلك اليوم بل في كل حين وإن قلت بأن المراد مجيء ملائكته سيكون في الآية ركاقة، (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو

يأتي الملائكة)، وقول الله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، تكون (وجاء الملك والملك صفًّا صفًّا).

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، تشقق السماء بالغمام وتتنزل الملائكة استعدادًا لنزول الجبار لفصل القضاء بين العباد ومن هذه الأدلة استدلال أهل السنة على أن الله متصف بصفة النزول على ما يأتي في باب أحاديث الصفات وقد قال إسحق بن إبراهيم الحنظلي: (جمعني وهذا المبتدع - يعنى إبراهيم بن أبي صالح - مجلس الأمير ابن طاهر، وسألني الأمير عن أخبار النزول فسررتها فقال إبراهيم: كفرت برب ينزل من سماء إلى سماء. فقلت: آمنت برب يفعل ما يشاء)، الأسماء والصفات للبيهقي (٩٠٣)، فالمجيء والإتيان أفعال لله وهو فعال لما يريد.

وإذا قيد المجيء والإتيان كان بما قيد به، قال الله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣]، فهنا جاءت مقيدة بالأمر، فالمراد به أمر الله الذي أتاهم من عذابه أو غير ذلك وقال الله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَنَهُمْ مِنَ الْأَقْوَاعِ﴾ [النحل: ٢٦]، أي: بالعذاب، إذ قيد الإتيان، لكن تلك الصفة المطلقة المضافة إلى الله تقتضي إثبات صفتي المجيء والإتيان لله، وفي الآيات تعظيم شأن يوم القيامة وأن الله يأتي ويفصل بين العباد، ومنه قول النبي: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا

عَلَى رَبِّهِمْ أَلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ [هود: ١٨]، من حديث ابن عمر عند البخاري (٢٤٤١)، مسلم (٢٧٦٨)، وفيه عظم رحمة الله بالمؤمنين وستر الله عليهم وفيه أن الإيمان لا ينفع صاحبه إلا إذا كان في زمن يصلح فيه الإيمان، فالإيمان عند الغرغرة وبعدها لا ينفع، قال النبي: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرَغْ»، رواه الترمذي (٣٥٣٧)، ابن ماجه (٤٢٥٣) من حديث ابن عمر ، والإيمان بعد طلوع الشمس من مغربها لا ينفع وهذه الآية قد فسرها النبي بقوله: «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَمْ يَنْفَعْ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ أَمْنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدُّخَانُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ»، من حديث أبي هريرة عند مسلم (١٥٨)، على ما يأتي بيانه.

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، فيه دلالة على أن السماء تشقق يوم القيامة وتتفطر والجبال تذهب، قال الله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ١-٤]، وقال الله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: ١-١٣]، وقال: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ١-٤]، وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ١-٨]، وقوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿[القارعة: ١-٥]، الجبال كالصوف تتطاير في السماء، نسال الله السلامة من أهوال ذلك اليوم وتبدل الأرض قال الله تعالى: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧]، وقد سأل اليهودي رسول الله : أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «هُمْ فِي الظُّلُمَةِ دُونَ الْجِسْرِ»، من حديث ثوبان عند مسلم (٣١٥)، وتبدل الأرض غير الأرض ونصبح بيضاء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد، وقال الله : ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ٣٧﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٨ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ٣٩ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٠ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنُّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿[الرحمن: ٣٧-٤١].

📌 **فائدة:** تأويل طلوع الشمس من مغربها بأن الإسلام يأتي من الغرب:

تأويل باطل؛ لأنه يخالف الكتاب والسنة ويخالف ما أجمع عليه السلف في إثبات أشرار الساعة الكبرى وأن الشمس تطلع من مغربها وفي حديث أبي ذر أن النبي قال يوماً: «أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟» قالوا: الله ورَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، فَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا، ثُمَّ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، وَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي، ارْجِعِي مِنْ

حَيْثُ جِئْتُ، فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا، ثُمَّ تَجْرِي لَا يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ مِنْهَا شَيْئًا حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَيُقَالُ لَهَا: ارْتَفِعِي أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكَ، فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «أَتَذُرُون مَتَى ذَاكُمْ؟ ذَاكَ حِينَ: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]»، مسلم (١٥٩).

إثبات صفة الوجه لله

قال :

قال الله تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

في هاتين الآيتين إثبات صفة الوجه لله تعالى وهو من الصفات الذاتية الخبرية، وقلنا الذاتية؛ لأن الله متّصف به أزلاً وأبدًا، والخبرية؛ لأن الصفات الخبرية تتلقّى من الخبر وهو كتاب ربنا وسنة نبينا وهنا معنى آخر يذكره العلماء وهي أنّ الصفات الخبرية ما كان مسماه أجزاء وأبعاد بالنسبة لنا فالوجه لنا جزء وبعض ولكن في حق الله لا يجوز أن تُعبّر بهذه التعابير ولكن تستخدم الالفاظ الشرعية من أنّ صفة الوجه صفة خبريّة وقد دلّ الكتاب والسنة والإجماع على إثبات صفة الوجه لله ، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ٢٠]، وذكر الله الوجه في أحد عشرة آية في القرآن وفي حديث أبي موسى الأشعريّ في مسلم (١٧٩)، عن النبيّ : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَرْفَعُ الْقِسْطَ وَيَخْفِضُهُ، وَيَرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ بِالنَّهَارِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»، ومن حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عند أبي داود (٤٦٦)، عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، قَالَ: أَقَطُّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِذَا قَالَ: ذَلِكَ قَالَ الشَّيْطَانُ: حَفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ، وكذلك

في حديث فضالة بن عبيد وأبي الدرداء أن النبي كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ» وهو في الصحيح المسند للإمام الوادعي (١٥٠٨)، ومن حديث جابر عند البخاري (٤٦٢٨) قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، قَالَ: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» ﴿أَوْ يَلْسُكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «هَذَا أَهْوَنُ، أَوْ هَذَا أَيْسَرُ»، ففي هذه الأدلة وغيرها أكثر إثبات صفة الوجه لله وجهًا حقيقيًا يليق بجلاله.

ونرجع إلى دراسة الأدلة المذكورة، الأول قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، قال المعطلة بأن ذا الجلال والإكرام وصف للذات فقال أهل السنة لو كان ذو الجلال والإكرام وصف للذات لقال الله (ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام)؛ لأن الصفة تابعة للموصوف بينما الرفع يدل على أنه وصف للوجه، ويُذكر هنا للرد على المعطلة الذين يفسرون الوجه بالثواب أن الثواب المخلوق لا يوصف بأنه ذي الجلال والإكرام.

الثاني قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، قال المبطلون (إلا ذاته) ونحن نفسر الآية كل شيء هالك إلا ذاته المتصفة بالوجه وهذا فرق بين كلامنا وكلام أهل التعطيل ويدل على ذلك ما في القرآن من قوله: ﴿فَتَحَرَّبَ رَقَبَةً﴾ [النساء: ٩٢]، فإن في لغة العرب قد يطلق الشيء ويراد به الموصوف به كما في الآية السابقة، هل يقول عربي بما أني وقعت على امرأتي في

نهار رمضان، أذهب إلى هذا العبدأشتري ما بين أذنه وعاتقه، هل سيقبل أحد هذا الكلام وإنما المراد تحرير العبد المتصف بالرقبة.

ومن أوجه الردّ عليهم ما تقدّم من حديث جابر عند البخاري (٤٦٢٨)، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، والاستعاذة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله شركٌ أكبر يخرج من الملة ولو كان الوجه هو الإحسان لكان النبيّ بمخلوق وحاشاه لكان فإنه معصوم عن الشرك فما دونه والله قال لنبيّه : ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فالواقع أنّ النبيّ استعاذ بصفة من صفات الله وصفات الله غير مخلوقة ولو أقسم آخر بوجه الله لا أفعل كذا، هل نقول له أشركت أم نقول له كفر عن يمينك إن حثت، نقول كفر عن يمينك وقد نقل العلماء الإجماع على جواز الحلف بالله وبصفاته وإن كانوا قد اختلفوا في بعض الصفات وبعضهم اكتفى بالصفات التي حلف بها النبيّ والصحيح جواز الحلف بجميع صفات الله فلو قلت وكلام الله ووجه الله وعزة الله وغضب الله ورضا الله للزمك ما في اليمين المكفّرة إن كنت صادقاً فيمين مبرّة وإن كنت كاذباً فيمين غموس وفي حديث عبد الله بن عمرو أنّ النبيّ قال: «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، قَالَ: أَقْطُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِذَا قَالَ: ذَلِكَ قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ، رواه أبو داود (٤٦٦)، وقد قال الله : ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

وَمَا يُطِلُّ تَحْرِيفَ الْمُحَرِّفِينَ أَنَّ النَّبِيَّ وَصَفَ وَجْهَ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفُضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»، من حديث أبي موسى عند مسلم (١٧٩)

وقد اختلف العلماء في تفسير قول الله : ﴿فَأَيُّنَا تَأْكُلُ فَنَمَّ وَجْهَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١١٥].

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٦ / ١٥): وَكُنْتُ قَدْ قُلْتُ: أَمَهَلْتُ كُلَّ مَنْ خَالَفَنِي ثَلَاثَ سِنِينَ إِنْ جَاءَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ عَنِ السَّلَفِ يُخَالِفُ شَيْئًا مِمَّا ذَكَرْتَهُ كَانَتْ لَهُ الْحُجَّةُ وَفَعَلْتُ وَفَعَلْتُ، وَجَعَلْتُ الْمَعَارِضُونَ يُقْتَشُونَ الْكُتُبَ فَظَفَرُوا بِهَا ذَكَرَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيُّنَا تَأْكُلُ فَنَمَّ وَجْهَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١١٥] فَإِنَّهُ ذَكَرَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالشَّافِعِيِّ أَنَّ الْمُرَادَ قِبْلَةَ اللَّهِ فَقَالَ أَحَدُ كُبَرَائِهِمْ - فِي الْمَجْلِسِ الثَّانِي - قَدْ أَحْضَرْتُ نَقْلًا عَنِ السَّلَفِ بِالتَّأْوِيلِ فَوَقَعَ فِي قَلْبِي مَا أَعَدَّ فَقُلْتُ: لَعَلَّكَ قَدْ ذَكَرْتَ مَا رُوِيَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيُّنَا تَأْكُلُ فَنَمَّ وَجْهَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١١٥] قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: الْمُرَادُ بِهَا قِبْلَةُ اللَّهِ فَقَالَ: قَدْ تَأَوَّلَهَا مُجَاهِدٌ وَالشَّافِعِيُّ وَهُمَا مِنَ السَّلَفِ. وَلَمْ يَكُنْ هَذَا السُّؤَالُ يَرُدُّ عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا نَاطَرُونِي فِيهِ صِفَةُ الْوَجْهِ وَلَا أُثْبِتُهَا لَكِنْ طَلَبُوهَا مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ وَكَلَامِي كَانَ مُقَيَّدًا كَمَا فِي الْأَجْوِبَةِ فَلَمْ أَرِ إِحْقَاقَهُمْ فِي هَذَا الْمَقَامِ بَلْ قُلْتُ هَذِهِ الْآيَةُ لَيْسَتْ مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ أَصْلًا وَلَا تَنْدَرِجُ فِي عُمُومِ قَوْلٍ مَنْ يَقُولُ: لَا تُؤَوَّلُ آيَاتُ

الصفات. قَالَ: أَلَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ الْوَجْهِ فَلَمَّا قُلْتُ: الْمُرَادُ بِهَا قِبْلَةُ اللَّهِ. قَالَ: أَلَيْسَتْ هَذِهِ مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ؟ قُلْتُ: لَا. لَيْسَتْ مِنْ مَوَارِدِ النَّزَاعِ فَإِنِّي إِنَّمَا أَسْلَمْتُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَجْهِ - هُنَا - الْقِبْلَةُ فَإِنَّ (الْوَجْهَ) هُوَ الْجِهَةُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ يُقَالُ: فَصَدْتُ هَذَا الْوَجْهَ وَسَافَرْتُ إِلَى هَذَا (الْوَجْهِ) أَيُّ: إِلَى هَذِهِ الْجِهَةِ وَهَذَا كَثِيرٌ مَشْهُورٌ فَالْوَجْهُ هُوَ الْجِهَةُ. وَهُوَ الْوَجْهُ: كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًا ﴾ [البقرة: ١٤٨] أَيُّ مُتَوَلِّيًا فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيًا ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿ فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ كِلْتَا الْآيَتَيْنِ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبَتَانِ وَكِلَاهُمَا فِي شَأْنِ الْقِبْلَةِ وَالْوَجْهِ وَالْجِهَةِ هُوَ الَّذِي ذُكِرَ فِي الْآيَتَيْنِ: أَنَا نُوَلِّيهِ: نَسْتَقْبِلُهُ. قُلْتُ: وَالسِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿ فَأَيْنَمَا تُولُّوا ﴾ وَأَيْنَ مِنَ الظُّرُوفِ وَتَوَلُّوا أَيُّ تَسْتَقْبِلُوا. فَالْمَعْنَى: أَيُّ مَوْضِعٍ اسْتَقْبَلْتُمُوهُ فَهَذَا لِكِ وَجْهِ اللَّهِ فَقَدْ جَعَلَ وَجْهَ اللَّهِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَسْتَقْبِلُهُ هَذَا بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ وَهِيَ الْجِهَاتُ كُلُّهَا كَمَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢] فَأَخْبَرَ أَنَّ الْجِهَاتِ لَهُ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِضَافَةَ إِضَافَةٌ تَخْصِيصٍ وَتَشْرِيفٍ؛ كَأَنَّهُ قَالَ جِهَةُ اللَّهِ وَقِبْلَةُ اللَّهِ. انتهى

وقالت طائفة من أهل العلم: إن الآية على ظاهرها ويثبت بها صفة الوجه لله والدليل على هذا المعنى حديث النبي: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي، فَلَا يَبْصُقُ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ إِذَا صَلَّى»، من حديث ابن عمر عند البخاري (٤٠٦)، مسلم (٥٤٧)، وهو على عرشه، وهو محيط بكل شيء، وهو فوق كل شيء، قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى: وَلَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُسَلِّمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ جِهَةُ اللَّهِ، أَيُّ: قِبْلَةُ اللَّهِ، وَلَكِنْ يَقُولُ: هَذِهِ

الآيَةُ تَدُلُّ عَلَى الصِّفَةِ وَعَلَى أَنَّ الْعَبْدَ يَسْتَقْبِلُ رَبَّهُ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّ اللَّهَ قَبْلَ وَجْهِهِ» وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: «لَا يَزَالُ اللَّهُ مُقْبِلًا عَلَى عَبْدِهِ بِوَجْهِهِ مَا دَامَ مُقْبِلًا عَلَيْهِ فَإِذَا انْصَرَفَ صَرَفَ وَجْهُهُ عَنْهُ» وَيَقُولُ: إِنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى الْمَعْنَيْنِ. فَهَذَا شَيْءٌ آخَرُ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُهُ. انتهى

والمعطلة ذكروا أن الوجه في القرآن على ثلاثة أوجه:

الأول: أن الوجه هو الذات.

الثاني: أن الوجه هو الثواب.

الثالث: أن لفظ الوجه مدرجة فيكون تقدير الكلام (ويبقى ربك)، وهذا تحريف باطل لإمور:

الأول: لو كان كما قالوا لجر (ذو) في قوله: (ذو الجلال والإكرام).

الثاني: أن الوجه صفة من صفات الذات وقد بين الله ذلك.

الثالث: أن تفسر الوجه بالثواب أو الإحسان تفسير بمخلوق والنبي قد استعاذ بالوجه فدل أن الوجه صفة حقيقية لله ، تعالى الله أن لا يكون له وجهًا وتنزه أن يكون وجهه كوجه المخلوقين بل هو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وأما معنى قول الله : ﴿ إِنَّمَا نُنْطَعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴾ [الإنسان: ٩].

فالآية دالة على إثبات صفة الوجه لله لأنه لا يُذكر بالوجه إلا من كان له وجهًا، وتفسر الآية فأهل السنة يُثبتون الصفة واللازم.

إثبات صفة اليبدين لله

قوله :

﴿وَقَوْلُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدَّتِي﴾﴾ [ص: ٧٥].

هذا خطاب من الله لإبليس عليه لعنة الله وإبليس كان مسكنه الجنة مع الملائكة، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرُكَهُ فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ يَنْظُرُ مَا هُوَ فَلَمَّا رَأَاهُ أَجُوفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتِمُّ الْكُفُّ»، وكان من شأنه ما قص الله تعالى علينا في القرآن حيث قال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ۖ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۖ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۖ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَبْنَيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدَّتِي ۖ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ۖ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ، مِنْ طِينٍ ۖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَخُذْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاحِمٌ ۖ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۖ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۖ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۖ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۖ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٧١-٨٣]، فاعترض إبليس عليه لعنة الله على أمر الله بالسجود لآدم؛ لأن أصل إبليس خير من أصل آدم، وهذه العلة عليلة وميَّنة؛ ولهذا ذهب بعض الفلاسفة ومن إليهم من مفضلي الشمس والنار على التراب.

قال البغدادي في الفرق بين الفرق (ص: ٣٩): وَحَكِي أَصْحَابُ المقالات عَنْ بَشَارٍ أَنَّهُ ضَمَّ إِلَى ضَلَالَتِهِ فِي تَكْفِيرِ الصَّحَابَةِ وَتَكْفِيرِ عَلَى مَعَهُم

ضالّتين أُخْرِيتَيْن: إِحْدَاهُمَا قَوْلُهُ: يَرْجِعُ بِرَجْعَةِ الْأَمْوَاتِ إِلَى الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَصْحَابُ الرَّجْعَةِ مِنَ الرَّافِضَةِ. وَالثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ بِتَصْوِيبِ إِبْلِيسَ فِي تَفْضِيلِ النَّارِ عَلَى الْأَرْضِ، وَاسْتَدْلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِ بَشَارٍ فِي شِعْرٍ لَهُ:

الْأَرْضُ مَظْلَمَةٌ وَالنَّارُ مُشْرِفَةٌ وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مَذْكَانَتِ النَّارِ
وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِ صَفْوَانُ الْأَنْصَارِيِّ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي قَالَ فِيهَا:

زَعَمْتَ بِأَنَّ النَّارَ أَكْرَمَ عُنْصُرًا	وَفِي الْأَرْضِ تَحِيًا فِي الْحِجَارَةِ وَالزُّنْدِ
وَيَخْلُقُ فِي أَرْحَامِهَا وَارُومِهَا	أَعَاجِبَ لَا تَحْصِي بِخَطٍّ وَلَا عَقْدِ
وَفِي الْقَعْرِ مِنْ لَجِّ الْبَحَارِ مَنَافِعَ	مِنَ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ وَالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ
وَلَا بُدَّ مِنْ أَرْضٍ لِكُلِّ مَطِيرٍ	وَكُلِّ سَبُوحٍ فِي الْعِمَائِرِ ذِي خَدِ
كَذَلِكَ وَمَا يَنْسَاخُ فِي الْأَرْضِ مَا شِئَا	عَلَى بَطْنِهِ يَمْشِي الْمَجَانِبُ لِلْقَصْدِ
وَفِي فَلَكَ الْأَجْبَالُ فَوْقَ مَقْطَعِ	زَبْرَجْدِ أَمْلَاكَ الْوَرَى سَاعَةَ الْحَشْدِ
وَفِي الْحَرَّةِ... مَعَادِنَ	هُنَّ مَغَارَاتُ تَحْبَسُ بِالنَّقْدِ
مِنَ الذَّهَبِ الْإِبْرِيْزِ وَالْفِضَّةِ الَّتِي	تَرْوِقُ وَتَغْنِي ذَا الْقِنَاعَةِ وَالزَّهْدِ
وَكُلِّ فَلَذٍ مِنْ نُحَاسٍ وَأَنْكَ	وَمِنْ زَنْبِقٍ حَيٍّ وَنُوشَادِرٍ سَنْدِي
وَفِيهَا رَوَانِيخٌ وَشَبٌّ وَمُرْتَبٌ	وَمَزْمَرٌ قَشَا غَيْرَ كَابٍ وَلَا مَكْدِي
وَفِيهَا ضُرُوبُ الْقَارِ وَالزَّفْتِ وَالْمَهَا	وَأَصْنَافُ كَبْرِيتٍ مَطَاوِلَةِ الْوَقْدِ
وَمِنْ أَثْمَدِ جُوزٍ وَكَلَسٍ وَفِضَّةِ	وَمِنْ تَوْتِيَا فِي مَعَارِبِهَا هَنْدِي
وَكُلِّ يَوَاقِيْتِ الْأَنَامِ وَحَلِيْهَا	مِنَ الْأَرْضِ وَالْأَحْجَارِ فَآخِرَةُ الْمَجْدِ
وَفِيهَا مَقَامُ الْحُلِّ وَالرُّكْنِ وَالصِّفَا	وَمُسْتَلَمُ الْحَجَّاجِ مِنْ جَنِّهِ الْخُلْدِ

مفاخر للطين الذي كَانَ أصلنا وَنحن بنوه غير شكٍّ وَلَا جحد
فَذَلِكَ تَدْبِيرٌ وَنفعٌ وَحِكْمَةٌ وَأوضح برهان على الْوَاحِدِ الْفَرْدِ
فيا ابن حَلِيفِ الشُّؤْمِ واللُّؤْمِ والعمى وَأبعد خلق الله من طرق الرشد
أتهجو أَبَا بكرٍ وتخلع بعده عليًّا وتعزو كل ذاك إلى برد
كَأَنَّكَ غَضَبَانِ على الدِّينِ كُلِّهِ وطالب ذحل لَا يبيت على حقد
تواتب أقمارًا وَأنت مُشَوِّه وَأقرب خلق الله من نسب القرَدِ
انتهى.

ثمَّ لو لم يكن هذا لكان اعتراض إبليس على الله كفر.

والأدلة على إثبات صفة اليدين كثيرة في القرآن والسنة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]. وقوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾ [يس: ٧١].

ومَّا يدلُّ على إثبات هذه الصفة قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ [المائدة: ٦٤]، واليهود هم قوم موسى لكن قد بدلوا وغيروا وكفروا بعيسى وكفروا
بمحمد فلعنوا قال الله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [٧٨] كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا

يَفْعَلُونَ ﴿[المائدة: ٧٨-٧٩]، وهم أهل حسدٍ، قال النبي : «مَا حَسَدْتَكُمْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدْتَكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ»، من حديث عائشة عند ابن ماجه (٨٥٦) و(٨٥٧)، وقال الله : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وكفروا بالنبي وهم يعلمون أنه رسول الله ومع ذلك جحدوا بنبوته ورسالته ظلمًا وعلوًا حتى وصل بهم الحال أن صوبوا طريق الكفار عبادة الأصنام والأوثان على طريق رسول الله قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]، وهذا يدل على غاية الحقد والحسد فإن محمد يدعو إلى عبادة الله وإفراده بما يجب له وهؤلاء الكفار يعبدون الأصنام والأوثان ومع ذلك فضلهم اليهود على محمد وبلغ بهم غاية الكفر أنهم وصفوا الله بأقبح الأوصاف فقالوا: ﴿عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقالوا: ﴿يُدُّ اللَّهُ مَعْلُوكَهُ﴾ [المائدة: ٦٤]، والغل صفة ذميمة إذا اتصف بها المخلوق، فكيف بالله ، تعالى الله عن قولهم، أليس رسول الله يقول: «إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَ لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةً، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَيَدِهِ الْأُخْرَى الْفَيْضُ - أَوِ الْقَبْضُ - يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٧٤١٩)، مسلم (٩٩٣)، ومن أسماء الله الأكرم والكريم والرزاق والرحيم قال تعالى مبينا فضله وكرمه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]، ثم يدعي اليهود أن الله بخيل قاتلهم الله ولعنهم فقال الله : ﴿غُلَّتْ

أَيَّدِيهِمْ ﴿[المائدة: ٦٤]﴾، بسبب اتهامهم لله بهذه التهمة الشنيعة عاقبهم الله بأن سلط عليهم البخل لو ذهبت إلى بروكسيل تلك المدينة العظيمة التي فيها الذهب والمجوهرات والدنيا تجدد اليهودي يدخل بدجلته التي إن شملت ريجها تكاد تتقيأ لعدم غسلهم لها، ولقدارتهم، ولتنتهم، سلط الله عليهم البخل وأصبحوا شر البرية، ﴿وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤]، وطردهوا من رحمة الله

بسبب هذا القول الشنيع، هذا القول الذي لا يصدر إلا ممن لم يعرف الله العظيم الغني، وما أحلم الله وما أصبر الله كما قال النبي : «مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَدَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ نِدًّا وَيَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ وَيُعْطِيهِمْ»، من حديث عبدالله بن قيس عند مسلم (٢٨٠٤)، انظر كيف يتكلم عليه اليهود وهو يصبر عليهم لكن سيكون مصيرهم الجحيم، قال الله : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، فأثبت لنفسه تعالى يدين مبسوطتين، ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال النبي : «إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»، من حديث أبي موسى عند مسلم (٢٧٥٩)، فهذا رد على اليهود وفيه إثبات صفة اليدين لله على ما يليق بجلال وجهه وعلى أنها يدان حقيقتان وصفهما بصفة البسط والقبض، قال الله : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، وفيه إثبات صفة الطي، وله كف يليق بجلاله كما قال النبي : «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيَهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلَّوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»، من حديث أبي هريرة

عند البخاري (١٤١٠) و(٧٤٣٠)، وأخرجه مسلم، والله ساعدٌ يليق بجلاله كما في حديث ابن نضلة قال: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ وَأَنَا قَشِيفُ الْهَيْئَةِ، فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مَالٌ؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟» قَالَ: قُلْتُ: مِنْ كُلِّ الْمَالِ مِنَ الْإِبِلِ وَالرَّقِيقِ وَالْحَيْلِ وَالْغَنَمِ، فَقَالَ: «إِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيُرْ عَلَيْكَ» ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تُنْتِجُ إِبِلَ قَوْمِكَ صِحَاحًا آذَانَهَا، فَتَعْمَدُ إِلَى مُوسَى فَتَقْطَعُ آذَانَهَا، فَتَقُولُ: هَذِهِ بُحْرٌ، وَتَشْقُهَا، أَوْ تَشْقُ جُلُودَهَا، وَتَقُولُ: هَذِهِ صُرْمٌ وَتَحْرِمُهَا عَلَيْكَ، وَعَلَى أَهْلِكَ»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنَّ مَا آتَاكَ اللَّهُ لَكَ، وَسَاعِدُ اللَّهِ أَشَدُّ، وَمُوسَى اللَّهُ أَحَدٌ - وَرُبَّمَا قَالَ: سَاعِدُ اللَّهِ أَشَدُّ مِنْ سَاعِدِكَ، وَمُوسَى اللَّهُ أَحَدٌ مِنْ مُوسَاكَ -» قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ رَجُلًا نَزَلَتْ بِهِ، فَلَمْ يُكْرِمْنِي، وَلَمْ يَقْرِنِي، ثُمَّ نَزَلَ بِي أَجْزِيهَ بِمَا صَنَعَ، أَمْ أَقْرِيهَ؟ قَالَ: «أَقْرِهِ». رواه أحمد (١٥٨٨٨) و(١٥٨٩١)، والساعد معنى يقوم بغيره فإضافته إلى الله إضافة صفة إلى موصوف.

وجاء من حديث ابن مسعود في الصحيحين قال: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَجِدُ: أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]. البخاري (٤٨١١)، مسلم (٢٧٨٦).

انظر إلى هذه السماوات العظيمة، السبع الطباق بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام، وسمك كل سماء خمسمائة عام، مطوية في يد الله العظيم كطي السجل للكتب، والأرض جميعاً بما فيها من الجبال والأنهار والبحار والأودية والصحارى وغير ذلك قبضته، سبحانه الله الملك، وكذلك يهزهنّ ففي البخاري (٧٣٨٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ، قَالَ: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَتَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ» ونحوه عن ابن عمر أخرجه البخاري (٧٤١٢)، ومسلم (٢٧٨٨) ولفظه عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِقْسَمٍ، أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ كَيْفَ يَحْكِي رَسُولُ اللَّهِ قَالَ: «يَأْخُذُ اللَّهُ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِيهِ بِيَدَيْهِ، فَيَقُولُ: أَنَا اللَّهُ - وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَسْطُهَا - أَنَا الْمَلِكُ» حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمُنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطُ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ ؟

وأخرجه مسلم من طريق عُمَرَ بْنِ حَمْزَةَ، عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «يَطْوِي اللَّهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهَا بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَتَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَتَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ. ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَتَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَتَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟» ولفظ الشَّال منكرة لضعف عمر بن حمزة.

قال البيهقي في الأسماء والصفات (١٣٩ / ٢):

وَذَكَرُ الشَّالِ فِيهِ تَقَرَّدَ بِهِ عُمَرُ بْنُ حَمْزَةَ عَنْ سَالِمٍ. وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ نَافِعٌ وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مِقْسَمٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، لَمْ يَذْكُرَا فِيهِ الشَّالَ، وَرَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَغَيْرُهُ عَنِ النَّبِيِّ ، فَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ الشَّالَ، وَرُوِيَ ذِكْرُ

السَّامِلِ فِي حَدِيثٍ آخَرَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْقِصَّةِ، إِلَّا أَنَّهُ ضَعِيفٌ بِمَرَّةٍ؛ تَفَرَّدَ بِأَحَدِهِمَا جَعْفَرُ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَبِالْآخِرِ يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ، وَهُمَا مَتْرُوكَانِ، وَكَيْفَ يَصِحُّ ذَلِكَ؟ وَصَحِيحٌ عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ سَمَّى كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينًا، وَكَأَنَّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ أَرْسَلَهُ مِنْ لَفْظِهِ عَلَى مَا وَقَعَ لَهُ، أَوْ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي ذِكْرِ السَّامِلِ فِي مُقَابَلَةِ الْيَمِينِ. انتهى

يشير إلى حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عند مسلم: (١٨٢٧): «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُّوا»

وفي حديث النّوّاس بن سمعان وحديث عائشة وأمّ سلمة عند أحمد وجاء من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عند مسلم (٢٦٥٤) وعن أنس عند الترمذي (٢١٤٠) واللفظ له، قال الرسول : «إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلَّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»، والنبي كان يقول في أيمان كثيرة: «والذي نفسي بيده»، وقال الله تعالى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وقال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلَائِكَةِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وفي أثر ابن عمر : (خلق الله أربعة أشياء بيده، العرش، وجنات عدن، والقلم)، أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٧٥٧) وفي حديث المغيرة بن شعبه عند مسلم (١٨٩): «سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ، مَا أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً، قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ

نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ، فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشْرَةٌ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَدَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٌ، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وفي البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ فِي دَعْوَةٍ، فَرَفَعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَهَسَ مِنْهَا هَسَةً وَقَالَ: «أَنَا سَيِّدُ الْقَوْمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، هَلْ تَدْرُونَ بِمَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُبْصِرُهُمُ النَّاطِرُ وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَتَدْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ، إِلَى مَا بَلَّغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَبُوكُمْ آدَمُ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وَأَسْكَنَكَ الْجَنَّةَ، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا بَلَّغَنَا؟».

الحديث

وفي البخاري (٧٥١٦)، ومسلم (١٩٣) عَنْ أَنَسٍ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «يُجْمَعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيُرِيحُنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ آدَمُ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ

بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ الْمَلَائِكَةُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا، فَيَقُولَ لَهُمْ: لَسْتُ هُنَاكُمْ فَيَذْكُرُ لَهُمْ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ». الحديث

وفي البخاري (٣٤٠٩)، ومسلم (٢٦٥٢) عن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «اِحْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِنْدَ رَبِّهِمَا، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، قَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ، فَقَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ وَأَعْطَاكَ الْأَلْوَابِحَ فِيهَا تَبَيَّنَ كُلُّ شَيْءٍ وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا، فَبِكُمْ وَجَدْتَ اللَّهُ كَتَبَ التَّوْرَةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ، قَالَ مُوسَى: بِأَرْبَعِينَ عَامًا، قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَعَوَى، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يُخْلِقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى».

وفي البخاري (٦٥٢٠) ومسلم (٢٧٩٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ النَّبِيُّ: «تَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً، يَتَكَفَّوْهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ، نُزْلًا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ» فَأَتَى رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ: بَارَكَ الرَّحْمَنُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، أَلَا أُخْبِرُكَ بِنُزْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «بَلَى» قَالَ: تَكُونُ الْأَرْضُ خُبْزَةً وَاحِدَةً، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ إِلَيْنَا ثُمَّ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِدُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِإِدَامِهِمْ؟ قَالَ: إِدَامُهُمْ بِالْأَمِّ وَنُونٌ، قَالُوا: وَمَا هَذَا؟ قَالَ: ثَوْرٌ وَنُونٌ، يَأْكُلُ مِنْ زَائِدَةِ كِبْدِهِمَا سَبْعُونَ أَلْفًا.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة موضعها كتاب الإيمان يسر الله بإخراجه وسيأتي مزيد أدلة في تفريعات هذه المسألة إن شاء الله.

وصفة اليدين لله من الصفات الذاتية الخبرية وهي صفة حقيقية تليق بجلاله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، تعالى الله أن يكون بلا يد وتنزه أن تشبه يده يد المخلوق.

وذهب أهل التعطيل إلى إنكار هذه الصفة وقالوا إنها مجاز في النعمة أو القدرة، وهذا باطل من وجوه بينها شيخ الإسلام ابن القيم كما في مختصر الصواعق (١٥٣/٢-١٧١) نذكر بعض ما يحتاج المجال إلى ذكره بدون تطويل محل أو اختصار محل.

قال في رد دعواهم أنها مجاز: الأصل الحقيقة، فدعوى المجاز مخالفة للأصل، ومدعي المجاز يلزمه إقامة الدليل الصارف عن الحقيقة إلى المجاز الذي عينه بأنه المراد.

وقال : واطراد لفظها في موارد الاستعمال وتنوع ذلك وتصريف استعماله يمنع المجاز، ألا ترى إلى قوله: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَكَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، فلو كان مجازاً في القدرة والنعمة لم يستعمل منه لفظ يمين.

وقال: إن اقتران لفظ الطي والقبض والإمساك باليد يصير المجموع حقيقة هذا في الفعل، وهذا في الصفة بخلاف اليد المجازية.

وقال: إن لفظ المجاز لا يستعمل بلفظ الشنية ولا يستعمل إلا مفرداً أو مجموعاً كقوله: له عندي يد وله عندي آياد.

ولو كان بمعنى القدرة لم يفد تخصيص آدم فإنه وجميع المخلوقات حتى إبليس مخلوقون بقدرة الله، ولم تكن خصوصية في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ [ص: ٧٥].

وقال : إن يد النعمة لا يتجاوز بها لفظ اليد، فلا يقال فيها كف ولا إصبع ولا يمين ولا شمال لا في اليد بمعنى النعمة ولا القوة. ومن وجوه الرد عليهم أن الله أنكر على اليهود وصف الله بالبخل ولم ينكر عليهم إثبات اليدين.

وليعلم أن اليد بمعنى القدرة والقوة والنعمة لا يعرف استعماله البتة إلا فيمن له يد حقيقة.

وأما دعوى من ادعى أنه لو أثبت أن الله يداً لزم التشبيه، فيلزمه نفي السمع والبصر والحياة والإرادة والقدرة، فسيقول هذه ليست كصفات المخلوقين بل هي صفات تليق بالله سبحانه، قيل له وكذلك الله يد ليست كيد المخلوقين بل هي يد تليق بجلاله. اه مختصراً.

شبهة والجواب عليها :

قد يقول قائل: إن الله أكثر من يد لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ [يس: ٧١]، فأيدينا هنا جمع.

الجواب: جاءت اليد في القرآن مفردة ومثناة وجمعاً، قال تعالى: ﴿تَبَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، وقال تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ [ص: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ [يس: ٧١].

واليد المفردة جاءت مضافة، والمفرد إذا أضيف يفيد العموم أي يشمل كل ما ثبت لله من يد، ودليل عموم المفرد: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وأما المثني والجمع، فإجماع أهل السنة أن الله ليس له إلا يدان اثنتان كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ [المائدة: ٦٤]، «وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»، والمقام مقام تشریف فلو كان له أكثر من يدين لذكرهما.

وأما قوله: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ أَيَّدِينَا﴾ [يس: ٧١]، فيقال قيل إن أقل الجمع اثنان، وعليه فأيدينا لا تدل على أكثر من اثنين.

والدليل على ذلك قوله الله تعالى: ﴿إِنْ نُؤَبَّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤]، ومن المعلوم أنه ليس للإنسان إلا قلب واحد قال الله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]، والمرأة كذلك.

واحتجوا أيضًا بأن جماعة الصلاة تحصل باثنين، واحتجوا بقوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ [النساء: ١١]، إخوة جمع والمراد به اثنان.

أو نقول المراد بهذا الجمع التعظيم لأن الجمهور من أهل اللغة يقولون إن أقل الجمع ثلاثة، والمراد باليد هنا نفس الذات التي لها يد، وقد قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

والفساد قد يقع بالرجل والفرج واللسان لكن يعبر بمثل هذا التعبير عن الفاعل نفسه.

وفرق بين قوله: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ أَيَّدِينَا﴾ [يس: ٧١]، وبين قوله: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، فـ: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ أَيَّدِينَا﴾ [يس: ٧١]، كأنه قال مما عملنا، لأن المراد باليد ذات الله التي لها يد، والمراد: ﴿يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، اليدان دون الذات. فيزول الإشكال بهذا. اهـ بتصرف من شرح الواسطية للعثيمين (ص ٢٥٤).

وقال أبو الحسن الأشعري في كتابه الإبانة (ص ٩٠) بعد أن ذكر الآيات الدالة على إثبات صفة اليدين لله وراداً على أهل الزيغ والريب: وليس يجوز في لسان العرب ولا في عادة أهل الخطاب أن يقول القائل عملت كذا بيدي يريد بها النعمة. اهـ

وقال (ص ٩٢/٦): وكذلك إذا قدر اثنان أحدهما يقدر أن يفعل بيديه ويقبل بوجهه والآخر لا يمكنه ذلك إما لامتناع أن يكون له وجه ويدان، وإما لامتناع الفعل والإقبال عليه باليدين والوجه، كان الأول أكمل، فالوجه واليدان لا يعدان من صفات النقص في شيء مما يوصف بذلك. اهـ

قال ابن خزيمة في التوحيد (١/١٩٩) راداً على من فسر اليد بالقوة: وزعم بعض الجهمية أن معنى قوله: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ بِيَدَيْهِ»، أي بقوته، فزعم أن اليد هي القوة وهذا من التبديل أيضاً وهو جهل بلغة العرب، والقوة إنما تسمى الأيد في لغة العرب لا اليد، فمن لا يفرق بين اليد والأيد، فهو إلى التعليم والتسليم إلى الكتابات أحوج منه إلى التراس والمناظرة، قد أعلمنا الله أنه خلق السموات بأيد واليد واليدان غير الأيد، إذ لو كان الله خلق آدم بأيد

كخلقه الساء دون أن يكون الله خص خلق آدم بيديه لما قال لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وقال (١/ ١٩٧): وزعمت الجهمية أن معنى قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، أي نعمته، وهذا بتنزيل لا بتأويل، والدليل على نقض دعواهم أن نعم الله كثيرة لا يحصيها إلا الله الباري، والله يدان لا أكثر منهما كما قال لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ﴾ [ص: ٧٥].

فأعلمنا أنه خلق آدم بيديه فمن قال أنه خالق آدم بنعمته كان مبدلاً لكلام الله وقال الله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]، الآية.

أفلا يعقل أهل الإيمان أن الأرض جميعاً لا تكون قبضة إحدى نعمتيه يوم القيامة ولا أن السموات مطويات بالنعمة الأخرى ولو كانت اليد بمعنى النعمة لقرأت الآية (بل يدها مبسوطة)، أو (منبسطة). اهـ

وسأذكر هنا صفات ثابتة لله متعلقة بإثبات صفة اليدين تدفع دعوى المجاز:

١- صفتي الطي والقبض: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

٢- صفة الإمساك، يدل عليه حديث عبدالله بن مسعود عند الشيخين البخاري (٧٤١٤)، ومسلم (٢٧٨٦) أَنَّ يَهُودِيًّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْخَلَائِقَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحِكَ

رَسُولُ اللَّهِ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِدُهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]. قَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ: وَزَادَ فِيهِ فَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عِيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ تَعَجُّبًا وَتَصَدِيقًا لَهُ.

وجاء بلفظ: يضع، وبلفظ: يجعل. وكلها في الصحيح.

٣- صفة الهز: حديث عبدالله بن مسعود المتقدم ثم يهزن ويقول: (أَنَا الْمَلِكُ).

٤- صفة الأخذ: حديث أبي هريرة عند مسلم: «لَا يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، إِلَّا أَخَذَهَا اللَّهُ بِيَمِينِهِ».

٥- صفة الكف: الحديث الذي قبله وفيه: «فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ».

٦- صفة الساعد: حديث مالك بن نضلة عند أحمد: «مُوسَى اللَّهُ أَحَدٌ - وَرُبَّمَا قَالَ - سَاعِدُ اللَّهِ أَشَدُّ».

٧- صفة الأصابع: لحديث عبدالله بن مسعود المتقدم، وحديث عبدالله بن عمرو: «إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ».

٨- صفة البسط: لحديث أبي موسى عند مسلم: «إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيُتَوَبَّ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيُتَوَبَّ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

﴿فائدة في خلق إبليس لعنة الله عليه﴾

إبليس خلقه خلقه كما يخلق المخلوقات، قال الله : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وإنما أوتي من كبره، والذي يتكبر ويتعظم ينتكس غالباً، فعلى الإنسان أن يتواضع لله ، يتواضع للذي خلقه ورزقه وأعطاه وزوجه وفي حديث عياض بن حمار قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ذَاتَ يَوْمٍ خَطِيبًا، فَقَالَ: «وَإِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»، مسلم (٢٨٦٥)، والتواضع من أسباب الرفعة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ، قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»، مسلم (٢٥٨٨)، الكبر ما يجعلك تطلب علماً ولا تُصلي مع الناس ولا تقبل الحق؛ ولهذا قال الله : «الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكَبرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذْبَتُهُ» من حديث أبي هريرة وأبي سعيد عند مسلم (٢٦٢٠)، وقال النبي : «مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ، أَوْ اخْتَالَ فِي مَشِيَّتِهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ» من حديث ابن عمر عند أحمد (٥٩٩٥)، وصححه العلامة مقبل بن هادي الوادعي في الجامع الصحيح (٤٢٤٢)، وقال النبي : «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيَسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عَصَاةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْحَبَالِ»، الترمذي (٢٤٩٢)، وأحمد (٦٦٧٧). وفي المستدرک على الصحيحين أَنَّ عِكْرِمَةَ بْنَ خَالِدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ الْمَخْزُومِيَّ حَدَّثَهُ أَنَّهُ لَقِيَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّا بَنُو الْمُغِيرَةِ قَوْمٌ فِينَا نَخْوَةٌ، فَهَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا؟

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَتَعَاضَّمُ فِي نَفْسِهِ وَيَخْتَالُ فِي مَشِيَّتِهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ».

نسأل الله السلامة والعافية.

إثبات صفة العينين لله

قال :

﴿وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾﴾ [الطور: ٤٨].

فيه إثبات صفة العينين لله على ما يليق بجلاله وهما عينان حقيقتان تليق بجلال الله ، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وفي الآية الحث على الصبر: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨]، أي لحكمه الكوني فإن الكفار كانوا يؤذون النبي فأمَرَ الله نبيه أن يصبر لحكمه ولقضائه والحكم ينقسم إلى قسمين: كوني وشرعي فالحكم الكوني هو قضاء الله وقدره فيصبر على البلاء ويؤمن بالقضاء والحكم الشرعي هو أمر الله ونهيه فيفعل المأمور ويترك المحظور.

وقول الله : ﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٤]، أي تجري بمرأى منا وفيه إثبات العينين لله وقلنا بمرأى منا لأن من زعم أن السفينة كانت تجري بعين الله فقد كفر فالله على عرشه استوى بائن من خلقه وإنما السفينة تجري بمرأى منه ويحفظها ويكلؤها على ما هو معلوم كقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وقول الله : ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

قال السعدي : قوله: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ فكل من رآه أحبه، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ ولتتربى على نظري وفي حفظي وكلاءتي، وأي نظر وكفالة

أجلّ وأكمل، من ولاية البر الرحيم، القادر على إيصال مصالح عبده، ودفع المضار عنه؟! فلا ينتقل من حالة إلى حالة، إلا والله تعالى هو الذي دبر ذلك لمصلحة موسى، ومن حسن تدبيره، أن موسى لما وقع في يد عدوه، قلقته أمه قلقاً شديداً، وأصبح فؤادها فارغاً، وكادت تخبر به، لولا أن الله ثبتها وربط على قلبها، ففي هذه الحالة، حرم الله على موسى المراضع، فلا يقبل ثدي امرأة قط، ليكون مآله إلى أمه فترضعه، ويكون عندها، مطمئنة ساكنة، قريرة العين، فجعلوا يعرضون عليه المراضع، فلا يقبل ثدياً. انتهى

وموسى كان يُرَبَّى في بيت فرعون والله على عرشه ففي الآيات إثبات صفة العينين لله ويدلّ على إثباتها ما جاء في أحاديث الدجال أن النبي قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ - وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ»، من حديث ابن عمر عند البخاري (٧٤٠٧)، مسلم (١٦٩)، وقرأ أبوهريرة هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، قال : رأيت رسول الله يضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه. قال أبو داود: (وهذا رد على الجهمية)، رواه أبو داود (٤٧٢٨)، وهذا لتحقيق أن الله يسمع بسمع حقيقي ويرى، ويبصر بعين حقيقية تليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه وليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وفي مسلم (١٧٩) عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ،

يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».

وصفة العين من الصفات الذاتية الخبرية التي تُتَلَقَّى بالخبر ويُثَبَّت لله صفة البصر، يُبَصِّر بعينين حقيقتين تليق بجلاله ومّا يدلّ على ذلك تعبير إبراهيم لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتَبَتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]، فالأصنام لا تسمع ولا تُبصر فدلّ على أنّ الإله الحقّ يسمع ويُبصر وينفع ويضرّ.

قال ابن القيم في الصواعق المرسلة (١/ ٢٥٥): فذكر العين المفردة مضافة إلى الضمير المفرد والأعين مجموعة مضافة إلى ضمير الجمع وذكر العين مفردة لا يدل على أنها عين واحدة، ليس إلا كما يقول القائل: أفعل هذا على عيني، وأجيئك على عيني، وأحمله على عيني، ولا يريد به أن له عيناً واحدة، فلو فهم أحد هذا من ظاهر كلام المخلوق لعد أخرق. وأما إذا أضيفت العين إلى اسم الجمع ظاهراً أو مضمراً فالأحسن جمعها مشاكلة للفظ، كقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وقوله: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧]، وهذا نظير المشاكلة في لفظ اليد المضافة إلى المفرد، كقوله: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] و﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وإن أضيفت إلى ضمير جمع جمعت، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ [يس: ٧١]، وكذلك إضافة اليد والعين إلى اسم الجمع الظاهر، كقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقوله: ﴿قَالُوا فَاتُؤْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ [الأنبياء: ٦١]، وقد نطق القرآن والسنة

بذكر اليد مضافة إليه سبحانه مفردة ومثناة ومجموعة. وبلفظ العين مضافة إليه مفردة ومجموعة ونطقت السنة بإضافتها إليه مثناة، كما قال عطاء عن أبي هريرة عن النبي : «إن العبد إذا قام في الصلاة قام بين عيني الرحمن فإذا التفت قال له ربه: إلى من تلتفت إلى خير لك مني»، وقول النبي : «إن ربكم ليس بأعور» صريح في أنه ليس المراد. انتهى

وذهبت المعتزلة إنفي صفة العين عن الله إطرادا لقاعدتهم في نفي الصفات، وهم محجوجون بما تقدم من الأدلة، واضطرب الأشاعرة فأثبتوا البصر، ونفوا صفة العينين، وهذا من تناقضهم مع أن أبا الحسن الأشعري يثبتها.

إثبات صفة السمع لله

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكَى إِلَى اللَّهِ وَلِلَّهِ يَسْمَعُ تَحَاوُرُكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ [آل عمران: ١٨١]، وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

في هذه الآيات إثبات صفة السمع لله ، قالت عائشة : الحمد لله الذي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتْ حَوْلَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ تَشْكُو زَوْجَهَا، فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكَى إِلَى اللَّهِ وَلِلَّهِ يَسْمَعُ تَحَاوُرُكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، رواه النسائي (٣٤٦٠)، ولما كان الصحابة يسرون مع النبي في الطرق فَلَمَّا رَفَعَ أَصْحَابُهُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ! ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا؛ إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا؛ إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقٍ رَاحِلَتِهِ»، من حديث أبي موسى عند البخاري (٢٩٩٢) ومسلم (٢٧٠٤)، يعني هَوَّنُوا عَلَيْكُمْ وَلَا تَظُنُّونَ أَنَّكُمْ تَدْعُونَ أَصَمًّا غَائِبًا، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافَتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، فالله يسمع كلامك على أي حال كان، بل يعلم ما في

ضميرك ويعلم ما في قلبك، بل يعلم ما لم تتحدث به ولم تُفكر فيه بعد بل يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، فقل يا ربّ يسمعك وأنت ساجد، وهو السميع البصير لا تخفى عليه خافية وهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، نزلت في خولة بنت ثعلبة كانت زوجة رجل من الأنصار فظاهر منها فقال أنت عليّ كظهر أمي فشكت به إلى النبيّ وقالت: (يا رسول الله، بعد أن نثر بطني)، يعني بعد أن أعطيته مجموعة من الأولاد، (وذهب شبابي)، يقول أنت عليّ كظهر أمي وكانت عادة العرب أن الرجل إذا قال لزوجته أنت عليّ كظهر أمي حرّمت عليه مؤبداً فظنّت أنها حرّمت عليه مؤبداً فأنزل الله آيات الظهار وفيها أنه يجب عليه أن يعتق رقبة فإن عجز صام شهرين متتابعين فإن عجز أطعم ستين مسكيناً المبيّن في سورة المجادلة والأحاديث في هذا، وفيه الشكوى إلى الله فإذا نزلت بك حاجة فأنزلها بالله وقد يستجيب الله دعاءك ويكفيك شرّ عدوك أو ينصرك عليه، ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ الحوار هو الكلام المتبادل بين اثنين ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي سميع بسمع يليق بجلاله وبصير ببصر يليق بجلاله ويبصر بعينين على ما تقدّم. وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، هذه نزلت في اليهود قاتلهم الله مع أن الله هو الغنيّ الحميد، فعن أبي ذرّ عند مسلم (٢٥٧٧)، قال النبيّ ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنّه قال: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالُمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي

أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعَمُونِي أَطْعَمَكُمْ، يَا
 عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ
 تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا
 عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي
 لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى اتَّقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ،
 مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ
 كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ
 أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ
 كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ
 الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوفِّكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ
 خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»، وقال تعالى:
 ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، ثُمَّ يَأْتِي
 هؤلاء الكفرة، الفجرة لا يسلم منهم الله الذي يُعطيهم ويُرزقهم ويُعينهم
 ويُؤويهم ويغني الفقير، ويجبر الكسير، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ﴿وَحَمَلَهَا
 الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ظالم، جاهل، باغي، إلا من سلمه
 الله وهداه، انظر إلى أيِّ حال وصل يحتاج إلى الأكل والشرب والدواء وإلى كلِّ
 شيء والله هو الذي يُعطيهِ ومع ذلك يقول الله فقير، وفرعون يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ
 الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
 غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، نعوذ بالله من الكفر، نعوذ بالله من الزندقة، نعوذ بالله
 من الضلال.

قال :

قوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

أي هل يظنون أننا لا نسمع ما يتسارون وما يتناجون به، والسر ما في قلوبهم، والنجوى ما يتناجون به وهو فوق السر، ودون النداء، بلى إننا نسمع ذلك وزيادة عليه ورسلنا الذين هم الملائكة لديهم يكتبون أقوالهم وأفعالهم، (بلى) يأتي بها في جواب الاستفهام، سرهم ما كان في السرار ونجواهم ما كان بين اثنين وثلاثة، قال الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، ومع ذلك قال الله تعالى: ﴿وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقال الله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وفيه إثبات المعية لله معية تليق بجلاله وهو على عرشه استوى وسيأتي الكلام عليها بتوسع إن شاء الله.

وفيه إثبات السمع لله وهو يسمع بسمع يليق بجلاله وقد جاء في حديث أبي هريرة عند البخاري (٧٥٤٤)، مسلم (٧٩٢) النبي : «مَا أَدْنَىٰ اللَّهُ لَشَيْءٍ مَا أَدْنَىٰ لِنَبِيِّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ» أي: ما استمع الله.

❦ إثبات أن الله يرى بعينين حقيقيتين:

وقوله :

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤].

هذه الآية نزلت في أبي جهل لما قال: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ: فَقِيلَ: نَعَمْ. فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَّأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ وَهُوَ يُصَلِّي زَعَمَ لَيْطاً عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجَّئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقَى بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَحَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهُوَ لَا وَأَجْنَحَةٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَأَخْطَفْتُهُ الْمَلَائِكَةُ غَضُوءًا غَضُوءًا». رواه مسلم (٢٧٩٧) من حديث أبي هريرة ، وفي الآية أن الله يرى ويبصر بعينين حقيقيتين.

قال :

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢١٧) الَّذِي يَرِيكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴿الشعراء: ٢١٧-٢١٩﴾.

فيها الحث على التوكل وقد أمر الله تعالى به في آيات كثيرات، وبين أنه حال المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) فَأَنْقَلَبُوا

بِنِعْمَةِ مَنْ أَلَّهِ وَفَضِّلَ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

وَقَالَ تَعَالَى فِي بَيَانِ فَضْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]:
أَي كَافِيهِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

ومن فضائله في السنة ما جاء عن ابن عباس قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «عَرِضْتُ عَلَى الْأُمَمِ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهِيظُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأَفُقِ، فَظَنَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأَفُقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاصَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا - وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ - فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَالَ: «مَا الَّذِي تَخَوْضُونَ فِيهِ؟» فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ؛ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحَصِّنٍ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٧٠٥) ، وَمُسْلِمٌ (٢٢٠).

وفيه إثبات رؤية الله لعباده على أي حال كانوا، يراهم في الليل والنهار وفي السر والجهر: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢٢٠]، يسمع أصواتهم ويعلم أحوالهم على ما تقدّم من إثبات صفة العلم وفيه استحباب المسارعة إلى الخيرات.

قال :

قوله: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

قال السعدي : يقول تعالى: ﴿وَقُلْ﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿أَعْمَلُوا﴾ ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك، سيخفى. ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح، ﴿وَسَتُرَدُّوْنَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه.

ويحتمل أن المعنى: أنكم مهما عملتم من خير أو شر، فإن الله مطلع عليكم، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنة. انتهى

فيه إثبات رؤية الله وفيه الحث على العمل الصالح وفيه فضل المؤمنين وقبل ذلك فضل الرسول وهو أفضل المؤمنين فالعمل الصالح يرى ويظهر ولهذا جاء عن أبي ذرٍّ ، قال: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ : أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»، مسلم (٢٦٤٢). وقال النبي : «مَنْ سَمِعَ سَمَعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ»،

رواه البخاري (٦٤٩٩) من حديث جندب ، مسلم (٢٩٨٦) ومن
حديث ابن عباس .

إثبات صفات الجزاء والمقابلة لله

قال ابن القيم كما في مختصر الصواعق (٢٩٠-٣٩٢)- عن صفات المكر والخداع والكيد والاستهزاء ونحوها:- (لا ريب أن هذه المعاني يذم بها كثيرًا، فيقال فلان صاحب مكر وخداع وكيد واستهزاء، ولا تكاد تطلق على سبيل المدح بخلاف أضدادها، وهذا هو الذي غر من جعلها مجازًا في حق من يتعالى ويتقدس عن كل عيبٍ وذم).

والصواب: أن معانيها تنقسم إلى محمود ومذموم، فالمذموم منها يرجع إلى الظلم والكذب، فما يذم منها إنما لكونه متضمنًا للكذب والظلم أو لهما جميعًا، وهذا هو الذي ذمه الله تعالى لأهله... فلما كان غالب استعمال هذه الألفاظ في المعاني المذمومة ظن المعطلون أن ذلك هو حقيقتها، فإذا أطلقت لغير الذم كان مجازًا، والحق خلاف هذا الظن، وأنها منقسمة إلى محمود ومذموم، فما كان منها متضمنًا للكذب والظلم فهو مذموم، وما كان منها بحق وعدل ومجازاة على القبيح فهو حسن محمود، فإن المخادع إذا خادع بباطل وظلم حسن من المجازي له أن يخدعه بحقٍ وعدلٍ -إلى أن قال- إذا عرف ذلك فنقول: إن الله تعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقًا، ولا ذلك داخل في أسمائه الحسنى -إلى أن قال- أن الله سبحانه لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق، وقد عُلِمَ أن المجازاة على ذلك حسنة من المخلوق، فكيف من الخالق سبحانه؟. انتهى

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

أي: قوي في مكره، وكيده، وهذه الآية شبيهة بقول الله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرُؤٌ وَمَكْرُؤًا مَكَرًّا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، كما يأتي.

وقال ابن جرير : قوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أي والله شديدة ماحلته في عقوبة من طغى عليه وعتاً وتمادى في كفره و(المحال): مصدر من قول القائل: (ما حلت فلاناً فأنما أماحله ماحلة ومحالاً) و(فعلت) منه: (محلت أمحل محلاً إذا عرّض رجل رجلاً لما يهلكه)، ومنه قوله: (وَمَاحِلٌ مُصَدِّقٌ). انتهى

وقال السعدي : وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ أي: شديد الحول والقوة فلا يريد شيئاً إلا فعله، ولا يتعاصى عليه شيء ولا يفوته هارب. انتهى

ولها سبب نزول، من حديث أنس أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٥٤١)، قال: أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى رَأْسِ مِنْ رُءُوسِ الْمُشْرِكِينَ يَدْعُوهُ إِلَى اللَّهِ ، فَقَالَ الْمُشْرِكُ: هَذَا إِلَهُ الَّذِي تَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ ذَهَبٍ هُوَ أَوْ مِنْ فِضَّةٍ أَوْ مِنْ نُحَاسٍ؟ فَتَعَاظَمَ مَقَالَتُهُ فِي صَدْرِ رَسُولِ اللَّهِ فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: «ارْجِعْ إِلَيْهِ» فَرَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَرَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: «ارْجِعْ إِلَيْهِ» ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ صَاعِقَةً مِنَ السَّمَاءِ، وَرَسُولُ اللَّهِ فِي الطَّرِيقِ لَا يَدْرِي، فَرَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ : «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَهْلَكَ صَاحِبَكَ» وَأَنْزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ : ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ

يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿الرعد: ١٣﴾، أي شديد المكر بهم . والله يقول: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿[الطارق: ١٥-١٦].

وهذه الآيات تَضَمَّنَت الإشارة إلى ما يذكره أهل السنة والجماعة في صفات المقابلة وضابط صفات المقابلة أنها التي تكون في جزاء ومقابلة على ما تقدم.

والصفات تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه فهذه تثبت إلى الله مطلقاً كالسمع والبصر.

الثاني: صفات نقص لا كمال فيها بوجه من الوجوه كالعمى والبكم فهذه تُنْفَى عن الله مطلقاً.

الثالث: صفات كمال من وجه ونقص من وجه فهذه تُثَبَّت إلى الله حال كونها كمالاً وتُنْفَى عن الله حال كونها نقصاً.

وضابط هذه الصفات إن لا تكون الصفة صفة نقص مطلق؛ ولهذا قال الله

: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١]، ولم

يقول الله سيخونهم؛ لأنَّ الخيانة صفة نقص وذم وهي الخيانة في موطن الاتِّهَان وصفات المقابلة من الصفات الفعلية.

إثبات صفتي العفو والمغفرة لله

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ يُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

وفي الآية التي قبلها: ﴿إِنْ يُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، فيها أن الله مطلع على الظواهر والبواطن وإن الله يجازي عن الإحسان بالإحسان وفيه أن إخفاء الخير أعظم أجراً، قال النبي : «الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ، كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ، وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ، كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ»، من حديث عقبة بن عامر الجهني عند أبي داود (١٣٣٣)، الترمذي (٢٩١٩)، النسائي (٢٥٦١). وعن أبي هريرة يرفعه قال: سُئِلَ أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ وَأَيُّ الصَّيَامِ أَفْضَلُ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ فَقَالَ: «أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ الصَّلَاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ وَأَفْضَلُ الصَّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ صِيَامُ شَهْرِ اللَّهِ الْمُحَرَّمِ» رواه مسلم (١١٦٣).

قال السعدي : وهذا يشمل كل خير قولي وفعلي، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب.

﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أي: عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه، فإن الجزاء من جنس العمل. فمن عفا الله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه، فلهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي: يعفو عن

زلات عباده وذنوبهم العظيمة فيسدل عليهم ستره، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته.

وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له، ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنى، كما في هذه الآية.

لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء رتب على ذلك، بأن أحالنا على معرفة أسائه وأن ذلك يغنينا عن ذكر ثوابها الخاص. انتهى

وفي الآية إثبات اسم (العفو) لله واسم (القدير) وهما متضمنان لصفة العفو والقدرة، وفي الآية استحباب العفو.

قال :

قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

فيه إثبات صفة المغفرة لله واسم (الغفور) واسم (الرحيم) ولفظ الجلالة (الله) وكل اسم يتضمن صفة، وهذه الآية لها سبب نزول وهو ما أخرجه البخاري (٢٦٦١) ومسلم (٢٧٧٠)، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيُّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا، خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ، وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَيَسِرُنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ، وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ

أَذْنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزَعِ أَظْفَارٍ قَدْ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ، فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرْحَلُونَ لِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَثْقُلْنَ وَلَمْ يَعْشَهُنَّ اللَّحْمُ، وَإِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلُقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثِقَلَ الْهُودَجِ، فَاحْتَمَلُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ، فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونَنِي، فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ، فَنِمْتُ وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذُّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ يَدَهَا، فَرَكِبْتُهَا، فَاْنْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُعَرِّسِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الْإِفْكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكَ، وَيَرِيبُنِي فِي وَجْعِي، أَنِّي لَا أَرَى مِنَ النَّبِيِّ اللَّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرُضُ، إِنَّمَا يَدْخُلُ فَيَسْلُمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تَيْكُمُ؟»، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قَبْلَ الْمَنَاصِعِ مُتَبَرِّزَيْنَا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنْفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأَوَّلِ فِي الْبَرِّيَّةِ أَوْ فِي التَّنَزُّهِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أَبِي رُحْمٍ نَمْشِي، فَعَثَرْتُ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتَ، أَتَسْبِيَنَّ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا، فَقَالَتْ: يَا هَتَّاهُ، أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا؟ فَأَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ

أَهْلَ الْإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ، فَسَلَّمَ فَقَالَ: «كَيْفَ تَيْكُمُ؟»، فَقُلْتُ: أَتَذَنُّ لِي إِلَى أَبِي، قَالَتْ: وَأَنَا حِينِيذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ، فَأَتَيْتُ أَبِي فَقُلْتُ لِأُمِّي: مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ؟ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ هُوَنِي عَلَى نَفْسِكَ الشَّانَ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةً قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَهِيَ ضَارِئَةٌ، إِلَّا أَكْثَرَنَ عَلَيْهَا، فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! وَلَقَدْ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَذَا؟! قَالَتْ: فَبِتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرِقًا لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلَبْتَ الْوَحْيَ، يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوَدِّ لَهُمْ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا نَعْلَمُ وَاللَّهِ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يُضَيِّقَ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصَدَّقْ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ بَرِيرَةَ، فَقَالَ: «يَا بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتَ فِيهَا شَيْئًا يَرِيئُكَ؟»، فَقَالَتْ بَرِيرَةُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنْ رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا قَطُّ، أَكْثَرَ مِنْ أَمَّتِهَا جَارِيَةُ حَدِيثَةِ السَّنِّ، تَنَامُ عَنِ الْعَجِينِ، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ يَوْمِهِ، فَاسْتَعَذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي؟ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي» ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا وَاللَّهُ أَعْذُرُكَ مِنْهُ إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عُقْقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزَرَجِ أَمَرْتَنَا، فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ - وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزَرَجِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ - فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ،

لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَنَقْتُلَنَّه، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ مُجَادِلٌ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، فَثَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ، وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا، وَرَسُولُ اللَّهِ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَنَزَلَ، فَخَفَّضَهُمْ حَتَّى سَكَتُوا، وَسَكَتَ وَبَكَيْتُ يَوْمِي لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبَوَايَ، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا حَتَّى أَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقُ كَبِدِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي، وَأَنَا أَبْكِي، إِذِ اسْتَأْذَنَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَجَلَسَ وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مِنْ يَوْمٍ قِيلَ فِيَّ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ مَكَثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ، قَالَتْ: فَتَشْهَدُ ثُمَّ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتَ بَرِيئَةً، فَسَيَبْرُئُكَ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتَ أَلَمْتَ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ مَقَالَتَهُ، قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أَحْسُ مِنْهُ قَطْرَةً، وَقُلْتُ لِأَيِّ: أَحَبُّ عَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا قَالَ، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ، قَالَتْ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ، فَقُلْتُ: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ، وَوَقَرَفِي أَنْفُسَكُمْ وَصَدَقْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَكِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقَنِي، وَاللَّهُ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا، إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ: ﴿فَصَبَّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَى فِرَاشِي وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي اللَّهُ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحْيًا، وَلَا أَنَا أَحَقُّرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ فِي أَمْرِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ

فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبْرِئُنِي اللَّهُ، فَوَاللَّهِ مَا رَامَ مَجْلِسَهُ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ
الْبَيْتِ، حَتَّى أُنْزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرْحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ
لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ
وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا، أَنْ قَالَ لِي: «يَا عَائِشَةُ اأَحْمَدِي اللَّهَ، فَقَدْ
بَرَّأكَ اللَّهُ»، فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ، لَا أَقُومُ
إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ
مِنْكُمْ﴾ [النور: ١١] الْآيَاتِ، فَلَمَّا أُنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ
وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أَثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ: وَاللَّهِ لَا أَنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ
شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ
وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا
أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي
لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَزَجَعَ إِلَى مِسْطَحِ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ، وَكَانَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: «يَا زَيْنَبُ، مَا
عَلِمْتَ؟ مَا رَأَيْتِ؟»، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصْرِي، وَاللَّهِ مَا
عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ.

إثبات صفة العزة لله

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

فيه إثبات صفة العزة لله تعالى، وأن العزة لأهل الإيمان والإسلام والاستقامة، وفي أحمد (١٥٩١٨): عَنْ كُرْزِ بْنِ عَلْقَمَةَ الْخُزَاعِيِّ قَالَ: قَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لِلْإِسْلَامِ مِنْ مُتَتَهَى؟ قَالَ: «نَعَمْ، أَيُّهَا أَهْلُ بَيْتٍ مِنَ الْعَرَبِ، أَوْ الْعَجَمِ أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِمْ خَيْرًا، أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ» قَالَ: ثُمَّ مَاذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «ثُمَّ تَقَعُ فِتْنٌ كَانَتْهَا الظُّلُمُ» فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: كَلَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ النَّبِيُّ: «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَعُودَنَّ فِيهَا أَسَاوِدٌ صُبًّا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ».

وفي البخاري (٤٩٠٣)، ومسلم (٢٧٧٢): عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ فِي سَفَرٍ أَصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي لَاصِحَابِهِ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِهِ، وَقَالَ: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَاتَّيْتُ النَّبِيَّ فَأَخْبَرْتُهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي فَسَأَلَهُ، فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ مَا فَعَلَ، قَالُوا: كَذَبَ زَيْدُ رَسُولَ اللَّهِ ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِمَّا قَالُوا شِدَّةً، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَصْدِيقِي فِي: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ [المنافقون: ١] فَدَعَاهُمُ النَّبِيُّ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، فَلَوَّوا رُءُوسَهُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿حُشِبُ مُسْنَدُهُ﴾ [المنافقون: ٤] قَالَ: كَانُوا رِجَالًا أَجْمَلَ شَيْءٍ.

قال :

وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿فِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِينَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

هذا يمين وقسم من أبيليس بعزة الله التي هي وصف الله ، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصفات: ١٨٠]، أي الموصوف بالعزة ومن حديث أبي هريرة : «بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُريَانًا، فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَشِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنِيَنَّكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى وَعِزَّتِكَ، وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ»، رواه البخاري (٢٧٩) و(٣٣٩١) و(٧٤٩٣). وفي حديث عثمان أبي بن العاص أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ، قَالَ عُثْمَانُ : وَبِي وَجَعٌ قَدْ كَادَ يَهْلِكُنِي قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «امْسَحْهُ بِيَمِينِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، وَقُلْ: أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، مِنْ شَرِّ مَا أَحْجَدُ»، عند أبي داود (٣٨٩١)، الترمذي (٢٠٨٠)، ابن ماجه (٣٥٢٢)، مسند أحمد (١٦٢٦٨)، وأصله في مسلم.

ومن أسماء الله (العزیز) الذي يتضمّن صفة العزّة لله فهي ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع وقد اشتقّ الكفار من اسم العزیز اسمًا لآلهتهم فسمّوها العُزَّى، فعن أبي الطفيل قال: لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ مَكَّةَ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى نَخْلَةٍ، وَكَانَتْ بِهَا الْعُزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، وَكَانَتْ عَلَى ثَلَاثِ سَمُرَاتٍ، فَقَطَعَ السَّمُرَاتِ، وَهَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا»، فَارْجَعَ خَالِدٌ، فَلَمَّا بَصُرَتْ بِهِ السَّدَنَةُ وَهُمْ حَاجِبَتُهَا، أَمَعْنُوا فِي الْجَبَلِ ، وَهُمْ يَقُولُونَ: يَا عَزَى يَا عَزَى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ عُريَانَةٌ، نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا، تَحْتَفِنُ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا، فَعَمَّمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى

قَتَلَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ: «تِلْكَ الْعُزَّى». من حديث خالد بن الوليد في السنن الكبرى للنسائي (١١٥٤٧).

فالعزة لله ، قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، من أعزّه فهو العزيز ومن أذلّه فهو الذليل وأما المخلوق قد يوصف بالعزة ولا عزة له: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ [يوسف: ٥١]، ولا عزة له وهو على الكفر، امرأته تراود فتاه عن نفسه وهو يقول اعرض عن هذا واستغفري لذنبك، أين غيرة الرجال وأين معاقبة المخطئ وهكذا يقول الله في شأن المشرك: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، ليس له من العزة شيء لأنه في النار.

في هذه الآية حرص إبليس على إغواء الناس حيث أقسم بالله ليُغوينهم أجمعين وأكد القسم بـ(اللام) ثم أكد إغواءه بقوله (أجمعين) ولكن خيبه الله وقوله: ﴿إِلَّا عَبْدًاكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، ليس معنى ذلك أن إبليس لا يريد إغواء المخلصين من المؤمنين ولكنه عاجز عن ذلك لخلوصهم وإقبالهم على طاعة الله وإلا فإنه لن يترك أحداً يستطيع إغواءه كما أخبر الله أنه قال: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ثُمَّ لَا يَنَالُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿ [الأعراف: ١٦-١٧]، وإبليس علم على الشيطان الأكبر، الشيطان الرجيم.

القول في الإثبات المفصل والنفي المجمل

الله سبحانه وتعالى بعث رسله بإثبات مفصل، ونفي مجمل، فأثبتوا له الصفات على وجه التفصيل، ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، قال أهل اللغة: (هل تعلم له سمياً) أي نظيراً يستحق مثل اسمه، ويقال مُسامياً يُساميه. وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس: هل تعلم له مثلاً أو شبيهاً.

وقال تعالى: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ ۝٢ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ۝١٠٠ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الفرقان: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتِهِم أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ۝١٤٩ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ۝١٥٠ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهم لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝١٥٢ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ۝١٥٦ فَأَتُوا بِكِنَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١٥٧ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٥٨ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ إلى قوله: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ

الْعَزَّةَ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلِّمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ [الصفات: ١٨٢-١٤٩] ، فسبح نفسه عما يصفه المفترون المشركون ،
وسلِّم على المرسلين ، لسلامة ما قالوه من الإفك والشرك ، وحمد نفسه إذ هو
سبحانه المستحق للحمد بما له من الأسماء والصفات وبديع المخلوقات .

وأما الإثبات المفصل ، فإنه ذكر من أسمائه وصفاته ما أنزله في محكم آياته ،
كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] الآية بكمالها ، وقوله :
﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ
يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١-٤] وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ
الْحَكِيمُ ﴾ [التحريم: ٢] ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤] ، ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤] ، ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧] ، ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴾ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَقَالَ لِمَا
يُرِيدُ ﴿١٦﴾ [البروج: ١٤-١٦] ، ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ﴿٣﴾
هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي
الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ [الحديد: ٣-٤] .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ،
فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٨] ، وقوله : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: ٥٤] ، وقوله : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [المائدة: ١١٩] ، وقوله :
﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَذَابُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى
الْإِيمَنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿[غافر: ١٠]﴾، وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ
مِنَ الْعَمَامِرِ وَالْمَلَكِئَةِ﴾ ﴿[البقرة: ٢١٠]﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ
فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ﴿[فصلت: ١١]﴾.

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ ﴿[النساء: ١٦٤]﴾، وقوله: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ
جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ ﴿[مريم: ٥٢]﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ
شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿[الفصل: ٦٢]﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا
أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿[يس: ٨٢]﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ
الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ
الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾
هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿[الحشر: ٢٢-٢٤]﴾.

إلى أمثال هذه الآيات والأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في أسماء الرب
تعالى وصفاته، فإن في ذلك من إثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل، وإثبات
وحدانيته بنفي التمثيل ما هدى الله به عباده إلى سواء السبيل، فهذه طريقة
الرسل صلى الله عليهم أجمعين. انتهى

قاله شيخ الإسلام في التدمرية ص (٨-١٢).

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿نَبْرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

بعد أن قدّم شيئاً من الأدلة في التفصيل في الإثبات ذكر هذه الآية وفيها الإجمال في النفي.

فقوله: ﴿نَبْرَكَ﴾ أي تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين ومنها قوله تعالى: ﴿تَبْرَكَ الَّذِي يَدْرِهُ الْمَلِكُ﴾ [المك: ١]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١].

وقوله: ﴿اسْمُ رَبِّكَ﴾ دليل على أن الله أسماء تليق بجلاله وأنها غير مخلوقة، فالمخلوق لا يوصف أنه تبارك وإنما يقال فيه مبارك أمّا الذي تبارك هو الله .

وقوله: ﴿ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [هذا اسم مركّب من أسماء الله الحسنى، فإذا أردت أن تُسمّي عبداً بهذا الاسم تقول عبد ذو الجلال والإكرام، وأسماء الله منها المفردة كـ(الله، الرحمن، الرحيم، الملك، القدّوس...) ومنها المركّبة كـ(ربّ العالمين، مالك يوم الدين، جامع الناس ليوم لا ريب فيه، خير الوارثين، نعم المولى، نعم النصير...) والأسماء المركّبة من أسماء الحسنى بالإجماع لأنّ الله يُدعى بها والنبيّ يقول: «أَلْظُّوا بِنَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»، من حديث أنس عند النسائي (٣٥٢٥)، أي ألزموه وأكثروا من الدعاء بهذا الاسم العظيم، وهذا الاسم يتضمّن إثبات جلال الله وعظمته تعالى، ويتضمّن كمال الله من كلّ وجه وأنه مع جلاله وعظمته وكبريائه متصف بالإكرام، قال الله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٣]، وقد تقدّم معنا في قول الله: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، أنه

لَمَّا كَانَ ذُو الْجَلَال وَالْإِكْرَام وَصَفَ لِلْوَجْهِ رُفِعَ وَلَمَّا كَانَ ذِي الْجَلَال وَالْإِكْرَام وَصَفًا لِلرَّبِّ وَالذَّاتِ جُرَّ لَأَنَّهُ تَابِعٌ.

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَأَصْطِرِّ لِعَبْدِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

قال السعدي :

﴿وَأَصْطِرِّ لِعَبْدِهِ﴾ أي: اصبر نفسك عليها واجهدها، وقم عليها أتم القيام وأكملها بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة الله تسلية للعابد عن جميع التعلقات والمشتبهات، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] إلى أن قال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطِرِّ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] الآية. ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي: هل تعلم لله مساميا ومشابها ومماثلا من المخلوقين. وهذا استفهام بمعنى النفي، المعلوم بالعقل. أي: لا تعلم له مساميا ولا مشابها، لأنه الرب، وغيره مربوب، الخالق، وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل، فلهذا أمر بعبادته وحده، والاصطبار لها، وعلل ذلك بكماله وانفراده بالعظمة والأسماء الحسنى. انتهى

فقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ من النفي المجمل والقاعدة عند أهل السنة والجماعة أن الله يُوصف بالإثبات المفصل وبالنفي المجمل، وقد يتخلف

هذا الأصل ويوصف الله بالإثبات المجمل والنفي المفصل لكن في موطنين فقط وهو ردّ ما ادّعاه في حقّه المبتلون ودفع توهم نقص وأما النفي المجمل فيؤتى به لبيان عموم الكمال وأول الآية: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وهذه الآية تضمنت أنواع التوحيد الثلاثة:

❖ **الأول: توحيد الربوبية.**

❖ **الثاني: توحيد الألوهية.**

❖ **الثالث: توحيد الأسماء والصفات.**

وفيها الحث على الصبر على طاعة الله، لأنّ الإنسان تأتيه المثبّطات إمّا من الشياطين قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْرُثُهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، والإرسال هنا كوني، وإمّا بالنفس الأمّارة بالسوء أو بسبب الهوى أو بغير ذلك، والصبر ثلاثة:

❖ **صبر على أقدار الله** ، وهو الذي يتضمنه قول الله : ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

❖ **صبر عن معاصي الله** ، قال الله : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

﴿صبر على طاعة الله﴾ ، قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

والصبر قد يكون جبلياً وقد يكون بالتعود، قال النبي : «مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»، رواه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد ، وسماه النبي ضياء فقال : «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ»، من حديث أبي مالك الأشعري عند مسلم (٢٢٣).

قال :

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

أي ليس له مثل ولا نظير ولا سمي ولا ند، وليس ثم أحد يكافئ الله لا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله لكماله المطلق من كل وجه والآية تدل على النفي المجمل.

قال :

قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

أي: نظراء وأشباها من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبون الله، وهم مثلكم، مخلوقون، مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضررون، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن

الله ليس له شريك، ولا نظير، لا في الخلق، والرزق، والتدبير، ولا في العبادة فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب، وأسفه السفه. أفاده السعدي.

قال :

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

أي ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا أي نظراء ومثلاء إمّا في العبادة وإمّا في الصفات على ما يتصورون فيحبّون هؤلاء الأنداد وهؤلاء الأصنام كحبهم لله وقيل كحب المؤمنين لله وكلاهما كفر فإذا أحب الرجل صنمًا أو حجرًا أو قبرًا أو وثنًا أو ملكًا أو بشرًا كمحبة الله فقد كفر حيث أشرك في عبادة المحبة ولأن الله هو الخالق المالك المدبر يُعبد بالمحبة كما يُعبد بالخوف وإذا أحب عبدٌ مربوبه من دون الله كحب المؤمنين لله فقد كفر ففي كلا الحالين كفر.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

هذا عليه أدلته منها حديث أنس في الصحيحين البخاري (١٦)، مسلم (٤٣)، قال النبي : «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْدَفَ فِي النَّارِ».

وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وفي حديث سهل بن سعد عند البخاري (٣٠٠٩) و(٤٢٠٩) و(٤٢١٠)، قال الرسول : «لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»، فمحبّة الله يأتي معها الانقياد لله بالتوحيد والطاعة وكم من الناس الذين يدعون محبة الله وهم مخالفون لشرعة بل حتى اليهود والنصارى والصوفية القبورية والرافضة ومن إليهم يدعون محبة الله، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرْ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨]، وقد قطع الله عنهم ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، فإذا كنت تحب الله فاتبع الرسول فإن من علامة حب الله امتثال أمر الله والدعوى إن لم تقم عليها بينات أصحابها أدعياء والنبى يقول في خطبته: «الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي، وَالْيَمِينُ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ»، الترمذي (١٣٤١) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وعن ابن عباس (١٣٤٢)، فمن ادعى شيئاً أتى بالبيّنة فإذا كنت تُحِبُّ اللَّهَ فبادر إلى ما يُرْضِي اللَّهَ .

قال :

قوله: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ١١١].

هذه الآية تضمّنت عدّة معانٍ:

الأوّل: الأمر بحمد الله والحمد من الصفات الثبوتية فحمد الله يتضمّن الإجمال في الإثبات، وإنّما يكون الحمد على ما هو من خصائص الكمال والجلال والعظمة فلفظ الحمد لله يتضمّن إثبات كلّ كمال لله فيدخل فيها إثبات السمع والبصر والقدرة والإرادة والمشية والعلوّ وغير ذلك كما أنّ كلمة (سبحان الله) تتضمّن نفي جميع النقائص عن الله وتستلزم إثبات جميع المحامد لله .

الثاني: في قوله: ﴿ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ ﴾ هذا من النفي المفصل؛ لأنّ اتخاذ الولد صفة نقص في حق الله تعالى، وصفة كمال في حقّ المخلوقين لأنّ الآدمي يكبر ويهرم ويموت فيحتاج إلى ولد يرث ماله ويقوم عليه في حال كبره قال الله : ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، لكن الله هو الحيّ القيّوم، الحيّ الذي حياته أزليّة أبدية، القيّوم القائم بنفسه والمقيم لغيره ، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، فالله منزّه عن الصاحبة والولد، وله الكمال المطلق.

وقوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ لكمالهِ ومعلوم عندنا أن الصفات المنفية تتضمن كمال الضد فقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكِلِدْ﴾ [الإخلاص: ٣]، يدل على كمال حياته، وقيوميته، وسيادته إلى غير ذلك فإن الصفة المنفية قد تدل على عدة كمالات كما في قول الله: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَكَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، فنفي صفة العجز دل على إثبات صفة القدرة والعلم.

الثالث: في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ هذا من النفي المجمل الذي يبين عموم ملك الله وعموم كماله ولم يكن له شريك في الملك كما لم يكن له معين ولا ظهير لقوته وجبروته وقهره وعزته وعظمته .

الرابع: في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ خرج به ما اتخذ الله من الأولياء الصالحين، قال الله تعالى: ﴿أَللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال النبيؐ فيما يرويه عن ربّه: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»، البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ، فالله اتخذ أولياء من المؤمنين إكراماً لهم ولم يتخذهم أولياء لذلة تلحق به أو لحاجة، قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ [الإسراء: ١١١]، بل هو تفضّل على الأولياء وأكرمهم بولايته، أمّا البشر المخلوقون المربوبون العاجزون فإنهم يتخذون الأولياء من أجل إذا وقعت عليهم المشاكل استنصروا بهم وإذا وقعت عليهم ديون استنجدوا بهم واستعانوا بهم إلى غير ذلك، قال: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۚ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ﴾ [١٦] وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

الخامس: في قوله: ﴿وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ عظمه وكبره وهذا فيه إجمال في الإثبات فيشمل تعظيم الله بصفات الجلال والجمال وصفات الجبروت والملكوت وغير ذلك مما يتعلّق بالذات العليّة، وفيها الحثُّ على ذكر الله بالتكبير وغيره.

قال :

وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

التسبيح يُراد به تنزيه الله عن جميع النقائص والمعائب ونزّه الله عن جميع النقائص المعائب لعموم كماله، فالله يُسَبِّحُ له ما في السماوات والأرض واختلف العلماء في هذا التسبيح هل هو بلسان الحال أو لسان المقال، فذهب بعض أهل العلم إلى أن الآية على عمومها وهي أن الله يُسَبِّحُ له من في السماوات ومن في الأرض بلسان مقالها وقد قال النبي : «إِنِّي لَا أَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَا أَعْرِفُهُ الْآنَ»، من حديث جابر بن سمرة عند مسلم (٢٢٧٧). فالله لا يُعجزه شيء، وذهب بعضهم إلى أن هذه الكائنات والمخلوقات تُسَبِّحُ الله بلسان حالها فوجود هذه الجبال العظيمة وهذه المخلوقات يدلّ على تنزيه الله عن النقائص لأنّه الخالق المالك الرازق المدبّر المتّصف بجميع صفات الكمال، قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نفَقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقال : ﴿يَجْبُلُ

أَوْبَى مَعَهُ ﴿سبأ: ١٠﴾، فمن قال إن التسبيح بلسان الحال لا يُنكر عليه ومن قال إن التسبيح بلسان المقال لا يُنكر عليه ومن قال أن التسبيح بلسان المقال في حق المؤمنين الطائعين وبلسان الحال في حق الكافرين والعصاة المجرمين لا يُنكر عليه وهذا الذي يظهر لي والله أعلم، لأن كثير من الكفار ما يقول سبحان الله عُمره، ولا يعرف الله فيكون وجوده دالاً على تنزيه الله عن النقائص.

وقوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ فيه الإثبات المفصل وأيضاً المجلل لأن صاحب الملك المطلق هو المتصف بالكمال من كل وجه، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿[الملك: ١-٢]، وله الحمد على ما تقدم بيانه، ف(أل) في الحمد للاستغراق.

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيه إثبات صفة القدرة لله ، القدرة العظيمة التي يدخل تحتها كل مقدور و(كل) من ألفاظ العموم.

قال :

وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿[الفرقان: ١-٢].

قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ فيه إثبات نزول القرآن من الله ومن أسماء القرآن الفرقان، وفيه إثبات أن النبي عبدٌ أكرمه الله بهذه المرتبة العظيمة التي امتن بها عليه في هذا الموطن وهو

موطن الإنزال أي إنزال القرآن عليه، وفيه أن النبي بُعث للناس كافة لقوله : ﴿يَكُونُ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وهذا موافق لقول الله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ دلّ على الإجمال في الإثبات على تقدّم بيانه.

وقوله: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ فيه إثبات صفة الخلق لله وهي من الصفات الذاتية الأزلية الأبدية إلا أن خلق الله لأحاد المخلوقين من الصفات الفعلية، فالله خلق زيداً متى شاء وخلق عمرو متى شاء، وفيه إثبات القدر في قوله: ﴿فَقَدَرَهُ﴾ على ما يأتي بيانه، والإثبات المجمل في قوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، والنفي المجمل في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾، وقد تقدّم فائدة كل هذا.

قال :

وقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ١١ عَنِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١-٩٢].

فيه نفي الولد عن الله وهذه صفة منفية والصفة المنفية لا بد أن تتضمن كمال الضد كما تقدّم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ لأن وجود الآلهة مع الله مردّه إلى فساد العالم وقد استدلل بعض النظار بهذه الآية على دليل التمانع وضابط أنّه يمتنع أن يكون في الكون خالقين فإنّما أن يغلب أحدهما فهو الإله وإنّما أن يعجزا جميعاً فليسا بآلهة وإنّما أن لا يتحقّق أمر أحدهما، والصحيح أنّه لا يُستدلّ بها على هذا وإنّما الاستدلال بها على توحيد الإلهية أعظم فإنّ الذين ذهبوا بالاستدلال بها على دليل التمانع استدّلوا بها على أنّ الفساد في العالم يقع بالإشراك في توحيد الربوبية وهذا خطأ بل الفساد يقع في العالم بجميع أنواع الشرك سواء شرك الألوهية أو شرك الربوبية وقول الله : ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، أي يُنزه الله نفسه أن يكون معه إله أو يكون معه شريك أو يكون معه نظير أو يكون له معين والله منزّه عن جميع النقائص ثم قال: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ أي الله عالم بالغيب والغيب هو الغائب عن الأبصار والشهادة هو الشيء المشاهد، وهذا من الأسماء المركّبة: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [المؤمنون: ٩١-٩٢]، كقوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقوله: ﴿فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هذا من النفي المجمل (تعالى) أي تنزهه وتقدّس وتعاضم عن صفات المخلوقين وعن أقوالهم وأفعالهم الشركية.

قال :

وقوله: ﴿فَلَا تَضُرُّوهُ اللَّهُ الْأَمْثَالُ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

هذه الآية يُشكل معناها على من لم يفقه هذا الباب وذلك لأن الله يقول:

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، وهذا ليس بمشكل قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، والقرآن والسنة الصحيحة يؤيد بعضها بعضاً إذ لا تناقض لأن كلام الله : ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، لكن لا يُضرب لله مثل السوء، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]، والمراد بالمثل الأعلى الوصف الأعلى الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه من التعظيم، والإجلال، والمحبة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني أن الله متّصف بصفة العلم وأنتم لا تعلمون إلا ما علمكم الله فيجب علينا أن لا نصف الله تعالى، وسميه إلا بما وصف وسمى به نفسه، ويُبين المراد من الآية من سياقها وسباقها قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٣) ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧٤) ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿النحل: ٧٣-٧٨﴾.

قال السعدي :

يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله، والحال أنهم لا يملكون لهم رزقا من السماوات والأرض، فلا ينزلون مطرا، ولا رزقا ولا ينبتون من نبات الأرض شيئا، ولا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا يستطيعون لو أرادوا، فإن غير المالك للشيء ربما كان له قوة واقتدار على ما ينفع من يتصل به، وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرُونَ. فهذه صفة آلهتهم كيف جعلوها مع الله، وشبهوها بمالك الأرض والسماوات الذي له الملك كله والحمد كله والقوة كلها؟!!

ولهذا قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال فلهذا ضرب تعالى مثلين له ولمن يعبد من دونه، أحدهما عبد مملوك أي: رقيق لا يملك نفسه ولا يملك من المال والدنيا شيئا، والثاني حرٌّ غنيٌّ قد رزقه الله منه رزقا حسنا من جميع أصناف المال وهو كريم محب للإحسان، فهو ينفق منه سرا وجهرا، هل يستوي هذا وذاك؟! لا يستويان مع أنهما مخلوقان، غير محال استواءهما.

فإذا كانا لا يستويان، فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه بالرب الخالق المالك لجميع الممالك القادر على كل شيء؟!!!

ولهذا حمد نفسه واختص بالحمد بأنواعه فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم سوى المشركون أهتهم بالله؟ قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلو علموا حقيقة العلم لم يتجرؤوا على الشرك العظيم.

والمثل الثاني مثل: ﴿رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ لا يسمع ولا ينطق و﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير: ﴿وَهُوَ كُلُّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ أي: يخدمه مولاه، ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه فهو ناقص من كل وجه، فهل يستوي هذا ومن كان يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، فأقواله عدل وأفعاله مستقيمة، فكما أنهما لا يستويان فلا يستوي من عبد من دون الله وهو لا يقدر على شيء من مصالحه، فلولا قيام الله بها لم يستطع شيئاً منها، ولا يكون كفواً وندا لمن لا يقول إلا الحق، ولا يفعل إلا ما يحمد عليه. انتهى

قال :

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

الخطاب للنبي ، وهو عام لجميع أمته، واستدل العلماء بهذه الآية على تحريم القول على الله بغير علم في جميع أبواب الدين ومنه وصف الله

بما لم يصف به نفسه أو تمثيل الله بخلقه أو تعطيل الله من صفاته كل هذا من الحرام الذي هو أعظم أنواع الإلحاد، بل قد ذهب ابن القيم إلى أن القول على الله بغير علم أعظم أنواع الذنوب والمعاصي على الإطلاق وأعظم من الشرك بالله، وقد يُشكل على بعضهم حين يسمع مثل هذا الكلام، فنقول لا يُشكل فإنَّ الشرك بالله إنما يقع بالقول على الله بغير علم وما مثل الله بخلقه إلا بسبب القول على الله بغير علم وما عطلَّ الله عن صفاته إلا بالقول على الله بغير علم وليس المراد بأنك إذا أفيتت في مسألة خالفت فيها الحقَّ أنك قلت على الله بغير علم، هذا يدخل في قول الله : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، فلا إنكار على ابن القيم في ترجيحه على أن القول على الله بغير علم أعظم من الشرك لأنَّ الشرك سببه القول على الله بغير علم، لماذا عبد كفار قريش اللات والعزى وهبل ومناة؟ عبدوها لاعتقادهم أن هذه لها منزلة عند الله وأنَّ الله قد أمر بتعظيم أوليائه وهذا من تعظيم الأولياء فسببه القول على الله بغير علم، قال النصارى على الله الأب وعلى عيسى الابن وبأنَّ له صاحبة؟ لأنَّهم قالوا على الله بغير علم، إذا القول على الله بغير علم ذنب عظيم مؤداه إلى جميع أنواع الشرك والإلحاد والزندقة والكفر والضلال ولا حول ولا قوة إلا بالله وقد ذكر ابن القيم أن الله ذكر المحرمات في هذه الآية من الأدنى إلى الأعلى قوله: ﴿الْفَوَاحِشُ﴾ [الأعراف: ٣٣]، تطلق على ما فحش من الذنوب، والمعاصي كالزنا واللواط، قال : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]

وقوله : ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ما كان ظاهرًا للعيان وما كان باطنًا، مما يتعلق بحركات البدن، وخبايا القلوب كالعجب، والكبر، ونحوه، وقوله: ﴿وَالْإِثْمَ﴾ [الأعراف: ٣٣] هي الذنوب الموجبة للعقوبة، والإثم يتنوع فمنه شرب الخمر والزنا، ونحوها.

قال ابن عادل في الباب :

بيّن في هذه الآية الكريمة أنواع المحرمات، فحرّم أولاً الفواحش، وثانيها الإثم، واختلفوا في الفرق بينهما، ف قيل: الفواحش: عبارة عن الكبائر؛ لأنّ قبحها قد تفاحش أي: تزايد، والإثم عبارة عن الصغائر، والمعنى: أنّه حرّم الكبائر والصغائر.

وطعن القاضي في ذلك بأن ذلك يقتضي أن يقال: الزّنا والسّرقه والكفر ليس بإثم، وهو بعيد، وأقلّ الفواحش ما يجب فيه الحدّ، والإثم ما لا حدّ فيه.

وقيل: الفاحشة اسم للكبيرة، والإثم اسم لمطلق الذنب سواء كان صغيراً أو كبيراً، وفائدته: أنّه لما حرّم الكبيرة أردفه بتحريم مطلق الذنب، لئلا يتوهم أن التحريم مقصور على الكبيرة، وهذا اختيار القاضي.

وقيل: إنّ الفاحشة وإن كانت بحسب اللّغة اسماً لكّ ما يتفاحش وتزايد في أمر من الأمور، إلّا أنّه في العرف مخصوص بالزّنا، ويدلّ على ذلك قوله تعالى في الزنا: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، ولأنّ لفظ الفاحشة إذا أطلق لم يفهم منه إلّا ذلك.

وإذا قيل: فلان فحاش، فهم منه أنه يشتتم الناس بالفاظ الوقاع؛ فوجب حمل لفظ الفاحشة على الزنا، فعلى هذا يكون: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: الذي يقع منها علانية، و﴿وَمَا بَطَّنَ﴾ أي: الذي يقع منها سرًا على وجه العشق والمحبة.

وقيل: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: الملامسة والمعانقة، و﴿وَمَا بَطَّنَ﴾: الدخول. انتهى

قوله: ﴿وَالْبَغْيَ﴾ [الأعراف: ٣٣] البغي وهو تجاوز الحد في ظلم الناس سواء كان ذلك في دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم، فشملت الآية ما يتعلق بحق الله تعالى، وحق العباد، وقوله: ﴿بَغْيٍ أَلْحَقَ﴾ خرج به ما كان صورته البغي وهو بحق لأن الله قال: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، وقال الله: ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].

قال ابن عادل في اللباب :

فإن قيل: البغي لا يكون إلا بغير الحق، فما الفائدة في ذكر هذا الشرط؟ فالجواب من وجهين:

الأول: أن قوله تعالى: ﴿بَغْيٍ أَلْحَقَ﴾ حال، وهي حال مؤكدة؛ لأن البغي لا يكون إلا بغير الحق.

والثاني: أنه مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، والمعنى: لا تقدموا على إيذاء الناس بالقتل والقهر، إلا أن يكون لكم فيه حق فحيثئذ يخرج عن أن يكون بغياً. انتهى.

وقال الله : ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الأعراف: ٣٣]، أي حجة، وبرهان، وليس معنى ذلك أن بعض الشرك أنزل الله به حجة من السماء فالشرك محرم ولكن قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ صفة كاشفة ومبيّنة أن ذلك لن يكون. فإذا قال لك المشرك: أنا أشرك بهذا الصنم وبهذا القبر؛ لأن الله قد أمر بذلك، قل له: (هات سلطانك) لن يستطيع أن يأتي بدليل من القرآن أو حديث صحيح على أن الله أذن بالشرك، تعالى الله أن يأذن بالشرك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ أي في شرعه، ودينه، ويدخل في ذلك القول في الأسماء والصفات.

إثبات صفة الاستواء

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣] فِي سِتَّةِ مَوَاضِعَ: [الأعراف: ٥٤]، [يونس: ٣]، [الرعد: ٢]، [الفرقان: ٥٩]، [السجدة: ٤]، [الحديد: ٤].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]، وقال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢]، وقوله : ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقوله : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤]، وقوله : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤]، كل هذه الآيات تضمنت الدلالة على صفة الاستواء لله وصفة الاستواء من الصفات الفعلية وهي ثابتة بالقرآن والإجماع ولا أعلم دليلاً من السنة للدلالة عليها إلا عند تفسيرها بمعنى العلوّ فالأحاديث الدالة على إثبات صفة العلو لله كثيرة.

وفي الآيات دلالة أنّ الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وحديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم (٢٧٨٩)، قَالَ: أَخَذَ

رَسُولُ اللَّهِ يَبْدِي فَقَالَ: (خَلَقَ اللَّهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فِي آخِرِ الْخُلُقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ) الرَّاجِحُ وَقْفُهُ عَلَى كَعْبِ الْأَحْبَارِ.

والجمع بين هذه الآيات وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُنَبِّئُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَى مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ ﴿فصلت: ٩-١٠﴾، المراد أنه خلق السماوات والأرض في يومين ثم كان تقدير ما فيها في أربعة أيام فكان تمام الخلق في ستة أيام.

وصفة الاستواء صفة حقيقية لله وأجمع العلماء على تفسيرها بالعلو والاستقرار والارتفاع والصعود فمعنى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، أي علا على العرش وارتفع عليه وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، فسرها بعضهم أي قصد إلى السماء لأن الاستواء هنا عُدِّي بـ(إلى) ونقل شيخ الإسلام ابن القيم الإجماع على ذلك، ويكون المراد قصد إلى خلق السماء من العلو وهو على عرشه.

وفسّر أهل التعطيل الاستواء بالاستيلاء، فشابهت الجهميّة اليهود، حيث قال الله تعالى آمراً لهم: ﴿وَادْخُلُوا أَبْوَابَ سُجْدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، فبدّلوا

فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ. رواه البخاري (٣٢٢٢)، ومسلم (٣٠١٥) من حديث أبي هريرة .

قال ابن القيم :

أَمَرَ الْيَهُودُ بِأَنْ يَقُولُوا حِطَّةً فَأَبَوْا وَقَالُوا حِنْطَةٌ لِهَوَانٍ
وَكَذَلِكَ الْجَهْمِيُّ قِيلَ لَهُ اسْتَوَى فَأَبَى وَزَادَ الْحَرْفَ لِلتَّقْصَانِ
قَالَ اسْتَوَى اسْتَوَى وَذَا مِنْ جَهْلِهِ لُغَةً وَعَقْلًا مَا هُمَا سَيَّانٍ
نُونُ الْيَهُودِ وَلَا مُجَهْمِيٍّ هُمَا فِي وَحْيِ رَبِّ الْعَرْشِ زَائِدَتَانِ
وَكَذَلِكَ الْجَهْمِيُّ عَطَّلَ وَصَفَهُ وَيَهُودٌ قَدْ وَصَفُوهُ بِالتَّقْصَانِ
فَهُمَا إِذَنْ فِي نَفْيِهِمْ لِصِفَاتِهِ الْـ عُليَا كَمَا بَيَّنَّهُ أَخَوَانِ

وتفسير الاستواء بالاستيلاء تفسير باطل لا يدل عليه العقل ولا النقل، أما النقل فقد تبين أن الاستواء بمعنى الارتفاع والعلو والصعود والاستقرار وأما العقل فإن الاستيلاء يكون عن مغالبة بين اثنين أو أكثر والله له الملك المطلق ثم هو تعالى مستولي على جميع مخلوقاته ليس على عرشه فقط.

وتناقلوا عن الأخطل بيتاً لا حجة لهم فيه:

قَدْ اسْتَوَى بِشَرِّ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ أَوْ دَمٍ مَهْرَاقِ

والعجب أن هؤلاء إذا قلت لهم قال الرسول : «يَنْزِلُ رَبُّنَا» من حديث أبي هريرة عند البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨)، قالوا: هذا خبر آحاد نحن لا نأخذ به في العقيدة، قال النبي : «أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَالْكَسَلِ، وَأَرْذَلِ الْعُمُرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِتْنَةِ الدَّجَالِ، وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ»، من حديث أنس

عند البخاري (٤٧٠٧) ومسلم (٢٧٠٦)، قالوا: نحن لا نؤمن بعذاب القبر؛ لأنه خبر آحاد.

وهذا البيت لا سند له واستدلوا به على باطلهم وهذا من تناقضهم يردون أخبار الرسول التي في الصحيحين ويقبلون بيت الأخطل النصرائي.

وقد أحسن شيخ الإسلام إذ يقول:

قُبْحًا لِمَنْ نَبَذَ الْقُرْآنَ وَرَاءَهُ وَإِذَا اسْتَدَلَّ يَقُولُ قَالَ الْأَخْطَلُ

وقال ابن القيم في نونيته:

وَدَلِيلُهُمْ فِي ذَاكَ قَوْلُ قَالَهُ فِيمَا يُقَالُ الْأَخْطَلُ النَّصْرَانِي

فهم يُقسّمون الحديث إلى قسمين: آحاد ومتواتر، والآحاد هو رواية الواحد أو الاثنين أو الثلاثة وربما رواية العشرة فيدخل فيه العزيز والمشهور والغريب، فكل هذه الأنواع عندهم آحاد، والآحاد عندهم لا يؤخذ به في العقائد. وسيأتي الرد على هذه الشبهة في موطنه إن شاء الله تعالى. وتقسيم الحديث إلى آحاد ومتواتر تقسيم مبتدع لم يأت من قبل السلف، وإنما جاء عن إبراهيم بن كيسان الأصم، وكان من رءوس المعتزلة، الذي قيل في ترجمته: كان عن الحق أصم. وعنه إبراهيم بن عليّة الجهمي. وإلا فحديث النبي إذا توفرت فيه شروط القبول يجب قبولها آحادها ومتواترها، ثم الرسول واحد، والذي ذهب بالكتاب إلى هرقل واحد، والمؤذن واحد والآذان فيه التوحيد، وهذا التقسيم مبتدع ردّ عليه الإمام الشافعي في كتاب الرسالة ردًا طيبًا وفي كتاب صحيح البخاري (كتاب أخبار الآحاد)، وهكذا الإمام أبو محمد ابن حزم في كتاب أحكام الأحكام، والإمام ابن القيم

كما في مختصر الصواعق ، وللشيخ الألباني (كتاب في بيان حجة خبر الأحاد) وغيرهم كثير، وهذا المذهب ما زال ساريًا متبنيًا حزب التحرير حيث لا يؤمنون بعذاب القبر ولا يؤمنون بكثير من المغيبيات وحجتهم أن عذاب القبر إنما جاء عن طريق الأحاد والصحيح أن أحاديث عذاب القبر على اصطلاحهم متواترة لفظًا ومعنى. وقد جمعت فيها في رسالتي عذاب القبر ونعيمه أكثر من مائة دليل صحيح، ثم هم عندما يُصلّون يقولون: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ»، تقول له: لماذا تدعو بهذا الدعاء؟ يقول: لأنه في باب الأحكام وفي باب العبادات، وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ»، من حديث أبي هريرة عند مسلم (٥٨٨)، ومن الذي فرق بين العقائد والعبادات فكلها من عند الله، نسأل الله السلامة.

شاهدنا إن تفسير الاستواء بالاستيلاء باطل يُخالف المعقول والمنقول والقواعد والأصول.

والاستواء إما أن يُعدَّى بنفسه كما قال الله : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ [القصص: ١٤]، فالمراد به الكمال، وإن عُدي بـ(على) مثل قوله تعالى: ﴿لِئَسْتَوَا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٣]، وقوله : ﴿الرَّحْنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، فالمراد به العلوّ وقد نُقل الإجماع على ذلك وإذا عُدي بـ(إلى)

قال الخليل بن أحمد استوى إلى السماء ارتفع إلى السماء نقله عنه ابن عبد البر في التمهيد.

وإذا عُذِّت استوى بـ (الواو) المراد به المساواة مثل (استوى الماء والخشبة).

وكلّ دليل يستدلّ به أهل السنّة والجماعة على إثبات صفة الاستواء لله ففيه دلالة على إثبات صفة العلوّ لله ، والعرش هو أعظم المخلوقات وأعلى المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقال النبيّ : «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»، من حديث جويرية عند مسلم (٢٧٢٦)، وفي البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله : فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة أراه فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة قال محمد بن فليح عن أبيه وفوقه عرش الرحمن.

والعرش جُرم مخلوق ليس بالملك كما يُفسّره المعتزلة والجهمية فإنهم حينما فَرَّوْا من إثبات العلو أرادوا أن ينفوا كلّ شيء يدلّ عليه فزعموا أنّ العرش هو الملك ويُردّ عليهم بأوجه كثيرة:

الأول: قول الله : ﴿وَيَجْلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، فالعرش محمول فدلّ على أنّه جُرم مخلوق، فعن أبي سعيد الخُدريّ عند البخاري (٤٦٣٨) قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ قَدْ لَطَمَ وَجْهَهُ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ مِنَ الْأَنْصَارِ لَطَمَ فِي وَجْهِي، قَالَ: «ادْعُوهُ» فَدَعَاهُ قَالَ: «لَمْ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي مَرَرْتُ بِالْيَهُودِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، فَقُلْتُ: وَعَلَى مُحَمَّدٍ؟!

وَأَخَذَتْنِي غَضَبُهُ فَلَطَمْتُهُ، قَالَ: «لَا تُحَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُزِي بِصَعْقَةِ الطُّورِ». والقوائم معروفة. وقد جاء عن النبي ﷺ أنه يقول: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابُّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١). فالعرش له ظلٌ ويحمل عظيم واسع وهو سقف الجنة، قال النبي ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ قَالَ إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أَرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٧٩٠).

فدلَّ هذا على أنَّ العرش مخلوق لله وأنَّ الله مستوٍ على العرش استواء يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه وهو غير محتاج إلى العرش فمن زعم أنَّ الله استوى على العرش لحاجته إليه فقد كفر ومن زعم أنَّ العرش يحويه فقد كفر

فالله هو الذي يقيم الخلائق، فهو الحي القيوم، فحملة العرش والعرش بحاجة إلى الله .

تنبيه:

ما يُسمّيه أصحاب الهيئة الجديدة بتمدد الكون، وما استدّل به الزنادني ومن إليه بقول الله : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، أي نوسعها الآن، والآية قد فسّرها ابن عباس : ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: أوسعناها فمؤدّي قول الهيئة الجديدة على أنّ الأرض مركز العالم ويحيط بالأرض سبع كواكب سيّارة والأرض ومن حولها من الكواكب هي مجموعة شمسيّة لهذه الشمس التي نراها وهذه الشمس التي نراها ويأتينا حرّها وهذا القمر هو عبارة عن مجموعة واحدة من ملايين المجموعات الشمسية في مجرّة درب التبانة ومجرّة التبانة ما هي إلا واحدة من هذه المجرّات في هذا العالم، فليس عندهم سماء، ألم تُخبر أنّ السماوات سبع وأنّ بين كلّ سماء وسماء مسافة وسُمت كلّ سماء كذا، أين العرش؟ ليس عندهم عرش، فمؤدّي قولهم إنّّه لا سماوات ولا عرش ولا إله مستوٍ على العرش، تعالى الله عن قولهم، وهكذا جاءوا بنفي الاستواء لنفي العلوّ وقالوا بالحلول والاتّحاد لنفي العلوّ وقد ذكر في بعض كتب المدارس (الله معنا في كلّ مكان) وهذا عنوان باطل لأنّ فيه إجمال وصاحبه قاصدٌ لهذا لأنّ أكثر من يتولّى الإشراف على مناهج المسلمين إمّا أشاعرة، وإمّا معتزلة، وإمّا شيعة، وإمّا إخوان جُهال، لا يعرفون التوحيد ولا يعرفون باب الأسماء والصفات ولهذا كان من الضلال البعيد وضع هذا

العنوان يُدرّس لأبناء المسلمين في الصفّ الثالث الابتدائي بمجرد ما يعقل الطالب إذا بهم يُقرّرون (الله معنا في كلّ مكان).

فيا طُلاب العلم ازرعوا العقائد الصحيحة بين الناس، عرّفهم أين ربّك؟ واذكر له حديث معاوية بن الحكم عند مسلم (٥٣٧) قال : كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قَبْلَ أُحُدٍ وَالْجَوَانِيَّةِ فَاطْلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسِفُونَ لِكِنِّي صَكَّكْتُهَا صَكَّةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَظَّمْ ذَلِكَ عَلَيَّ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُعْتِقُهَا قَالَ: «اِئْتِنِي بِهَا»، فَأَتَيْتُهَا بِهَا فَقَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللَّهُ؟»، قَالَتْ فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟»، قَالَتْ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: «أَعْتَقُهَا فَإِنَّهَا مُؤَمَّنَةٌ». فبُثَّ العقائد أمرٌ مطلوب لا سيّما والمجتمعات مغلّغة بالأشاعرة والمعتزلة والجهمية لا تظنّ أنّ هذه الفرق كانت في زمان أحمد بن حنبل فقط، لا يأتي زمان وإلا الذي بعده أشرّ منه، كانوا في زمن أحمد وهم الآن أشرّ وأكثر ولهم وسائل، منها التلفزيونات، والدشوش والفضائيات والانترنت والإذاعات والصحف والمجلات والجامعات كلّها تخدم مصالحهم إلا ما رحم ربّي وتُنشر كُتُبهم، يُقرّر في جامعة صنعاء على جميع الطُلاب كتاب المذاهب الإسلامية لمحمّد زُهرة ويُسمّونه الإمام الأكبر، هذا الكتاب يُقرّر مذهب الأشاعرة، ماذا تتوقع من إنسان في الجامعة بدوي بعضهم في الفيزياء وبعضهم في الكيمياء، دخل الجامعة وقرّروا عليه دراسة كتاب المذاهب الإسلامية المعاصرة ويجد أنّ محمّد (أبا زُهرة) يُقرّر مذهب الأشاعرة ويلمز ويتكلّم على دعوة الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب وفي دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وفي طريقة السلف

وذكر في كلامه على الصفات: (والصحيح في هذا أنّ المذهب الحقّ هو ما ذهب إليه الماتريدي وقرّره ابن الجوزي) وإن كان ابن الجوزي حنبلي إلا أنّه قد زلّ في هذا الباب وصار على طريقة غير مرضية.

إثبات صفة العلوّ

قال :

قوله: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعَكَ إِلَيْنَا﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]. {وَمَا يَكْفُرُ الْكَافِرُ} [النساء: ١٥٨].
 {يَا هَامَانَ ابْنِي صِرْ حَالِي أَبْلُغِ الْأَسْبَابَ • أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا} [غافر: ٣٦ - ٣٧].
 {أَأَمِنْتُمْ مَنِ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ • أَمْ أَمِنْتُمْ مَنِ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك: ١٦ - ١٧].

أشار في هذه الآيات إلى إثبات صفة العلوّ لله وهو علو الذات وأهل السنّة متفقون على أنّ الله عالٍ على عرشه بذاته، وخالف في ذلك المبتدعة الضالون وزعموا أنّ العلو المراد هو علو القدر والقهر.

قال الإمام ابن القيم في الكافية في رده على من قال: إنّ الفوقية فوقية القدر والقهر:

وَالْفَوْقُ وَصْفٌ ثَابِتٌ بِالذَّاتِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ لِطَاغِرِ الْأَكْوَانِ
 لَكِنْ نَفَاةُ الْفَوْقِ مَا وَافَوْا بِهِ جَحَدُوا كَمَالَ الْفَوْقِ لِلدِّيَانِ
 بَلْ فَسَّرُوهُ بِأَنَّ قَدَرَ اللَّهِ أَعْلَى لَا بِفَوْقِ الذَّاتِ لِلرَّحْمَنِ

قَالُوا وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِ النَّاسِ فِي ذَهَبٌ يُرَى مِنْ خَالِصِ الْعِقْيَانِ
هُوَ فَوْقَ جِنْسِ الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ لَا بِالذَّاتِ بَلْ فِي مُقْتَضَى الْأَثْمَانِ
وَالْفَوْقُ أَنْوَاعٌ ثَلَاثٌ كُلُّهَا لِلَّهِ ثَابِتَةٌ بِلَا نُكْرَانِ
هَذَا الَّذِي قَالُوا وَفَوْقَ الْقَهْرِ وَالْ فَوْقِيَّةُ الْعُلْيَا عَلَى الْأَكْوَانِ

ومن الأدلة قول الله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وكان النبي يقول في سجوده: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى»، من حديث حذيفة عند مسلم (٧٧٢)، بل إن بعض الجاهليين كانوا يُثبتون العلو لله ، فقد جاء أن رجلاً ذهب من عند امرأته وعاد وقد وضعت ولدًا، وكانت غيبته طويلة، لا يحتمل معها أنها تأتي منه بولد، فقال لها:

لَتَقْعُدَنَّ مَعْقَدَ الْقَصِيِّ مِنْنِي ذِي الْقَادُورَةِ الْمَقْلِيِّ
أَوْ تَحْلِفَنِي بِرَبِّكَ الْعَلِيِّ أَنِّي أَبُو ذِيَالِكَ الصَّصِيِّ

وأدلة العلو متنوعة، منها أدلة الاستواء، على ما تقدم، ومنها كل أدلة المعراج، ومنها كل أدلة الإنزال منه، ومنها كل أدلة الفوقية، ومنها أدلة الرؤية؛ لأن النبي يقول: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ»، من حديث جرير عند البخاري (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣). (وكما ترون الشمس في وقت الظهيرة والقمر والشمس)، يُريان في العلو على ما يأتي بيانه، ومنها كل أدلة الصعود وأدلة العروج.

قال الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، وقول النبي : «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ،

فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَآتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢).

ومنها قوله: ﴿أَمْ آمَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ فكل دليل فيه إن الله في السماء يدل على العلو، قال النبي: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً»، من حديث أبي سعيد عند البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤)، وقال النبي: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»، من حديث عبد الله بن عمرو عند أبي داود (٤٩٤١) والترمذي (١٩٢٤)، قَالَ أَنَسٌ: لَوْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ كَاتِمًا شَيْئًا لَكُنَّا هَذِهِ، قَالَ: فَكَانَتْ زَيْنَبُ تَفَخَّرَ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ يَقُولُ: زَوَّجَكُنْ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللَّهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ، وَعَنْ ثَابِتٍ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، (نَزَلَتْ فِي شَأْنِ زَيْنَبَ وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ)، من حديث أنس عند البخاري (٧٤٢٠)، وكل دليل يضم عشرات الأدلة. وقد قال ابن القيم في الصواعق المرسله (١/ ٢٩٤): يوضحه أن أدلة مباينة الرب خلقه وعلوه على جميع مخلوقاته أدلة عقلية فطرية توجب العلم الضروري بمدلولها، وأما السمعية فتقارب ألف دليل. انتهى

أي: من الكتاب والسنة وأقوال السلف.

ويدل على العلو الفطرة السليمة، فإن الإنسان إذا جرد نفسه عن الهوى وعن المؤثرات الخارجية تكون فطرته دالة على العلو وهذه ضرورة لا يستطيع

أن يخرج منها أحد فإنَّ الطفل إن لم يجد من يحرفه عن عقيدة السلف إذا قيل له أين الله؟ سيشير إلى السماء، قبل أن تتغير عقيدته.

وقد سألت مرّة طفلاً من أطفال الشيعة: أين الله؟ أشار إلى السماء، ثمَّ ضربه أبوه أمامنا، فبعد ذلك ما عساه أن يقول إن قلت له: أين الله؟! سيقول بما عوده أبوه.

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الْفُتَيَانِ فِيْنَا عَلَى مَا كَانَ عَوْدَهُ أَبُوهُ
والنبيّ يقول: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (١٣٨٥) ومسلم (٢٦٥٨)، ولم يقل يُمسلماناه؛ لأنَّه وُلِدَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وهي الإسلام. وذكر شيخ الإسلام أنَّه كان في مجلس من المجالس فجاءه رجل من منطري وعلماء المعتزلة، فجعل يطالبه ببعض الأشياء، وشيخ الإسلام معرّض عنه، فلمّا أعياه التعب قال: (يا الله ورفع إصبعه إلى السماء) فقال شيخ الإسلام: (أنت تُقرّ بالعلو؟) فجعل يستغفر وجعل يسترجع على أنَّه وقع في أمر عظيم؛ لأنَّهم يرون حرمة الإشارة، حتّى قال سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام وهو أشعري^(١): (لا يُسأل عن الله بأين ولا يُشار إليه) مع أنَّ النبيّ قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ ثَلَاثًا»، من حديث جابر عند مسلم (١٢١٨)، أمام أكثر من مائة ألف ولم يقع نكير أو استفصال من الصحابة لأنَّهم يعرفون أنَّه يُشير إلى السماء يُشهد

(١) له رسالة في التوحيد لولا ضيق الأوقات لرددت عليها أتى في مقدّماتها بالبلاوي يعني كلام فلسفي ما هو من كلام من سلّمت عقائدهم.

الله وكذلك حديث الجارية أين الله؟ قالت: «في السماء» كما تقدّم، فقد سأل عنه بـ(أين) من هو أعلم منا ومن غيرنا برّبّه، بل هو أعلم الخلق برّبّه ، فعند ذلك أقرّ شيخ الإسلام ذلك الرجل بالقول بالعلوّ، قال له: (انظر ما تخلّصت فطرته من المؤثرات الخارجية) أي: الهوى والشبهة كيف أشرت إلى السماء، واعتقد بعد ذلك العلوّ.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع الفتاوى : وَحَدَّثَنِي الشَّيْخُ عَبْدُ السَّيِّدِ الَّذِي كَانَ قَاضِي الْيَهُودِ ثُمَّ أَسْلَمَ وَكَانَ مِنْ أَصْدَقِ النَّاسِ وَمِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ وَأَحْسَنِهِمْ إِسْلَامًا أَنَّهُ كَانَ يَجْتَمِعُ بِشَيْخٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ الشَّرَفُ الْبَلَّاسِي يُطْلَبُ مِنْهُ الْمَعْرِفَةُ وَالْعِلْمُ. قَالَ: فَدَعَانِي إِلَى هَذَا الْمَذْهَبِ، فَقُلْتُ لَهُ: قَوْلُكُمْ يُشْبِهُ قَوْلَ فِرْعَوْنَ، قَالَ: وَنَحْنُ عَلَى قَوْلِ فِرْعَوْنَ، فَقُلْتُ لِعَبْدِ السَّيِّدِ وَاعْتَرَفَ لَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، وَكَانَ عَبْدُ السَّيِّدِ إِذْ ذَاكَ قَدْ ذَاكَرَنِي بِهَذَا الْمَذْهَبِ، فَقُلْتُ لَهُ: هَذَا مَذْهَبٌ فَاسِدٌ وَهُوَ يَتَوَلَّى إِلَى قَوْلِ فِرْعَوْنَ، فَحَدَّثَنِي بِهَذَا، فَقُلْتُ لَهُ: مَا ظَنَنْتَ أَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُمْ عَلَى قَوْلِ فِرْعَوْنَ، لَكِنْ مَعَ إِقْرَارِ الْخُصْمِ مَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيِّنَةٍ. قَالَ عَبْدُ السَّيِّدِ: فَقُلْتُ لَهُ: لَا أَدْعُ مُوسَى وَأَذْهَبُ إِلَى فِرْعَوْنَ، فَقَالَ: وَلَمْ؟ قُلْتُ: لِأَنَّ مُوسَى أَغْرَقَ فِرْعَوْنَ. فَانْقَطَعَ وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ بِالظُّهُورِ الْكَوْنِيِّ، فَقُلْتُ لِعَبْدِ السَّيِّدِ - وَكَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ - نَفَعْتُكَ الْيَهُودِيَّةُ يَهُودِيَّ خَيْرٌ مِنْ فِرْعَوْنِيَّ. انتهى

لأنّ من الأدلة أن الله في العلوّ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِي لِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]، ما الذي جعل فرعون يطلب هذا الأمر من هامان لأنّ

موسى أخبره أن ربه في السماء حتى أنه يقول: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ [غافر: ٣٧]، يعني إنني أظن موسى كاذبًا في هذا القول فمن زعم أن ربه في السماء فهو محمدي موساوي، ومن زعم أن ربه في كل مكان فهو فرعوني هاماني.

الدليل العقلي: ويدلّ العقل على علو الله مع دلالة الكتاب والسنة والفطرة فإننا نعلم أنه ليس إلا علو أو سُفْل، والعلو صفة كمال والسُفْل صفة نقص فإذا لم يكن في العلو فهو في السفّل وصفة النقص ممتنعة عنه فلم يبق وصفه إلا بالعلو على ما أثبتته لنفسه وما أثبتته له رسوله .

ومن يقولون إن الله في كل مكان يقال له ما الحكمة من العروج بالرسول إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، كما في الصحيحين البخاري (٣٤٩) ومسلم (١٦٣) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «فَرَجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءٍ زَمْزَمَ ثُمَّ جَاءَ بِطُسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُتَمَلِّئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ فَلَمَّا جِئْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ لِحَازِنِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا افْتَحْ. قَالَ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا جِبْرِيلُ. قَالَ هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ قَالَ نَعَمْ مَعِيَ مُحَمَّدٌ. قَالَ فَأُرْسِلْ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ فَفَتَحَ، قَالَ: فَلَمَّا عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَإِذَا رَجُلٌ عَنْ يَمِينِهِ أَسْوَدَةٌ وَعَنْ يَسَارِهِ أَسْوَدَةٌ، قَالَ: فَإِذَا نَظَرْتُ قَبْلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ وَإِذَا نَظَرْتُ قَبْلَ شِمَالِهِ بَكَى، قَالَ: فَقَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْإِبْنِ الصَّالِحِ، قَالَ: قُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا آدَمُ وَهَذِهِ الْأَسْوَدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ فَأَهْلُ الْيَمِينِ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَالْأَسْوَدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ

النَّارِ فَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ وَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ شِمَالِهِ بَكَى ، قَالَ: ثُمَّ عَرَجَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ. فَقَالَ لِحَازِنِهَا افْتَحْ ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ حَازِنُهَا مِثْلُ مَا قَالَ حَازِنُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَفَتَحَ». فَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمَوَاتِ آدَمَ وَإِدْرِيسَ وَعِيسَى وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَلَمْ يُثَبِّتْ كَيْفَ مَنَازِلَهُمْ غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ قَدْ وَجَدَ آدَمَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ. قَالَ: «فَلَمَّا مَرَّ جِبْرِيلُ وَرَسُولُ اللَّهِ بِإِدْرِيسَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - قَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ ، قَالَ: ثُمَّ مَرَّ فَقُلْتُ مَنْ هَذَا فَقَالَ هَذَا إِدْرِيسُ ، قَالَ: ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَى فَقَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ ، قَالَ: قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا مُوسَى ، قَالَ: ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى فَقَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ. قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، قَالَ: ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْإِبْنِ الصَّالِحِ ، قَالَ: قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا إِبْرَاهِيمُ». قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَأَخْبَرَنِي ابْنُ حَزْمٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَبَا حَبَّةَ الْأَنْصَارِيِّ كَانَا يَقُولَانِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ «ثُمَّ عَرَجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوًى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيحَ الْأَقْلَامِ». قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ «فَفَرَضَ اللَّهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً ، قَالَ: فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى أَمَرَ بِمُوسَى فَقَالَ مُوسَى مَاذَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ ، قَالَ: قُلْتُ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسِينَ صَلَاةً. قَالَ لِي مُوسَى فَرَاغِعْ رَبَّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، قَالَ: فَرَاغِعْتُ رَبِّي فَوَضَعَ شَطْرَهَا ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ قَالَ رَاغِعْ رَبَّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، قَالَ: فَرَاغِعْتُ رَبِّي فَقَالَ هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ لَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ رَاغِعْ رَبَّكَ. فَقُلْتُ قَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي ، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى نَأْتَى سِدْرَةَ

الْمُنْتَهَى فَعَشِيهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ ، قَالَ: ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا جَنَابِدُ
الْلُّؤْلُؤِ وَإِذَا تُرَابُهَا الْمُسْكُ».

وكثير من الناس الذين يزعمون أنّ الله في كلّ مكان لا يعرف لازم هذا
القول وأذكر لما كنّا في جزيرة زنجبار قلنا لصاحب سيارة أجره أين الله؟ فقال
الله في كلّ مكان، فذكرت له الأدلّة على أنّ الله في السماء من الكتاب والسنة
فما زال على إعراضه، فمررنا بمكان القاذورات، فقلت له الله هنا؟ فكاد إن
يقلب السيارة، فقلت له أنت تقول هذا، حيث تزعم أنّ ربّك في كلّ مكان،
فعندها اقتنع أنّ الله في العلوّ، إذ القول بالحلّول والاتحاد من أفسد أقوال العالم
وأخبثها، وكفرهم أعظم من كفر اليهود والنصارى بإجماع المسلمين حتّى قال
ابن عربي الطائي -لعنه الله- تلك الأبيات المشهورة:

لَقَدْ صَارَ قَلْبِي قَابِلًا كُلِّ صُورَةٍ فَمَرَعَى لِعُزْلَانٍ وَدَيْرٍ لِرُهْبَانٍ
وَبَيْتٌ لِأَوْثَانٍ وَكَعْبَةٌ طَائِفٍ وَالْوَاخُ تَوْرَةٍ وَمُصْحَفُ قُرْآنٍ
ومن قوله:

عَرَفْتُ رَبِّي بِعَيْنِ رَبِّي فَقَالَ مَنْ أَنْتَ قُلْتُ أَنْتَا

أما ابن الفارض فيؤكد مذهبه في وحدة الوجود في قصيدته المشهورة
بالتائية:

هَآ صَلَوَاتِي بِالْمَقَامِ أُقِيمُهَا وَأَشْهَدُ فِيهَا أَنَّهُ لِي صَلَّيْ
كِلَانًا مُصَلٍّ عَابِدٌ سَاجِدٌ إِلَى حَقِيقَتِهِ بِالْجُمُعِ فِي كُلِّ سَجْدَةٍ
وَمَا كَانَ لِي صَلَّى سِوَايَ فَلَمْ تَكُنْ صَلَاتِي لِغَيْرِي فِي أَدَا كُلِّ رَكْعَةٍ

وَمَا زِلْتُ إِيَّاهَا وَإِيَّايَ لَمْ تَزَلْ وَلَا فَرَقَ بَلْ ذَاتِي لِذَاتِي أَحَبَّتْ
فمبدأ القول بوحدة الأديان كان مصدره القول بوحدة الوجود كما بينت
ذلك في كتاب الزجر البيان لدعاة الحوار والتقارب بين الأديان .

وقوله: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

عيسى هو رسول الله أرسله الله تعالى إلى بني إسرائيل قال تعالى: ﴿وَإِذْ
قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِيْ اِسْرَءِيْلَ اِنِّيْ رَسُوْلُ اللّٰهِ اِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ النُّوْرِ وَمُبَشِّرًا
رِّسُوْلٍ يَّاْتِي مِنْ بَعْدِي اَسْمُهُ اَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوْا هٰذَا سِحْرٌ مُّبِيْنٌ﴾ [الصف: ٦]، خلقه
الله تعالى بقوله كن فكان خلقه بالكلمة لا هو نفس الكلمة: ﴿يَتَأْهَلْ
اَلْكِتٰبِ لَا تَعْلُوْا فِيْ دِيْنِكُمْ وَلَا تَقُوْلُوْا عَلٰى اللّٰهِ اِلَّا الْحَقَّ اِنَّمَا الْمَسِيْحُ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُوْلُ اللّٰهِ وَكَلِمَتُهُ اَلْقَاهَا اِلَى مَرْيَمَ وَرُوْحٌ مِّنْهُ فَتَأْمَنُوْا بِاللّٰهِ
وَرُسُلِهٖ وَلَا تَقُوْلُوْا ثَلَاثَةٌ اَنْتَهُوْا خَيْرًا لَّكُمْ اِنَّمَا اللّٰهُ اِلٰهُ وَاحِدٌ سُبْحٰنَهُ اَنْ
يَكُوْنَ لَهٗ وَلَدٌ لَّهٗ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَكُفِّي بِاللّٰهِ
وَكَيْلًا﴾ [النساء: ١٧١].

وفي البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ : «مَنْ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا
عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَابْنُ أُمِّتِهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوْحٌ
مِّنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ».

قوله: (متوفيك) قال بعض العلماء: أي منيمك ورافعك إليّ، أي في تلك
النومة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]

الآية. وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

والرفع يكون من أدنى إلى أعلى، وهذه الآية دالة على علو الله ويدل على أن عيسى حيٌّ وإنما يموت بعد قتله للدجال وبعد أن يمكث في الأرض زمناً ليس بين الناس خصام على ما يأتي بيانه، قال تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]. اه من أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (١/ ٢٣٢).

وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

من قراءة وتسبيح وتحميد وتهليل وكل كلام حسن طيب، فيرفع إلى الله ويعرض عليه ويشني الله على صاحبه بين الملائ الأعلی: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ من أعمال القلوب وأعمال الجوارح: ﴿يَرْفَعُهُ﴾ الله تعالى إليه أيضاً، كالكلم الطيب.

وقيل: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة، فهي التي ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح، لم يرفع له قول إلى الله تعالى، فهذه الأعمال التي ترفع إلى الله تعالى، ويرفع الله صاحبها ويعزه.

وأما السيئات فإنها بالعكس، يريد صاحبها الرفعة بها، ويمكر ويكيد ويعود ذلك عليه، ولا يزداد إلا إهانة ونزولا ولهذا قال: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يهانون فيه غاية الإهانة.

﴿وَمَكَّرَ أُولَئِكَ هُوَ يُؤَرِّضُ﴾ أي: يهلك ويضمحل، ولا يفيدهم شيئاً، لأنه مكر بالباطل، لأجل الباطل. أفاده السعدي والصعود يكون من أسفل إلى أعلى.

وقوله: ﴿يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) **أَسْبَابُ السَّمَوَاتِ** فَأُطْلِعَ إِلَيَّ إِلَهَ مُوسَى وَإِنِّي لَأُظَنُّهُ كَذِبًا [غافر: ٣٦-٣٧] لأن موسى أخبر أن الله في السماء.

قال السعدي :

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضاً لموسى ومكذباً له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين، الذي على العرش استوى، وعلى الخلق اعتلى: ﴿يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا﴾ أي: بناء عظيمًا مرتفعًا، والقصد منه لعلّي أطلع: ﴿إِلَيَّ إِلَهَ مُوسَى وَإِنِّي لَأُظَنُّهُ كَذِبًا﴾ في دعواه أن لنا رباً، وأنه فوق السماوات.

ولكنه يريد أن يحتاط فرعون، ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى في بيان الذي حمّله على هذا القول: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ فزين له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسنه، حتى رآه حسناً ودعا إليه وناظر مناظرة المحققين، وهو من أعظم المفسدين، ﴿وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ الحق، بسبب الباطل الذي زين له. ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه محق، وأن موسى مبطل: ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: خسار وبوار، لا يفيد إلا الشقاء في الدنيا والآخرة. انتهى

وقوله: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١٦) ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦-١٧].

﴿فِي السَّمَاءِ﴾ تأتي بمعنى على السماء، وفيها وجهان:

❶ **الأول:** أن أحرف الجرّ تتناوب، وهي هنا بمعنى على ومثال ذلك قول الله: ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، وقوله تعالى عن فرعون: ﴿وَلَأُصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١].

❷ **الثاني:** أن السماء في الآية بمعنى العلوّ فيكون: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أي من في العلوّ، وفي الآية تهديد من الله للذي يأمن مكر الله فنسأل الله السلامة.

وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، أي: الأمر القدري، والشرعي تصريفه وتدبيره بيد الله تعالى، وهي مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [سورة يونس: ٣١]، ومعنى يعرج إليه أي يرفع وتماها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥].

هذه الآية الكريمة أي قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] تدل على أن مقدار اليوم عند الله ألف سنة وكذلك قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥].

وقد جاءت آية أخرى تدل على خلاف ذلك وهي قوله تعالى في سورة سأل سائل: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] الآية، أعلم أولاً أن أبا عبيدة روى عن إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة أنه حضر كلاً من ابن عباس وسعيد ابن المسيب سئل عن هذه الآيات فلم يدر ما يقول فيها ويقول لا أدري.

وللجمع بينهما وجهان:

الوجه الأول: هو ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس من أن يوم الألف في سورة الحج هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض، ويوم الألف في سورة السجدة هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى. ويوم الخمسين ألفا هو يوم القيامة.

الوجه الثاني: أن المراد بجميعها يوم القيامة وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر؛ ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿١﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩-١٠] ذكر هذين الوجهين صاحب الإتيقان. والعلم عند الله. أفاه الشنقيطي في دفع إيام الاضطراب .

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، ومن

الأدلة قول الرسول : «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٧٥٥٤)، وأخرجه مسلم.

ومما يستدل به على علو الله تعالى أدلة النزول، وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى.

وهذا التنوع يدل على أن صفة العلو ثابتة لله تعالى، والأدلة على علوه كثيرة جداً، وإنما ذكرنا بعضها فائدة للمستبصر.

وقد أجمع السلف رضوان الله عليهم قاطبة على علو الله بذاته، وأنه مستوي على عرشه، بائن من خلقه، تعالى الله عن قول الحلولية علواً كبيراً. والفطرة السليمة تدل على أن الله في السماء، فلا يصيب الإنسان خطب من الخطوب إلا وتعلق قلبه بالسماء.

فقد جاء عن أبي جعفر الهمداني: أنه حضر مجلساً لأبي المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين وهو يتكلم في نفي صفة العلو وهو يقول: كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان، فقال أبو جعفر: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط يا الله إلا وجد في قلبه ضرورة تطلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا؟ فلطم أبو المعالي على رأسه ونزل، قال: وبكى وقال: حيرني الهمداني حيرني الهمداني، أراد الشيخ أن هذا أمرٌ فطر الله عليه عباده من غير أن يتلقوه من المعلمين يجدون في قلوبهم طلباً ضرورياً يتوجه إلى الله ويطلبه في العلو. اهـ من شرح الطحاوية .

قال ابن القيم :

وَالِيهِ أَيْدِي السَّائِلِينَ تَوَجَّهَتْ نَحْوَ الْعُلُوِّ بِفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ
وَالِيهِ آمَالُ الْعِبَادِ تَوَجَّهَتْ نَحْوَ الْعُلُوِّ بِلَا تَوَاصِي ثَانِي
بَلْ فِطْرَةُ اللَّهِ الَّتِي لَمْ يُفْطَرُوا إِلَّا عَلَيْهَا الْخَلْقُ وَالْثَّقَلَانِ
وَنَظِيرُ هَذَا أَنَّهُمْ فُطِرُوا عَلَى إِقْرَارِهِمْ لَا شَكَّ بِالذِّيَانِ
لَكِنْ أُولُوا التَّعْطِيلِ مِنْهُمْ أَصْبَحُوا مَرْضَى بِدَاءِ الْجَهْلِ وَالْخُذْلَانِ

وقال في موضع آخر:

وَعُلُوُّهُ فَوْقَ الْخَلْقِ كُلِّهَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ الْخَلْقُ وَالْثَّقَلَانِ
لَا يَسْتَطِيعُ مُعْطَلٌ تَبْدِيلَهَا أَبَدًا وَذَلِكَ سُنةُ الرَّحْمَنِ
كُلُّ إِذَا مَا نَابَهُ أَمْرٌ يُرَى مُتَوَجِّهًا بِضُرُورَةِ الْإِنْسَانِ
نَحْوَ الْعُلُوِّ فَلَيْسَ يَطْلُبُ خَلْفَهُ وَأَمَامَهُ أَوْ جَانِبَ الْإِنْسَانِ

قال ابن القيم في الصواعق (/ ١٢٨١): وجميع الطوائف تنكر قول المعطلة؛ إلا من تلقاه منهم، وأما العامة من جميع الأمم ففطرهم جميعهم مقرة بأن الله فوق العالم. اهـ

ومع أن العلو ثابت بالكتاب والسنة حتى ولو لم تدل عليه العقول لوجب الإيمان بما أخبر الله تعالى به وانتفاء الدليل لا يدل على انتفاء المدلول، فالعلو ثابت بدلالة السمع الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومع ذلك قد دل العقل على هذه الصفة من عدة وجوه:

الوجه الأول: أنه ليس ثم إلا علو أو سفلى، والعلو صفة كمال، والسفل صفة نقص، والله جل وعز متنزّه عن النقائص. قال الله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]، ومعلوم من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله لا تحيطه المخلوقات ولا تحويه جل وعز، وقد تقدم أنه متنزّه عن السفلى، فثبت أنه في العلو جل وعز، ولكن المعطلة قومٌ بهت لا يعقلون حديثاً، مسخت فطرهم وتبلدت أذهانهم، فلا يعرفون إلا ما أشرب من هواهم، فنعوذ بالله من الخذلان.

وزاد ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص ٣٢٥): الثاني: أنه لما خلق العالم، فإما أن يكون خلقه في ذاته أو خارجاً عن ذاته، والأول باطل: أما أولاً: فبالاتفاق، وأما ثانياً: فلأنه يلزم أن يكون محلاً للخسائس والقاذورات - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -.

والثاني: يقتضي كون العالم واقعاً خارج ذاته، فيكون منفصلاً، فتعينت المباينة؛ لأن القول أنه غير متصل بالعالم وغير منفصل غير معقول.

الثالث: أن كون الله لا داخل العالم ولا خارجه ينفي وجوده بالكلية. اهـ

🕯 شبه المعطلة على أن الله في كل مكان:

الشبهة الأولى: استدلالهم بقول الله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وسيأتي بيانها وقول المسلمين فيها.

الشبهة الثانية: استدلالهم بقول الله : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، قالوا إذاً هو في السماء وفي الأرض، ولأهل العلم في الآية قولان:

الأول: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ﴾، أي معبود و﴿وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾، أي معبود، لأن الإله هو المعبود.

الثاني: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ﴾ أي موجود، و﴿وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ أي معبود.

ويستدلون على قولهم الفاسد بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣]

ولا دلالة لهم فيها فالمعنى الحق على ما تقدم في الآية الأولى من كون الإله هو المعبود، والمعنى الثاني يكون (وهو الله في السموات) أي موجود، (وفي الأرض يعلم سركم وجهركم)،

الشبهة الثالثة: أن المراد بالفوقية فوقية القدر.

وهذا القول من أسمح ما يقال في هذا الباب، قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص ٣٢٣): فإن قول القائل: ابتداء الله خير من عبادته، وخير من عرشه هو من جنس قول القائل: الثلج بارد والشمس حارة، والشمس أضوء من السراج، ورسول الله أفضل من فلان اليهودي، والسماء فوق الأرض، وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم، ولا مدح، بل هو من أرذل الكلام وأسمجه

وأهجنه، فكيف بكلام الله الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، بل في ذلك تنقص كما قيل:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ الْعَصَا

ولو قال قائل: الذهب فوق قشر البصل، وقشر السمك، لضحك منه العقلاء للتفاوت الذي بينهما، فإن التفاوت بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم بخلاف ما إذا كان المقام يقتضي ذلك، بأن كان احتجاجاً على مبطل كما في قول يوسف: ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، وقوله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠]، وإنما يثبت هذا المعنى من الفوقية في ضمن إثبات الفوقية المطلقة من كل وجه، فله فوقية القهر وفوقية القدر وفوقية الذات، من أثبت البعض ونفى البعض فقد تنقص، وعلوه سبحانه مطلق من كل الوجوه.

اهـ

الشبهة الرابعة: أن السماء قبلة الدعاء.

والرد عليهم من وجوه:

الأول: لو كانت السماء قبلة الدعاء للزم التوجه إليها عند الدعاء، وهذا لم يرد عن رسول الله ولا عن الصحابة الكرام ولا التابعين لهم بإحسان، بل ورد أنه كان يستقبل القبلة في كثير من دعائه كما في حديث عبدالله بن زيد المتفق عليه أنه خرج يستسقي فاستقبل القبلة يدعو، وكما في حديث جابر عند مسلم في وصف حجة الوداع وأنه استقبل القبلة يدعو طويلاً في كل

وقوف على الصفا والمروة، ولما كان في عرفة استقبل القبلة يدعو.. الحديث بطوله، إلى غير ذلك من الأدلة.

الثاني: أنه قد ورد النهي عن استقبال السماء ورفع البصر إليها عند الدعاء قال رسول الله : «لَيَنْتَهَيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ رَفْعِهِمْ أَبْصَارَهُمْ عِنْدَ الدُّعَاءِ فِي الصَّلَاةِ إِلَى السَّمَاءِ، أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ»، الحديث أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة وجاء من حديث أبي هريرة بمعناه.

الثالث: أن رسول الله قد رغب في الدعاء في السجود وحال الساجد مستدبراً للسماء كما هو معلوم، قال رسول الله كما في حديث ابن عباس : «وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنْ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»، أخرجه مسلم .

الرابع: أن هذا قول قول محدث لم يقله أحد من السلف إلى غير ذلك من الأوجه التي ذكرها أهل العلم.

القول في المعية

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

تضمنت هذه الآيات إثبات صفة المعية لله وهي من الصفات الذاتية وهي على حقيقتها ولكن ما حقيقتها؟ المبتدعة ظنوا أن حقيقة (مع) الاختلاط والاتحاد وهذا ليس بصحيح لأوجه:

الأول: إن لفظة (مع) في لغة العرب إنما تدلّ على مطلق مصاحبة مثل قولهم (ما زلت أسير والقمر معي) والقمر في السماء الرابعة على الصحيح وهو يمشي على الأرض ومثل قول أحدهم (زوجتي معي وهي في بلد وهو في آخر) ومثل

قولهم (سرت مع زيد) وزيد لا متحد فيك ولا مختلط بك ومثل (ما زلت أسير والمتاع معي) وهو على ظهره.

الثاني: دلالة القرآن والسنة على خلا ما قالوه، فإن الله تعالى افتتح هذه الآية بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤]، ففيها إثبات صفة استواء الله تعالى على العرش، والعرش في السماوات وهو سقف الجنة وهو أعلى المخلوقات، ثم قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ [الحديد: ٤]، فيه إثبات صفة العلم لله ، والولوج هو ما يدخل في الأرض وما يخرج منها أي ما يخرج من بطنها، ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [] من الأمطار والبركات وغير ذلك: ﴿وَمَا يَرْجُ فِيهَا﴾ من الملائكة ثم قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، فتضمنت هذه الآية عدة جمل:

الأولى: إثبات صفة الخلق لله .

الثانية: استواء الله على العرش.

الثالثة: بيان علم الله الأزلي الأبدي الذي لم يسبق بهجهل ولا يلحقه نسيان المحيط بكل شيء: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

الرابعة: لإثبات المعية، وهي معية عامة ويُراد بها معية العلم والإحاطة والسلطان والقهر والبصر وغير ذلك من خصائص ربوبيته. وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إخبار أنه يُبصر ما عليه عباده من الأعمال والأقوال ومن زعم أن (معكم) تقتضي الاختلاط والاتحاد؟ فيرد عليهم هذه الآية، نقول لهم يا معشر من لم يفقه كلام الله أليس لكم عقول تفهمون بها وقلوب

تتفكرون بها وأعينٌ تُبصرون بها ألم يذكر الله في هذه الآية أنه استوى على العرش والاستواء بمعنى العلو، وأخبر الله أنه بصير بأعمالنا وأخبر بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ فلا وجه لها إلا أنه معنا بعلمه وبصره وهو على عرشه وكلام الله لا يتناقض: ﴿لَا يَأْنِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال الله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فنحن نؤمن بالآية على ظاهرها وظاهرها أن الله مستوٍ على عرشه وظاهرها أن الله عليم بما نعمل وظاهرها أن الله معنا ببصره وظاهرها أن معية الله معية علم وإحاطة وسلطان وغير ذلك من خصائص الربوبية.

وأما آية المجادلة وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، افتتح الله هذه الآية بالعلم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ واختتمها بالعلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فدل أن المعية معية علم وإحاطة لأن كلام العرب يُعرف بسابقه ولاحقه ويُعرف بسياقه، يقول الله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ ولو كان الله مختلطاً بهم أو متحدًا لكانت الآية: (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو ثالثهم ولا أربعة هو رابعهم ولا خمسة إلا هو خامسهم) فعن أبي مسعود أن رجلاً من الأنصار يقال له أبو شعيب كان له علامة لحام فقال له أبو شعيب اصنع لي طعاماً خمسة لعلِّي أدعو النبيَّ خامس خمسة. أخرجه البخاري (٢٤٥٦)

ومسلم (٢٠٣٦)، لأنه من جنسهم، لكن إذا كان من غيرهم يخرج عنهم كما قال تعالى أيضاً: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢].

القول في المعية الخاصة:

وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنْكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، هذه في حق الرسول وأبي بكر ، وذلك لما كان وأبو بكر في الغار قال أبو بكر : لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: «مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا»، من حديث أبي بكر عند البخاري (٣٦٥٢) ومسلم (٢٣٨١)، فأنزل الله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنْكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾، وهي معية مقتضية للنصر والتأييد، والمعية العامة يشترك فيها المؤمن والكافر والبرّ والفاجر وكلّ من في السماوات والأرض هو معهم مُطَّلِعٌ عليهم وعليهم بهم إلى غير ذلك ولكن المعية الخاصة هي التي تقتضي نصراً وحفظاً وتأييداً وكلاءةً.

وقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، في حق موسى وهو معهم حقيقة، وحقيقتها أنه يسمع كلامهما ويرى مكانكما كما قال تعالى: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، وهي مقتضية للنصر، والحظ والتأييد.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

في هذه الآية إثبات المعية الخاصة وهي مقيدة هنا بوصف، أي مع كل من اتصف بهذه الصفات الحميدة، فهو تعالى مع المحسنين، والمتّقين، والصادقين.

وقوله: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

تقتضي هذه المعية، معية نصر وإحاطة وحفظ وكلاءة، وفي الآية الحث على الصبر والصبر أنواع:

🕯️ **النوع الأول:** صبر على طاعة الله .

🕯️ **النوع الثاني:** صبر عن معاصي الله .

🕯️ **النوع الثالث:** صبر على أقدار الله .

وقوله: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

هذه الآية في شأن قوم طالوت لما قاتلوا أصحاب جالوت ولم يبق مع طالوت إلا عدد يسير ومع ذلك نصرهم الله وأخبر أن الله مع الصابرين وسيأتي مزيد كلام على صفة المعية بتوسّع في موطن آخر إن شاء الله تعالى.

إثبات صفة الكلام لله

قال :

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦]، قال : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، قال : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال : ﴿وَنَادَيْتَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْنَاهُ نَحِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقال : ﴿وَنَادَيْنَاهُمَا رُبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقال : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

تضمنت هذه الآيات مع غيرها مما يأتي من أدلة الكتاب والسنة، الإخبار عن صفة الكلام لله ، وعقيدة أهل السنة في هذا الباب أنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وهو يتكلم بحرف وصوت يسمع على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

ومما يدل على أن الله متكلم بحرف، قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى﴾ [آل عمران: ٥٥]، و(يا) حرف نداء وكلمة (عيسى) تتكون من أحرف

وقوله تعالى: ﴿يَمُوسَى﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقد ألف السجزي رسالة لأهل زبيد في إثبات الحرف والصوت نقل منها شيخ الإسلام كثيرًا كما في مجموع الفتاوى .

والصوت يدلّ عليه قول النبيّ كما في حديث أبي سعيد ، قال الرسول : «يَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا آدَمُ يَقُولُ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ فَيَنَادِي بِصَوْتٍ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعَثْنَا إِلَى النَّارِ قَالَ يَا رَبِّ وَمَا بَعَثَ النَّارِ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ أَرَاهُ قَالَ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ» ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ : «مَنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا. رواه البخاري (٤٧٤١)، فقد صرح النبيّ أن الله يتكلّم بصوت والصوت، إمّا أن يكون مرتفعًا أو يكون خافتًا، وقد أخبر الله تعالى أنّه نادى موسى ، وناجاه قال الله تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، وفي حديث جابر الذي علّقه البخاري قبل حديث رقم (٧٤٨١) وهو من رواية محمد بن عبد الله بن عقيل وفيه ضعفٌ والبخاري يُقَوِّي حديثه، قال الرسول : «يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ، فَيَنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ».

وكلام الله منه بدأ قولاً وتكلم به وإليه يعود أي قبل يوم القيامة حيث يُرفع من صدور الرجال كما في حديث حذيفة عند ابن ماجه (٤٠٤٩)، قال الرسول : «يُدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيْسَرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ، يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَتَحْنُ نَقُولُهَا» فَقَالَ لَهُ صَلَةٌ: مَا تُغْنِي عَنْهُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهُمْ لَا يَدْرُونَ مَا صَلَاةٌ، وَلَا صِيَامٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِ ثَلَاثًا، كُلَّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَالَ: (يَا صَلَةٌ، تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ)، وقد يستدلون بهذا الحديث على أن تارك الصلاة ليس بكافر ولا دلالة في الحديث لأن الحديث يدل على أن الناس لا يعرفون صلاةً ولا صياماً ولا حجاً، ولا يعرفون شيئاً من شعائر الإسلام مفصلاً وإنما يعرفون من شعائر الإسلام (لا إله إلا الله)، فلمّا عرفوا أنها من شعيرة الإسلام قالوها فكانوا مسلمين وهذا من أدلة العذر بالجهل.

وقد كلم الله آدم ، ففي حديث أبي أمامة عند أحمد (٢٢٢٨٨) سُئِلَ النَّبِيُّ : أَيُّ الْأَنْبِيَاءِ كَانَ أَوَّلَ؟ قَالَ: «آدَمُ». قَالَ: قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ: أَوَ نَبِيٍّ كَانَ آدَمُ قَالَ: «نَعَمْ. نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ رُوحَهُ». وكلام الله له في القرآن: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفَّاءٌ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ

يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٣٠﴾.

ويُكَلِّمُ الله أهل الجنة، كما قال النبي فيما يرويه عن ربه جلّ وعلا: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَآيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»، من حديث أبي سعيد عند البخاري: (٦٥٤٩) ومسلم (٢٨٢٩).

ويُكَلِّمُ الله أهل الموقف كما قال النبي: «يَطْوِي اللهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَتَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَتَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ - قَالَ ابْنُ الْعَلَاءِ: - بِيَدِهِ الْأُخْرَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَتَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَتَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟» من حديث عبدالله بن عمر في الصحيحين وأبي داود (٤٧٣٢) وهذا لفظه. وفي حديث أبي هريرة

عن النبي: «فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ...»، أخرجه البخاري (٨٠٦) ومسلم (١٨٢). وكَلَّمَ اللهُ مُحَمَّدًا وكَلَّمَ موسى وعيسى إلى غير ذلك مما ثبتت به الأدلة، وكذلك قال الرسول: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَجِبْهُ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٠٤٠)

ومسلم (٢٦٣٨). وكَلَّمَ جِبْرِيلَ في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عند مسلم (٢٠٢) أَنَّ النَّبِيَّ: تَلَا قَوْلَ اللهِ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنِّي هُنَّ أَضَلَّلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] الآية، وقال عيسى

: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي»، وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلِّمْهُ مَا يُبْكِيكَ؟» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللَّهُ: «يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنَرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوؤُكَ». وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ وَعِنْدَهُ خَدِيجَةُ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُفَرِّئُ خَدِيجَةَ السَّلَامَ» فَقَالَتْ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ، وَعَلَى جِبْرِيلَ السَّلَامُ، وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. أخرجه النسائي في الكبرى (٨٣٥٩).

وأدلة كلام الله كثيرة، ومن السنة على ما تقدم إذ الأحاديث في السنة بلغت حد التواتر في إثبات صفة الكلام لله نذكر منها قطعاً تكون نوراً للمستبصر وحجة على الزائغ المتكبر.

ومنها: ما أخرجه البخاري رقم (٣٢٢٨) ومسلم رقم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة : أن النبي قال: «اِحْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيِّتْنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى، اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُوْمْنِي عَلَى أَمْرِ قَدَرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟». فَقَالَ النَّبِيُّ : «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى».

وما أخرجه أحمد وغيره (٣/ ٣٩٠) من حديث جابر بن عبد الله : أن رسول الله كان يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول: «هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أَبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي» الحديث صحيح وهو في الصحيح المسند .

ومنها: حديث أبي أمامة عند ابن حبان وغيره (٢٠٨٥) أن رجلاً قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْبِيَا كَأَن آدَمُ؟ قال: «نَعَمْ، مُعَلَّمٌ مُكَلَّمٌ»، الحديث صححه شيخنا الوادعي في صحيحه المسند .

ومنها: حديث أبي سعيد عند الشيخين البخاري رقم (٣١٧٠) ومسلم رقم (٢٢٢): أن رسول الله قال: «يَقُولُ اللَّهُ : يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارَ قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارَ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ قَالَ: فَذَلِكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا» الحديث.

ومنها: حديث أنس عندهما، البخاري رقم (٣١٦٢) ومسلم رقم (١٩٣): أن رسول الله قال في حديث الشفاعة الطويل: «فَيَقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ: يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ...» الحديث.

وحديث عدي بن حاتم: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ رَبُّهُ» متفق عليه.

والنصوص عن السلف الصالح من الصحابة وغيرهم على إثبات كلام الله كثيرة جداً نذكر منها ما تيسر:

منها: ما أخرجه البخاري (٢٥١٨) ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة قالت: (والله ما كنت أظن أن الله ينزل براءتي وحيًا يتلى، ولشأني في نفسي أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمرٍ يتلى...) الحديث.

وأخرج الدارمي في رده على الجهمية عن عمرو بن دينار (٨٨) قال: (أدركت أصحاب النبي فمن دونهم منذ سبعين سنة يقولون: الله خالق وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله منه خرج وإليه يعود).

قال إسحاق بن راهويه بعد ذكر قول عمرو بن دينار كما عند البيهقي في الأسماء والصفات : (وقد أدرك عمرو بن دينار أجلة أصحاب النبي من البدرين والمهاجرين والأنصار مثل: جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وأجلة التابعين. وعلى هذا مضى صدر هذه الأمة).

وأخرج الدارمي أيضًا بسند صحيح (ص ٨٨) عن جعفر بن محمد: أنه سئل عن القرآن خالق أو مخلوق؟ قال: (ليس بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله).

وأخرج أيضًا بسنده عن عبد الله بن المبارك، عند أن سئل عن القرآن: فقال: (هو كلام الله غير مخلوق). وبهذا القول قال بقية بن الوليد والقاسم الجزري، والمعافى بن عمران وغيرهم كثير، وهو قول أهل السنة قاطبة من السلف والخلف ولا يخالف هذا إلا جهمي خبيث.

قال البخاري في خلق أفعال العباد (ص ٣٧): (القرآن كلام الله غير مخلوق).

قال الصابوني في رسالته في السنة : (ويشهد أصحاب الحديث ويعتقدون أن القرآن كلام الله وكتابه وخطابه ووحيه وتنزيله، غير مخلوق، ومن قال بخلقه واعتقده فهو كافر عندهم).

وقد قال اللالكائي -وهو أبو القاسم هبة الله بن الحسن الطبري - في كتابه شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٣١٢) رقم (٣٩٣) بعد أن ذكر العلماء الذين قالوا: بأن القرآن كلام الله غير مخلوق من البلخييين والنيسابوريين وأهل خراسان وأهل الحجاز واليمن والشام ومصر وغيرها من البلدان، قال: قالوا: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر، فهؤلاء خمسمائة وخمسون نفساً أو أكثر من التابعين والأئمة المرضيين سوى الصحابة الخيرين على اختلاف الأعصار ومضي السنين والأعوام.

وقد أفتى كثير من العلماء بقتل من قال: إن القرآن مخلوق، نقل ذلك أبو القاسم هبة الله اللالكائي عن جماعة منهم: مالك بن أنس إمام دار الهجرة، ومفتيها، قال: (من قال القرآن مخلوق يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه). وأفتى به أيضاً سفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن مهدي، ووكيع بن الجراح وغيرهم كثير.

وقد أفتى أيضاً غير واحد من أهل العلم: أن امرأته تحرم عليه لأنه كافر وامراته مسلمة، كعبد الله بن المبارك وأبو الوليد الطوسي.

وقد أفتى أيضاً جمع منهم أحمد بن حنبل وسفيان بن عيينة وحماد بن زيد والثوري ويزيد بن هارون، وأبو معاوية الضرير والربيع بن سليمان المرادي وغيرهم أنهم لا يورثون ولا يصلح خلفهم ولا تعاد مرضاهم ولا تشهد جنازتهم وإن موالاة الإسلام انقطعت بينهم وبين المسلمين. اهـ

ثم إن الكلام صفة كمال ومعطي الكمال أولى به، المتكلم أكمل من الأبكم، ولو كان الله لا يتكلم لقال قوم إبراهيم لإبراهيم لما عيّرهم بأن أهتهم لا تتكلم وربك يتكلم.

قال الله تعالى مخبراً عنهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، فقال لهم: ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧]، وقال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتِ بِمِثَالِ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]، فلو كان الله لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم لقال كفار ذلك الزمن لإبراهيم (وربك لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم) لكن لما كان الله متصفاً بالكمال المطلق من كل وجه وأهتهم متصفة بالنقص من كل وجه عمدوا إلى تعذيبه وإحراقه، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، والمبطل ينتقل إلى القوة إذا عجز عن الحجة اللسانية، ففرعون لما وقع بينه وبين موسى ما قصه الله تعالى عمد إلى القوة قال تعالى مخبراً عنه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٣) قَالَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَنْ اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٩].

بقي قول النبي وقول الله : «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، لا يكلمهم كلام رحمة وإلا فإن الله يُنادي أهل الموقف جميعاً قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ

الْمُرْسَلِينَ ﴿[القصص: ٦٥]، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عندما قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ»، قَالُوا لَا. قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ». قَالُوا لَا، قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قَالَ: فَيَلْقَى الْعَبْدُ فَيَقُولُ أَيُّ فُلٍ أَلَمْ أُكْرِمَكَ وَأُسَوِّدَكَ وَأَزَوَّجَكَ وَأَسَخَّرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعُ فَيَقُولُ بَلَى. قَالَ فَيَقُولُ أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ فَيَقُولُ لَا. فَيَقُولُ فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِي فَيَقُولُ أَيُّ فُلٍ أَلَمْ أُكْرِمَكَ وَأُسَوِّدَكَ وَأَزَوَّجَكَ وَأَسَخَّرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعُ فَيَقُولُ بَلَى أَيُّ رَبِّ، فَيَقُولُ أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ فَيَقُولُ لَا. فَيَقُولُ فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرُسُلِكَ وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ. وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ فَيَقُولُ هَا هُنَا إِذَا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ. وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ فَيُخْتَمَ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِفَخْدِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ انْطِقِي فَتَنْطِقُ فَخِذَهُ وَلَحْمَهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ وَذَلِكَ لِيُعْذَرَ مَنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ»، من حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٩٦٨).

وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، فيه إثبات الحديث لله

وأنه يتكلم، وفيها إخبار أن أخبار الله تعالى في أعلى مراتب الصدق.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، فيه إثبات القول لله

والحديث والقول يكون بحرف وصوت.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَحْيَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦]، فيه إثبات القول لله وأنه بحرف وصوت.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، فيه إثبات الكلمة لله وقد استعاذ النبي بكلمات الله فلو كانت مخلوقة ما جاز الاستعاذة بمخلوق، قال النبي: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»، من حديث خولة بنت حكيم السلمية عند مسلم (٢٧٠٨) ومن حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٧٠٩)، وفي رواية قال: «أَعُوذُ بِوَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ، وَكَلِمَاتِهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ، وَمَا يُخْرَجُ مِنْهَا، وَمِنْ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ، يَا رَحْمَنُ»، من حديث عبدالله بن مسعود في الكبرى للنسائي (١٠٧٩٢).

وهل يجوز أن يُستعاذ بالمخلوق من كل شر والاستعاذة بالمخلوقين فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك وكفر فيلزم على حد قولهم أن النبي وقع في الشرك والكفر وحاشاه إذ استعاذ بكلمات الله التامة.

ومن الأوجه على أن الله تعالى متصف بالكلام أن الكلام معنى يقوم بغيره، فإضافته إلى الله إضافة صفة إلى موصوف ولما تناظر عبدالعزيز مع بشر المريسي عليه لعنة الله قال له: تقول إن كلام الله مخلوق. فقال: إن القرآن مخلوق، قال عبدالعزيز فقلت له يلزمك واحدة من ثلاث لا بد أن تقول إن الله خلق

القرآن وهو عندي أنا كلامه في نفسه، أو خلقه في غيره، أو خلقه قائما بذاته ونفسه فقل ما عندك.

قال بشر: أقول إنه مخلوق وإنه خلقه كما خلق الأشياء كلها. قال عبدالعزيز فقلت: يا أمير المؤمنين تركنا القرآن والسنن والأخبار عند هربه منها وناظرناه بالقياس والكلام لما ادعاه وذكر أنه يقيم الحجة علي به وإني أقر معه بخلق القرآن، فقد رجع بشر إلى الحيدة عن الجواب وانقطع الكلام فإن كان يريد مناظرتي على أنه يجيبني عما أسأله عنه وإلا فأمر المؤمنين أعلا عينا في ما يراه في صر في فإنما يريد بشر أن يقع معه من لا يفهم فيحيد عن دينه ويحتج عليه بما لا يعقله فتظهر حجته عليه فيبيح بذلك دمه.

قال فأقبل عليه المأمون فقال: أجب عبدالعزيز عما سألك فقد ترك قوله ومذهبه وناظرك على مذهبك وما ادعيت أنك تحسنه وتقيم الحجة به عليه.

فقال بشر: قد أجبتك ولكنه يتعنت. فقال له المأمون: يأبى عليك عبدالعزيز إلا أن تقول واحدة من ثلاث.

قال: هذا بشر من مطالبته بالتنزيل ما عندي غير ما أجبت به.

قال عبدالعزيز: فأقبل علي المأمون فقال يا عبدالعزيز تكلم أنت في شرح هذه المسألة وبيانها ودع بشرًا فقد انقطع عن الجواب من كل جهة.

فقلت: يا أمير المؤمنين سألته عن كلام الله مخلوق هو قال: نعم. فقلت له ما صح يلزمك في هذا القول وهو واحدة من ثلاث لا بد منها أن تقول إن الله خلق كلامه في نفسه، أو خلقه في غيره، أو خلقه قائما بذاته. فإن قال إن الله

خلق كلامه في نفسه فهذا محال لا يجد السبيل إلى القول به من قياس ولا نظر معقول لأن الله لا يكون مكانا للحوادث ولا يكون فيه شيء مخلوق ولا يكون ناقصاً فيزيد فيه شيء مخلوق، ولا يكون ناقصاً فيزيد فيه شيء إذا خلقه تعالى الله عن ذلك وجل وتعاضم. انتهى

وقوله: ﴿صَدَقَ وَعْدًا﴾ صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام أي ما أخبر به الله كان كما قال الله ، إن أخبر عن أمور ماضية فهي كما قال الله فهو أعلم، وإن أخبر عن أمور آتية ستكون كما قال الله صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، والأحكام هي الأوامر والنواهي.

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، هذه الآية العظيمة ثقلت على المعتزلة حتى أن أحدهم يتمنى أن يُحْكَمَ من المصحف بل جاء في ترجمة بعضهم أنه قرأ القرآن حتى أتى إلى سورة القصص فركل المصحف برجله وقال (هنا أيضاً) يعني يُذكر موسى (ونادينا) هم ما يريدون أن يقرأوا قال الله ولا نادى ولا ناجى ولا شيء من ذلك في إثبات الكلام وبعضهم كان يُجالس عمرو بن عُبيد فرأى رؤيا في المنام وعمرو بن عُبيد يقول (وددت لو أنني أمسح آية من القرآن) فقال له ما هي؟ فقال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، قهرتهم لأنهم لا يستطيعون تأويلها، (كَلَّمَ) فعل ماضي و(الله) لفظ الجلالة فاعل، (موسى) مفعول به إذ هو المُكَلَّم و(تَكْلِيمًا) مفعول مطلق، مصدر مؤكد للفعل وهذا يمنع المجاز، وجاء بعضهم إلى أبي عمرو بن العلاء وقال: أقرأ (وكَلَّمَ الله موسى تَكْلِيمًا) يعني حَرَفَ اللفظ فقال (هب أنني قرأت وكَلَّمَ الله موسى تَكْلِيمًا)، فماذا تقول في قول الله : ﴿وَلَمَّا جَاءَ

مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴿١٤٣﴾ [الأعراف: ١٤٣]، إذ الضمير يعود إلى الرب الذي هو أقرب مذكور.

وقال الله : ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، أي الأنبياء ومن امتن الله عليه بالكلام واختصه به، وهذه مزية زائدة على مزية الرسالة والنبوة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ [الشورى: ٥١]، فبعض الأنبياء يُكَلِّمهم الله من وراء حجاب، وقال النبي : «يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَشْهَدَ أَبِي، وَتَرَكَ عِيَالًا وَدِينًا، قَالَ: «أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ؟» قَالَ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَخِيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا»، من حديث جابر بن عبد الله عند الترمذي (٣٠١٠)، ابن ماجه (١٩٠)، وقال النبي : «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ»، من حديث عدي بن حاتم عند البخاري (٦٥٣٩) ومسلم (١٠١٦)، وأيضًا قالت : «وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحْيًا، وَلَآنَا أَحَقُّرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ فِي أَمْرِي وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ»، أخرجه البخاري (٢٦٦١).

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وكان هذا الميقات بعد أن امتن الله تعالى على موسى وقومه بالسلامة من فرعون، وأعطاه الله فيه الكتاب قال تعالى مبينا ذلك: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ

وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا
 عَشْرًا فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي
 وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ
 رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرِنِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ
 فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ
 سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ [الأعراف: ١٤١-١٤٣]

وقوله: ﴿وَنَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

على ما تقدم، فيها إثبات الكلام والحرف والصوت.

قال السعدي :

﴿وَنَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي: الأيمن من موسى في وقت مسيره، أو
 الأيمن: أي: الأبرك من اليمن والبركة. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَنَّ
 بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨] ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ والفرق بين النداء والنجاء،
 أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفي هذه إثبات الكلام لله
 تعالى وأنواعه، من النداء، والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافا
 لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة، ومن نحنا نحوهم. انتهى

قوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]، وهذا لا
 يكون إلا بصوت إذ نادى الله موسى ، ونبأه، وأرسله إلى فرعون عليه
 لعائن الله تترى قال تعالى في سياق ذلك: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ﴾ ١٠ ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَنْقُوتُ﴾ ١١ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ١٢ ﴿وَيَضِيقُ
 صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ ١٣ ﴿وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾

﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿الشعراء: ١٠-١٧﴾.

وقوله: ﴿وَقَادَنَهُمَا رَبُّهُمَا الْهَرُّ أَنَّهُمَا عَنِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، هذا النداء لأدم وزوجه حواء حين أغواهما أبلis وأكلا من الشجرة التي نهاهم الله عنها وكان ما قصه الله تعالى في القرآن: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٣-٢٤]، وساقها المصنف لإثبات صفة الكلام، والحرف، والصوت.

وقوله فيه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، في الآية إثبات كلام الله لأهل الموقف يوم القيامة.

قال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب : قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] الآية، هذه الآية الكريمة تدل على أن الله يسأل جميع الناس يوم القيامة ونظيرها قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]، وقوله: ﴿وَقَفُّهُمْ إِلَيْهِمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك كقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وكقوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه:

الأول: وهو أوجهها لدلالة القرآن عليه وهو أن السؤال قسمان: سؤال توبيخ وتقرير، وأداته غالبا (لم)، وسؤال استخبار واستعلام وأداته غالبا (هل) فالمثبت هو سؤال التوبيخ والتقرير، والمنفي هو سؤال: الاستخبار والاستعلام، وجه دلالة القرآن على هذا أن سؤاله لهم المنصوص في القرآن كله توبيخ وتقرير كقوله: ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا نَنَاصِرُونَ ﴿[الصافات: ٢٤-٢٥]، وكقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]، وكقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وكقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨]، إلى غير ذلك من الآيات، وسؤال الله للرسول ماذا أجبتم لتوبيخ الذين كذبوهم كسؤال المؤودة بأي ذنب قتلت لتوبيخ قاتلها.

الوجه الثاني: أن في القيامة مواقف متعددة ففي بعضها يسألون وفي بعضها لا يسألون.

الوجه الثالث: هو ما ذكره الحلبي من أن إثبات السؤال محمول على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، وعدم السؤال محمول على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه، ويدل لهذا قوله تعالى فيقول: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ والعلم عند الله تعالى. انتهى

شبهة: إذا قال شخص (إذا قلنا أن الله يتكلم) لزم أن ثبت الشفتين؟. نقول الله يتكلم بحرف وصوت ولا يلزم من إثبات الكلام إثبات الأحبال الصوتية أو إثبات اللسان أو إثبات الجوف الذي يخرج منه الهواء، كل هذا تحرّصات فالله يُخبرنا أنه متكلم وجب علينا أن نؤمن بأنه يتكلم كيف يشاء،

وقد تكلم الحجر كما في حديث جابر بن سمرة عند مسلم (٢٢٧٧)، قال الرسول : «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجْرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ»، حجر يقول: (السلام عليك يا رسول الله). وقال الله : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥]، وليس فيها أحبال صوتية ولا لسان وليس فيها جوف، قال عبدالله بن مسعود : كان الحصى يُسَبِّح بين يدي النبي . أخرجه البخاري.

القول في القرآن

قوله :

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، قال : ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، وقال : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ فُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ [الفتح: ١٥]، وقال : ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [النمل: ٧٦].

أشار في هذه الآيات إلى عقيدة أهل السنة والجماعة في القرآن، وناسب ذكر ذلك بعد أن بين طريقة أهل السنة والجماعة في كلام الله تعالى من حيث هو، والله تكلم بالقرآن حقيقة فهو تنزيله، قال الله تعالى: ﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿فصلت: ١-٢﴾، وقال تعالى: ﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿[الزخرف: ١-٣]، وقال: ﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿[الدخان: ١-٣]، وقال : ﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿[غافر: ١-٢]، وكلامه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال الله : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]،

وقوله قال الله : ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥].

وأجمع المسلمون على أن كلام الله غير مخلوق منه بدأ قولاً وإليه يعود، أما منه بدأ قولاً فقد تقدّم قال الله : ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، و(من) للابتداء فالله تكلم بالقرآن وسمعه منه جبريل وسمعه النبي من جبريل ولهذا قد يحلف المسلمون بالقرآن ولا نكير فيه، ويمينه منعقدة بخلاف من حلف بغير الله وقد نُقل الإجماع على أن اليمين لا تنعقد إلا إذا كان الحالف حالفًا بالله والنبي يقول: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ، وَلَا بِالْأَنْدَادِ، وَلَا تَحْلِفُوا إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْلِفُوا بِاللَّهِ إِلَّا وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ»، من حديث أبي هريرة عند أبي داود (٣٢٤٨) والنسائي (٣٧٦٩)، فالحلف بالقرآن حلف بصفة من صفات الله كمن يحلف بعزة الله ويستعيذ بكلمات الله ويحلف بالقرآن فكل هذا جائز وصائب.

تنبيه: لا يجوز الحلف بالمصحف لأن المصحف يتكوّن من الأوراق والحبر والجلد وكل هذه مخلوقة والحلف بالمخلوق لا يجوز فهو شرك والأصل في الحلف بغير الله أنه شرك أصغر إلا إذا اقترن به تعظيم مثل تعظيم الله أو أكثر فإنّه شرك أكبر مخرج من الملة.

تنبيه آخر: ما يفعله كثر من الناس وهو الحلف على المصحف، فهذه بدعة لم تكن على عهد النبي ولا على عهد أصحابه وإنّما هي طريقة محدثة أخذها المسلمون من المبتدعة ولعلّها أيضًا من اليهود والنصارى.

ونعود إلى مسألتنا وهي أنّ كلام الله غير مخلوق فمن زعم أنّ القرآن مخلوق فقد كفر وقد نقل اللالكائي تكفير من قال بخلق القرآن عن خمسمئة وخمسين عالماً من علماء المسلمين في جميع الأمصار، قال ابن القيم في النونية:

وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرُهُمْ حَمْسُونَ فِي عَشْرِ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ
وَاللَّالِكَايِيُّ الْإِمَامُ حَكَاهُ عَنْهُمْ بَلْ حَكَاهُ قَبْلَهُ الطَّبْرَانِيُّ
وهذا إجماع. وقد كفر الأئمة بشر المريسي وغيره ممن قال بخلق القرآن.

وفتنة القول بخلق القرآن معلومة ذكرها الذهبي في السير ، وابن كثير في البداية والنهاية ، وذكرها صالح في المحنة وذكرها غير واحد وهي أنّ المأمون تأثر بابن أبي دؤاد فدعا الناس إلى القول بخلق القرآن وامتحنهم بذلك فمن أجاب تركوه ومن أبى عذّبه وقتلوه وممن ابتلي وصبر الإمام أحمد بن محمد بن حنبل ، إمام أهل السنة، سجنوه سنتين وثمانية أشهر أو نحو من ذلك وعذّبه عذاباً شديداً من أجل أن يقول إنّ القرآن مخلوق وهو يقول اتّوني بأية من كتاب الله أو حديث عن رسول الله فأقول به، فكان الخليفة يقول له: (يا أحمد، قل مخلوق حتّى أفكّ عنك بيديّ) وكان ابن أبي دؤاد يقول: (اقتله يا أمير المؤمنين ودمه في عنقي، اقتل هذا الكافر)، ولهذا قال علي بن المديني: (نصر الله الدين برجلين بأبي بكر في الردّة وبالإمام أحمد في المحنة) ثم انتصر الحق وانتصرت السنة وأنّ القول بخلق القرآن كفر لأنّ القرآن من الله وما كان من الله فليس بمخلوق وقد احتجّ سفيان بن عيينة على بشر المريسي بقول الله : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فقال (يا دويبة ألم تر أنّ الله فرّق بين الخلق والأمر)، ونحن نعلم أنّ الخلق إنّما يكون

بأمره قال الله : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، وعيسى كان بكلمة الله، قال النبي: «وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ»، من حديث عبادة بن الصامت عند البخاري (٣٤٣٥) ومسلم (٢٨). أي خلقه الله بكلمته إلى مريم (كن) وليس معنى ذلك أن عيسى هو الكلمة كما ظنّ النصارى وجعلوا يعبدون عيسى من دون الله ، وإِنَّمَا كان وجود عيسى بكلمة الله ، وذكر الأجرى في الشريعة بسنده عن يحيى بن يوسف الزمّي، قال: بَيْنَا أَنَا قَائِلٌ فِي بَعْضِ بُيُوتِ خَانَاتِ مَرْوٍ فَإِذَا أَنَا بِهَوْلِ عَظِيمٍ، قَدْ دَخَلَ عَلَيَّ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: لَيْسَ تَخَافُ، يَا أَبَا زَكْرِيَّا قَالَ قُلْتُ: فَنَعَمْ، مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: وَقُمْتُ وَتَمَيَّأْتُ لِقِتَالِهِ، فَقَالَ: أَنَا أَبُو مَرْة قَالَ: فَقُلْتُ: لَا حَيَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي هَذَا الْبَيْتِ لَمْ أَدْخُلْ، وَكُنْتُ أَنْزِلُ بَيْتًا آخَرَ، وَكَانَ هَذَا مَنْزِلِي حِينَ آتَى خُرَاسَانَ قَالَ: فَقُلْتُ: مَنْ أَتَيْتَ؟ قَالَ: مِنَ الْعِرَاقِ قَالَ وَقُلْتُ: وَمَا عَمِلْتَ بِالْعِرَاقِ؟ قَالَ: خَلَفْتُ فِيهَا خَلِيفَةً، قُلْتُ: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: بَشَرٌ الْمَرْيَسِيُّ، قُلْتُ: وَإِلَى مَا يَدْعُو؟ قَالَ: إِلَى خَلْقِ الْقُرْآنِ قَالَ: وَآتَى خُرَاسَانَ فَأَخْلَفَ فِيهَا خَلِيفَةً أَيُّضًا قَالَ: قُلْتُ: إِيْشٍ تَقُولُ فِي الْقُرْآنِ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا وَإِنْ كُنْتُ شَيْطَانًا رَجِيئًا أَقُولُ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ.

وبشر عليه لعنة الله كانت أمّه تحذّر منه، كانت تقول للشافعي (يا بُنَيَّ لا يغرّنك بشر فإنه زنديق) وقال آخر: (مرّ يهوديُّ فقال يا معشر المسلمين لا يغرّنكم بشر فإنّ أباه قد أفسد علينا ديننا وهذا سيفسد عليكم دينكم).

ناظره غير واحد من أهل العلم وأفحموه ومما ذكر في ترجمته أنه قيل له: (يا بشر أرأيت ما تدع الناس إليه، ألك عليه حجة من كلام الله وكلام رسوله؟) قال (الحجة في خلافه لكن قول دعونا الناس إليه أربعين سنة لا يسعنا الخروج منه) أو نحو هذا.

ومما يدل على أن كلام الله غير مخلوق أن الله تحدى البشر أن يأتوا بمثله أو يأتوا بعشر سور مثله أو يأتوا بسورة مثله قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مِنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مِنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، والعرب أفصح الناس لا سيما قريش ولهذا نزل القرآن بلغتهم فلو كان القرآن كلام البشر لاستطاعت قريش أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو حتى سورة لكن ما استطاعوا لما تقدم، وكان يأتي شعراء العرب إلى النبي فإذا سمعوا كلامه قال (والله لقد قلت الشعر وليس بشاعر ولقد أتيت الكهان وليس بكاهن، ولقد عرفت السحرة وليس بساحر) كما قاله أنيس لما أرسله أخوه أبوذر: خَرَجْنَا مِنْ قَوْمِنَا غِفَارٍ وَكَانُوا يُحِلُّونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ فَخَرَجْتُ أَنَا وَأَخِي أَنِيسٌ وَأُمْنَا فَتَزَلْنَا عَلَى خَالٍ لَنَا فَأَكْرَمَنَا خَالُنَا وَأَحْسَنَ إِلَيْنَا فَحَسَدَنَا قَوْمُهُ فَقَالُوا إِنَّكَ إِذَا خَرَجْتَ عَنْ أَهْلِكَ خَالَفَ إِلَيْهِمْ أَنِيسٌ فَجَاءَ خَالُنَا فَتَنَّا عَلَيْنَا الَّذِي قِيلَ لَهُ فَقُلْتُ لَهُ أَمَّا مَا مَضَى مِنْ مَعْرُوفِكَ فَقَدْ كَذَّرْتَهُ وَلَا جَمَاعَ لَكَ فِيهَا بَعْدُ. فَقَرَّبْنَا صِرْمَتَنَا

فَاَحْتَمَلْنَا عَلَيْهَا وَتَغَطَّى خَالُنَا ثَوْبُهُ فَجَعَلَ يَبْكِي فَاَنْطَلَقْنَا حَتَّى نَزَلْنَا بِحَضْرَةِ مَكَّةَ
فَنَافَرَ اُنَيْسٌ عَنْ صِرْمَتِنَا وَعَنْ مِثْلِهَا فَاتَّيَا الْكَاهِنَ فَخَيَّرَ اُنَيْسًا فَاتَّانَا اُنَيْسٌ
بِصِرْمَتِنَا وَمِثْلِهَا مَعَهَا ، قَالَ: وَقَدْ صَلَّيْتُ يَا ابْنَ اَخِي قَبْلَ اَنْ اَلْقَى رَسُوْلَ اللهِ
بِثَلَاثِ سِنِيْنَ. قُلْتُ لِمَنْ قَالَ اللهُ. قُلْتُ فَاَيْنَ تَوَجَّهَ قَالَ اَتَوَجَّهَ حَيْثُ يُوَجَّهُنِي
رَبِّي اَصْلَى عِشَاءً حَتَّى اِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ اَلْقَيْتُ كَانِي خِفَاءً حَتَّى تَعْلُوْنِي
الشَّمْسُ. فَقَالَ اُنَيْسٌ اِنَّ لِي حَاجَةً بِمَكَّةَ فَاكْفِنِي. فَاَنْطَلَقَ اُنَيْسٌ حَتَّى اَتَى مَكَّةَ
فَرَاثَ عَلَيَّ ثُمَّ جَاءَ فَقُلْتُ مَا صَنَعْتَ قَالَ لَقَيْتُ رَجُلًا بِمَكَّةَ عَلَى دِينِكَ يَزْعُمُ اَنَّ
اللهَ اَرْسَلَهُ قُلْتُ فَمَا يَقُوْلُ النَّاسُ قَالَ يَقُوْلُوْنَ شَاعِرٌ كَاهِنٌ سَاحِرٌ. وَكَانَ اُنَيْسٌ
اَحَدَ الشُّعْرَاءِ. قَالَ اُنَيْسٌ لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِمْ وَلَقَدْ وَضَعْتُ
قَوْلَهُ عَلَى اَفْرَاءِ الشُّعْرِ فَمَا يَلْتَمِمْ عَلَى لِسَانِ اَحَدٍ بَعْدِي اَنَّهُ شِعْرٌ وَاللهُ اِنَّهُ لَصَادِقٌ
وَإِيْتَهُمْ لَكَادِبُونَ. رواه مسلم (٢٤٧٣).

وعن ابن عباس عند مسلم (٨٦٨): اَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ
اَزْدِ شَنْوَةَ وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ اَهْلِ مَكَّةَ يَقُوْلُوْنَ اِنَّ
مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ. فَقَالَ لَوْ اَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللهَ يَشْفِيهِ عَلَيَّ يَدَيَّ ، قَالَ:
فَلَقِيَهُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ اِنِّي اَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ وَاِنَّ اللهَ يَشْفِي عَلَيَّ يَدَيَّ مِنْ شَاءَ
فَهَلْ لَكَ فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ : «اِنَّ الْحَمْدَ لله نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِيْنُهُ مِنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا
مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضِلُّ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ اَنْ لَا اِلَهَ اِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ اَمَّا بَعْدُ»، قَالَ فَقَالَ اَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ
عَلَيْهِ رَسُوْلُ اللهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، قَالَ: فَقَالَ لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ وَقَوْلَ
السَّحَرَةِ وَقَوْلَ الشُّعْرَاءِ فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ وَلَقَدْ بَلَغَنَ نَاعُوسَ

الْبَحْرِ ، قَالَ : فَقَالَ هَاتِ يَدَكَ أَبَايَعُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ - قَالَ - فَبَايَعَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ «وَعَلَى قَوْمِكَ» . قَالَ وَعَلَى قَوْمِي ، قَالَ : فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ سَرِيَّةً فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ شَيْئًا فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً . فَقَالَ رُدُّوْهَا فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ ضَمَادٍ .

ولما قال الوليد بن المغيرة: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدر: ٢٥]، وتوعده الله بسقر فقال : ﴿سَأُضْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدر: ٢٦]، فمن زعم أن كلام الله مخلوق ككلام البشر فقد كفر وتوعده الله بسقر فالقرآن كلام الله ووحيه وتنزيله تكلم به حقيقة فسمعه منه جبريل وبلغه جبريل لمحمد ، وعن أبي هريرة قال: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ [سبأ: ٢٣] فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُّ السَّمْعِ وَمُسْتَرِقُّ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ وَوَصَفَ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةٌ كَذِبَةٍ فَيَقَالُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ» . أخرجه البخاري (٤٥٢٢).

ومن الأدلة على إثبات الكلام لله أن الله أضاف الكلام إلى نفسه والكلام معنى يقوم بغيره فإضافته إلى الله إضافة صفة إلى موصوف ثم ما تقدم من أن الكلام كمال ومعطي الكمال أولى به والنبى كان يقول: «مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الْجَنَّةُ؟»، من حديث جابر

عند أحمد (١٤٤٥٦) و (١٤٦٥٣)، والله : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، فعلم من هذا أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود فمن زعم أنّ القرآن مخلوق قد كفر.

افتراق الناس في مسألة الكلام:

قال ابن أبي العزّ تعالى في شرح الطحاوية (١٧٩): وقد اختلف الناس في مسألة الكلام إلى تسعة أقوال:

الأول: أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معاني إما من العقل الفعّال عن بعضهم أو من غيره، وهذا قول الصابئة والفلاسفة.

الثاني: أنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه، وهذا قول المعتزلة.

الثالث: أنه معنى واحد قائماً بذات الله هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا وإن عبر عنه بالعبرانية كان تورا، وهذا قول ابن كلاب والأشعري وغيره.

الرابع: أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث.

الخامس: أنه حروف وأصوات؛ لكن تكلم الله بها بعد إن لم يكن متكلمًا، وهذا قول الكرامية وغيرهم.

السادس: أن كلامه يرجع إلى ما يُحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهذا يقوله صاحب المعتبر ويميل إليه الرازي في كتابه المطالب العالمة.

السابع: أن كلامه يتضمن معنى قائمًا بذاته هو ما خلقه في غيره، وهو قول الماتريدي.

الثامن: أنه مشترك بين المعنى القديم بالقائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات، وهذا قول أبي المعالي وأتباعه.

التاسع: أنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وهو يتكلم بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديمًا، وهذا قول أئمة الحديث والسلف. اهـ

العاشر: زاد ابن القيم كما في مختصر الصواعق (٢/٢٨٦) مذهب أهل الاتحاد القائلون بوحدة الوجود أن كل كلام في الوجود هو كلام الله نظمه ونثره، وحقه باطله سحره وكفره، والسبب والشتم والهجر والفحش كما قال قائلهم:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثَرُهُ وَنَظَّمُهُ

وهذا مبني على مذهبهم الذي أصلوه، أن الله تعالى وتنزه عن قولهم عين الوجود. اهـ

الرد على الفلاسفة والصابئة في تعريف الكلام:

الناظر في تعريفهم للكلام يرى أنهم جعلوا كلام الله لا وجود له خارج نفس الرسول، وإنما هو ما يفيض على النفوس من المعاني أو هو ما يفيض من العقل الفعال أو غيره.

وربما قالوا: العقل الفعال هو جبريل وربما قالوا غيره.

ويقولون: كلام الله محدث في نفس النبي، والكلام الذي سمعه موسى كان موجوداً في نفسه لم يسمع موسى كلاماً خارجاً عن نفسه.

وقد كفر شيخ الإسلام أصحاب هذا القول بقوله: (وهذا القول أبعد عن الإسلام ممن يقول القرآن مخلوق). مجموع الفتاوى (١٢/١٦٣).

وقال (١٢/٤٢): وقد تنازعوا في كلام الله نزاعاً كثيراً، وأبعدهم عن الإسلام قول من يقول من المتفلسفة والصائبة - ثم ذكر بعض الأقوال السابقة -، وقول هؤلاء في الحقيقة:

- تعطيل صفة الكلام لله رب العالمين على الحقيقة.
- تكذيب المعلوم من دين الإسلام أن القرآن منزل على الحقيقة.
- تكذيب المعلوم من دين الإسلام أن الذي كان ينزل القرآن هو جبريل ، وليس هو العقل الفعال.
- عدهم ألفاظ القرآن وحروفه من إنشاء النبي لأن العقل الفعال فاض عليه بالمعاني والألفاظ.
- موافقتهم الجهمية في كونه مخلوقاً.

وأما الرد على المعتزلة والجهمية القائلين بخلق القرآن:

وقد استدل المعتزلة على هذا القول ببعض الشبه التي سرعان ما تتهاوى أمام البراهين الدامغة من الكتاب والسنة والحجج الساطعة من أئمة السنة.

الشبهة الأولى: القرآن شيء، وقد قال الله: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، ولفظ (كل) يفيد العموم، فالقرآن داخل في هذا العموم.

قال ابن أبي العز (ص ١٨٣) وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، والقرآن شيء فيكون داخلاً في عموم (كل) فيكون مخلوقاً، فمن أعجب العجب وذلك أن أفعال العباد عندهم غير مخلوقة لله تعالى، وإنما يخلقها العباد جميعاً لا يخلقها الله فأخرجوها من عموم (كل) وأدخلوا كلام الله في عمومها مع أنه صفة من صفاته به تكون الأشياء المخلوقة والأمر، فلو كان الأمر مخلوقاً للزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر والآخر بآخر...

إلى أن قال : وعموم (كل) في كل موضع بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ومساكنهم شيء ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح، وذلك أن المراد بالتدمير كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير، وكذلك قوله سبحانه حكاية عن بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، المراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام.

والمراد بقوله: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، أي كل شيء مخلوق وكل موجود سوى الله، فهو مخلوق فدخل في هذا العموم أفعال العباد حتماً، ولم يدخل في العموم الخالق تعالى وصفاته ليست غيره. اهـ

والله قد وصف نفسه بأنه نفس، قال تعالى عن عيسى: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فهل يدخل الجهمي نفس الله تعالى في هذا العموم؟

الشبهة الثانية: قالوا القرآن مجعول، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، واجعل الخلق.

قال ابن أبي العزّ تعالى (ص ١٨٦): وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، فما أفسده من استدلال، فإن (جعل) إذا كان بمعنى خلق يتعدى إلى مفعول واحد كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأأنعام: ١]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق.

قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، وقوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]، وغيرها إلى قوله: ﴿وَجَعَلُوا أَمَلَاتِيكَ الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِّ شَاءَ﴾ [الزخرف: ١٩]. اهـ

فلو كان جعل بمعنى خلق لكان من أفسد الفساد كيف يجوز أن يقال: (وقد خلقتهم الله)، فنعوذ بالله من الضلال ومن اتباع الهوى.

الشبهة الثالثة: قالوا القرآن محدث والمحدث مخلوق، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحدثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥].

والجواب عن هذه الشبهة: اعلم أن محدث في اللغة هو كون الشيء بعد أن لم يكن، قال أبو عبيد القاسم بن سلام، كما في خلق أفعال العباد للبخاري (ص ٣٧)، (محدث) حدث عند النبي وأصحابه لما علّمه الله ما لم يكن يُعلّم.

وقال ابن قتيبة في (الاختلاف في اللفظ): المحدث ليس هو في موضع بمعنى مخلوق، فإن أنكروا ذلك فليقولوا في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]، أنه يخلق كذلك قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]، أي يحدث لهم القرآن ذكرًا، والمعنى يجدد عندهم ما لم يكن، وكذلك قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، أي ذكر حدث عندهم لم يكن قبل ذلك. اهـ

وقال شيخ الإسلام (٥٢٢ / ١٢): فإن احتج بعضهم بهذه الآية: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، قال: هذه الآية حجة عليك، فإنه لما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، قال علم أن الذكر منه محدث، ومنه ما ليس بمحدث.

ويُعلم: أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي، ولكنه الذي أنزل جديدًا، فإن الله كان ينزل القرآن شيئًا بعد شيء، فالمنزل أولاً هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخرًا. اهـ

الشبهة الرابعة: قالوا جعل الله أمره مقدورًا والمقدور المخلوق، وأمره كلامه، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

قال صاحب العقيدة السلفية (ص ٣١٠): ولفظ الأمر إذا أضيف إلى الله تعالى يأتي على تفسيرين:

الأول: يراد به المصدر كقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وهو غير مخلوق، وهذا يجمع على (أوامر).

والثاني: يراد به المفعول الذي هو المأمور المقدور كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، فالأمر هنا هو المأمور، وهذا يجمع على (أمر)، وهو مخلوق، وقد قال الإمام أحمد في احتجاجه على الجهمية، قال الله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففرق بين الخلق والأمر.

وقال أيضًا: وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فأخبر بالخلق، ثم قال: والأمر، وأخبر أن الأمر غير مخلوق، وبهذا الجواب أجاب سفيان بن عيينة شيخ الإمام أحمد رحمهما الله، فقال: ما يقول هذا الدويبة -يعني المريسي بشر-؟ قالوا: يا أبا محمد يزعم أن القرآن مخلوق، فقال: كذب، قال الله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالخلق خلق الله تبارك وتعالى، والأمر القرآن. اهـ

وقال شيخ الإسلام (٨/٤١٢): ففي قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، المراد به المأمور به المقدور، وهذا مخلوق، وأما في قوله: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا﴾ [الطلاق: ٥]، فأمره كلامه إذا لم ينزل إلينا الأفعال التي أمرنا بها، وإنما أنزل القرآن، وهذا كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، فهذا الأمر هو كلامه.

وقال قبل ذلك (٤١٢/٨): ولفظ الأمر يراد به المصدر والمفعول، فالمفعول مخلوق مثل: ﴿أَفَتَحْ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، فهنا المراد به المأمور به، ليس المراد به أمره الذي هو كلامه، ثم بين أن مصدر الأمر هو كلامه، وهو غير مخلوق. اهـ

ومما استدل بها هؤلاء الضلال على أن القرآن مخلوق قول الله تعالى: ﴿نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، قالوا: إن الكلام خلقه الله في الشجرة، فسمعه موسى منها.

وهذا القول بين فساده ابن أبي العز في شرح الطحاوية فقال: استدلوا بالآية على أن الكلام خلقه الله في الشجرة، فسمعه موسى منها وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها، فإن الله تعالى قال: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ [القصص: ٣٠]، والنداء هو الكلام من بعد، فسمع موسى النداء من حافة الوادي، ثم قال: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، كما تقول: سمعت كلام زيد من البيت يكون من البيت لابتداء الغاية، لا أن البيت هو المتكلم، ولو كان الكلام مخلوقاً في الشجرة لكانت الشجرة هي القائلة: ﴿يَمْوَسَّىٰ إِنَّتَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، وهل قال: ﴿إِنَّتَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ غير رب العالمين؟ ولو كان هذا الكلام بدأ من غير الله لكان قول فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، صدقاً؛ إذ كلا الكلامين عندهم مخلوق، قد قاله غير الله، وقد فرقوا بين الكلامين على أصلهم الفاسد أن ذلك كلام خلقه الله في الشجرة، وهذا خلقه فرعون، فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقاً غير الله. اهـ

وقال شيخ الإسلام : باب ما أنكرت الجهمية من أن الله كلم موسى، فقلنا لهم: لم أنكرتم؟ قالوا: إن الله لم يتكلم ولا يتكلم، إنما كون شيئاً فعبر عن الله خلق صوتاً فأسمعه، فقلنا لهم: هل يجوز أن يكون لمكوّن غير الله أن يقول: ﴿يُمُوسَىٰ ۖ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه: ١١-١٢]، أو يقول: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤]، فمن زعم أن ذلك غير الله فقد ادعى الربوبية، ولو كان كما زعم الجهمية أن الله كون شيئاً كان يقول ذلك المكوّن يا موسى إن الله رب العالمين، ولا يجوز أن يقول: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. اهـ

الشبهة الخامسة: قالوا قد قال الله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]، الحاقة: ٤٠]، وهذا يدل على أن الرسول أحدثه إما جبريل أو محمد.

قال شيخ الإسلام في جواب هذه الشبهة كما في مجموع الفتاوى (١٢ / ٥٢١): قال: وإن احتج بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [١٩] ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢٠]، قيل: له فقد قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [٤٠] وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [٤١] وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠-٤٢]، فالرسول في هذه الآية محمد والرسول في الأخرى جبريل، فلو أريد به أن الرسول أحدث عبارته لتناقض الخبران، فعلم أنه أضافه إليه إضافة تبليغ لا إضافة إحداث، ولهذا قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾، ولم يقل ملك ولا نبي، ولا شك أن الرسول بلغه كما قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، فكان النبي يعرض نفسه على الناس في الموسم، ويقول: «أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنْ قُرِئَ شَاءَ قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي». اهـ

وقال ابن أبي العزّ تعالى (ص ١٨٧): ذكر الرسول معرّف أنه مبلّغ عن مرسله؛ لأنه لم يقل إنه قول ملك أو قول نبي، فعلم أنه بلغه عن مرسله به، لا أنه إنشاء من جهة نفسه، وأيضا الرسول في إحدى الآيتين جبريل وفي الأخرى محمد، فإضافته إلى كل منهما تبين أن الإضافة للتبليغ؛ إذ لو أحدثه أحدهما امتنع أن يحدثه الآخر.

وأیضا فقله: رسول أمين دليل على أنه لا يزيد في الكلام الذي أرسله بتبليغه، ولا ينقص منه، وأيضا فإن الله قد كفر من جعله قول البشر، ومحمد بشر فمن جعله قول محمد بمعنى أنه أنشأه فقد كفر، ولا فرق بين أن يقول هو قول بشر أو جني أو ملك.

والكلام كلام من قاله مبتدأ لا من قاله مبلّغا، ومن سمع قائلاً يقول: (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)، قال: هذا شعر امرئ القيس، ومن سمعه يقول: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، قال هذا كلام الرسول، وإن سمعه يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال: هذا كلام الله، ولهذا لو سمع أحد من أحدٍ نظماً أو نثراً يقول له: هذا كلام من؟ هذا كلامك أم كلام غيرك؟

الشبهة السادسة: قالوا: إن الله سمي عيسى كلمته، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وعيسى مخلوق، فالكلمة مخلوقة.

ومعنى الآية: أن عيسى مخلوق خلقه الله بأمره حين قال له: ﴿كُنْ﴾، كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]، وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

والكلمة: ﴿كُنْ﴾ لا عين عيسى، والمكون هو عيسى ، وبهذا أجاب غير واحد من الأئمة؛ اه، أفاده صاحب كتاب العقيدة السلفية .

وقال السلطان في الكواشف الجليلة عن معاني الواسطية (ص ٣٨٠-٣٨١): وأما قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، فالمعنى أنه خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم، فنفخ فيها من الروح، فعيسى ناشئ عند الكلمة وليس هو نفس الكلمة، وقوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، يعني أنه كائن منه تعالى، أي موجدته وخالقه فهو روح من الأرواح التي خلقها الله كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الحاثية: ١٣]، أي مخلوقة بأمره. اه

ومن شبه هؤلاء النوكى أنهم يقولون: يلزم من إثبات كلام الله التشبيه والتجسيم، فيقال لهم: إذا قلنا إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله انتفت شبهتهم، ألا تر أنه قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، فنحن نؤمن أنها تتكلم ولا نعلم كيف تتكلم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]، وكذلك تسبيح الحصى والطعام وسلام الحجر على

رسول الله ﷺ كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد من الرئة المعتمد على مقاطع الحروف، أفاده ابن أبي العز (ص ١٨١).

ومن قولهم أيضًا قالوا: القرآن ترد عليه سمات الحدوث والخلق من وجوه عدة:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ﴾ [النحل: ١٠١]، فأخبر عن وقوع النسخ فيه.

هو حروف متعاقبة يسبق بعضها بعضًا.

لا يكون إلا بمشيئة واختيار، فيلزم منه أن تسبقه الحوادث ويتأخر عنها.

له ابتداء وانتهاء وأول وآخر.

هو متبعض متجزئ.

منزل والنزول لا يكون إلا بحركة وانتقال وتحول.

مكتوب في اللوح والمصاحف وما حد وحصر فهو مخلوق.

وهذه الصفات وما يشبها صفات للمخلوق المحدث.

قال شيخ الإسلام ﷺ في درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٩٩): هذه المعاني جميعًا مبنية على أصلهم الذي ابتدعوه لإثبات خلق العالم، وقدم الصانع، وهو الاستدلال على حدوث العالم بطريقة الحركة، فقالوا: لا يمكن معرفة الصانع إلا بإثبات حدوث العالم، ولا يمكن إثبات حدوث العالم إلا بإثبات حدوث الأجسام والاستدلال على حدوث الأجسام إنما هو بحدوث

الأعراض القائمة بها الحركة والسكون، فهذا الأصل المبتدع هو الذي جرهم إلى القول بخلق القرآن ونفي الصفات والأفعال لله تعالى. اهـ

ولو أنهم استسلموا لله وامتثلوا قوله وصاروا على هدي رسول الله وطريقة السلف لما وقعوا في هذه الأصول الفاسدة، فنسأل الله السلامة.

ومن شبه المعتزلة أيضًا، قولهم: إن إضافة الكلام إلى الله إضافة تشريف، كبيت الله وناقة الله.

والإضافة إلى الله ، تنقسم إلى قسمين: إضافة أعيان، وإضافة صفات، والأعيان التي تقوم بنفسها إضافتها إلى الله تكون إضافة تشريف أو خلق وملك وغير ذلك.

وإن كانت معاني لا تقوم بنفسها، فإضافتها إلى الله تعالى إضافة صفة إلى موصوف.

فمن هنا يتبين أن إضافة الكلام إلى الله تعالى هو من النوع الثاني، أي إضافة الصفات ككلام الله، وعلم الله، وقدره الله وغيرها.

ولتعلم: أن المعتزلة قد فرخوا وباضوا، ومن هذه الأفراخ الكلامية والأشاعرة ومن وافقهم من ماتريديّة وسالمية، وإن اختلفوا في بعض التفريعات؛ لكنهم لم يُصَفُّوا معتقدهم من شوائب البدع والضلال.

فزعم الأشاعرة أن القرآن حكاية عن كلام الله، أو عبارة عنه، قال العمراني في الانتصار (٢/ ٥٤٤): وقالت الكلامية والأشاعرة: كلام الله الذي ليس بمخلوق هو معنى قائم بنفسه لا يفارق ذاته، وهذا القرآن المتلو والمسموع

عبارة وحكاية عن الكلام القائم بنفسه، وكذلك القول عندهم في كلام البشر هو معنى قائم بذات المتكلم، وهذه الحروف والأصوات المسموعة عبارة عن المعنى القائم بالذات لا تسمى كلاماً حقيقة بل مجازاً أو توسعاً. اهـ

ومؤدى القول بأن الكلام عبارة أو حكاية عن كلام الله إلى أن هذا القرآن الذي بين أيدينا مخلوق، إما لأنه كلام محمد، أم كلام جبريل ، ومع ذلك فقد صرح بعضهم بالقول بالخلق، قال الجويني في الإرشاد (١١٧): فإن معنى قولهم يعني المتعزلة وهذه العبارات كلام الله، إنها مخلوقة، ونحن لا ننكر إنها خلق لله، ولكن نمتنع من تسمية خالق الكلام متكلماً به، فقد أطبقنا على المعنى وتنازعنا بعد الاتفاق في تسميته. اهـ

وقد صرح بخلقه من الأشاعرة شارح جوهرية التوحيد وغيرهم كثير، وقال الجويني في إرشاده (١٣٠): المعنى بالإنزال أن جبريل صلوات الله عليه أدك كلام الله تعالى وهو في مقامه فوق سبع سموات، ثم نزل إلى الأرض فأفهم الرسول ما فهمه عند سدره المنتهى من غير نقل لذات الكلام. اهـ

قال ابن القيم في نونيته:

وَحَوَاصُّهُمْ لَمْ يَقْرَءُوهُ تَدْبُرًا	بَلْ لِلتَّبَرُّكِ لَا لِفَهْمٍ مَعَانٍ
وَعَوَائِهِمْ فِي السُّبْحِ أَوْ فِي خَتَمِهِ	أَوْ تُرْبَةٍ عَوْضًا لِذِي الْأَثَمَانِ
هَذَا وَهُمْ حَرْفِيَّةُ التَّجْوِيدِ أَوْ	صَوْتِيَّةُ الْأَنْغَامِ وَالْأَلْحَانِ
يَا رَبِّ قَدْ قَالُوا بِأَنَّ مَصَاحِفَ الْ	إِسْلَامِ مَا فِيهَا مِنَ الْقُرْآنِ
إِلَّا الْمِدَادَ وَهَذِهِ الْأُورَاقَ وَالْ	جِلْدَ الَّذِي قَدْ سُئِلَ مِنْ حَيَوَانِ

وَالْكُلُّ مَخْلُوقٌ وَلَسْتُ بِقَائِلٍ أَصْلًا وَلَا حَرْفًا مِنَ الْقُرْآنِ
 إِنَّ ذَاكَ إِلَّا قَوْلٌ مَخْلُوقٌ وَهَلْ هُوَ جَبْرَيْلُ أَوْ الرَّسُولُ فَذَانِ
 قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ قَدْ قَالَتْهُمَا أَشْيَاخُهُمْ يَا مِحْنَةَ الْقُرْآنِ
 لَوْ دَاسَهُ رَجُلٌ لَقَالُوا لَمْ يَطَأْ إِلَّا الْمِدَادَ وَكَاغَدَ الْإِنْسَانَ
 يَا رَبِّ زَالَتْ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ مِنْ تِلْكَ الْقُلُوبِ وَحُرْمَةُ الْإِيمَانِ
 وَجَرَى عَلَى الْأَفْوَاهِ مِنْهُمْ قَوْلُهُمْ مَا بَيْنَنَا اللَّهُ مِنْ قُرْآنِ
 مَا بَيْنَنَا إِلَّا الْحِكَايَةُ عَنْ هُ وَالْتَّعْيِيرُ ذَاكَ عِبَارَةٌ بِلِسَانِ

والعجب أنهم يستدلون على إثبات الكلام النفسي بيت قاله الأخطل
 النصراني، قال ابن القيم في نونيته:

وَدَلِيلُهُمْ فِي ذَاكَ قَوْلُ قَالِهِ فِيمَا يُقَالُ الْأَخْطُلُ النَّصْرَانِي
 وهذا البيت هو:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلًا

وهذا البيت لا خطام له ولا زمام، والعجب من ردهم للأدلة المتكاثرة من
 القرآن والسنة، ثم يعمدون إلى هذا الكلام الذي لم تعرفه العرب، ثم قد وُجد
 البيت بسياقة أخرى:

إِنَّ الْبَيَانَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلًا

وأيضًا مما يدل على أن ما في النفس لا يسمى كلامًا هو ما جاء في الصحيح
 عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ
 أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»، أخرجه البخاري (٢٥٢٨) ومسلم (١٢٧)، فلو

كان ما في النفس كلامًا لكتب عليهم، ولو حدث أحدهم نفسه بطلاق امرأته وقع الطلاق قبل التلفظ، وهكذا الظهار والعتاق وغير ذلك.

قال العمراني في الانتصار في الرد على المعتزلة والقدرية الأشرار (٢/ ٥٦٤): **ويقال للأشعري** إذا قرأ آية من القرآن: هذا قول الله أم قول البشر؟ فإن قال: هو قول الله فقد رجع إلى ما عليه السلف وأهل الحق، وإن قال: بل من قول البشر قلنا عن ذلك أجوبة: أحدها أن يقال له: فهذه أقوال الوليد بن المغيرة فيما أخبر الله عنه بقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]، فقال الله متوعدًا له على قوله هذا: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦]، فلو كان قوله بذلك صحيحًا لما تواعد الله عليه.

الجواب الثاني: أن يقال له: فمن البشر الذي هذا قوله، فليس أحد يدعي أن هذا قوله، بل الكل منهم يقول هذا قول الله، وإذا سمعوا القارئ بهذا الكلام قالوا: صدق الله، ومن البشر الذي يقول: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤].

والجواب الثالث: أن يقال له: إذا كان هذا من قول البشر فأت بسورة من مثله، وإن قال: بل هو كلام البشر عبارة عن كلام الله، والمفهوم منه كلام الله، فيضاف إليه ويقال: هذا عبارة فلان، فإن أحدًا لا يدعي أنه عبارته.

فإن قال: هو عبارتي عن كلام الله، قلنا له: فحقيقة المعبر أن يسمع كلامًا فيعبر عنه، وأنت لم تسمع كلام الله حقيقة، وإنما سمعت قول معلمك عبارة معلمك إلى أن يتناهى إلى الصحابة، وهم لم يسمعوا قول الله حقيقة وإنما

سمعوا عبارة النبي عن عبارة جبريل، ولا أدري عما عبر عنه جبريل. فقول الأشعري هذا لا يستقيم أنه عبارة عن كلام الله.

وقول الأشعري: إن المفهوم من هذا الكلام كلام الله فغير صحيح؛ لأن مفهوم كل إنسان معه، ولا يسيل للخلق إلى العلم بفهم ما في نفس الباري سبحانه، وقال تعالى: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

ولأن ما في النفس لا يسمى كلاماً حقيقة، وإنما يسمى حديث نفس، بدليل أن رجلاً لو حلف بطلاق امرأته أن لا يتكلم، فحدث نفسه بشيء أو نظم في نفسه كلاماً لم تطلق امرأته بإجماع الفقهاء، فدل ذلك على أن حقيقة الكلام هو المسموع المفهوم، ولا يكون ذلك إلا بحروف وصوت.

ويقال للأشعري: إذا قرأ آية من كتاب الله: أهذا كلام أم كلمات؟ فإن قال: بل كلام، قيل له: أهو كلام الله أم كلامك؟ فإن قال: كلام الله: رجع إلى ما عليه أهل الحق، وإن قال: كلامي، بان كفره؛ لأنه خلاف المسلمين، وإن قال: كلامي أعبر به عن كلام الله، قلنا له: فكلام الله قديم وكلامك محدث، فميز لنا كلامك لنوقع عليه الحدث عن كلام الله لنسميه قديمصا، ولا سبيل له إلى ذلك الجملة.

ويقال للأشعري: ما القرآن الذي جاء به النبي وادعى أنه كلام ربه، فقال: «مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي؟»، وجعله الله معجزة للنبي، ودليلاً على صحة نبوته، أهو كلام الله القائم بذاته، أم هو هذه السور والآيات؟

فإن قال: هو هذه السور والآيات رجع إلى الحق وإلى ما عليه كافة المسلمين، وإن قال: بل هو المعنى القائم بذات الله، قيل له: فإن هذا ما أن

يقولوا: إن هذا الكلام القائم بذات الله لهم تسمعه فكيف تأتي بسورة من مثله، وإنما تأتي بمثل ما سمعناه.

ويقال للأشعري: قد أقررت بأن الله سمعًا وبصرًا وعلماً وقدرة وحياة وكلامًا لتنفي عنه ضد هذه الصفات، فلما كان السمع الذي أثبتته الله هو السمع المعهود في لغة العرب، وهو إدراك المسموعات، وكذلك ضد المنفي عنه هو المعهود في كلام العرب وهو الصمم، وكذلك البصر الذي أثبتته الله هو المعهود في كلام العرب وهو إدراك المبصرات والعلم هو إدراك المعلومات، وجب أن يكون الكلام لله هو الكلام المعهود في كلام العرب، وهو ما كان بحرف وصوت، كما أن ضده المنفي عنه وهو الخرس، والمعهود عندهم فأما أثبات الكلام لما يفهم لا يعلم فمحال. اهـ

البيان في أن القرآن منزلٌ من الله

قال :

وقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال : ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال : ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠١-١٠٣].

فيه هذه الأدلة دلالة على أن القرآن أنزل من عند الله ومثله قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢]، وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢]، وزعم المعطلة أن إنزال القرآن كإنزال الماء من السماء أو كإنزال الأنعام أو كإنزال الحديد حيث قال : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَوْجَحٍ﴾ [يوسف: ٢٠]، ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [الزمر: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [المؤمنون: ١٨]، وهي مخلوقة.

فكان جواب هذه الشبهة أن إنزال القرآن جاء مقيداً بأنه من الله، قال الله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢]، وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، وإنزال الحديد جاء مقيداً من الجبال والمعلوم أن الحديد ينزل من رؤوس الجبال إلى بطون الأودية بسبب الأمطار وهكذا إنزال الأمطار قيّد بالسحاب وقيّد بالسماء والمراد بالسماء العلوّ فالماء ينزل من السحاب وإنزال الأنعام من أن الذكر من الأنعام يعلو الأنثى فيقع الإنزال والأنثى حين تضع جنينها ينزل منها فكان هذا إنزال مقيّد بالمخلوقات وذلك إنزال من الله .

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]، من بركته أنه شفاء فقال الله تعالى: ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ومن بركته أنه نور وضياء وموعظة ورحمة كما وصفه الله وهدى وأنه قرآن عظيم: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنَ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

قال :

وقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

فيه أن المخلوق لا تتصدّع له الجبال وأن القرآن كلام الله حقاً وصدقاً ولو أنزل على الجبال لتصدّعت من خشية الله قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١]، والمعنى لو أن هناك

ما تُقَطَّع به الأرض وتُسَيَّر به الجبال لكان هذا القرآن وهذا لا يكون في حق مخلوق وإنما هذا في حق الله وصفته .

قال :

وقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴿النحل: ١٠١-١٠٢﴾ .

قيّد الإنزال من الربّ وأنّ جبريل أنزله من الله فالله تكلم به حقيقة وسمعه منه جبريل حقيقة ثم نزل جبريل بالقرآن إلى النبيّ وسبب كون القرآن نزل منجماً أي متفرّقاً.

قال :

وقوله: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿النحل: ١٠٢﴾ .

فالله أنزل القرآن في أوقات متعدّدة لتثبيت المؤمنين ولتسليتهم فإنهم إذا وقعت بهم حادثة نزل القرآن يُصَبِّرهم ويُثَبِّتهم يكون أوقع في قلوبهم.

قال السعدي :

يذكر تعالى أن المكذبين بهذا القرآن يتبعون ما يرونه حجة لهم، وهو أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم، الذي يشرع الأحكام، ويبدل حكماً مكان آخر لحكمته ورحمته، فإذا رأوه كذلك قدحوا في الرسول وبما جاء به و﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ

﴿مُفْتَرٍ﴾ [النحل: ١٠١] قال الله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥] فهم جهال لا علم لهم بربهم ولا بشره، ومن المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم لا عبرة به، فإن القدح في الشيء فرع عن العلم به، وما يشتمل عليه مما يوجب المدح أو القدح.

ولهذا ذكر تعالى حكمته في ذلك فقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢] وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة.

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: نزوله بالحق وهو مشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحا صحيحا، لأنه إذا علم أنه الحق علم أن ما عارضه وناقضه باطل.

﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عند نزول آياته وتواردها عليهم وقتا بعد وقت، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئا فشيئا حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي، وأيضا فإنهم يعلمون أنه الحق، وإذا شرع حكما [من الأحكام] ثم نسخه علموا أنه أبدله بما هو مثله أو خير منه لهم وأن نسخه هو المناسب للحكمة الربانية والمناسبة العقلية.

﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: يهديهم إلى حقائق الأشياء ويبين لهم الحق من الباطل والهدى من الضلال، ويبشرهم أن لهم أجرا حسنا، ماكين فيه أبدا. وأيضا فإنه كلما نزل شيئا فشيئا، كان أعظم هداية وبشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة وتفرق الفكر فيه بل ينزل الله حكما وبشارة [أكثر] فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه وترووا منه أنزل نظيره وهكذا. ولذلك بلغ

الصحابة به مبلغا عظيما، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال فاقوا بها الأولين والآخرين.

وكان أعلى وأولى لمن بعدهم أن يتربوا بعلومه ويتخلقوا بأخلاقه، ويستضيئوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات، فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية. انتهى

قال :

وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

زعموا أنّ الذي يُعَلِّم النبي هو ابن الحضرمي وكان نصرانياً وكان أعجمياً فقالوا إنّما تلقى محمّداً من ذلك النصراني فردّ الله عليهم بقوله : ﴿لَسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ [النحل: ١٠٣]، هذا الذي تزعمونه أنّه يُعَلِّم محمّداً القرآن أعجمي: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، ومعلوم أنّ اللسان الأعجمي حتى ولو تعلّم العربية يبقى عنده شيء من الرطانة وتكسير الكلام ولا يستطيع أن يأتي بمثل هذا الكتاب أو بما يُقاربه فضلاً عن مثله قال الله : ﴿لَسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]،

وقال السيوطي في الإتقان (١/ ٥٨): وقال أبوالمعالی عزیزی بن عبدالمملک المعروف بشیدلة بضم عین عزیزی فی کتاب البرهان اعلم أن الله سمى القرآن بخمسة وخمسين اسماً، سماه كتاباً ومبيناً في قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝١﴾ وَأَلْكَتَبَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الزخرف: ١-٢]، وقرأنا كريماً في قوله : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ

كَرِيمٌ ﴿[الواقعة: ٧٧]، وكلاماً في قوله : ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ونوراً قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ [النساء: ١٧٤]، وهدى ورحمة في قوله : ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وفرقاً قال الله : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، وشفاء في قوله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وموعظة في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وذكرًا ومباركًا في قوله : ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وعلياً في قوله تعالى: ﴿وَلَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، وحكمة في قوله : ﴿حِكْمَةً بَلَّغْنَاهُ﴾ [القمر: ٥]، وحكيم ومهيماً في قوله : ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِّنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وحبلاً في قوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وصراطاً مستقيماً في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقيماً في قوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ﴿١﴾ فَيَمَّا يَلِيْذِرُ﴾ [الكهف: ١-٢]، وقولاً وفصلاً في قوله : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ [الطارق: ١٣]، ونبأً عظيماً في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾ [النبا: ١-٢]، وأحسن الحديث ومثاني ومتشابهها في قوله : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣] وتنزيلاً في قوله تعالى: ﴿وَلَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، وروحاً في قوله : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ووحياً في قوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، وعربياً في قوله : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، وبصائر في قوله تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وبياناً في قوله : ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨] وعلماً في قوله تعالى:

﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وحقاً في قوله : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]، وهادياً في قوله : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي﴾ [الإسراء: ٩]، وعجباً في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، وتذكراً في قوله: ﴿وَلِئَنَّهُ لَتَذَكُّرٌ﴾ [الحاقة: ٤٨]، والعروة الوثقى في قوله : ﴿أَسْتَمْسِكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وصدقاً في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ [الزمر: ٣٣]، وعدلاً في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وأمرًا في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق: ٥]، ومنادياً في قوله : ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَنِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وبشرى في قوله : ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، ومجيداً في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١]، وزبوراً في قوله : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وبشيراً ونذيراً في قوله : ﴿كَتَبْنَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢﴾ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فصلت: ٣-٤]، وعزيراً في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، وبالغاً في قوله: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقصصاً في قوله : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣]، وسماه أربعة أسماء في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٤]. انتهى

وأسماء القرآن تتضمن معاني، وكل اسم يتضمن صفة إذ ليست أسماء جامدة لا معاني لها.

﴿فائدة﴾: الحروف المقطّعة التي ذكرها الله في القرآن يأتي بعدها ذكر القرآن غالباً، قال الله تعالى: ﴿الْمَ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-

تنبيه: حديث بريدة قال: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبُطْلَةُ». قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَالْإِمْرَانُ؛ فَإِنَّهُمَا

الزَّهْرَاوَانِ يُظَلَّانِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا عَمَّامَتَانِ أَوْ غَيَّائَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ. فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهُوَاجِرِ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ فَيُعْطَى الْمَلِكُ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدُ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يُقَوِّمُ لِهَمَا أَهْلُ الدُّنْيَا فَيَقُولَانِ: بِمَ كُسِينَا هَذَا؟ فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ. ثُمَّ يَقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغُرْفِهَا، فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ، هَذَا كَانَ، أَوْ تَرْتِيلاً». رواه أحمد (٢٢٩٥٠) وله شواهد. فالمراد به أجر القرآن؛ إذ يجعل الله تعالى المعاني أعرافاً كما في حديث أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ «يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبُشٌّ أَمْلَحٌ - زَادَ أَبُو كُرَيْبٍ - فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ - وَاتَّفَقَا فِي بَاقِي الْحَدِيثِ - فَيُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَهُ هَذَا فَيَشْرِبُونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ ، قَالَ: وَيُقَالُ يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَهُ هَذَا قَالَ فَيَشْرِبُونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ ، قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ ، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ». قَالَ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩] وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الدُّنْيَا. رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

القول في الرؤية

قال :

وقوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وقوله: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣]، وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

أشار في هذه الآيات إلى إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة ويُرى الله في موطنين:

١) الموطن الأول:

في أرض المحشر كما في قول الله : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وفي قول الله : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فلما حُجب الكفار في السخط دلّ على أن المؤمنين يرونه في الرضا وبهذه الآية استدلل الشافعي على أن الله يُرى، ومنها عموم أدلة اللقاء مثل قال الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَكُمْ مُّلَقُّوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقال : ﴿يَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقال : ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]،

ومن الأدلة قول الله : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، والصفات المنفية يؤتى بها لبيان عموم كمال الله فلا تدركه الأبصار لعظمته وكبريائه ولكبره - فهو العظيم المجيد تراه

الأبصار يوم القيامة ولا تدركه ولا تحيط به قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ومما يستدلون به على أن الله يرى في المحشر ما جاء عن عدي بن حاتم عند البخاري (٧٥١٢) ومسلم (١٠١٦)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ فَيَنْظُرُ أَيَمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ وَيَنْظُرُ أَشَأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»، ولقاء الله يكون برؤية ولهذا أجمع العلماء أن آيات اللقاء تثبت بها الرؤية لأن اللقاء يكون بمعاينة، وفي حديث جرير قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً يَعْنِي الْبَدْرَ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»، أخرجه البخاري (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣)، فشبه الرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي، وفي الحديث الآخر قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : قَالَ أَنَسُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ تَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ : «هَلْ تُضَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ هَلْ تُضَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ»، رواه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٣)، والنبِّي كان يقول في سجوده: «أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ»، من حديث عمار بن ياسر عند النسائي (١٣٠٤)، وهو في الصحيح المسند للإمام الوادعي (١٠٥٨) ومن حديث فضالة بن عبيد ، وفي حديث أبي موسى عند البخاري (٤٨٧٨) ومسلم (١٨٠)، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «جَتَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آتِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَجَتَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آتِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ

إِلَّا رِذَاءُ الْكِبَرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»، وفي حديث أبي سعيد عند مسلم (٤٧٢) الطويل ومن حديث أبي هريرة في مسلم (١٨٣): قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ «نَعَمْ». قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ وَهَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةً الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ». قَالُوا: لَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «مَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَذَنٌ مُؤَدَّنٌ لِيَسْمَعَ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيَقَالُ لَهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ عَزِيرَ ابْنِ اللَّهِ. فَيَقَالُ كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ فَمَآذَا تَبْغُونَ قَالُوا عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَّا تَرُدُّونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّمَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ. ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيَقَالُ لَهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ. فَيَقَالُ لَهُمْ كَذَبْتُمْ. مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ. فَيَقَالُ لَهُمْ مَآذَا تَبْغُونَ فَيَقُولُونَ عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. ، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَّا تَرُدُّونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّمَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا، قَالَ فَمَا تَنْتَظِرُونَ تَتَّبِعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. قَالُوا يَا رَبَّنَا فَارْقِنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرُ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ. فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ. فَيَقُولُ هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ. فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقِ

فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالسُّجُودِ وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ». والحديث فيه إثبات رؤية الله وقد تكلمت بحمد الله على هذه المسألة في مؤلف مستقلّ عنونته بـ رؤية المؤمنين للجبار في المحشر ودار القرار ، وللإمام الدارقطني كتاب الرؤية وهو من أنفس الكتب ولأبي شامة كتاب في الرؤية لكن كآته يسير فيه على طريقة الأشاعرة وأن الله يُرى لا في جهة وهذا قول سمج بل يُرى في العلو كما أنه قال: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ»، والشمس والقمر تُرى في العلو.

و للآجري رسالة في الرؤية مطبوعة ضمن (كتاب الشريعة) وهي من أهمّات المسائل وتكلم عليها الإمام ابن القيم بكلام موسّع في كتابه حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح وكلّ من ألف في الأيمان والعقائد يذكر في الرؤية ما يدل على ثبوتها، وأقرب الراجع بين يديك صحيح البخاري، ومسلم.

§ الموطن الثاني:

ويُرى سبحانه في الجنة كما في حديث صهيب الرومي عند مسلم (١٨١)، وابن ماجه (١٨٧) واللفظ له: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وَقَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَىٰ مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلِ اللَّهُ مَوَازِينَنَا، وَبَيَّضَ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلَنَا الْجَنَّةَ،

وَيُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ - يَعْنِي إِلَيْهِ - وَلَا أَقَرَّ لَأَعْيُنِهِمْ».

فالزيادة هي النظر إلى وجه الله وهكذا قول الله : ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، ومنها قوله تعالى: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣]، أي على السرر المزينة بالفرش الحسان ينظرون الله .

واختلف العلماء في رؤية الله تعالى في أرض المحشر لمن تكون، إلى ثلاثة أقوال:

❶ **الأول:** أنه يراه كل من في الموقف من المؤمنين والمنافقين والكافرين.

❷ **الثاني:** أنه يراه المؤمنون فقط.

❸ **الثالث:** أنه يراه المؤمنين والمنافقون.

وكل هذه الأقوال لها أدلتها من الكتاب والسنة فالذين يذهبون إلى أنه يراه كل من في الموقف احتجوا بعموم أدلة اللقاء، وفي حديث أبي هريرة قَالَ: قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ؛ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قَالَ: فَيَلْقَى الْعَبْدَ، فَيَقُولُ: أَيُّ فُلٍ، أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأَسَوِّدْكَ، وَأَزَوِّجَكَ وَأَسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ، فَيَقُولُ: لَا؛ فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِي، فَيَقُولُ: أَيُّ فُلٍ، أَلَمْ أُكْرِمْكَ،

وَأَسْوَدَكَ، وَأَزَوَّجَكَ، وَأَسْحَرُ لَكَ الْحَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَاسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ أَيُّ رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟ فَيَقُولُ: لَا؛ فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَبِئْسَ بَحِيرٌ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذَا قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، وَيُقَالُ: لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ انْطِقِي؛ فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذَرَ مَنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ». مسلم (٢٩٦٨).

والذين ذهبوا إلى أن الكفار لا يرونه احتجوا بقول الله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، والصحيح من هذه الأقوال أن الله يراه كل من في الموقف ثم يحتجب عن الكافرين ومفهوم الآية يدل على ذلك، فالحجب يكون بعد الرؤية لكن رؤية المؤمنين رؤية تنعم ورؤية الكافرين رؤية خوف وسخط كما يقول العلماء كرؤية اللص للسجّان، وفي حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٥٧٣) ومسلم (١٨٢)، أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ، كَذَلِكَ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ فَيَتَّبِعْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ: الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ: الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ: الطَّوَاغِيتَ، وَتَبَقَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا شَافِعُوهَا أَوْ مُنَافِقُوهَا - شَكَّ إِبْرَاهِيمُ -؛

فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِينَا رَبُّنَا؛ فَإِذَا جَاءَنَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا؛ فَيَتَّبِعُونَهُ وَيُضْرَبُ الصَّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيَّ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُخْرِجُهَا، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِبٌ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمُ السَّعْدَانِ؟» قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَحْطَفُ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ؛ فَمِنْهُمْ الْمُؤَبَّقُ بِقِيَّ بَعْمَلِهِ أَوْ الْمُؤَثَّقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ الْمُخْرَدُلُ أَوْ الْمُجَارِزُ أَوْ نَحْوُهُ، ثُمَّ يَتَجَلَّى، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، يَمْنُ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْحَمَهُ يَمْنُ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِأَثَرِ السُّجُودِ تَأْكُلُ النَّارُ ابْنَ آدَمَ؛ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ؛ فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ قَدْ امْتَحَسُوا فَيَصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ؛ فَيَنْبُتُونَ تَحْتَهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حِمْلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ وَيَبْقَى رَجُلٌ مِنْهُمْ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ هُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ أَصْرَفَ وَجْهِي عَنِ النَّارِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي ذُكَاؤُهَا، فَيَدْعُو اللَّهَ بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوهُ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أُعْطَيْتَكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ، فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي رَبُّهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاقِيقَ مَا شَاءَ؛ فَيَصْرِفُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى الْجَنَّةِ وَرَأَاهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيُّ رَبِّ قَدَّمَنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ؛ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَسْتَ قَدْ أُعْطِيتَ عُهُودَكَ وَمَوَاقِيقَكَ أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ أَبَدًا، وَيَلِكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ؛ فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ وَيَدْعُو اللَّهَ حَتَّى يَقُولَ

هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ، فَيَقُولَ: لَا وَعِزَّتِكَ، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي مَا شَاءَ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاقِيقَ؛ فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ.

فَإِذَا قَامَ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، انْفَهَقَتْ لَهُ الْجَنَّةُ؛ فَرَأَى مَا فِيهَا مِنَ الْحَبَرَةِ وَالسُّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيُّ رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: أَلَسْتَ قَدْ أُعْطِيتَ عُهُودَكَ وَمَوَاقِيقَكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطِيتَ، فَيَقُولُ: وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ لَا أَكُونَنَّ أَشَقَى خَلْقِكَ؛ فَلَا يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَضْحَكَ اللَّهُ مِنْهُ؛ فَإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ قَالَ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَإِذَا دَخَلَهَا قَالَ اللَّهُ لَهُ: تَمَنَّى؛ فَسَأَلَ رَبَّهُ وَتَمَنَّى، حَتَّى إِنَّ اللَّهَ لَيَذْكُرُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا حَتَّى انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ، قَالَ اللَّهُ: ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ.

وفي البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْوًا؟» قُلْنَا: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ، إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَيْهِمَا، ثُمَّ قَالَ: يُنَادِي مُنَادٍ لِيَذْهَبَ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ؛ فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ، وَأَصْحَابُ الْأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وَأَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ وَغُيَّرَاتٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ، فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عَزِيرَ ابْنَ اللَّهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا، فَيُقَالُ: اشْرَبُوا؛ فَيَسَاقُطُونَ فِي جَهَنَّمَ، ثُمَّ يُقَالُ لِلنَّصَارَى: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ فَيَقُولُونَ:

نُرِيدُ أَنْ تَسْقِينَا، فَيُقَالُ: اشْرَبُوا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا يَحْسِبُكُمْ، وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ، فَيَقُولُونَ: فَارْقَنَاهُمْ، وَنَحْنُ أَخْوَجُ مِنَّا إِلَيْهِ الْيَوْمَ، وَإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْحَقِّ كُلِّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا، قَالَ: فَيَأْتِيهِمُ الْجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا؛ فَلَا يُكَلِّمُهُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: السَّاقُ؛ فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ رِيَاءً وَسَمْعَةً فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدُ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجَسْرِ؛ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْجَسْرُ؟ قَالَ: «مَدْحَضَةٌ مَزَلَّةٌ عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ، وَكَلَالِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفْلَطَحَةٌ، لَهَا شَوْكَةٌ عُقِيقَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ، يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرَّيْحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرَّكَابِ؛ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا؛ فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشِدَةً فِي الْحَقِّ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ، وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فِي إِخْوَانِهِمْ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيْمَانٍ؛ فَأَخْرِجُوهُ، وَيُحَرِّمُ اللَّهُ صُورَهُمْ عَلَى النَّارِ؛ فَيَأْتُونَهُمْ، وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقِيهِ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ؛ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ اذْهَبُوا: فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا» قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي فَاقْرَءُوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]؛ «فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ

وَالْمُؤْمِنُونَ، فَيَقُولُ الْجَبَّارُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدْ امْتَحَشُوا؛ فَيُلْقُونَ فِي نَهْرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ، يُقَالُ لَهُ: مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حِمْلِ السَّيْلِ قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ، وَإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ، فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ؛ فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ اللَّوْلُؤُ؛ فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِيمُ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: هَؤُلَاءِ عَتَقَاءُ الرَّحْمَنِ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلَهُ مَعَهُ».

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٤٦٧/٦): وَقَالَتْ طَوَائِفٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالتَّصَوُّفِ: بَلْ يَرَوْنَهُ ثُمَّ يَحْتَجِبُ كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي فِي الصَّحِيحِ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِمَا مَعَ مُوَافَقَةِ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ قَالُوا وَقَوْلُهُ: ﴿لَمَحْجُوبُونَ﴾ يُشْعِرُ بِأَنَّهُمْ عَايَنُوا ثُمَّ حُجِبُوا وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ فَعَلِمَ أَنَّ الْحَجْبَ كَانَ يَوْمَئِذٍ. فَيُشْعِرُ بِأَنَّهُ يَحْتَصُّ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ فِي الْحَجْبِ بَعْدَ الرُّؤْيَةِ. فَأَمَّا الْمَنْعُ الدَّائِمُ مِنَ الرُّؤْيَةِ فَلَا يَزَالُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. قَالُوا: وَرُؤْيَةُ الْكُفَّارِ لَيْسَتْ كَرَامَةً وَلَا نَعِيمًا؛ إِذْ (الَلِّقَاءُ) يَنْقَسِمُ إِلَى لِقَاءٍ عَلَى وَجْهِ الْإِكْرَامِ وَلِقَاءٍ عَلَى وَجْهِ الْعَذَابِ فَهَكَذَا الرُّؤْيَةُ الَّتِي يَتَصَمَّنُهَا اللَّقَاءُ. اهـ

الرد على نفاة الرؤية:

ذهب المعتزلة إلى أن الله لا يرى واحتجوا بعدة شبه منها:

الشبهة الأولى:

قولهم: المراد بقول الله : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] أي: منتظرة، أو منتظرة لثوابه، ويُرد عليهم بما قاله ابن القيم في حادي الأرواح (٢٣٧-٢٣٨):

وأنت إذا أجرت هذه الآية من تحريفها عن مواضعها والكذب على المتكلم بها سبحانه فيما أراده منها وجدتها منادية نداءً صريحاً إن الله سبحانه يرى عياناً بالأبصار يوم القيامة، وإن أبيت إلا تحريفها الذي يسميه المحرفون تأويلاً؛ فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والميزان والحساب أسهل على أربابه من تأويلها، وتأويل كل نص تضمنه القرآن والسنة كذلك، ولا يشاء مبطل على وجه الأرض أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها؛ إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول مثل هذه النصوص، وهذا الذي أفسد الدين والدنيا، وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية وتعديته بأداة إلى الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينه، تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدي بإلى خلاف حقيقته وموضوعه صريح في أن الله أراد بذلك نظر العين وإخلاء الكلام من قرينه، تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدي بالي خلاف حقيقة وموضوعه صريح في أن الله أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى نفس الرب جل جلاله فان النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه فان عدى بنفسه فمعناه التوقف والانتظار كقوله: ﴿انْظُرُونَا نَقْنِسَ مِنْ تُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣] وأن عدى بـ(في) فمعناه التفكير والاعتبار كقوله أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وأن عدى بـ(إلى) فمعناه

المعاينة بالأبصار كقوله: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩] فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر. اهـ

الشبهة الثانية:

استدلواهم بقول الله : ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْآبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، قالوا: وهذه الآية دليل على أنه لا يرى .

وقد تقدم بيان أن: (الإدراك) بأنه رؤية وزيادة، رؤية مع الإحاطة، والإحاطة منفية في حق الله ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، فهم يرونه بغير إحاطة، وقد تقدم بيان أن هذه الآية من أدلة الرؤية إلى الله يوم القيامة.

الشبهة الثالثة:

استدلواهم بقول الله : ﴿لَنْ تَرَنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، على أنه لا يرى، وبأن: (لن) تفيد التأيد.

وقد تقدم بيان أن هذه الآية من أدلة الرؤية، قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (١٩١-١٩٢): فَالْأَسْتِدْلَالُ مِنْهَا عَلَى ثُبُوتِ رُؤْيَيْهِ مِنْ وَجْهِ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَا يُظَنُّ بِكَلِيمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ وَأَعْلَمِ النَّاسِ بِرَبِّهِ فِي وَقْتِهِ، أَنَّ يَسْأَلُ مَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ الْمَحَالِ.

الثاني: أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ سُؤَالَهُ، وَلَمَّا سَأَلَ نُوحٌ رَبَّهُ نَجَاةَ ابْنِهِ أَنْكَرَ سُؤَالَهُ، وَقَالَ: ﴿إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

الثالث: أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾، وَلَمْ يَقُلْ: إِنِّي لَا أَرَى، أَوْ لَا تَجُوزُ رُؤْيَايَ، أَوْ لَسْتُ بِمَرِيٍّ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْجَوَابَيْنِ ظَاهِرٌ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ كَانَ فِي كُمِّهِ حَجَرٌ فَظَنَّهُ رَجُلٌ طَعَامًا فَقَالَ: أَطْعَمْنِيهِ، فَالْجَوَابُ الصَّحِيحُ: أَنَّهُ لَا يُؤْكَلُ، أَمَّا إِذَا كَانَ طَعَامًا صَحَّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَأْكُلَهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَرِيٍّ، وَلَكِنَّ مُوسَى لَا تَحْتَمِلُ قُوَاهُ رُؤْيَاهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ، لِضَعْفِ قُوَى الْبَشَرِ فِيهَا عَنْ رُؤْيَاهُ تَعَالَى.

يُوضِّحُهُ الْوَجْهُ الرَّابِعُ: وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِّي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فَأَعْلَمَهُ أَنَّ الْجَبَلَ مَعَ قُوَّتِهِ وَصَلَابَتِهِ لَا يَثْبُتُ لِلتَّجَلِّي فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَكَيْفَ بِالْبَشَرِ الَّذِي خُلِقَ مِنْ ضَعْفٍ؟

الخامس: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الْجَبَلَ مُسْتَقَرًّا، وَذَلِكَ مُمَكِّنٌ، وَقَدْ عُلِّقَ بِهِ الرُّؤْيَا، وَلَوْ كَانَتْ مُحَالًا لَكَانَ نَظِيرٌ أَنْ يَقُولَ: إِنْ اسْتَقَرَّ الْجَبَلُ فَسَوْفَ أَكُلُ وَأَشْرَبُ وَأَنَامُ. وَالْكُلُّ عِنْدَهُمْ سَوَاءٌ.

السادس: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فَإِذَا جَازَ أَنْ يَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ، الَّذِي هُوَ جَمَادٌ لَا ثَوَابَ لَهُ وَلَا عِقَابَ، فَكَيْفَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَتَجَلَّى لِرَسُولِهِ وَأَوْلِيَائِهِ فِي دَارِ كِرَامَتِهِ؟ وَلَكِنْ اللَّهُ أَعْلَمُ مُوسَى أَنَّ الْجَبَلَ إِذَا لَمْ يَثْبُتْ لِرُؤْيَاهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَالْبَشَرُ أَضْعَفُ. السَّابِعُ: أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَ مُوسَى وَنَادَاهُ وَنَاجَاهُ، وَمَنْ جَازَ عَلَيْهِ التَّكَلُّمُ وَالتَّكْلِيمُ وَأَنْ يُسْمَعَ مُحَاطِبُهُ كَلَامَهُ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ، فَرُؤْيَاهُ أَوْلَى بِالْجَوَازِ؛ وَهَذَا لَا يَتِمُّ إِنْكَارُ رُؤْيَاهُ إِلَّا بِإِنْكَارِ كَلَامِهِ، وَقَدْ جَمَعُوا بَيْنَهُمَا، وَأَمَّا دَعْوَاهُمْ تَأْيِيدُ النَّفْيِ بِـ(لَنْ) وَأَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَا فِي الْآخِرَةِ؛ فَفَاسِدٌ، فَإِنَّهَا لَوْ قُيِّدَتْ بِالتَّأْيِيدِ لَا يَدُلُّ عَلَى دَوَامِ

النَّفْيِ فِي الْآخِرَةِ، فَكَيْفَ إِذَا أُطْلِقَتْ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، مع قوله: ﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزُّخْرَفِ: ٧٧]، وَلَا يَنْهَا لَوْ كَانَتْ لِلتَّائِيدِ الْمُطْلَقِ لَمَّا جَازَ تَحْدِيدُ الْفِعْلِ بَعْدَهَا، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَيْحَ﴾ [يُوسُفَ: ٨٠]، فَثَبَتَ أَنَّ لَنْ لَا تَقْتَضِي النَّفْيَ الْمُؤَبَّدَ.

قَالَ الشَّيْخُ جَمَالُ الدِّينِ ابْنُ مَالِكٍ :

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدًا فَقَوْلُهُ ارْذُدْ وَسِوَاهُ فَأَعْضُدَا
انتهى.

وأخرج مسلم في صحيحه (٢٩٣١) عن رجل من أصحاب النبي ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ». وجاء من حديث أبي أمامة عند ابن ماجه (٤٠٧٧)، فمن زعم أَنَّ اللَّهَ يُرَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا هُوَ قَوْلُ الصُّوفِيَّةِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُرَى فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ كَمَا هُوَ قَوْلُ الْجَهْمِيَّةِ فَقَدْ كَفَرَ، وَقَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ اللَّهَ يُرَى فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُرَى فِي الدُّنْيَا.

مسألة: رؤية الله في المنام:

النبي رأى ربه في المنام كما في حديث أبي هريرة وابن عباس ومعاذ بن جبل وجاء مرسلاً عن مكحول وطرقه في الرؤية للإمام الدارقطني ، قال رسول الله : «أَتَانِي اللَّيْلَةَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، - قَالَ أَحْسَبُهُ فِي الْمَنَامِ - فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَذَرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟» قَالَ:

قُلْتُ: «لَا»، قَالَ: «فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ» أَوْ قَالَ: «فِي نَحْرِي، فَعَلِمْتُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فِي الْكُفَّارَاتِ، وَالْكَفَّارَاتُ الْمُكْثُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَالْمَشْيِ عَلَى الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَإِسْبَاحُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكَارِهِ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ عَاشَ بِخَيْرٍ وَمَاتَ بِخَيْرٍ، وَكَانَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيْوَمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِذَا صَلَّيْتَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ، قَالَ: وَالدرَجَاتُ إِفْشَاءُ السَّلَامِ، وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»
من حديث ابن عباس عند الترمذي (٣٢٣٣).

وهذه رؤية منامية وقد تكلم شيخ الإسلام عن هذا وذكرت قوله في كتاب أحكام النوم من الشريعة الإسلامية على أن الله يرى في المنام ولا مانع من ذلك ولكن رؤية العبد لربه في المنام على قدر إيمانه ولا يجوز له أن يكتيف أو يُمَثِّلَ والرؤية المنامية لها تأويلها.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٢٥١/٥): وَمَنْ رَأَى اللَّهَ فِي الْمَنَامِ فَإِنَّهُ يَرَاهُ فِي صُورَةٍ مِنَ الصُّوَرِ بِحَسَبِ حَالِ الرَّائِي إِنْ كَانَ صَالِحًا رَأَاهُ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ؛ وَلِهَذَا رَأَاهُ النَّبِيُّ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ. اهـ

وقال (٣٩٠/٣): وَقَدْ يَرَى الْمُؤْمِنُ رَبَّهُ فِي الْمَنَامِ فِي صُورٍ مُتَنَوِّعَةٍ عَلَى قَدْرِ إِيْمَانِهِ وَيَقِينِهِ؛ فَإِذَا كَانَ إِيْمَانُهُ صَحِيحًا لَمْ يَرَهُ إِلَّا فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ، وَإِذَا كَانَ فِي إِيْمَانِهِ نَقْصٌ رَأَى مَا يُشَبِّهُ إِيْمَانَهُ وَرُؤْيَا الْمَنَامِ لَهَا حُكْمٌ غَيْرُ رُؤْيَا الْحَقِيقَةِ فِي الْيَقَظَةِ وَلَهَا، تَعْيِيرٌ وَتَأْوِيلٌ لِمَا فِيهَا مِنَ الْأَمْثَالِ الْمَضْرُوبَةِ لِلْحَقَائِقِ. اهـ

مسألة: أن محمداً رأى ربه:

هذه مسألة خلافة بين أهل السنة والجماعة والصحيح أن النبي لم ير ربه في اليقظة وإنما رآه مناماً للحديث المتقدم، وأما في اليقظة فلا، فعند مسلم (١٧٧): عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: كُنْتُ مُتَكِنًا عِنْدَ عَائِشَةَ؛ فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَائِشَةَ ثَلَاثُ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ: قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، قَالَ: وَكُنْتُ مُتَكِنًا فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِيْنِي وَلَا تَعْجَلِيْنِي، أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣] فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ: رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمَ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ»، فَقَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أَوْ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ [الشورى: ٥١].

وعن ابن مسعود أن النبي رأى جبريل له ستمائة جناح. رواه البخاري (٣٢٣٢) مسلم (١٧٤).

وعن عبد الله بن شقيق قال: قُلْتُ لِأَبِي ذَرٍّ: لَوْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ لَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: عَنْ أَيِّ شَيْءٍ كُنْتَ تَسْأَلُهُ؟ قَالَ: كُنْتُ أَسْأَلُهُ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ أَبُو ذَرٍّ: قَدْ سَأَلْتُ، فَقَالَ: «رَأَيْتُ نُورًا». رواه مسلم (١٧٨).

والنور هو الحجاب، لما جاء عن النبي : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَبْغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةٍ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ ». من حديث أبي موسى عند مسلم (١٧٩).

وما جاء عن ابن عباس أنه رأى ربّه وفي بعضها أنّه رآه بفؤاده فالمطلق محمول على المقيد وأنها رؤية قلبية لا رؤية بصرية.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٦/٥٠٩-٥١١): وَأَمَّا (الرُّؤْيُ) فَالَّذِي ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: (رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ) وَعَائِشَةُ أَنْكَرَتْ الرُّؤْيَا. فَمِنْ النَّاسِ مَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا فَقَالَ: عَائِشَةُ أَنْكَرَتْ رُؤْيَا الْعَيْنِ وَابْنُ عَبَّاسٍ أَثَبَتَ رُؤْيَا الْفُؤَادِ. وَالْأَلْفَاظُ الثَّابِتَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ هِيَ مُطْلَقَةٌ أَوْ مُقَيَّدَةٌ بِالْفُؤَادِ تَارَةً يَقُولُ: رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ وَتَارَةً يَقُولُ رَأَاهُ مُحَمَّدٌ؛ وَلَمْ يَثْبُتْ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ لَفْظٌ صَرِيحٌ بِأَنَّهُ رَأَاهُ بِعَيْنِهِ. وَكَذَلِكَ (الإمام أحمد) تَارَةً يُطْلِقُ الرُّؤْيَا؛ وَتَارَةً يَقُولُ: رَأَاهُ بِفُؤَادِهِ؛ وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ إِنَّهُ سَمِعَ أَحْمَدَ يَقُولُ رَأَاهُ بِعَيْنِهِ؛ لَكِنَّ طَائِفَةً مِنْ أَصْحَابِهِ سَمِعُوا بَعْضَ كَلَامِهِ الْمُطْلَقِ فَفَهِمُوا مِنْهُ رُؤْيَا الْعَيْنِ؛ كَمَا سَمِعَ بَعْضُ النَّاسِ مُطْلَقَ كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَفَهِمَ مِنْهُ رُؤْيَا الْعَيْنِ. وَلَيْسَ فِي الْأَدِلَّةِ مَا يَقْتَضِي أَنَّهُ رَأَاهُ بِعَيْنِهِ وَلَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ؛ بَلِ النُّصُوصُ الصَّحِيحَةُ عَلَى نَفْيِهِ أَدْلُ؛ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: «نُورٌ أَنَّى

أَرَاهُ»^(١). وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١] وَلَوْ كَانَ قَدْ أَرَاهُ نَفْسَهُ بِعَيْنِهِ لَكَانَ ذِكْرُ ذَلِكَ أَوَّلَى. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَفْتَمَرُوهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ [النجم: ١٢]. ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨] وَلَوْ كَانَ رَأَاهُ بِعَيْنِهِ لَكَانَ ذِكْرُ ذَلِكَ أَوَّلَى. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠] قَالَ: هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أَرَاهَا رَسُولُ اللَّهِ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ، وَهَذِهِ (رُؤْيَا الْآيَاتِ)؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ النَّاسَ بِمَا رَأَاهُ بِعَيْنِهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ فَكَانَ ذَلِكَ فِتْنَةً لَهُمْ حَيْثُ صَدَقَهُ قَوْمٌ وَكَذَّبَهُ قَوْمٌ وَلَمْ يُخْبِرْهُمْ بِأَنَّهُ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِهِ وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَحَادِيثِ الْمِعْرَاجِ الثَّابِتَةِ ذِكْرُ ذَلِكَ وَلَوْ كَانَ قَدْ وَقَعَ ذَلِكَ لَذَكَرَهُ كَمَا ذَكَرَ مَا دُونَهُ. وَقَدْ ثَبَتَ بِالنُّصُوصِ الصَّحِيحَةِ وَاتِّفَاقِ سَلَفِ الْأُمَّةِ أَنَّهُ لَا يَرَى اللَّهُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا بِعَيْنِهِ إِلَّا مَا نَازَعَ فِيهِ بَعْضُهُمْ مِنْ رُؤْيَا نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاصَّةً وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَيْنًا كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ. اهـ

مذهب الأشاعرة في الرؤية:

الأشاعرة وإن وافقوا أهل السنة في إثبات الرؤية إلا أن طريقتهم في إثباتها طريقة كلامية عقلية لا طريقة سنّية نبوية ولهذا يزعمون أن الله يرى لا في جهة ومعنى ذلك أنهم لا يثبتون لله علوًّا، وهذا من أقبح التناقض، حتى إن المعتزلة تكلموا عليهم بكلام شنيع في هذا الباب؛ لأنّ المعتزلة يُنكرون العلوَّ والرؤية،

(١) بهذا اللفظ فيه كلام، والمحفوظ: «رأيت نورًا» وهو في مسلم (١٧٨) أيضًا من حديث أبي ذر نفسه.

فأطردوا قولهم، والأشاعرة اضطربوا، قالوا: يُرى لا في جهة، وهذا من تناقضهم، فإمّا أن يُرى في العلوّ أو في السفلى أو يمين أو يسار أو أمام أو خلف، والله يُرى في العلوّ كما قال رسول الله : «نَعَمْ». قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةً الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ». قَالُوا: لَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا». الحديث.

والشمس في العلوّ، فشبه الرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي.

خاتمة الفصل

قال :

وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللَّهِ كَثِيرٌ.

(هذا) اسم إشارة إلى ما تقدّم من الأدلّة على إثبات الأسماء، والصفات، فهو في القرآن كثير لمن أراد أن يتتبع ذلك وقد ألّف العلماء كتب مفردة، ومضمنة لهذا الباب مثل ابن خزيمة في كتاب التوحيد ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، والبخاري في كتابه الصحيح كتاب التوحيد وكتاب خلق أفعال العباد ومسلم أشار إلى بعض ذلك في كتاب الإيمان ، وبقية السنن على هذا المنوال، وفي شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي وفي الشريعة للأجري ، و الإبانة لابن بطّة و الحجّة للأصفهاني ، وكتاب النعوت للنسائي شيء كثير من ذلك لمن أراد أن يتتبع؛ لأنّ أسماء الله ليست محصورة بعدد معلوم لنا، وصفاته أكثر من أسمائه؛ لأنّ كلّ اسم يتضمّن صفة، وكلّ فعل يُشتقّ منه صفة، والله فعّال لما يُريد. لكن أشار شيخ الإسلام إلى مهمّات في هذا الباب، وطالب العلم النبيه والسُّنّي الحريص الذي يريد لنفسه السلامة والخير يجعل هذا أصلاً ويمشي في غيره على منواله، فكما أنّه أثبت لله صفة الوجه، والسمع، والبصر، والعلم، واليدين، فكذلك يثبت لله بقيّة الصفات سواء الصفات الخبرية أو الصفات المعنوية أو الفعلية، وكما يُنزّه الله عن النقائص في الصفات السلبية ويثبت له تعالى كمال الضدّ منها، فكذلك يكون القول في بقيّة الصفات،

وهنا قاعدة: أن أي معنى يضاف إلى الله وهو معنى يقوم بغيره بإضافته إلى الله إضافة صفة إلى موصوف. لو قال: الله يسمع؟ قلنا نعم، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، الله يغضب؟ قلنا نعم، لقوله تعالى: ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المجادلة: ١٤]، الله ينزل؟ قلنا نعم، لقول النبي: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (١١٤٥)، مسلم (٧٥٨)، الله يعجب؟ نعم، قال الله تعالى: ﴿بِكُلِّ عَجَبَةٍ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]، بضم (عجبت) وقال النبي: «قَدْ عَجَبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ»، من حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٠٥٤).

فَسِرَ على هذا المنوال ومن كان نبيه يختصر على نفسه الطريق، عرف طريق وأصول أهل السنة سار عليها، حتى ولو وجد جهماً أو معتزلاً يأتيه ببعض التأويلات وبعض الشبه والله أنا ما أعرف قولك وقولك الذي تقوله متشابه وقد حذرنا الله من اتباع المتشابه وقد قال الرسول لعائشة: «فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَأَحْذَرُوهُمْ»، من حديث عائشة عند البخاري (٤٥٤٧)، مسلم (٢٦٦٥)، لكن أنا أفهم أن الله في السماء وأن الله متّصف بهذه الصفات وهذه الشبه التي تأتي بها أنا ما عندي علم فيها لكن إذا جئت عند العلماء ستجد ردّاً لها، هذا أضعف الإيمان إذا وردت عليك الشبه، إذا لم يكن عندك علم في ردّها وفي رفعها ابقى على عقيدة السلف وعلى منهجه.

قال :

مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ.

يتبين الحق بهذين الشرطين:

• **الأول:** التدبر والتفكر والتعقل لكلام الله ولكلام رسوله ، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

• **الثاني:** طلب الهدى فإن كثيرا من الناس يقرأ القرآن والسنة وهو ليس مريدا للهداية ولا ملتصقا بطرقها فيظل وينحرف، فما أثبتته الله ورسوله أثبتته من غير تحرج ما أنت أعلم بالله منه ولا أنت أزهد من الرسول ، الله أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قبيلا وأحسن حديثا، أخبرنا أن له أسماء وصفات.

قال : (فَصُلِّ) ثُمَّ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ،
وَتُبَيِّنُهُ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ، وَتُعَبِّرُ عَنْهُ، وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ مِنْ
الْأَحَادِيثِ الصَّحَاحِ.

عطف على قوله: (وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ
الْإِنْخِلَاصِ.. إلخ)

أي ودخل في ذلك ما أثبتته رسوله لأن الرسول أعلم بالله من
غيره من البشر، ولأنه الصادق المصدوق، صادق في نفسه مصدوق من ربه
ولأنه يتكلم بلسان عربي مبين وليس بالكن قال : «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ»،
من حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٩٧٧)، مسلم (٥٢٣)، ولأنه
ناصح في قوله وفعله، وإذا وجدت هذه الصفات في، المخبر فلا يرد الخبر إلا
من سغه نفسه، ثم إن من مقتضى شهادة أن محمدا رسول الله تصديقه فيما أخبر،
وداخل في قول الله : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَلِكُنْتُمْ
أَلَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَلِكُنْتُمْ أَلَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]، والإيمان
بالله يتضمن الإيمان بأسمائه وصفاته وبما أخبر في كتابه والإيمان بالنبي
يتضمن الإيمان به وبما أخبر والإيمان بالقرآن يتضمن الإيمان به وبما تضمن من
آيات صفات وأحكام فلا يكون حالنا كحال الكافرين الذين يفرقون بين هذه
الأشياء، قال الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ومن تدبر سنة رسول الله طالبا للهدى تبين له
الحق، فالسنة تفسر القرآن وتبينه كما قال الإمام أحمد . وقال يحيى بن أبي
كثير: (السُّنَّةُ قَاضِيَةٌ عَلَى الْقُرْآنِ، وَلَيْسَ الْقُرْآنُ بِقَاضٍ عَلَى السُّنَّةِ) أخرجه

الدارمي (٦٠٧)، ومراده أنها مفسرة للقرآن، ومبينة له، فالله أخبرنا في كتابه بوجوب الصلاة وبفرضيتها، فبينتها السنة، وقال : «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»، من حديث مالك بن حويرث عند البخاري (٦٠٠٨)، وأمر بالزكاة، وحددت الأنصبة بالسنة، وأمر بالحج، ووضح الحج وبينه النبي حيث قال: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»، أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر ، فالشاهد أن السنة مفسرة للقرآن وقد قال بعض السلف: (القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن)، لأن الله قال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وكان النبي يتأول القرآن أي يعمل به ففي حديث جابر عند مسلم (١٢١٨) قال: ورسول الله بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله وما عمل به من شيء عملنا به. وكان الصحابة يعرفون المراد من كلام الله وكلام رسوله وهذا رد على القرآنيين الذين يزعمون أن القرآن يكفي، ومن زعم ذلك، ولا يرى حجية السنة كفر كفراً أكبر مخرج من الملة لأن القرآن أمر بالأخذ بالسنة قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، وقال : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقال : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ١٣٢] في آيات كثيرات من القرآن، والنبي يقول: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَكِبًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ لَا نَذْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ»، رواه أبوداود (٤٦٠٥)، الترمذي (٢٦٦٣)، ابن ماجه

(١٣) من حديث أبي رافع ، ومن عجيب أمرهم أنهم يستدلون بحديث موضوع (إذا جاءكم حديث من حديثي فاعرضوه على القرآن فإن وافق القرآن فخذوا به وإلا فردوه) فقال الشوكاني وقبله ويحيى بن معين وغيره: (عرضنا هذا الحديث على القرآن فردّه)، يرده قول الله : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقيّد الأحاديث بالصحيح ولم يقيده في القرآن لأنّ القرآن ما دخله التغير والتبديل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، والوحي الصحيح من السنّة حفظه الله وإنّما وقع التبديل والتغير في ما ليس من شرعنا فأدخلت موضوعات وضعاف ومراسيل وغير ذلك فقيّد بالسنّة الصحيحة فالحديث الصحيح يفيد العلم وفي هذا بيان أنّ خبر الآحاد بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه ولم يكن شاذاً ولا معللاً سواء كان آحاداً أو متواتراً، والسنّة هي الدليل الثاني عند المسلمين، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]. وَقَالَ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وَقَالَ أَمْرًا لِنِسَاءِ نَبِيِّهِ: ﴿وَأَذْكُرْكُنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]. والحكمة هي السنّة.

قال :

الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الْإِيْمَانُ بِهَا كَذَلِكَ.

ويدخل في المتلقى من أخبار الرسول الصحيح لذاته، ولغيره، والحسن لذاته ولغيره.

وأشترط أهل المعرفة لأنهم هم أهل الحديث الذين يُميزون صحيح الحديث من سقيمه وضعيفه من سليمه.

قال الهراس: وَأَهْلُ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ بِإِزَاءِ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ فَرِيقَانِ:

١- فَرِيقٌ لَا يَتَوَرَّعُ عَنْ رَدِّهَا وَإِنْكَارِهَا إِذَا وَرَدَتْ بِهَا يُجَالِفُ مَذْهَبَهُ؛ بِدْعَوَى أَهْلِ أَحَادِيثِ أَحَادٍ لَا تُفِيدُ إِلَّا الظَّنَّ، وَالْوَاجِبُ فِي بَابِ الْإِعْتِقَادِ الْيَقِينُ، وَهُؤُلَاءِ هُمْ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْفَلَّاسِفَةُ.

٢- وَفَرِيقٌ يُثَبِّتُهَا وَيَعْتَقِدُ بِصِحَّةِ النَّقْلِ، وَلَكِنَّهُ يَشْتَغِلُ بِتَأْوِيلِهَا؛ كَمَا يَشْتَغِلُ بِتَأْوِيلِ آيَاتِ الْكِتَابِ، حَتَّى يُخْرِجَهَا عَنْ مَعَانِيهَا الظَّاهِرَةِ إِلَى مَا يُرِيدُهُ مِنْ مَعَانٍ بِالْإِلْحَادِ وَالتَّخْرِيفِ، وَهُؤُلَاءِ هُمْ مُتَأَخِّرُو الْأَشْعَرِيَّةِ، وَأَكْثَرُهُمْ تَوَسُّعًا فِي هَذَا الْبَابِ الْغَزَالِيُّ، وَالرَّازِيُّ.

قال :

فَمِنْ ذَلِكَ.

(من) للتبعيض لأن ذكر كل الأدلة متعذر لكن تذكر أشارات تغني عن كثرة التطويل، والعبارات. و(ذلك) اسم إشارة إلى ما تقدّم من قوله: ويدخل في ذلك...

إثبات صفة النزول إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل

قوله :

مِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ومن قول أهل السنة أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة في الثلث الأخير من الليل، يؤمنون بذلك من غير تكيف، فعن أبي هريرة أن رسول الله قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»، أخرجه البخاري رقم (١١٥٤) (٦٣٢١) (٧٤٩٤)، ومسلم رقم (٧٥٨).

وأخرج الحديث مسلم برقم (٧٥٨-١٧٢) عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ يُمَهِّلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ؟ حَتَّى يَنْفَجَرَ الْفَجْرُ».

وفي لفظ له من حديث أبي هريرة: «يَنْزِلُ اللَّهُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا لِشَطْرِ اللَّيْلِ، أَوْ لِثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، أَوْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، ثُمَّ يَقُولُ: مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ، وَلَا ظَلُومٍ».

وفي رواية له أيضًا: «إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ، أَوْ ثُلُثَاهُ، يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ».

وفي لفظ له: «يَنْزِلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمُضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيَءَ الْفَجْرُ».

وأخرج الإمام أحمد (٣٦٧٣ / ١) من طريق أبي الأحوص عن ابن مسعود أن رسول الله قال: «إِذَا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْبَاقِي، يَهْبِطُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ تُفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يَسْطُرُ يَدَهُ، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى سُؤْلُهُ؟ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ، حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ»، قال الوادعي في الصحيح المسند: هذا حديث صحيح رجاله رجال الصحيح.

وأخرج الإمام أحمد (١٦ / ٤) من طريق هلال ابن أبي ميمونة عن عطاء بن يسار عن رفاعة الجهمي عن رسول الله قال: «إِذَا مَضَى نِصْفُ اللَّيْلِ - أَوْ قَالَ: ثُلُثَا اللَّيْلِ - يَنْزِلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي أَحَدًا غَيْرِي، مَنْ ذَا يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ، مَنْ الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبُ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ»، قال الوادعي: هذا حديث صحيح رجاله رجال الصحيح.

وأخرج الإمام أحمد في مسنده (٨١ / ٤) وابن أبي عاصم رقم (٥١٩) وغيرهما، من طريق حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن نافع بن جبير عن

أبيه أن رسول الله قال: «يُنْزَلُ اللَّهُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟»، إسناده صحيح، وأخرجه ابن خزيمة رقم (١٨٥) من هذه الطريق.

وقد جاء عن غيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم حتى قال ابن القيم: هذا الحديث روي عن ثلاثة وعشرين صحابياً، وإنما سقنا بعض هذه الطرق للاستفادة.

وقد جاءت في بعض الطرق زيادات مثل: «حتى ترحل الشمس»، وهي شاذة، نصّ على ذلك الحافظ في الفتح (٤١/٣).

قال ابن القيم في زاد المعاد (٦٧٧/٣): اعلم رحمك الله بأن حديث النزول حديث كبير جليل تنادي جلالته وفخامته وعظمته على أنه قد خرج من مشكاة النبوة. اهـ

وقال: كما في مختصر الصواعق : وهو قرة لعيون أهل الإيمان وشجى في حلوق أهل التعطيل والبهتان. اهـ

واعلم هداك الله أن الأخذ بظاهر هذا الحديث درج عليه السلف ومن تبعهم بإحسان، قال الشافعي في وصيته (٥٤): القول في السنة التي أنا عليها ورأيت أصحابنا عليها أهل الحديث الذين رأيتهم فأخذت عنهم مثل سفيان ومالك وغيرهم، الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله... وأن الله على عرشه في سماه يقرب من خلقه كيف شاء، وأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء. اهـ

وقال أبو العباس السراج: من لم يقر ويؤمن بأن الله تعالى يعجب ويضحك وينزل كل ليلة إلى السماء فيقول: «مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ»، فهو زنديق كافر يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ولا يُصلى عليه ولا يُدفن في مقابر المسلمين؛ العلو (ص ٥٣٤).

قال الذهبي في السير (١٤ / ٣٩٦) بعد سوق الأثر: إنها يكفر بعد علمه بأن رسول الله قال ذلك ثم إن جحد ذلك ولم يؤمن به. اهـ

وقد قال أبو بكر بن أبي داود في حائيته:

وَقُلْ يَنْزِلُ الْجَبَّارُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ = بَلَا كَيْفَ جَلَّ الْوَاحِدُ الْمُتَمَدِّحُ

إِلَى طَبَقِ الدُّنْيَا يَمُنُّ بِفَضْلِهِ = فَتَفْرُجُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَتُفْتَحُ

يَقُولُ أَلَا مُسْتَغْفَرٌ يَلْقَى غَافِرًا = وَمُسْتَمْنَحٌ خَيْرًا وَرِزْقًا فَيَمْنَحُ

رَوَى ذَلِكَ قَوْمٌ لَا يَرُدُّ حَدِيثُهُمْ = أَلَا خَابَ قَوْمٌ كَذَّبُوهُمْ وَقُبُّوا

ومراده بقول: (بلا كيف)، أي بلا كيف معلوم لنا، وإلا فإن لنزوله سبحانه كيفية يعلمها هو.

قال شيخ الإسلام في التدمرية (ص ٢٠): إذا قال: كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا؟ قيل له: كيف هو؟ فإذا قال: لا أعلم كيفيته قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف وهو فرع له وتابع له؛ فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره وتكليمه واستوائه ونزوله وأنت لا تعلم كيفية ذاته. وإذا كنت تقر بأن له حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء فسمعه وبصره وكلامه ونزوله

واستواؤه ثابت في نفس الأمر وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها
سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزولهم واستواؤهم. اهـ

ولذلك يقول في لاميته :

وَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ حَقَّ رَبِّهِمْ وَإِلَى السَّمَاءِ بِغَيْرِ كَيْفٍ يَنْزِلُ

قال الصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث (٢٦-٢٧):

ويثبت أهل الحديث نزول الرب في كل ليلة إلى السماء الدنيا من غير تشبيه
له بنزول المخلوقين ولا تمثيل ولا تكيف، بل يثبتون له ما أثبتته رسوله
ويمرون الخبر الصحيح الوارد على ظاهره ويكون علمه إلى الله تعالى. اهـ

وقال أبو الخطاب الكلواذاني كما في كتاب الكلمات الحسان في علو

الرحمن :

قَالُوا النُّزُولُ فَقُلْتُ نَاقِلُهُ لَنَا قَوْمٌ تَمَسَّكُهُمْ بِشَرِّ مُحَمَّدٍ

قَالُوا فَكَيْفَ نَزُولُهُ فَأَجَبْتُهُمْ لَمْ يُنْقَلِ التَّكْيِيفُ لِي فِي مُسْنَدٍ

وما أحسن ما قال أبو عمرو الداني في أرجوزته المنبهة:

فَمِنْ صَحِيحٍ مَا أَتَى بِهِ الْأَثَرُ وَشَاعَ فِي النَّاسِ قَدِيمًا وَانْتَشَرَ

نُزُولُ رَبِّنَا بِلَا امْتِرَاءٍ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ

مِنْ غَيْرِ مَا حَدَّ وَلَا تَكْيِيفٍ سُبْحَانَهُ مِنْ قَادِرٍ لَطِيفٍ

ونصوص العلماء كثيرة في إثبات صفة النزول إلى السماء الدنيا لله وأدلة

النزول استدلل بها العلماء على علو الله لأن النزول إنما يكون من العلو.

ولا يجوز السؤال عن كيفية الصفة كما نقل ذلك الذهبي في العلو وصححة الألباني في المختصر (ص ٢٣١) قال أبو الطيب: حضرت عند أبي جعفر الترمذي فسأله سائل عن حديث النزول، فالنزول كيف هو يبقى فوقه علو؟ فقال: النزول معقول والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

قال الذهبي عقبه: صدق فقيه بغداد وعالمها في زمانه إذ السؤال عن النزول ما هو عي لأنه إنما يكون السؤال عن كلمة غريبة في اللغة وإلا فالنزول والكلام والسمع والبصر والعلم والاستواء عبارات جلية واضحة للسامع فإذا اتصف بها من ليس كمثله شيء فالصفة تابعة للموصوف وكيفية ذلك مجهولة عند البشر وكان هذا الترمذي من بحور العلم ومن العباد الورعين مات سنة خمس وتسعين ومائتين. انتهى

وقد ذهب المبتدعة من المعتزلة والأشاعرة على طريقتهم الشنعاء في تحريف كلام الله وكلام رسوله فقالوا: إنما هو نزول ملك من الملائكة أو نزول أمر الله ورحمته، والرد عليهم من وجوه يعرف بعضها من لديه مزعة عقل وسلامة معتقد.

الوجه الأول: كيف يعقل أن يقول الملك: «مَنْ يَدْعُونِي»، «مَنْ يَسْأَلُنِي»، «مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي»، وهذه عبادات لا تصرف إلا الله وصرها لغير الله شرك أكبر مخرج من الملة، والملائكة قد قال الله عنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، والملك إذا تكلم عن الله لا يتكلم بصيغة المخاطب بل يقول: إن الله أمر بكذا كما في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا

جَبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أَحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ فَيَبْغِضُوهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبُغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ»، أخرجه مسلم (٢٦٣٧).

الوجه الثاني: في بعض ألفاظ الحديث التي تقدم ذكره يقول الله تعالى إذا نزل: «أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَاسْتَجِبْ لَهُ»، وفي رواية تقدمت أيضًا: «لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي أَحَدًا غَيْرِي».

قال الحافظ المقدسي في كتابه الاقتصاد في الاعتقاد (١٠٦): وهذان الحديثان يقطعان تأويل كل متأول ويدحضان حجة كل مبطل. اهـ

الوجه الثالث: لو علم رسول الله أن النازل ملك من الملائكة لصرح بذلك.

الوجه الرابع: من المعلوم أن الذي يغفر الذنوب ويستجيب الدعوات ويعطي السائلين هو الله تعالى لا غيره، قال تعالى: ﴿وَلِيَّ لَغَفَّارٍ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

الوجه الخامس: أنه قال في الحديث: «يُنْزَلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، وفي رواية: «يُنْزَلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ»، فكيف يسوغ لهم صرف الكلام عن ظاهره الحق إلى مجازه الباطل بدون قرينة.

الوجه السادس: أن الملائكة لا تزال تنزل بالليل والنهار إلى الأرض، كما قال تعالى: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢]، وقوله: ﴿وَمَا نُنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةُ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ» الحديث.

وأما من تأول النزول بمعنى نزول أمره أو رحمته فالرد كذلك من وجوه:

الأول: ما قاله ابن عبد البر في الاستذكار (١٤٨/٨): وقد قال قوم إنه ينزل أمره وتنزل رحمته ونعمته، وهذا ليس بشيء لأن أمره بما شاء من رحمته ونعمته ينزل بالليل والنهار بلا توقيت ثلث الليل ولا غيره.

وقال ابن خزيمة كما في تذكرة الحفاظ (٧٢٨/٢): وأنه تعالى ينزل إلى السماء الدنيا ومن زعم أن علمه ينزل أو أمره ضل.

الثاني: قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٣٧٢-٨٧٣): إن من تأول ذلك بنزول رحمته أو غير ذلك قيل له: الرحمة التي تثبت بها إما أن تكون عيناً قائمة بنفسها وإما أن تكون صفة قائمة في غيرها، فإن كانت عيناً وقد نزلت إلى السماء الدنيا لم يمكن أن تقول: من يدعوني فأستجيب له كما لا يمكن للملك أن يقول ذلك، وإن كانت صفة من الصفات فهي لا تقوم بنفسها بل لا بد لها من محل ثم لا يمكن للصفة أن تقول هذا الكلام ولا محلها، ثم إذا نزلت الرحمة إلى السماء الدنيا ولم تنزل إلينا فأني منفعة لنا في ذلك. اهـ

الثالث: معلوم أنه لا يجيب الدعاء ويغفر الذنوب ويعطي كل سائل إلا الله، وأمره ورحمته لا تفعل شيئاً من ذلك؛ الكلمات الحسان (٢٧٠).

الرابع: إجماع السلف رضوان الله عليهم على إثبات نزول الله تعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل بل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الخامس: ما ذكره الدارمي في الرد على الجهمية (ص ٨٢) ومعنى عبارته أننا أتينا بنصوص عن النبي وأصحابه والتابعين صحيحة صريحة أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة، وقد علمتم أننا لم نخترع هذه الروايات فأتوا ببعضها أنه لا ينزل منصوصاً كما روينا عنهم النزول منصوصاً. اهـ وذهب بعضهم إلى أن النزول مجاز وأن المراد بالنزول الإحسان والرحمة وأيد باطله، بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]، قال: معلوم أن الأنعام ثمانية أزواج لم تنزل من السماء إلى الأرض، وهذا الكلام مردود على قائله.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في المجموع (١٢/٢٥٧): ليس في القرآن ولا في السنة لفظ نزول إلا وفيه معنى النزول المعروف -أي الهبوط والدنو من علو-، وهذا هو اللائق بالقرآن فإنه نزل بلغة العرب ولا تعرف العرب نزولاً إلا بهذا المعنى، ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطاباً بغير لغتها. اهـ

وقال (١٢/٢٤٧-٢٤٩): النزول في كتاب الله ثلاثة أنواع نزول مقيد بأنه منه، ونزول مقيد بأنه من السماء، ونزول غير مقيد لا بهذا ولا بهذا - أي مطلق -.

فالأول: لم يرد إلا في القرآن قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ مِنَ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقوله: ﴿نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١].

ولهذا قال السلف: القرآن كلام الله ليس بمخلوق منه بدأ وإليه يعود.

وأما النزول المقيد بالسماء فقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، والسماء اسم جنس لكل ما على، فإذا قيده بشيء معين تقيد به كقوله في غير موضع من السماء مطلق أي في العلو، ثم قد قيده في موضع آخر بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا نَزْلًا مِنْ السَّمَاءِ نَزْلًا مِّنْ نَّحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٩].

وقوله: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَاقِرٌ يَقْبِضُهُ بِأَلْبَصَرٍ﴾ [النور: ٤٣].

ومما يشبه نزول القرآن قوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]، فنزول الملائكة هو نزولهم بالوحي من عنده.

وأما المطلق فمنها ما ذكر في إنزال السكينة: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَإِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ وَجَعَلَهَا عَلَىٰ الَّذِينَ أَحَبَبْنَا إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ٢٥٣].

السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿التوبة: ٤٠﴾، ومن ذلك إنزال الميزان وجمهور العلماء على أنه المراد به العدل.

إلى أن بين أن المراد بإنزال الحديد هو إنزاله من رءوس الجبال، والمراد بإنزال الأنعام نزولها من بطون أمهاتها وأصلاب آبائها؛ اهـ مختصراً.

وذكر ابن القيم أيضاً كما في مختصر الصواعق (٢/ ٢٢٤): من الأوجه التي تدل على أن النزول هنا حقيقي وبعيد عن قرينة المجاز التعبير عنه بعبارات متنوعة كالهبوط والدنو والمجيء والإتيان والطواف في الأرض قبل يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. ففرق بين إتيان الملائكة وإتيان نفسه.

شبهات أهل التحريف في أهل النزول:

قالوا: الليل ينتقل من مكان إلى آخر، فثلث الليل مثلاً في الشرق ينتقل حتى يكون في الغرب فعلى هذا يكون الله دائماً في نزول؟

قال شيخ الإسلام (٥/ ٢٤٣-٢٤٤): والليل يختلف فيكون ثلثه في المشرق قبل أن يكون ثلثه بالمغرب، ونزوله الذي أخبر به رسول الله إلى سماء هؤلاء في ثلث ليلهم وإلى سماء هؤلاء في ثلث ليلهم، لا يشغله شأن عن شأن وكذلك قربه من الداعي المتقرب إليه، والساجد لكل واحد يحسبه أين كان وحيث كان والرجلان يسجدان في موضع واحد، ولكل واحد منهما قرب يخصه لا يشركه فيه الآخر.

والنصوص الواردة في الهدى والشفاء والذي بلغها بلاغاً مبيناً هو أعلم الخلق بربه وأنصحهم لخلقه وأحسنهم بياناً وأعظم بلاغاً...

وكل من من الله عليه ببصيرة في قلبه تكون معه معرفة بهذا، قال الله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]، وقال في ضدهم: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُفُّوا وَبُكِّمُوا فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]. اهـ

وقال ابن رجب في فضل علم السلف على الخلف كما نقله صاحب الكلمات الحسان (٢٨٦): ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام قبح هذا الاعتراض وأن رسول الله وخلفاءه لو سمعوا من يعترض به لما ناظروه بل بادروا إلى عقوبته وإحاقه بزمرة المخالفين المنافقين المكذبين. اهـ

ويجب علينا أيضاً الإيمان بما جاء من نصوص صفات الله الفعلية والذاتية من المعاني والحقائق والكف عن محاولة التكييف والتمثيل أو التعطيل، فالله ليس كمثال شيء وهو السميع البصير.

فالذي تعبنا الله تعالى به أن نؤمن أنه ينزل ولم يتعبنا بكيف ينزل ولا غيرها من تراهاات المبتدعة بل: ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

هل نقول: نزل بذاته أم لا؟

نحن نؤمن أن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل حقيقة، لكن هل نقول ينزل بذاته؟

جاء حديث مرفوع من طريق نعيم بن حماد عن جرير عن ليث عن بشر عن أنس أن النبي قال: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْزِلَ عَنْ عَرْشِهِ نَزَلَ بِذَاتِهِ».

قال ابن تيمية (٣٩٤ / ٥) من مجموع الفتاوى : ضعف هذا اللفظ أبو القاسم إسماعيل التميمي وغيره من الحفاظ مرفوعاً، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات . اهـ

وقال ابن القيم كما في المختصر (٢٢٣ / ٢): وهذا اللفظ لا يصح عن النبي .

قال ابن القيم كما في المختصر (٢٢٣ / ٢): إن الخبر وقع عن نفس ذات الله لا عن غيره، فإنه قال: «إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ»، فهذا خبر عن معنى لا عن لفظ.

وقوله: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، هو خبر عن ذات الرب تعالى فلا يحتاج المخبر أن يقول الله خالق كل شيء بذاته...

وكذلك جميع ما أخبر الله به عن نفسه إنما هو خبر عن ذاته لا يجوز أن يخص من ذلك خبراً واحداً البتة، فالسامع قد أحاط علماً بأن الخبر إنما هو عن ذات المخبر عنه...

فلا حاجة بنا أن نقول استوى على عرشه بذاته وينزل إلى السماء بذاته كما إننا لا نحتاج أن نقول خلق بذاته وقدر بذاته وسمع وتكلم بذاته، وإنما قال أئمة السنة ذلك لإبطالاً لقول المعطلة. اهـ

ومن قال إنه ينزل بذاته الإمام أبو حامد والإمام عبد الجليل كوتاه كما ذكر ذلك ابن رجب في فتح الباري (٢٧٨ / ٩).

وقد علق الذهبي على قول كوتاه السابق ومسألة النزول، فالإيمان به واجب وترك الخوض في لوازمه أولى وهو سبيل السلف فما قال هذا نزوله بذاته إلا إرغاماً لمن تأوله، وقال نزوله إلى السماء الدنيا بالعلم فقط نعوذ بالله من مرء في الدين، وكذا قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، ونحوه فنقول جاء وتنزل، وننتهي عن القول ينزل بذاته كما لا نقول ينزل بعلمه بل نسكت ولا نتصافح على الرسول بعبارة مبتدعة، والله أعلم. اهـ السير (٣٣١ / ٢).

مسألة هل يخلو منه العرش أم لا ؟

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٣٧٥ / ٥): ... ثم بعد هذا هل يخلو منه العرش أو لا يخلو؟ هذه مسألة أخرى تكلم فيها أهل الإثبات:

١ - فمنهم من قال: لا يخلو منه العرش، ونقل ذلك عن أحمد في رسالته إلى مسدد وعن إسحاق بن راهويه وحماد بن زيد وعثمان بن سعيد الدارمي وغيرهم قال: ومنهم من أنكر ذلك وطعن في هذه الرسالة وقال راويها عن أحمد مجهول لا يعرف.

ثم نقل أثر حماد بن زيد الذي ذكره الخلال في كتابه السنة وأنه سئل عن حديث النزول وقيل له: يتحول من مكان إلى مكان، فسكت حماد ثم قال: هو في مكانه يقرب من خلقه كيف شاء.

وأما أثر إسحاق فقد أخرجه ابن بطة أنه قال له ابن طاهر: تروون أن الله ينزل إلى السماء الدنيا؟ قال: نعم رواها الثقات الذين يروون الأحكام فقال ابن طاهر: ينزل ويدع عرشه فقلت: يقدر أن ينزل من غير أن يخلو منه العرش، قال: نعم، قلت: ولم تتكلم في هذا.

٢- ومنهم من ينكر أن يقال يخلو ولا يخلو: كما يقول ذلك الحافظ عبدالغني المقدسي وغيره.

٣- ومنهم من يقول يخلو منه العرش: وقد صنف ابن منده مصنفاً في الإنكار على من يقول: لا يخلو منه العرش. اهـ

وقال (٤١٤ / ٥) بعد أن ذكر الأقوال: وكثير من أهل الحديث يتوقف عن أن يقول: يخلو أولاً يخلو وجهورهم على أنه لا يخلو منه العرش. اهـ والتوقف أسلم نقول: ينزل ربنا نزولاً حقيقياً يليق بجلاله ولا نخوض في لوازم ذلك.

الحركة والانتقال:

ويلحق بهذه المسألة هل نزول الله إلى السماء الدنيا يكون بحركة وانتقال أم لا؟

أولاً: يجب أن يعلم أن على المسلم أن يؤمن بما جاء عن الله وبما جاء عن النبي على مرادهما: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ إِلَّا رِسْالًا قَدْ خُذُوا مِنْهَا نَهْجًا﴾ [الحشر: ٧]، إلى غيرها من الآيات.

فإن قول الله هو الحق المبين، ولأن الله هو أعلم بنفسه وبغيره سبحانه ولأن رسول الله أعلم الخلق بالله تعالى وأنصحهم أيضاً فما قاله قلناه وما سكت عنه يسعنا ما وسعه، والأولى في هذه المسألة هو التوقف على الدليل.

قال الذهبي في المذهب في اختصار السنن الكبرى (٢/٤٧٠):
الصواب في حديث النزول ونحوه ما قاله مالك وأقرانه، يمر كما جاء بلا كيف،
ولازم الحق حق ونفي الانتقال وإثباته عبارة محدثة، فإن ثبت في الأثر روينها
ونطقنا بها وإن نفيت في الأثر نطقنا بالنفي وإلا لزمنا السكوت وآمنا بما ثبت في
الكتاب والسنة على مقتضاه.

وقال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٦/٤٢٦): والأحسن
في هذا الباب مراعاة ألفاظ النصوص فالألفاظ التي جاء بها الكتاب والسنة في
الإثبات تثبت والتي جاءت بالنفي تنفى والألفاظ المجملة كلفظ (الحركة)
و(الانتقال)... يجب أن يقال إنه منزّه عن مماثلة المخلوقين من كل وجه. اهـ

قال ابن القيم كما في مختصر الصواعق (٢/٢٥٧): وأما الذين
أمسكوا عن الأمرين وقالوا: لا نقول يتحرك ويتنقل ولا ننفي ذلك عنه، فهم
أسعد بالصواب والاتباع فإنهم نطقوا بما نطق به النص وسكتوا عما سكت،
وتظهر صحة هذه الطريقة ظهوراً تاماً فيما إذا كانت الألفاظ التي سكت النص
عنها مجملة محتملة لمعنيين صحيح وفاسد، كلفظ الحركة والجسم والانتقال
والحيّز والجهة. اهـ

وممن ذهب إلى إثبات الحركة لله تعالى عثمان بن سعيد الدارمي في رده على
المريسي (ص ١٦٤)، ونقله شيخ الإسلام أيضاً في تعارض العقل والنقل
عن حرب بن إسماعيل بن خلف الكرمانى صاحب الإمام أحمد قال:
وغيرهما، قال: وذكر حرب أنه قول من لقيه من أئمة السنة كأحمد وإسحاق

وعبدالله بن الزبير الحميدي وسعيد بن منصور، وقال عثمان بن سعيد وغيره: الحركة من لوازم الحياة فكل حي متحرك، وجعلوا نفي هذا من أقوال الجهمية. قال: وطائفة أخرى من السلف كنعيم بن حماد والبخاري وأبي بكر بن خزيمة وغيرهم كأبي عمر بن عبد البر وأمثلة يثبتون المعنى الذي يثبته هؤلاء ويسمون ذلك فعلاً ونحوه لكن يمتنعون عن إثبات لفظ الحركة لكونه غير مأثور.

وأصحاب أحمد منهم من يوافق هؤلاء كأبي بكر عبدالعزيز وأبي عبدالله بن بطة وأمثالهما، ومنهم من يوافق الأولين كأبي عبدالله بن حماد وأمثاله. اهـ

معنى النزول عند الأشعري:

معنى النزول عند الأشاعرة ومن وافقهم ممن ينفون قيام الأفعال الاختيارية به سبحانه: تقريب العرش إلى ذاته من أجل أنه يقوم به فعل، بل يجعل أفعاله اللازمة كالنزول والاستواء كأفعاله المتعدية كالخلق والإحسان وكل ذلك هو المفعول المنفصل عنه. اهـ شرح حديث النزول لشيخ الإسلام (ص ١٨١).

وقال البيهقي في الأسماء والصفات: ... عن الأشعري أن المراد بالنزول هو فعل يحدثه الله في السماء الدنيا كل ليلة يسميه نزولاً بلا حركة ولا نقلة. اهـ وسبب قولهم هذا أنهم ينفون قيام الحوادث به، وهذا القول مخالف لبداة العقول، فضلاً عن المنقول، وما علم من الأصول.

بينما السلف يقولون: ينزل كيف شاء ويفعل ما شاء وكما شاء.

قال الفضيل بن عياض: إذا قال لك الجهمي: أنا أكفر برب ينزل عن مكانه، فقل: أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء.

وسواء عليك فهمت سفسطة القوم أم لا، فالذي يلزم الإيمان بكل ما جاء عن الله ، وعن رسوله في مسائل الصفات بدون تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، والواجب على المسلم عدم الخوض فيما يعكر عليه معتقده السليم، ولكن لجأ أهل السنة والحديث إلى ذكر أقوال الجهمية والمعتزلة والأشاعرة من أجل تبين عوارها لا فرحاً بوجودها، فالله المستعان وعليه التكلان.

📌 فائدة:

أدلة نزول الله إلى السماء الدنيا يُثبت بها علو الله على عرشه وحديث: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ»، من حديث أبي أمامة عند الترمذي (٣٥٧٩)، يدل على هذا المعنى على أن الله ينزل إلى السماء الدنيا. انتهى من كتابي سلامة الخلف في طريقة السلف .

إثبات صفة الفرح لله

قال :

وَقَوْلُهُ ﷺ: «لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ فَأَنْفَلَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيْسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةٌ عِنْدَهُ فَاخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ».

من حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٧٤٧).

فيه إثبات صفة الفرح لله تعالى، وهي من الصفات الفعلية، وجاء الحديث بنحوه عن الحارث بن سويد قال دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ أَعُوذُهُ وَهُوَ مَرِيضٌ فَحَدَّثَنَا بِحَدِيثَيْنِ حَدِيثًا عَنْ نَفْسِهِ وَحَدِيثًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ ثُمَّ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ. فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ»، رواه مسلم (٢٧٤٤)، عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ، قَالَ: «لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ حَمَلَ زَادَهُ وَمَزَادَهُ عَلَى بَعِيرٍ ثُمَّ سَارَ حَتَّى كَانَ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَأَدْرَكَتْهُ الْقَائِلَةُ فَنَزَلَ فَقَالَ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ وَانْسَلَّ بَعِيرُهُ فَاسْتَيْقَظَ فَسَعَى شَرَفًا فَلَمْ يَرَ

شَيْئًا ثُمَّ سَعَى شَرَفًا ثَانِيًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا ثُمَّ سَعَى شَرَفًا ثَالِثًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا فَأَقْبَلَ حَتَّى
 أَتَى مَكَانَهُ الَّذِي قَالَ فِيهِ فَبَيَّنَّا هُوَ قَاعِدٌ إِذْ جَاءَهُ بَعِيرُهُ يَمْشِي حَتَّى وَضَعَ خِطَامَهُ
 فِي يَدِهِ فَلَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ مِنْ هَذَا حِينَ وَجَدَ بَعِيرَهُ عَلَى حَالِهِ»، رواه
 مسلم (٢٧٤٥)، وَعَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «كَيْفَ
 تَقُولُونَ بِفَرَحِ رَجُلٍ انْفَلَتَ مِنْهُ رَاحِلَتُهُ تَجُرُّ زِمَامَهَا بِأَرْضٍ قَفَرٍ لَيْسَ بِهَا طَعَامٌ وَلَا
 شَرَابٌ وَعَلَيْهَا لَهُ طَعَامٌ وَشَرَابٌ فَطَلَبَهَا حَتَّى شَقَّ عَلَيْهِ ثُمَّ مَرَّتْ بِجَذَلِ شَجَرَةٍ
 فَتَعَلَّقَ زِمَامَهَا فَوَجَدَهَا مُتَعَلِّقَةً بِهِ»، قُلْنَا شَدِيدًا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ
 : «أَمَّا وَاللَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنَ الرَّجُلِ بِرَاحِلَتِهِ»، رواه مسلم
 (٢٧٤٦)، وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ «اللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ
 عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ إِذَا اسْتَيْقِظَ عَلَى بَعِيرِهِ قَدْ أَصْلَهُ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ»، رواه مسلم
 (٢٧٤٧).

في الحديث فضل التوبة إلى الله وهي مع ذلك من الواجبات، قال الله
 تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وفي الحديث العذر بالخطأ، وفيه دلالة على العذر بالجهل وليس كل من
 وقع في مكفر كافر بل لا بد من توفر الشروط وانتفاء الموانع، قال الهراس: وَإِذَا
 كَانَ الْفَرْحُ فِي الْمَخْلُوقِ عَلَى أَنْوَاعٍ؛ فَقَدْ يَكُونُ فَرْحٌ خِيفَةً وَسُرُورٍ وَطَرَبٍ، وَقَدْ
 يَكُونُ فَرْحٌ أَشْرٍ وَبَطَرٍ؛ فَاللَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَفَرْحُهُ لَا يُشْبِهُ فَرْحَ أَحَدٍ مِنْ
 خَلْقِهِ، لَا فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي أَسْبَابِهِ، وَلَا فِي غَايَاتِهِ، فَسَبَبُهُ كَمَالُ رَحْمَتِهِ وَإِحْسَانُهُ الَّتِي
 يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَتَعَرَّضُوا لَهَا، وَغَايَتُهُ إِثْمَامُ نِعْمَتِهِ عَلَى التَّائِبِينَ الْمُنِيبِينَ.

وَأَمَّا تَفْسِيرُ الْفَرَحِ بِإِلَازِمِهِ، وَهُوَ الرِّضَا، وَتَفْسِيرُ الرِّضَا بِإِرَادَةِ الثَّوَابِ؛ فَكُلُّ ذَلِكَ نَفْيٌ وَتَعْطِيلٌ لِفَرَحِهِ وَرِضَاهُ سُبْحَانَهُ، أَوْجَبَهُ سُوءُ ظَنِّ هَؤُلَاءِ الْمُعْطَلَةِ بِرَبِّهِمْ، حَيْثُ تَوَهَّمُوا أَنَّ هَذِهِ الْمَعَانِيَ تَكُونُ فِيهِ كَمَا هِيَ فِي الْمَخْلُوقِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ تَشْبِيهِهِمْ وَتَعْطِيلِهِمْ.

إثبات صفة الضحك لله

قال :

وَقَوْلُهُ ﷺ: «يُضْحِكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ؛ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

من حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٨٢٦) ومسلم (١٨٩٠).

فيه إثبات صفة الضحك لله وهي من الصفات الفعلية وهو ضحك يليق بجلاله، وفسرها المبتدعة بالإحسان أو إرادة الإحسان، وهذا التفسير باطل يخالف طريقة السلف، وقد دلّ على إثبات هذه الصفة عدة أحاديث منها حديث ابن مسعود عند مسلم (١٨٦)، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً وَيَكْبُو مَرَّةً وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا التَفَتَ إِلَيْهَا فَقَالَ تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكَ لَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. فَتَرَفَّعَ لَهُ شَجَرَةٌ فَيَقُولُ أَيُّ رَبِّ أَذْنِبِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا. فَيَقُولُ اللَّهُ يَا ابْنَ آدَمَ لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا. فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا وَرَبُّهُ يَعْذَرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ فَيُذْنِبُهُ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا ثُمَّ تَرَفَّعَ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَى فَيَقُولُ أَيُّ رَبِّ أَذْنِبِي مِنْ هَذِهِ لِأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. فَيَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا فَيَقُولُ لَعَلِّي إِنْ أَذْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا. فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا وَرَبُّهُ يَعْذَرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ فَيُذْنِبُهُ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ

مَائِهَا. ثُمَّ تَرْفَعُ لَهُ شَجَرَةً عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَيَيْنِ. فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ أَذْنِي مِنْ هَذِهِ لِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا قَالَ بَلَى يَا رَبِّ هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا فَيُذْنِيهِ مِنْهَا فَإِذَا أَذْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ أَيُّ رَبِّ أَذْخَلْنِيهَا. فَيَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِيْنِي مِنْكَ أَتَرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا قَالَ يَا رَبِّ أَتُسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ». فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَلَا تَسْأَلُونَنِي مِمَّ أَضْحَكُ؟ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ . فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مِنْ ضَحِكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ أَتُسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَيَقُولُ إِنِّي لَا أَتُسْتَهْزِئُ مِنْكَ وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ».

ومن حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٧٩٨)، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ، فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا الْمَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا» ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا، فَاَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: أَكْرَمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوْتُ صَبْيَانِي، فَقَالَ: هَيَّيْ طَعَامَكَ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكَ، وَنَوِّمِي صَبْيَانَكَ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً، فَهَيَّيْ طَعَامَهَا، وَأَصْبَحِي سِرَاجَهَا، وَنَوِّمِي صَبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلَ يُرِيَانِهِ أَمَّهُمَا يَأْكُلَانِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ: «ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ، أَوْ عَجِبَ، مِنْ فَعَالِكُمَا» فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وفي حديث أبي رزين عند ابن ماجه (١٨١)، قال الرسول :
 «ضَحِكُ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقُرْبِ غَيْرِهِ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ
 يَضْحَكُ الرَّبُّ، قَالَ: «نَعَمْ» ، قُلْتُ: لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبِّ يَضْحَكُ خَيْرًا ، وتفسير
 هذا الحديث أن أحدهم يُقتل على الإسلام ثم يتوب الله على القاتل فيقتل على
 الإسلام وكلاهما يدخل الجنة وفي الحديث فضل الجهاد في سبيل الله .

والضحك من الصفات الفعلية التي تتعلق بمشيئة الله

إثبات صفة العجب لله

قال :

وَقَوْلُهُ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ خَيْرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزَلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ». حَدِيثٌ حَسَنٌ.

في سنده يعقوب بن محمد بن عيسى الزهري، قال العقيلي في الضعفاء الكبير (٤/ ٤٤٥): (يعقوب بن محمد بن عيسى الزهري في حديثه وهم كثير ولا يتابعه عليه إلا من هو نحوه حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل قال سمعت أبي يقول يعقوب بن محمد الزهري ليس بشيء ليس يسوي شيئاً).

ومع ذلك صفة العجب ثابتة لله ، قال الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصفافات: ١٢] في قراءة، وحديث أبي هريرة عند البخاري (٣٧٩٨)، قال الرسول : «ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ أَوْ عَجِبَ مِنْ فَعَالِكُمَا»، وفي الحديث الآخر الذي يُحَسِّنُهُ شيخ الإسلام وغيره قال الرسول : «عَجِبَ اللَّهُ مِنْ شَابٍّ لَيْسَ لَهُ صَبَوَةٌ»، أي ليس له ميل إلى النكاح، والعجب له معنيان:

• **الأول:** ما يأتي عن ذهولٍ فهذا يُنَزِّه الله عنه لأنه بكلّ شيء محيط وبكلّ شيء عليم.

• **الثاني:** عجب من خروج الشيء عن نظائره فهذا الرجل الذي أطعم ضيفه طعام أبنائه خرج عن نظائره لأنّ الإنسان في الغالب يُحِبُّ ابنه ونفسه وزوجة أكثر من محبته للآخرين وهذا أجاع أبنائه وزوجته ونفسه وأوهم

الضيف أنها يأكلان فأكل الضيف حتى شبع والعجب من الصفات الفعلية ويُفسرها المعطلة بالإحسان وبإرادة الإحسان وبالثواب وكل هذه التفسير باطلة فهذه لوازم، لازم الفرح، لازم الضحك، لازم العجب، لازم المحبة، الإحسان والثواب ولكن هذه لوازم مخلوقة وصفات الله غير مخلوقة.

وفي الحديث خطر القنوط من رحمة الله ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٧٥٥)، قال النبي : «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ».

وفي حديث فضالة بن عبيد عند أحمد (٢٣٩٤٣)، قال النبي : «ثَلَاثَةٌ لَا تَسْأَلُ عَنْهُمْ: رَجُلٌ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ، وَعَصَى إِمَامَهُ، وَمَاتَ عَاصِيًا، وَأَمَةٌ أَوْ عَبْدٌ أَبْقَى فَمَاتَ، وَامْرَأَةٌ غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا، قَدْ كَفَاهَا مُؤْنَةَ الدُّنْيَا فَتَبَرَّجَتْ بَعْدَهُ، فَلَا تَسْأَلُ عَنْهُمْ، وَثَلَاثَةٌ لَا تَسْأَلُ عَنْهُمْ: رَجُلٌ نَارَعَ اللَّهَ رِدَاءَهُ، فَإِنَّ رِدَاءَهُ الْكِبْرِيَاءُ وَإِزَارَهُ الْعِزَّةُ، وَرَجُلٌ شَكَّ فِي أَمْرِ اللَّهِ وَالْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ».

وعن ابن مسعود عند عبدالرزاق في مصنفه (١٩٧٠١)، قال : «أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ».

إثبات صفة الرجل والقدم لله

قال :

وَقَوْلُهُ ﷺ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ [وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا قَدَمُهُ] فَيَنْزُوِي بِعَظْمِهَا إِلَى بَعْضٍ، فَتَقُولُ: قَطَّ قَطَّ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

من حديث أنس في البخاري (٦٦٦١) ومسلم (٢٨٤٨).

فيه إثبات صفة العزة لله ورب العزة هو صاحب العزة قال الله تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصفات: ١٨٠]، وليس معناها أنه خالق العزة فصفة العزة للمخلوق مخلوقة وصفة العزة لله غير مخلوقة؛ ولهذا أقسم بها أيوب حين قال: «بَلَى وَعِزَّتِكَ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٧٩).

وأمر الرسول بالاستعاذة بها، بقوله: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُّ وَأُحَازِرُ»، وفيها إثبات صفة الرجل صفة القدم لله ، وهي من الصفات الذاتية الخبرية.

وفي الحديث إثبات أن الله يضع قدمه في النار وفي بعض الروايات على النار، فنحن نؤمن بهذا الحديث وبدلالته، هذا الحديث على مراد الله ومراد الرسول من غير تحريف ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل لأن الكلام في

الصفات فرع عن الكلام في الذات ومعرفة الصفة لا يكون إلا بمعرفة الذات وكل هذا متتفي عن الله .

وفي أثر ابن عباس : (الكرسي موضع قدمي الرحمن) رواه الحاكم في المستدرک (٣١١٦).

ومما يدل على ذلك إثبات صفة الساق لله تعالى قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]، والذي فسرها بالشدة أخطأ؛ فإن الساق مفسر بالأدلة الأخرى، قال النبي : «يُكْشَفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ»، من حديث أبي سعيد عند البخاري (٤٩١٩)، ولو صحَّ عن بعض السلف أنه فسرها بالشدة فيكون مراده هذه الآية وإلا فإن السلف يثبتون أدلة الأسماء والصفات مع التنازع في بعض الأدلة هل هي من أدلة الأسماء والصفات أم ليست من أدلة الأسماء والصفات مع اتفاقهم على الإثبات مثل حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٢٢٧) ومسلم (٢٦١٢)، قال النبي : «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»، هذا الحديث بعضهم يجعله من أحاديث الصفات وهو الصحيح وفيه إثبات صفة الصورة لله وبعضهم ينكر هذا الحديث، مع إثباته الصورة من أحاديث أخر لكن يقول هذا الحديث عندي ضعيف أو هذا الحديث ليس من أحاديث الصفات والصورة قد ثبتت في حديث أبي هريرة المتفق عليه، البخاري (٦٥٧٣) ومسلم (١٨٢)، قال النبي : «يَأْتِيهِمُ اللَّهُ فِي غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا فَإِذَا أَتَانَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ»، وتقدم معنا قول الله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، قلنا بأن بعض السلف فسّر

الوجه هنا بالجهة فهل معنى هذا أن السلف لا يُثبتون الوجه لا ولكن صفة الوجه يُثبتونها من أدلة أخرى فلا بد أن يُفَرَّق بين طريقة المعطلة وبين طريقة السلف فإذا وجدت عالماً سلفياً ينفي دلالة نص بعينه على مسألة من المسائل ويثبتها من دليل آخر فهذا ليس بمؤول ولكن إذا رأيته يصرف الصفة عن ظاهرها إلى معنى غير مراد أو إلى معنى محرف مغير فهذا تحكم عليه بالتأويل، وفيه إثبات ما دل عليه قول الله : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق:٣٠]، والجنة بخلاف النار فالجنة يبقى فيها فضل فينشأ الله لها خلقاً يُدخلهم برحمته إياهم، ففي بعض طرق حديث أنس : «وَلَا تَزَالُ الْجَنَّةُ تَفْضُلُ حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا فَيُسْكِنُهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ»، وهذا الحديث مما يردّه المبطلون من العقلانيين وغيرهم، وللرافضة كتاب اسمه عفواً صحيح البخاري للطعن في صحيح البخاري، وبث الشبه على ما فيه.

وأما النار فلا؛ لأن الله ليس بظلام للعبيد، وحرّم الظلم على نفسه، فيزوي بعضها على بعض حتى تقول (قط، قط).

قال شيخ الإسلام في مقدمة في التفسير :

وَأَنَّ مَا وَقَعَ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْبُخَارِيِّ «أَنَّ النَّارَ لَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ» مِمَّا وَقَعَ فِيهِ الْغَلْطُ وَهَذَا كَثِيرٌ. وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ طَرَفَانِ: طَرَفٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ هُوَ بَعِيدٌ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِهِ لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالضَّعِيفِ فَيَشْكُ فِي صِحَّةِ أَحَادِيثٍ أَوْ فِي الْقَطْعِ بِهَا مَعَ كَوْنِهَا مَعْلُومَةً مَقْطُوعًا بِهَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِهِ وَطَرَفٌ مِمَّنْ يَدَّعِي اتِّبَاعَ الْحَدِيثِ وَالْعَمَلِ بِهِ كُلَّمَا وَجَدَ لَفْظًا فِي حَدِيثٍ قَدْ رَوَاهُ ثِقَةٌ أَوْ رَأَى حَدِيثًا بِإِسْنَادٍ ظَاهِرُهُ الصَّحَّةُ يُرِيدُ أَنْ

يَجْعَلُ ذَلِكَ مِنْ جِنْسِ مَا جَزَمَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِصِحَّتِهِ حَتَّى إِذَا عَارَضَ الصَّحِيحَ الْمَعْرُوفَ أَخَذَ يَتَكَلَّفُ لَهُ التَّأْوِيلَاتِ الْبَارِدَةَ أَوْ يَجْعَلُهُ دَلِيلًا لَهُ فِي مَسَائِلِ الْعِلْمِ مَعَ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ يَعْرِفُونَ أَنَّ مِثْلَ هَذَا غَلَطٌ.

وَكَمَا أَنَّ عَلَى الْحَدِيثِ أدْلَةٌ يُعْلَمُ بِهَا أَنَّهُ صِدْقٌ وَقَدْ يُقْطَعُ بِذَلِكَ فَعَلَيْهِ أدْلَةٌ يُعْلَمُ بِهَا أَنَّهُ كَذِبٌ وَيُقْطَعُ بِذَلِكَ. انتهى

وقال ابن القيم في حادي الأرواح :

و أما اللفظ الذي وقع في صحيح البخاري في حديث أبي هريرة (وأنه ينشئ للنار من يشاء فيلقى فيها، فتقول: هل من مزيد) فغلط من بعض الرواة انقلب عليه لفظه، والروايات الصحيحة ونص القرآن يرده، فإن الله سبحانه أخبر أنه يملأ جهنم من إبليس وأتباعه؛ فإنه لا يعذب إلا من قامت عليه حجتة وكذب رسله، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴿[الملك: ٨-٩] ولا يظلم الله أحداً من خلقه. انتهى

إثبات صفة اليدين لله

قال :

وقوله ﷺ: قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ
وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارِ؟ قَالَ:
مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ. فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ:
﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ
بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].»

من حديث أبي سعيد عند البخاري واللفظ له (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢).

فيه إثبات صفة الكلام لله ، وأنه متكلم. وفيه إثبات صفة الصوت لله .
وهذا الدليل قاصم للأشاعرة الذين يزعمون أن كلام الله نفساني، فالله
متكلم بصوت والصوت هو المسموع وفي الحديث الآخر قال النبي :
«فَيَنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرَّبَ»، من حديث أبي هريرة
عند البخاري (٧٤٨١)، وقد تقدّم الكلام على مسألة الكلام بما يُغني.

وقوله: (يا آدم) هذا نداء والنداء يكون بصوت عالٍ وقد جاء إثبات النداء
لله في غير ما آية قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ
تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]، وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ
الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتِ الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ

نَحْيًا ﴿[مریم: ٥٢]، وفي غير ما حديث مثل حديث البراء بن عازب عند أبي داود (٤٧٥٣)، قال النبيؐ فيما يرويه عن ربّه: قال: «فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرُشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ»، وسيأتي بطوله في عذاب القبر، وفي الحديث إثبات صفة اليدين لله ، وفيه شدة أهوال يوم القيامة، نسأل الله السلامة.

قال :

وَقَوْلُهُ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ رَبُّهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ».

من حديث عدي بن حاتم عند البخاري (١٤١٣)، ومسلم (١٠١٦).
ولفظه تاماً: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» زاد في رواية: «فمن لم يجد فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

وفي الحديث إثبات صفة الكلام لله وإثبات رؤية الله فاللّقي لا يكون إلا بالرؤية، وفيه دلالة لمن يقول بأن الرؤية عامّة لجميع أهل الموقف وهذا الحديث من الأحاديث القاضية على شبه المعطلة والمؤولة.

إثبات صفة العلو لله

قال :

وَقَوْلُهُ فِي رُقِيَّةِ الْمَرِيضِ: «رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا رَحِمْتِكَ فِي السَّمَاءِ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ؛ فَيَبْرَأَ». حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

أخرجه برقم (٣٨٩٢) فقال: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ خَالِدِ بْنِ مَوْهَبِ الرَّمْلِيِّ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ زِيَادَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «مَنْ اشْتَكَى مِنْكُمْ شَيْئًا، أَوْ اشْتَكَاهُ أَخٌ لَهُ فَلْيَقُلْ: (رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا رَحِمْتِكَ فِي السَّمَاءِ فَاجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ) فَيَبْرَأَ».

والحديث فيه زياد بن محمد متروك، وساق شيخ الإسلام الحديث لإثبات صفة العلو لله في قوله : «رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ»، وقد تقدم الكلام عنها بما يغني عن الإعادة، وفي الحديث جواز الرقي، وها أنا ذاكر بعض ما صح في الباب فمنها ما أخرجه مسلم (٢١٩١) عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ

رَسُولَ اللَّهِ كَانَ يَرْقِي بِهَذِهِ الرُّقِيَّةِ: «أَذْهَبِ الْبَاسَ، رَبِّ النَّاسِ، بِيَدِكَ الشِّفَاءُ، لَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا أَنْتَ».

وفيه (٢١٩٢) عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا مَرَضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ نَفَثَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، فَلَمَّا مَرَضَ مَرَضُهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، جَعَلْتُ أَنْفُثُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُهُ بِيَدِ نَفْسِهِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَهٍ مِنْ يَدِي. وَفِي رِوَايَةٍ يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ: بِمُعَوِّذَاتٍ.

وله (٢١٩٣) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: رَخَّصَ رَسُولُ اللَّهِ ، لِأَهْلِ بَيْتٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي الرُّقِيَّةِ مِنْ كُلِّ ذِي حُمَةٍ.

وفيه (٢١٩٤) عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَانَ إِذَا اشْتَكَى الْإِنْسَانُ الشَّيْءَ مِنْهُ، أَوْ كَانَتْ بِهِ قَرَحَةٌ أَوْ جُرْحٌ، قَالَ: النَّبِيُّ بِإِصْبَعِهِ هَكَذَا، وَوَضَعَ سُفْيَانُ سَبَابَتَهُ بِالْأَرْضِ، ثُمَّ رَفَعَهَا: «بِاسْمِ اللَّهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةٍ بَعْضِنَا، لِيُشْفَى بِهِ سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا» قَالَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ: «يُشْفَى» وَقَالَ زُهَيْرٌ: «لِيُشْفَى سَقِيمُنَا»

وفيه (٢١٩٥) عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَانَ يَأْمُرُهَا أَنْ تَسْتَرْقِيَ مِنَ الْعَيْنِ.

وفيه (٢١٩٦) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فِي الرُّقَى قَالَ: رُخِّصَ فِي الْحُمَةِ وَالنَّمْلَةِ وَالْعَيْنِ.

وفيه (٢١٩٧) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ لِحَارِثَةَ فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ، رَأَى بِوَجْهِهَا سَفْعَةً، فَقَالَ: «بِهَا نَظْرَةٌ، فَاسْتَرْقُوا لَهَا» يَعْنِي بِوَجْهِهَا صُفْرَةً.

وفيه (٢١٩٨) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: رَخَّصَ النَّبِيُّ لَالِ حَزْمٍ فِي رُقِيَةِ الْحَيَّةِ، وَقَالَ لِأَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ: «مَا لِي أَرَى أَجْسَامَ بَنِي أَخِي ضَارِعَةً، تُصَيِّبُهُمُ الْحَاجَةُ؟» قَالَتْ: لَا، وَلَكِنَّ الْعَيْنَ تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ، قَالَ: «ارْقِيهِمْ» قَالَتْ: فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «ارْقِيهِمْ».

وفيه (٢١٩٩) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، يَقُولُ: أَرَخَصَ النَّبِيُّ فِي رُقِيَةِ الْحَيَّةِ لِبَنِي عَمْرٍو، وَقَالَ: لَدَغْتُ رَجُلًا مِنَّا عَقْرَبٌ، وَنَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرْقِي؟ قَالَ: «مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ».

وفيه (٢٢٠٠) عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، قَالَ: كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ».

وفيه (٢٢٠١) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ كَانُوا فِي سَفَرٍ، فَمَرُّوا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَقَالُوا لَهُمْ: هَلْ فِيكُمْ رَاقٍ؟ فَإِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ لَدَيْغٌ أَوْ مُصَابٌ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: نَعَمْ، فَأَتَاهُ فَرَقَاهُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَبَرَأَ الرَّجُلُ، فَأُعْطِيَ قَطِيعًا مِنْ غَنَمٍ، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَقَالَ: حَتَّى أَذْكُرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ، فَأَتَى النَّبِيَّ فَذَكَرَ

ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا رَقِيتُ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَتَبَسَّمَ وَقَالَ: «وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ؟» ثُمَّ قَالَ: «خُذُوا مِنْهُمْ، وَأَضْرِبُوا لِي بِسْمِهِمْ مَعَكُمْ».

وفيه (٢٢٠٢) عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ، أَنَّهُ شَكَاَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ : «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ بِاسْمِ اللَّهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ».

قال :

وَقَوْلُهُ ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ مِنَ السَّمَاءِ». حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

حديث أبي سعيد متفق عليه عند البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤)، وفيه إثبات صفة العلوّ لله ، وقد تقدّم الكلام عليها بما يُغني عن الإعادة، وللحديث قصّة فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ مِنَ الْيَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ، لَمْ تُحْصَلْ مِنْ تُرَاهِبَا، قَالَ: فَفَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ، بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ، وَأَقْرَعَ بْنِ حَابِسٍ، وَزَيْدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابِعُ: إِمَّا عَلَقَمَةُ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ فَقَالَ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ مِنَ السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً»، قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الْوَجْتَيْنِ، نَاشِزُ الْجَبْهَةِ، كَثُّ اللَّحْيَةِ، مَخْلُوقُ الرَّأْسِ، مُشَمَّرُ الْإِزَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَقِي اللَّهَ، قَالَ: «وَيْلَكَ، أَوْلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ» قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟

قَالَ: «لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي» فَقَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنِّي لَمْ أَوْمَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلَا أَشُقُّ بُطُونَهُمْ» قَالَ: ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٌّ، فَقَالَ: «إِنَّهُ يُخْرِجُ مِنْ ضَنْضِي هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ رَطْبًا، لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»، وَأَظْنُهُ قَالَ: «لَئِنْ أَدْرَكْتَهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ».

قال :

وَقَوْلُهُ: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ». حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

قال أبو داود (٤٧٢٣): حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الصَّبَّاحِ الْبَزَّازُ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ أَبِي ثَوْرٍ، عَنْ سِمَاكِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمِيرَةَ، عَنِ الْأَخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ: كُنْتُ فِي الْبَطْحَاءِ فِي عِصَابَةٍ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ، فَمَرَّتْ بِهِمْ سَحَابَةٌ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: «مَا تُسَمُّونَ هَذِهِ؟» قَالُوا: السَّحَابُ، قَالَ: «وَالْمُزْنَ» قَالُوا: وَالْمُزْنَ، قَالَ: «وَالْعَنَانُ» قَالُوا: وَالْعَنَانُ. قَالَ أَبُو دَاوُدَ: (لَمْ أَتَقِنِ الْعَنَانَ جَيِّدًا) قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا بَعْدُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟» قَالُوا: لَا نَدْرِي، قَالَ: «إِنَّ بَعْدَ مَا بَيْنَهُمَا إِمَّا وَاحِدَةً أَوْ اثْنَتَانِ أَوْ ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً، ثُمَّ السَّمَاءُ فَوْقَهَا كَذَلِكَ» حَتَّى عَدَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ «ثُمَّ فَوْقَ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ بَيْنَ أَظْلَافِهِمْ وَرُكَبِهِمْ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ عَلَى ظُهُورِهِمُ الْعَرْشُ مَا بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ». وفي سنده الوليد بن أبي ثور كُذِبَ، وعبد الله بن عميرة مجهول، ولم يسمع من الأخنف.

وفي الباب ما رواه أبوداود (٤٧٢٦) من طريق مُحَمَّدَ بْنِ إِسْحَاقَ، يُحَدِّثُ عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ عُتْبَةَ، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: أَتَى رَسُولَ اللَّهِ أَعرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جُهِدْتَ الْأَنْفُسَ، وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنُهِكَتِ الْأَمْوَالُ، وَهَلَكْتَ الْأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ اللَّهَ لَنَا فَإِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ وَنَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟» وَسَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ! إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَحَكَ أَتَدْرِي مَا اللَّهُ، إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ لَهَكَذَا» وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ «وَإِنَّهُ لَيَسِطُ بِهِ أَطِيطُ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ» قَالَ ابْنُ بَشَّارٍ فِي حَدِيثِهِ: «إِنَّ اللَّهَ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ» وَسَاقَ الْحَدِيثَ، وَقَالَ عَبْدُ الْأَعْلَى: وَابْنُ الْمُثَنَّى، وَابْنُ بَشَّارٍ، عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ عُتْبَةَ، وَجُبَيْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ وَالْحَدِيثُ بِإِسْنَادِ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ هُوَ الصَّحِيحُ وَافَقَهُ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ، وَعَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ، وَرَوَاهُ جَمَاعَةٌ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ، كَمَا قَالَ أَحْمَدُ، أَيْضًا وَكَانَ سَمَاعُ عَبْدِ الْأَعْلَى، وَابْنُ الْمُثَنَّى، وَابْنُ بَشَّارٍ مِنْ نُسَخَةٍ وَاحِدَةٍ فِيمَا بَلَغَنِي.

أقول: وجبير بن محمد بن جبير بن مطعم مجهول حال، ومحمد بن إسحاق لم يصرح بالتحديث.

هذا الحديث هو حديث الأوعال ويُصحّحه بعض أهل العلم ويُضعّفه بعضهم، وقد دافع عنه ابن القيم بكلام طويل في تهذيب السنن ، ويعني عنه ما أخرجه كتاب ابن خزيمة في التوحيد (١٥٠) عن ابن مسعود موقوفاً وله

حكم الرفع، قَالَ: مَا بَيْنَ سَمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا مَسِيرَةٌ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةٌ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ السَّمَاءِ، وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ.

وفي الحديث إثبات العرش لله وهو مخلوق عظيم، استوى عليه الله قال تعالى في وصفه: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقال: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]، على كسر الدال أي الواسع، وفيه إثبات صفة العلو لله وصفة العلم لله وأن الله بكل شيء عليم.

قال :

وَقَوْلُهُ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللَّهُ؟». قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «مَنْ أَنَا؟». قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: «أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

أخرجه مسلم (٥٣٨) عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَصَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ. فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاتَّكَلْ أُمِّيَاهُ! مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَادِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ كَلَامِ النَّاسِ إِنَّهَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ». أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، وَإِنَّ مِنَّا رِجَالًا يَأْتُونَ الْكُفَّانَ. قَالَ: «فَلَا تَأْتِهِمْ». قَالَ: وَمِنَّا رِجَالٌ

يَتَطَيَّرُونَ، قَالَ: «ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ فَلَا يَصُدَّنَّهُمْ». قَالَ ابْنُ الصَّبَّاحِ: «فَلَا يَصُدَّنْكُمْ». قَالَ: قُلْتُ: وَمِنَّا رَجَالٌ يُحْطُونَ. قَالَ: «كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَحْطُ فَمَنْ وَافَقَ خَطُّهُ فَذَاكَ». قَالَ: وَكَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرَعَى غَنَمًا لِي قَبْلَ أَحَدٍ وَالْجَوَائِثِ، فَاطْلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسِفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَاتَّيْتُ رَسُولَ اللَّهِ فَعَظَمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: «أَتُبْنِي بِهَا». فَاتَّيْتُهَا بِهَا فَقَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللَّهُ؟». قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟». قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: «أُعْتِقُهَا فَإِنَّهَا مُؤَمَّنَةٌ».

في الحديث إثبات أن الله في السماء وفيه الاختبار بأين الله ولا حرج في ذلك وفيه جواز السؤال بأين بخلاف من يزعم أنه لا يجوز أن يسأل عنه بأين، وفي حديث جابر عند مسلم (١٢١٨)، قال النبي: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ، كَانَ مُسْتَرَضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هَذِيلٌ، وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رَبَا أَضَعُ رَبَانَا رَبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانٍ مِنَ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمُ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ أَحَدًا تَكَرُّهُنَّ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرَّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ

وَأَدَّيْتُ وَنَصَحْتُ، فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيُنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ
«اللَّهُمَّ، اشْهَدْ، اللَّهُمَّ، اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. الحديث.

فيه جواز الإشارة وهم يزعمون أنها لا تجوز الإشارة والنبي كان يُشير
إلى السماء وينكتها إلى الأرض ويقول: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»، أي يا من أنت في السماء
اشهد على من في الأرض وفيه أن كفارة الظهار وغيرها من الكفارات تكون
عتق رقبة مؤمنة وإن جاءت مطلقة في بعض الآيات فإنها جاءت مقيدة في آية
النساء، قال الله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

القول في المعية

قال :

وَقَوْلُهُ ﷺ: «أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ».

عن عبادة بن الصامت ، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣٣٦/٨)، رقم ٨٧٩٦، وأبونعيم في الحلية (١٠٨/٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٩٠٧).

وهو حديث ضعيف، ضعفه العلامة الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٢٥٨٩) فقال : (قال أبونعيم: غريب من حديث عروة، لم نكتبه إلا من حديث محمد بن مهاجر)، قال الألباني: (وهو الأنصاري الشامي؛ وهو ثقة، وكذلك سائر الرواة غير نعيم بن حماد فهو ضعيف من قبل حفظه، بل اتهمه بعضهم). انتهى

لكن معنى الحديث ثابت من أدلة أخرى قال الله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقد تقدّم الكلام على المعية وسيأتي أكثر من هذا، ويدل على معنى المراقبة فيه حديث عمر في مسلم (٨): قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢١٧) الَّذِي يَرِنَكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠]

القول في حديث: «فإن الله قبل وجهه»

قال :

وَقَوْلُهُ ﷺ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ؛ فَلَا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

أقول: الحديث ساقه ابن تيمية بمعناه، وله طرق وألفاظ كثيرة، منها: ما أخرجه البخاري (٤٠٦)، ومسلم (٥٤٧) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى بُصَافًا فِي جِدَارِ الْقِبْلَةِ فَحَكَّهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَلَا يَبْصُقْ قِبَلَ وَجْهِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ إِذَا صَلَّى».

وفي البخاري (٤٠٥) ومسلم (٥٥١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ فَلَا يَبْزُقَنَّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلَكِنْ عَنْ شِمَالِهِ تَحْتَ قَدَمِهِ».

وفي البخاري (٤١٠ و ٤١١) عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، وَأَبَا سَعِيدٍ أَخْبَرَاهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى نُخَامَةً فِي حَائِطِ الْمَسْجِدِ، فَتَنَاولَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَصَاةً فَحَثَّهَا، ثُمَّ قَالَ: «إِذَا تَنَحَّيْتُمْ أَحَدُكُمْ، فَلَا يَتَنَحَّمْ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ الْيُسْرَى».

وفي لفظ للبخاري (٤١٦) عن أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ، فَلَا يَبْصُقُ أَمَامَهُ، فَإِنَّمَا يُنَاجِي اللَّهَ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، فَإِنَّ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكًا، وَلِيَبْصُقَ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ، فَيَذْفُفْنَهَا».

وفي مسلم (٥٥٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ رَأَى نُحَامَةً فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ، فَأَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يَقُومُ مُسْتَقْبِلَ رَبِّهِ فَيَتَنَحَّعُ أَمَامَهُ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يُسْتَقْبَلَ فَيَتَنَحَّعَ فِي وَجْهِهِ؟ فَإِذَا تَنَحَّعَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَنَحَّعْ عَنْ يَسَارِهِ، تَحْتَ قَدَمِهِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيَقُلْ هَكَذَا» وَوَصَفَ الْقَاسِمُ فَتَقَلَّ فِي ثَوْبِهِ، ثُمَّ مَسَحَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ.

وفي مسلم (٣٠٠٨) عن جابر قال: أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ فِي مَسْجِدِنَا هَذَا، وَفِي يَدِهِ عُرْجُونُ ابْنِ طَابٍ، فَرَأَى فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ نُحَامَةً فَحَكَهَا بِالْعُرْجُونِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللَّهُ عَنْهُ؟» قَالَ فَخَشَعْنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللَّهُ عَنْهُ؟» قُلْنَا: لَا أَتْنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَبْلَ وَجْهِهِ، فَلَا يَبْصُقَنَّ قَبْلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلِيَبْصُقَ عَنْ يَسَارِهِ، تَحْتَ رِجْلِهِ الْيُسْرَى، فَإِنْ عَجَلَتْ بِهِ بَادِرَةٌ فَلْيَقُلْ بِثَوْبِهِ هَكَذَا».

ونؤمن بدلالة هذا الحديث من أن الله قبل وجه المصلي إذا كان يُصلي، وهو مستوٍ على عرشه ومحيط بكل شيء، وفي حديث حذيفة عند ابن ماجه (١٠٢٣) قال النبي : «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا قَامَ يُصَلِّي أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ، حَتَّى يَنْقَلِبَ أَوْ يُحْدِثَ حَدَثَ سُوءٍ». فنثبت لله ما أثبتته له رسوله ، ولا يلزم من

ذلك اتحادًا ولا اختلاطًا ولا حلولًا، بل هو على عرشه استوى وهو قبل وجه المصلي كما جاء النص وهو في علوه، فلا يتناقض هذا الحديث مع أدلة العلو، هذا الذي يجب أن يفهم أن مثل هذا الحديث ومثل حديث: «إِنَّ اللَّهَ قَرِيبٌ» وقول الله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، لا يدل على أن الله ليس في العلو بل الله في العلو وهو قريب من عباده وكما يُقال: (قريب في علوه وعلي في دنوه).

هنا فائدة للشيخ ابن عثيمين يقول: يمكن الجمع من ثلاث أوجه:

الوجه الأول: أن الشرع جمع بينهما ولا يجمع بين متناقضين وهذا قد تم الإشارة إليه وهو أن الله أخبر أنه على عرشه والنبى أخبر أن الله قبل وجه المصلي فهذا على ظاهره وهذا على ظاهره لكن ما هو الظاهر من قبل وجه المصلي، الظاهر أن الله في الجدار تعالى الله عن ذلك، أم الظاهر أن الله على عرشه وهو أمام وجه المصلي لأن الله محيط بكل شيء وفوق كل شيء.

الوجه الثاني: ممكن أن يكون الشيء عاليًا وهو قبل وجهك فهذا هو الرجل يستقبل الشمس أول النهار فتكون أمامه وهي في السماء ويستقبلها آخر النهار وتكون هي أمامه في السماء فإذا كان هذا في المخلوق ففي الخالق من باب أولى بلا شك.

الوجه الثالث: هب أن هذا ممتنع في المخلوق فلا يلزم أنه ممنوع في الخالق لأن الله ليس كمثله شيء في جميع صفاته.

وهذا هو الذي نُعبر عنه بأن الله فوق كل شيء ومحيط بكل شيء .

وقال المصنف كما في الحموية :

وكذلك قول النبي : «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّ اللَّهَ قَبْلَ وَجْهِهِ، فَلَا يَبْصُقُ قَبْلَ وَجْهِهِ» الحديث حق على ظاهره، وهو سبحانه فوق العرش، وهو قبل وجه المصلي، بل هذا الوصف يثبت للمخلوقات؛ فإن الإنسان لو أنه يناجي السماء ويناجي الشمس والقمر لكانت السماء والشمس والقمر فوقه وكانت أيضًا قبل وجهه. انتهى

قال :

وَقَوْلُهُ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ؛ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٧١٣).

من حديث أبي هريرة .

وقد تقدّم الشاهد منه وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، فثبت لله صفة الأولية وصفة الآخرة وصفة الظاهرية وصفة الباطنية، وهو تعالى قريب في علوه وعالٍ في دنوه وفيه الاستعاذة بالله من الشرور والآثام جميعاً وفيه أن نواصي العباد بيد الله وفيه استحباب دعاء الله في قضاء الدين ودعاء الله بإزاحة الفقر والنجي

كان يدع كثيرًا بهذا الدعاء: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ، وَالْفَقْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» من حديث أبي بكرة عند أبي داود (٥٠٩٠)، النسائي (١٣٤٦)، والفقر مصيبة وبلاء إذا نزل على الإنسان يُجوجه إلى الناس وقد يصيبه اللأواء والمرض والتعب والنصب ويتحمل الديون كما قال عمر بن عبدالعزيز: (الدين رق فانظر عند من تضع رقبتك)، وكثير من الناس لا يعلمون أحكام الديون ولا يعرف ما يتعلّق بذلك وقد ألّفت فيه كتابًا بعنوان الدرّ المكنون في أحكام الديون، ومن عجيب ما يُذكر أنّ رجلاً كان له صاحب يشغله بسؤاله فقال له:

إِنَّ الْقَضَاءَ سَيَأْتِي دُونَهُ أَجَلٌ فَاطُورِ الصَّحِيفَةِ وَاحْفَظْهَا مِنَ الْفَارِ

وابن مسعود يقول: (لئن أقرض أحبّ إليّ من أن أتصدق مرّتين)، وفي حديث بريدة عند أحمد (٢٣٠٤٦)، قال: قال رسول الله: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ، قَالَ: ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ، قُلْتُ: سَمِعْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَقُولُ: مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ، ثُمَّ سَمِعْتُكَ تَقُولُ: مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ، قَالَ لَهُ: بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الدَّيْنُ، فَإِذَا حُلَّ الدَّيْنُ فَأَنْظَرَهُ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ»، أجور عظيمة يحصل عليها أصحاب الأموال لو احتسبوا والنبي يقول: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِنْتِلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ»، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٣٨٧)، وفي حديث عائشة: تُوْفِّي رَسُولُ اللَّهِ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ. أخرجه البخاري (٢٩١٦).

إثبات صفتي السمع والبصر لله

قال :

وَقَوْلُهُ ﷺ لَمَّا رَفَعَ الصَّحَابَةُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ: «أَيُّهَا النَّاسُ،
ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ
سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا».

من حديث أبي موسى عند البخاري (٧٣٨٦) واللفظ له، ومسلم (٢٧٠٤). ولفظه تامًا: قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ فِي سَفَرٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَجْهَرُونَ بِالتَّكْبِيرِ فَقَالَ النَّبِيُّ «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ». قَالَ وَأَنَا خَلْفُهُ وَأَنَا أَقُولُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَقَالَ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ بَنَ قَيْسٍ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ». فَقُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «قُلْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

قوله : (ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) أي: هَوَّنُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وارفقوا بها.

قوله : (فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا) هذه من الصفات السلبية والصفات السلبية تتضمن إثبات كمال الضد فيثبت لله صفة السمع الذي الأصوات كما قالت عائشة ، انظر البخاري (٣٩٥ / ١٨)، ابن ماجه (١٨٨)، النسائي (٣٤٦٠)، وفيه إثبات فضيلة الذكر وحرص الصحابة على الخير وفيه تعليم الجاهل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قوله : (إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا) فيه إثبات صفة القرب لله وصفة السمع وصفة البصر لله ولا مناقضة فالله قريب في علوه فلا يُقال قريب أي معنا متّحد ومختلط هذا قول الاتحادية وهذا أقبح الكفر والإلحاد.

قوله : (إِنَّ الَّذِي تَدْعُوهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ) وهو على عرش، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته وهو بائن من خلقه فلا يتوهم مُتوهم بهذه الأدلة الحلول والاتحاد والاختلاط، تعالى الله أن يحل في شيء من مخلوقاته.

قال كما في الفتاوى :

فَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ عِبَادِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ فِي الْحَدِيثِ لَمَّا كَانُوا يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ وَالِدُّعَاءِ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُوهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ». وَقَالَ النَّبِيُّ : «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِ فَلَا يَبْصُقَنَّ قَبْلَ وَجْهِهِ فَإِنَّ اللَّهَ قَبْلَ وَجْهِهِ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ؛ فَإِنَّ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكًا، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ» وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ لَيْسَ فِي مَخْلُوقَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَاتِهِ وَلَا فِي ذَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَرْشِ وَعَنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ لَا يَفْتَقِرُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ بَلْ هُوَ الْحَامِلُ بِقُدْرَتِهِ الْعَرْشَ وَحَمَلَةَ الْعَرْشِ. وَقَدْ جَعَلَ تَعَالَى الْعَالَمَ طَبَقَاتٍ وَلَمْ يَجْعَلْ أَعْلَاهُ مُفْتَقِرًا إِلَى أَسْفَلِهِ فَالسَّمَاءُ لَا تَفْتَقِرُ إِلَى الْهَوَاءِ وَالْهَوَاءُ لَا يَفْتَقِرُ إِلَى الْأَرْضِ فَالْعَالِي الْأَعْلَى رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الَّذِي وَصَفَ نَفْسَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾

سُبْحَنَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿[الزمر: ٦٧] أَجَلٌ وَأَعْظَمُ وَأَغْنَى وَأَعْلَى مِنْ أَنْ
يَفْتَقِرَ إِلَى شَيْءٍ بِحَمَلٍ أَوْ غَيْرِ حَمَلٍ بَلْ هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ
يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ الَّذِي كُلُّ مَا سِوَاهُ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ وَهُوَ مُسْتَعْنٍ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ.

انتهى

القول في الرؤية

قال :

قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا تُصَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَافْعَلُوا». إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ رَبِّهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ.

من حديث جرير بن عبد الله عند البخاري (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣)، وجاء عن عدة، منهم، أبوهريرة، وأبوسعيد ، وقد تقدم الكلام على المسألة بما يغني عن الإعادة والتكرار.

قوله : (لَا تُصَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ) أي لا تردحمون، وفي رواية (لا تضارون) أي لا يلحقكم ضرر، وفيه إثبات رؤية الله وأن الله يرى في العلو. **قوله:** (إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ رَبِّهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ).

أي أن هذه أمثلة ساقها شيخ الإسلام للدلالة على سواها من الأحاديث الثابتة التي يُخبر فيها النبي ﷺ عن ربّه فيما يُخبر به، ولو أراد الإستقصاء لطال المقام جدا وخرج عن المقصود، لكن ملا يدرك كله لا يترك جله، وكما أننا آمنا بآيات الصفات وما دلّت عليه، كذلك يجب علينا أن نؤمن بالأحاديث سواء كانت من أخبار الآحاد أو من المتواتر وكلّ ما ثبت عن النبي ﷺ فإنه يُفيد

العلم ويجب علينا اعتقاد ما دلّت عليه تلك الأحاديث على طريقة السلف
والبعد عن التحريف والتعطيل والتكييف والتمثيل لأنّه سبحانه ليس كمثله
شيء وهو السميع البصير.

مجمال طريقة الفرقة الناجية في أبواب الإيمان بالأسماء والصفات

قال :

فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَّةَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ؛ كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ؛ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ، بَلْ هُمْ الْوَسْطُ فِي فِرْقِ الْأُمَّةِ؛ كَمَا أَنَّ الْأُمَّةَ هِيَ الْوَسْطُ فِي الْأُمَمِ.

أي يؤمنون بدلالة الأحاديث النبوية على الصفات كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه والسبب في ذلك أمور:

الأول:

أَنَّ السُّنَّةَ وَحْيٍ مِنَ اللَّهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ ﴾ [النجم: ٣-٤].

الثاني:

أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ عَلَيْنَا الْأَخْذَ بِقَوْلِ النَّبِيِّ وَبِخَبَرِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، وَسَوَاءٌ كَانَ التَّحْكِيمُ فِي بَابِ الْأَخْبَارِ أَوْ الْأَحْكَامِ فَيُتْحَاكَمُ إِلَى سُنَّةِ النَّبِيِّ وَالْعَرَبُ قَسَمُوا الْكَلَامَ إِلَى خَبَرٍ وَإِنْشَاءٍ فَخَبَرَ اللَّهُ تَعَالَى وَخَبَرَ رَسُولَهُ يَقَابِلُ بِالتَّصْدِيقِ، مِثْلَ قَوْلِ اللَّهِ : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ

الْحَسَنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴿[الأعراف: ١٨٠]، وقول الله : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصص: ٨٨]، إلى غير ذلك، وقول النبي : «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا».

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، فهو إنشاء وهو الطلب والطلب يُقابل بالفعل أو الترك، إذا كان طلب فعل يُقابل بالفعل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وإن كان طلب ترك فيُقابل بالترك.

وقد تقدم الكلام على بقية المباحث والله الحمد والمنة.

أهل السنة الوسط العدل الخيار

قال :

بَلْ هُمُ الْوَسْطُ فِي فِرْقِ الْأُمَّةِ؛ كَمَا أَنَّ الْأُمَّةَ هِيَ الْوَسْطُ فِي الْأُمَمِ.

قوله: (بل هم) يعود على أهل السنة الطائفة المنصورة الفرقة الناجية التي تقدم ذكر شيء من خصائصها، قال الله : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] والوسط: العدل الخيار. وفي البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «يُجَاءُ بَنُو حِمْيَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، فَيُسْأَلُ أُمَّتُهُ: هَلْ بَلَغْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ شُهِدُوكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُجَاءُ بِكُمْ، فَتَشْهَدُونَ». ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قَالَ: «عَدْلًا» ﴿لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

وقال الله : ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، وقال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

هذا وقد تكلمت - والله المنة - بتوسع عن فضل هذه الأمة، وفضل نبيها، وفضل كتابها، في كتابي الذي رقمته في الرد على دعاة وحدة الأديان.

وهذا الوصف يدخل فيه ابتداء أهل السنة والجماعة، أهل الفقه والنظر، والخير والأثر، الذين هم ملازمون لطريقة المعصوم محمد . وأما غيرهم فقد غير وبدل، ويكون بُعدُه وقربه بقدر ما هو عليه من التنكّب عن الكتاب والسنة، واستحقوا هذا الوصف للعدالة التي لازموا في أقوالهم وأفعالهم بعيداً عن طرق النصارى الضالين الذين غلو حتى بلغ بهم الغلو أن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، وألّهُوا عيسى ، فقال الله ناهياً لهم عن هذا الصنيع الذميمة: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ أُنْتَهُوا خِيراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَنَهُ ۚ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧].

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح (٢/ ١٠٠): (ومن تدبّر حال اليهود والنصارى مع المسلمين وجد اليهود والنصارى متقابلين هؤلاء في طرف ضلال وهؤلاء في طرف يقابله والمسلمون هم الوسط وذلك في التوحيد والأنبياء والشرائع والحلال والحرام والأخلاق وغير ذلك). اهـ

وقال ابن كثير : (ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا حد التصديق بعيسى ، حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهًا من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه،

فادَّعَوْا فِيهِمُ الْعَصْمَةَ وَاتَّبَعُوهُمْ فِي كُلِّ مَا قَالُوهُ، سَوَاءَ كَانَ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا أَوْ ضَلَالًا أَوْ رِشَادًا، أَوْ صَحِيحًا أَوْ كَذِبًا؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَبًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. اهـ

وأما اليهود فقد وقع منهم الجفاء حتى قتلوا الأنبياء، قال الله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

هذا في جانب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ووقع منهم الغلو في عزيز حتى ألَّهوه قال الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠] فكل من الفريقين اليهود المغضوب عليهم والنصارى الضالون وقع منهم الغلو من جانبيه.

قال الشنقيطي في أضواء البيان: (وعليه فيكون الغلو المنهي عنه شاملاً للتفريط والإفراط). اهـ

وقال الشوكاني في فتح القدير (١/٦٣٣): (والمراد بالآية المنهي لهم عن الإفراط تارة والتفريط أخرى فمن الإفراط غلو النصارى في عيسى حتى جعلوه ربا ومن التفريط غلو اليهود فيه حتى جعلوه لغير رشده). اهـ
قال :

فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللَّهِ بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ وَأَهْلِ
التَّمْثِيلِ الْمُشَبَّهَةِ.

وغلت الجهمية في جانب التنزيه زعموا، وهو التعطيل، فزعموا أن لهم ربًّا لا فوق ولا تحت ولا داخل العالم ولا خارج عنه ولا حي ولا ميت وهكذا، وعند التحقيق تجد أن هذا ربًّا لا وجود له وإنما هو العدم ووافقتهم المعتزلة في نفي الصفات وخالفوهم في إثبات الأسماء.

وفي الضدّ قابلتهم طائفة الممثلة فغلوا في الإثبات حتى زعموا أن الله له صفات كصفات المخلوقين المربوبين المحتاجين الناقصين تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ولم يلتفتوا إلى مثل قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

مع أن أهل السنة الطائفة المنصورة الفرقة الناجية أثبتوا لله ما أثبتته لنفسه وما أثبتته له رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل له صفات تليق بجلاله ، كما أنه لا مثيل له في ذاته فكذلك لا مثيل له في صفاته.

قال :

وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللَّهِ بَيْنَ الْجَبَرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ.

وغلت الجبرية في إثبات القدر حتى زعموا أن الفاعل حقيقة هو الله تعالى عن قولهم علوا كبيرا وأن الإنسان لا مشيئة له ولا قدرة ولا استطاعة ولا

إرادة وهو كالريشة في مهبّ الريح أو كميت بين يدي المغسل لا يستطيع أن يفعل شيئاً حيث سلبوا العبد من فعله وقدرته ومشيتته واختياره.

وبالمقابل غلت النفاة من القدرية المعتزلة في إثبات أفعال العباد حتى زعمت أن المخلوق المربوب هو خالق فعله وأن الله ليس بخالق للشر وأخرجوا أفعال العبد من عموم قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦]. وقالوا العبد له فعل وقدره ومشيتة واستطاعة وإرادة، ليس لله فيها شيء فالعبد يخلق عمله وسلبوا الله من مشيتته وخلقته وقدرته وإرادته.

وأهل السنة هم الوسط بين طرفين وهدى بين ضلالتين وحق بين باطلين، خرجوا من بين فرث الغلو ودم التفريط لبناً سائغاً للشاربين؛ لأنهم عملوا بقول الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، ففي هذا الباب مثلاً أثبتوا لله تعالى خلقاً، وقدرته، وشيئة، وأثبتوا للمخلوق فعلاً وقدره واستطاعة، ومشيتة لكن مشيتة العبد واستطاعته، وقدرته، وإرادته تكون بمشيئة الله فمشيئة الله نافذة فكان أهل السنة هدى بين الجبرية الجهمية وبين المعتزلة الضلال الذين يردّون مثل قول الله: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وصارت المجوس في هذا الباب أحسن حالاً من القدرية لأن المجوس يثبتون خالقين للعالم، إله النور وإله الظلمة، وإله النور هو خالق الخير وإله الظلمة هو خالق الشر، بينما أولئك أثبتوا خالقين، وقول المجوس من أفسد الأقوال: قال بعضهم راداً عليهم:

وَكَمْ لِظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تُحَدِّثُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

يعني أنهم يزعمون أن الخير من النور وكم من إنسان يقوم في الليل يقول يا رب (فرّج عني ما أنا فيه، يا رب يسّر أمري) ويدعو الله بما يريد ويُفرّج الله لهم ويُقضي الدين ويُفرّج الكرب ويُيسّر الأمور (اللهم لا سهلاً إلا ما جعلته سهلاً وأنت تجعل الحزن إن شئت سهلاً) ولهذا قال النبي في القدرية النفاة: «الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ: إِنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُهُمْ»، من حديث ابن عمر عند أبي داود (٤٦٩١) وغيره حسنه العلامة الألباني .

والسبب أن أهل السنة يأخذون بجميع الأدلة، أما أهل البدع فإنما يأخذون ما وافق أرائهم وأيد أفكارهم فحادوا وزاغوا عن الصراط المستقيم والطريق القويم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين واتبعوا سبيل المعرضين الضالين أمرنا الله بالبعد عنهم بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١].

والأشاعرة خرجوا من قول الجهمية بحيلة من أفسد الحيل فقالوا نحن ما نقول كالجهمية بأن الإنسان مجبور نقول بأن للإنسان كسب، وحقيقة الكسب عند الأشعري كقول الجبرية سواء فهم ينفون أي قدرة للعبد، وقد عجز الأشاعرة أنفسهم عن تفسيرها فضلاً عن إفهامها لغيرهم، ولهذا قيل:

مَّا يُقَالُ وَلَا حَقِيقَةً تَحْتَهُ مَعْقُولَةً تَدْنُوا إِلَى الْأَفْهَامِ
الْكُسْبُ عِنْدَ الْأَشْعَرِيِّ وَالْحَالُ عِنْدَ الْبَهْشَمِيِّ وَطَفَرَةُ النَّظَامِ

قال :

وَفِي بَابٍ وَعِيدِ اللَّهِ بَيْنَ الْمُرْجَةِ وَالْوَعِيدَةِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ.

أي أن أهل السنة في باب الوعد، والوعيد وسط بين المرجئة، والوعيدية، والوعيد هو ما توعّد به الله تعالى على الذنوب والمعاصي مثل قول الله : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، ومثل قول النبي : «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَحْأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٥٧٧٨) ومسلم (١٠٩). ومثل حديث جبير بن مطعم أن النبي : «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ» رواه البخاري (٥٩٨٤) ومسلم (٢٥٥٦)، أي قاطع رحم. وما في بابها من الوعيد العظيم على الذنوب والمعاصي فالناس في هذا الباب طرفان ووسط:

• الطرف الأول: الخوارج:

وطريقتهم تكفير فاعل الكبيرة، وقاربتهم المعتزلة حيث زعموا أن فاعل الكبيرة في (منزلة بين منزلتين) لا مؤمن ولا كافر واتفقوا على القول بتخليد فاعلها في النار.

• الطرف الثاني: المرجئة:

حيث زعموا أن السارق والزاني والفاسق والمغني وغيرهم من أصحاب الكبائر إيمانه كامل على إيمان جبريل ومكائيل عليهما الصلاة والسلام، وعلى

إيمان أبي بكر الصديق وعمر الفاروق فوق بسببهم بلاء عظيم وخطر عظيم، كان تأثيره في البعد عن شرائع الدين أعظم من تأثير الخوارج حتى قال إبراهيم النخعي كما عند ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢٧٤/٦): (لأننا على الأمة من هؤلاء -يعني المرجئة- أخوف من عدتهم من الأزارقة -يعني الخوارج-). وأخرج عبدالله بن أحمد في السنة (٧٣٣) عن يحيى بن أبي كثير وقتادة قالوا: (ليس من الأهواء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء). وأخرج رقم (٢٥٨) عن مغيرة بن مقسم كان يقول: (والله الذي لا إله إلا هو ما أعرف منه شر منهم) قيل لأبي بكر: يعني المرجئة؟ قال: المرجئة وغير المرجئة.

ولا يُبالون بهذه الأحاديث التي تروى في باب الوعيد، ولا ينظرون إليها وإذا رووها يروونها على سبيل التعجب.

• والوسط هم أهل السنة:

اتباع السلف أصحاب الحديث فهم وسط بين الخوارج والمعتزلة الوعديّة وبين المرجئة ويعتقدون أنّ أصحاب الكبراء من أمّة محمّد في النار لا يُجلّدون ويعتقدون أنّ الذنوب خلا الشرك بالله تعالى تحت مشيئة الله إن شاء غفرها وإن شاء عذب عليها كما أنّهم يعتقدون فضائل لا إله إلا الله ويعتقدون أنّه لا يخرج من الإسلام أحدٌ إلا بمكفر فكانوا وسط، وسبب ضلال الخوارج أنّهم عمدوا إلى أدلة الوعيد وتركوا أدلة الرجاء وسبب ضلال المرجئة أنّهم عمدوا إلى أدلة الرجاء وتركوا أدلة الوعيد وسلم أهل السنة في دينهم لأنّهم جمعوا بين أدلة الرجاء وأدلة الوعيد فصار فاعل الكبيرة عندهم فيما دون الشرك مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته بينما يكون عند الخوارج كافراً وعند

المرجئة كامل الإيمان وأهل السنة أثبتوا له الإيمان بحسب ما عنده من مطلق الإيمان وأثبتوا له الفسوق بقدر ما عنده وزعمت المعتزلة والخوارج أنه لا يجوز لله أن يُغيّر هذا الحكم أي حكم الوعيد والصحيح أن هناك فرق بين الوعد والوعيد فالوعد يُطلق على الشيء الذي المؤمل وهذا خلفه لا يجوز، قال النبي : «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩). وهو في حق الله أولى، قال الله : ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران: ٩]، بينما الوعيد هو التهديد وخلفه قد يكون لكرم وفضل وإحسان فمثلاً عندما توعد أبوبكر الصديق مسطح أن لا يُنفق عليه عند أن قال في عائشة ما قال، عاتبه الله فقال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، قال أبوبكر : (بلى نحب)، القصة المذكورة في حديث اللإفك عند البخاري (٢٦٦١) ومسلم (٢٧٧٠)، وعاد إلى الإنفاق على مسطح مع أنه قد كان توعدّه والعرب يمدحون الوفاء بالعهد والوعد ويذمّون إنفاذ الوعيد خصوصاً في من يستحقّ العفو حتّى قال أحدهم:

وَإِنِّي إِذَا أَوْعَدْتُهِ أَوْ وَعَدْتُهِ لَمْخْلِفُ إِعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي

ففرّق بين الوعد والوعيد والمعتزلة أوجبوا على الله إنفاذ الوعيد وصار هذا أصل من أصولهم الخمسة (العدل، والتوحيد، وإنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمنزلة بين المنزلتين)، ومرادهم من إنفاذ الوعيد تخليد العصاة من أمة محمد في النار، قال بعضهم لعمر بن عبّيد (إنما أوتيت من عجمتك)، أي لم تُفرّق بين الوعد والوعيد.

فالوعد يكون في خير والوعيد يكون في شرّ، فالذي يجب هو الوفاء بالوعد لقول النبيّ : «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩). والوعيد يُستحبّ بل يُثنى على من أخلفه لأنّ الرجل قد لا يستحقّ هذه العقوبة التي توعدّته بها أو قد يكون كرمك وجودك العفو عنه فتتحقّق مصالح فالوعد في حقّ الله في قوله : «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ» من حديث عبادة بن الصامت عند الترمذي (٢٦٣٨). والوعيد في حقّ الله في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، هل كلّ قاتل عمدٍ من المسلمين يجب على الله أن يدخله النار والنبيّ يقول: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخْلَدًا فِيهَا أَبَدًا» من حديث أبي هريرة عند مسلم (١٠٩)، أي يطعن نفسه، هل يجب على الله أن يدخل من قتل نفسًا النار؟ لا يجب وإذا عفى الله فهذا فضله وكرمه وجوده، ففي حديث جابر عند مسلم (١١٦) أَنَّ الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو الدَّوْسِيَّ، أَتَى النَّبِيَّ ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لَكَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ وَمَنْعَةٍ؟ - قَالَ: حِصْنٌ كَانَ لِدَوْسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ - فَأَبَى ذَلِكَ النَّبِيُّ لِلَّذِي ذَخَرَ اللَّهُ لِلْأَنْصَارِ، فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ إِلَى الْمَدِينَةِ، هَاجَرَ إِلَيْهِ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَهَاجَرَ مَعَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَاجْتَوَا الْمَدِينَةَ، فَمَرَضَ، فَجَزِعَ، فَأَخَذَ مَشَاقِصَ لَهُ، فَقَطَعَ بِهَا بَرَاجمَهُ، فَشَخَبَتْ يَدَاهُ حَتَّى مَاتَ، فَرَأَاهُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فِي مَنَامِهِ، فَرَأَاهُ وَهَيْئَتُهُ حَسَنَةً، وَرَأَاهُ مُغَطِّيَا يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: مَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي بِهَجْرَتِي إِلَى نَبِيِّهِ ، فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكَ مُغَطِّيَا يَدَيْكَ؟ قَالَ: قِيلَ لِي: لَنْ نُصْلِحَ

مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ، فَقَصَّهَا الطُّفِيلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ :
«اللَّهُمَّ وَلِيَدَيْهِ فَاعْفُرْ».

قال :

وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الْإِيمَانِ وَالَّذِينَ بَيْنَ الْحُرُورِيَّةِ، وَالْمَعْتَزَلَةِ.

الحُرُورِيَّةُ اسم للخوارج، نسبة إلى حروراء منطقة في العراق، انزلوا فيها وجعلوا يُكفِّرون المسلمين ويستبيحون دماءهم، وجعلوا يتعمقون في الدين تعمقاً مفضياً إلى الإلحاد، والمروق من الدين، كما قال رسول الله عن بعضهم: «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ، حُدْنَاءُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَمُرُّونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمُرُّ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيْمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيُّتِمَا لَقِيْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» متفق عليه من حديث علي البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦). وقد جاءت معاذة العدويَّة رحمها الله إلى عائشة فقالت لها: مَا بَالُ الْحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ، وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ؟ فَقَالَتْ: أَحْرُورِيَّةٌ أَنْتِ؟ قُلْتُ: لَسْتُ بِحُرُورِيَّةٍ، وَلَكِنِّي أَسْأَلُ. قَالَتْ: كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ، فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ، وَلَا نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ. أخرجه مسلم (٣٣٥).

واستباح الخوارج دماء المسلمين بأدنى الشبه، وقد بين عوار مذهبهم وفساد شبههم وأنها كخيوط العنكبوت الواهية عبد الله بن عباس حيث أخرج ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١١٢٩)، قال : لَمَّا خَرَجَتِ الْحُرُورِيَّةُ اجْتَمَعُوا فِي دَارٍ وَهُمْ سِتَّةٌ آلَافٍ أَتَيْتُ عَلِيًّا فَقُلْتُ: يَا

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَبْرَدَ بِالظُّهْرِ لَعَلِّي آتِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ فَأُكَلِّمُهُمْ. قَالَ: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ. قَالَ قُلْتُ: كَلَّا. قَالَ: فَخَرَجْتُ آتِيَهُمْ وَلَبِسْتُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنْ حُلَلِ الْيَمَنِ فَأَتَيْتُهُمْ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ فِي دَارٍ وَهُمْ قَائِلُونَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: مَرْحَبًا بِكَ يَا أَبَا عَبَّاسٍ فَمَا هَذِهِ الْحُلَّةُ؟ قَالَ قُلْتُ: مَا تَعْيُونَنِي عَلَى لَقْدَ رَأَيْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الْحُلَلِ وَنَزَلَتْ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، قَالُوا: فَمَا جَاءَ بِكَ؟ قُلْتُ: أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ صَحَابَةِ النَّبِيِّ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لِأُبَلِّغَكُمْ مَا يَقُولُونَ وَتُخْبِرُونِي بِمَا تَقُولُونَ فَعَلَيْهِمْ نَزَلَ الْقُرْآنُ وَهُمْ أَعْلَمُ بِالْوَحْيِ مِنْكُمْ وَفِيهِمْ أَنْزَلَ وَلَيْسَ فِيكُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا تُخَاصِمُوا قُرَيْشًا فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَأَتَيْتُ قَوْمًا لَمْ أَرِ قَوْمًا قَطُّ أَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنْهُمْ مُسَهَّمَةً وَجُوهَهُمْ مِنَ السَّهَرِ كَأَنَّ أَيْدِيَهُمْ وَرُكْبَهُمْ ثِقَنَ عَلَيْهِمْ قُمْصٌ مَرَحَضَةٌ قَالَ بَعْضُهُمْ لِنُكَلِّمَنَّهُ وَلِنَنْظُرَنَّ مَا يَقُولُ. قُلْتُ: أَخْبِرُونِي مَاذَا نَقَمْتُمْ عَلَى ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ وَصِهْرِهِ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ قَالُوا: ثَلَاثًا. قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالُوا: أَمَّا إِحْدَاهُنَّ فَإِنَّهُ حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي أَمْرِ اللَّهِ قَالَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وَمَا لِلرِّجَالِ وَمَا لِلْحُكْمِ. فَقُلْتُ: هَذِهِ وَاحِدَةٌ. قَالُوا: وَأَمَّا الْأُخْرَى فَإِنَّهُ قَاتَلَ وَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ فَلَيْنَ كَانَ الَّذِينَ قَاتَلَ كُفَرًا لَقَدْ حَلَّ سَبِيَّهُمْ وَغَنِمَتُهُمْ وَإِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مَا حَلَّ قِتَالَهُمْ قُلْتُ: هَذِهِ ثَنَانٍ فَمَا الثَّالِثَةُ؟ قَالُوا: إِنَّهُ حَمَا اسْمَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ أَمِيرُ الْكَافِرِينَ. قُلْتُ: أَعِنْدَكُمْ سِوَى هَذَا؟ قَالُوا: حَسْبُنَا هَذَا. فَقُلْتُ لَهُمْ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَرَأْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَمِنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ مَا يَرُدُّ بِهِ قَوْلُكُمْ أَتَرْضَوْنَ؟ قَالُوا: نَعَمْ فَقُلْتُ لَهُمْ: أَمَّا قَوْلُكُمْ حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي أَمْرِ اللَّهِ فَأَنَا أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ مَا قَدْ رُدَّ حُكْمُهُ إِلَى الرِّجَالِ فِي ثَمَنِ

رُبْعِ دِرْهَمٍ فِي أَرْنَبٍ وَنَحْوِهَا مِنَ الصَّيْدِ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، فَشَدُّتُكُمْ بِاللَّهِ أَحْكُمُ الرِّجَالِ فِي أَرْنَبٍ وَنَحْوِهَا مِنَ الصَّيْدِ أَفْضَلُ أَمْ حُكْمُهُمْ فِي دِمَائِهِمْ وَإِصْلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ وَأَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَوْ شَاءَ لَحَكَمَ وَلَمْ يُصَيِّرْ ذَلِكَ إِلَى الرِّجَالِ وَفِي الْمَرْأَةِ وَزَوْجِهَا قَالَ اللَّهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥]، فَجَعَلَ اللَّهُ حُكْمَ الرِّجَالِ سُنَّةَ مَا ضِيَّةً أَخْرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: وَأَمَّا قَوْلُكُمْ قَاتِلَ فَلَمْ يَسِبْ وَلَمْ يَغْنَمْ أَتَسْبُونَ أَمْكُمْ عَائِشَةَ ثُمَّ تَسْتَحِلُّونَ مِنْهَا مَا يُسْتَحَلُّ مِنْ غَيْرِهَا فَلَيْنَ فَعَلْتُمْ لَقَدْ كَفَرْتُمْ وَهِيَ أُمُّكُمْ وَلَيْنَ قُلْتُمْ لَيْسَتْ بِأُمَّنَا لَقَدْ كَفَرْتُمْ! فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، فَأَنْتُمْ تَدُورُونَ بَيْنَ ضَلَائِلَيْنِ أَيُّهُمَا صَرْتُمْ إِلَيْهَا صَرْتُمْ إِلَى ضَلَالَةٍ فَظَرَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قُلْتُ: أَخْرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. وَأَمَّا قَوْلُكُمْ مَحَا نَفْسَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنَا أَتَيْكُمْ بِمَنْ تَرْضَوْنَ أَرِيكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ النَّبِيَّ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ كَاتِبَ الْمُشْرِكِينَ سُهَيْلَ بْنِ عَمْرٍو وَأَبَا سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ: «اكْتُبْ يَا عَلِيُّ هَذَا مَا اضْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لَا وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا قَاتَلْنَاكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُكَ اكْتُبْ يَا عَلِيُّ هَذَا مَا اضْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ». فَوَاللَّهِ لَرَسُولُ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ عَلِيٍّ وَمَا أَخْرَجَهُ مِنَ النَّبَوَّةِ حِينَ مَحَا نَفْسَهُ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ:

(فَرَجَعَ مِنَ الْقَوْمِ أَلْفَانِ وَقَتِلَ سَائِرُهُمْ عَلَى ضَلَالَةٍ).

وهم كلاب النار، قال النبي : «الخَوَارِجُ كِلَابُ النَّارِ» رواه ابن ماجه (١٧٣) من حديث ابن أبي أوفى . وفي حديث أبي غالب، قَالَ: رَأَى أَبُو أَمَامَةَ رُءُوسًا مَنْصُوبَةً عَلَى دَرَجِ دِمَشْقَ، فَقَالَ أَبُو أَمَامَةَ: «كِلَابُ النَّارِ شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَيْدِي السَّمَاءِ، خَيْرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، قُلْتُ لِأَبِي أَمَامَةَ: أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ؟ قَالَ: لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا حَتَّى عَدَّ سَبْعًا مَا حَدَّثْتُكُمْ بِهِ. رواه الترمذي (٣٠٠٠). وقال عنهم: «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدْنَاءُ الْأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ يَمُرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمُرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ لَا يُجَاوِزُ إِيْمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ فَأَيَّمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» من حديث علي بن أبي طالب عند البخاري (٣٦١١) وزاد مسلم (١٠٦٦) في أول الحديث: «يُخْرِجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَيْسَ قِرَاءَتُهُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ وَلَا صَلَاتُهُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ وَلَا صِيَامُهُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ يَمُرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمُرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»، صفات عظيمة قالها عنهم النبي كما في آخر كتاب الزكاة من صحيح مسلم وما بين الرسول صفة فرقة من الفرق كما بين صفات الخوارج.

و(وَالْمُعْتَرِلَةُ): هم أتباع واصل بن عطاء الغزال وعمرو بن عبيد بن باب اعتزلوا مجلس الحسن البصري ، جاء رجل إلى الحسن فقال له: (ماذا تقول في فاعل الكبيرة؟)؛ لأنَّ الخوارج كانوا يُكفِّرون فاعل الكبيرة والمرجئة

يحكمون له بالإيمان فاعتزل واصل بن عطاء الغزال وعمر بن عبيد بن باب وابتدعوا القول بـ (المنزلة بين منزلتين) ويعنون بها أن العبد لا مؤمن ولا كافر في الدنيا، وأوجبوا له في الآخرة الخلود في النار موافقة للخوارج، وقولهم مخالف للكتاب، والسنة، وإجماع السلف.

قال :

وَبَيْنَ الْمُرْجَةِ وَالْجَهَنَّمَةِ.

والمرجئة أقسام على ما يأتي بيانه، ومذهبهم أنهم يخرجون الأعمال من مسمى الإيمان، ومرجئة الفقهاء منهم يزعمون أن الإيمان إعتقاد القلب مع قول اللسان فقط، ومنهم أبو حنيفة وحماد بن أبي سليمان والطحاوي، وقولهم فاسد وضلال فإن الله أمر بالإيمان والعمل، قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥]، سواء كان عمل الجوارح أو القلب أو اللسان، قال النبي : «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له.

وقال الله : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فتضمنت الآية الأعمال القلب والجوارح واللسان، وبوّب البخاري في صحيحه (باب أمور الإيمان)، واستدل بالآية السابق

ذكرها، وجاء من حديث أبي ذرٍّ أن رجلاً سأل النبيّ عن أمور الإيمان فقرأ عليه الآية ولا يصحّ، وبوّب البخاري في صحيحه (باب قيام ليلة القدر من الإيمان)، وهكذا يردّ بهذه التبويبات على المرجئة الذين يُخرجون الأعمال من مسمّى الإيمان، وحصرُوا الكفر بالجحود.

وأما الجهمية فهم أشرّ المرجئة، فالجهمية يزعمون أن الإيمان هو المعرفة فقط، ويلزم على قولهم أن يكون إبليس مؤمناً، لأنّ إبليس عرف ربه ويقول (ربّي) و(خلقتني) (فبعزّتك) فعرف ربّه وفرعون على حدّ قولهم مؤمن؛ لأنّه كان يعرف ربّه بقلبه حتى قال له موسى : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال الله : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، ويلزمهم أن اليهود مسلمون مؤمنون أليس يقول عن اليهود: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، قال بعض السلف: (ومن العجب أن جهنم أدخل إبليس في الإيمان وأخرج نفسه من الإيمان)؛ لأنّ إبليس عرف ربّه وجهنم لم يعرف ربّه لما قيل له: (أين ربّك؟) قال: (لا فوق ولا تحت، ولا داخل ولا خارج، ولا متصل ولا منفصل، ولا حيّ ولا ميت).

قال :

وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الرَّافِضَةِ وَالْخَوَارِجِ.

وكما أنهم وسط فيما تقدم، فهم وسط في أصحاب النبيّ بين الرافضة والخوارج، فطريقة الرافضة تكفير أصحاب النبيّ إلا أحد عشر صحابياً

وقيل سبعة عشر وقيل غير ذلك، والخوارج كفّروا أصحاب النبيّ وقاتلوهم، وأهل السنّة يُثَنُّون على أصحاب رسول الله ويصفونهم بالجميل ويستغفرون لهم ويكفّون عمّا شجر بينهم وإن شئت قل وسط بين الخوارج والرافضة والنواصب فالنواصب ينصبون العداوة لأهل البيت رضوان الله عليهم مع أن أبا بكر يقول: (ارْقُبُوا مُحَمَّدًا فِي آلِ بَيْتِهِ) ويقول: (لَيْتُنْ أَصِلَ قَرَابَةَ رَسُولِ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَصِلَ قَرَابَتِي. على ما سيأتي بيانه إن شاء الله وما من مؤلّف يؤلّف في كتب العقائد إلّا ويذكر فضائل أصحاب النبيّ ؛ لأنّ الطعن فيهم طعن في الدين، فهم مبلّغوه، وهم حُفَاطُوه، وهم وزراء النبيّ وهم سفراءه، والطعن فيهم طعن في الدين، وطعن في النبيّ ، وطعن في الله ؛ إذ كيف يرضى أن يكون وزراء النبيّ وهم على الخيانة وعلى الكذب وعلى التلوّن وعلى التلبيس كما يزعم الرافضة والخوارج.

والصحابة لهم المكان الأعلى والشرف العظيم حتّى جعل الله طريقتهم ومنهجهم حجة على من سواهم فقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، والمؤمنون هم الصحابة ومن سار على سيرهم وقال الله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، فجعل الله الحجة والسبيل للصحابة ؛ لأنّهم ساروا على سير النبيّ وما وعد الجنّة إلّا لمن اتبعهم وسار على سيرهم، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ مِنْ الْقَدِّمِينَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ

يَا حَسَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ [التوبة: ١٠٠]، وأخبر الله أن الفبيء والغنائم تُقسَم فيهم، قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ [الحشر: ٨-١٠]، فالذي لا يستغفر لهم ولم يكن سائرًا على سيرهم، فليس له في الفبيء نصيب بهذه الآية، والأخرى التي في سورة الفتح: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ [الفتح: ٢٩].

القول في المعية

قال :

فصل: وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الْإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ؛ مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَواتِهِ، عَلَى عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا، يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ؛ كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿هُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ، اللَّغَةُ، بَلِ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ وَغَيْرِ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيِّمٌ عَلَيْهِمْ، مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ. وَكُلُّ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ - مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَأَنَّهُ مَعَنَا - حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ؛ مِثْلَ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾، أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّهُ أَوْ تُقَلُّهُ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِاجْتِمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهُوَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ؛ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ.

الدليل على إثبات هذه الصفة القرآن والسنة والإجماع ويدل على وجوب الإجماع قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، ووجه الدلالة منه قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فما أجمع عليه المؤمنون حق لحديث النبي: «إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ» من حديث أنس عند ابن ماجه (٣٥٩٠) وابن عباس عند الحاكم (٣٩٩).

قوله: (مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَآوَاتِهِ، عَلَى عَرْشِهِ عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ) قد تقدمت الكلام وذكر الأدلة على صفة العلو بما يغني عن الإعادة مع ذكر أنها تنوعت على أوجه كثيرة تمنع القول بمجازها وتحريفها عن دلالتها، ومع ذلك ساق المصنف في هذا الموطن الجمع بين أدلة العلو، والمعية إقامة للحجة، ودفعاً للشبهة، وهذا المبحث من أمتن ما كتب مع إختصار في هذا الباب، والحمد لله رب العالمين.

قوله: (وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا) لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

لكن الحلولية والاتحادية ومن إليهم من المعطلة والجهمية نظروا إلى هذه الأدلة بنظرة قاصرة مع ما عندهم من المعتقدات الفاسدة، فيجب الجمع بين

المتماثلات، والتفريق بين المختلفات، فالإيمان بأدلة العلو والإلحاد في أدلة المعية ممنوع شرها وعقلا، والإيمان بأدلة المعية والإلحاد في أدلة العلو كذلك، بل يجب علينا الإيمان بأدلة العلو وما تضمّنته من المعاني العظيمة وبأدلة المعية وما تضمّنته من المعاني العظيمة ولكن ينبغي لطالب العلم وغيره من المسلمين أن يكون متجردًا عن التعطيل والتحريف والتكليف والتمثيل ثم تأمل كلام العرب الذي نزل به القرآن ماذا تعني كلمة (على) وماذا تعني كلمة (مع) فكلمة (على) تدلّ على العلو والظهور: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٣]، وماذا يعني كلمة (فوق) في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وكلمة (مع) تدل على مطلق مصاحبة.

فهل يمكن للمسلم أن يؤمن بأدلة العلو وأدلة المعية في آنٍ واحد؟ الجواب، نعم؟ لأن أدلة العلو في القرآن والسنة وأدلة المعية في القرآن والسنة وما كان فيهما يجب اعتقاده وصيانته عن التحريف والتمثيل والتعطيل والتكليف، ولا يمكن أن يناقض أو يختلف قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

والمبتدعة زعموا أن كلمة (مع) تقتضي الحلول والاتحاد والاختلاط، فيقال أين وجدتم هذا؟ بآية أم بأثر أم بإجماع تقولون؟ فسينقطعون عندئذ.

قوله: (يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ؛ كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]) في هذا بيان أن معية الله لخلقه تكون بعلمه وإحاطته وقهره

وسلطانه وغير ذلك من خصائص ربوبيته فهو سبحانه على عرشه وهو مع عباده يعلم ما هم عاملون كما جمع الله بينهما والقرآن لا يُناقض بعضه بعضاً وإِنَّمَا يُؤَافِقُهُ لِأَنَّهُ قَالَ اللَّهُ : ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال : ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ففي هذه الآية التي ذكرها بيان أَنَّهُ معنا وَأَنَّهُ على العرش والمعية فُسرَت في الآية بقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، فهي معية علم وإحاطة وبصر وإطلاع وفي آية المجادلة أيضاً ما بيّن ذلك، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، فافتح الله الآية بالعلم، وختمها بالعلم فدلّت على المقصود والحمد لله.

قوله: (وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ، اللَّغَةُ، بَلِ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ وَغَيْرِ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ) فإذا كانت لا توجب اللغة، كما لم يُوجبها الشرع، فمن أين لهم أَنَّمَا توجب الحلول، والاتحاد، والإختلاط إلا مجرد الهوى ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله: (وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيِّمٌ عَلَيْهِمْ، مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَّعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ) على ما تقدم من ذكر أدلة العلو، ثم إِنَّ

المعية تفسر، بما هو أعم من معية العلم، والذي يُفسر المعية بالعلم فقط تفسيره صواب من حيث أنه يردّ به على المعتزلة إلا أن تفسير المعية العامة بما هو أعم من العلم أولى فتفسيرها بالعلم والإحاطة والسلطان والبصر، والقهر، وغير ذلك من خصائص الربوبية، وتُفسر المعية الخاصة بالحفظ والكلاءة والنصر والتأييد، ويدلّ على المعية العامة قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾، ويدلّ على المعية الخاصة المقيّدة بشخص قوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنِّي اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وعلى المقيّدة بوصف قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ونحوه.

قوله: (وَكُلُّ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ - مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَأَنَّهُ مَعَنَا - حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ؛ مِثْلُ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: (فِي السَّمَاءِ) أَنَّ السَّمَاءَ تُظَلُّهُ أَوْ تُقَلُّهُ) وحقيقة العلو أنه على عرشه استوى، وعلا، وارتفع، وحقيقة المعية أنه مع خلقه بعلمه، وإحاطته، وقهره، وسلطانه، وقهره، وغير ذلك من خصائص ربوبيته تعالى، على ما هو ظاهر القرآن، والسنة الصحيحة، بينما المبتدعة ظنوا أن حقيقة (معكم) الاتحاد والاختلاط، وهذا ليس بحقيقة اللفظ على ما تقدم، بل هو من الظنون الكاذبة الفاسدة المخالفة للكتاب، والسنة، والعقل الصحيح، والنقل الصريح. قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦].

فمن اعتقد أنّ السماء تُظَلَّه بمعنى أنها ظرفية له، أو تُقَلَّه بمعنى أنها تحمله فقد كفر لأنّه اعتقد أنّ الله في المخلوق والله منزّه عن الحلول والاتحاد بالمخلوقات، ومنزّهة عن الحاجة بل هو الغني الحميد سبحانه، وتعالى.

قوله: (وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ) أي أنّ معنى (في السماء) داخل السماء، هَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، لأنّه مخالف لظاهر القرآن، والسنة، وإجماع السلف الصالح، واعتقاده يؤدي إلى قول الاتحادية، والحلولية، والكفر والزندقة نسأل الله السلامة.

قوله: (فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) والعرش أعظم من الكرسي بل قد جاء في الآثار أنّ الكرسي في العرش كحلقة في فلاة والله أعظم وأكبر وأجلّ، فكيف تُقَلَّه السماء أو تحتويه. والكرسي هو كالمِرْقاة للعرش وهو موضع قدمي الجبار، والعرش هو المخلوق العظيم الذي استوى عليه الجبار فالعرش أكبر المخلوقات قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، فلو كان أكبر منه لأضافه لنفسه والنبّي يقول: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»، من حديث جويرية عند مسلم (٢٦٢٧)، فلو كان أكبر من العرش لذكره.

قوله: (وَهُوَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، فكيف تُقَلَّه السماء أو تُظَلَّه وهو يمسك السماء أن تقع على الأرض، قال الله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥].

إثبات صفة القرب لله

قال :

وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ؛ كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ:
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

أي ودخل في الإيمان بالله الإيمان بأنه قريب مجيب ويدل على ذلك ما ذكر مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، وفي الحديث «أَقْرَبُ ما يكون الرَّبُّ من العبد جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مُحْضُورَةٌ مَشْهُودَةٌ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ»، عن عَمْرِو بْنِ عَبَّسَةَ أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ (٥٧٢). وَتُبَّتْ لِلَّهِ صِفَةُ الْقُرْبِ عَلَى ظَاهِرِهَا، وَلَيْسَ ظَاهِرُهَا أَنَّ اللَّهَ مُتَّحِدٌ بِمَخْلُوقَاتِهِ أَوْ حَالٌ فِيهِمْ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ لَكَانَ ظَاهِرُهُ الْكُفْرَ، وَيُسْتَحَالُ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الْكُفْرَ، فَالْمُرَادُ بِالْقُرْبِ أَنَّ اللَّهَ قَرِيبٌ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، لِأَنَّ اللَّهَ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْقُرْبِ وَوَصَفَهُ نَفْسَهُ بِالْعُلُوِّ وَلَا تَنَاقُضُ وَمِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ وَالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ دَلٌّ عَلَى الْإِحَاطَةِ الزَّمَانِيَّةِ وَالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ دَلٌّ عَلَى الْإِحَاطَةِ الْمَكَانِيَّةِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ : «أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ مُسْلِمٍ (٢٧١٣)، وَفِيهِ الْحُثُّ عَلَى الدُّعَاءِ وَفَضْلُهُ وَعَلَى قُرْبِ اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ.

قال :

وَقَوْلِهِ ﷺ: «ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُم لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا».

من حديث أبي موسى عند البخاري (٧٣٨٦) واللفظ له، مسلم (٢٧٠٤) وزاد قوله : «إِنَّ الَّذِي تَدْعُوهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنْتِي رَاحِلَتِهِ». والحديث على ظاهره من حيث إثبات القرب لله عز وجل مع ما هو متقرر من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله عز وجل عليّ في دنوه، وقريب في علوه، فلا يلزم من ذلك حلولاً ولا اتحاداً ولا اختلاطاً.

أمّا قوله : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، فالمراد به قُرب الملائكة كما هو مبين، ولو قيل المراد به قرب الله تعالى فعلى المعنى المذكور.

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٥٠١/٥):

وَهُوَ بِذَلِكَ أَقْرَبُ إِلَيْنَا مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَكَيْفَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُوسَّوْسُ بِهِ أَنْفُسُنَا مِنَّا فَكَيْفَ بِحَبْلِ الْوَرِيدِ وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو عَمْرٍو الطلمنكي قَالَ: وَمَنْ سَأَلَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] فَأَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى مَعْنَى الْعِلْمِ بِهِ وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَالِدَّلِيلُ مِنْ ذَلِكَ صَدْرُ الْآيَةِ؛ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوْسُ بِهِ، نَفْسُهُ﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، لِأَنَّ اللَّهَ لَمَّا كَانَ عَالِمًا بِوَسْوَاسَتِهِ؛ كَانَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَحَبْلِ الْوَرِيدِ لَا يَعْلَمُ مَا تُوَسَّوْسُ بِهِ النَّفْسُ.

وَيَلْزَمُ الْمُلْحَدَ عَلَى اعْتِقَادِهِ أَنْ يَكُونَ مَعْبُودُهُ مُحَالِطًا لِدَمِ الْإِنْسَانِ وَلَحْمِهِ وَأَنْ لَا يُجَرَّدَ الْإِنْسَانُ تَسْمِيَةَ الْمَخْلُوقِ حَتَّى يَقُولَ: خَالِقٌ وَمَخْلُوقٌ لِأَنَّ مَعْبُودَهُ بِزَعْمِهِ دَاخِلٌ حَبْلِ الْوَرِيدِ مِنَ الْإِنْسَانِ وَخَارِجُهُ فَهُوَ عَلَى قَوْلِهِ مُمْتَزَجٌ بِهِ غَيْرُ مُبَايِنٍ لَهُ.

قَالَ: وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ وَتَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِ أَهْلِ الرِّبْعِ وَعَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوءًا كَبِيرًا. قَالَ: وَكَذَلِكَ الْجَوَابُ فِي قَوْلِهِ فَيَمَنْ يَحْضُرُهُ الْمَوْتُ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] أَيْ بِالْعِلْمِ بِهِ وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ إِذْ لَا يَقْدِرُونَ لَهُ عَلَى حِيلَةٍ وَلَا يَدْفَعُونَ عَنْهُ الْمَوْتَ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

قُلْتُ: وَهَكَذَا ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِثْلَ الثَّعَلِيِّ وَأَبِي الْفَرَجِ ابْنِ الْجَوَزِيِّ وَغَيْرِهِمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وَأَمَّا فِي قَوْلِهِ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥] فَذَكَرَ أَبُو الْفَرَجِ الْقَوْلَيْنِ: إِنَّهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَإِنَّهُ الْقُرْبُ بِالْعِلْمِ. وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مَقْصُودُهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ ذَاتَ الْبَارِي جَلَّ وَعَلَا قَرِيبَةٌ مِنْ وَرِيدِ الْعَبْدِ وَمِنْ الْمَيِّتِ وَلَمَّا ظَنُّوا أَنَّ الْمُرَادَ قُرْبُهُ وَحْدَهُ دُونَ قُرْبِ الْمَلَائِكَةِ فَسَرُّوا ذَلِكَ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ كَمَا فِي لَفْظِ الْمَعِيَّةِ وَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا؛ فَإِنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥] أَيْ بِمَلَائِكَتِنَا فِي الْآيَتَيْنِ وَهَذَا بِخِلَافِ لَفْظِ الْمَعِيَّةِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ: وَنَحْنُ مَعَهُ بَلْ جَعَلَ نَفْسَهُ هُوَ الَّذِي مَعَ الْعِبَادِ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُنَبِّئُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا عَمِلُوا وَهُوَ نَفْسُهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَهُوَ نَفْسُهُ الَّذِي اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ فَلَا يُجْعَلُ لَفْظٌ مِثْلَ لَفْظٍ مَعَ تَفْرِيقِ الْقُرْآنِ بَيْنَهُمَا. اهـ

وقد ذهب بعض المبتدعة زاعماً أن أهل السنة وقعوا في التأويل؛ حيث فسروا قول الله عز وجل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] بقرب الملائكة.

والجواب: أن تفسير القرب فيهما بقرب الملائكة ليس صرفاً للكلام عن ظاهره لمن تدبره.

فإن القرب مقيد فيها بما يدل على ذلك حيث قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [ق:١٦-١٨] ففي قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾ [ق:١٧] دليل على أن المراد به قرب الملكين ولو قيل المراد به قرب الله سيكون المعنى ما تقدم من أنه قريب وهو في علوه وهو مستوٍ على عرشه بائن من خلقه.

وبنحو هذا أجاب الشيخ ابن عثيمين في القواعد المثلى .

ملخص الجمع بين أدلة العلو والقرب والمعية:

قوله :

وَمَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ
وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي
دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ.

وهذا الذي ذكره من أوجه الرد على من زعم أن القول بالمعية والقرب يلزم منه الحلول والاتحاد فإذا كان ذلك يلزم في حق المخلوق فلا يلزم في حق الخالق لأن الله قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، لا في اسمائه ولا صفاته ولا أفعاله.

القول في القرآن

قال :

وَمِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَكِتَابِهِ الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ.

تقدّم الكلام على هذه المسألة وأنّ القرآن كلام الله منزل غير مخلوق أنزله تعالى منه وتكلّم به حقيقة، سمعه منه جبريل فبلّغه محمد ومن زعم أنّ كلام الله مخلوق فقد زعم أنّ كلّ كلام حقّه وباطله كلام الله حتّى قال بعض من يعتقد هذا القول:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَشْرُهُ وَنِظَامُهُ

وكان أحدهم إذا سمع الكلب ينبح يقول (سبحانك يا أرحم الراحمين) لأنّه يعتقد أنّ صوت الكلب هو كلام الله ومن زعم أنّ كلام الله مخلوق جوّز للمخلوق أن يقول (إنّني أنا الله لا إله إلا أنا) ولكان فرعون لعنه الله محقا في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

فالله تعالى متكلّم حقيقة بصوت وحرف يُسمع والأصل أنّهم يقال القرآن كلام الله كما نقول بصر الله وسمع الله وقدرة الله لكن لما زعمت الجهمية القول بخلق القرآن أجمع السلف رضوان الله عليهم على هذه الإضافة (القرآن كلام الله غير مخلوق).

القول في اللفظ

قال عبدالله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي فقلت: إن قومًا يقولون: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة؟ قال: (هم جهمية، وهم شر ممن يقف). وقال: (هذا هو قول جهم) وعظم الأمر عنده في هذا، وقال: قال الله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال رسول الله: «حَتَّى أُبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي»، وقال: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِّنْ كَلَامِ النَّاسِ» فمن قال: لفظي بالقرآن مخلوق، فهو جهمي. قال: فقلت لأبي: إن الكرايسبي يقول: لفظي بالقرآن مخلوق. فقال: (هذا كلام سوء رديء، وهو كلام الجهمية، كذب الكرايسبي، هتكه الله، الخبيث). وقال: (قد خلف هذا بشرًا المريسي). قال عبدالله: وكان أبي يكره أن يتكلم في اللفظ بشيء، وأن يقال: لفظي به مخلوق أو غير مخلوق. أخرجه ابن بطة في الإبانة .

وأخرج أيضًا عنه قال: سألت أبي: ما تقول في رجل قال: التلاوة مخلوقة، وألفاظنا بالقرآن مخلوقة، والقرآن كلام الله ليس بمخلوق؟ قال: هذا كافر، وهو فوق المبتدع، وهذا كلام الجهمية. قلت: ما ترى في مجانبته؟ وهل يسمى مبتدعًا؟ فقال: (هذا يجانب، وهو فوق المبتدع، وهذا كلام الجهمية، ليس القرآن بمخلوق، قالت عائشة: تلا رسول الله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، والقرآن ليس بمخلوق).

وأخرج عن المروذي: قلت لأبي عبدالله: إن رجلًا من أصحابنا زوج أخته من رجل، فإذا هو من هؤلاء اللفظية، يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، وقد كتب

الحديث، فقال أبو عبد الله: (هذا شر من جهمي). قلت: فتفرق بينهما؟ قال: نعم، قلت: فإن أخاها يفرق بينهما؟ قال: (قد أحسن)، وقال: (أظهروا الجهمية، هذا كلام ينقض آخره أوله). قلت لأبي عبد الله: إن الكرايسي يقول: من لم يقل: لفظي بالقرآن مخلوق فهو كافر؟ قال: (بل هو الكافر). وقال: (مات بشر المريسي وخلفه حسين الكرايسي) فكان أول من أظهر مسألة اللفظ هو حسين الكرايسي ونشرها بين الناس، كما ترى وذلك سنة أربع وثلاثين ومئتين، ففي تاريخ بغداد (٦٥/٨) قال: جاء رجل إلى أبي علي الحسين بن علي الكرايسي فقال: ما تقول في القرآن؟ فقال حسين الكرايسي: كلام الله غير مخلوق، فقال له الرجل: فما تقول في لفظي بالقرآن، فقال له حسين: لفظك بالقرآن مخلوق، فمضى الرجل إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل فعرفه أن حسيناً قال له: إن لفظه بالقرآن مخلوق؛ فأنكر ذلك، وقال: هي بدعة. فرجع الرجل إلى حسين الكرايسي فعرفه إنكار أبي عبد الله أحمد بن حنبل لذلك، وقوله: هذا بدعة، فقال له حسين: تلفظك بالقرآن غير مخلوق؛ فرجع إلى أحمد بن حنبل فعرفه رجوع حسين وأنه قال: تلفظك بالقرآن غير مخلوق. فأنكر أحمد بن حنبل ذلك أيضاً، وقال: هذا أيضاً بدعة، فرجع الرجل إلى أبي علي حسين الكرايسي فعرفه إنكار أبي عبد الله أحمد بن حنبل وقوله: هذا أيضاً بدعة، فقال حسين: أيش نعمل بهذا الصبي، إن قلنا مخلوق قال: بدعة، وإن قلنا: غير مخلوق، قال: بدعة، فبلغ ذلك أبا عبد الله، فغضب له أصحابه فتكلموا في حسين، وكان ذلك سبب الكلام في حسين والغمز عليه بذلك. اهـ

ومسألة اللفظ فيها إجمال ولهذا نهى السلف عن الخوض فيها، والمذهب الحق في إثبات كلام الله تعالى قد تقدم بيانه، وأن الله متكلم حقيقة بحرف وصوت متى شاء وكيف شاء. ولما وقعت المحنة التي مرت بها الأمة في زمن المأمون من القول بخلق القرآن، وأعز الله الدين وأهله وقمع الباطل وأهله، وصار الإمام أحمد علماً لأهل السنة الجائين بعده، تلبس المبتدعة بألفاظ موهمة.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٣٥٨/١٢):

وَصَارَتْ فُرُوعُ التَّجَهُّمِ تَجَوُّلٌ فِي نُفُوسِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ. فَقَالَ بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعْرُوفًا بِالسُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ: وَلَا نَقُولُ مَخْلُوقٌ وَلَا غَيْرُ مَخْلُوقٍ بَلْ نَقِفُ وَبَاطِنُ أَكْثَرِهِمْ مُوَافِقٌ لِلْمَخْلُوقِيَّةِ وَلَكِنْ كَانَ الْمُؤْمِنُونَ أَشَدَّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ. وَطَائِفَةٌ أُخْرَى قَالَتْ: نَقُولُ كَلَامَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يُنَزَّلْهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَأَمَّا الْقُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَتَلَاهُ جِبْرِيلُ وَمُحَمَّدٌ وَالْمُؤْمِنُونَ فَهُوَ مَخْلُوقٌ وَهَؤُلَاءِ هُمْ (اللَّفْظِيَّةُ). فَصَارَتْ الْأُمَّةُ تَفْزَعُ إِلَى إِمَامِهَا إِذَا كَانَ ذَلِكَ فَيَقُولُ لَهُمْ أَحْمَدُ: افْتَرَقَتْ الْجُهِمِيَّةُ عَلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ: فِرْقَةٌ تَقُولُ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ وَفِرْقَةٌ تَقُولُ كَلَامُ اللَّهِ وَتَسْكُتُ وَفِرْقَةٌ تَقُولُ: أَلْفَاظُنَا وَتِلَاوَتُنَا لِلْقُرْآنِ مَخْلُوقَةٌ. فَإِنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِ هَؤُلَاءِ أَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَى قَلْبِ رَسُولِ اللَّهِ هُوَ قُرْآنٌ مَخْلُوقٌ لَمْ يَتَكَلَّمِ اللَّهُ بِهِ وَكَانَ هَؤُلَاءِ شُبْهَةً كَوْنِ أَفْعَالِنَا وَأَصْوَاتِنَا مَخْلُوقَةً وَنَحْنُ إِنَّمَا نَقْرُؤُهُ بِحَرَكَاتِنَا وَأَصْوَاتِنَا. وَرُبَّمَا قَالَ بَعْضُهُمْ مَا عِنْدَنَا إِلَّا أَلْفَاظُنَا وَتِلَاوَتُنَا وَمَا فِي الْأَرْضِ قُرْآنٌ إِلَّا هَذَا. وَهَذَا مَخْلُوقٌ. فَقَابَلَهُمْ قَوْمٌ أَرَادُوا تَقْوِيمَ السُّنَّةِ فَوَقَعُوا فِي الْبِدْعَةِ. وَرَدُّوا بِبَاطِلٍ بَاطِلٍ وَقَابَلُوا الْفَاسِدَ بِالْفَاسِدِ فَقَالُوا: تِلَاوَتُنَا لِلْقُرْآنِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ وَأَلْفَاظُنَا بِهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْقُرْآنُ. وَالْقُرْآنُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَلَمْ

يُفَرِّقُوا بَيْنَ الْإِسْمِ الْمَطْلُوقِ وَالْإِسْمِ الْمُقَيَّدِ فِي الدَّلَالَةِ وَبَيْنَ حَالِ الْمُسَمَّى إِذَا كَانَ مُجَرَّدًا وَحَالِهِ إِذَا كَانَ مَقْرُونًا مُقَيَّدًا. فَانْكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَلَى مَنْ قَالَ: إِنَّ تِلَاوَةَ الْعِبَادِ وَقِرَاءَتَهُمْ وَالْفَاطَظَهُمْ وَأَصْوَاتَهُمْ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ وَأَمَرَ بِهِجْرَانِ هَؤُلَاءِ كَمَا جَعَلَهُمُ الْأَوَّلِينَ وَبَدَّعَهُمْ. اهـ

وكما ترى أن الإمام أحمد قد أنكر على من قال لفظي بالقرآن مخلوق، ومن قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق؛ والسبب في ذلك الإجمال الحاصل في كلمة (اللفظ)، والقاعدة في الألفاظ المجملة قد بين السلف كيفية التعامل معها.

قال شيخ الإسلام في التدمرية (٦٥): وما تنازع فيه المتأخرون نفياً واثباتاً فليس على أحد بل ولا له: أن يوافق أحد على إثبات لفظه أو نفيه حتى يعرف مراده فإن أراد حقاً قبل وإن أراد باطلاً رد وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقاً ولم يرد جميع معناه بل يوقف اللفظ ويفسر المعنى. اهـ

وقال في منهاج السنة (٢/٢١٧): وأما الألفاظ المجملة فالكلام فيها بالنفي والإثبات دون الاستفصال يوقع في الجهل والضلال والفتن والخبال والقيال والقال وقد قيل أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء. اهـ

قال ابن القيم في النونية مع شرح ابن عيسى (١/٣٢٥):
فَعَلَيْكَ بِالتَّفْصِيلِ وَالتَّمْيِيزِ قَالَ إِطْلَاقُ وَالْإِجْمَالُ دُونَ بَيَانِ
قَدْ أَفْسَدَا هَذَا الْوُجُودَ وَخَبَطَا الْاَذْهَانَ وَالْأَرْءَاءَ كُلَّ زَمَانِ

فهذا هو السبب الأول في نهي السلف عن الخوض في هذه المسألة وهو الإجمال في اللفظ أضف إلى ذلك النزاع في مسألة الإيمان هل هو مخلوق أو غير مخلوق.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٤٣١/١٢): وأصل ذلك القرب والاتصال الحاصل بين ما أنزله الله تعالى من القرآن والإيمان الذي هو من صفاته وبين أفعال العباد وصفاتهم؛ فلعسر الفرق والتمييز يميل قوم إلى زيادة في الإثبات، وآخرون إلى زيادة في النفي. اهـ

وقال شيخ الإسلام في بيان معنى اللفظ بالإجمال فيه (٣٠٦/٢) - (٣٠٧): واللفظ في الأصل مصدر لفظ يلفظ لفظاً وكذلك التلاوة، والقراءة مصدران؛ لكن شاع استعمال ذلك في نفس الكلام الملفوظ المقروء المتلو وهو المراد باللفظ في إطلاقهم فإذا قيل: لفظي أو اللفظ بالقرآن مخلوق أشعر أن هذا القرآن الذي يقرؤه ويلفظ به مخلوق، وإذا قيل: لفظي غير مخلوق أشعر أن شيئاً مما يضاف إليه غير مخلوق وصوته وحركته مخلوقان، لكن كلام الله الذي يقرؤه غير مخلوق والتلاوة قد يراد بها نفس الكلام الذي يتلى وقد يراد بها نفس حركة العبد وقد يراد بها مجموعهما؛ فإذا أريد بها الكلام نفسه الذي يتلى فالتلاوة هي المتلو وإذا أريد بها حركة العبد فالتلاوة ليست هي المتلو وإذا أريد بها المجموع فهي متناولة للفاعل والكلام فلا يطلق عليها أنها المتلو ولا أنها غيره. اهـ

وأما بالنسبة للإمام البخاري فقد قال الإمام ابن القيم كما في مختصر الصواعق مدافعاً عنه (١٣٥٠/٤) وما بعده: فالبخاري أعلم بهذه المسألة وأولى بالصواب فيها من جميع من خالفه، وكلامه فيها أوضح وأمتن من كلام

أبي عبدالله، فإن الإمام أحمد وأرضاه سدّ الذريعة حيث منع إطلاق لفظ المخلوق نفياً وإثباتاً على اللفظ، فقالت طائفة: أراد سد باب الكلام في ذلك.

وقالت طائفة منهم ابن قتيبة: إنما كره أحمد ذلك ومُنِع منه؛ لأن اللفظ في اللغة الرمي والإسقاط، يقال: لفظ الطعام من فيه ولفظ الشيء من يده إذا رمى به، فكره أحمد إطلاق ذلك على القرآن، وقالت طائفة: إنما مراد أحمد أن اللفظ غير الملفوظ، فلذلك قال: إن من زعم أن لفظه بالقرآن مخلوق فهو جهمي.

وأما منعه أن يقال: لفظي بالقرآن مخلوق، فإنما منع ذلك؛ لأنه عدول عن نفس قول السلف، فإنهم قالوا: القرآن غير مخلوق، والقرآن اسم يتناول اللفظ والمعنى، فإذا خُص اللفظ بكونه غير مخلوق كان ذلك زيادة في الكلام ونقصاً من المعنى، فإن القرآن كله غير مخلوق، فلا وجه لتخصيص لكن هذا التخصيص ممنوع منه، وكل هذا عدول عما أراده الإمام أحمد .

وهذا المنع في النفي والإثبات من كلام علمه باللغة والسنة وتحقيقه لهذا الباب، فإنه امتحن به مالم يمتحن به غيره، وصار كلامه قدوة وإماماً لحزب رسول الله إلى يوم القيامة، والذي قصده أحمد أن اللفظ يراد به أمران: أحدهما: الملفوظ نفسه، وهو غير مقدور للعبد ولا فعل له.

والثاني: والتلفظ به والأداء له وهو فعل العبد، فإطلاق الخلق على اللفظ قد يوهم المعنى الأول وهو خطأ، وإطلاق نفي الخلق عليه قد يوهم المعنى الثاني، وهو خطأ، فمُنِع للإطلاقين.

وأبو عبدالله البخاري مَيَّز وفصل وأشبع الكلام في ذلك، وفرق بين ما قام بالرب، وبين ما قام بالعبد، وأوقع المخلوق على تلفظ العباد وأصواتهم

وحركاتهم وأكسابهم، ونفي اسم الخلق عن الملفوظ وهو القرآن الذي سمعه جبريل من الله تعالى وسمعه محمدٌ من جبريل، وقد شفي في هذه المسألة في كتاب خلق أفعال العباد وأتى فيها من الفرقان والبيان بما يزيل الشبهة ويوضح الحق ويبين محله من الإمامة والدين، ورد على الطائفتين أحسن رد.

قال أبو عبد الله البخاري : فأما ما احتج الفريقان لمذهب أحمد ويدّعيه كل لنفسه فليس بثابت كثير من أخبارهم ورُبما لم يفهموا دقة مذهبه، بل المعروف عن أحمد وأهل العلم أن كلام الله تعالى غير مخلوق، وما سواه فهو مخلوق، وأنهم كرهوا البحث والتفتيش عن الأشياء الغامضة، وتجنبوا أهل الكلام والخوض والتنازع إلا فيما جاء به العلم وبينه النبي . اهـ

وقوله: (مُنَزَّلٌ مِنْهُ بَدَأَ) تقدمت الأدلة على ذلك مثل قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، وقوله: ﴿تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢]، و(من) للابتداء.

وقوله: (وَالَيْهِ يَعُودُ) في حديث حذيفة بن اليمان عند ابن ماجه (٤٠٤٩) قال : «يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيْسَرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ»، ويكون هذا الرفع حين يحصل من أهل الإسلام البعد عن هذا الكتاب قبل قيام الساعة.

قال :

وَأَنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً.

أي أن حروفه، وكلامته، ومعانيه من الله تعالى سمعه منه جبريل حقيقة، وبلغه محمد ، وهذا يردّ قول المبتدعة الذين يقولون إنّ كلام الله تكلم به غيره أو أنّ كلام الله نفساني وتكلم جبريل بما في نفس الله أو تكلم النبيّ بما في نفس الله وهذا من أقبح القول لأن الله لا يعلم ما في نفسه إلّا هو، قال الله : ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وفي سنن أبي داود (٤٧٣٨): عن عبدالله ابن مسعود قال: قال رسول الله «إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ، سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِلَّسَّمَاءِ صَلَصلةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفا، فَيُضْعَقُونَ، فَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جِبْرِيلُ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ جِبْرِيلُ فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ» قَالَ: «فَيَقُولُونَ: يَا جِبْرِيلُ مَاذَا قَالَ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: الْحَقُّ، فَيَقُولُونَ: الْحَقُّ، الْحَقُّ». وعلقه البخاري.

قال :

وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ حَقِيقَةً، لَا كَلَامَ غَيْرِهِ.

على ما تقدم، ولهذا لو حلفت بالقرآن لزمك أحكام اليمين المكفّرة ولو كان مخلوقاً كالشجر والحجر، لكان من حلف به أشرك، ولما جاز الاستعاذة به وفي قوله : «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»، من حديث خولة بنت حكيم عند مسلم (٢٧٠٨) وجاء بنحوه عن أبي هريرة ، إذ لو جاز الاستعاذة به وهو مخلوق لجاز الاستعاذة بالصنم والحجر والقبر ولم يبق في الإنكار على المشركين معنى ولكن النبيّ استعاذة بصفة الله وهي كلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر.

ولو كان القرآن كلام البشر لما كفر الله من زعم أنه قول البشر لكن لما قال الوليد بن المغيرة: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدر: ٢٥]، أنزل الله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدر: ١٨-٢٦].

قال الطحاوي (فلما توعدده الله بسقر علمنا أنه ليس بقول البشر).

وقد تحداهم الله أن يأتوا بمثله قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وتحدهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣] [هود: ١٣] وتحدهم أن يأتوا بسورة فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، فعجزوا وهم أفصح العرب لساناً ولهذا نزل القرآن بلغتهم لفصاحتهم وبلاغتهم ومع ذلك عجزوا أن يأتوا بمثل قول الله : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۖ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۚ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١-٣]، كلام عظيم، كلام جميل، معجز يجمع الله في الآية بين الخبر والأمر والنهي والوعد والوعيد وغير ذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَا لِقِيهِ فِي أَلْيَمٍ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، انظر إلى حياة موسى منذ خروجه من بطنه أمه إلى أن أرسل في آية يُخبر الله بها، قال الله تعالى: ﴿لَا

يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ [فصلت: ٤٢]، كلما قرأه الإنسان زاده انشراحاً في صدره وفهماً له.

قال :

وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ، أَوْ عِبَارَةٌ.

قال ابن القيم :

زَعَمُوا الْقُرْآنَ عِبَارَةً وَحِكَايَةً قُلْنَا كَمَا زَعَمُوهُ قُرْآنَانِ هَذَا الَّذِي نَتْلُوهُ مَخْلُوقٌ كَمَا قَالَ الْوَلِيدُ وَبَعْدَهُ الْفِتْنَانِ

قال الهراس :

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْمَوْجُودَ بَيْنَنَا حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ؛ كَمَا تَقُولُهُ الْكَلَابِيَّةُ، أَوْ أَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْهُ؛ كَمَا تَقُولُهُ الْأَشْعَرِيَّةُ؛ فَقَدْ قَالَ بِنِصْفِ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ؛ حَيْثُ فَرَّقَ بَيْنَ الْأَلْفَافِ وَالْمَعَانِي، فَجَعَلَ الْأَلْفَافَ مَخْلُوقَةً، وَالْمَعَانِي عِبَارَةً عَنِ الصِّفَةِ الْقَدِيمَةِ؛ كَمَا أَنَّهُ ضَاهِي النَّصَارَى فِي قَوْلِهِمْ بِحُلُولِ اللَّاهُوتِ وَهُوَ الْكَلِمَةُ فِي النَّاسُوتِ وَهُوَ جَسَدُ عِيسَى ؛ إِذْ قَالَ بِحُلُولِ الْمَعَانِي الَّتِي هِيَ الصِّفَةُ الْقَدِيمَةُ فِي هَذِهِ الْأَلْفَافِ الْمَخْلُوقَةِ، فَجَعَلَ الْأَلْفَافَ نَاسُوتًا لَهَا. انتهى

قال :

بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ لَمْ يُخْرَجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ

مُبْتَدَأًا، لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا. وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ؛ حُرُوفُهُ، وَمَعَانِيهِ
لَيْسَ كَلَامُ اللَّهِ الْحُرُوفَ دُونَ الْمَعَانِي وَلَا الْمَعَانِيَ دُونَ الْحُرُوفِ.

وفي كتاب العقل والنقل (٦٠ / ٢) نقلًا عن أبي حامد: وكان عبد الله بن سعيد بن كلاب يقول: هي حكاية عن الأمر فخالفه أبو الحسن الأشعري، بأن الحكاية تحتاج أن تكون مثل المحكي، ولكن هو عبارة عن الأمر القائم بالنفس. انتهى

وقال ابن القيم :

وَكَذَلِكَ اخْتَلَفُوا فَقِيلَ حِكَايَةٌ
إِنْ كَانَ مَا يَحْكِي كَمَحْكِيٍّ وَهَذَا
وَلِذَا يُقَالُ حَكَى الْحَدِيثَ بِعَيْنِهِ
فَلِذَاكَ قَالُوا لَا نَقُولُ حِكَايَةً
وَالْآخَرُونَ يَرَوْنَ هَذَا الْبَحْثَ لَفًا
عَنْهُ وَقِيلَ عِبَارَةٌ لِبَيَانِ
ذَا اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى فَمُخْتَلَفَانِ
إِذَا كَانَ أَوَّلُهُ نَظِيرَ الثَّانِي
وَنَقُولُ ذَاكَ عِبَارَةً الْفُرْقَانِ
ظِيًّا وَمَا فِيهِ كَبِيرٌ مَعَانِي

إثبات الرؤية

قال :

وَقَدْ دَخَلَ أَيْضًا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِمَلَائِكَتِهِ وَبِرُسُلِهِ:
 الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَيْنًا بِأَبْصَارِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ
 الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ بِهَا سَحَابٌ، وَكَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةً الْبَدْرُ لَا
 يُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ. يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَرَوْنَهُ
 بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ؛ كَمَا يَشَاءُ اللَّهُ تَعَالَى.

قد تقدم الكلام عليها بما يغني عن الإعادة لكن كرر لكثرة المخالفين لأهل
 السنة في هذا الباب، واعلم أن الإيمان برؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة هو
 معتقد أهل السنة والجماعة المؤيد بالأدلة الجلية والبراهين النقلية والشواهد
 العقلية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في لاميته :

وَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ حَقًّا رَبَّهُمْ وَإِلَى السَّمَاءِ بَغِيرَ كَيْفٍ يَنْزِلُ

وقال أبوبكر بن أبي داود في حائيته :

وَقُلْ يَتَجَلَّى اللَّهُ لِلْخَلْقِ جَهْرَةً كَمَا الْبَدْرُ لَا يَخْفَى وَرَبُّكَ أَوْضَحُ
 وَلَيْسَ بِمَوْلُودٍ وَلَيْسَ بِوَالِدٍ وَلَيْسَ لَهُ شَبَهٌ تَعَالَى الْمَسْبُوحُ
 وَقَدْ يُنْكِرُ الْجَهْمِيُّ هَذَا وَعِنْدَنَا بِمُضْدَاقِ مَا قُلْنَا حَدِيثٌ مُصَرَّحٌ
 رَوَاهُ جَرِيرٌ عَنْ مَقَالِ مُحَمَّدٍ فَقُلْ مِثْلَ مَا قَدْ قَالَ فِي ذَاكَ تَنْجَحُ

قال الطحاوي (١٨٨) مع الشرح:

والرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] وتفسيره على ما أراد الله وعلمه، وكلما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ؛ فهو كما قال، ومعناه ما أراد. اهـ

وقال الدارمي ص (١٠٤): قَدْ صَحَّتِ الْآثَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ، فَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَكِتَابُ اللَّهِ النَّاطِقُ بِهِ، فَإِذَا اجْتَمَعَ الْكِتَابُ وَقَوْلُ الرَّسُولِ وَإِجْمَاعُ الْأُمَّةِ لَمْ يَبْقَ لِمُتَأَوِّلٍ عِنْدَهَا تَأْوِيلٌ، إِلَّا لِمُكَابِرٍ أَوْ جَا حِدٍ. اهـ

وقال عبدالغني المقدسي في الاقتصاد في الاعتقاد ص (١٢٥): وأجمع أهل الحق واتفق أهل التوحيد والصدق أن الله تعالى يُرى في الآخرة، كما جاء في كتابه، وصح عن رسوله . اهـ

وأدلة الرؤية متواترة متكاثرة حتى قيل:

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبَ وَمَنْ بَنَى لِلَّهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبَ
وَرُؤْيَا شَفَاعَةً وَالْحَوْضَ وَمَسَحَ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

الإيمان باليوم الآخر

قال :

(فَصَلِّ) وَمَنِ الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ، فَأَمَّا الْفِتْنَةُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُمْتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَيَقَالُ لِلرَّجُلِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: رَبِّي اللَّهُ، وَالْإِسْلَامُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ ﷺ نَبِيِّي. وَأَمَّا الْمُرْتَابُ؛ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ؛ لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ، فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الْإِنْسَانُ؛ لَصُعِقَ ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ، إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرَى، فَتُعَادُ الْأَرْوَاحُ إِلَى الْأَجْسَادِ.

وبداية الإيمان باليوم الآخر الموت ففي حديث عثمان بن عفان عند الترمذي (٢٣٠٨) وابن ماجه (٤٢٦٧)، قال النبي : «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَمَنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَمَنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ»، فقولُه الإيمان باليوم الآخر يدخل فيه أمور كثيرة من أمور الغيب مثل: الإيمان بملك الموت، الإيمان بالقبر وبما فيه من النعيم والعذاب والضمّة والفتنة، والإيمان بأنّ الإنسان يبلى إلّا عجب الذنب والإيمان بالبعث بعد الموت والحساب والصراط والميزان والحوض وتطابير الصحف ورؤية الله ومسائل

الإيمان بالشفاعة، وسُمِّي باليوم الآخر لأنه ليس بعده يوم وهو يوم واحد للإنسان وإن قال قائل أنتم تقولون القبر أول منازل الآخرة وما زالت الأيام والليالي تتعاقب يقال لهم ليس للميت بعد ذلك تفريق بين الليل والنهار وإنما هو امتداد شيء واحد إلا ما كان من مودة خفيفة ما بين النفختين على ما ذكر قتادة ويبقى الناس بعد التمييز بين أهل الجنة، وأهل النار إما في نعيم خالد وإما في عذاب خالد، ومن أعظم الأسباب المعينة على العمل الصالح استحضر الإخلاص لله وأيضاً الرغبة في ذلك اليوم ولهذا قال الله :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، والإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان الستة قال الله :

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال : ﴿وَمَنْ
يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، والنبي قال لما سُئِلَ عن الإيمان: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» من حديث
عمر عند مسلم (٨). وفي حديث أبي هريرة المتفق عليه عند
البخاري (٤٧٧٧) ومسلم (٩)، قال الرسول : «الإيمانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ». وهو يتضمَّنُه، وهذا
الركن من الأركان التي اتفقت عليه الرسل وأول ما نزل من القرآن كانت
آيات فيها ذكر الجنة والنار والقيامة لأنَّ الناس كانوا لا يؤمنون باليوم الآخر:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، ولا حول
ولا قوَّة إلا بالله فكانوا لا يُبالون ماذا صنعوا وماذا فعلوا لأنَّهم يعتقدون أنَّهم

سيموتون ويكونون ترابًا، فعن ابن عباس، أن العاصي بن وائل أخذ عظمًا من البطحاء ففثته بيده، ثم قال لرسول الله : أحيي الله هذا بعد ما أرى؟ فقال رسول الله : «نعم، يُمَيِّتُكَ اللَّهُ ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ». قال: ونزلت الآيات من آخر (يس). أخرج ابن أبي حاتم، وهو قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿[يس: ٧٨-٧٩]، في كثير من الآيات يُقرّر الله البعث ومسائله وكان من أبلغ التقرير ما في آخر سورة ياسين حيث ضرب الله لهم المثل بتلك الشجرة الخضراء التي يخرج منها النار فالله لا يُعجزه شيء في السماوات ولا الأرض ومّا يستدلّ به العلماء وجاءت حجّيته في القرآن أنّ الإيجاد من العدم أشدّ من الإعادة وإذ كان الله لم يُعجزه إيجادهم من العدم فمن باب أولى أن لا تُعجزه الإعادة وفي سورة القيامة قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٤٠]، وكثير من الملاحدة لا يؤمنون باليوم الآخر مثل البوذيين والهندوس وإنّما يعتقدون أنّ الروح الشريرة تخرج في الشرير وهذا هو عذابها والروح الطيبة تخرج إلى شيء طيب فيقولون بتناسخ الأرواح.

الكلام في القبر وما فيه

وتضمّنت هذه الفقرة الإشارة إلى القبر وما فيه من النعيم والعذاب وقبل ذلك ما فيه من الفتنة والضمة، أمّا الفتنة فیدلّ عليها قوله : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فقال النبي : «نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ»، من حديث البراء بن عازب عند مسلم (٢٨٧١) واللفظ له، والبخاري (١٣٦٩).

والفتنة هي السؤال قالت عائشة فيما ترويه عن النبي : «فَأَمَّا فِتْنَةُ الْقَبْرِ: فَبِي تُفْتَنُونَ، وَعَنِّي تُسْأَلُونَ» مسند أحمد (٢٥٠٨٩)، وبهذا استدلل العلماء على أن الأنبياء لا يُفْتَنُونَ في قبورهم وذلك لأن الناس يُسألون عن أنبيائهم ولا يُسأل الأنبياء فقول النبي : «فَبِي تُفْتَنُونَ»، أي يقال: «من نبيك؟»، كما في بعض الروايات وفي بعضها: «مَا عَلِمْتُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوْ الْمُؤْمِنَةُ لَا أَدْرِي بِأَيِّهَا قَالَتْ أَسْمَاءُ فَيَقُولُ هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا هُوَ مُحَمَّدٌ ثَلَاثًا فَيَقَالُ نَمْ صَالِحًا قَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُوقِنًا بِهِ وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أَوْ الْمُرْتَابُ لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ فَيَقُولُ لَا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُ» من حديث أسماء عند البخاري (٨٦)، ومسلم (٩٠٥).

وهذا يدل على أن التقليد ليس بنافع ويسلم من هذه الفتنة الصديقون والشهداء والمرابطون، أما الصديقون فلم نجد دليلاً على إخراجهم منها لكنهم أفضل من الشهداء بالإجماع، قال الله : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وأما الشهداء فقد صحَّ عند النسائي (٢٠٥٢)، أن النبي سئل عن الشهداء هل يُفْتَنُ في قبره؟ فقال : «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً». وأما المرابط فعن فضالة بن عبيد عند أبي داود (٢٥٠٠)، قال الرسول : «كُلُّ الْمَيِّتِ يُحْتَمُّ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطَ، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُؤْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ»، فهؤلاء الأصناف السالمون الناجون من الفتنة.

وفي القبر ضمةٌ وهي نائلة كلِّ أحد ولم يستثن بعضهم حتى الأنبياء والصحيح أن الأنبياء يسلّمون منها؛ لأن النبي قال: «لِلْقَبْرِ ضَغْطَةٌ، لَوْ نَجَا مِنْهَا أَحَدٌ لَنَجَا مِنْهَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ» من حديث عائشة أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (٣٢٨)، وابن حبان في صحيحه (٣١١٢) وغيرهما، وقال النبي: «هَذَا الَّذِي تَحَرَّكَ لَهُ الْعَرْشُ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَشَهِدَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، لَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً، ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ» من حديث ابن عمر عند النسائي (٢٠٥٤). فلو أراد النبي الأنبياء لقال: (لنجات منها أنا)، ولكن لما ذكر سعد بن معاذ دل على أن النبي أراد غير الأنبياء وإلى هذا القول ذهب الحكيم الترمذي ولم أر غيره ذكر هذا القول والحكيم الترمذي فيه ما فيه من الكلام لكن هذا القول الذي لا يصلح أن نذكر غيره، وكثير من العلماء يقولون ضمة المؤمن في القبر كضمة الأمّ الحنون، وهذا غير صحيح؛ لأن الحديث فيه: «ثم فرج عنه»، والتفريع يقع بعد شدة، وهي ضمة تتخالف فيها الأضلاع، نسأل الله السلامة، إلا أن المؤمن يُفرج عنه بعدها والكافر يظل على ما هو فيه، على ما يأتي في حديث البراء.

ويدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بما في القبر من النعيم والعذاب وقد دل على عذاب القبر ونيعمه الكتاب والسنة والإجماع، أما الكتاب فقوله: ﴿الْهَنُكُمُ التَّكَاثُرُ ۖ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١-٢]، قد يقول قائل (حتى زرتم المقابر بأجسادكم وذهبتم تنظرون إلى القبور)، يُقال هذا المعنى ضعيف، بل المعنى المراد (حتى زرتم المقابر) أي دخلتم فيها أمواتاً، ويدل على ذلك أن النبي دخل على أعرابيٍّ يعوده، قال: وَكَانَ النَّبِيُّ إِذَا دَخَلَ عَلَى مَرِيضٍ

يَعُودُهُ قَالَ: «لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» فَقَالَ لَهُ: «لَا بَأْسَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» قَالَ: قُلْتَ: طَهُورٌ؟ كَلَّا، بَلْ هِيَ حُمَى تَفُورٌ، أَوْ تَثُورٌ، عَلَى شَيْخٍ كَبِيرٍ، تُزِيرُهُ الْقُبُورُ، فَقَالَ النَّبِيُّ: «فَنَعَمْ إِذَنْ» من حديث ابن عباسٍ عند البخاري (٣٦١٦) وغيره.

وقول الله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، والعجب ممن يتجرأ على إنكار عذاب القبر مع دلالة هذه الآية ووضوح الاستدلال بها، فدلّت على عذاب قبل الساعة وعلى عذاب بعد الساعة، وقول الله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]، فعن أبي هريرة، عن النبي، قَالَ: «إِنَّ الْمَيِّتَ يَسْمَعُ خَفَقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتْ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَكَانَ الصَّوْمُ عَنْ يَمِينِهِ، وَكَانَتْ الزَّكَاةُ عَنْ يَسَارِهِ، وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّلَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَيُؤْتَى مِنْ قَبْلِ رَأْسِهِ فَيَقُولُ الصَّلَاةُ: مَا قِيلَ مَدْخَلٌ، وَيُؤْتَى مِنْ عَنْ يَمِينِهِ، فَيَقُولُ الصَّوْمُ مَا قِيلَ مَدْخَلٌ، وَيُؤْتَى مِنْ عَنْ يَسَارِهِ فَيَقُولُ الزَّكَاةُ مَا قِيلَ مَدْخَلٌ، وَيُؤْتَى مِنْ قَبْلِ رِجْلَيْهِ فَيَقُولُ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مَا قِيلَ مَدْخَلٌ، فَيَقَالُ لَهُ: اقْعُدْ فَيَقْعُدُ، وَتُمْتَلُ لَهُ الشَّمْسُ قَدْ دَنَتْ لِلْغُرُوبِ فَيَقَالُ لَهُ مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ، وَمَا تَشْهَدُ بِهِ؟ فَيَقُولُ: دَعُونِي أَصْلِي، فَيَقُولُونَ: إِنَّكَ سَتَفْعَلُ وَلَكِنْ أَخْبَرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ عَنْهُ قَالَ: وَعَمَّ تَسْأَلُونِي عَنْهُ؟ فَيَقُولُونَ: أَخْبَرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ عَنْهُ، فَيَقُولُ: دَعُونِي أَصْلِي. فَيَقُولُونَ: إِنَّكَ سَتَفْعَلُ وَلَكِنْ أَخْبَرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ عَنْهُ، قَالَ: وَعَمَّ تَسْأَلُونِي؟ فَيَقُولُونَ: أَخْبَرْنَا مَا تَقُولُ فِي هَذَا

الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ وَمَا تَشْهَدُ بِهِ عَلَيْهِ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدًا، أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ،
وَأَنَّهُ جَاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيُقَالُ لَهُ: عَلَى ذَلِكَ حَيِّتَ، وَعَلَى ذَلِكَ مِتَّ، وَعَلَى
ذَلِكَ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ قِبَلِ النَّارِ فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَنْزِلِكَ
وَالِإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ، لَوْ عَصَيْتَ فَيَزِدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ قِبَلِ
الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَنْزِلِكَ، وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ فَيَزِدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا»
وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا
يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] قَالَ: وَقَالَ أَبُو الْحَكَمِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَيُقَالُ لَهُ: «أَرْقِدْهُ
رَقْدَةَ الْعُرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَعَزُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، أَوْ أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ». ثُمَّ رَجَعَ
إِلَى حَدِيثِ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «وَإِنْ كَانَ كَافِرًا أَتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فَلَا
يُوجَدُ شَيْءٌ، وَيُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يُوْجَدُ شَيْءٌ، ثُمَّ يُؤْتَى عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يُوْجَدُ
شَيْءٌ، ثُمَّ يُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ فَلَا يُوْجَدُ شَيْءٌ، فَيُقَالُ لَهُ: اقْعُدْ فَيَقْعُدُ خَائِفًا
مَرْعُوبًا، فَيُقَالُ لَهُ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ، وَمَاذَا تَشْهَدُ بِهِ عَلَيْهِ؟
فَيَقُولُ: أَيُّ رَجُلٍ؟ فَيَقُولُونَ: الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ. قَالَ: فَلَا يَهْتَدِي لَهُ، قَالَ:
فَيَقُولُونَ: مُحَمَّدٌ فَيَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ قَالُوا فَقُلْتُ كَمَا قَالُوا، فَيَقُولُونَ: عَلَى
ذَلِكَ حَيِّتَ، وَعَلَى ذَلِكَ مِتَّ، وَعَلَى ذَلِكَ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ
قِبَلِ الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَنْزِلِكَ، وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ لَوْ كُنْتَ أَطَعْتَهُ فَيَزِدَادُ
حَسْرَةً وَثُبُورًا، قَالَ: ثُمَّ يُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ» قَالَ: وَذَلِكَ قَوْلُهُ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ.

واستدل بعض العلماء بقول الله : ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، وبقوله تعالى: ﴿وَأَلْمَلِكُ بِأَسْطَوْأَ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وبما استدلل به النبي : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، قال: «نزلت في عذاب القبر» متفق عليه عن البراء بن عازب .

ومن الأدلة الصريحة ما ذكره الله في آخر سورة الواقعة: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَنَصْلَةٌ حَمِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٨٦-٩٦]، حيث ذكر الله هذه الآيات بعد سياقة خروج الروح من الجسد في آيات غير هذه ذكرناها في كتاب عذاب القبر ونعيمه .

وأما الأحاديث فهي متواترة، ومنها قوله : «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ» من حديث أبي هريرة عند مسلم (٥٨٨)، (٥٩٠) وعن ابن عباس .

وعن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ فِي حَائِطٍ لِّبَنِي النَّجَّارِ، عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ وَنَحْنُ مَعَهُ، إِذْ حَدَّثَ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ، وَإِذَا أَقْبَرُ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ ...

فَقَالَ: «مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الْأَقْبِرِ؟» فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، قَالَ: «فَمَتَى مَاتَ هَؤُلَاءِ؟» قَالَ: مَاتُوا فِي الْإِشْرَاكِ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافِنُوهَا، لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسَمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ» ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ» قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ» قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ» قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ. أخرجه مسلم (٢٨٦٧).

وفي مسلم (٥٨٤) عن عائشة قالت: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ وَعِنْدِي امْرَأَةٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ شَعَرْتَ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ؟ قَالَتْ: فَارْتَأَ رَسُولُ اللَّهِ وَقَالَ: «إِنَّمَا تُفْتَنُ يَهُودٌ» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَبِثْنَا لَيَالِي، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «هَلْ شَعَرْتَ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ؟» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ بَعْدُ يَسْتَعِيدُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.

وفي حديث عائشة عند البخاري (١٣٧٢)، ومسلم، قال النبي : «عَذَابُ الْقَبْرِ حَقٌّ».

وعَنْ جَابِرٍ قَالَ: انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ، يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ ، فَقَالَ النَّاسُ: إِنَّمَا انْكَسَفَتْ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ، فَقَامَ النَّبِيُّ ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ سِتَّ رَكَعَاتٍ بِأَرْبَعِ سَجَدَاتٍ، بَدَأَ فَكَبَّرَ، ثُمَّ قَرَأَ، فَأَطَالَ الْقِرَاءَةَ، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ، فَقَرَأَ قِرَاءَةً دُونَ الْقِرَاءَةِ الْأُولَى، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ، فَقَرَأَ قِرَاءَةً دُونَ

الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ، ثُمَّ انْحَدَرَ
بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ أَيْضًا ثَلَاثَ رَكَعَاتٍ لَيْسَ فِيهَا رَكْعَةٌ
إِلَّا الَّتِي قَبْلَهَا أَطْوَلُ مِنَ الَّتِي بَعْدَهَا، وَرُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ سُجُودِهِ، ثُمَّ تَأَخَّرَ،
وَتَأَخَّرَتِ الصُّفُوفُ خَلْفَهُ، حَتَّى انْتَهَيْنَا، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: حَتَّى انْتَهَى إِلَى النِّسَاءِ،
ثُمَّ تَقَدَّمَ وَتَقَدَّمَ النَّاسُ مَعَهُ، حَتَّى قَامَ فِي مَقَامِهِ، فَانْصَرَفَ حِينَ انْصَرَفَ، وَقَدْ
أَصَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ،
وَإِنَّهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ - وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لِمَوْتِ بَشَرٍ - فَإِذَا رَأَيْتُمْ
شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَصَلُّوا حَتَّى تَنْجَلِيَ، مَا مِنْ شَيْءٍ تُوعِدُونَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلَاتِي
هَذِهِ، لَقَدْ جِئْتُ بِالنَّارِ، وَذَلِكَ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ، خَافَةَ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ
لَفْحِهَا، وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ الْمُحْجَنِ يُحْرِقُ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، كَانَ يَسْرِقُ الْحَاجَّ
بِمُحْجَنِهِ، فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ: إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمُحْجَنِي، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ، وَحَتَّى
رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَةَ الْهَرَّةِ الَّتِي رَبَطْتَهَا فَلَمْ تُطْعَمْهَا، وَلَمْ تَدْعَهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ
الْأَرْضِ، حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، ثُمَّ جِئْتُ بِالْجَنَّةِ، وَذَلِكَ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَقَدَّمْتُ
حَتَّى قُمْتُ فِي مَقَامِي، وَلَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتَنَاوَلَ مِنْ ثَمَرِهَا لِتَنْظُرُوا
إِلَيْهِ، ثُمَّ بَدَأَ لِي أَنْ لَا أَفْعَلَ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ تُوعِدُونَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلَاتِي هَذِهِ».

أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٩٠٤).

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ سَمُرَةَ بْنِ جَنْدَبٍ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ (١٣٨٦) وَاللَّفْظُ
لَهُ، وَمُسْلِمٌ (٢٢٧٥)، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ
فَقَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟» قَالَ: فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَّهَا، فَيَقُولُ مَا شَاءَ
اللَّهُ. فَسَأَلْنَا يَوْمًا فَقَالَ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟» قُلْنَا: لَا، قَالَ: «لَكِنِّي رَأَيْتُ

اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيْنِي فَأَخَذَا بِيَدِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ، بِيَدِهِ كَلْبٌ مِنْ حَدِيدٍ» قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ مُوسَى: «إِنَّهُ يُدْخِلُ ذَلِكَ الْكَلْبَ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الْآخَرَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَيَلْتَمِسُ شِدْقَهُ هَذَا، فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ، فَاَنْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفَهْرٍ - أَوْ صَخْرَةٍ - فَيَشْدُخُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَاهَدَهُ الْحَجَرُ، فَاَنْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَمِسَ رَأْسَهُ وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ، فَضَرَبَهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ فَاَنْطَلَقْنَا إِلَى ثَقَبٍ مِثْلِ التَّنُورِ، أَغْلَاهُ ضَيْقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاءٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ، فَاَنْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسْطِ النَّهْرِ» - قَالَ يَزِيدُ، وَوَهَبُ بْنُ جَرِيرٍ: عَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ - «وَعَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهْرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ، فَاَنْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضِرَاءَ، فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَفِي أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصَبِيَانٌ، وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا، فَصَعِدَا بِي فِي الشَّجَرَةِ، وَأَدْخَلَانِي دَارًا لَمْ أَرِ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا، فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ، وَنِسَاءٌ، وَصَبِيَانٌ، ثُمَّ أَخْرَجَانِي مِنْهَا فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ، فَأَدْخَلَانِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ فِيهَا شُيُوخٌ، وَشَبَابٌ، قُلْتُ: طَوَّفْتَانِي اللَّيْلَةَ، فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ، قَالَا: نَعَمْ، أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ، فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالْكَذِبَةِ، فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الْآفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ،

فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَتَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفَعِّلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالَّذِي رَأَيْتُهُ فِي الثَّقَبِ فَهُمْ الزُّنَاةُ، وَالَّذِي رَأَيْتُهُ فِي النَّهْرِ آكِلُوا الرِّبَا، وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالصَّبِيَانُ، حَوْلَهُ، فَأَوْلَادُ النَّاسِ وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكُ حَازِنُ النَّارِ، وَالِدَارُ الْأُولَى الَّتِي دَخَلَتْ دَارُ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَا جَبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالَا: ذَاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي، قَالَا: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ فَلَوْ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ».

وفي حديث أبي أمامة عند الحاكم (٢٨٣٧)، قال : «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، إِذْ أَتَانِي رَجُلَانِ، فَأَخَذَا بِضَبْعِي، فَأَتَيَا بِي جَبَلًا وَعَرًّا، فَقَالَا لِي: اصْعَدْ. فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَطِيقُ. فَقَالَا: إِنَّا سَنُسَهِّلُهُ لَكَ، فَصَعِدْتُ حَتَّى كُنْتُ فِي سَوَاءِ الْجَبَلِ، إِذَا أَنَا بِأَصْوَاتٍ شَدِيدَةٍ، قُلْتُ: مَا هَذِهِ الْأَصْوَاتُ؟ قَالُوا: هَذَا هُوَ عَوَاءُ أَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي، فَإِذَا بِقَوْمٍ مُعَلَّقِينَ بِعَرَاقِيهِمْ، مُشَقَّقَةً أَشْدَاقُهُمْ، تَسِيلُ أَشْدَاقُهُمْ دَمًا، فَقُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُفْطِرُونَ قَبْلَ نَحْلَةِ صَوْمِهِمْ، ثُمَّ انْطَلَقَا بِي، فَإِذَا بِقَوْمٍ أَشَدَّ شَيْءٍ انْتِفَاحًا، وَأَنْتَنَةً رِيحًا، وَأَسْوَنَةً مَنْظَرًا، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الزَّانُونَ وَالزَّوَانِي، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي، فَإِذَا أَنَا بِنِسَاءٍ تَنْهَشُ نُدْيَهُنَّ الْحَيَّاتُ، فَقُلْتُ: مَا بَالُ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ اللَّوَاتِي يَمْنَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ الْبَانَهُنَّ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي فَإِذَا بِغِلْمَانٍ يَلْعَبُونَ بَيْنَ مَهْرَيْنِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذَرَارِيُّ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ شَرَفَ لِي شَرَفٌ فَإِذَا أَنَا بِثَلَاثَةِ نَفَرٍ يَشْرَبُونَ مِنْ حَمْرِ لَهُمْ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ،

ثُمَّ شَرَفَ لِي شَرَفٌ آخَرٌ، فَإِذَا أَنَا بِثَلَاثَةِ نَفَرٍ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: إِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَنْتَظِرُونَكَ».

وقال النبي : «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ»
رواه أحمد (١٢٨٥٦) من حديث أنس .

وقال النبي : «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَحْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ، قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لَحْمَ النَّاسِ، وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ» رواه أبو داود (٤٨٧٨) من حديث أنس .

ومن أوسع الأدلة في الباب حديث البراء قال: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ، فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، أَخْرِجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ». قَالَ: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي

ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةٍ مَسِكَ وَجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ» قَالَ: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى» قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ، فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ»، قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيْبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّةَ بَصَرِهِ»، قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرَّيْحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِّرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي»، قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّةَ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: آيَتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ»، قَالَ: «فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ

طَرْفَةً عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ بَنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِي كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا نُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ٤٠]، «فَيَقُولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرُشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ» أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٢٠٥٩)، وعبدالرزاق (٣٧٣٧)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والحمد لله.

🕒 ومن شبه منكري عذاب القبر قولهم: أخذنا ميتًا ووضعناه في القبر ووضعنا على صدره زئبقًا، وفي اليوم الثاني حفرنا فوجدنا الزئبق كما هو، وأنتم

ترعمون أن الملائكة يجلسون الميت ويضربونه ويضمّون وغير ذلك، فلو حصل هذا لسال الزئبق؟!

هؤلاء أصحاب عقول فاسدة وإلا فحياة البرزخ ثابتة قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ بِرَزْخٍ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، فنحن يجب علينا أن نؤمن بالبرزخ وما فيه بعيدا عن هذه الشبه، ثم لو أن رجلين على فراش واحد ثم جاء أحدهما رؤيا محزنة، رؤيا عذاب والآخر جاءته رؤيا نعيم، فهذا يُنعم في نومه ويُعذب فيه، وقد يُسمع بعض عذاب القبر فقد سمع النبيّ بعض الأصوات وقال: «إِنَّ يَهُودَ تُعَذَّبُ فِي قُبُورِهِمْ»، والذي يريد أن يجعل الأمر إلى عقله سيتعب، ويتعب، وسيقع في الزندقة والإلحاد، ولو أردت أن تستجري مع الشيطان سيوسوس لك في كل شيء في الله، وفي رسله، وفي كتبه.

والعذاب أو النعيم في القبر يقع على الروح والجسد، قال الحافظ في الفتح (٣/٣٠١): وقد أخذ ابن جرير وجماعة من الكرامية بهذه القصة: أن العذاب في القبر يقع على البدن فقط، وأن الله يخلق فيه إدراكا بحيث يسمع ويعلم ويلذ ويألم.

وذهب ابن هبيرة، وابن حزم إلى أن السؤال يقع على الروح فقط، من غير عود إلى الجسد.

وذهب الجمهور فقالوا: تعاد الروح إلى الجسد أو بعضه، كما ثبت في الحديث ولو كان على الروح فقط لم يكن للبدن بذلك اختصاص.

والحامل للقائلين أن السؤال يقع على الروح فقط: أن الميت قد يشاهد في قبره حال المسائلة، لا أثر فيه من إقعاد ولا غيره، ولا ضيق في قبره ولا سعة، وكذلك غير المقبور كالمصلوب.

وجوابهم: أن ذلك غير ممتنع في القدرة، بل له نظير في العادة، وهو النائم فإنه يجد لذة وألماً لا يدركه جليسه، وإنما أتى اللفظ على ما قبله، والظاهر أن الله صرف أبصار العباد وأسماعهم عن مشاهدة ذلك، وستره عنهم إبقاء عليهم لئلا يتدافنوا وليست للجوارح الدنيوية قدرة على إدراك أمر الملكوت، إلا من شاء الله، وقد ثبتت الأحاديث بما ذهب إليه الجمهور. اهـ

ونقل ابن القيم في الروح (٩٥) وكما هو في مجموع الفتاوي (٢٦٢/٤) عن شيخ الإسلام قوله: بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن، وتنعم وتعذب متصلة بالبدن، والبدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليهما مجتمعين في هذه الحالة.

ثم ذكر أقوال طوائف ممن يثبتون عذاب القبر، ومذاهبهم فقال: وهؤلاء لهم في عذاب القبر ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه على الروح فقط.

الثاني: أنه عليها وعلى البدن بواسطتها.

الثالث: أنه على البدن فقط.

ثم قال : والقول الثالث الشاذ قول من يقول إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب، بل لا يكون ذلك حتى تقوم الساعة، ثم قال: فجميع هذه الطوائف في أمر البرزخ ضلّال، إلا أنهم خير من الفلاسفة، فإنهم مقرون بالقيامة الكبرى، فإذا عرفت هذه الأقوال الباطلة فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحة وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً، ويحصل لها النعيم أو العذاب. اهـ بتصرف

وقد ذكر ابن القيم في كتاب الروح أن للروح مع الجسد خمسة تعلّقات:

❦ **الأول:** تعلّق في بطن الأمّ.

❦ **الثاني:** تعلّق باليقظة في الدنيا.

❦ **الثالث:** تعلّق في المنام.

❦ **الرابع:** تعلّق في القبر.

❦ **الخامس:** تعلّق يوم القيامة وهو أكمل التعلّقات، إذ النعيم أو العذاب واقع على الروح والجسد بصورة متساوية بينما في الدنيا الألم أو اللذة يقع على الجسد والروح تبعاً له، وفي القبر وفي النوم اللذة أو العذاب تقع على الروح والجسد تابع لها، أمّا في القيامة فالعذاب أو النعيم عليهما جميعاً؛ ولهذا كان أكمل التعلّقات.

والحياة البرزخية حياة حقيقية لها مميزاتها ولها خصائصها فنحن نؤمن أن من مات ناله ما يستحقه من النعيم أو العذاب قبر أو لم يقبر، كان في بطون السباع أو في بطون الأسماك أو في أي مكان كان، قال الله: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وتشمل الفتنة الأطفال حيث يخلق الله لهم إدراكًا يستطيعون الإجابة به، وقد قرر هذا شيخ الإسلام وفيه من أهل العلم، وذهب ابن عبد البر إلى أن الفتنة على أهل الإسلام ولا تشمل غيرهم والصحيح أنها عامة شاملة والأحاديث التي قالها النبي مثل: «فِي تَفْتِنُونَ، وَعَنِّي تُسْأَلُونَ»، كونه يُخاطب أمته وإلا فهي عامة، ومما يجب الإيمان به أن الملكين اللذان يسألان المقبور في قبره هما منكر ونكير، صحت التسمية عن النبي، فعند الترمذي (١٠٧١) من حديث أبي هريرة، قال: «إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَرْقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ، نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأَخْبِرْهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنُومَةَ الْعُرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: التَّيَّمِّي عَلَيْهِ، فَتَلْتَمُّ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعَهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَدَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ».

قال :

إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرَى فَتُعَادِ الْأَرْوَاحُ إِلَى الْأَجْسَادِ.

أي أن الحياة البرزخية نهايتها بقيام الساعة وهو البعث، والنشور، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وهو القيام في النفخة الأخرى قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نَفْخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، على ما يأتي بيانه إن شاء الله.

القيامة الكبرى وما فيها

قال :

وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاءَ عُرَاءَ غُرْلًا، وَتَدْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ، وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ.

فَتَنْصَبُ الْمَوَازِينُ، فَتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ، ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣].

وَتُنَشَرُ الدَّوَاوِينُ، وَهِيَ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ، فَأَخِذْ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وَأَخِذْ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، كَمَا قَالَ : ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣) أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ نَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

وَيُحَاسِبُ اللَّهُ الْخَلَائِقَ، وَيُخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، فَيَقَرُّهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا وَصَفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَأَمَّا الْكُفَّارُ؛ فَلَا يُحَاسِبُونَ مُحَاسَبَةً مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُ لَا حَسَنَاتَ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ، فَتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا.

وَفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ الْحَوْضُ الْمَوْرُودُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، آيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، مَنْ يَشْرَبُ مِنْهُ شَرِبَهُ؛ لَا يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا.

وَالصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمَحِ الْبَصَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرَّيْحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَرِكَابِ الْإِبِلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْطِفُ خَطْفًا وَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الْجِسْرَ عَلَيْهِ كَلَالِبُ النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ. فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ؛ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصَّرُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ.

وَأَوَّلُ مَنْ يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الْأُمَمِ أُمَّتُهُ.

وَلَهُ ﷺ فِي الْقِيَامَةِ ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ: أَمَّا الشَّفَاعَةُ الْأُولَى؛ فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَجَعَ الْأَنْبِيَاءُ؛ آدَمُ، وَنُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ. وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَّةُ؛ فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ. وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ. وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِيْمَنْ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَيَشْفَعُ فِيْمَنْ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيْمَنْ دَخَلَهَا أَنْ يُخْرَجَ مِنْهَا. وَيُخْرِجُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ؛ بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَبْقَى فِي

الْجَنَّةِ فَضْلُ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللَّهُ لَهَا أَقْوَامًا فَيَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ.

وَأَصْنَافُ مَا تَصَمَّتُهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ مِنَ الْحِسَابِ وَالْثَوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالْآثَارِ مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْثُورِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَفِي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَنْ ابْتِغَاهُ وَجَدَهُ.

قوله: (وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ) كما في قوله: ﴿الْقَارِعَةُ ۝١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿[القارعة: ١-٣]﴾، وقال: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١]، وقال: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ۝٥١﴾ قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾ إِنَّ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣﴾ فَأَلْيَوْمَ لَا تَطْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُحْزَنُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿[يس: ٥١-٥٤]﴾، وقال: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَّهٍ دَاخِرِينَ ۝٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرُ مَا

تَفْعَلُونَ ﴿[النمل: ٨٧-٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا تُفْخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿[المؤمنون: ١٠٠-١٠١].

ولها أسماء كثيرة، منها: يوم القيامة، كقوله تعالى: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعََنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ) [النساء: ٨٧].

واليوم الآخر، كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْآلِرَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴿[البقرة: ١٧٧].

والآخرة أو الدار الآخرة، كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿[البقرة: ١٣٠]، وقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴿[القصص: ٨٣]، وقوله: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿[العنكبوت: ٦٤].

والساعة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿[الحجر: ٨٥]، وقال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَانِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا ﴿[طه: ١٥].

ويوم البعث، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴿[الروم: ٥٦].

ويوم الخروج، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿[ق: ٤٢].

والقارعة: قال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿[القارعة: ١-٣].

ويوم الفصل، قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا﴾ [النبا: ١٧].

ويوم الدين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي حِمِيمٍ﴾ ١٤ ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ١٥ ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ ١٦ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ١٧ ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ١٨ ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٤-١٩].

والصاخة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣].

والطامة الكبرى، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٣٤].

ويوم الحسرة، قال تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]. ويتحسر المؤمنون في ذلك اليوم بسبب عدم استزادتهم من أعمال البر والتقوى.

والغاشية، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١].

ويوم الخلود، قال تعالى: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤].

ويوم الحساب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]. وقال: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

والواقعة، قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١].

ويوم الوعيد، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠].

ويوم الآزفة: قال تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ﴾ [غافر: ١٨].

ويوم الجمع، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧].

والحاقة، قال تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ١ مَا الْحَاقَّةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٣].

ويوم التلاق، قال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِنُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

ويوم التناد، قال تعالى حاكياً نصيحة مؤمن آل فرعون قومه: ﴿وَيَقُومِ الْيَوْمَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢].

ويوم التغابن، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]. وكل اسم له معنى يتضمّنه.^(١)

قال :

فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاةَ عُرَاءٍ غُرْلًا وَتَدْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ، وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ.

هذا القيام يكون بعد النفخ في الصور، ففي حديث أبي هريرة عند البخاري (٤٩٣٥) ومسلم (٢٩٥٥)، قال النبي : «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَيْتُ، قَالَ: «ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ

(١) من القيامة الكبرى (ص: ٥).

الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وفي حديث عبدالله بن عمرو عند مسلم (٢٩٤٠)، قال النبي :
«يُخْرَجُ الدَّجَالُ فِي أُمَّتِي فَيَمُكُّثُ أَرْبَعِينَ - لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا - فَيَبْعَثُ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةٌ بَيْنَ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيَهْلِكُهُ ثُمَّ يَمُكُّثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ، وَأَحْلَامِ السَّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَحْيُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارُ رِزْقِهِمْ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا، وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ فَيُضَعِقُ وَيُضَعِقُ النَّاسُ حَوْلَهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللَّهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوْ الظِّلُّ، فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعَثَ النَّارَ فَيَقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيَقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِئَةٍ وَتِسْعَةٍ».

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ «مُخْشَرُونَ حُفَاءً، عُرَاءً، غُرْلًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، فَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ يُؤْخَذُ بِرِجَالٍ مِنْ

أَصْحَابِي ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّامِلِ، فَأَقُولُ: أَصْحَابِي، فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَغْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿[المائدة: ١١٧-١١٨]﴾ رواه البخاري (٣٤٤٧).

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، وقال النبي : «تُدْنِي الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ». قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ فَوَاللهِ مَا أَدْرَى مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ أَمْسَافَةَ الْأَرْضِ أَمْ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ. قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْحِمُهُ الْعَرَقُ الْجَامَا» من حديث المقداد عند مسلم (٢٤٨٦).

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ: «﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أَذْنِيهِ» رواه البخاري (٤٩٣٨) ومسلم (٢٨٦٢).

والذين لا خوف عيلهم ولا هم يحزنون هم أولياء الله، قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، وأيضاً أهل الاستقامة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وما يتضمنه حديث أبي هريرة عند أبي يعلى (٦١١٠)، قال النبي : «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَادًا يَغِطُّهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ»

قِيلَ: مَنْ هُمْ؟ لَعَلَّنَا نُحِبُّهُمْ. قَالَ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِنُورِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَرْحَامٍ وَلَا أَنْسَابٍ، وَجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِنْ خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِنْ حَزَنَ النَّاسُ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

وقال النبي : «كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صِدْقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ، أَوْ قَالَ: يُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ»، قَالَ يَزِيدُ: وَكَانَ أَبُو الْحَيْرِ لَا يُخْطِئُهُ يَوْمٌ إِلَّا تَصَدَّقَ فِيهِ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَعَكَّةٍ أَوْ بَصَلَةٍ أَوْ كَذَا. من حديث عقبة بن عامر عند أحمد (١٧٣٣٣).

وقوله : «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٦٠)، مسلم (١٠٣١).

وتبدل الأرض، قال الله : ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧]، وعند تبديلها يكون الناس في ظلمة دون الجسر كما في حديث ثوبان عند مسلم (٣١٥): أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ». أي تحت الجسر حيث أراد الله .

وهذه الجبال تسيل، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ④ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿[القارعة: ٤-٥]، وقال

تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٦]، وقال الله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [٤٨] وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۖ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطَرَانٍ وَتَعْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ۖ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾ [إبراهيم: ٤٨-٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ ۖ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَقْرَأُ الرَّءُفُ مِن أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبُهُ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٣-٤٢].

إثبات الميزان

قال :

فَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣].

وأهل السنة يؤمنون بالميزان يوم القيامة قال : ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٦) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٧) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٨) ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [الفارعة: ٦-٩]، وقال : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

وأما من السنة فالأحاديث في ذلك كثيرة بلغت مبلغ التواتر، منها: حديث أبي هريرة عند الإمام مسلم والبخاري (٤٧٢٩) قال: قال رسول الله : «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ».

ومنها: حديث البطاقة، الذي أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو يقول: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «إِنَّ اللَّهَ يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ سِجْلًا كُلُّ سِجْلٍ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتَنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا أَظْلَمْتَكَ كَتَبْتَنِي الْحَافِظُونَ قَالَ: لَا يَا

رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَيْكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ، فَيَبْهَتُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ، فَتُخْرِجُ لَهُ بَطَاقَةً فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: أَحْضِرْهُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبَطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَّلَاتِ، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتَوْضَعُ السَّجَّلَاتُ فِي كَفِّهِ، قَالَ: فَطَاشَتْ السَّجَّلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ مَعَ اسْمِ اللَّهِ.

ومنها: حديث أبي سلمى راعي النبي : «بَخَ بَخْ، لِحُمْسٍ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فَيَحْتَسِبُهُ، وَالِدَاهُ» أخرجه أحمد (٤٤٣/٦).

ومنها: حديث أبي مالك الأشعري عند الإمام مسلم (١٢٣) والنسائي أن رسول الله قال: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ».

ومنها: حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله : «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلَ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ» أخرجه أحمد (٤٤٦/٦).

وأخرج أحمد من طريق شعبة عن عطاء بن السائب عن أبيه، وأبوداود (٥٠٦٥) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «خَصْلَتَانِ، أَوْ خَلَتَانِ لَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، هُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ، يُسَبِّحُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا، وَيَحْمَدُ عَشْرًا، وَيُكَبِّرُ عَشْرًا، فَذَلِكَ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ، وَيُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ، وَيَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَيُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَذَلِكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ». هذا حديث حسن، وشعبة قد سمع من عطاء قبل الاختلاط.

وأخرج أحمد (٣٩٩١) عن عبدالله بن مسعود: أنه كان يجتني سواكا من الأراك وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفؤه فضحك القوم منه فقال رسول الله : «مِمَّ تَضَحَكُونَ؟». قالوا: يا نبي الله، من دقة ساقيه. فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحَدٍ».

قال ابن أبي العز (٤٧٢): قال القرطبي: قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها. اهـ

واعلم أن الميزان واحد وأما قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، فالمراد به الموزونات فجمع باعتبار تنوع الأعمال، وهذا هو القول الصحيح، وإلا فقد قيل بأن لكل أمة ميزان.

قال ابن عطية في التفسير (١٣/٧): الناس على خلافه أي لكل أمة ميزان وإنما لكل واحد وزن يختص به والميزان واحد.

ثم اعلم أيضًا أن الميزان الذي دلت عليه السنة له كفتان حسيّتان مشاهدتان والدليل على ذلك حديث عبدالله بن عمرو السابق وفيه: «فَتُوضَعُ السِّجَّلَاتُ فِي كَفَّةٍ وَالْبَطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ».

الموزونات:

يوزن العامل كما في حديث عبدالله بن مسعود .

ويوزن العمل كما في حديث أبي هريرة: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»، متفق عليه.

وكما في حديث أبي سلمى راعي النبي ، وكما في حديث أبي مالك الأشعري .

وتوزن الصحف كما في حديث البطاقة.

والذين أنكروا الميزان من الملاحدة وأهل الاعتزال وغيرهم شبهتهم أن الأعمال أعراض لا تقبل الوزن وإنما يقبل الوزن الأجسام فإن الله يقبل الأعراض أجساماً ففي حديث أبي سعيد أنه: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيَنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَوْهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَوْهُ، فَيَذْبَحُ...» أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

والحكمة من نصب الميزان، مع أن الله محيط بكل شيء علماً، إظهار العدل وبيان الفضل حيث أن الله يزن مثاقيل الذر من خير وشر. انتهى أفاده ابن أبي العز .

مسألة: وزن أعمال الكفار:

للعلماء في هذه المسألة قولان:

الأول: أنها لا توزن إلا أعمال المؤمنين، مستدلين بقول الله عز وجل في شأن الكفار: ﴿فَلَا نُفِئُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، وما في بابها.

والثاني: أنها توزن أعمال جميع الناس؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩]، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [١٠٣] تَفْخُ وَجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تَتْلِي عَلَيْنَا فَكُنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣-١٠٥].

وفي البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن النبي قال: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ» وَقَالَ: أَقْرَأُوا: ﴿فَلَا نُفِئُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]. والحديث ليس فيه نص أنه لا يوزن وإنما فيه أن وزنه لا مقدار له لأنه لا حسنات له.

وقد رجح هذا القول القرطبي في التذكرة (٢٧٢-٢٧٣) قال: فإن قيل أما وزن أعمال المؤمنين فظاهر وجهه فتقابل الحسنات بالسيئات فتوجد حقيقة الوزن، والكافر لا يكون له حسنات فما الذي يقابل بكفره وسيئاته وأنى يتحقق في أعماله الوزن؟

فالجواب أن ذلك من وجهين:

أحدهما: أن الكافر يُحضر له ميزان فيوضع كفره وسيئاته في إحدى كفتيه ثم يقال له هل لك من طاعة تضعها في الكفة الأخرى فلا يجد فيشال الميزان فترفع الكفة الفارغة وتقع المشغولة، فهذه خفت موازينه وهذا ظاهر الآية.

الثاني: أن الكافر يكون منه صلة الأرحام ومواساة الناس وعتق مملوك وغيرها مما لو كانت للمسلم لكانت طاعة فمن كانت له مثل هذه الخيرات من الكفار فإنها تجمع وتوضع في ميزانه غير أن الكفر إذا قابلها رجع بها. انتهى

هل يقام الوزن لكل الناس؟

قال القرطبي في التذكرة (ص ٢٧١): الميزان حق ولا يكون في حق كل أحد بدليل قوله فيقال: «يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ» الحديث. وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ﴾ [الرحمن: ٤١]، وإنما يكون لمن بقي من أهل المحشر ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً من المؤمنين وقد يكون للكافرين على ما ذكرنا. انتهى.

قال ابن كثير في النهاية بعد نقل كلام القرطبي: إن من لا حساب عليه ولا عذاب لا توزن أعماله وكذلك المجرمون الذين يعرفون بسيئهم، وفي هذا نظر، والله أعلم.

وقد توزن أعمال السعداء وإن كانت راجحة لإظهار شرفهم وفضلهم على رؤوس الأشهاد والتنويه بسعادتهم ونجاتهم وإن كانوا لا حساب عليهم.

وأما الكفار فتوزن أعمالهم وإن لم يكن لهم حسنات تنفعهم يقابل بها كفرهم... فتوزن لإظهار شقائهم وتوبيخهم وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد.

فائدة: نقل ابن كثير في النهاية عن القرطبي قوله: وقد روى عن مجاهد والضحاك والأعمش أن الميزان هنا بمعنى العدل والقضاء، وذكر الوزن والميزان ضرب مثل، كما يقال هذا الكلام في وزن هذا قلت: أي ابن كثير لعل

هؤلاء إنما فسروا هذا عند قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩].
 فههنا المراد بالميزان أن الله تعالى وضع العدل بين عباده وأمر عباده أن يتعاملوا به فيما بينهم، فأما الميزان الموضوع يوم القيامة فقد تواترت بذكره الأحاديث كما رأيت وهو ظاهر القرآن العظيم: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٨]، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٩]، وهذا إنما يكون لشيء محسوس.

إثبات نشر الدواوين وصحائف الأعمال

قال :

وَتُنَشَّرُ الدَّوَاوِينُ، وَهِيَ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ فَآخِذٌ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ، وَآخِذٌ كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ؛ كَمَا قَالَ : ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَزَمْتَهُ طَبْرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ (١٣) أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿ [الإسراء: ١٣-١٤].

ويؤمن أهل السنة بنشر الدواوين، وصحائف الأعمال، التي سُطرت فيها أعمال العباد، قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِي ﴾ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حَسَابِي ﴿ [الحاقة: ١٩-٢٠]، وظننت هنا بمعنى استيقنت، قال الله : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنِي لَمْ أُؤْتَ كِتَابِي ﴿ (٢٥) وَلَمْ أَدرِ مَا حِسَابِي ﴿ (٢٦) يَلَيِّنَهَا كَأَنَّ الْقَاضِيَ ﴿ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ﴿ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي ﴿ [الحاقة: ٢١-٢٩]، وفي الآية الأخرى قال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ ﴿ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿ (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿ (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿ (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿ [الانشقاق: ٦-١٢]، والجمع بين الآيتين أن الكافر يأخذ كتابه بشماله من خلف ظهره والمؤمن يأخذ كتابه بيمينه وهذا الكتاب لا يُغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَيْلُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا

يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ [الكهف: ٤٩] وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقول : ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣) أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿[الإسراء: ١٣- ١٤].

إخبار عن كمال عدله تعالى وأن كل إنسان يلزمه طائره في عنقه، أي: ما عمل من خير وشر يجعله الله ملازما له لا يتعداه إلى غيره، فلا يحاسب بعمل غيره ولا يحاسب غيره بعمله.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ ما عمله من الخير والشر حاضرا صغيره وكبيره ويقال له: ﴿أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ وهذا من أعظم العدل والإنصاف أن يقال للعبد: حاسب نفسك ليعرف بما عليه من الحق الموجب للعقاب. انتهى من تفسير السعدي .

الإيمان بالحساب

قوله :

وَيُحَاسِبُ اللَّهُ الْخَلَائِقَ، وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، فَيَقَرُّهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا وَصَفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

الحساب يوم القيامة ثابت بالكتاب، والسنة، والإجماع قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٢] وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أُولَئِكَ هُمُ سَوْءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿[الرعد: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتُوفِئَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وحساب المؤمن يكون تقريراً، كما قال النبي : «إِنِّي لِأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةِ وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ اغْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا. فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ فَيُقَالُ عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا. فَيَقُولُ نَعَمْ. لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ. فَيُقَالُ لَهُ فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فَيَقُولُ رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَاهُنَا» من حديث أبي ذرٍّ عند مسلم (١٩٠). يعني هناك كبائر ما أراها؛ لأنه قد رأى رحمة الله حين بدّل الله السيئات حسنات. وقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ

يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿[الانشقاق: ٨]﴾، أي العرض، ففي حديث عائشة عند البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦) قال عنه النبي : «مَنْ حُوسِبَ عُذْبٌ» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قَالَتْ فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكُ». أي يعرض الله عليه أعماله عرضًا يُقرّره بها، ولكن من نوقش الحساب عُذْبٌ، لأن الكافر حين تعرض عليه أعماله يُنكرها أمّا المؤمن حين تُعرض عليه أعماله يستقرّ بها فيتجاوز الله عنه ويعفو عنه عند ذلك. وفي حديث عدي بن حاتم ، قَالَ النَّبِيُّ : «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ ثُمَّ يَنْظُرُ فَلَا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» أخرجه البخاري (٦٥٣٩) ومسلم (١٠١٦). وفي حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عند الترمذي (٢٦٣٩) واللفظ له، ابن ماجه (٤٣٠٠)، قال النبي : «إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلَصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ أَتَنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا أَظْلَمَكَ كِتَابِي الْحَافِظُونَ فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ أَفَلَاكَ عُذْرٌ فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ احْضُرْ وَزَنَكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ فَقَالَ إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ قَالَ فَتَوَضَّعُ السَّجَلَاتُ فِي كَفِّهِ وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفِّهِ فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ». ومن حديث أنس بن مالك عند مسلم (٢٦٩٦)، قال النبي : «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟»، قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «مِنْ مُحَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ يَا

رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلُمِ قَالَ يَقُولُ بَلَى. قَالَ فَيَقُولُ فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي قَالَ فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا ، قَالَ: فَيُخْتَمَ عَلَى فِيهِ فَيَقَالُ لَأَرْكَانِهِ أَنْطِقِي، قَالَ فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ ، قَالَ: ثُمَّ يُحَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ ، قَالَ: فَيَقُولُ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا. فَعَنْكَنَ كُنْتُ أَنَا ضِلُّ.

قال :

وَأَمَّا الْكُفَّارُ؛ فَلَا يُحَاسِبُونَ مُحَاسَبَةً مِّنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُ لَا حَسَنَاتَ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ، فَتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا.

أما الوزن تقدم الكلام فيه وأتهم يوزنون ولكن لا قيمة لوزنهم، وفي حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٩٦٨)، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟». قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا ، قَالَ: فَيَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ أَيُّ فُلٍ أَلَمْ أُكْرِمَكَ وَأُسَوِّدَكَ وَأَزَوَّجَكَ وَأَسَخَّرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعُ فَيَقُولُ بَلَى. قَالَ فَيَقُولُ أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ فَيَقُولُ لَا، فَيَقُولُ فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِي فَيَقُولُ أَيُّ فُلٍ أَلَمْ أُكْرِمَكَ وَأُسَوِّدَكَ وَأَزَوَّجَكَ وَأَسَخَّرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعُ فَيَقُولُ بَلَى أَيُّ رَبِّ، فَيَقُولُ أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ فَيَقُولُ لَا، فَيَقُولُ فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرُّسُلِكَ وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ. وَيُثْنِي

بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ فَيَقُولُ هَا هُنَا إِذَا ، قَالَ : ثُمَّ يُقَالُ لَهُ الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ .
وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ فَيُخْتَمُ عَلَيَّ فِيهِ وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ
وَعِظَامِهِ أَنْطِقِي فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ وَذَلِكَ لِيُعْذَرَ مَنْ نَفْسِهِ ،
وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْحَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ .»

الإيمان بالحوض

قال :

وَفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ الْحَوْضُ الْمُرُودُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، «مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، آيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، مَنْ يَشْرَبُ مِنْهُ شَرِبَ؛ لَا يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا».

هو المراد بقول الله : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ فَصَلَ لِرَبِّكَ

وَأُنْحَرِ ﴿[الكوثر: ١-٢]، عَنْ أَنَسٍ قَالَ بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ

أَظْهَرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا فَقُلْنَا مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ

قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ أَنْفَا سُورَةٍ». فَقَرَأَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ

الْكَوْثَرَ ۝١﴾ فَصَلَ لِرَبِّكَ وَأُنْحَرِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْآبِتُ ﴿٣﴾. ثُمَّ قَالَ:

«اتَّذَرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟». فَقُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدْنِيهِ رَبِّي

عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرْدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فَيُخْتَلَجُ

الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي. فَيَقُولُ مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثْتُ بِعَدِّكَ». رواه

مسلم (٤٠٠).

وأحاديث الحوض ذكر كثير منها البخاري في كتاب الرقاق وذكر منها الإمام

مسلم كثير في كتابه فضائل النبي (باب الحوض)، وقد جمع مصنف في

مرويات الحوض لبقّي بن مخلد وعدد الرواة الذين رووا أحاديث الحوض فوق
الثمانين صحابياً ، ذكر ذلك الحافظ ابن حجر .

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبَ وَمَنْ بَنَى لِلَّهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبَ
وَرُؤْيَا شِفَاعَةً وَالْحَوْضُ وَمَسْحُ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

وحوض النبي موجود الآن، قال النبي : «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمَنْبَرِي
رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ وَمَنْبَرِي عَلَى حَوْضِي» من حديث أبي هريرة عند
البخاري (١١٩٦)، ومسلم (١٣٩١).

ولهما البخاري (١٣٤٤)، ومسلم (٢٢٩٦) عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ: أَنَّ النَّبِيَّ
خَرَجَ يَوْمًا، فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمَنْبَرِ،
فَقَالَ: «إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي
أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ - أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ - وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ
عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا».

فحوضه موجود الآن وزواياه سواء ومسيرته شهر وأنيته أكثر من نجوم
السماء وأحاديث الحوض متواترة فمنها ما جاء، عن سهل بن سعد قال:
سَمِعْتُ النَّبِيَّ يَقُولُ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ وَرَدَ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ
يَظْمَأْ أَبَدًا وَلَيَرَدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ» أخرجه
البخاري (٦٥٨٣)، ومسلم (٢٢٩٠).

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «حَوْضِي مَسِيرَةٌ
شَهْرٍ وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الْوَرِقِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَكَيْزَانُهُ

كُنْجُومِ السَّمَاءِ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا» أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢).

وعن أسماء بنت أبي بكر ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ حَتَّى أَنْظُرَ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ وَسَيُؤْخَذُ أَنَا دُونِي فَأَقُولُ يَا رَبِّ مِنِّي وَمِنْ أُمَّتِي فَيُقَالُ أَمَا شَعَرْتَ مَا عَمِلُوا بِعَدِّكَ، وَاللَّهِ مَا بَرَحُوا بِعَدِّكَ يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ»، قَالَ فَكَانَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَرْجِعَ عَلَى أَعْقَابِنَا أَوْ أَنْ نُفْتَنَ عَنْ دِينِنَا. أخرجه البخاري (٦٥٩٣)، ومسلم (٢٢٩٣).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّهُ سَمِعَ عَائِشَةَ تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ وَهُوَ بَيْنَ ظَهْرَانِي أَصْحَابِهِ: «إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ أَنْتَظِرُ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ، فَوَاللَّهِ لَيُقْتَطَعَنَّ دُونِي رِجَالٌ فَلَأَقُولَنَّ أَيُّ رَبِّ مِنِّي وَمِنْ أُمَّتِي فَيَقُولُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بِعَدِّكَ مَا زَالُوا يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ» أخرجه مسلم (٢٢٩٤).

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ أَتَتْهَا قَالَتْ: كُنْتُ أَسْمَعُ النَّاسَ يَذْكُرُونَ الْحَوْضَ وَلَمْ أَسْمَعْ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ فَلَمَّا كَانَ يَوْمًا مِنْ ذَلِكَ وَالْجَارِيَةُ تَمْشُطُنِي فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «أَيُّهَا النَّاسُ»، فَقُلْتُ لِلْجَارِيَةِ اسْتَأْخِرِي عَنِّي، قَالَتْ: إِنَّمَا دَعَا الرَّجَالَ وَلَمْ يَدْعُ النِّسَاءَ. فَقُلْتُ: إِنِّي مِنَ النَّاسِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «إِنِّي لَكُمْ فَرَطٌ عَلَى الْحَوْضِ فَإِيَّايَ لَا يَأْتِيَنَّ أَحَدُكُمْ فَيَذْبُ عَنِّي كَمَا يَذْبُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ فَأَقُولُ: فِيمَ هَذَا؟ فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بِعَدِّكَ. فَأَقُولُ: سُحْقًا» أخرجه مسلم (٢٢٩٥).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمَنْبَرِ فَقَالَ: «إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ،

وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا نَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَنَافَسُوا فِيهَا» البخاري (٤٠٤٢)، ومسلم (٢٢٩٦).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَلَا نَازِعَنَّ أَقْوَامًا ثَمَّ لَا غُلَبَنَ عَلَيْهِمْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ» البخاري (٦٥٧٦)، ومسلم (٢٢٩٧).

وَعَنْ حَارِثَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ قَالَ: حَوْضُهُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَالْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ الْمُسْتَوِرْدُ: أَلَمْ تَسْمَعْهُ قَالَ: الْأَوَانِي؟ قَالَ: لَا، فَقَالَ الْمُسْتَوِرْدُ: تُرَى فِيهِ الْآنِيَةُ مِثْلَ الْكَوَاكِبِ. البخاري (٦٥٩١)، ومسلم (٢٢٩٨).

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «إِنَّ أَمَامَكُمْ حَوْضًا مَا بَيْنَ نَاحِيَّتَيْهِ كَمَا بَيْنَ جَرْبَاءَ وَأَذْرَحَ» البخاري (٦٥٧٧)، ومسلم (٢٢٩٩).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا آنِيَةُ الْحَوْضِ؟ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَنْبِئُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا إِلَّا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ آنِيَةُ الْجَنَّةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخِرَ مَا عَلَيْهِ، يَشْخَبُ فِيهِ مِزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ، عَرَضُهُ مِثْلُ طُولِهِ مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ» أخرجه مسلم (٢٣٠٠).

وَعَنْ ثَوْبَانَ، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ قَالَ: «إِنِّي لَبِئْعُزِّ حَوْضِي أَذُودُ النَّاسِ لِأَهْلِ الْيَمَنِ أَضْرِبُ بِعَصَايَ حَتَّى يَرْفُضَ عَلَيْهِمْ». فَسُئِلَ عَنْ عَرَضِهِ فَقَالَ: «مِنْ مَقَامِي إِلَى عَمَّانَ». وَسُئِلَ عَنْ شَرَابِهِ فَقَالَ: «أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنْ

الْعَسَلِ، يَغْتُ فِيهِ مِيزَابَانِ يَمْدَانِهِ مِنَ الْجَنَّةِ أَحَدُهُمَا مِنْ ذَهَبٍ وَالْآخَرُ مِنْ وَرَقٍ»
أخرجه مسلم (٢٣٠١).

ويُطرد عنه طائفتان:

❶ **الأولى:** المبتدعة لحديث النبي ﷺ أنه قال: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ وَلَا تُنَازِعَنَّ أَقْوَامًا ثُمَّ لَا غُلَبَنَّ عَلَيْهِمْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي أَصْحَابِي. فَيَقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُمَا بَعْدَكَ» من حديث عبدالله بن مسعود عند مسلم (٢٢٩٧) واللفظ له. وعن ابن عباس عند البخاري (٣٣٤٩).

❷ **الثانية:** ويُطرد عنه بعض العصاة لحديث كعب بن عُجرة وجابر ، قال النبي ﷺ : «أُعِيدُكَ بِاللَّهِ يَا كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ مِنْ أُمَرَاءِ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِي، فَمَنْ غَشِيَ أَبْوَابَهُمْ فَصَدَّقَهُمْ فِي كَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَا يَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضُ، وَمَنْ غَشِيَ أَبْوَابَهُمْ أَوْ لَمْ يَغْشَ وَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ فِي كَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَسَيَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضُ، يَا كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ الصَّلَاةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، يَا كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ، إِنَّهُ لَا يَرَبُّو لَحْمَ نَبْتٍ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ» أخرجه الترمذي عن كعب بن عُجرة (٦١٤). ومن حديث جابر عند أحمد (١٤٤٤١).

وَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ، أَي: مَنْ جَاءَ وَسُمِحَ لَهُ بِالْوَصُولِ إِلَيْهِ وَهُوَ الْمُؤْمِنُ شَرِبَ، قال النبي ﷺ : «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا» من حديث سهل بن سعد عند البخاري (٧٠٥٠) و(٧٠٥١)، والفرط هو الذي يسبق الناس.

وقال النبي : «هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ، حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، يَجْرِي عَلَى جَنَادِلِ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ، شَرَابُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ» من حديث ابن عباس عند أحمد (٥٩١٣)، يحتاجه الناس بعد خروجهم ولهذا قال العلماء (إنَّ الحوض يقدم عليه الناس) أي المؤمنون بعد الخروج من قبورهم فإنهم يخرجون عطاشا فناسب أن يكون الحوض أوَّلَ فيأتون الحوض فمن شرب منه لا يظمأ بعده أبداً.

وهنا مسألة إذا عذَّب المؤمن الذي قد شرب من الحوض قالوا (يُعذَّب بغير العطش حتى وإن دخل النار)، ويكون شربه في الجنة شرب تلذذ.

وأنكر الخوارج والمعتزلة وغيرهم من منكري الغيب الحوض، حتى قال أنس بن مالك : دخلت على ابن زياد، وهم يتذاكرون الحوض، فلما رأوني طلعت عليهم قالوا: قد جاءكم أنس، فقالوا: يا أنس، ما تقول في الحوض؟ فقلت: والله ما شعرت أني أعيش حتى أرى أمثالكم تشكون في الحوض، لقد تركت عجائز بالمدينة، ما تصلي واحدة منهن صلاة إلا سألت ربها أن يوردها حوض محمد . قال محمد بن الحسين : ألا ترون إلى أنس بن مالك يتعجب ممن يشك في الحوض إذ كان عنده أن الحوض مما يؤمن به الخاصة والعامة حتى إن العجائز يسألن الله أن يسقيهن من حوضه فنعوذ بالله ممن لا يؤمن بالحوض، ويكذب به، وفيما ذكرناه من التصديق بالحوض الذي أعطاه الله نبينا محمداً كفاية عن الإكثار، والأثر المذكور في الشريعة للأجري وسنده محتج به برقم (٨٣٠).

وأما ما يُذكر (أنّ لكلّ نبيّ حوض)، أخرجه الترمذي (٢٤٤٣)، فالحديث ضعيف فيه الحسن لم يسمع من سُمرة والصحيح فيه أنّه من مراسلات الحسن البصري ثمّ أيضًا أحاديث الحوض تُشعر أنّه من خصائص النبيّ كما نقل ذلك غير واحد من أهل العلم ومعلوم أنّ ما كان من خصائصه أنّه انفرد به عن بقيّة الأنبياء والمرسلين وإن لم يكن لكلّ نبيّ حوض وإنّما هو حوض النبيّ فهل يشرب المؤمنون من كلّ أمة من هذا الحوض؟ الظاهر نعم لأنّه حوض ترده عليه أمة محمّد ولا مانع أن يرد غيرهم ويكون في هذا كرامة للنبيّ

الإيمان بالصراط

قال :

وَالصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمَحِ الْبَصَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرَّيْحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَرِكَابِ الْإِبِلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْطِفُ خَطْفًا وَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الْجِسْرَ عَلَيْهِ كَلَالِيْبُ تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ. فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ؛ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصَّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هَضَبُوا وَنُقُوا؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ.

في هذه الإشارة إلى مسألة عظيمة من مسائل الإيمان بالغيب وهي داخلية في مسائل الإيمان باليوم الآخر وهي مسألة الإيمان بالصراط ويُقال الزراط بالزاي ويقال السراط، وهو الجسر الممدود على متن جهنم يمر عليه المؤمنون دون غيرهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ [مريم: ٧١-٧٢]، وهذا الورد هو المرور على الصراط، وقلنا: يجوزه المؤمنون فقط لحديث أبي هريرة ، قال النبي : «يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعْ

مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاعِغَ الطَّوَاعِغَ، وَتَبَقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا شَافِعُوهَا أَوْ مُنَافِقُوهَا - شَكََّ إِبْرَاهِيمُ -، فَيَأْتِيهِمْ اللَّهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِينَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَنَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمْ اللَّهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتَّبِعُونَهُ، وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعَايَ الرُّسُلُ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمُ السَّعْدَانِ؟، قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ الْمُبْقِيُّ بَقِيَّ بَعْمَلِهِ - أَوْ الْمَوْثِقُ بِعَمَلِهِ -، وَمِنْهُمْ الْمُخْرَدُ، أَوْ الْمَجَارَى، أَوْ نَحْوُهُ، ثُمَّ يَتَجَلَّى، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ، مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، مِمَّنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْحَمَهُ، مِمَّنْ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِأَثَرِ السُّجُودِ، تَأْكُلُ النَّارُ ابْنَ آدَمَ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ، قَدْ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ تَحْتَهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حِمْلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ مِنْهُمْ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ، هُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ اضْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، فَإِنَّهُ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذِكَاؤُهَا، فَيَدْعُو اللَّهَ بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوهُ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي رَبَّهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاقِفٍ مَا شَاءَ، فَيَضْرِبُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى الْجَنَّةِ وَرَأَاهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، قَدَّمَنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَسْتَ قَدْ

أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَائِيقَكَ أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ أَبَدًا؟ وَبِئْسَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، وَيَدْعُو اللَّهَ، حَتَّى يَقُولَ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي مَا شَاءَ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَائِيقَ، فَيَقْدُمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا قَامَ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، انْفَهَقَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، فَرَأَى مَا فِيهَا مِنَ الْحَبَرَةِ وَالسُّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، أَذْخَلَنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: أَلَسْتَ قَدْ أُعْطِيتَ عُهُودَكَ وَمَوَائِيقَكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطِيتَ؟ فَيَقُولُ: وَبِئْسَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، لَا أَكُونَنَّ أَشَقَى خَلْقِكَ فَلَا يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَضْحَكَ اللَّهُ مِنْهُ، فَإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ، قَالَ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَإِذَا دَخَلَهَا قَالَ اللَّهُ لَهُ: تَمَنَّهُ، فَسَأَلَ رَبَّهُ وَتَمَنَّى، حَتَّى إِنَّ اللَّهَ لَيَذْكُرُهُ، يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، حَتَّى انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ، قَالَ: اللَّهُ ذَلِكَ لَكَ، وَمِثْلُهُ مَعَهُ» رواه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

وبنحوه عن أبي سعيد عند البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له، أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ «نَعَمْ». قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَا الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَا اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَا أَحَدِهِمَا إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَذْنٌ مُؤَدَّنٌ لِيَتَّبِعَ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَيَدْعَى الْيَهُودُ فَيَقَالُ لَهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ

قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ عَزِيرَ ابْنِ اللَّهِ. فَيَقَالُ كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ فَمَاذَا تَبْغُونَ قَالُوا عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. فَيُسَارُ إِلَيْهِمْ أَلَّا تَرُدُّونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهُمْ سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ. ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيَقَالُ لَهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ. فَيَقَالُ لَهُمْ كَذَبْتُمْ. مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ. فَيَقَالُ لَهُمْ مَاذَا تَبْغُونَ فَيَقُولُونَ عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. قَالَ: «فَيُسَارُ إِلَيْهِمْ أَلَّا تَرُدُّونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهُمْ سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا، قَالَ فَمَا تَتَّظِرُونَ تَبِعَ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. قَالُوا يَا رَبَّنَا فَارْقِنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرُ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نَصَاحِبْهُمْ. فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ. فَيَقُولُ هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ. فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالسُّجُودِ وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءَ وَرِيَاءٍ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ. ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ أَنْتَ رَبَّنَا. ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ وَيَقُولُونَ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «دَحْضُ مَزَلَّةٍ. فِيهِ خَطَاطِيفٌ وَكَالَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا سُوءِيكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرَفِ الْعَيْنِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرَّيْحِ وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرَّكَابِ فَتَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَتُخْدُوشٌ مُرْسَلٌ وَمَكْدُوشٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشِدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمْ

الَّذِينَ فِي النَّارِ يَقُولُونَ رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيُحْجُونَ. فَيَقَالُ لَهُمْ
 أَخْرِجُوا مِنْ عَرْفَتُمْ. فَتَحَرَّمُ صُورُهُمْ عَلَى النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتِ
 النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقِيهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ.
 فَيَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ
 خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا. ثُمَّ يَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ
 وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ
 يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا. ثُمَّ يَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ
 مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا
 خَيْرًا». وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تُصَدِّقْنِي بِهَذَا الْحَدِيثِ
 فَأَقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ
 مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، «فَيَقُولُ اللَّهُ شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ
 وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا
 قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا مُحَمًّا فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ نَهْرُ
 الْحَيَاةِ فَيُخْرِجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحَبَّةُ فِي حِمْلٍ السَّيْلِ أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ أَوْ إِلَى
 الشَّجَرِ مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أَصْفَرُ وَأَخْيَضُ وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ
 أَبْيَضَ». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرَعَى بِالْبَادِيَةِ! قَالَ: «فَيُخْرِجُونَ
 كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمَ يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ عِتَقَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ
 الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ ثُمَّ يَقُولُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ
 لَكُمْ، فَيَقُولُونَ رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. فَيَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي
 أَفْضَلُ مِنْ هَذَا فَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا. فَيَقُولُ رِضَايَ فَلَا
 أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

وقال النبي : «يُحْمَلُ النَّاسُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتَقَادَعُ بِهِمْ جَنَّةُ الصِّرَاطِ تَقَادَعُ الْفَرَاشِ فِي النَّارِ قَالَ فَيُنْجِي اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ قَالَ ثُمَّ يُؤْذَنُ لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ أَنْ يَشْفَعُوا فَيَشْفَعُونَ وَيُخْرِجُونَ وَيَشْفَعُونَ وَيُخْرِجُونَ وَيَشْفَعُونَ وَزَادَ عَفَانُ مَرَّةً فَقَالَ أَيْضًا وَيَشْفَعُونَ وَيُخْرِجُونَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً مِنْ إِيْمَانٍ» رواه أحمد (٢٠٤٤٠) عن أبي بكرة .

وتكون الأمانة والرحم جانبتي الصراط، يعني الأمانة في جانب والرحم في جانب، وفي ذلك الموقف العظيم لا يتكلم إلا الرسل كما في حديث أبي هريرة وحذيفة عند مسلم (١٩٥)، قال النبي : «يَجْمَعُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا، اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ، لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ»، قَالَ: «فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، ااعْمِدُوا إِلَى مُوسَى عليه السلام الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ تَكَلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى عليه السلام، فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ اللَّهِ وَرُوحِهِ، فَيَقُولُ عِيسَى عليه السلام: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا عليه السلام، فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحْمُ، فَتَقُومَانِ جَنْبَتِي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ» قَالَ: قُلْتُ: بِأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرَّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: «أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرَّ الرِّيحَ، ثُمَّ كَمَرَّ الطَّيْرَ، وَشَدَّ الرَّجَالَ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجَزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَحْيِيَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا»، قَالَ: «وَفِي حَافَتِي الصِّرَاطِ كَلَالِيبٌ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ

أُمِرْتُ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوشٌ فِي النَّارِ» وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعَرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا.

وقد تعجّب الصحابة لما قال النبيّ : «ثُمَّ كَمَرَّ الرِّيحُ ثُمَّ كَمَرَّ الطَّيْرُ وَشَدَّ الرَّجَالُ تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ» من حديث حذيفة عند مسلم (١٩٥).

هذا أمر من الله والسبب الأعمال الصالحة والصراط قد جاء وصفه في حديث أبي سعيد عند مسلم (١٨٣)، قال النبيّ : «دَحْضُ مَزَلَّةٍ فِيهِ خَطَاطِيفٌ وَكَلَالِيبٌ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُؤْيُكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ»، السعدان نعرفه إلا من كان في مدينة وإلا عندنا يقال له الكلبان ويقال له السعدان، هذا الشوك إذا قربت منه قل أن تنجو إما يأخذ بالثوب أو بالرجل أو باليد وإذا اردت أن تبعده من جسمك يأخذ بإصبعك، والحسك أظنكم تعرفونها تأتي مثل الثمرة في بعض الشجر مثل الكرة وفيها اشواك كثيرة من هنا ومن هنا إذا مسكت بالثوب لصقت وإذا مسكت بالجسم مسكت مثل الحسك عليها كلاليب وخطاطيف، الخطاف معروف، فبعض المؤمنون يُسلمهم الله لسرعتهم واخلوص أعمالهم ومنهم من يُكرّس على وجهه في نار جهنم ومنهم المخدوش الذي ينجو وآخر من يخرج من الصراط رجل يحبو مرة ويكبو مرة، انظر تصوّر يعني كيف يحبو على متن جهنم إذا سقط سقط في جهنم، يحبو مرة ويكبو مرة.

وجاء في حديث أبي سعيد عند مسلم (١٨٣)، قال : (بَلَّغَنِي أَنَّ الْجِسْرَ أَدْقُ مِنَ الشَّعْرَةِ وَأَحَدٌ مِنَ السَّيْفِ)، وفي وصفه مدحضة مزلة

فالدحض هو المكان الذي تمشي فيه بعد المطر تجد أماكن تزلق فيها دحضة مزلة، إذا دحضت فيه انزلت إلى جهنم، وجاء عند الشيخين البخاري (٩٠١) ومسلم (٦٦٩)، عن ابن عباس قال لِمُؤَذِّنِهِ فِي يَوْمٍ مَطِيرٍ: (إِذَا قُلْتَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَلَا تَقُلْ حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ قُلْ صَلُّوا فِي بُيُوتِكُمْ فَكَأَنَّ النَّاسَ اسْتَنْكَرُوا قَالَ فَعَلَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي إِنَّ الْجُمُعَةَ عَزَمَةٌ وَإِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أُحْرِجَكُمْ فَتَمُشُونَ فِي الطِّينِ وَالِدَّحَضِ)؛ لأن الدحض يزلقون فيه وتتوسخ ثيابهم وتتوسخ أبدانهم وربما تأثرت ظهورهم إلى غير ذلك فالصراط دحضة مزلة لا يجوزها إلا المؤمنون والمنافقون يبقون مع المؤمنين في عرصات يوم القيامة كما تقدم من حديث أبي سعيد فيصعدون على الصراط ويُعطيهم الله نوراً على قدر ما كانوا عليه من الإسلام فإذا صعدوا على الصراط انطفأ النور الذي معهم، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [الحديد: ١٣-١٤]، كانوا بالظاهر مع المؤمنين بالقول لا بالاعتقاد ويريدون أن يلتمسوا نوراً فيتقادعون في النار ويكونون في الدرك الأسفل من النار ثم بعد أن يجوز المؤمنون الصراط تبقى القنطرة وهي طرف الصراط مما يلي الجنة كما في حديث أبي سعيد عند البخاري (٦٥٣٥)، قال النبي: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيَقْصُصُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمِ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا أَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»، يبقى

الناس عليها فلا يدخل أحد الجنة وعنده مظلمة لأحد يتجاوز الله عن بعضهم ويصلون إلى هذه المرتبة لكن تبقى مظالم فيقع القصاص حتى إذا نقوا هذبوا دخلوا كأن أحدهم يعرف بيته ويفتح لهم النبي وهو أول شافع وأول مشفع وأول من يفتح باب الجنة.

أول من يستفتح باب الجنة وأولهم دخولا

قال :

وَأَوَّلُ مَنْ يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الْأُمَمِ أُمَّتُهُ.

وهذه من خصائص النبي وأمته، ويدل على ذلك حديث أنس عند مسلم (١٩٧)، قال النبي : «أَتَى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْحَازِنُ مَنْ أَنْتَ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ بِكَ أَمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ».

وأول من يدخل الجنة من الأمم أُمَّتُهُ، قال النبي : «أَضَلَّ اللَّهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ» من حديث حذيفة عند مسلم (٨٥٦)، وجاء عند مسلم (١٨٢) واللفظ له وبنحوه عند البخاري (٦٥٧٣). وعن أبي هريرة ، قال النبي : «فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ» متفق عليه.

ويدخل من أُمَّتِهِ سبعون ألفاً على صورة القمر ليلة البدر لقوله : «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا زُمْرَةً وَاحِدَةٌ مِنْهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ» من حديث أبي هريرة عند مسلم واللفظ له (٢١٧)، والبخاري (٣٢٤٧) عن سهل بن سعد . وقال : «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلْجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلَا يَمْتَحِطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ أَيْنِسُهُمْ فِيهَا

الذَّهَبُ أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةُ وَجَمَرُهُمْ الْأَلْوَةُ وَرَشْحُهُمْ الْمِسْكُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مُخُّ سَوْقَيْهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٢٤٥) ومسلم (٢٨٣٤). وقال عليه الصلاة والسلام: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَالَّذِينَ عَلَى إِثْرِهِمْ كَأَشَدَّ كَوَكَبٍ إِضَاءَةً قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ لَحْمِهَا مِنَ الْحُسْنِ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا لَا يَسْقُمُونَ وَلَا يَمْتَحِطُونَ وَلَا يَبْصُقُونَ أَنِيتَهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَوَقُودُ مَجَامِرِهِمُ الْأَلْوَةُ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٢٤٦). وقال النبي: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدَّ كَوَكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَتَفَلُونَ وَلَا يَمْتَحِطُونَ أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ وَجَمَامُهُمُ الْأَلْوَةُ الْأَنْجُوجُ عُودُ الطَّيِّبِ وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعَيْنُ عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٣٢٧).

وللجنة ثمانية أبواب، قال النبي: «فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرِّيَّانَ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ» من حديث عبادة بن الصامت في البخاري (٣٢٥٧).

وللنار سبعة أبواب، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٣) ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٣-٤٤]، وقال النبي: «الجنة لها

ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ وَالنَّارُ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ» من حديث عتبة بن عمرو السلمي
عند ابن سعد (٧/ ٤٣٠).

والجنة درجات، قال النبي : «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْقُ وَرَتِّلْ كَمَا
كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُؤُهَا» من حديث عبدالله بن
عمرو عند أبي داود (١٤٦٤) والترمذي (٢٩١٤).

والنار دركات، قال : ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ
النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، وفي هذا بيان لفضيلة النبي أنه هو الذي يفتح باب
الجنة ومن فضيلته وفضيلة أمته أن أمته أول وأكثر الأمم دخولا، قال النبي :
«هَاهُنَا نُحْشَرُونَ هَاهُنَا نُحْشَرُونَ هَاهُنَا نُحْشَرُونَ ثَلَاثًا رُكْبَانًا وَمُشَاةً وَعَلَى
وُجُوهِكُمْ تُوَفُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ آخِرُ الْأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى» من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عند أحمد (٢٠٠١١). وقال
النبي : «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَرْبَعُونَ
مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ» من حديث بريدة عند الترمذي (٢٥٤٦) وابن ماجه
(٤٢٨٩). وقال : «خَيْرُتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ
فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ أَثَرُونَهَا لِلْمُتَّقِينَ لَا وَلَكِنَّهَا لِلْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ» من
حديث أبي موسى عند ابن ماجه (٤٣١١).

وفي الصحيحين: البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ
الْحُدْرِيِّ ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ
وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارَ، قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟
قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ

ذَاتِ حِمْلٍ حَمَلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيْنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟ قَالَ: «أَبَشِّرُوا، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعْرَةِ بَيْضَاءٍ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ».

الإيمان بالشفاعة وخروج الموحدين من النار

قال :

وَلَهُ ﷺ فِي الْقِيَامَةِ ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ: أَمَّا الشَّفَاعَةُ الْأُولَى؛ فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَجَعَ الْأَنْبِيَاءُ؛ آدَمُ، وَنُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ.

أي: من خصائصه ثلاث شفاعات:

فالأولى: هي الشفاعة العظمى التي دل عليه قوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وكما قال جابر بن عبد الله : فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ يَعْنِي الَّذِي يَبْعَثُهُ اللَّهُ فِيهِ؟

وهي المذكورة في حديث أبي هريرة وأنس وأبي سعيد وفي غيرها من الأحاديث، قال النبي : «فَيَقُولُ النَّاسُ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ عَلَيْكُمْ بِآدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ أَنْتَ أَبَوَالْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ أَشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ آدَمُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا أَشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ

بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ فَذَكَرْهُنَّ أَبُو حَيَّانٍ فِي الْحَدِيثِ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَضَلَّكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُؤْمَرْ بِقَتْلِهَا نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ عِيسَى إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْطَلِقُ فَاتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ حَمَامِدِهِ وَحُسْنِ الشَّائِءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهُ وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ».

فيه دليل على أن أسماء الله وصفاته ليست محصورة بعدد معلوم لنا وكل الرواة روى الحديث مختصرًا ولم يذكروا فيه الشفاعة العظمى وإنما ذكروا

شفاعة النبي ﷺ لأُمَّته؛ والسبب أنهم يسوقون الحديث للردّ على أهل البدع فيذكرون الشاهد منه وهي الشفاعة في أهل الكبائر من أمة محمد ﷺ أمّا الشفاعة العظمى فهي متفق عليها بين أهل السنّة والمعتزلة والخوارج، وهذه الشفاعة لفصل القضاء بين العباد، وأمّا الشفاعة في أهل الكبائر من أمة محمد ﷺ فيُنكرها المعتزلة والخوارج ومن إليهم، ويستدلّون بقول الله ﷻ: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وبقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، وبقوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، زعموا أنّ هذه الآيات عامة فيمن دخل النار.

ويرد هذه ما رواه يزيدُ الفقيرُ حيث قال: كُنْتُ قَدْ شَعَفَنِي رَأْيٌ مِّن رَّأْيِ الْخَوَارِجِ، فَخَرَجْنَا فِي عَصَابَةِ ذَوِي عَدَدٍ نُرِيدُ أَنْ نَحُجَّ ثُمَّ نَخْرُجَ عَلَى النَّاسِ، قَالَ: فَمَرَرْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ، فَإِذَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ - جَالِسٌ إِلَى سَارِيَةٍ - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَإِذَا هُوَ قَدْ ذَكَرَ الْجَهَنَّمِيَّ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا هَذَا الَّذِي تُحَدِّثُونَ؟! وَاللَّهِ يَقُولُ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، وَ ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]، فَمَا هَذَا الَّذِي تَقُولُونَ؟! قَالَ: فَقَالَ: أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ ﷺ، يَعْنِي الَّذِي يَبْعَثُهُ اللَّهُ فِيهِ؟ رواه مسلم (١٩١). وقد تقدم الحديث.

ويقصدون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الخروج على الحُكّام وقتل المسلمين، فالخوارج شُبُههم ركيكة ومّا يدلّ على أنّ من دخل النار من أمة محمد ﷺ

ويخرج منها حديث أبي سعيد : «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمْ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمُ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحَمَّا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرُ ضَبَائِرَ فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ثُمَّ قِيلَ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ. فَيَبْتَغُونَ نَبَاتَ الْحَبَّةِ تَكُونُ فِي حِمِيلِ السَّيْلِ» رواه مسلم (١٨٥).

وفيه بيان أن الكفار يُخلَّدون في العذاب قال الله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ﴾ [الزخرف: ٧٧].

قال :

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَيُشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ. وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ.

دليل هذه الشفاعة ما تقدّم في حديث أنس عند مسلم (١٩٧)، قال النبي : «اتَى بَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُسْتُفْتَحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ مَنْ أَنْتَ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ».

قال :

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ؛ فَيُشْفَعُ فِيْمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَيُشْفَعُ فِيْمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا وَيُشْفَعُ فِيْمَنْ دَخَلَهَا أَنْ يُخْرَجَ مِنْهَا.

إذ قد يستجيب الله له ويدخل من شاء الجنة ابتداءً من غير عذاب، وقد يدخل قوم النار فيشفع فيهم فيخرجهم الله تعالى، وفي حديث أنس وغيره قال النبي : «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي» رواه أبو داود (٤٧٣٩)، الترمذي (٢٤٣٥)، ابن ماجه (٤٣١٠). وقال : «خَيْرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ أَثَرُونَهَا لِلْمُتَّقِينَ لَا وَلَكِنَّهَا لِلْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ» من حديث أبي موسى عند ابن ماجه (٤٣١١)، وأحمد (١٩٦١٨)، وفي حديث أنس عند البخاري (٧٥١٠)، قال النبي فيما يرويه عن ربه: «انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ»، زاد مسلم (١٨٣) وعن أبي سعيد «شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». ويقول النبي : «يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيَقُولُ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» من حديث أنس عند البخاري (٧٥١٠).

وآخر من يخرج من النار كما في حديث جابر : «قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِمْ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: مَا نَرَى نَفْعَكُمْ إِسْلَامُكُمْ شَيْئًا» وفي رواية: «مَا نَرَى نَفْعَكُمْ عِبَادَتُكُمْ شَيْئًا» وفي رواية: «مَا نَرَى نَفْعَكُمْ إِيْمَانُكُمْ شَيْئًا» فعند ذلك يأمر الله أن يخرج من النار عند ذلك قال الله تعالى: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢].

وجاء من حديث أبي موسى عند الحاكم (٢٩٥٤)، والكلام في الشفاعة يطول ويستدل من يقول بعدم كفر تارك الصلاة بأحاديث الشفاعة

والصحيح أن لا دلالة لهم في هذه الأحاديث، لأننا لو جمعنا طرق حديث الشفاعة نجد أن المشفوع لهم يميزون بمواطن السجود. وقوله : «لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ»، فيحمل على أناس لم يتمكنوا من العمل كما هو حال متأخري الأمة الذين ذكرهم في حديث حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله : «يُدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيْسَرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ، يَقُولُونَ: أَذْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَنَحْنُ نَقُوهَا» فَقَالَ لَهُ صَلَّةٌ: مَا تُغْنِي عَنْهُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهُمْ لَا يَدْرُونَ مَا صَلَاةٌ، وَلَا صِيَامٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِ ثَلَاثًا، كُلَّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي الثَّلَاثَةِ، فَقَالَ: (يَا صَلَّةُ، تُنَجِّهِمْ مِنَ النَّارِ ثَلَاثًا. أخرج ابن ماجه (٤٠٤٩).

أو يحمل على أناس قالوا لا إله إلا الله ثم لم يتمكنوا من العمل، أو على قوم من أعراب المسلمين أو ممن أسلم في بلاد العجم كما كان الحال في بلاد الروس وغيرهم من بلدان الاشتراكيين، وانتهى الجيل الأول من المسلمين وجاء الجيل الثاني لا يعرف من الإسلام إلا أنه يختون يقول لا إله إلا الله، ما أقيمت عليهم الحجة فهؤلاء يدخلون في عموم أدلة العذر بالجهل، أمّا أن نقول أن تارك الصلاة ليس بكافر مع صحت الأدلة عن النبي مثل حديث: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ» من حديث بريدة عند الترمذي (٢٦٢١)، وابن ماجه (١٠٧٩)، والنسائي (٤٦٢) وأحمد (٢٢٩٣٧). وقال

: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشُّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ» من حديث جابر
عند مسلم (٨٢). إلى غير ذلك، بل إن القول بكفره يعد إجماعاً من الصحابة.
قال :

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ؛ فَيُشْفَعُ فِيْمَنْ اسْتَحَقَّ النَّارَ.

أي: عنده أعمال سيئة تكون سبباً لاستحقاقه العذاب لكن قد يتجاوز الله عنه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

قال :

وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَغَيْرِهِمْ.

وهذه تكون في أصحاب الكبائر خلا الشرك بالله، وهي شفاعة عامة للنبي ولغيره من الأنبياء والصالحين.

ويشفع الشهداء، ويشفع رجل من أمة محمد في مثل ربيعة ومضر، وهو ابن أبي الجدعاء ويشفع الأب لولده والولد لأبيه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ آَلَفْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، وهذه الشفاعة يُثبتها المعتزلة وهي رفع بعض درجات المؤمنين في الجنة ويُنكرون الشفاعة في أهل الكبائر فالله من رحمته إذا مات الأب على صلاح يرفع الولد إليه، ويشفع أبناء الآباء في آبائهم، فعن أبي حسان قَالَ قُلْتُ لِأَبِي هُرَيْرَةَ إِنَّهُ قَدْ مَاتَ لِي ابْنَانِ فَمَا أَنْتَ مُحَدِّثِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ

بِحَدِيثِ تُطَيَّبُ بِهِ أَنْفُسُنَا عَنْ مَوْتَانَا، قَالَ: قَالَ: نَعَمْ، «صَغَارُهُمْ دَعَائِمُصُ الْجَنَّةِ يَتَلَقَّى أَحَدُهُمْ أَبَاهُ - أَوْ قَالَ أَبَوَيْهِ - فَيَأْخُذُ بِثَوْبِهِ - أَوْ قَالَ بِيَدِهِ - كَمَا أَخَذُ أَنَا بِصَنْفَةِ ثَوْبِكَ هَذَا فَلَا يَتَنَاهَى - أَوْ قَالَ فَلَا يَنْتَهِي - حَتَّى يُدْخِلَهُ اللَّهُ وَأَبَاهُ الْجَنَّةَ» رواه مسلم (٢٦٣٥).

ومن أسباب الشفاعة قراءة سورة الملك، قال النبي : «سُورَةُ مِنَ الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً تَشْفَعُ لِصَاحِبِهَا حَتَّى يُغْفَرَ لَهُ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ» من حديث أبي هريرة عند أبي داود (١٤٠٠) واللفظ له، الترمذي (٢٨٩١)، ابن ماجه (٣٧٩٦)، وله طرق.

ومن أسبابها الصلاة على النبي عند الأذان ثم الدعاء له بالوسيلة، كما في حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم (٣٨٤)، قال النبي : «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَبْغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ».

ومن أسبابها العمل بالقرآن، قال النبي : «الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَا حَلَّ مُصَدِّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ» من حديث ابن مسعود عند ابن أبي شيبة (٣٠٠٥٤). وقال : «افْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ اقْرَأُوا الزَّهْرَاوِينَ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَاتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ مُتَحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخَذَهَا بَرَكَةٌ

وَتَرَكَهَا حَسْرَةً وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ» من حديث أبي أمامة عند مسلم (٨٠٤).

ومن أسبابها الموت في المدينة، فعند مسلم (١٣٦٣) عن سعد قال قال رسول الله : «إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لَابَتِي الْمَدِينَةِ أَنْ يُقَطَعَ عِصَاهُهَا، أَوْ يُقْتَلَ صَيِّدُهَا» ، وَقَالَ: «الْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، لَا يَدْعُهَا أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا إِلَّا أَبَدَلَ اللَّهُ فِيهَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، وَلَا يَثْبُتُ أَحَدٌ عَلَى لَأَوَائِهَا وَجَهْدِهَا إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا، أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وغير ذلك من الأسباب.

قال :

وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَنْ يُخْرَجَ مِنْهَا. وَيُخْرِجُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ؛ بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللَّهُ هَا أَقْوَامًا فَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ.

أي: يشفع فيمن دخل النار أن يخرج منها وقد تقدمت الأدلة ويخرج الله تعالى أقوامًا بفضلِهِ وَرَحْمَتِهِ على ما تقدم في الأحاديث وقوله: وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللَّهُ هَا أَقْوَامًا فَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ قد تقدم التنبيه على ماء جاء أنه ينشئ للنار وهي زيادة شاذة بل منكرة قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، فلا يدخل النار إلا من استحقها ووجب عليه الخلود فيها أما الجنة لفضلِهِ الواسع ينشئ لها نشأً أي يُخلق لها خلقاً يتنعمون فيها فضلاً منه وَرَحْمَةً ؛ لَأَنَّهُ وَعَدَ النَّارَ وَوَعَدَ الْجَنَّةَ بِمَلَأِيهَا، قال النبي : «اِحْتَجَّتِ النَّارُ وَالْجَنَّةُ فَقَالَتْ هَذِهِ يَدْخُلُنِي الْجَبَّارُونَ

وَالْمُتَكَبِّرُونَ. وَقَالَتْ هَذِهِ يَدْخُلْنِي الضُّعَفَاءُ وَالْمَسَاكِينُ فَقَالَ اللَّهُ هَذِهِ أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ - وَرُبَّمَا قَالَ أُصِيبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ - وَقَالَ هَذِهِ أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا» من حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٨٤٦).

وهل هناك شفاعاة في الدنيا؟ الجواب نعم، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ أَنَّهُ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ» ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً فَشَقَّهَا بِنِصْفَيْنِ ثُمَّ غَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ صَنَعْتَ هَذَا؟ فَقَالَ: «لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَبْسَا» رواه البخاري (١٣٦١) ومسلم (٣٠١٢)، فالدعاء شفاعاة لهما، ويدل على ذلك قوله: «مَا مِنْ مَيِّتٍ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً، كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ، إِلَّا شُفِعُوا فِيهِ» من حديث عائشة عند مسلم (٩٤٧)، فالصلاة على الميِّت تعتبر شفاعاة.

ثم إن الناس في الشفاعاة على ثلاثة أقوال:

فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم يجعلون شفاعاة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا.

والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعاة نبينا وغيره في أهل الكبائر.

وأما أهل السنة والجماعة، فيقرون بشفاعة نبينا في أهل الكبائر، وشفاعة غيره، لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحد له حدا، كما في الحديث الصحيح، حديث الشفاعاة أنهم يأتون آدم، ثم نوحا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، فيقول لهم عيسى: «اأْتُوا مُحَمَّدًا»، فَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ

ذَنبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُقَالُ لِي: ارْفَعْ رَأْسَكَ: سَلْ تُعْطَهُ، وَقُلْ يُسْمَعُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعُ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأُحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِي، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، ثُمَّ أَخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَقْعُ سَاجِدًا مِثْلَهُ فِي الثَّالِثَةِ، أَوْ الرَّابِعَةِ...». ذكرها ثلاث مرات.

التوسل بذوات الصالحين:

وأما الاستشفاع بالنبي وغيره في الدنيا إلى الله تعالى في الدعاء، ففيه تفصيل: فإن الداعي تارة يقول: بحق نبيك أو بحق فلان، يقسم على الله بأحد من مخلوقاته، فهذا محذور من وجهين:

أحدهما: أنه أقسم بغير الله.

والثاني: اعتقاده أن لأحد على الله حقًا.

ولا يجوز الحلف بغير الله، وليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه على نفسه، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. وكذلك ما ثبت في الصحيحين من قوله لمعاذ ، وهو رديفه: «يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟». قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ»، قال: «أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟». قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «أَنْ لَا يُعَذَّبَهُمْ». فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعد الصديق، لا أن العبد نفسه مستحق على الله شيئًا كما يكون للمخلوق على المخلوق، فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير، وحقهم الواجب بوعده هو أن لا يعذبهم، وترك

تعذيبهم معنى لا يصلح أن يقسم به، ولا أن يسأل بسببه ويتوسل به، لأن السبب هو ما نصبه الله سبباً.

وكذلك الحديث الذي في المسند من حديث أبي سعيد عن النبي ، في قول الماشي إلى الصلاة: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ، وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَشَايَ هَذَا»، فهذا حق السائلين، هو أوجهه على نفسه، فهو الذي أحق للسائلين أن يجيبهم، وللعابدين أن يثيبهم، ولقد أحسن القائل:

مَا لِلْعَبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ
إِنْ عَذَّبُوا فَبَعْدَ لِهِ، أَوْ نَعَّمُوا فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

فإن قيل: فأى فرق بين قول الداعي: «بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ» وبين قوله: (بحق نبيك)، أو نحو ذلك؟

فالجواب: أن معنى قوله: «بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ»، أنك وعدت السائلين بالإجابة، وأنا من جملة السائلين، فأجب دعائي، بخلاف قوله: بحق فلان - فإن فلانا وإن كان له حق على الله بوعده الصادق - فلا مناسبة بين ذلك وبين إجابة دعاء هذا السائل. فكأنه يقول: لكون فلان من عبادك الصالحين أجب دعائي! وأي مناسبة في هذا وأي ملازمة؟ وإنما هذا من الاعتداء في الدعاء! وقد قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعة، لم ينقل عن النبي ، ولا عن الصحابة، ولا عن التابعين، ولا عن أحد من الأئمة، وإنما يوجد مثل هذا في الحروز والهياكل التي يكتب بها الجهال والطرقية.

والدعاء من أفضل العبادات، والعبادات مبناه على السنة والاتباع، لا على الهوى والابتداع. وإن كان مراده الإقسام على الله بحق فلان، فذلك محذور أيضًا، لأن الإقسام بالمخلوق على المخلوق لا يجوز، فكيف على الخالق؟! وقد قال : «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ».

ولهذا قال أبو حنيفة وصاحبه رحمهم الله: يكره أن يقول الداعي: أسألك بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام، والمشعر الحرام، ونحو ذلك حتى كره أبو حنيفة ومحمد أن يقول الرجل: اللهم إني أسألك بمعقد العز من عرشك، ولم يكرهه أبو يوسف لما بلغه الأثر فيه.

وتارة يقول: بجاه فلان عندك، يقول: نتوسل إليك بأنبيائك ورسلك وأوليائك. ومراده أن فلانا عندك ذو وجاهة وشرف ومنزلة فأجب دعاءنا. وهذا أيضًا محذور، فإنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه في حياة النبي لفعلوه بعد موته، وإنما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه، يطلبون منه أن يدعو لهم، وهم يؤمنون على دعائه، كما في الاستسقاء وغيره. فلما مات قال عمر - لما خرجوا يستسقون -: (اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا). معناه بدعائه هو ربه وشفاعته وسؤاله، ليس المراد أنا نقسم عليك به، أو نسألك بجاهه عندك، إذ لو كان ذلك مراداً لكان جاه النبي أعظم وأعظم من جاه العباس.

وتارة يقول: باتباعي لرسولك ومحبي له وإيماني به وسائر أنبيائك ورسلك وتصديقي لهم، ونحو ذلك. فهذا من أحسن ما يكون في الدعاء والتوسل والاستشفاع.

فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به فيه إجمال، غلط بسببه من لم يفهم معناه: فإن أريد به التسبب به لكونه داعياً وشافعاً، وهذا في حياته يكون، أو لكون الداعي محباً له، مطيعاً لأمره، مقتدياً به، وذلك أهل للمحبة والطاعة والافتداء، فيكون التوسل إما بدعاء الوسيلة وشفاعته، وإما بمحبة السائل واتباعه، أو يراد به الإقسام به والتوسل بذاته، فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه.

وكذلك السؤال بالشيء، قد يراد به التسبب به، لكونه سبباً في حصول المطلوب، وقد يراد به الإقسام به.

ومن الأول: حديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار، وهو حديث مشهور في الصحيحين وغيرهما، فإن الصخرة انطبقت عليهم، فتوسلوا إلى الله بذكر أعمالهم الصالحة الخالصة، وكل واحد منهم يقول: فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون. فهؤلاء: دعوا الله بصالح الأعمال، لأن الأعمال الصالحة هي أعظم ما يتوسل به العبد إلى الله، ويتوجه به إليه، ويسأله به، لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله.

فالحاصل: أن الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر، فإن الشفيع عند البشر كما أنه شافع للطالب شفعه في الطلب، بمعنى أنه صار شفيعاً فيه بعد أن كان وترّاً، فهو أيضاً قد شفع المشفوع إليه، وبشفاعته صار فاعلاً للمطلوب، فقد شفع الطالب والمطلوب منه، والله تعالى وتر، لا يشفعه أحد، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فالأمر كله إليه، فلا شريك له بوجه.

فسيد الشفعاء يوم القيامة إذا سجد وحمد الله تعالى فقال له الله: «ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَهُ، وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ، فَأَرْفَعْ رَأْسِي، فَأُخَمِّدُهُ بِتَحْمِيدِ يُعَلِّمْنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعْ فَيَحْدُثُ لِي حَدًّا، فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ»، فالأمر كله لله. كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فإذا كان لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه لمن يشاء، ولكن يكرم الشفيع بقبول شفاعته، كما قال : «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ».

وفي الصحيح أن النبي قال: «يَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ».

وفي الصحيح أيضاً عن النبي : «لَا أَلْفِينَ يَجِيءُ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَلْفِينَ يَجِيءُ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا نُغَاءٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَلْفِينَ أَحَدُكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمَحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَلْفِينَ يَجِيءُ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاخٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَلْفِينَ يَجِيءُ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفُقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا».

فإذا كان سيد الخلق وأفضل الشفعاء يقول لأخص الناس به: «إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»، فما الظن بغيره؟ وإذا دعاه الداعي، وشفع عنده الشفيع، فسمع الدعاء، وقبل الشفاعة، لم يكن هذا هو المؤثر فيه كما يؤثر المخلوق في المخلوق، فإنه هو الذي جعل هذا يدعو ويشفع، وهو الخالق لأفعال العباد، فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها، وهو الذي وفقه للعمل ثم أثابه، وهو الذي وفقه للدعاء ثم أجابه. وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر، وأن الله خالق كل شيء؛ انتهى من شرح الطحاوية لابن أبي العز .

الإيمان المجل بكل ما علمنا وما لم نعلم مما ذكر الله تعالى ورسوله

قال :

وَأَصْنَافُ مَا تَصَمَّنَتْهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ
وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ،
وَالْأَثَارِ مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْثُورِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَفِي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ
مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَنْ ابْتِغَاهُ وَجَدَهُ.

هذه إشارة من المصنف إلى أن تفاصيل اليوم الآخر ليس هذا موطن
بسطها، ولكن هذه إشارات، وإذا أردت أن تنظر في تفاصيله فاقراً جزء (عم)
مع التفكير والتدبر تجد ذلك عياناً مثل سورة: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا
الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [الانفطار: ١-٢]، و﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ [التكوير: ١]، و﴿إِذَا السَّمَاءُ
انْشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق: ١]، وسورة (القارعة)، و(عبس)، و(عم)، و(المرسلات)،
و(الزلزلة). ففي البخاري عن يوسف بن ماهك قال: إني عند عائشة أم
المؤمنين ، إذ جاءها عراقي، فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك، وما
يضرُّك؟ قال: يا أم المؤمنين، أريني مصحفك؟ قالت: لم؟ قال: لعلِّي أولف
القرآن عليه، فإنه يُقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرُّك أيُّه قرأت قبل؟! إنما نزل
أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس
إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا:
لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة
على محمدٍ وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى

وَأَمْرٌ ﴿[القمر: ٤٦] وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ. قَالَ: فَأَخْرَجْتُ لَهُ الْمُصْحَفَ، فَأَمَلْتُ عَلَيْهِ آيَ السُّورِ.

وله في أخرى مختصراً قال: قالت عائشة: لَقَدْ أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَإِنِّي لَجَارِيَةُ اللَّعْبِ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾. أخرجه البخاري. وفي القرآن، والسنة من هذا كثير جداً.

الإيمان بأن الجنة والنار موجودتان الآن

ومن قول أهل السنة أن الجنة والنار قد خلقتا، قال: ﴿وَقُلْنَا يَتَّادِمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقال: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ [يس: ٢٦]، وقال: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦].

ولم يخالف في ذلك إلا أهل البدع من المعتزلة والخوارج، والأدلة على ذلك متوافرة متواترة استقصينا كثيراً منها في كتاب الإيمان والله الحمد منها:

قوله تعالى: ﴿أَعَدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقوله: ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقوله: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

وقال عن النار: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وقوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ (٢١) ﴿لِلطَّغِينِ مَثَابًا﴾ [النبا: ٢١-٢٢]، وقوله تعالى في الجنة: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (١٣) ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ (١٤) ﴿عِنْدَ هَاجَتِ الْمَأْوَى﴾ [النجم: ١٣-١٥].

ومن السنة، ما أخرجه في الصحيحين، أخرج البخاري (٥٢٢٦): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ النَّبِيِّ قَالَ: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ أَوْ أَتَيْتُ الْجَنَّةَ فَأَبْصَرْتُ قَصْرًا فَقُلْتُ لِمَنْ هَذَا قَالُوا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَهُ فَلَمْ يَمْنَعْنِي إِلَّا عِلْمِي بِغَيْرَتِكَ». قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَوْ عَلَيْكَ أَغَارُ؟! أخرجه مسلم (٢٣٩٤).

وأخرج (٣٢٤٢): عن أبي هريرة قال بينا نحن عند رسول الله إذ قال: «بيننا أنا نائمٌ رأيْتُني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصرٍ فقلت لمن هذا القصر؟ فقالوا لعمر بن الخطاب؛ فذكرتُ غيرته فوليتُ مُدبراً» فبكى عمر وقال أعلَيْكَ أَعَارِ يَا رَسُولَ اللَّهِ. أخرجه مسلم (٢٣٩٥).

وأخرج (٣٢٤١): حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ حَدَّثَنَا سَلَمٌ بْنُ زَرْبٍ حَدَّثَنَا أَبُو رَجَاءٍ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ».

وأخرج (٣٢٤٠): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَإِنَّهُ يُعْرَضُ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ». أخرجه مسلم (٨٦٦).

وأخرج البخاري (٤٥٠): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ الْخَوْلَانِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ يَقُولُ عِنْدَ قَوْلِ النَّاسِ فِيهِ حِينَ بَنَى مَسْجِدَ الرَّسُولِ إِنَّكُمْ أَكْثَرْتُمْ وَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ يَقُولُ: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا - قَالَ بُكَيْرٌ حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: يَتَنَجَّى بِهِ وَجْهَ اللَّهِ - بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ»، أخرجه مسلم (٥٣٣).

وأخرج مسلم (٢٤٥٦): عَنْ أَنَسٍ: عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتُ خَشْفَةً، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذِهِ الْغَمِيصَاءُ بِنْتُ مِلْحَانَ أُمِّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ».

وأخرج (٢٤٥٧): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «أُرِيتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ امْرَأَةً أَبِي طَلْحَةَ، ثُمَّ سَمِعْتُ خَشْخَشَةً أَمَامِي فَإِذَا بِلَالٌ».

وأخرج (٢٤٥٨): عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لبلال عند صلاة الغداة: «يَا بَلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتُهُ، عِنْدَكَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْفَعَةٌ، فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّيْلَةَ خَشَفَ نَعْلِيكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ». قال: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا فِي الْإِسْلَامِ أَرْجَى عِنْدِي مَنْفَعَةً، مِنْ أَنِّي لَا أَتَطَهَّرُ طَهُورًا تَامًا، فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ، إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطَّهُورِ، مَا كَتَبَ اللَّهُ لِي أَنْ أُصَلِّيَ.

وأخرج (٤٢٦): عن المختار بن فلفل عن أنس قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم فلما قضى الصلاة أقبل علينا بوجهه فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي إِمَامُكُمْ، فَلَا تَسْبِقُونِي بِالرُّكُوعِ وَلَا بِالسُّجُودِ، وَلَا بِالْقِيَامِ وَلَا بِالْإِنْصِرَافِ، فَإِنِّي أَرَاكُمْ أَمَامِي وَمِنْ خَلْفِي»، ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُمْ لَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا». قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: «رَأَيْتُمْ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ».

وأخرج البخاري (٣٥٢١): عن سعيد بن المسيب قال البَحِيرَةُ الَّتِي يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ وَلَا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَالسَّائِبَةُ الَّتِي كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِأَهْلِيهِمْ فَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ قَالَ وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ بْنِ لُحْيٍ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُضْبَهُ فِي النَّارِ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ»، أخرجه مسلم (٢٨٥٦).

وأخرج مسلم (٢٨٤٦): عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ قال: «تَحَاجَّتِ النَّارُ، وَالْجَنَّةُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوتِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ، وَالْمُتَجَرِّينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ، وَسَقَطُهُمْ، وَعَجَزُهُمْ، فَقَالَ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ

رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي»، أخرجه البخاري (٤٨٥٠).

وأخرج (١٩١٤): عن أبي هريرة: عن النبي قال: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ، فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ، كَأَنَّهُ تُؤْذِي النَّاسَ».

وأخرج البخاري (٣٤٨٢): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هَرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارُ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»، أخرجه مسلم (٢٢٤٢).

وأخرج مسلم (٢٦١٩): عن أبي هريرة عن رسول الله فذكر أحاديث منها: وقال رسول الله : «دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ مِنْ جَرَاءِ هَرَّةٍ لَهَا، أَوْ هِرٍّ، رَبَطَتْهَا فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تُرْمِرُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ هَزْلًا».

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٤٠٠): أما قوله: (الجنة والنار مخلوقتان)، فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل أهل السنة كذلك حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية وأنكرت ذلك، وقالت: بل ينشئهما الله يوم القيامة وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يعلمه الله وأنه ينبغي له أن يفعل كذا ولا ينبغي له أن يفعل كذا وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة في الأفعال، ودخل فيهم التجهم فصاروا مع ذلك معطلة، وقالوا خلق الجنة قبل الجزاء عبث لأنها تصير

معطلة مدداً متطاولة فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى. اهـ

فيا ليت شعري كيف سيتأولون حديث أبي هريرة عند أبي داود (٤٧٤٤): «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ. قَالَ: فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ النَّارَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا، فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا».

ومن الأدلة على وجودهما ما أخرجه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦). عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وعن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله قال: «إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ». أخرجه مالك في الموطأ (١٨٦/١) وأحمد في المسند (٤٥٥/٣) والآجري في الشريعة (٣٩٢) وابن ماجه (٤٢٧١).

والحديث يدل على أن أرواح المؤمنين في الجنة إلا من حبس لدين أو غيره والشاهد من الحديث قوله: «طَيْرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»، فلو كانت غير موجودة الآن لكان هذا الكلام لغوً وكذب والعياذ بالله.

فائدة: هذا الحديث يدل على أن أرواح المؤمنين طيرٌ في الجنة، أما أرواح الشهداء فهي في أجواف طير خضر كما أخرج مسلم (١٨٨٧) في صحيحه من حديث ابن مسعود قال مسروق: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٩٦]، فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضِرَ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ».

وعن عبد الله بن عباس أنه قال: خسفت الشمس فصلى رسول الله والناس معه، ثم ذكر الحديث وفيه قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ثم تكعكت، فقال رسول الله: «إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنُقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُه لَأَكَلْتُ مِنْهُ مَا بَقِيََتِ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ مَنْظَرًا قَطُّ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ» أخرجه البخاري (١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧).

والحديث نص لا يحتمل التأويل والتحريف أن النبي رأى الجنة بعينه ورأى النار بعينه، فلا ينكر وجود الجنة والنار مع وجود هذه الأدلة الصراح الصراح إلا من أزاغ الله قلبه وأعمى بصيرته، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

الإيمان بأن الجنة والنار لا تفنيان

وأهل السنة يؤمنون بأن الجنة والنار لا تفنيان ولا يموت أهلها قال : ﴿وَلَيْتَ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. وقال: ﴿وَلَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ [الدخان: ٥٦].

وقد تقدم في الباب الأول بيان أن الجنة والنار موجودتان الآن وسوق الأدلة على ذلك وبيان أن ذلك هو مذهب أهل السنة قاطبة، ولم يخالف في ذلك إلا الشواذ من أهل البدع والريب، ويلتحق بهذا الباب الكلام على أبديتهما قال شيخ الإسلام في رسالته الرد على من قال بفناء الجنة والنار (٤١): وللناس في ذلك ثلاثة أقوال: قوم قالوا ببقائهما جميعاً، وقوم قالوا بفناء دار الجزاء وبقاء دار الإفضال والإنعام والإكرام... وأما القول بفنائهما إنما حكوه عن الجهم. اهـ

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٤٠٣): قوله: (لا تفنيان أبداً ولا تبیدان)، هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها، وقال ببقاء الجنة وقال بفناء النار جماعة من السلف والخلف، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها. وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط لا من أهل السنة، وأنكره عليه عامة أهل السنة وكفروه به وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث. اهـ

والآيات البينات والأحاديث الصحيحة على هذه المسألة كثيرات وواضحات لا يعتقد خلافها إلا أهل الضلالات قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٨]، أي غير مقطوع، وسيأتي الإجابة على الاستثناء إن شاء الله تعالى.

وقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص: ٥٤]، وقال: ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣].

وقال مؤكداً خلود أهل الجنة فيها: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦]، وهذا الاستثناء منقطع، والمراد به أنهم ماتوا في الوقت الذين لم يكونوا في الجنة.

ومن الأدلة على أبدية الجنة من السنة، ما أخرجه مسلم (٢٨٣٦) وحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ».

وفي حديث أبي سعيد: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ» متفق عليه.

قال ابن القيم في حادي الأرواح (٣٢٣): الباب السابع والستون في أبدية الجنة وأنها لا تفتنى ولا تبديد: وهذا مما يعلم بالاضطرار أن الرسول الله أخبر به، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ

وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُورٍ ﴿١٠٨﴾ [هود: ١٠٨]، أي مقطوع ولا تنافي بين هذا وبين قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٨].

وقال (ص ٣٢٨): والمقصود أن القول بفناء الجنة والنار قول مبتدع لم يقله أحد من الصحابة.

قال ابن القيم في حادي الأرواح (٣٢٩-٣٣٠): وأما أبدية النار ودوامها فقال عنها شيخ الإسلام: فيها قولان معروفان عن السلف والخلف والنزاع في ذلك معروف عن التابعين قال: وقلت هاهنا أقوال سبعة:

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبداً، بل من دخلها خلد فيها أبد الأبدين بإذن الله، وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

الثاني: أن أهلها يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم وتبقى طبيعية نارية لهم يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم، وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي والطائي...

الثالث: قول من يقول: إن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود ثم يخرجون منها ويخلفهم فيها أقوام آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبي فأكذبهم الله، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتُخَذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ أَمْ نَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣-٢٤].

الرابع: قول من يقول: يخرجون منها وتبقى ناراً على حالها ليس فيها أحد يعذب، حكاه شيخ الإسلام، والقرآن والسنة أيضاً يردان على هذا القول كما تقدم.

الخامس: قول من يقول: بل تفنى بنفسها لأنها حادثة بعد أن لم تكن وما ثبت حدوثه استحالة بقاءه وأبديته، وهذا قول جهنم بن صفوان وشيعته ولا فرق عندهم بين الجنة والنار.

السادس: قول من يقول: تفنى حياتهم وحركاتهم ويصيرون جماداً لا يتحركون ولا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل العلاف إمام المعتزلة.

السابع: قول من يقول بل يفنيها ربها، وخالقها تبارك وتعالى فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه تفنى ويزول عذابها.

قال شيخ الإسلام: وقد نقل هذا القول عن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم. اهـ

وذكر ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٤٠٦)، هذا التقسيم وقال في آخره:

الثامن: أن الله يخرج منها من يشاء كما ورد في الحديث ثم يبقها شيئاً ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه.

التاسع: أن الله تعالى يخرج منها من شاء كما ورد في السنة ويبقى فيها الكفار بقاء لا انقضاء له.

وما عدا هذين القولين الأخيرين، ظاهر البطلان وهذان القولان لأهل السنة ينظر في أدلتها. انتهى والقول الحق هو التاسع، والقول الثامن وإن كان قد قال به بعض السلف فهو قول غير صحيح، لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]، ﴿فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠]، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

قال ابن أبي العز : وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال: (لا إله إلا الله)، وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم مختص بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان.

فائدة: ما لا يدخل في الفناء ثمانية نُصِمت في هذا البيت:

ثَمَانِيَةٌ حُكْمُ الْبَقَاءِ يَعْمُهَا مِنْ الْخَلْقِ وَالْبَاقِينَ فِي حَيِّزِ الْعَدَمِ
هِيَ الْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ نَارٌ وَجَنَّةٌ وَعَجَبٌ وَأَرْوَاحٌ كَذَا اللَّوْحُ وَالْقَلَمُ

الإيمان بالقدر

قال :

وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَّةُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

و(من) هنا ليست للتبعض وإنما هي لبيان الجنس أي ويؤمن أهل السنة والجماعة وهي مثل قول الله في آخر سورة الفتح: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]، حيث قالت الرافضة (من) للتبعض (وعد الله المؤمنين من الصحابة بالجنة)، لأنهم يذهبون إلى تكفير عامة الصحابة إلا أحد عشر أو سبعة عشر صحابياً بينما أهل السنة يقولون (من) لبيان الجنس وهذه هو الصحيح في معنى الآية (أي من جنسهم) كما في قول الله : ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ف(من) لبيان عموم الجنس فالقرآن كله شفاء.

والمراد بالقدر هو تعلق علم الله بالكائنات وإرادته لها ألا قبل وجودها.

قال الله : ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمُنُّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ ٢٠ ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ٢١ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ

٢٢ ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣].

وفي حديث عمر عن مسلم (٨) في أركان الإيمان وفيه: «وَتُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». وفي حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٦٥٥): «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ»، والقدر سر الله لم يُطلع عليه نبيا مرسلًا ولا ملكًا مقربًا.

فتقدير الله للأشياء على وجهين، أحدهما: بإعطاء القدرة، والثاني: بأن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه حسبها اقتضت الحكمة؛ قاله الراغب.

قال القرطبي في المفهم (١/١٤٥): والإيمان بالقدر: هو التصديق بما تقدّم ذكره، وحاصله: هو ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، وإجماع السلف والخلف على صدق قول القائل: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. اهـ

قال النووي في شرح كتاب القدر من صحيح مسلم: سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس ومجرد العقول، فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء النفس، ولا يصل إلى ما يطمئن به القلب؛ لأن القدر سر من أسرار الله تعالى التي ضربت من دونها الأستار، واختص الله به، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم؛ لما علمه من الحكمة. وواجبنا أن نقف حيث حد لنا، ولا نتجاوزه، وقد طوى الله تعالى علم القدر على العالم، فلم يعلمه نبي مرسل، ولا ملك مقرب. وقيل: إن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة، ولا ينكشف قبل دخولها، والله أعلم.

ومراتبه أربعة: ولا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحقيقها:

الأولى: العلم:

ودليلها قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الحشر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبا: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وفي البخاري عن ابن عباس قال: سئل رسول الله عن أبناء المشركين فقال: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ».

ويتم الإيمان بهذه المرتبة بأن تعتقد وتقر بأن الله تعالى عالم بكل شيء جملة وتفصيلاً أزلاً، وأبداً سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله أو بأفعال عباده فعلمه محيط بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم الموجود والمعدوم، والممكن، والمستحيل، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وقد علم جميع خلقه قبل أن يخلقهم، فعلم أرزاقهم وآجالهم وأقوالهم، وأعمالهم وجميع حركاتهم وسكناتهم، وأهل الجنة، وأهل النار -ومرتبة العلم السابق- اتفق عليها الرسل من أولهم إلى آخرهم، واتفق عليها

جميع الصحابة ومن تبعهم من هذه الأمة، وخالفهم مجوس هذه الأمة -القدرية الغلاة-^(١).

المرتبة الثانية: الكتابة:

يدل على هذه المرتبة قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]. وقال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، وقال تعالى في ذكر محاجة موسى لفرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ (٥١) قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿طه: ٥١-٥٢﴾.

وفي حديث عبدالله بن عمرو عند مسلم (١١٧/١٣): «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»، قَالَ: «وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

وفي حديث علي : «مَا مِنْ نَفْسٍ مَنُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ، أَوْ سَعِيدَةٌ» متفق عليه.

وفي حديث عبادة بن الصامت المتقدم في باب الإيمان بالقلم: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ».

فيجب على المسلم أن يؤمن بأن الله تعالى كتب ما سبق به علمه من مقادير الخلائق إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ، وقد أجمع الصحابة، والتابعون

(١) الإيمان بالقضاء والقدر (٣) لإبراهيم الحمد (٦٢).

وجميع أهل السنة، والحديث على أن كل كائن إلى يوم القيامة، فهو مكتوب في أم الكتاب التي هي اللوح المحفوظ، والذكر والإمام المبين والكتاب المبين^(١).

المرتبة الثالثة: المشيئة:

يدل على هذه المرتبة قول الله : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَاءَ إِيَّايَ فَاعِلُ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

وقوله : ﴿مَنْ يَشَاءِ اللَّهُ يُضِلِّهِ وَمَنْ يَشَاءِ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

وفي حديث عبد الله بن عمر عند مسلم (٢٦٥٥): «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ». وفي صحيح مسلم : «فَإِنَّ اللَّهَ صَانِعٌ مَا شَاءَ لَا مُكْرَهَ لَهُ».

وهذه المرتبة هي المعبر عنها بقول الناس: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وتكون بالإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون ولا هداية ولا إضلال إلا بمشيئته وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة التي فطر الله الناس عليها خلقه وأدلة العقل والبيان.

(١) الإيمان بالقضاء والقدر (٦٣).

ومما ينسب إلى الإمام الشافعي:

مَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ

ومشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة يجتمعان فيما كان وما سيكون، ويفترقان فيما لم يكن ولا هو كائن فما شاء الله كونه فهو كائن بقدرته لا محالة وما لم يشأ كونه فإنه لا يكون لعدم مشيئته لا لعدم قدرته عليه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فعدم اقتتالهم ليس لعدم قدرته ولكن لعدم مشيئته ذلك^(١).

المرتبة الرابعة: الخلق:

قال الله: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦].

وعن حذيفة قال: قال رسول الله: «إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ صَانِعٍ وَصَنَعَةٍ»، أخرجه البخاري في كتاب أفعال العباد.

وهذه المرتبة تقتضي أن جميع الكائنات مخلوقة لله بذواتها وصفاتها وحركاتها وبأن كل ما سوى الله مخلوق مُوجد من العدم كائن بعد أن لم يكن، وهذه المرتبة دلت عليها الكتب السماوية، وأجمع عليها الرسل عليهم الصلاة والسلام، واتفقت عليها الفطر القويمة، والعقول السليمة.

وقد جُمِعَتْ هذه المراتب الأربع في قول الناظم:

(١) الإيمان بالقضاء والقدر (٦٥).

عَلِمَ كِتَابَةَ مَوْلَانَا مَشِيئَتُهُ وَخَلْقَهُ وَهُوَ إِجَادٌ وَتَكْوِينٌ
فلا يتم إيمان عبد بالقضاء والقدر حتى يؤمن بهذه المراتب الأربع.

أنواع التقدير:

الأول: التقدير العام الشامل: وهو شامل لجميع الكائنات وهو المكتوب في اللوح المحفوظ وقد تقدم دليله.

الثاني: التقدير المفصل للتقدير العام، وينقسم إلى أنواع:

النوع الأول: التقدير البشري، وهو المذكور في قوله الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

النوع الثاني: التقدير العمري؛ كما في حديث عَبْدِ اللَّهِ قَالَ حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ عُلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعٍ: بِرِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، فَوَاللَّهِ إِنْ أَحَدَكُمْ أَوْ الرَّجُلَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ أَوْ ذِرَاعَيْنِ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا» متفق عليه.

النوع الثالث: التقدير الحولي، وهو ما يقدر في ليلة القدر من وقائع العام؛

كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

النوع الرابع: التقدير اليومي، وهو ما يقدر من حوادث اليوم من حياة وموت وعز وذل، إلى غير ذلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

ولا بد للمسلم من الإيمان بالقدر العام وتفصيله؛ فمن جحد شيئاً منها؛ لم يكن مؤمناً بالقدر، ومن لم يؤمن بالقدر؛ فقد جحد ركناً من أركان الإيمان^(١).

الإرادة الربانية:

تنقسم إرادة الله إلى إرادة كونية، وإرادة شرعية:

١ - فالإرادة الكونية: هي المعبر عنها بمشيئة الله تعالى، وهذه الإرادة لا يخرج عنها شيء، فالكافر والمسلم تحت هذه الإرادة الكونية سواء، فالطاعات، والمعاصي كلها بمشيئة الرب وإرادته، ومن أمثلتها قوله: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ أَفْلًا مَرَدَلَهُ﴾ [الرعد: ١١].

٢ - والإرادة الشرعية: تتضمن محبة الله ورضاه، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

الفرق بين الإرادة الكونية والشرعية:

١ - الإرادة الكونية تكون فيما يحبه الله تعالى وما لا يحبه.

- الإرادة الشرعية لا تكون إلا فيما يحبه الله .

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد للفوزان (٣٠٧-٣٠٨).

- ٢- الإرادة الكونية لا بد أن تقع.
- الإرادة الشرعية قد تقع وقد لا تقع.
- ٣- الإرادة الكونية مرادفة للمشئة.
- الإرادة الشرعية مرادفة للمحبة والرضا.
- ٤- الإرادة الكونية مقصودة لغيرها كخلق إبليس، فإنه رأس الشر لكن خلقه الله لحكمة، فتحقق بسبب وجوده الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك.
- الإرادة الشرعية مقصودة لذاتها.
- ٥- الإرادة الكونية متعلقة بربوبية الله وخلقها.
- الإرادة الشرعية متعلقة بألوهية الله وشرعه.
- ٦- الإرادتان تجتمعان في حق المطيع وتفرقان في حق العاصي مثاله إيمان أبي بكر أراده الله كوناً وشرعاً، إما كونه أراده كوناً فوقوقه دليل عليه، وأما أنه أراده شرعاً، فالإيمان محبوب إلى الله ، بينما إيمان أبي جهل أراده الله شرعاً ولم يردده كوناً، ولو أراده كوناً لوقع^(١).

مذاهب الناس في الإيمان بالقدر:

والناس في هذا الباب ينقسمون إلى طرفين ووسط:

(١) انظر منهاج السنة (٣/ ١٨٠-١٨٣)، الطحاوية (١١٤)، الإيمان بالقضاء والقدر (٩٧-٩٩).

أما الوسط فهم أهل السنة والجماعة الطائفة المنصورة الفرقة الناجية أهل الحديث السلفيون.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٨/٤٤٩-٤٥٠): مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب وغيره ما دل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان: وهو أن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد، وأنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته، لا يمتنع عليه شيء شاءه؛ بل هو قادر على كل شيء ولا يشاء شيئاً إلا وهو قادر عليه، وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها وقد قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم: قدر آجالهم، وأرزاقهم، وأعمالهم، وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة، وشقاوة فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء.

وقال (٨/٤٥٢): وسلف الأمة وأئمتها متفقون أيضاً على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به، منهيون عما نهاهم الله عنه، ومتفقون على الإيمان بوعدّه ووعدّه الذي نطق به الكتاب والسنة، ومتفقون أنه لا حجة لأحد على الله في واجب تركه، ولا محرم فعله بل لله الحجة البالغة. اهـ

وأما الطرفان المخالفان في هذا الباب فهما:

الجبرية: أصل قولهم من جهنم بن صفوان، وأن فعل العبد بمنزلة طوله ولونه، وغلّو في إثبات القدر حتى أنكروا أن يكون للعبد فعل حقيقة، بل هو في

زعمهم لا حرية له، ولا فعل كالريشة في مهب الريح، وإنما تُسند إليه الأفعال مجازاً فيقال: صلى وصام، وقتل وسرق كما يقال طلعت الشمس وجرت الريح، ونزل المطر، ومؤدى قولهم إلى اتهام الله بالظلم، وتكليف العباد ما لا قدرة لهم عليه، ومجازاتهم على ما ليس من أفعالهم واتهموه بالعبث في تكليف العباد وأبطلوا الحكمة والأمر والنهي، ألا ساء ما يحكمون.

وهؤلاء في الحقيقة يزعمون أن الله هو الفاعل الحقيقي لأفعالهم بخلاف ما عليه أهل السنة الذين يقولون إن الله هو الخالق والعبد هو الفاعل، ولذا ترتب على فعله الثواب والعقاب.

ومن أسماء الجبرية القدرية المشركة؛ لأنهم شابهوا المشركين في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا﴾^(١) [الأنعام: ١٤٨].

وبلغ الجبر لدى غلاة الصوفية حتى قال بعضهم:

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلًا لِمَا يَخْتَارُهُ مِنِّي فَفَعَلِي كُلُّهُ طَاعَاتُ

وهؤلاء يرون كل ما يصدر من العبد من ظلم وكفر، وفسوق هو طاعة محضة؛ لأنها إنما تجري وفق ما قضاه الله وقدره، فهو محبوب لديه مرضي عنده، فإذا كان قد خالف أمر الشرع بارتكاب هذه المحظورات، فقد أطاع بإرادة الله ونفذ مشيئته فمن أطاع الله في قضاءه وقدره هو كمن أطاعه في أمره ونهيه كلاهما قد قام بحق العبودية لله^(٢).

(١) الإيمان بالقضاء والقدر (١٧٥).

(٢) شرح النونية للهراش (١/٣٧٢).

وعلى هذا القول فالكل مطيع، قوم نوح الذين أهلكهم الله وقوم فرعون وقوم لوط وقوم هود وقوم صالح، ولازمه أن يكون الله ظالماً لهم، تعالى الله عما افتراه الظالمون علواً كبيراً.

القدرية: وهم نفاة القدر وينقسمون إلى قسمين:

الأول: نفاة العلم: وهم الذين يقولون بأن الله لا يعلم الشيء إلا عند وقوعه، وكان أول ظهورهم في أواخر عهد الصحابة. قال يحيى بن يعمر: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصَرَةِ مَعْبُدُ الْجَهَنِّيِّ فَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَمِيرِيُّ حَاجِّينَ أَوْ مُعْتَمِرِينَ فَقُلْنَا لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ فَوَفَّقَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ فَكَتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ فَقُلْتُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ - وَأَتَتْهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَا قَدَرَ وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنْفُ. قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أَوْلِيكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَتَّهِمُ بُرَاءً مِنِّي، وَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ. الحديث في صحيح مسلم رقم (٨)، وهذه الطائفة قد كفرها العلماء، وقد حكى النووي، وكذا شيخ الإسلام انقراضهم^(١).

قال النووي : هذه الفرقة قدرية لإنكارهم القدر، قال أصحاب المقالات من المتكلمين: وقد انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل، ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه، وصارت القدرية في الأزمان المتأخرة

(١) شرح صحيح مسلم (١/١٥٣).

تعتقد إثبات القدر، ولكن يقولون: الخير من الله والشر من غيره تعالى الله عن قولهم.

وهذه القدرية تسمى: مجوس هذه الأمة.

قال النووي : وقد قال رسول الله : «الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ»، شبههم بهم لتقسيمهم الخير والشر في حكم الإرادة، كما قسمت المجوس، فصرفت الخير إلى يزدان، والشر إلى أهرمن.

قال الخطابي: إنما جعلهم مجوساً لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة، فصاروا ثنوية، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله تعالى والشر إلى غيره، والله خالق الخير والشر جميعاً لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته، فهما مضافان إليه خلقاً، وإيجاداً، وإلى الفاعلين لهما من عبادة فعلاً واكتساباً. اهـ

ومما يدل على أن الله خالق الخير والشر قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقول النبي : «إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ صَانِعٍ وَصَنَعَتِهِ».

والعجب أن هؤلاء يخرجون أفعال العباد المخلوقة المربوبة من عموم قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، ويدخلون في عموم هذه الآية القرآن الذي هو صفة الله .

وملخص القول أن سبب ضلال من ضل من هذه الفرق عدم جمعه بين الأدلة من القرآن والسنة، فعلى هذا كل دليل صحيح يستدل به الجبري فيه رد على القدرية النفاة، وكل دليل صحيح يستدل به القدري فيه رد على الجبرية، ولشيخنا الوادعي كتاب قيم بعنوان الجامع الصحيح في القدر ألفه للرد على الشيعة القدرية النفاة.

تنبيه: ينظر إلى الشر بمنظورين:

❶ **الأول الشرعي:** يجب عليك طاعة الله والابتعاد عن الشر، والله

أمرك بطاعته: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

❷ **الثاني الكوني:** تعلم أن الله خلق الشر لحكمة ولذلك قال السفاريني:

وَلَيْسَ وَاجِبٌ عَلَى الْعَبْدِ الرِّضَا بِكُلِّ مَقْضِيٍّ وَلَكِنْ بِالْقَضَا

فالزنا، والخمر، والقتل، والغيبة، والنميمة، والكفر، والبدعة، التي تحصل من العبد مقضيات ولا يجوز له أن يرضى بها، ولا يجوز له أن يرضى بالكفر والنفاق ولكن يرضى بما هو من فعل الله، وأن الله خلق هذه الأشياء لحكمة علمها ولمصالح أرادها، فالشر بالنسبة لله تعالى ليس بشر.

واعلم أنك لن تحقق الإيمان بالقدر على وجهه حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، قال النبي: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ، كَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ جَبَلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ

يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، لَدَخَلْتَ النَّارَ» من حديث أبي بن كعب وزيد بن ثابت عند أبي داود (٤٦٩٩) وابن ماجه (٧٧).

وفي حديث عمر بن الخطاب في أركان الإيمان: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»، أي أنه من الله.

وقد خاصم الكفار النبي في القدر، فعن أبي هريرة قال: جاء مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يُخَاصِمُونَ رَسُولَ اللَّهِ فِي الْقَدَرِ فَنَزَلَتْ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ [القمر: ٤٨-٤٩]، رواه مسلم (٢٦٥٦).

قال :

وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ. فَالدَّرَجَةُ الْأُولَى: الْإِيمَانُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِالْخَلْقِ، وَهُمْ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِمْ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالْأَرْزَاقِ وَالْأَجَالِ.

هذه هي المرتبة الأولى من مراتب القدر على ما تقدّم، قال النبي : «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ

فَيَسِيقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ»، من حديث ابن مسعود عند البخاري (٣٣٣٢) ومسلم (٢٦٤٣)، وقال النبي : «لَا تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَبْدٌ يَمُوتُ حَتَّى يَبْلُغَهُ آخِرُ رِزْقٍ هُوَ لَهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ مِنَ الْحَلَالِ وَتَرْكِ الْحَرَامِ»، من حديث جابر عند الحاكم (٢١٣٤).

قال :

ثُمَّ كَتَبَ اللَّهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ. فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ
قَالَ لَهُ: اكْتُبْ.

وهذه هي المرتبة الثانية من مراتب القدر، وهذا الحديث يستدل به من يرى أنّ القلم أوّل المخلوقات، والصحيح أنّ أوّل المخلوقات هو العرش العظيم وإنّما المعنى كما تقول العرب (أوّل ما دخل زيدٌ قلت له اجلس) وليس معنى ذلك إنّ أوّل الداخلين من الباب زيد لكن مبدأ دخول زيد قلنا له اجلس فالله لما خلق القلم قال: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قال :

فَمَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، جَفَّتِ
الْأَقْلَامُ.

يدلّ على ذلك عدّة أحاديث في الباب منها قوله : «وَلَوْ أَنْفَقْتَ جَبَلَ أُحُدٍ

ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ

يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، لَدَخَلْتَ النَّارَ» من حديث أبي بن كعب عند أبي داود (٤٦٩٩) وابن ماجه (٧٧).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ: أَنَّهُ رَكِبَ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ يَوْمًا،

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ : «يَا غُلَامُ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ،

احْفَظِ اللَّهَ تَحْجِثُكَ مُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلَكَ اللَّهُ، وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ،

وَأَعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ

لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ،

رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» أخرجه أحمد (٢٦٦٩).

وقال النبي : «وَكَلَّ اللَّهُ بِالرَّحِمِ مَلَكًا فَيَقُولُ أَيُّ رَبِّ نُطْفَةٍ أَيُّ رَبِّ عِلَاقَةٍ أَيُّ

رَبِّ مُضْغَةٍ فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهَا قَالَ أَيُّ رَبِّ أَذْكَرٌ أَمْ أَنْثَى أَشَقِيٌّ أَمْ

سَعِيدٌ فَمَا الرِّزْقُ فَمَا الْأَجَلُ فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ» من حديث أنس

عند البخاري (٦٥٩٥) ومسلم (٢٦٤٦).

وعن عليٍّ قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ فَأَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ

فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ ثُمَّ قَالَ :

«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ وَمَا مِنْ نَفْسٍ مِنْفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَإِلَّا قَدْ

كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ أَوْ سَعِيدَةٌ» قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدْعُ

الْعَمَلَ؟ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَمَنْ

كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، قَالَ: «أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ

فَيَسِّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيَسِّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ»
ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝٦ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۝٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ
وَأَسْتَفْتَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝٩ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۝١٠﴾ [الليل: ٥-١٠]. أخرجه البخاري
(٤٩٤٨) ومسلم (٢٦٤٧).

وهو الذي أقسم به في قوله تعالى: ﴿تَوَالَّقَ مَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

والأقلام مجموعة:

❦ **الأول: القلم العام:** وهو القلم المذكور في هذا الحديث الذي كتب
مقادير كل شيء، قال النبي: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْقَلَمُ ثُمَّ قَالَ لَهُ
اكْتُبْ قَالَ وَمَا أَكْتُبُ قَالَ فَاكْتُبْ مَا يَكُونُ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ» من
حديث عبادة بن الصامت عند أحمد (٢٢٧٠٧)، وبنحوه عند أبي داود
(٤٧٠٠)، الترمذي (٢١٥٥).

❦ **الثاني: القلم البشري:** وهو الذي أخذ على بني آدم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ
بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى
شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]، هذا تقدير بشري وهو مكتوب بالقلم البشري.

❦ **الثالث: القلم العمري:** ويُطلق عليه التقدير العمري وهو أن الله
حين يتكوّن الجنين في بطن أمّه يُرسل الملك فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقيّ
أو سعيد، وهو المذكور في حديث أنس المذكور قبل.

④ **الرابع: القلم التكليفي:** وهو المذكور في حديث عائشة عند البيهقي في الكبرى (٢٢١٢٠)، وغيره قال النبي: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَفِيْقَ وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَبْلُغَ».

⑤ **الخامس: القلم السنوي:** وهو تقدير سنوي، كما أخبر الله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [٤] أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿الدخان: ٤-٥﴾.

⑥ **السادس: القلم اليومي:** والتقدير اليومي، قال الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. وأشرف هذه الأقلام هو القلم الأول المذكور في حديث عبادة بن الصامت وجميع الأقلام هو حاكمها وكلها عائدة إليه.

قال :

وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ.

كناية على أنَّ القدر قد فُرِغَ منه ففي مسند أحمد (٦٥٦٣) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ فَقَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ؟» قَالَ: قُلْنَا: لَا، إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ الْيُمْنَى: «هَذَا كِتَابٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، بِأَسْمَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجِلَّ عَلَى آخِرِهِمْ، لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا» ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي يَسَارِهِ: «هَذَا كِتَابُ أَهْلِ النَّارِ، بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجِلَّ عَلَى آخِرِهِمْ، لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا» فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ: فَلَايَ شَيْءٍ إِذْنُ نَعْمَلُ إِنْ كَانَ هَذَا أَمْرًا قَدْ فُرِغَ مِنْهُ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «سَدُّوْا وَقَارِبُوا، فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُحْتَمُّ

لَهُ بِعَمَلٍ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ، وَإِنْ صَاحِبَ النَّارِ لِيُخْتَمَ لَهُ بِعَمَلٍ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ» ثُمَّ قَالَ: بِيَدِهِ فَقَبَضَهَا ثُمَّ قَالَ: «فَرَّغَ رَبُّكُمْ مِنْ الْعِبَادِ» ثُمَّ قَالَ بِالْيُمْنَى: فَنَبَذَ بِهَا، فَقَالَ: «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ»، وَنَبَذَ بِالْيُسْرَى، فَقَالَ: «فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ».

قال :

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

هذه الآية وما في بابها تدلّ على المرتبة الأولى وبيان أنّ الله يعلم ما في السماوات والأرض وذلك الذي يعلمه في كتاب، إنّ ذلك على الله يسير، قال : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، لكمال علمه .

قال :

وَقَالَ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وفي هذه الآية بيان من الله على أن أي شيء يقع فيه العبد فهو مكتوب في كتاب يدل على ما تضمنه حديث عبادة وما في بابه وهي دالة على المرتبة الثانية من مراتب القدر وهي الكتابة.

قال :

وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا: فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ. وَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الْجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا، فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَقَالُ لَهُ: اكْتُبْ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٍّ أَمْ سَعِيدٌ... وَنَحْوَ ذَلِكَ.

تقدم الكلام على أنواع التقدير والذي ذكر ودل عليه حديث ابن مسعود في الصحيحين وجاء من حديث أنس بن مالك وحذيفة بن أسيد ، قال النبي : «إِنَّ النُّطْفَةَ تَقَعُ فِي الرَّحِمِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ يَتَصَوَّرُ عَلَيْهَا الْمَلَكُ» - قَالَ زُهَيْرٌ: حَسِبْتُهُ قَالَ: الَّذِي يَخْلُقُهَا- «فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَذْكَرٌ أَوْ أُنْثَى فَيَجْعَلُهُ اللَّهُ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ أَسَوِيٌّ أَوْ غَيْرُ سَوِيٍّ فَيَجْعَلُهُ اللَّهُ سَوِيًّا أَوْ غَيْرُ سَوِيٍّ ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ مَا رِزْقُهُ مَا أَجَلُهُ مَا خُلُقُهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ اللَّهُ شَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا» رواه مسلم (٦٨٩٨).

قال :

فَهَذَا التَّقْدِيرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غَلَاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكَرُهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ.

أي: مرتبة العلم والذين يُنكرون هذا التقدير كفار لأنهم يُنكرون ما تظاهرت الأدلة على إثباته وما علم ضرورة بأن الله بكل شيء عليم وبكل

شيء محيط، وقد كفرهم ابن عمر عند مسلم (٨) عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدْرِ بِالْبَصَرَةِ مَعْبُدُ الْجُهَنِيِّ، فَاِنْطَلَقْتُ أَنَا وَحَمِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَمِيرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ، فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدْرِ، فَوَقَّ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنُ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ، فَاکْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قَبْلَنَا نَاسٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَفَقَّرُونَ الْعِلْمَ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَتَاهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُتْفُ، قَالَ: فَإِذَا لَقَيْتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَتَاهُمْ بُرَاءٌ مِنِّي، وَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبَلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ، ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» ، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» ، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ

الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ» ، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَنَا كُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

وكان الشافعي يقول: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن أنكروه كفروا.

قال :

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَهِيَ مَشِيئَةُ اللَّهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ: الْإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلَا سُكُونٍ؛ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، لَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ، مَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ إِلَّا اللَّهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

تضمّنت هذه الفقرة الإشارة إلى مرتبتين عظيمتين من القدر، كما تضمّنت الفقرة التي قبلها مرتبتين عظيمتين العلم والكتابة وهذه تضمّنت المشيئة والخلق.

❦ **الأولى:** المشيئة وأدلتها أكثر من أن تُحصر وأشهر من أن تُذكر وقد تقدّم شيءٌ منها ومن أشهرها ما يعلمه الناس ويسمعونه وهو قول الله : ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وقوله : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال : ﴿فَعَالٌ لِمَا

يُرِيدُ ﴿[البروج: ١٦]﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿[الأنعام: ١٢٥]﴾، وكلّ المسلمين يقولون هذه العبارة (ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن)، وكان النبي إذا أمر أنس بن مالك بأمر فلم يتحقق ذلك الأمر، قال: «لَوْ قُضِيَ لَكَانَ، وَلَوْ قُدِّرَ لَكَانَ» رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٧١٤)، وابن حبان في صحيحه (٧١٧٩). وقال النبي: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ اِرْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ ارْزُقْنِي إِنْ شِئْتَ وَلْيَعِزِّمْ مَسْأَلَتَهُ إِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لَا مُكْرَهَ لَهُ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٧٤٧٧) واللفظ له، ومسلم (٢٦٧٩). وهكذا في حديث عبدالله بن مسعود عند مسلم (١٨٧)، قال النبي فيما يرويه عن ربه: «إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»، فمشيئة الله نافذة، ولا يمكن أن يقع في هذا الكون شيء من صغار الأمور وكبارها إلا بمشيئة الله، وأن المشيئة الكونية لا تعلق لها بالمحبة بل هي في المحبوب وغير المحبوب.

﴿الطائفة: ١﴾ أن الله خالق الخلق وأعمال الخلق لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿[الصافات: ٩٦]﴾، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ﴿[الزمر: ٦٢]﴾، وقال النبي: «إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ صَانِعٍ وَصَنَعَتُهُ» من حديث حذيفة ، ومن عجيب أمر المعتزلة أنهم يزعمون أن الله لم يخلق أفعال العباد التي هي مخلوقة مربوبة ويذهبون إلى أن القرآن مخلوق، ما دليلكم على أن القرآن مخلوق؟ قالوا: قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ﴿[الزمر: ٦٢]﴾، والقرآن شيء، ولماذا أفعال العباد ليست مخلوقة؟ قالوا: هم يخلقون أفعالهم، والنبي يقول: «وَالشَّرُّ

لَيْسَ إِلَيْكَ»، فأخرجوا المخلوق من عموم (كُلِّ) وأدخلوا صفة الله في عموم (كُلِّ)، وهذا من تناقضهم.

قال :

وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

يعني مع كون القدر مفروغ منه فلا حجة في ترك العمل فقد أمر الله تعالى العباد بطاعته ونهاهم عن معصيته فالواجب على الإنسان أن يلزم الطاعة ويتعد عن المعصية وإن قُدِّرَ عليه شيء من ذلك يستغفر الله، ولذلك لما قال المشركون كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، أخبر الله أن هذا هو التكذيب وأن هذا هو الكفر، قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فردَّ الله عليهم الاحتجاج بالقدر.

قال :

وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَلَا يُحِبُّ الْفَسَادَ.

إشارة لفساد قول من يزعم أن الإرادة الكونية التي هي المشيئة مرادفة للمحبة، وبمعرفة الفوارق بين الإرادتين ينتفي الإشكال ومن الفوارق:

❦ **الأول:** أن الإرادة الكونية لا بد أن تقع والإرادة الشرعية قد تقع أو لا تقع.

❦ **الثاني:** الإرادة الكونية تكون في المحبوب وغيره والإرادة الشرعية لا تكون إلا في المحبوب.

❦ **الثالث:** الإرادة الكونية مرادفة للمشيئة، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وما أراد الله كوناً كان وما لم يرد لم يكن، بينما الإرادة الشرعية مرادفة للأمر والنهي والمحبة.

❦ **الرابع:** تجتمع الإرادة الكونية والإرادة الشرعية في حق المؤمن المطيع، وتفترق الإرادة الكونية عن الإرادة الشرعية في حق العاصي.

الرد على الجبرية والقدرية

قوله : (وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً) رد على الجبرية. (وَاللَّهُ خَلَقَ أَفْعَالَهُمْ) رد على نفاة القدر من المعتزلة يقولون إن الله لم يخلق أفعال العباد، والحق الذي لا غيره أن الله خلقها للابتلاء والاختبار، خلق شرها وهو غير راضي بها، لكن لحكمة علمها وقد تقدم أن الشر بالنسبة إلى الله تعالى ليس بشر محض، لأن الله أوجده لمصلحة.

قال :

وَالْعَبْدُ هُوَ: الْمُؤْمِنُ، وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ، وَالْمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ.
وَالْعِبَادُ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَهُمْ إِرَادَةٌ، وَاللَّهُ خَالِقُهُمْ وَقُدْرَتُهُمْ
وإِرَادَتُهُمْ.

هذا هو حال العبد مع أن الله خالق لفعله، فالخلق لله والفعل من العبد وينسب إليه وتلحقه أحكامه.

هذا ردٌّ على الجبرية لأنهم يزعمون أن العبد كالريشة في مكان تتلاطم فيه الرياح، فالعبد لديه قدرة واستطاعة وإرادة وفعل وهذا الذي يقول هذا القول، لو أخذ حجرٌ وكسر رأسه سيذهب إلى السلطان ويقول فلان كسر رأسي، إذا قال له السلطان الله الذي كسر رأسك، سيرضى أم يخالف؟ سيخالف بلا شك ولا ريب.

والقول بالجبر تضييع للحدود، ومن قولهم:

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلًا لِمَا يَخْتَارُهُ مِنِّي فَفَعَلِي كُلُّهُ طَاعَاتُ

الزنا والفجور والخمر والصلاة والصيام والذبح للقبر والذبح للصنم ودعاء غير الله فكل هذا طاعات، نقول له أيها الجبري الله لم يرضى من المشركين هذا الاعتذار، لما قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، قال لهم الله: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

قال :

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿التكوير: ٢٨-٢٩﴾.

فأثبت سبحانه للعبد مشيئة، لكنها تابعة لمشيئته، والمعتزلة يستدلون بالآية الأولى ويتركون الثانية والجبرية يستدلون بالآية الثانية ويتركون الأولى وأهل السنة يستدلون بالآيتين، ففي الآية الأولى إثبات مشيئة العبد والآية الثانية فيها إثبات مشيئة الله النافذة وأن مشيئة العبد مقيدة بمشيئة الله، ويستدل الجبرية بقول الله : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنْ كَيْفَ اللَّهُ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، وهذا الدليل فيه ردٌ عليهم من أن الله يقول لمحمد: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾، فأثبت له رمياً، قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾، أثبت فعلاً وهو رمي الحصى ثم قال: ﴿وَلَنْ كَيْفَ اللَّهُ رَمَى﴾، أي سدد، فالآية ردٌ عليهم فكل دليل يستدل به الجبري على بدعته فيه ردٌ على النفاة النفاة من المعتزلة، إذ يستدل الجبري بعموم أدلة المشيئة والإرادة الكونية والعلم والكتابة والخلق، لكنه يستدل بها على أن الله هو الفاعل.

والجبري يعطل العبد من الإرادة والاستطاعة والقوة والمشيئة، والمعتزلي يُثبتها للعبد، فأَيُّ دليل يستدل به القدري فيه ردٌ على الجبرية وسبب ضلال القدريّة والجبرية أنهم أخذوا جزءاً من الأدلة وتركوا الجزء الآخر بينما أهل السنة أخذوا بعموم أدلة القدر فسلموا من الجبر وسلموا من الاعتزال.

والسبب الثاني في ضلال المعتزلة والجبرية أنهم جعلوا الإرادة والمشيئة هي المحبة وقد تقدّم الفرق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية وعلمنا أن القدر الكوني يكون في المحبوب وغيره .

فالشبهة واحدة وهي أن المشيئة (الإرادة الكونية) هي المحبوب ثم انقسموا إلى فرقتين، فرقة قالت كل ما يقع في هذا الكون فهو محبوب لله وهم

الجبرية، وفرقة قالوا ما يقع في الكون من معاصي ومن سيئات غير مخلوق لله لأنه غير محبوب، وأهل السنة قالوا القدر الكوني الذي يقع منه المحبوب ومنه غير محبوب، فالمحبوب مراد لذاته وغير المحبوب مراد لغيره أي للمصالح التي تحقق.

قال :

وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ : مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

أي مرتبة الخلق ومرتبة المشيئة يُكذِّبُ بها القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة، وهم المعنزة لحديث عن ابن عمر عند أبي داود (٤٦٩١) وله شواهد يُحَسِّنُ بها، قال النبي : «الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ، إِنْ مَرَضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ»، وسموا مجوساً؛ لأنَّ المجوس يعتقدون أنَّ للكون خالقين، خالق النور وخالق الظلمة وخالق النور الذي يُعطي الخير وخالق الظلمة ضدَّ ذلك، حتى قال بعض الشعراء:

وَكَمْ لِظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تُحَدِّثُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

يعني كم من إنسان يقوم آخر الليل ويقول: (يارب اغفر لي، يارب انصرني، يارب ارحمني) وتأتي الإجابة ويأتي الفرج في الليل، والمجوس يعتقدون أنَّ الظلمة إله الشر فجاء القدرية النفاة وزعموا أنَّ كلَّ مخلوق يخلق فعل نفسه فجعلوا مع الله خالقين، مع أنَّ الله يقول: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال :

وَيَغْلُو فِيهَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ حَتَّى سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ،
وَيُخْرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللَّهِ وَأَحْكَامِهِ حُكْمَهَا وَمَصَالِحَهَا.

وهؤلاء هم الجبرية على ما تقدم

القول في الإيمان

قال :

وَمِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ. وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.

تحقيق هذا الأصل من المهمات وذلك لأن سبب ضلال الخوارج، والمعتزلة، والمرجئة لعدم تحقيقه، قد نقل الإمام الشافعي وغيره من الأئمة الإجماع على هذا التعريف فأهل السنة والجماعة على أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح والأركان يزيد بالطاعات وينقص بالعصيان وعبر بعض السلف إلى الاختصار بقولهم: الإيمان قول وعمل، والمراد بالقول قول القلب واللسان وقول القلب هو تصديقه وقول اللسان هو نطقه والمراد بالعمل عمل القلب وعمل الجوارح وعمل القلب هو إخلاصه وخشيته وخوفه ورجاءه وتوكله إلى غير ذلك، والدليل على ما قلنا حديث أبي هريرة عند البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له، قال النبي : «الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»، ومن المعلوم أن قول لا إله إلا الله باللسان مجرد عن الاعتقاد لا يفيد صاحبه وإنما الذي يفيد صاحبه هو الاعتقاد والنطق الموافق للاعتقاد وقوله: (وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان)، فالحياء عمل قلبي وإمطة الأذى عمل الجوارح، ولهذا نجد

أن الله قد قرن العمل الصالح بالإيمان في أكثر من خمسين موضعاً في القرآن وهذا يدل دلالة صريحة على أن الأعمال داخلية في مسمى الإيمان ومعنى ذلك أن الصلاة من الإيمان والحج من الإيمان والصدق من الإيمان وبرّ الوالدين من الإيمان والإحسان إلى الأرحام من الإيمان والإحسان إلى الجيران من الإيمان وقيام ليلة القدر إيماناً واحتساباً من الإيمان وصيام رمضان من الإيمان كما قال النبي : «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٨) ومسلم (٧٦٠). وقال النبي : «مَنْ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا وَيَفْرُغَ مِنْ دَفْنِهَا فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الْأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٤٧). وقال النبي : «تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُجْرِيهِ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِ وَإِيمَانًا بِي وَتَضَدِّيقًا بِرُسُلِي فَهُوَ عَلَى ضَامِنٍ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكِنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كَلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ لَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلَ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٦) ومسلم (١٨٧٦) واللفظ له. وقال النبي : «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ

اللهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ» من حديث أنس عند البخاري (٢١) ومسلم (٤٣).

وقال الله : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وفي آيات كثيرات وفي أحاديث كثيرات تدلّ على أن الأعمال من الإيمان.

وقد انقسم المخالفون لأهل السنة في مسمى الإيمان إلى أقسام:

❶ **أولهم:** الخوارج حيث زعموا أن فاعل الكبيرة كافر أكبر مخرج من الملة والسبب في ذلك أن الخوارج يُخالفون أهل السنة في زيادته والنقصان والأدلة على زيادة الإيمان، ونقصانه كثيرة منها قول الله : ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، فذكر الله الزيادة وقال الله : ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال تعالى : ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال : ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ يَقُولُهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، ويقول الله : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، قال الإمام البخاري

: (فإذا ترك شيئاً من الكمال فهو ناقص)، وما زال الإيذان ينزل على النبيّ والناس يعملون به فيزداد إيمانهم وخيرهم وبرّهم ومن الأحاديث الدالة على هذه المسألة حديث أبي سعيد عند مسلم (٤٩)، قال النبيّ : «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»، وفي الحديث الآخر قال النبيّ : «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِثْنًا تَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةٌ خَرْدَلٍ» من حديث ابن مسعود عند مسلم (٥٠). وفي حديث أنس في الصحيحين عند البخاري (٧٥١٠) ومسلم (١٩٣)، قال النبيّ فيما يرويه عن الله : «فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى أَذْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ». وقال النبيّ : «فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ وَيَحْرِمُ اللَّهُ صُورَهُمْ عَلَى النَّارِ فَيَأْتُونَهُمْ وَيَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقِيهِ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا» من حديث أبي سعيد عند البخاري (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣). والنبيّ يقول للنساء: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيْتُكُمْ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ فَقُلْنَ وَبِمَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ تَكْثُرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتٍ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبَّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ قُلْنَ

وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ قُلْنَا بَلَى قَالَ فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ قُلْنَا بَلَى قَالَ فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا» من حديث أبي سعيد عند البخاري (٣٠٤) ومسلم (٧٩)، ففسر نقصان الدين بأنها ترك الصلاة للمرأة حين تترك الصلاة وهي معذورة ينقص دينها بنص الحديث فكيف بالذي يرتكب المعاصي ويرتكب السيئات، والنبّي يقول كما في حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧): «لَا يَزْنِي الرَّأْيِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَنْتَهَبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارُهُمْ حِينَ يَنْتَهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ».

والأدلة المتواترة على زيادة الإيمان ونقصانه إما لفظاً وإما معناً ثم إن المرء يجده من نفسه ذل، فعَنْ حَنْظَلَةَ الْأَسَدِيِّ، قَالَ: - وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ - قَالَ: لَقِينِي أَبُوبَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالصَّبِيغَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُوبَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُوبَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالصَّبِيغَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ،

لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةَ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةَ سَاعَةً وَسَاعَةً»
ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٧٥٠). وَفِي حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:
غَدَا أَصْحَابُ النَّبِيِّ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكْنَا وَرَبُّ الْكَعْبَةِ.
فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالُوا: النِّفَاقُ، النِّفَاقُ. قَالَ: «أَلَسْتُمْ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؟» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «لَيْسَ ذَاكَ
النِّفَاقُ» أَخْرَجَهُ أَبُو يَعْلَى (٣٣٠٤).

ثم إنه من المعلوم عند الناس أنهم إذا رأوا المستقيم بلحية وثوب قصير
ويحافظ على الصلوات في وقتها ويبرّ والديه ويحسن إلى الأرحام يقولون هذا
إيمانه زائد، وإذا رأوا حالق لحية يستخدم الأغاني ويعصي الله بأنواع المعاصي
قالوا هذا إيمانه ناقص ثم إننا نجد أن الإنسان كلما ازداد علمه وعمله وجد
ذلك، في سبعة أوجه ذكرها شيخ الإسلام في كتابه الإيمان الأوسط .

ومن ذهب إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص المرجئة والخوارج فزعموا أن
الإيمان لا يزيد ولا ينقص وأن زيادة الإيمان ونقصانه كفر ويستدلون بحديث
رواه مكحول عن أبي هريرة : «الْإِيمَانُ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ»، وهذا حديث
لا يصح.

فتلخص أن عقيدة أهل السنة أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان
وعمل بالجوارح يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وهذا التعريف هو الذي تدل
عليه أدلة الكتاب والسنة، وأقوال السلف.

قال اللالكائي في شرح أصول أهل السنة (٩٠٧/٥):

قال سهل بن المتوكل: أدركت ألف أستاذ أو أكثر كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

وقال يعقوب بن سفيان: أدركت أهل السنة والجماعة على ذلك.

وقال عبدالرزاق: سمعت سفيان الثوري وابن جريج ومالك بن أنس ومعمربن راشد وسفيان ابن عيينة يقولون: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

وقال عبدالرزاق أيضًا: لقيت اثنين وستين شيخًا منهم معمر والأوزاعي والثوري والوليد بن محمد القرشي ويزيد بن السائب وحماد بن سلمة وحماد بن زيد وسفيان بن عيينة وشعيب بن حرب ووكيعة بن الجراح ومالك بن أنس وابن أبي ليلى وإسماعيل بن عياش والوليد بن مسلم، ومن لم يسمعه كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

فمسمى الإيمان عند أهل السنة مرتكز على خمسة أمور:

- ١- قول القلب وهو تصديقه وإيقانه.
- ٢- قول اللسان وهو النطق بالشهادتين.
- ٣- عمل القلب وهو النية والإخلاص والمحبة والانقياد والتوكل وغيرها.
- ٤- عمل اللسان وهو الأذكار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكلام المعروف وقراءة القرآن... إلى غير ذلك.
- ٥- عمل الجوارح وهو العمل الذي لا يؤدي إلى بواسطتها من ركوع وسجود ومشى إلى المساجد وسفر الحج والجهاد وغير ذلك.

وهذا هو تعريف أهل الحق والهدى يدل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]، فهذه فيها عمل القلب.

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣]، وهذه جمعت بين عمل القلب واللسان والجوارح.

أما المرجئة ومن وافقهم فقد ذهبوا في تعريف الإيمان مذاهب بعيدة عن الحق.

فقال بعضهم: هو الإقرار باللسان وتصديق بالجنان، وإلى هذا ذهب الطحاوي.

ومنهم من يقول: إنه تصديق بالجنان فقط، والإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصلي، وإلى هذا ذهب الماتريدي ويروى عن أبي حنيفة.

وذهب الكرامية إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط.

وذهب الجهمية ومن وافقهم إلى أنه المعرفة بالقلب، وكل هذه الأقوال باطلة ومخالفة لطريقة الرشيد.

وأبعدها عن الحق قول الجهم، فإنه لازمه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين، فإنهم صدقوا موسى وهارون عليهما السلام ولم يؤمنوا بهما، ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

بَصَائِرَ ﴿[الإسراء: ١٠٢]. وقوله تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي كما يعرفون أبناءهم، بل إبليس يكون عند جهنم مؤمناً كاملاً بالإيمان فإنه لم يجهل ربه، بل هو عارف بربه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: ٧٩]، وقوله: ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

والكفر عند جهنم هو الجهل بالرب ولا أحداً أجهل منه بربه. اهـ^(١).

وعلى قول الكرامية: المنافقون عندهم مؤمنون كاملوا الإيمان.

وعلى قول مرجئة الفقهاء: بأن الإيمان هو إقرار باللسان واعتقاد، يكون الفسقة وقطاع الصلاة وغيرهم من أهل الإجماع كاملوا الإيمان، لأنهم قد أقروا بألسنتهم الإسلام والإيمان واعتقدوا بقلوبهم، وأن لهم هذا، ورحم الله ميمون بن مهران إذ يقول عندما رأى جارية تغني فقال: الخيبة لمن يزعم أن إيمان هذه مثل إيمان مريم بنت عمران.

وحاصل الكل يرجع إلى أن الإيمان أما أن يكون ما يقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح كما ذهب إليه جمهور السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم رحمهم الله كما تقدم أو بالقلب واللسان دون الجوارح، كما ذكر الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله، أو باللسان وحده كما تقدم ذكره عند الكرامية، أو

(١) شرح الطحاوية (٣٣٢).

بالقلب وحده وهو إما المعرفة كما قاله الجهم أو التصديق كما قاله أبو منصور الماتريدي، وفساد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر. اهـ^(١).

وكان السبب في ضلال هذه الطوائف كونهم جعلوا الإيمان حقيقة واحدة لا تتبعض، إما مجرد تصديق القلب كقول الجهمية، أو تصديق القلب واللسان كقول المرجئة...

وقالت الخوارج والمعتزلة: الطاعات كلها من الإيمان فإذا ذهب بعضها ذهب بعض الإيمان فذهب سائرهم، فحكموا أن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمان...

وجماع شبهتهم في ذلك أن الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها كالعشرة، فإنه إذا زال بعضها لم تبقى عشرة...

قالوا: فإذا كان الإيمان مركباً من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة لزم زواله بزوال بعضها، وهذا قول الخوارج والمعتزلة، قالوا: ولأنه يلزم أن يكون الرجل مؤمناً بما فيه من الإيمان كافرًا بما فيه من الكفر، فيقوم به كفر وإيمان، ثم إن هذه الشبهة هي شبهة من منع أن يكون في الرجل الواحد طاعة ومعصية؛ لأن الطاعة جزء من الإيمان والمعصية جزء من الكفر.^(٢)

(١) شرح الطحاوية (٣٣٣).

(٢) راجع مجموع الفتاوى (٥١٠-٥١٢).

ولما كان الإيمان يدخل فيه المعرفة بالقلب والقول والعمل كله كانت زيادته بزيادة الأعمال ونقصانه بنقصانها، وقد صرح بذلك مجموعة من السلف فقالوا: يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية^(١).

وفي مرتكب الكبيرة كان أهل السنة هم الوسط الخيار، قال شيخ الإسلام: ومذهب أهل السنة والجماعة: أن فساق أهل الملة ليسوا مخلصين في النار كما قالت الخوارج والمعتزلة وليسوا كاملين في الدين والإيمان والطاعة؛ بل لهم حسنات وسيئات يستحقون بهذا العقاب وبهذا الثواب^(٢).

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية: أن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرا ينقل عن الملة بالكلية، كما قالت الخوارج، إذ لو كفر كفرا ينقل عن الملة لكان مرتدا يقتل على كل حال، ولا يقبل عفو ولي القصاص، ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر! وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام.

ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام، ولا يدخل في الكفر، ولا يستحق الخلود مع الكافرين، كما قالت المعتزلة، فإن قولهم باطل أيضاً؛ إذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا كُنِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، إلى أن قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأِتْبَاعُهُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]. فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا، وجعله أخا لولي القصاص، والمراد أخوة الدين بلا ريب. وقال تعالى: ﴿وَلِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ

(١) الفتح لا بن رجب (٩/١).

(٢) المجموع (٦٧٩/٧).

الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴿٩﴾ [الحجرات: ٩]، إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ» أخرجاه في الصحيحين.

فثبت أن الظالم يكون له حسنات يستوفي المظلوم منها حقه. وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال: «أَتَذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟». قالوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» رواه مسلم.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]. فدل ذلك على أنه في حال إساءته يعمل حسنات تمحو سيئاته. وهذا مبسوط في موضعه.

ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزاني والسارق والقاذف لا يقتل، بل يقام عليه الحد، فدل على أنه ليس بمرتد^(١).

(١) شرح الطحاوية (٣٦٠-٣٦١).

ومما يطرق في هذا الباب هو العلاقة بين مسمى الإيمان والإسلام،
وللسلف في هذا الباب قولان:

الأول: وهو التفريق بين مسمى الإيمان والإسلام وهذا القول ذهب إليه
جمهور أهل السنة.

الثاني: عدم التفريق بينهما، وأن الإسلام والإيمان اسمان لمعنى واحد، وممن
قال بهذا القول البخاري، ومحمد بن نصر المروزي، وابن مندة، وابن عبد البر.

وقد استدل القائلون بالتفريق بمثل قول الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، ومن
الأدلة المشهورة في التفريق بين المسميين هو حديث جبريل.

قال شيخ الإسلام كما في الإيمان: قد فرق رسول كما في حديث جبريل
بين مسمى الإسلام، ومسمى الإيمان، ومسمى الإحسان. اهـ

ويكون في حالة الاجتماع الإسلام يطلق ويراد به الأعمال الظاهرة كما في
حديث جبريل، والإيمان يطلق ويراد به أعمال القلوب، وإذا افترقا دل كل منهما
على الأعمال الظاهرة والقلبية يدل على ذلك حديث ابن عباس عند البخاري
ومسلم وفيه: «أَمَرُكُمْ: بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ؟». قالوا الله
ورسوله أعلم. قال: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَنْ
تُعْطُوا مِنَ الْمَغَانِمِ الْخُمْسَ».

وجماع القول أنها إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا، وإلى هذا التفصيل ذهب الخطابي، وابن الصلاح، والبغوي، وشيخ الإسلام، وابن رجب، وغيرهم، وهو الذي تجتمع معه الأدلة.

القول في الاستثناء في الإيمان

الاستثناء في الإيمان كأن تقول أنا مؤمن إن شاء الله أو أن يقال لك أنت مؤمن؟ تقول أرجو ذلك، أو تُسأل أنت مؤمن؟ فتقول مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبهذا تنوّعت عبارات السلف في الاستثناء، والناس في مسألة الاستثناء انقسموا إلى ثلاثة أقسام، طرفان ووسط:

﴿الطرف الأول: الأشاعرة:﴾ حيث أوجبوا الاستثناء.

﴿الطرف الثاني: المرجئة:﴾ الذين زعموا أنّ من قال أنا مؤمن إن شاء الله كان كافراً، لأنّه شكّ في إيمانه ولهذا حرّم المرجئة زواج الحنفية من الشافعي.

﴿واوسط هم أهل السنة والجماعة:﴾ حيث ذهبوا إلى استحباب الاستثناء في الإيمان كما قال ابن مهدي : (أصل الإرجاء ترك الاستثناء)، والدليل على ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ، أمّا من كتاب الله فإنّ الله يقول: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقد علم أنّهم داخلون ومع ذلك قال: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، وبهذه الآية استدلل الإمام أحمد ومن إليه من أهل العلم على استحباب الاستثناء في الإيمان، وعن عائشة أنّها قالت كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كُلَّمَا كَانَ لَيْلَتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَخْرُجُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى الْبَيْعِ فَيَقُولُ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَأَنَا كُمْ مَا تُوعِدُونَ غَدًا مُؤَجِّلُونَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأَهْلِ بَيْعِ الْغَرَقَدِ» رواه مسلم (٩٧٤). وقد علم أنّه لاحق بهم، وجاء رجل إلى عبدالله بن مسعود ، فقال: (أنا مؤمن)، فقال

له : (قل في الجنة؟)، فأبى فقال له: (كما استثنيت في الثانية فاستثن في الأولى).

ويكون الاستثناء جائزاً إذا كان خائفاً من تزكية النفس وباعتبار ما يختتم له، أو على التبرك بذكر الله تعالى، أما إن كان الاستثناء على الشك فهذا محرم لا يجوز قطعاً، بل هو كفر.

وقد نقل أبو يعلى، وغيره إجماع السلف على جواز الاستثناء في الإيمان.

العلاقة بين مسمى الإيمان ومسمى الإسلام

ومما يطرق في هذا الباب هو العلاقة بين مسمى الإيمان والإسلام، وللسلف في هذا الباب قولان:

الأول: وهو التفريق بين مسمى الإيمان والإسلام وهذا القول ذهب إليه جمهور أهل السنة.

الثاني: عدم التفريق بينهما، وأن الإسلام والإيمان اسمان لمعنى واحد، ومن قال بهذا القول البخاري، ومحمد بن نصر المروزي، وابن مندة، وابن عبد البر. وقد استدل القائلون بالتفريق بمثل قول الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، ومن الأدلة المشهورة في التفريق بين المسميين هو حديث جبريل.

قال شيخ الإسلام كما في الإيمان: قد فرق رسول كما في حديث جبريل بين مسمى الإسلام، ومسمى الإيمان، ومسمى الإحسان. اهـ

ويكون في حالة الاجتماع الإسلام يطلق ويراد به الأعمال الظاهرة كما في حديث جبريل، والإيمان يطلق ويراد به أعمال القلوب، وإذا افترقا دل كل منهما على الأعمال الظاهرة والقلبية يدل على ذلك حديث ابن عباس في الصحيحين البخاري (٥٣) ومسلم (١٧)، أن وفد عبد قيس جاءوا إلى النبي ، فقال : «أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصِيَامُ رَمَضَانَ وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمْسَ»، ففسر الإيمان بأركان الإسلام.

وجماع القول أنها إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا، وإلى هذا التفصيل ذهب الخطابي، وابن الصلاح، والبغوي، وشيخ الإسلام، وابن رجب، وغيرهم، وهو الذي تجتمع معه الأدلة.

واستدل بعض العلماء على أن المسمى واحد بقول الله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٣٥ ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيذان الأوسط وقال تعالى في قصة قوم لوط: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٣٥ ﴿ فَأَخْرَجْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وقد ظن طائفة من الناس أن هذه الآية تقتضي أن مسمى الإيمان والإسلام واحد. وعارضوا بين الآيتين؛ وليس كذلك؛ بل هذه الآية توافق الآية الأولى لأن الله أخبر أنه أخرج من كان فيها مؤمنا وأنه لم يجد إلا أهل بيت من المسلمين. وذلك لأن امرأة لوط كانت في أهل البيت الموجودين ولم تكن من المخرجين الذين نجوا؛ بل كانت من الغابرين الباقين في العذاب وكانت في الظاهر مع زوجها على دينه وفي الباطن مع قومها على دينهم خائنة لزوجها تدل قومها على أضيافه.

القول في أصحاب رسول الله

قال :

وَمِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلَامَةُ قُلُوبِهِمْ وَالسَّيِّئَاتِ لِأَصْحَابِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ
بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا
تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]،
وَطَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ
أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ».

الحديث بهذا اللفظ جاء عن أبي هريرة عند مسلم (٢٥٤٠)، والمتفق
عليه من حديث أبي سعيد عند البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١)
ولفظه «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ
وَلَا نَصِيفَهُ».

وقد تضمنت هذه الفقرة أصل من أصول أهل السنة والجماعة وهو سلامة
قلوبهم من بغض أصحاب النبي وسلامة ألسنتهم من سبهم وتنقصهم
والخوض فيما شجر بينهم بل طريقتهم الدعاء لهم والاستغفار لهم ممثلين قول
الله : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا
الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ
رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، قالت عائشة : ابْنُ أُخْتِي أَمْرُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا
لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ فَسَبُّهُمْ. رواه مسلم (٣٠٢٢)، وفي الحديث فضل

أصحاب رسول الله على غيرهم وتحريم سبهم وتنقصهم وسيأتي مزيد بيان.

قال :

وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسَّنةُ وَالْإِجْمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ، وَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ - وَهُوَ صَلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ - وَقَاتَلَ عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلَ.

أما فضائلهم في القرآن فأكثر من أن تُحصر وأشهر من أن تذكر منها قول الله : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهِجَرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

وقال : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٤) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤-٧٥]، وقال : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهِجَرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يُبْتَغَى فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ

وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٩١﴾ [الحشر: ٨-٩]، وقال :
 ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ
 النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي
 لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا
 مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٤﴾ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ
 الْمِيعَادَ ﴿١٩٥﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُثِّي
 بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَلَّ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِ وَقَتَلُوا
 وَقَتِلُوا لِأَكْفَرَنَّهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَآدُخِلْنَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا
 مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩٥].

وقال : ﴿ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
 وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ [التوبة: ٨٨-٨٩]، وقال : ﴿ وَمَنْ
 يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمِجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ
 وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ [النساء: ١٠٠].

وقال : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ
 الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴿٤٣﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال : ﴿ هُوَ
 الَّذِي آتَاكَ بَصِيرَهُ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ
 جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزُ
 حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

وقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠]، وقال : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٤١-٤٢].

وقال : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحریم: ٨]، وقال : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

وقال : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَافِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور: ٥٥].

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٨) ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٩) ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ٨-١٠]

قال القرطبي في جامع أحكام القرآن (٣٢ / ١٨): في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة؛ لأنه جعل لمن بعدهم حظاً في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم، وأن من سبهم، أو واحداً منهم، أو اعتقد فيه شراً إنه لا حق له في الفيء، روي ذلك عن مالك وغيره.

قال مالك : من كان يبغض أحداً من أصحاب محمد ، أو كان في قلبه عليهم غل، فليس له حق في فئ المسلمين، ثم قرأ: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ

بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ [الحشر: ١٠].

ومن فضائلهم من السنة ما في البخاري (٢٨٩٧) ومسلم (٢٥٣٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ، قَالَ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، يَغْزُو فِتْنَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: فِيكُمْ مَنْ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، ثُمَّ يَغْزُو فِتْنَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ صَحَبَ رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، ثُمَّ يَغْزُو فِتْنَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ صَحَبَ مَنْ صَحَبَ رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ فَيُفْتَحُ لَهُمْ».

وفي مسلم (٢٥٣٣) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «خَيْرُ أُمَّتِي الْقُرْنُ الَّذِينَ يُلُونِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ».

وفي مسلم (٢٥٣٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «خَيْرُ أُمَّتِي الْقُرْنُ الَّذِينَ بُعِثَتْ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ» وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَذْكَرَ الثَّلَاثِ أَمْ لَا، قَالَ: «ثُمَّ يَخْلَفُ قَوْمٌ يُحِبُّونَ السَّمَانَةَ، يَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا»

وفي مسلم (٢٥٣٥) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ يُحَدِّثُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ» - قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ بَعْدَ قَرْنِهِ، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً - «ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيُحُونُونَ وَلَا يُؤْتَمُّونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُؤْفُونَ، وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ»

وفي مسلم (٢٥٣٦) عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «الْقَرْنُ الَّذِي أَنَا فِيهِ، ثُمَّ الثَّانِي، ثُمَّ الثَّلَاثُ».

وفي صحيح البخاري (٣٦٩٢) عَنِ الْمُسَوِّدِ بْنِ مَخْرَمَةَ، قَالَ: لَمَّا طَعِنَ عُمَرُ جَعَلَ يَأْلَمُ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَكَأَنَّهُ يُجْزِعُهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَيْنُ كَانَ ذَاكَ، لَقَدْ صَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتَ أَبَا بَكْرٍ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتَ صَحْبَتَهُمْ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُمْ، وَلَيْنُ فَارَقْتَهُمْ لَتَفَارَقْتَهُمْ وَهُمْ عَنْكَ رَاضُونَ، قَالَ: أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ وَرِضَاهُ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنْ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى مَنْ بِهِ عَلَيَّ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ أَبِي بَكْرٍ وَرِضَاهُ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنْ مِنْ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ مَنْ بِهِ عَلَيَّ، وَأَمَّا مَا تَرَى مِنْ جَزَعِي فَهُوَ مِنْ أَجْلِكَ وَأَجَلِ أَصْحَابِكَ، وَاللَّهُ لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَأَفْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، قَبْلَ أَنْ أَرَاهُ.

وفي البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١) واللفظ له: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ شَيْءٌ، فَسَبَّهُ خَالِدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ».

وأخرجه مسلم (٢٥٤٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ».

قال :

وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ.

لتقديم الله لهم حيث قال الله : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴿[الحشر: ٨-٩]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، فالمهاجرون أفضل من الأنصار في الجملة ومن أفراد الأنصار من هو أفضل من أفراد المهاجرين.

قال :

وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ - وَكَانُوا ثَلَاثَ مِائَةٍ وَبِضْعَةِ عَشَرَ - : «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ. فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ».

وكانت في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة وكان عدد الذين شهدوا غزوة بدر ثلاث مائة وبيضة عشر كما صحَّ في البخاري (٣٩٥٩) عن البراء بن عازب قال: كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ أَصْحَابَ بَدْرٍ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَبِضْعَةُ عَشَرَ بَعْدَ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهْرَ وَمَا جَاوَزَ مَعَهُ إِلَّا مُؤَمِّنٌ. وعنه قال: اسْتُصْغِرْتُ أَنَا وَابْنُ عُمَرَ يَوْمَ بَدْرٍ وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَوْمَ بَدْرٍ نِيْفًا عَلَى سِتِّينَ وَالْأَنْصَارُ نِيْفًا وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ. أخرجه البخاري (٣٩٥٦).

وقوله: (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ. فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ) جاء عن عدة من أصحاب رسول الله منها حديث عليّ : بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ أَنَا وَالزُّبَيْرُ

وَالْمَقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ، قَالَ: «انْطَلَقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظِعِينََّةً وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا» فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِيَ مِنْ كِتَابٍ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أَنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «يَا حَاطِبُ، مَا هَذَا؟!» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ أَمْرًا مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «لَقَدْ صَدَقَكُمْ» قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أَضْرِبَ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، قَالَ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بِدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ اِطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرِ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ!» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٠٠٧) وَمُسْلِمٌ (٢٤٩٤). وَفِي سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ (٤٦٥٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - قَالَ مُوسَى - «فَلَعَلَّ اللَّهَ» - وَقَالَ ابْنُ سِنَانٍ - «اِطَّلَعَ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ بَدْرِ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ!».

وَفِي الْبُخَارِيِّ (٣٩٩٢) عَنْ مُعَاذِ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعِ الزُّرَقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ أَهْلِ بَدْرِ قَالَ: جَاءَ جَبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ، فَقَالَ: «مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرِ فِيكُمْ؟ قَالَ: مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ» أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، قَالَ: «وَكَذَلِكَ مِنْ شَهِدَ بِدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ».

وكانت أول معركة في الإسلام ولهم السابقة ولهذا رفع الله قدرهم وتجاوز عن سيئاتهم المستقبلية وهذا فضل عظيم.

قال :

وَبِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، بَلْ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ.

كما في حديث حفصة ، أن النبي قال: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا». قَالَتْ: (بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ)، فَانْتَهَرَهَا فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فَقَالَ النَّبِيُّ : «قَدْ قَالَ اللَّهُ : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا﴾ [مريم: ٧٢]» أخرجه مسلم (٢٤٩٦). وكانوا ألف وأربعة مائة أو ألف وخمسمائة بحذف الكسر أو إضافة الكسر كما أخبر في سورة الفتح، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وهذا خبر الله الصادق ومما يدل على هذا العدد حديث جابر قال: كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعِ مِائَةٍ. رواه البخاري (٤٨٤٠)، وفي رواية مسلم (١٨٥٦) قال : كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةٍ، فَبَايَعْنَاهُ وَعُمَرُ آخِذٌ بِيَدِهِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَهِيَ سَمُرَةٌ. وَقَالَ : بَايَعْنَاهُ عَلَى أَلَا نَفَرٍّ، وَلَمْ نُبَايِعْهُ عَلَى الْمَوْتِ. وفي رواية قال : كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةٍ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ : «أَنْتُمْ الْيَوْمَ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ»، وَقَالَ جَابِرٌ لَوْ كُنْتُ أَبْصِرُ لَأَرَيْتُكُمْ مَوْضِعَ الشَّجَرَةِ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ فَقَالَ : لَوْ كُنَّا مِائَةً أَلْفٍ لَكَفَانَا كُنَّا أَلْفًا وَخَمْسِمِائَةً. رواه مسلم (١٨٥٦). ومن

حديث ابن أبي أوفى قال: كَانَ أَصْحَابُ الشَّجَرَةِ أَلْفًا وَثَلَاثِينَ وَكَانَتْ
أَسْلَمَ ثَمَنُ الْمُهَاجِرِينَ. أخرجه مسلم (١٨٥٧). ومن حديث معقل بن يسار
قال: لَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ الشَّجَرَةِ وَالنَّبِيِّ يُبَايِعُ النَّاسَ وَأَنَا رَافِعُ غُصْنًا مِنْ
أَغْصَانِهَا عَنْ رَأْسِهِ وَنَحْنُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِائَةً قَالَ لَمْ يُبَايِعْهُ عَلَى الْمَوْتِ وَلَكِنْ بَايَعْنَاهُ
عَلَى أَنْ لَا نَفَرَّ. عند مسلم (١٨٥٨).

قال :

وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، كَالْعَشْرَةِ.

سَمُّوا بالعشرة لأنَّ النبيَّ ذكرهم في حديث واحد، فقال : «أَبُوبَكْرٍ
فِي الْجَنَّةِ وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ وَالزُّبَيْرُ فِي
الْجَنَّةِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ وَسَعْدُ فِي الْجَنَّةِ وَسَعِيدُ فِي الْجَنَّةِ
وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ»، من حديث عبدالرحمن بن عوف
حديث عبدالرحمن بن عوف الترمذي (٣٧٤٧) و(٣٧٤٨)، وابن ماجه
(١٣٣) عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، بمجموع الطريقين
حسن.

قال :

وَتَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ .

ويدل على ذلك ما أخرجه مسلم (١١٩) عن أنس بن مالك أَنَّهُ قَالَ:
لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا
تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا

تَشْعُرُونَ ﴿[الحجرات: ٢]، جَلَسَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ فِي بَيْتِهِ وَقَالَ: أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَاحْتَبَسَ عَنِ النَّبِيِّ ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: «يَا أَبَا عَمْرٍو، مَا شَأْنُ ثَابِتٍ؟ أَشْتَكِي؟» قَالَ سَعْدٌ: إِنَّهُ لَجَارِي وَمَا عَلِمْتُ لَهُ بِشَكْوَى. قَالَ: فَأَتَاهُ سَعْدٌ فَذَكَرَ لَهُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ، فَقَالَ ثَابِتٌ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَرْفَعِكُمْ صَوْتًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، فَأَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ سَعْدٌ لِلنَّبِيِّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

قال :

وغيرهم من الصحابة .

مثل بلال ، فعن أبي هريرة ، عند مسلم (٢٤٥٨)، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ لِبَلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ: «يَا بَلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ عِنْدَكَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْفَعَةً فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّيْلَةَ خَشَفَ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ»، قَالَ بَلَالٌ: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا فِي الْإِسْلَامِ أَرْجَى عِنْدِي مَنْفَعَةً مِنْ أَنِّي لَا أَتَطَهَّرُ طَهُورًا تَامًّا فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كَتَبَ اللَّهُ لِي أَنْ أُصَلِّيَ.

ومثل الغميصاء ، فعن جابر ، عند مسلم (٢٤٥٧)، قَالَ النَّبِيُّ : «أُرِيتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ امْرَأَةً أَبِي طَلْحَةَ ثُمَّ سَمِعْتُ خَشْخَشَةَ أَمَامِي فَإِذَا بِلَالٌ».

ومثل عبدالله بن سلام ، فعند مسلم (٢٤١٣) عن سعد بن أبي وقاص قال: مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ لِحَيٍّ يَمْشِي أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ إِلَّا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ.

ومثل الحسن والحسين ، من حديث أبي سعيد عند أحمد (١٠٩٩٩)، قال النبي : «الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

ومثل خديجة ، من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٨٢٠) ومسلم (٢٤٣٢)، قال : أَتَى جَبْرِيلُ النَّبِيَّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ خَدِيجَةٌ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمَنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ.

وَبَشِّرَتْ عَائِشَةَ ، فقال عمار: إِنَّهَا زَوْجَةُ نَبِيِّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَكِنَّهَا مِمَّا ابْتُلِيتُمْ. رواه البخاري (٧١٠١).

قال :

وَيَقْرُونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا ﷺ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ. وَيُثَلَّثُونَ بَعْثَانِ، وَيُرَبِّعُونَ بَعْلِيٍّ ؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآثَارُ، وَكَمَا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ فِي الْبَيْعَةِ.

أَمَّا مَا جَاءَ عَنْ عَلِيٍّ فَقَدْ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٦٧١)، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ قُلْتُ ثُمَّ

مَنْ قَالَ ثُمَّ عُمَرُ وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ قُلْتُ ثُمَّ أَنْتَ قَالَ مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وحديث عبدالله ابن عمر في البخاري (٣٦٩٧)، قال: كُنَّا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ لَا نَعْدِلُ بِأَبِي بَكْرٍ أَحَدًا ثُمَّ عُمَرُ ثُمَّ عُثْمَانُ ثُمَّ نَتْرُكُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ لَا نُفَاضِلُ بَيْنَهُمْ.

وهذا إقرار.

وَمَا جَرَى فِي عَصْرِهِ ثُمَّ اظْلَعْ عَلَيْهِ إِنْ أَقَرَّهُ فَلْيَبْتَغِ
وعبدالرحمن بن عوف يقول: لَسْتُ بِالَّذِي أُتَفِسُّكُمْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، وَلَكِنَّكُمْ إِنْ شِئْتُمْ اخْتَرْتُمْ لَكُمْ مِنْكُمْ، فَجَعَلُوا ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَلَمَّا وَلَّوْا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَمَرَهُمْ فَمَالَ النَّاسُ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَتَّى مَا أَرَى أَحَدًا مِنَ النَّاسِ يَتَّبِعُ أَوْلِيَّكَ الرَّهْطَ وَلَا يَطَأُ عَقْبَهُ، وَمَالَ النَّاسُ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ يُشَاوِرُونَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي، حَتَّى إِذَا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي أَصْبَحْنَا مِنْهَا فَبَايَعْنَا عُثْمَانَ قَالَ الْمُسَوِّرُ: طَرَقَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَعْدَ هَجْعٍ مِنَ اللَّيْلِ فَضْرَبَ الْبَابَ حَتَّى اسْتَيْقَظْتُ، فَقَالَ: أَرَاكَ نَائِمًا، فَوَاللَّهِ مَا اكْتَحَلْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِكَبِيرِ نَوْمٍ، انْطَلِقْ فَادْعُ الزُّبَيْرَ وَسَعْدًا فَدَعَوْتُهُمَا لَهُ، فَشَاوَرَهُمَا، ثُمَّ دَعَانِي فَقَالَ: ادْعُ لِي عَلِيًّا، فَدَعَوْتُهُ، فَجَاءَهُ حَتَّى ابْهَارَ اللَّيْلِ، ثُمَّ قَامَ عَلِيٌّ مِنْ عِنْدِهِ وَهُوَ عَلَى طَمَعٍ، وَقَدْ كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَخْشَى مِنْ عَلِيٍّ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي عُثْمَانَ، فَدَعَوْتُهُ، فَجَاءَهُ حَتَّى فَرَّقَ بَيْنَهُمَا الْمُؤَذِّنُ بِالصُّبْحِ، فَلَمَّا صَلَّى لِلنَّاسِ الصُّبْحَ وَاجْتَمَعَ أَوْلِيَّكَ الرَّهْطُ عِنْدَ الْمُنْبَرِ فَأَرْسَلَ إِلَيَّ مَنْ كَانَ حَاضِرًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَأَرْسَلَ إِلَيَّ أُمَرَاءَ الْأَجْنَادِ وَكَانُوا وَافُوا تِلْكَ الْحُجَّةَ مَعَ عُمَرَ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا تَشَهَّدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، يَا عَلِيُّ إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ النَّاسِ فَلَمْ أَرَهُمْ يَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ فَلَا تَجْعَلَنَّ عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا،

فَقَالَ: أَبَايَعُكَ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْخَلِيفَتَيْنِ مِنْ بَعْدِهِ، فَبَايَعَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَبَايَعَهُ النَّاسُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ وَأُمَرَاءُ الْأَجْنَادِ وَالْمُسْلِمُونَ. رواه البخاري (٧٢٠٧).

فهذا إجماع الصحابة على أنه أفضل من علي بن أبي طالب وفضيلتهم على حسب الخلافة فترتيبهم في الخلافة هو ترتيبهم في الفضل. قال :

مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدْ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ - أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ فَقَدَّمَ قَوْمٌ عُثْمَانَ: وَسَكَتُوا، أَوْ رَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وَقَدَّمَ قَوْمٌ عَلِيًّا، وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا. لَكِنْ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ، ثُمَّ عَلِيٍّ. وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ - مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ - لَيْسَتْ مِنَ الْأُصُولِ الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ لَكِنْ الَّتِي يُضَلَّلُ فِيهَا: مَسْأَلَةُ الْخِلَافَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ. وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ.

يعني اختلفوا من حيث التفضيل لا من حيث الخلافة، فأما الخلافة فلا خلاف فيها ثم إن هذا القول لا أعلم أحداً يقول به إلى الآن، بل صارت المسألة من الأصول فمن قدّم عليّ عن عثمان فهو خطأ لأنه خالف ما استقرت عليه الأمة وخالف الأدلة، وعليّ فضائله مشهورة وفي غير كتاب مذكورة.

والكلام على فضائل أصحاب رسول الله جميل وطويل وقد يطول الكتاب بذكر فضائلهم ولو لم يكن إلا أن الله قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ مِنَ الْمُهِجَرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴿[التوبة: ١٠٠]﴾، وقال عبد الله بن مسعود: إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَتْهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وَزَرَءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا، فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ. أخرجه أحمد (٣٦٠٠) وصححه الإمام الوادعي في الصحيح المسند (٨٤٢).

والمراد بالمسلمين هنا الصحابة رضوان الله عليهم وحذر الله من مشاقتهم فقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقال الله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ [الفتح: ٢٩]، مثلهم في التوراة أنهم يُصَلُّون ويُكثِّرون من السجود ومن دعاء الله، ثم قال تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، مثلهم الله في الإنجيل كالزراع الطيب

الأخضر الذي نَمَى يعجب الزَّرَّاع، والمراد بالكفار هنا الزَّرَّاع، والواجب علينا تجاه الصحابة ثلاثة أمور:

(١) ذكر فضائلهم لأنَّ ذكر فضائلهم هو نقل للكتاب والسنة وهو دلالة على الخير وتحذير من الشر وهو من النفاق على الحق وأهله.

(٢) الكفَّ عن مساوئهم مع الاستغفار لهم لقول الله : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، قالت عائشة : (أمروا أن يستغفروا لهم فسبَّوهم).

(٣) الكفَّ عن ما شجر بينهم، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]، وقد قيل : دَعِ الصَّحَابَةَ فِيمَا جَرَى بَيْنَهُمْ فَكُلُّهُمْ فِي الْحَشْرِ مَغْفُورٌ لَهُمْ

فهم ذروة الأمة وجب أن يُذكروا بالجميل ومن ذكرهم بغير الجميل فهو على غير السبيل ويُستغفر لهم فهذا الإسلام الذي نعبده به جاءنا من قبلهم، قدَّموا أنفسهم وبذلوا من أجل تبليغ دين الله ، قال النبي : «لَقَدْ أُودِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْدِي أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتْتُ عَلَى ثَالِثَةِ وَمِائِي وَلَيْلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا مَا وَارَى ابْنُ بِلَالٍ» من حديث أنس عند ابن ماجه (١٥١). وفي حديث عبدالله بن مسعود : كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ: رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَبُوبَكْرٍ، وَعُمَارُ، وَأُمُّهُ سَمِيَّةٌ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلَالٌ، وَالْقَدَادُ. فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ فَمَنْعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُوبَكْرٍ فَمَنْعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَالْبَسُوهُمْ أَذْرَاعَ

الحديد، وصهرهم في الشمس، فما منهم من أحدٍ إلا وقد واثمهم على ما أرادوا، إلا بلالاً، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شِعبِ مكة، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ. أخرجه ابن ماجه (١٥٠)، وقد أُعلِّ بالإرسال، والصحيح أنه روي على الوجهين.

﴿٥﴾ أفضل هذه الأمة على التعيين بعد نبيها :

الأول: أبوبكر الصديق :

وهو عبدالله بن عثمان بن أبي قحافة وهو أول من أسلم من الرجال ومما يدل على سابقية أبي بكر في الإسلام ما أخرجه مسلم في صحيحه (٨٣٢) من حديث عمرو بن عبسة السلمي قال: كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَتَمُّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بَرَجْلًا بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرَّاءَ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ»، فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أُرْسَلَنِي اللَّهُ»، فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أُرْسَلْتَ، قَالَ: «أُرْسَلَنِي بِصَلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوحِدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ»، قُلْتُ لَهُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: «حُرٌّ، وَعَبْدٌ»، قَالَ: وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ، وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ، فَقُلْتُ: إِنِّي مُتَّبِعُكَ، قَالَ: «إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ، وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي».

وفي البخاري (٣٦٦٠) عن عمار قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا مَعَهُ، إِلَّا خَمْسَةُ أَعْبِدٍ، وَامْرَأَتَانِ وَأَبُو بَكْرٍ.

قال ابن حجر:

الأعبد المذكورون هم بلال وزيد بن حارثة وعامر بن فهيرة وأبوفكيهة وياسر والد عمار والمرأتان خديجة وسمية والدة عمار أو أم أيمن. اهـ

وفيه (٣٦٦) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ، إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرْفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ : «أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ» فَسَلَّمَ وَقَالَ: إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ» ثَلَاثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فَآتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ، فَسَأَلَ: أَأَنْتُمْ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لَا، فَآتَى إِلَى النَّبِيِّ فَسَلَّمَ، فَجَعَلَ وَجْهَ النَّبِيِّ يَتَمَعَّرُ، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ : «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ، وَوَأَسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي» مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُودِي بَعْدَهَا.

قال الحافظ: وفي هذا الحديث أن أبا بكر أو من أسلم من الأحرار مطلقاً ولكن مراد عمّار بذلك ممن أظهر إسلامه. اهـ

وما جاء بأن عليّ هو أوّل من أسلم ليس عليه دليل يصحّ ولو صحّ فإن عليّاً كان في ذلك الوقت لم يُكَلَّف بعد ومعلوم الفرق بين إسلام المكلف وإسلام غير المكلف وكم كانت لأبي بكر من المناصرات والمآزرات للنبيّ حتّى قال النبيّ : «إِنَّ أَمَنَ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ لَا يَبْقَيْنَ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدِّ إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ» من حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري (٤٦٦)، مسلم (٢٣٨٢).

وقال النبي : «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّي أَنَهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ» من حديث جندب عند مسلم (٥٣٢).

وفضائله في القرآن قال الله : ﴿إِلَّا نَضْرِبُوهُ فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَظُنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِأَنْتَ مِنَ الْغَارِ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا فَقَالَ مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِأَنْتَ مِنَ الْغَارِ» من حديث أبي بكر عند البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١).

ومن فضائله ما قاله النبي لعائشة : «ادْعِي لِي أَبَا بَكْرٍ وَأَخَاكِ حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّيَ مُتَمَنَّ وَيَقُولَ قَائِلٌ أَنَا أَوْلَى، وَيَأْبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ» رواه مسلم (٢٣٨٧).

وفعلًا كان ما قاله الرسول من أن الله قضى كونًا أن يكون أبو بكر هو خليفة المسلمين وهكذا المؤمنون صاروا على ذلك وهو من المبشرين بالجنة فقد اهتزَّ جبل أحد وفي رواية حراء فقال النبي : «اسْكُنْ أُحُدَ أَظُنُّهُ ضَرْبُهُ بِرِجْلِهِ فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ» من حديث أنس عند البخاري (٣٦٩٩).

وعن أبي هريرة عند مسلم (٢٤١٧)، وكان معه أبوبكر وعمر
وعثمان وعليّ وكلّهم شهداء، والنبّي كان في سفر فقال: «مَا تَرَوْنَ
النَّاسَ صَنَعُوا؟». قَالَ ثُمَّ قَالَ: «أَصْبَحَ النَّاسُ فَقَدُوا نَبِيَّهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ
رَسُولُ اللَّهِ بَعْدَكُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُخَلِّفْكُمْ، وَقَالَ النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَ
أَيْدِيكُمْ، فَإِنْ يُطِيعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ يَرْشُدُوا» من حديث قتادة عند مسلم
(٦٨١)، وفي بعض الروايات قال : «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر،
وعمر» من حديث حذيفة عند الترمذي (٣٦٦٢). وأفضلهم أبوبكر ثم
عمر ثم عثمان ثم علي وأرضاهم.

فمن فضائل الصديق الأكبر: أبوبكر ؛ ما جاء عند البخاري (٣٦٥٦)
عن ابن عباس ، قال: قال رسول الله : «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي
خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي».

وفي حديث أبي سعيد عند البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢)، أن
رسول الله جلس على المنبر؛ فقال: «عَبْدُ خَيْرِهِ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ زَهْرَةَ الدُّنْيَا
وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ؛ فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَبَكَى»، فَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِأَبَائِنَا
وَأُمَّهَاتِنَا، قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ هُوَ الْمُخَيَّرُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا بِهِ، وَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ : «إِنَّ أَمَنَ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا
خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أَخُوهُ الْإِسْلَامُ لَا تُبْقَيْنَ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةً؛
إِلَّا خَوْخَةً أَبِي بَكْرٍ».

وأخرج مسلم في صحيحه (٢٣٨٣) عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله : «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي، وَقَدْ اتَّخَذَ اللَّهُ صَاحِبَكُمْ خَلِيلًا».

وفي الصحيحين : البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤) عن عمرو بن العاص، أن رسول الله بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ؛ فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ». فَقُلْتُ: مِنْ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ: «أَبُوهَا». قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ»؛ فَعَدَّ رَجُلًا.

وأخرج مسلم (١٠٢٨) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله : «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَائِمًا؟». قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ تَبَعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟». قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَسْكِينًا؟». قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ عَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟». قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «مَا اجْتَمَعَنَ فِي أَمْرِي إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

وأخرج البخاري (٣٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨٨) عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله : «بَيْنَمَا رَاعٍ فِي غَنَمِهِ عَدَا الذُّبُّ فَأَخَذَ مِنْهَا شَاةً فَطَلَبَهَا حَتَّى اسْتَفْقَدَهَا، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ الذُّبُّ فَقَالَ لَهُ: مَنْ هَا يَوْمَ السَّبْعِ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ غَيْرِي». فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ : «فَإِنِّي أُوْمِنُ بِهِ وَأَبُوبَكْرٍ، وَعُمَرُ»، وَمَا تَمَّ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ.

وأخرج البخاري (٣٦٦٤)، ومسلم (٢٣٩١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله : «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيبٍ عَلَيْهَا دَلْوٌ فَزَعْتُ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ فَزَعَهَا دُنُوبًا أَوْ ذُنُوبَيْنِ وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ،

وَاللَّهُ يُغْفِرُ لَهُ ضَعْفَهُ ثُمَّ اسْتَحَالَتْ غَرْبًا فَأَخَذَهَا ابْنُ الْخَطَّابِ فَلَمَّ أَرَّ عَبْقَرِيًّا مِنْ النَّاسِ يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَرَ حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنِ.

وفيهما البخاري (٣٦٦٦) ومسلم عن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «مَنْ أَتَّفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا خَيْرٌ لَكَ وَلِلْجَنَّةِ أَبْوَابٌ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَلْ عَلَى مَنْ يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى مِنْهَا كُلُّهَا أَحَدٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ» يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ.

وفي البخاري (٣٦٦٧-٣٦٧٠) عن عائشة زوج النبي ، أن رسول الله مات وأبو بكر بالسُّنْحِ قَالَ إِسْمَاعِيلُ: -يَعْنِي بِالْعَالِيَةِ- فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ وَلَيَعْنَتَهُ اللَّهُ فَلْيَقْطَعَنَّ أَيْدِي رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ، فَقَبَّلَهُ قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي طُبْتُ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللَّهُ الْمَوْتَيْنِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: أَيُّهَا الْخَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ؛ فَحَمِدَ اللَّهَ أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قَالَ: فَنَشَحَ النَّاسُ يَبْكُونَ. قَالَ: وَاجْتَمَعَتِ الْأَنْصَارُ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ فَقَالُوا: مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، فَذَهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ فَأَسْكَنَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا أَنِّي قَدْ هَيَّأْتُ كَلَامًا قَدْ أَعْجَبَنِي خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْلُغَهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَتَكَلَّمَ أَبْلَغَ النَّاسِ فَقَالَ فِي كَلَامِهِ نَحْنُ الْأُمَرَاءُ، وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ؛ فَقَالَ حُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ: لَا وَاللَّهِ لَا نَفْعُ لَنَا مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَا وَلَكِنَّا الْأُمَرَاءُ، وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ دَارًا وَأَعْرَبُهُمْ أَحْسَابًا فَبَايَعُوا عُمَرَ أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ؛ فَقَالَ عُمَرُ: بَلْ نُبَايِعُكَ أَنْتَ فَأَنْتَ سَيِّدُنَا، وَخَيْرُنَا وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ فَبَايَعَهُ وَبَايَعَهُ النَّاسُ، فَقَالَ قَائِلٌ: قَتَلْتُمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، فَقَالَ عُمَرُ: قَتَلَهُ اللَّهُ.

وفي الصحيحين البخاري (٣٦٧٤) ومسلم عن أبي موسى الأشعري: أَنَّهُ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ خَرَجَ فَقُلْتُ: لَا لَزَمَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَا كُؤُنَنَّ مَعَهُ يَوْمِي هَذَا قَالَ: فَجَاءَ الْمَسْجِدَ فَسَأَلَ عَنِ النَّبِيِّ فَقَالُوا: خَرَجَ وَوَجَّهَ هَا هُنَا، فَخَرَجْتُ عَلَى إِثْرِهِ أَسْأَلُ عَنْهُ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَ أَرِيْسٍ، فَجَلَسْتُ عِنْدَ الْبَابِ وَبَابُهَا مِنْ جَرِيدٍ حَتَّى قَضَى رَسُولُ اللَّهِ حَاجَتَهُ، فَتَوَضَّأَ فَقُمْتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى بَيْتِ أَرِيْسٍ وَتَوَسَّطَ قَفِّهَا وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ وَدَلَّاهُمَا فِي الْبَيْتِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ انْصَرَفْتُ فَجَلَسْتُ عِنْدَ الْبَابِ فَقُلْتُ: لَا كُؤُنَنَّ بَوَّابَ رَسُولِ اللَّهِ الْيَوْمَ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَدَفَعَ الْبَابَ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ ثُمَّ ذَهَبْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ، فَقَالَ: «اأْذِنْ لَهُ، وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ». فَأَقْبَلْتُ: حَتَّى قُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ: ادْخُلْ وَرَسُولُ اللَّهِ

يُشْرِكُ بِالْجَنَّةِ؛ فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ فِي الْقُفِّ وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي الْبُئْرِ كَمَا صَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ، ثُمَّ رَجَعَتْ فَجَلَسْتُ، وَقَدْ تَرَكْتُ أَخِي يَتَوَضَّأُ وَيَلْحَقُنِي فَقُلْتُ: إِنْ يَرِدُ اللَّهُ بِفُلَانٍ خَيْرًا يُرِيدُ أَخَاهُ يَأْتِ بِهِ، فَإِذَا إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ الْبَابَ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ، ثُمَّ جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: هَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَسْتَأْذِنُ فَقَالَ: «ائْذَنْ لَهُ، وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»، فَجِئْتُ فَقُلْتُ: ادْخُلْ وَبَشِّرْكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ. فَدَخَلَ فَجَلَسَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْقُفِّ عَنْ يَسَارِهِ وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي الْبُئْرِ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَجَلَسْتُ فَقُلْتُ: إِنْ يَرِدُ اللَّهُ بِفُلَانٍ خَيْرًا يَأْتِ بِهِ فَجَاءَ إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ الْبَابَ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا، فَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ: فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: «ائْذَنْ لَهُ، وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ»، فَجِئْتُ فَقُلْتُ لَهُ: ادْخُلْ وَبَشِّرْكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى تُصِيبُكَ فَدَخَلَ فَوَجَدَ الْقُفَّ قَدْ مَلِئَ فَجَلَسَ وَجَاهُهُ مِنَ الشَّقِّ الْآخِرِ. قَالَ شَرِيكَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: فَأَوَّلْتُهَا قُبُورَهُمْ.

❦ خلافته بالنص أو بالإشارة:

اختلف العلماء في هذا فذهب بعضهم إلى أن خلافته بالإشارة واستدل بحديث جبير بن مطعم عند البخاري (٧٣٦٠)، ومسلم (٢٣٨٦) واللفظ له: أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا، فَأَمَرَهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ فَلَمْ أَجِدْكَ؟ - قَالَ أَبِي: كَأَنَّهَا تَعْنِي الْمَوْتَ - قَالَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْنِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ».

وزهب بعض أهل العلم إلى أن خلافته كانت بالنص الخفي وهذا هو الصحيح، وأنها بالنص الخفي، ولو كانت بالنص الجلي لما عمّد الأنصار رضوان الله عليهم إلى تنصيب سعد بن عبادة ، وقد استدّل عليهم عمر فقال: أيكم يجب أن يتقدّم أبا بكر في الصلاة وقد قدّمه رسول الله في الصلاة؟ قالوا: لا أيّنا، وقال أبو بكر : أليس الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، فأنتم المؤمنون ونحن الصادقون.

وقد تقدم حديث عائشة في شأن أبي بكر حين دخل على النبي بعد موته.

ونصر الله به الإسلام في الردّة حيث أرسل جيش أسامة وانتصر المسلمون وتبيّب كثير من الأعراب ممّن ارتدّ عن الإسلام وقالوا ما زال المسلمون أقوىاء وبعضهم رجع عن ردّته وهكذا لمّا تُوفّي رسول الله واستُخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب قال عمر لأبي بكر: كيف تُقاتل الناس وقد قال رسول الله : «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمَ مِنِّي مَالُهُ وَنَفْسُهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ»؟ فقال: والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلّاة والزكاة؛ فإنّ الزكاة حقّ المال، والله، لو منعوني عقالاً كانوا يؤدّونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه، فقال عمر: فوالله، ما هو إلا أن رأيْتُ الله قد شرّح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنّه الحقّ. أخرجه البخاري (٧٢٨٤) و(٧٢٨٥) ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة .

وعن عائشة قالت: وَكَانَتْ فَاطِمَةُ تَسْأَلُ أَبَا بَكْرٍ نَصِيحَهَا مِمَّا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ خَيْرٍ وَفَدَكَ وَصَدَقْتُهُ بِالْمَدِينَةِ فَأَبَى أَبُو بَكْرٍ عَلَيْهَا ذَلِكَ وَقَالَ لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَعْمَلُ بِهِ إِلَّا عَمِلْتُ بِهِ فَإِنِّي أَخْشَى إِنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَزِيغَ فَأَمَّا صَدَقْتُهُ بِالْمَدِينَةِ فَدَفَعَهَا عُمَرُ إِلَى عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ وَأَمَّا خَيْرٌ وَفَدَكَ فَأَمْسَكَهَا عُمَرُ وَقَالَ هُمَا صَدَقَةُ رَسُولِ اللَّهِ كَانَتْما لِحُقُوقِهِ الَّتِي تَعْرُوهُ وَتَوَائِبِهِ وَأَمْرُهُمَا إِلَى مَنْ وَلِيَ الْأَمْرَ، قَالَ: فَهُمَا عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ. عند البخاري (٣٠٩٣) ومسلم (١٧٥٩).

وقال : ارْقُبُوا مُحَمَّدًا فِي أَهْلِ بَيْتِهِ. أخرجه البخاري (٣٧١٣).
وقال : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي. أخرجه البخاري (٣٧١٢).

وكان يعمل بعض العمل في مؤنة أهله فلما وُلِّيَ الخلافة أشار عليهم المسلمون بالتفرغ لشئون المسلمين ويأخذ من مال المسلمين ما يكفيه وفعلاً، قال عمر لما استخلف بعده: (اتعبت من بعدك)؛ لأنه أرسل ببعض الغلمان الذين كانوا يخدمون في بيت المال ومع ذلك يبغضه الرافضة جداً ويسبونه ويلعنونه، قاتلهم الله، حتى قال الهبل لعنه الله:

الْعَنُ أَبَا بَكْرٍ الطَّاعِي وَثَانِيَهُ وَالثَّالِثَ الرَّجَسَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ
يَا رَبِّ فَالْعَنُهُمُ وَالْعَنُ مُحِبِّيَهُمْ وَلَا تُقِمْ لَهُمْ فِي الْحَشْرِ مِيزَانًا
ثَلَاثَةً لَهُمْ فِي النَّارِ مَنَزِلَةٌ مِنْ تَحْتِ مَنَزَلِ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ

لعنه الله! أما علم أن محبهم رسول الله ومحبهم علي بن أبي طالب والله أيضاً أحبهم كذلك، فالشاهد أن الرافضة غلوا في بغض

صحابه رسول الله غلّوا مفرطاً وغلّوا في تعظيم عليّ غلّوا مفرطاً
فكفروا من جهتين:

- من جهة غلّوهم في بغض الصحابة .
- ومن جهة غلّوهم في عليّ .

الثاني: عمر بن الخطاب :

وهو أبو حفص أمير المؤمنين الذي قال عنه عبدالله بن مسعود : (ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر)، رواه البخاري (٣٨٦٣)، وهذا خبر من عبدالله بن مسعود الذي عايش الأيام الأولى من البعثة يُخبر أنّ الإسلام وقعت له العزّة والظهور منذ أسلم عمر وكان المسلمون إذا أسلم بعضهم تخفّى بإسلامه فلمّا أسلم عمر قال: (أي بُنيّ، أيّ الناس أكثر نقلاً للحديث)، قالوا: (أبوجميل أو أبوجميلة) فذهب إليه فقال: (أما علمت أنّي أسلمت؟)، فما انتظر حتى ثانية إلّا ويمشي مباشرة: (صبأ عمر، صبأ عمر) فاجتمع عليه المشركون فجالدهم بالسيف حتى انتصف النهار فقال عبدالله بن عمر : (وأنا أنظر من على البيت)، فقال: (فبينما هم كذلك إذ جاء رجل مقبلاً (وهو العاص بن وائل كافر من سادات قريش)، فقال: (ما شأنكم؟)، قالوا: (صبأ عمر)، فقال: (وإن صبأ)، يعني حتّى لو صبأ ماذا فيه؟ قال: (فانفرجوا عنه ولم يبق حوله أحد)، ثمّ أعزّ الله به الإسلام. وأصل القصة في البخاري (٣٨٦٥).

وفي سيرة ابن إسحاق قصّة لكنّها من طريق رجل لم يُوثّق أنّ عمر مرّ على أمّ عبدالله وهي تريد الحبشة فقال: أين يا أمّ عبدالله؟ فقالت له: آذيتمونا في ديننا فنذهب إلى أرض الله حيث لا نؤذى في عبادة الله فقال: صحبكم الله قالت: فذهب ثم جاء زوجي عامر بن ربيعة فأخبرته بما رأيت من رقة عمر فقال: أترجين يسلم؟ فقلت: نعم فقال: (والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب). الحديث حسنه بعضهم. فكان شديداً على المسلمين قبل إسلامه حتى خرج يريد بعض الموالي لضربه والتضييق عليه فقال بعضهم (اذهب إلى ختنك) يعني

اذهب إلى زوج اختك وإذا بأخته قد أسلمت فالشاهد أن الله من على المسلمين بإسلام عمر . وقد كان النبي يدعو الله أن يعز الإسلام بعمر والحديث بمجموعه يصح، وأما حديث: «اللهم أعز الإسلام بأحب العمرين إليك» فلا يثبت وهما عمرو بن هشام أبوجهل وعمر بن الخطاب، وأما حديث: «أعز الإسلام بعمر» له طرق ولما أسلم كان قويا في إسلامه حتى قال ابنه عبدالله : (إني لا أحسب القرآن ينزل على لسان عمر)، وحتى قال : **وَأَفَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فَتَزَلَّتْ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].** **وَأَيُّهُ الْحِجَابُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَمَرْتَ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ؛ فَإِنَّهُ يَكَلِّمُهُنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَتَزَلَّتْ أَيْهُ الْحِجَابُ. وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ فَقُلْتُ هُنَّ: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ [التحریم: ٥]، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ. أخرج** البخاري (٤٠٢) ومسلم (٢٣٩٩) عن ابن عمر ، وهذا ليس على سبيل الحصر فقد صح أنه وافق القرآن في غير ذلك فلما أراد الرسول أن يصلي على ابن أبي فقال: (كيف تصلي عليه وقد نُهِيت عن ذلك)، قال : «إنما خيرني ربي» رواه البخاري (٤٦٧٠) و (٤٧٦٢) ومسلم (٢٤٠٠) و (٢٧٧٤)، **فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤].**

وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن عمر وافق القرآن في أربعة عشر موضعاً وهذه بركة عظيمة لهذا الرجل العظيم أن يتكلم بالكلام ثم يأتي وحي الله مؤيداً لهذا، هذا يدل على إيمان وعلم وتقوى وخير عظيم وتوفيق وتسديد من الله مؤداه إلى ما تضمنه حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٥٠٢)

قال الرسول : «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»، أي يوفق الله جوارحه إلى خير عظيم، حتى قال النبي في شأنه: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقَيْكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ» رواه البخاري (٣٢٩٤) و(٣٦٨٣) و(٦٠٨٥) ومسلم (٢٣٩٦)، وقال النبي : «إِنِّي لَأَحْسِبُ الشَّيْطَانَ يَفْرُقُ مِنْكَ يَا عُمَرُ» من حديث بريدة عند ابن أبي شيبة (٣١٩٩٥) وأحمد (٢٢٩٩٠)، أي يخاف.

وفضائله كثيرة وهذه إشارة إلى بعضها، ومنها: رؤيا رسول الله الحق التي قال فيها: «أُتِيتُ وَأَنَا نَائِمٌ بِقَدَحٍ مِنْ لَبَنٍ، فَشَرِبْتُ مِنْهُ حَتَّى جَعَلَ اللَّبَنُ يَخْرُجُ مِنْ أَظْفَارِي، ثُمَّ نَاوَلْتُ فَضْلِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا أَوَّلَتْهُ؟ قَالَ: «الْعِلْمُ» أخرجه البخاري (٣٦٨١) ومسلم (٢٣٩١) من حديث عمر .

وفي الحديث الآخر قال الرسول : «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ عُرِضُوا عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمْصٌ فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثَّدي وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ دُونَ ذَلِكَ وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ اجْتَرَّهُ» قَالُوا: فَمَا أَوَّلَتْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الدِّينُ» من حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري (٣٦٩١).

وقال : «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِقَصْرِ مِنْ ذَهَبٍ فَقُلْتُ لِمَنْ هَذَا فَقَالُوا لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَمَا مَنَعَنِي أَنْ أَدْخُلَهُ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِلَّا مَا أَعْلَمُ مِنْ غَيْرَتِكَ»

قَالَ: وَعَلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! من حديث جابر بن عبد الله عند البخاري (٧٠٢٤) ومسلم (٢٣٩٤).

وعليّ لما مات عمر جاء إليه وقال: مَا خَلَفْتَ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ وَإِنَّمِ اللَّهُ إِنْ كُنْتُ لَا ظُنُّنْ أَنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ وَحَسِبْتُ إِنِّي كُنْتُ كَثِيرًا أَسْمَعُ النَّبِيَّ يَقُولُ ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ. من حديث ابن عباس عند البخاري (٣٦٨٥) ومسلم (٢٣٨٩).

وربما كان يُحدثهم بالحديث كما في حديث أبي هريرة وهو في الصحيح (٣٤٧١)، قال رسول الله : «بَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذَّبُّ فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ فَطَلَبَ حَتَّى كَانَهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ فَقَالَ لَهُ الذَّبُّ هَذَا اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبْعِ يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي فَقَالَ النَّاسُ سُبْحَانَ اللَّهِ ذُبُّ يَتَكَلَّمُ قَالَ فَإِنِّي أُوْمِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ».

وقال النبي : «بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى بَقَرَةٍ التَفَتَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا خُلِقْتُ لِلْجَرَاثَةِ قَالَ آمَنْتُ بِهِ أَنَا وَأَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٣٢٤) ومسلم (٢٣٨٨).

الثالث: عثمان بن عفان :

الذي قال لما حُصر: إِنَّهُمْ لَيَتَوَاعَدُونِي بِالْقَتْلِ! فَلِمَ يَقْتُلُونِي؟ وَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا فِي إِحْدَى ثَلَاثٍ: رَجُلٌ زَنَى وَهُوَ مُحْصَنٌ فَرْجُهُ، أَوْ رَجُلٌ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ، أَوْ رَجُلٌ ارْتَدَّ بَعْدَ إِسْلَامِهِ» فَوَاللَّهِ مَا زَنَيْتُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا فِي إِسْلَامٍ، وَلَا قَتَلْتُ نَفْسًا مُسْلِمَةً، وَلَا ارْتَدَدْتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ. أخرجه ابن ماجه (٢٥٣٣)، والنسائي (٤٠٣١).

وقال : والله ما زنيت لا في جاهلية ولا في إسلام وما تمنيت أن في ديني شيء بعد أن دخلت فيه وما قتلت نفساً.

وذكر عنه لم يشرب الخمر أو أنه حرّمها على نفسه في الجاهلية.

ومن فضائله أنه زوج ابنتي رسول الله وهذا لم يكن لأحد على مرّ الدنيا أن واحداً تزوج ابنتي نبي إلا هو، تزوج رقية وتزوج بعد مماتها أم كلثوم .

وكانوا يُغلظون عليه فَقَالَ الْوَلِيدُ: لبعض أصحاب رسول الله ما لي أراك قد جفوت أمير المؤمنين عثمان ؟ فَقَالَ: أَبْلَغُهُ عَنِّي أَنِّي لَمْ أَفِرَّ يَوْمَ عَيْنَيْنِ، قَالَ عَاصِمٌ: هُوَ يَوْمٌ أُحُدٌ، وَلَمْ أَخْلَفْ عَنْ بَدْرٍ، وَلَمْ أَتْرُكْ سُنَّةَ عُمَرَ فَاَنْطَلَقَ يُخْبِرُ ذَاكَ عُثْمَانَ ، فَقَالَ عُثْمَانُ : أَمَّا قَوْلُهُ يَوْمَ عَيْنَيْنِ فَكَيْفَ يُعَيِّرُنِي بِذَنْبٍ قَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ اللَّهُ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَفَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنِّي تَخَلَّفْتُ يَوْمَ بَدْرٍ، كُنْتُ أَمْرَضُ رُقِيَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى مَاتَتْ، وَقَدْ ضَرَبَ لِي بِسَهْمٍ، وَمَنْ ضَرَبَ لَهُ

رَسُولُ اللَّهِ بِسَهْمٍ فَقَدْ شَهِدَ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنِّي أَتْرُكُ سُنَّةَ عُمَرَ ، فَإِنِّي لَا أُطِيقُهَا أَنَا وَلَا هُوَ، فَأَتَيْتُهُ فَحَدَّثْتُهُ بِذَلِكَ. انظر تحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٧/٧١)، و المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية (٣٩١٣).

وعن عثمانٍ حَيْثُ حُوصِرَ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: أَنشُدْكُمْ اللَّهَ وَلَا أَنشُدْ إِلَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «مَنْ حَفَرَ بئرَ رُومَةٍ فَلَهُ الْجَنَّةُ»، فَحَفَرْتُهَا. أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ»، فَجَهَّزْتُهُمْ، فَصَدَّقُوهُ بِمَا قَالَ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٧٧٨).

وأخرج البخاري (٣٦٩٦) عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ الْخِيَارِ؛ أَنَّ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْأَسْوَدِ بْنَ عَبْدِ يَعْنُوثَ قَالَا: مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُكَلِّمَ عُثْمَانَ لِأَخِيهِ الْوَلِيدِ؛ فَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِيهِ، فَقَصَدْتُ لِعُثْمَانَ حَتَّى خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ، قُلْتُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً وَهِيَ نَصِيحَةٌ لَكَ، قَالَ: يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ، قَالَ مَعْمَرٌ: أَرَاهُ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ؛ فَاَنْصَرَفْتُ فَرَجَعْتُ إِلَيْهِمْ إِذْ جَاءَ رَسُولُ عُثْمَانَ فَأَتَيْتُهُ، فَقَالَ: مَا نَصِيحَتُكَ؟ فَقُلْتُ: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، وَكُنْتُ مِمَّنْ اسْتَجَابَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ؛ فَهَاجَرْتُ الْهَجْرَتَيْنِ، وَصَحِبْتُ رَسُولَ اللَّهِ وَرَأَيْتَ هَدْيَهُ وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي شَأْنِ الْوَلِيدِ، قَالَ: أَذْرَكَتَ رَسُولَ اللَّهِ؟ قُلْتُ: لَا، وَلَكِنْ خَلَصَ إِلَيَّ مِنْ عِلْمِهِ مَا يَخْلُصُ إِلَى الْعَذْرَاءِ فِي سِتْرِهَا، قَالَ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ، فَكُنْتُ مِمَّنْ اسْتَجَابَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَأَمَنْتُ بِمَا بُعِثَ بِهِ وَهَاجَرْتُ الْهَجْرَتَيْنِ كَمَا قُلْتَ، وَصَحِبْتُ رَسُولَ اللَّهِ وَبَايَعْتُهُ؛ فَوَاللَّهِ مَا عَصَيْتُهُ وَلَا غَشَشْتُهُ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ ، ثُمَّ أَبُو بَكْرٍ مِثْلُهُ،

ثُمَّ عُمَرُ مِثْلُهُ، ثُمَّ اسْتَخْلِفْتُ؛ أَفَلَيْسَ لِي مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لَهُمْ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَمَا هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي تَبْلُغُنِي عَنْكُمْ، أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ شَأْنِ الْوَلِيدِ؛ فَسَنَأْخُذُ فِيهِ بِالْحَقِّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ دَعَا عَلِيًّا؛ فَأَمَرَهُ أَنْ يَجْلِدَهُ فَجَلَدَهُ ثَمَانِينَ.

وأخرج رقم (٣٦٩٨): عن عُثْمَانَ ابْنِ مَوْهَبٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ حَجَّ الْبَيْتِ؛ فَرَأَى قَوْمًا جُلُوسًا، فَقَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ؟ فَقَالُوا: هَؤُلَاءِ قُرَيْشٌ، قَالَ: فَمَنْ الشَّيْخُ فِيهِمْ؟ قَالُوا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: يَا ابْنَ عُمَرَ إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ؛ فَحَدِّثْنِي: هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ عُثْمَانَ فَرَّ يَوْمَ أُحُدٍ؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عَنْ بَدْرٍ، وَلَمْ يَشْهَدْ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ؛ فَلَمْ يَشْهَدْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: تَعَالَى أُبَيُّ لَكَ؛ أَمَّا فِرَارُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَفَا عَنْهُ وَعَفَرَ لَهُ، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَدْرٍ؛ فَإِنَّهُ كَانَتْ تَحْتَهُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ وَكَانَتْ مَرِيضَةً، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ»، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ؛ فَلَوْ كَانَ أَحَدٌ أَعَزَّ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ عُثْمَانَ لَبَعَثَهُ مَكَانَهُ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ عُثْمَانَ، وَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ يَدُهُ الْيُمْنَى: «هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ»؛ فَضْرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ، فَقَالَ: «هَذِهِ لِعُثْمَانَ»، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: اذْهَبْ بِهَا الْآنَ مَعَكَ.

وأخرج مسلم (٢٢٠١) عن عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ أَوْ سَاقِيهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ؛ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ؛ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ وَسَوَّى ثِيَابَهُ، قَالَ مُحَمَّدٌ: وَلَا أَقُولُ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ

وَاحِدٍ، فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَتْ؛ فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ، فَلَمْ تَهْتَشْ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشْ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتُ وَسَوَّيْتُ ثِيَابَكَ، فَقَالَ: «أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ».

وفي حديث أبي موسى : أَنَّهُ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ خَرَجَ، فَقُلْتُ: لَا لَزَمَنَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَا كُؤِنَنَّ مَعَهُ يَوْمِي هَذَا، قَالَ: فَجَاءَ الْمَسْجِدَ فَسَأَلَ عَنِ النَّبِيِّ ، فَقَالُوا: خَرَجَ وَوَجَّهَ هَاهُنَا، فَخَرَجْتُ عَلَى إِثَرِهِ أَسْأَلُ عَنْهُ حَتَّى دَخَلَ بَيْتُ أَرِيسٍ، فَجَلَسْتُ عِنْدَ الْبَابِ، وَبَابُهَا مِنْ جَرِيدٍ حَتَّى قَضَى رَسُولُ اللَّهِ حَاجَتَهُ فَتَوَضَّأَ، فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى بَيْتِ أَرِيسٍ وَتَوَسَّطَ قَفِّهَا، وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ وَدَلَّاهُمَا فِي الْبَيْتِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ انْصَرَفْتُ فَجَلَسْتُ عِنْدَ الْبَابِ، فَقُلْتُ لَا كُؤِنَنَّ بَوَّابَ رَسُولِ اللَّهِ الْيَوْمَ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَدَفَعَ الْبَابَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: أَبُو بَكْرٍ، فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ ثُمَّ ذَهَبْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ؟ فَقَالَ: «اأَذْنُ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ». فَأَقْبَلْتُ حَتَّى قُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ: ادْخُلْ، وَرَسُولُ اللَّهِ يُبَشِّرُكَ بِالْجَنَّةِ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ اللَّهِ مَعَهُ فِي الْقَفِّ، وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي الْبَيْتِ كَمَا صَنَعَ النَّبِيُّ ، وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَجَلَسْتُ، وَقَدْ تَرَكْتُ أَخِي يَتَوَضَّأُ وَيَلْحَقُنِي، فَقُلْتُ: إِنْ يُرِدِ اللَّهُ بِفُلَانٍ خَيْرًا - يُرِيدُ أَخَاهُ - يَأْتِ بِهِ، فَإِذَا إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ الْبَابَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقُلْتُ عَلَى رِسْلِكَ، ثُمَّ جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: هَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَسْتَأْذِنُ؟ فَقَالَ: «اأَذْنُ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»، فَجِئْتُ فَقُلْتُ: ادْخُلْ، وَبَشِّرْكَ رَسُولُ اللَّهِ بِالْجَنَّةِ، فَدَخَلَ فَجَلَسَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ فِي الْقَفِّ عَنْ يَسَارِهِ، وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي الْبَيْتِ، ثُمَّ رَجَعْتُ

فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: إِنْ يُرِدِ اللَّهُ بِفُلَانٍ خَيْرًا يَأْتِ بِهِ، فَجَاءَ إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ الْبَابَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ، فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «أَتَذُنُّ لَهُ وَبَشْرُهُ بِالْجَنَّةِ، عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ» فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ: ادْخُلْ، وَبَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى تُصِيبُكَ، فَدَخَلَ فَوَجَدَ الْقَفَّ قَدْ مُلِيَ فَجَلَسَ وَجَاهَهُ مِنَ الشَّقِّ الْآخِرِ قَالَ شَرِيكَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: فَأَوَّلَتْهَا قُبُورُهُمْ. رواه البخاري (٣٦٧٤)، ومسلم (٢٤٠٣).

وقال رسول الله ﷺ: «سَيَصِيرُ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونُوا جُنُودًا مُجَنَّدَةً جُنْدَ بِالشَّامِ، وَجُنْدَ بِالْيَمَنِ، وَجُنْدَ بِالْعِرَاقِ»، قَالَ ابْنُ حَوَالَةَ: خَرِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتَ ذَلِكَ، فَقَالَ: «عَلَيْكَ بِالشَّامِ، فَإِنَّهَا خَيْرَةٌ لِلَّهِ مِنْ أَرْضِهِ، يَجْتَبِي إِلَيْهَا خَيْرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ، فَأَمَّا إِنْ أَبَيْتُمْ، فَعَلَيْكُمْ بِالْيَمَنِ، وَاسْقُوا مِنْ عُذْرِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَوَكَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ» من حديث أبي حوالة عند أبي داود (٢٤٨٣).

وقد قُتِلَ مَظْلُومًا بعد أن جاوز الثمانين وهو يقرأ القرآن من قبل الخوارج المارقين عليهم من الله ما يستحقون، كذبوا وبغوا وتمالثوا عليه حتى منعه أن يُصَلِّيَ بأصحابه، فَعَنَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَدِيٍّ بْنُ خِيَارٍ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَهُوَ مُحْضُورٌ فَقَالَ إِنَّكَ إِمَامٌ عَامَّةٌ وَنَزَلَ بِكَ مَا نَرَى وَيُصَلِّيَ لَنَا إِمَامٌ فَتَنَةٌ وَنَتَحَرَّجُ، فَقَالَ: الصَّلَاةُ أَحْسَنُ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ، فَإِذَا أَحْسَنَ النَّاسُ فَأَحْسَنَ مَعَهُمْ، وَإِذَا أَسَاءُوا فَاجْتَنِبْ إِسَاءَتَهُمْ. أخرجه البخاري (٦٩٥).

ومَّا يُذَكِّرُ أَنَّهُ رَأَى قَبْلَ قَتْلِهِ النَّبِيَّ مُنْتَظِرًا لَهُ، فَأَصْبَحَ صَائِمًا ،
فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فِي الصُّحْنِ وَقَتَلُوهُ وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ. وَقِيلَ إِنَّهُ سَقَطَتْ قَطْرَةٌ مِنْ
دَمِهِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وَفَعَلًا قَتَلَ اللَّهُ
الْخَوَارِجَ الَّذِينَ شَارَكُوا فِي قَتْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عِثَانَ بْنِ عَفَّانَ .

الرابع: علي :

وهو ابن عم الرسول أسلم صغيراً وجاهد وكان زوجاً لابنة رسول الله وقد استخلفه رسول الله على المدينة فقال المنافقون جعلك مع القواعد فلحق بالنبى فقال له : «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبي بعدي» من حديث سعد بن أبي وقاص عند البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤) واللفظ له.

ومن فضائله أنه قال : وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ إِلَيَّ: «أَنْ لَا يُحِبَّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضَنِي إِلَّا مُنَافِقٌ» رواه مسلم (٧٨).

ولقبه النبي بأبي تراب؛ وذلك في حديث سهل بن سعد عند البخاري (٤٤١)، ومسلم (٢٤٠٩)، قال : جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ بَيْتَ فَاطِمَةَ فَلَمْ يَجِدْ عَلَيْهَا فِي الْبَيْتِ فَقَالَ: جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ بَيْتَ فَاطِمَةَ فَلَمْ يَجِدْ عَلَيْهَا فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ: «أَيْنَ ابْنُ عَمِّكَ؟» قَالَتْ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، فَعَاَصِبَنِي، فَخَرَجَ، فَلَمْ يَقُلْ عِنْدِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لِإِنْسَانٍ: «انْظُرْ أَيْنَ هُوَ؟» فَجَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ فِي الْمَسْجِدِ رَاقِدٌ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ، قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ، وَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ يَمْسَحُهُ عَنْهُ، وَيَقُولُ: «قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ».

وكان بعد ذلك أحب الألقاب إليه وأرضاه.

ومن فضائل رابعهم وهو: علي بن أبي طالب، ما أخرجه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ يَوْمَ

خَيْرَ: «لَأُعْطِينَ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ». قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَتَيْتُمْ يُعْطَاهَا، قَالَ: فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ كُلُّهُمْ يَرْجُونَ أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟». فَقَالُوا: هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، قَالَ: «فَارْشُلُوا إِلَيْهِ»؛ فَأَتِيَ بِهِ، فَبَصَّقَ رَسُولُ اللَّهِ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ؛ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقَاتِلْهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ؛ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ».

وقال عنه رسول الله : «أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ، مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي» رواه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤).
وعن بريدة عند أحمد وغيره مرفوعاً: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيَ مَوْلَاهُ».

وهو من العشرة ففي حديث عبدالرحمن بن عوف عند الترمذي (٣٧٤٧)
قال: قال رسول الله : «أَبُوبَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدُ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعِيدُ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ».

وجاء الحديث عن سعيد بن زيد أيضاً عند الترمذي (٣٧٤٨)، والحديث حسن.

وقد مات رسول الله وهو عنهم راضٍ كما في البخاري (٣٧٠٠) عن عمر ، وذكر علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وسعيداً.

وهو أفضل أهل زمانه بعد الثلاثة الذين تقدّموا ، قال أبوبكر بن أبي

داود :

وَرَابِعُهُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ بَعْدَهُمْ عَلِيٌّ حَلِيفُ الْخَيْرِ وَالْخَيْرُ مُنْجِحٌ

فرضي الله عنهم جميعاً وفضائلهم عظيمة ومنزلهم جليلة ومع ذلك أبى الخوارج والرافضة والنواصب إلا أن يقعوا فيهم.

القول في آل البيت النبوي

قال :

وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ: «أَذْكُرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي».

محبة آل بيت النبي واجب شرعي، وطريق نبوي، والأحاديث في فضلهم كثيرة، منها ما تقدم في فضل أبي بكر ، وزد على ذلك أن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وهذا الحديث يستدل به الرافضة -عليهم لعائن الله- على ما لا دلالة لهم فيه، فيستدلون به على أن النبي نَصَّبَ عليًّا في ذلك اليوم خليفة للمسلمين، وليس فيه ذلك، ويستدلون به على أن متابعة آل البيت -وإن أحدثوا وغيروا وبدلوا- واجب لهذا الحديث.

والحديث عن يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحُصَيْنُ بْنُ سَبْرَةَ، وَعُمَرُ بْنُ مُسْلِمٍ، إِلَى زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، فَلَمَّا جَلَسْنَا إِلَيْهِ قَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: لَقَدْ لَقِيتَ يَا زَيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا، رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَسَمِعْتَ حَدِيثَهُ، وَغَزَوْتَ مَعَهُ، وَصَلَّيْتَ خَلْفَهُ لَقَدْ لَقِيتَ، يَا زَيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا، حَدَّثَنَا يَا زَيْدُ مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي وَاللَّهِ لَقَدْ كَبُرَتْ سِنِّي، وَقَدَّمَ عَهْدِي، وَنَسِيتُ بَعْضَ الَّذِي كُنْتُ أَعْيِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ، فَمَا حَدَّثْتُكُمْ فَأَقْبَلُوا، وَمَا لَا، فَلَا تُكَلِّفُونِيهِ، ثُمَّ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا، بِمَاءٍ يُدْعَى حُمَّا بَيْنَ مَكَّةَ

وَالْمَدِينَةَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَوَعظَ وَذَكَرَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ» فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي أَذْكُرُّكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرُّكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرُّكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي» فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ؟ يَا زَيْدُ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَةُ بَعْدَهُ، قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ آلُ عَلِيٍّ وَآلُ عَقِيلٍ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ عَبَّاسٍ قَالَ: كُلُّ هَؤُلَاءِ حُرِمَ الصَّدَقَةُ؟ قَالَ: نَعَمْ. رواه مسلم (٢٤٠٨).

وإن تتبعنا الطرق والشواهد لوجدت أن الأمر الثاني لم يُذكر في الحديث وهو السنة، قال: «أَلَا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ هُوَ حَبْلُ اللَّهِ مَنْ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ» من حديث زيد بن أرقم عند مسلم (٢٤٠٨).

ثم استطرد رسول الله وقال: «أَذْكُرُّكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي»، أي أدوا إليهم حقهم وأحسنوا إليهم هذا هو والإحسان يكون لمحسنهم فمن أحسن منهم باتباع النبي وبالتزام الإسلام الحق فإنه يُحبَّ حُبِّين، حبًّا لقربته وحبًّا لدينه، وإلا فالنبي الذي ذكر بال البيت هو الذي ردَّ عليهم قبل موته كما في حديث معاذ وهو يقول له: «إِنَّ أَهْلَ بَيْتِي هَؤُلَاءِ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَوْلَى النَّاسِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، إِنَّ أَوْلِيَاءِي مِنْكُمْ الْمُتَّقُونَ، مَنْ كَانُوا أَوْ حَيْثُ كَانُوا» أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤١).

والنبيّ يقول كما في حديث عمرو بن العاص رواه مسلم
(٢١٥): «أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي - يَعْنِي فَلَانًا - لَيُسُوا لِي بِأَوْلِيَاءٍ إِنَّمَا وَلِيَّيَ اللَّهُ وَصَالِحُ
الْمُؤْمِنِينَ».

فأهل بيت النبيّ الصالحون منهم يُحِبُّ حَبًّا شَرْعِيًّا وله منزلة عظيمة في
قلوب أهل السنّة والجماعة حتى أنّ أبا بكر يقول: (ارقبوا محمداً في آل
بيته)، ويقول : (لئن أصل قرابة رسول الله أحبّ إليّ من أصل
قرايتي)، وقال : «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا
مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» من حديث
واثلة بن الأسقع عند مسلم (٢٢٧٦).

القول في أزواج النبي

قال :

وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ
أَزْوَاجُهُ فِي الْآخِرَةِ: خُصُوصًا خَدِيجَةَ أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلَادِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ
أَمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ.

تسميتهم بأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ثبت بالنص، قال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَى
بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وفي مسلم (٣٤٩) عن
أبي موسى قال: اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ رَهْطٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَقَالَ
الْأَنْصَارِيُّونَ: لَا يَجِبُ الْغُسْلُ إِلَّا مِنَ الدَّفْقِ أَوْ مِنَ الْمَاءِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: بَلْ إِذَا
خَالَطَ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ، قَالَ أَبُو مُوسَى: فَأَنَا أَشْفِيكُمْ مِنْ ذَلِكَ. فَقُمْتُ
فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَأُذِنَ لِي، فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّاهُ - أَوْ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ - إِنِّي أُرِيدُ
أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ شَيْءٍ وَإِنِّي أَسْتَحْيِيكَ. فَقَالَتْ: لَا تَسْتَحْيِي أَنْ تَسْأَلَنِي عَمَّا كُنْتُ
سَائِلًا عَنْهُ أُمَّكَ الَّتِي وَلَدَتْكَ، فَإِنَّمَا أَنَا أُمُّكَ، قُلْتُ: فَمَا يُوجِبُ الْغُسْلُ؟ قَالَتْ:
عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطَتْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «إِذَا جَلَسَ بَيْنَ شُعْبَيْهِ الْأَرْبَعِ وَمَسَّ
الْخِتَانُ الْخِتَانَ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ».

وقد قال النبي في شأن خديجة كما قال أبو زرعة: سَمِعْتُ أَبَا
هُرَيْرَةَ قَالَ: أَتَى جَبْرِيلُ النَّبِيَّ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ
أَتَتْكَ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَافْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ
رَبِّهَا وَمَنِّ وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَحْبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ» عند

البخاري (٣٨٢٠)، ومسلم (٢٤٣٢). وَعَنْ إِسْمَاعِيلَ قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى : بَشَّرَ النَّبِيُّ خَدِيجَةَ ، قَالَ: نَعَمْ بَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ. أخرجه البخاري (٣٨١٩)، ومسلم (٢٤٣٣).

وعائشة ، كما قال عمار في البخاري (٧١٠٠): إِنَّ عَائِشَةَ قَدْ سَارَتْ إِلَى الْبَصْرَةِ وَوَاللَّهِ إِنَّهَا لَزَوْجَةٌ نَبِيَّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وخديجة أم أولاده إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية.

ومات النبي عن تسع يقسم لهن فمن اتهم إحداهن مما برأ الله منه عائشة فقد كفر؛ لأن الله يقول: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦]، والعجب أن الرافضة يزعمون أن زينب وأم كلثوم ورُقَيَّة لسن بنات النبي ، وإنما هن بنات خديجة ممن كان قبل النبي . وقولهم في غاية البطلان، بل أنهن بنات النبي بدلالة السنة والإجماع، ولا عبرة بمخالفة الروافض.

ومما يدل على مناصرتها له: ما أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) عن عائشة قالت: كَانَ أَوَّلَ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ - قَالَ: وَالتَّحَنُّنُ: التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدَ لَذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ بِمِثْلِهَا حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ، وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَا أَنَا بِقَارِيٍّ» ، قَالَ: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهِدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي،

فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ [العلق: ١-٥] «فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، فَرَمَلُوهُ، حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، قَالَ لِحَدِيجَةَ: «أَيُّ خَدِيجَةُ، مَا لِي لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، فَأَخْبَرَهَا الْحَبَرَ، قَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا، أَبَشِرْ فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنْصَرِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، وَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، قَالَ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى، لَيْتَنِي فِيهَا جَدْعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا، ذَكَرَ حَرْفًا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْخَرَجِي هُمْ؟» قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا أُوْذِيَ، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ حَيًّا أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوْفِّي، وَفَتَرَ الْوَحْيَ فِتْرَةً، حَتَّى حَزَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

ومما يدل على المنزلة العالية حديث عائشة قالت: مَا غَرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غَرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ وَمَا رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يَقَطُّعُهَا أَغْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا

قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةً إِلَّا خَدِيجَةٌ، فَيَقُولُ: «إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ» رواه البخاري (٣٨١٨). ولفظ مسلم (٢٤٣٥): قالت : مَا غَرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مَا غَرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، وَلَقَدْ هَلَكْتُ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي بِثَلَاثِ سِنِينَ؛ لَمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا، وَلَقَدْ أَمَرَهُ رَبُّهُ أَنْ يُسَرِّهَا بَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ ثُمَّ يُهْدِيهَا إِلَى خَلَائِلِهَا.

قال :

وَالصَّدِيقَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ ، الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ: «فَضْلٌ عَائِشَةُ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ».

والحديث عن أبي موسى عند البخاري (٣٤١١) ومسلم (٢٤٣١). وهي عائشة بنت أبي بكر وفضائلها كثيرة، وفي الحديث الآخر قال النبي : «كَمَلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ» في جامع الأصول في أحاديث الرسول (٦٦٦٩).

واختلف العلماء في أيهما أفضل خديجة أم عائشة ، فكانت عائشة أفضل في العلم وخديجة أفضل في السابقة والنصرة، وخديجة لم يتزوج عليها النبي حتى ماتت وعاضدت الرسول لما رجع يرتجف من غار حراء لما جاءه الوحي، قالت : كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُجْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ. من حديث عائشة في البخاري (٣)، ومسلم

(١٦٠). وقال النبيّ كما في حديث عليّ عند البخاري (٣٤٣٢) ومسلم (٢٤٣٠) واللفظ له: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرِيْمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ».

وفي ذكر أحاديث فضائلهنّ عند مسلم يظهر أنّه يُقدّم عائشة ؛ لآلئِه
ساق بعد هذا الحديث حديث أبي موسى عند البخاري (٣٤١١) ومسلم (٢٤٣١) قال النبيّ : «وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»، وقد برّأها الله ممّا اتهمت به، فعنها رَوَى النَّبِيُّ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا، فَبَرَّأَهَا اللَّهُ مِنْهُ، قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنْ حَدِيثِهَا، وَبَعْضُهُمْ أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ، وَأَثْبَتُ لَهُ اقْتِصَاصًا، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ الْحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْ عَائِشَةَ، وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا زَعَمُوا أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَايْتَهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا، خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ، وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَمِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ، وَقَفَلْ وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ أَذِنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ أَذْنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزَعِ أَظْفَارٍ قَدْ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ، فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرْحَلُونَ لِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَثْقُلْنَ وَلَمْ يَعْشَهُنَّ اللَّحْمُ، وَإِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلُقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثِقَلَ الْهُودَجِ، فَاحْتَمَلُوهُ

وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ، فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونَنِي، فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ، فَمِنْتُ وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعْطَلِ السُّلَمِيِّ ثُمَّ الذُّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ يَدَهَا، فَرَكِبْتُهَا، فَاَنْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُعَرَّسِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الْإِفْكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكَ، وَيَرِيبُنِي فِي وَجْعِي، أَنِّي لَا أَرَى مِنَ النَّبِيِّ اللَّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرُصُ، إِنَّمَا يَدْخُلُ فَيَسْلَمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تَيْكُمُ؟»، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قَبْلَ الْمَنَاصِعِ مُتَبَرِّزَيْنَا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُفْفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمَرْنَا أَمْرَ الْعَرَبِ الْأَوَّلِ فِي الْبَرِّيَّةِ أَوْ فِي التَّنَزُّهِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أَبِي رُحْمٍ نَمْشِي، فَعَثَرْتُ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحُ، فَقُلْتُ لَهَا: بِشَسِّ مَا قُلْتَ، أَتَسْبِيْنِ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا، فَقَالَتْ: يَا هَتَاهُ، أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا؟ فَأَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكَ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ، فَسَلَّمَ فَقَالَ: «كَيْفَ تَيْكُمُ؟» ، فَقُلْتُ: ائْذَنْ لِي إِلَى أَبِي، قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَقِينَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ، فَأَتَيْتُ أَبِي فَقُلْتُ لِأُمِّي: مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ؟ فَقَالَتْ: يَا بِنْتَهُ هُوَ نِي عَلَى نَفْسِكَ الشَّانَ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةً قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا، فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَقَدْ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَذَا، قَالَتْ:

فَبِتُّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرَقَا لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ،
فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلَبْتُ الْوَحْيَ،
يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوَدِّ
لَهُمْ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا نَعْلَمُ وَاللَّهِ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي
طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلَّ
الْجَارِيَةِ تَصَدُّقَكَ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ، فَقَالَ: «يَا بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ فِيهَا
شَيْئًا يَرِيئُكَ؟»، فَقَالَتْ بَرِيرَةُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنْ رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْرًا
أَغْمَصُهُ عَلَيْهَا قَطُّ، أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنِ الْعَجِينِ، فَتَأْتِي
الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ، فَاسْتَعَذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ابْنِ
سَلُولٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي؟ فَوَاللَّهِ
مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا
كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي»، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا
وَاللَّهُ أَعْدَرُكَ مِنْهُ إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ صَرَبْنَا عَنْقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ
الْحَزْرَجِ أَمَرْتَنَا، فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ - وَهُوَ سَيِّدُ الْحَزْرَجِ،
وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ - فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ،
لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ، وَاللَّهُ
لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ مُجَادِلٌ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، فَثَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ، وَالْحَزْرَجُ حَتَّى
هَمُّوا، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمَنْبَرِ، فَنَزَلَ، فَخَفَّضَهُمْ حَتَّى سَكَنُوا، وَسَكَتَ
وَبَكَيْتُ يَوْمِي لَا يَرَقَا لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبَوَايَ، وَقَدْ
بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا حَتَّى أَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقُ كَبِدِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ
عِنْدِي، وَأَنَا أَبْكِي، إِذِ اسْتَأْذَنَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَذْنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي

مَعِيَ، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَجَلَسَ وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مِنْ يَوْمٍ قِيلَ فِيَّ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ مَكَثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ، قَالَتْ: فَتَشْهَدُ ثُمَّ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتُ بَرِيئَةً، فَسَيَبْرُئُكَ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتُ أَلَمْتُ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ مَقَالَتهُ، قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أَحْسُ مِنْهُ قَطْرَةً، وَقُلْتُ لِأَيِّ: أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَدرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا قَالَ، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا أَدرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ، قَالَتْ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ، فَقُلْتُ: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ، وَوَقَرِي أَنْفُسُكُمْ وَصَدَقْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللَّهِ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَكِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقَنِي، وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا، إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ: ﴿فَصَبَّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَى فِرَاشِي وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي اللَّهُ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحْيًا، وَلَا أَنَا أَحَقُّرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ فِي أَمْرِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئَنِي اللَّهُ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَمَ مَجْلِسُهُ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، حَتَّى أُنْزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرْحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَابٍ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا، أَنْ قَالَ لِي: «يَا عَائِشَةُ اأَحْمَدِي اللَّهَ، فَقَدْ بَرَّأَكَ اللَّهُ»، فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ، فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ، لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحُدُ إِلَّا اللَّهَ، فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ

مِنْكُمْ ﴿النور: ١١﴾ فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ
وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحَ بْنِ أَثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ: وَاللَّهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحَ
شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ
وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا
أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي
لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحَ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ، وَكَانَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: «يَا زَيْنَبُ، مَا عَلِمْتُ
مَا رَأَيْتِ؟»، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصْرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا
إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ. رواه البخاري
(٢٦٦١) ومسلم (٢٧٧٠).

فمن اهتمها بما برّأها الله فهو كافر، والحمد لله.

قال رسول الله ﷺ: «وَأَنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ
الطَّعَامِ»، من حديث أبي موسى عند مسلم (٢٤٣١).

ففي هذا الحديث أَنَّ الصحابة يتفاضلون وهذا فيه ردٌّ على المرجئة
الذين يزعمون أَنَّ الإيمان واحد والناس في أصله سواء فلو كان كما يقولون لما
كان التفاضل بين الصحابة وهكذا التفاضل بين الأنبياء صلوات الله
وسلامه عليهم، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ
كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وهذا أحد الأوجه التي يُستدلُّ بها
على زيادة الإيمان ونقصانه.

بيان طريقة الروافض

قال :

وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ.
وَطَرِيقَةُ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

البراءة من طريقة المخالفين لدين الإسلام واجب وحتم، قال الله ﷻ : لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿[المجادلة: ٢٢]﴾، وفي قصة ابن عمر عند مسلم (٨) عن يحيى بن يعمر قال: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبُدُ الْجَاهَنِيِّ فَاَنْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُمَيْرِيُّ حَاجِّينِ أَوْ مُعْتَمِرِينَ فَقُلْنَا لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ فَوَفَّقَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ فَكَتَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكُلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ فَقُلْتُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قَبْلَنَا نَاسٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ - وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَا قَدَرَ وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنْفُ. قَالَ فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَاءٌ مِنِّي وَالَّذِي يُخْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لَأَحَدِهِمْ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ.

والرافضة كفار؛ لطعنهم في أم المؤمنين عائشة مما برأها الله ،
ولتكفيرهم لصحابة رسول الله ، ولقولهم بخلق القرآن، وغير ذلك، على ما
هو مبين في كتب الملل. ومن أحسن الكتب في الرد عليهم منهاج السنة النبوية
في نقض كلام الشيعة القدرية لشيخ الإسلام ابن تيمية، قال (١ / ٢٢):

وَمِنْ أَعْظَمِ خَبَثِ الْقُلُوبِ أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ غِلٌّ لِحِيَارِ الْمُؤْمِنِينَ،
وَسَادَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ بَعْدَ النَّبِيِّينَ، وَلِهَذَا لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْفِيءِ نَصِيبًا لِمَنْ
بَعْدَهُمْ إِلَّا الَّذِينَ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ
وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [سُورَةُ الْحُشْرِ: ١٠] .

ولهذا كان بينهم وبين اليهود وبين المشابهة في الحبث، واتباع الهوى، وغير
ذلك من أخلاق اليهود، وبينهم وبين النصاري من المشابهة في الغلو، والجهل ،
وغير ذلك من أخلاق النصاري ما أشبهوا به هؤلاء من وجه، وهؤلاء من
وجه، وما زال الناس يصنفونهم بذلك.

وَمِنْ أَخْبَرِ [النَّاسِ بِهِمْ] الشَّعْبِيُّ وَأَمْثَالُهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْكُوفَةِ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ
الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: (مَا رَأَيْتُ أَحَقَّ مِنَ الْحَشِيَّةِ لَوْ كَانُوا مِنَ الطَّيْرِ لَكَانُوا رَحْمًا،
وَلَوْ كَانُوا مِنَ الْبَهَائِمِ لَكَانُوا حُمْرًا، وَاللَّهُ لَوْ طَلَبْتُ مِنْهُمْ أَنْ يَمْلَأُوا لِي هَذَا الْبَيْتَ
ذَهَبًا عَلَى أَنْ أَكْذِبَ عَلَى عَلِيٍّ لَأَعْطُونِي، وَوَاللَّهِ مَا أَكْذِبُ عَلَيْهِ أَبَدًا)، وَقَدْ رُوِيَ
هَذَا الْكَلَامُ مَبْسُوطًا عَنْهُ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا، لَكِنَّ الْأَظْهَرَ أَنَّ الْمَبْسُوطَ مِنْ كَلَامِ غَيْرِهِ.

كَمَا رَوَى أَبُو حَفْصٍ بْنُ شَاهِينَ فِي كِتَابِ اللَّطِيفِ فِي السُّنَّةِ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ
أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ هَارُونَ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْوَاسِطِيُّ، حَدَّثَنِي جَعْفَرُ بْنُ
نُصَيْرِ الطُّوسِيِّ الْوَاسِطِيُّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَالِكِ بْنِ مَغُولٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

قَالَ لِي الشَّعْبِيُّ: (أَحَذِّرُكُمْ هَذِهِ الْأَهْوَاءَ الْمُضِلَّةَ، وَشَرَّهَا الرَّافِضَةُ لَمْ يَدْخُلُوا فِي
 الْإِسْلَامِ رَغْبَةً، وَلَا رَهْبَةً، وَلَكِنْ مَقْتًا لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَبُعْيًا عَلَيْهِمْ قَدْ حَرَقَهُمْ
 عَلِيُّ بِالنَّارِ، وَنَفَاهُمْ إِلَى الْبُلْدَانِ، مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَأٍ: يَهُودِيٌّ مِنْ يَهُودِ
 صَنْعَاءَ نَفَاهُ إِلَى سَابَاطَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَسَارٍ نَفَاهُ إِلَى خَازَرَ وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ مُحَنَّةَ
 الرَّافِضَةِ مُحَنَّةُ الْيَهُودِ، قَالَتِ الْيَهُودُ: لَا يَصْلُحُ الْمَلِكُ إِلَّا فِي آلِ دَاوُدَ، وَقَالَتِ
 الرَّافِضَةُ: لَا تَصْلُحُ الْإِمَامَةُ إِلَّا فِي وَلَدِ عَلِيٍّ، وَقَالَتِ الْيَهُودُ: لَا جِهَادَ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ حَتَّى يَخْرُجَ الْمَسِيحُ الدَّجَالُ، وَيَنْزِلَ سَيْفٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَقَالَتِ الرَّافِضَةُ: لَا
 جِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَخْرُجَ الْمَهْدِيُّ، وَيُنَادِيَ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَالْيَهُودُ
 يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ إِلَى اشْتِبَاكِ النُّجُومِ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ يُؤَخِّرُونَ الْمَغْرِبَ إِلَى
 اشْتِبَاكِ النُّجُومِ، وَالْحَدِيثُ عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَزَالُ أُمَّتِي عَلَى الْفِطْرَةِ مَا
 لَمْ يُؤَخَّرُوا الْمَغْرِبَ إِلَى اشْتِبَاكِ النُّجُومِ»، وَالْيَهُودُ تَزُولُ عَنِ الْقِبْلَةِ شَيْئًا، وَكَذَلِكَ
 الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ تَتَوَدَّدُ فِي الصَّلَاةِ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ تُسَدِّلُ أَثَوَابَهَا فِي
 الصَّلَاةِ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ لَا يَرُونَ عَلَى النِّسَاءِ عِدَّةً، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ،
 وَالْيَهُودُ حَرَفُوا التَّوْرَةَ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ حَرَفُوا الْقُرْآنَ، وَالْيَهُودُ قَالُوا: افْتَرَضَ
 اللَّهُ عَلَيْنَا خَمْسِينَ صَلَاةً، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ وَالْيَهُودُ لَا يُخْلِصُونَ السَّلَامَ عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا يَقُولُونَ: السَّامُ عَلَيْكُمْ، وَالسَّامُ الْمَوْتُ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ
 لَا يَأْكُلُونَ الْجَرِّيَّ، وَالْمَرْمَاهِيَّ، وَالذَّنَابَ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ لَا يَرُونَ
 الْمَسْحَ عَلَى الْخُفَّيْنِ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ.

وَالْيَهُودُ يَسْتَحِلُّونَ أَمْوَالَ النَّاسِ كُلِّهِمْ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا اللَّهُ
 عَنْهُمْ بِذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُمْ ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّمَةِ سَبِيلٌ﴾ [سُورَةُ آلِ

عمران: [٧٥] ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ تَسْجُدُ عَلَى قُرُونِهَا فِي الصَّلَاةِ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ لَا تَسْجُدُ حَتَّى تَخْفُقَ بِرُءُوسِهَا مَرَارًا شَبَهَ الرُّكُوعِ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ تُبْغِضُ جِبْرِيلَ، وَيَقُولُونَ هُوَ عَدُوُّنَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ يَقُولُونَ: غَلَطَ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ وَافَقُوا النَّصَارَى فِي خَصَلَةِ النَّصَارَى: لَيْسَ لِنِسَائِهِمْ صَدَاقٌ إِنَّمَا يَتَمَتَّعُونَ بِهِنَّ تَمَتُّعًا ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ يَتَزَوَّجُونَ بِالْمُتَّعَةِ ، وَيَسْتَحِلُّونَ الْمُتَّعَةَ.

وَفُضِّلَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عَلَى الرَّافِضَةِ بِخَصْلَتَيْنِ: سُئِلَتِ الْيَهُودُ مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ مُوسَى، وَسُئِلَتِ النَّصَارَى مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: حَوَارِيُّ عِيسَى ، وَسُئِلَتِ الرَّافِضَةُ: مَنْ شَرُّ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ أَمَرُوا بِالْإِسْتِغْفَارِ لَهُمْ فَسَبَوْهُمْ، فَالَسَّيْفُ عَلَيْهِمْ مَسْلُوكٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا تَقُومُ لَهُمْ رَايَةٌ، وَلَا يَثْبُتُ لَهُمْ قَدَمٌ، وَلَا تَجْتَمِعُ لَهُمْ كَلِمَةٌ، وَلَا تُجَابُ لَهُمْ دَعْوَةٌ، دَعْوَتُهُمْ مَذْهُوزَةٌ، وَكَلِمَتُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ، وَجَمْعُهُمْ مُتَفَرِّقٌ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ.

قُلْتُ: هَذَا الْكَلَامُ بَعْضُهُ ثَابِتٌ عَنِ الشَّعْبِيِّ كَقَوْلِهِ: لَوْ كَانَتِ الشَّيْعَةُ مِنَ الْبَهَائِمِ لَكَانُوا حُمْرًا، وَلَوْ كَانَتْ مِنَ الطَّيْرِ لَكَانُوا رَحْخًا، فَإِنَّ هَذَا ثَابِتٌ عَنْهُ.

قَالَ ابْنُ شَاهِينَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ النَّحْوِيُّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو الرَّبِيعِ الزَّهْرَانِيُّ ، حَدَّثَنَا وَكِيعُ بْنُ الْجَرَّاحِ، حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ مِغُولٍ، فَذَكَرَهُ، وَأَمَّا السِّيَاقُ الْمَذْكُورُ، فَهُوَ مَعْرُوفٌ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَالِكِ بْنِ مِغُولٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ الشَّعْبِيِّ.

وَرَوَى أَبُو عَاصِمٍ خُشَيْشُ بْنُ أَصْرَمَ . فِي كِتَابِهِ ، وَرَوَاهُ مِنْ طَرِيقِهِ أَبُو عَمْرٍو
الطَّلَمَنْكِيُّ فِي كِتَابِهِ فِي الْأُصُولِ قَالَ أَبُو عَاصِمٍ ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ،
وَعَبْدُ الْوَارِثِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ، حَدَّثَنَا السَّنْدِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ الْفَارِسِيُّ ، حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ
بْنُ جَعْفَرٍ الرَّقِّيُّ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَالِكِ بْنِ مَغُولٍ ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ : (قُلْتُ
لِعَامِرِ الشَّعْبِيِّ : مَا رَدُّكَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ، وَقَدْ كُنْتَ فِيهِمْ رَأْسًا ؟ قَالَ : رَأَيْتُهُمْ
يَأْخُذُونَ بِأَعْجَازٍ لَا صُدُورَ لَهَا ، ثُمَّ قَالَ لِي : يَا مَالِكُ لَوْ أَرَدْتُ أَنْ يُعْطُونِي رِقَابَهُمْ
عَبِيدًا ، أَوْ يَمْلُئُوا لِي بَيْتِي ذَهَبًا ، أَوْ يَحْجُوا إِلَيَّ بَيْتِي هَذَا عَلَى أَنْ أَكْذِبَ عَلَى عَلِيٍّ
فَعَلُوا ، وَلَا وَاللَّهِ لَا أَكْذِبُ عَلَيْهِ أَبَدًا . يَا مَالِكُ إِنِّي قَدْ دَرَسْتُ الْأَهْوَاءَ ،
فَلَمْ أَرْ فِيهَا أَحَقَّ مِنَ الْحَشَبِيَّةِ ، فَلَوْ كَانُوا مِنَ الطَّيْرِ لَكَانُوا رَحْمًا ، وَلَوْ كَانُوا مِنَ
الدَّوَابِّ لَكَانُوا حُمْرًا . يَا مَالِكُ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ رَغْبَةً فِيهِ لِلَّهِ ، وَلَا رَهْبَةً مِنَ
اللَّهِ ، وَلَكِنْ مَقْتًا مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَبَغْيًا مِنْهُمْ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ يُرِيدُونَ أَنْ
يَغْمِضُوا دِينَ الْإِسْلَامِ ، كَمَا غَمِصَ بُولِصُ بْنُ يُوْشَعَ مَلِكُ الْيَهُودِ دِينَ
النَّصْرَانِيَّةِ ، وَلَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ آذَانَهُمْ ، قَدْ حَرَقَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ
بِالنَّارِ ، وَنَفَاهُمْ مِنَ الْبِلَادِ ، مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَأٍ يَهُودِيٌّ مِنْ يَهُودِ صَنْعَاءَ نَفَاهُ إِلَى
سَابَاطٍ ، وَأَبُو بَكْرٍ الْكَرَّوْسُ نَفَاهُ إِلَى الْجَابِيَّةِ ، وَحَرَّقَ مِنْهُمْ قَوْمًا أَتَوْهُ ، فَقَالُوا :
أَنْتَ هُوَ ، فَقَالَ : مَنْ أَنَا ؟ فَقَالُوا : أَنْتَ رَبُّنَا ، فَأَمَرَ بِنَارٍ ، فَأُجِّجَتْ ، فَأُلْقُوا فِيهَا ،
وَفِيهِمْ قَالَ عَلِيٌّ :

لَمَّا رَأَيْتُ الْأَمْرَ أَمْرًا مُنْكَرًا أَجَجْتُ نَارِي وَدَعَوْتُ قَنْبَرًا

يَا مَالِكُ ، إِنَّ مُحْتَتَّهُمْ مَحْنَةُ الْيَهُودِ قَالَتِ الْيَهُودُ : لَا يَصْلُحُ الْمَلِكُ إِلَّا فِي آلِ
دَاوُدَ ، وَكَذَلِكَ قَالَتِ الرَّافِضَةُ : لَا تَصْلُحُ الْإِمَامَةُ إِلَّا فِي . وَلِدِ عَلِيٍّ ، وَقَالَتِ

الْيَهُودُ: لَا جِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ، وَيَنْزِلَ سَيْفٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ قَالُوا: لَا جِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يُخْرِجَ الرِّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، وَيُنَادِيَ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: اتَّبِعُونِي.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ: فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْنَا خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ لَا يُصَلُّونَ الْمَغْرِبَ حَتَّى تَشْتَبِكَ النُّجُومُ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ : « لَا تَزَالُ أُمَّتِي عَلَى الْإِسْلَامِ مَا لَمْ يُؤَخَّرُوا الْمَغْرِبَ إِلَى اشْتِبَاكِ النُّجُومِ مُضَاهَاةً لِلْيَهُودِ »، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ إِذَا صَلَّوْا زَالُوا عَنِ الْقِبْلَةِ شَيْئًا، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ.

وَالْيَهُودُ تُتَوَدُّ فِي صَلَاتِهَا، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ يُسَدِّلُونَ أَثَوَابَهُمْ فِي الصَّلَاةِ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِرَجُلٍ سَادِلٍ ثَوْبَهُ، فَعَطَفَهُ عَلَيْهِ، وَالْيَهُودُ يَسْجُدُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ الْكُنْدَرَةَ ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ.

وَالْيَهُودُ لَا يُخْلِصُونَ بِالسَّلَامِ إِنَّمَا يَقُولُونَ: سَامٌ عَلَيْكُمْ، وَهُوَ الْمَوْتُ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ حَرَّفُوا التَّوْرَةَ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ حَرَّفُوا الْقُرْآنَ، وَالْيَهُودُ عَادُوا جِبْرِيلَ، فَقَالُوا: هُوَ عَدُونُنَا، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ قَالُوا: أَخْطَأَ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ، وَالْيَهُودُ يَسْتَحِلُّونَ أَمْوَالَ النَّاسِ، وَقَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِينَ سَكِينٌ﴾ [آل عمران: ٧٥] ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ يَسْتَحِلُّونَ مَالَ كُلِّ مُسْلِمٍ، وَالْيَهُودُ يَسْتَحِلُّونَ دَمَ كُلِّ مُسْلِمٍ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ يَرُونَ غِشَّ النَّاسِ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ.

وَالْيَهُودُ لَا يَعُدُّونَ الطَّلَاقَ شَيْئًا إِلَّا عِنْدَ كُلِّ حَيْضَةٍ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ،
وَالْيَهُودُ لَيْسَ لِنِسَائِهِمْ صَدَاقٌ إِنَّمَا يُمْتَعُونَ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ يَسْتَحِلُّونَ الْمُتْعَةَ،
وَالْيَهُودُ لَا يَرَوْنَ الْعَزْلَ عَنِ السَّرَارِيِّ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ.

وَالْيَهُودُ يُحَرِّمُونَ الْجُرِّيَّ، وَالْمَرْمَاهِيَّ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ حَرَّمُوا
الْأَرْزَبَ، وَالطَّحَالَ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَالْيَهُودُ لَا يَرَوْنَ الْمَسْحَ عَلَى الْخُفَّيْنِ،
وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ.

وَالْيَهُودُ لَا يُلْحِدُونَ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ، وَقَدْ أُلْحِدَ لِنِسَائِنَا ، وَالْيَهُودُ
يُدْخِلُونَ مَعَ مَوْتَاهُمْ فِي الْكَفَنِ سَعْفَةً رَطْبَةً ، وَكَذَلِكَ الرَّافِضَةُ.

ثُمَّ قَالَ لِي: يَا مَالِكُ: وَفَضَّلْتَهُمُ الْيَهُودُ، وَالنَّصَارَى بِخَصْلَةٍ. قِيلَ لِلْيَهُودِ:
مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ مُوسَى، وَقِيلَ لِلنَّصَارَى: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ
مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: حَوَارِيُّ عِيسَى، وَقِيلَ لِلرَّافِضَةِ: مَنْ شَرُّ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا:
حَوَارِيُّ مُحَمَّدٍ يَعْنُونَ بِذَلِكَ طَلْحَةَ، وَالزُّبَيْرَ.

أَمُرُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ فَسَبُّهُمْ، فَالْسَّيْفُ عَلَيْهِمْ مَسْلُوكٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،
وَدَعْوَتُهُمْ مَدْحُوضَةٌ، وَرَأَيْتُهُمْ مَهْزُومَةٌ، وَأَمْرُهُمْ مُتَشَتَّتٌ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا
لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ.

وَقَدْ رَوَى أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرِيُّ فِي شَرْحِ أَصُولِ السُّنَّةِ نَحْوَ هَذَا الْكَلَامِ
مِنْ حَدِيثٍ وَهَبِ بْنِ بَقِيَّةِ الْوَاسِطِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حَجَرِ الْبَاهِلِيِّ، عَنْ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَالِكِ بْنِ مَغُولٍ، فَهَذَا الْأَثَرُ قَدْ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
مَالِكِ بْنِ مَغُولٍ مِنْ. وَجُوهٌ مُتَعَدِّدَةٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَبَعْضُهَا يَزِيدُ عَلَى

بَعْضٍ، لَكِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ مَالِكٍ بْنَ مِغُولٍ ضَعِيفٌ، وَذَمُّ الشَّعْبِيِّ لَهُمْ ثَابِتٌ مِنْ طُرُقٍ أُخْرَى.

لَكِنَّ لَفْظَ الرَّافِضَةِ إِنَّمَا ظَهَرَ لَمَّا رَفَضُوا زَيْدَ بْنَ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ فِي خِلَافَةِ هِشَامٍ، وَقِصَّةُ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ كَانَتْ بَعْدَ الْعَشْرِينَ وَمِائَةٍ، سَنَةً إِحْدَى وَعَشْرِينَ، أَوْ اثْنَتَيْنِ وَعَشْرِينَ وَمِائَةٍ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ هِشَامٍ. قَالَ أَبُو حَاتِمٍ الْبُسْتِيُّ: قُتِلَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بِالْكُوفَةِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَعَشْرِينَ وَمِائَةٍ، وَصُلِبَ عَلَى خَشَبَةٍ، وَكَانَ مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَعُلَمَائِهِمْ، وَكَانَتْ الشَّيْعَةُ تَتَحَلَّاهُ. انْتَهَى

والنواصب: هم الذين نصبوا العداء لآل بيت النبي ، وسبّوهم على المنابر ولعنوهم، وكانوا ظاهرين في عهد الدولة الأموية، حتى جاء عمر بن عبدالعزيز ، وكانوا يظنون أنه سيسلك طريقة أسلافه في سبّ أهل البيت، فقال في خطبته المشهورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، وتلى الآية الأخرى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

وطريقة أوائلهم في الأسماء والصفات أنهم يُمثّلون الله بخلقه، ثم رجعوا إلى التعطيل، وذكر أنّ الأعمش لقي جنياً فقال: من شرّكم؟ فقال: (الرافضة)، وقال: أنتم من شرّكم؟ قال (الرافضة).

ويستحلّون الكذب حتى قال الإمام الشافعي : (أجيز شهادة أهل الأهواء إلا الرافضة)؛ لأنّهم يستحلّون الكذب ودينهم التقية، حتى قالوا: (لا

دين لمن لا تقيّة له)، فربّما يُظهر لك السنّة والإسلام والاستقامة والمحبة فإذا تمكّن منك انقلب في ساعة.

قتل عليّ بن أبي طالب مقدّماتهم، وهم الذين زعموا أنّه إله، فخذّ الأخاديد وحفرها، وأشعل فيها النار، فقال ابن عبّاس : لو كنت أنا لقتلتهم؛ لأنّ النبيّ يقول «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ» رواه البخاري (٣٠١٧).

وإذا نظرت إلى مبدأ الرافض تجده من الزنادقة من عبدالله بن سبأ اليهودي ثم بعد ذلك اجتمع زنادقة المجوس وأخرجوا مذهباً وهو مذهب الباطنيّة الذي ظاهره الرافض وباطنه الكفر المحض واستدلّ الإمام مالك على تكفير الرافضة بقول الله : ﴿يَغِيظُ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، واستدلّ علدهم إعطاء الرافضة من الفيء والخمس بقول الله : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وكان الإمام أحمد يأمر بإعادة الصلاة خلف الجهمي والرافضي.

وقال ابن حزم مقولته المشهورة: (يستدلّون علينا بقول الرافضة ما هم بمسلمين). يعني كيف تستدلّ عليّ بقول كافر.

وهم طرائق قدداً وأقسام شتى، تجدها في كتب الملل والنحل، فهم يُغضون الصحابة ؛ لحملهم الإسلام، ويسبّونهم ويتنقّصونهم، ومن أدعيتهم التي يتقرّبون بها إلى الله: (اللهم العن صنمي قريش وابتئهما) ويقصدون بذلك أبابكر وعمر وعائشة وحفصة ، مع أنّ حفصة لما طلقها النبيّ جاءه جبريل وقال له: «رَاجِعْ حَفْصَةَ، فَإِنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ، وَإِنَّهَا زَوْجَتُكَ

في الجنة» من حديث قيس بن زيد عند الحاكم في مستدركه
(٦٧٥٣). وعائشة قد أثنى الله عليها وذكر فضلها ثم هم يقعون في
أحباب وخلفاء وأصحاب الرسول حتى قال بعضهم: (سئل اليهود: من
أفضلكم؟ قالوا: أصحاب موسى)، وهذا معلوم عند جميع الأمم فإذا سألت
النصراني: من أفضلكم؟ سيقول: (أصحاب عيسى)، ولما سئل الروافض من
شركم؟ قالوا: (أصحاب محمد)، جاءوا بها يُخالف المعقول والمنقول والأصول،
فزعموا أن (غدير خُم) كان لعقد الخلافة لعلّي بن أبي طالب ، سبحان
الله، والصحابة جهلوا هذا الحكم أو أنكروه، وعلّي لم يُطالب بحقه
حتى يأتي زنادقة المجوس ويزعمون أن الخلافة كانت لعلّي بن أبي طالب .

القول فيما شجر بين الصحابة

قال :

وَيُمَسْكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ .

لأنَّ الصحابة مجتهدون فمصيبهم له أجران ومخطئهم له أجر
والمجتهد لا يؤاخذ عند الله مع أننا نعتقد أن الحق في جميع الحروب التي
خاضها علي بن أبي طالب مع الصحابة كان معه سواء في وقعة
الجمل أو في صفين أو كقتاله للخوارج في معركة النهروان، ومعاوية ومن معه
كان عندهم شيء من الحق فقد قال النبي كما في حديث أبي سعيد
في البخاري (٦١٦٣) ومسلم (١٠٦٤): «يُخْرَجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ
النَّاسِ هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ - أَوْ مِنْ أَشَرِّ الْخَلْقِ - يَقْتُلُهُمْ أَذْنَى الطَّائِفَتَيْنِ إِلَى الْحَقِّ»، فهم
كانوا متأولين على أنهم يُطالبون بدم عثمان ويقولون لعلي بن أبي طالب
: سلّم قتلة عثمان حتى نبايعك، وكان علي بن أبي طالب
معذورًا لم يستطع تسليم قتلة عثمان ؛ لكثرتهم ولتوغّلهم في جيشه وخوفه
من الفتنة، أو لعدم قيام البيّنة على واحد بعينه.

وعائشة لما خرجت من مكّة إلى الكوفة ومعها طلحة والزبير
وغيرهم من أصحاب النبي لم تكن نيّتها الحرب بل كان نيّتها الإصلاح بين
علي بن أبي طالب وبين من خالفه، فلمّا بلغت عائشة بعض مياه بني
عامر ليلاً نبحت الكلاب عليها، فقالت: أي ماء هذا؟ قالوا: هذا ماء الحووب،
فوقفت وقالت: ما أظنني إلا راجعة، سمعت رسول الله يقول لنا ذات

يوم: «كَيْفَ بِإِحْدَاكُنَّ تَنْبُحَ عَلَيْهَا كِلَابُ الْحَوَءِ» عن أنس ، انظر
اتحاف المهرة في زوائد المسانيد العشرة (٨/٨)، فقالوا لها: يا أم المؤمنين
اخرجي لعل الله أن يحقن بك الدماء، ويُصلح بك بين المسلمين.

فمن عقيدة أهل السنة والجماعة الكفُّ عما شجر بينهم، قال الله تعالى:
﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

ومما ذكر ابن القيم في كتابه الروح (٢٦/١) والله أعلم بصحتها،
قال سعيد بن أبي عروبة: عن عمر بن عبدالعزيز: رأيت رسول الله وأبوبكر
وعمر جالسان عنده، فسلمت، فبينما أنا جالس إذ أُتِيَ بعلي ومعاوية فأدخلا بيتا
وأجيف عليها الباب وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج علي وهو يقول:
قضى لي ورب الكعبة، وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول:
غفر لي ورب الكعبة.

وقال حماد بن أبي هاشم جاء رجل إلى عمر بن عبدالعزيز فقال: رأيت
رسول الله في المنام وأبوبكر عن يمينه وعمر عن شماله، وأقبل رجلان يختصمان
وأنت بين يديه جالس، فقال لك: يا عمر، إذا عملت فاعمل بعمل هذين،
لأبي بكر وعمر، فاستحلفه عمر بالله، أرايت هذه الرؤيا؟ فحلف! فبكى عمر.
فهذا هو الذي يُوافق الأدلة من أن الله قد نهى عن الخوض فيما شجر
بينهم والله رحيم بعباده.

قال :

وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الْأَثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ.

وهذا هو الواقع لأنّها من طريق لوط بن أبي مخنف والواقدي والكلبي ومن طريق عمر بن شمر ومن طريق عمر بن خالد الواسطي وهؤلاء رافضة كذابون.

قال :

وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ.

وهذا هو الواقع فإنّك إذا نظرت إلى كتاب البداية والنهاية لابن كثير أو تاريخ والأمم الملوك للطبري أو غير ذلك من الكتب تجد ما لا يليق بالصحابة ولا بالتابعين، ومنها ما ذكر في الحرّة حيث يقولون إنّ يزيد بن معاوية استباح إلى المدينة ثلاثة أيّام وحملت سبعة ألف عذراء، سبحانه الله أنت في زمن قوّة الإسلام والله الحمد، وفي زمن الخشية، والخوف من الله، نعم قاتلوهم على أنّهم خرجوا على يزيد أمّا أن يستبيحوا دماءهم ونساءهم، كلّ هذا من كذب الرافضة والخطأ أنّه نقلها أهل سنّة عنهم ونحن نعلم أنّ باب السيرة والتاريخ لم يهذب، لو نقل لنا الواقدي حديثاً في الأحكام ما قبلنا منه فكيف نقبل منه هذه التي فيها طعن ظاهر في الإسلام، الإسلام مازال قوياً والصحابة متوافرون، ثمّ يقولون: زنى بسبعة آلاف امرأة، أليس رسول الله يقول: «أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ مَغْفُورٌ لَهُمْ» من حديث أمّ حرام عند البخاري (٢٩٢٤). وكان قائده يزيد . أليس لما قُتل الحسين وجاء أولاد الحسين أكرمهم يزيد

وأحسن إليهم وإنما قال الإمام أحمد : (لا نسبّه ولا نحبه). وكثير ممّا يذكرونه عن يزيد ليس بثابت، مثل أنّه كان يُجاهر بشرب الخمر، وكان يفعل وكان يفعل، هذا تاريخ رافضي دخل في تاريخ الإسلام فينبغي أن يُنقى التاريخ ومن أحسن من ألف في هذه المسألة ابن العربي العواصم من القواصم ، وحقّقه محبّ الدين الخطيب، فراجعه من أراد الاستفادة وقد رأيت مؤلفاً في تحقيق المرويات في التاريخ.

قال :

وَعَبْرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعذُورُونَ: إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.

يعني إذا صحّ شيء مما نُقل هم فيه معذورون لماذا؟ إمّا مجتهدون مصيبون وإمّا مجتهدون مخطئون وفي حديث عمرو بن العاص عند البخاري (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦)، أنّ النبيّ : «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ».

القول في عصمة الصحابة

قال :

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ
كَبَائِرِ الْإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ.

أي أهل السنة لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن
كبائر الإثم وصغائره فإن من الصحابة من وقع في الزنا في عهد النبي
ورجمه كما فعل في الغامدية وكما فعل في ماعز ومنهم من قطعت يده
ومنهم من غل وأخبر النبي أنه في النار لشملة أو عباءة ومنهم من قتل
نفسه والصحبة ثابتة لهم لكن إجماع الصحابة معصوم، قال النبي :
«إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ» من حديث أنس عند أبي داود (٣٩٥٠).

بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب
مغفرة ما يصدر منهم ويذكر العلماء عشرة أسباب لمغفرة الذنوب فالصحابة
لهم الحظ الأوفر من هذه العشرة الأسباب: التوبة، والإسلام الحق، قال
الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ
سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقال النبي : «أَمَّا عَلِمْتُ أَنَّ التَّوْبَةَ تَهْدِمُ مَا قَبْلَهَا».
والمصائب والأمراض والأسقام، قال النبي : «لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ
وَالْمُؤْمِنَةِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ» رواه ابن أبي شيبة (١٠٨١١) من
حديث أبي هريرة . والمحافظة على العبادات مثل الصلاة وصيام رمضان،
ففي حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٣٣)، قال النبي : «الصَّلَوَاتُ

الْخُمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفَّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكِبَائِرَ».

قال :

بَلْ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ. وَهُمْ مِّنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةً مَا يَصُدُّ مِنْهُمْ - إِنْ صَدَرَ - حَتَّى إِنَّهُمْ يُغْفَرُ لَهُمْ مِّنَ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ لِمَن بَعْدَهُمْ؛ لِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَن بَعْدَهُمْ.

بل قد قال النبي في حق أهل بدر: «لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» من حديث علي عند البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤). وقال النبي : «لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ. الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا» من حديث جابر عند مسلم (٢٤٩٦).

ولهم دعوة إلى الإسلام وسبق، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أُولِيِّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا﴾ [الحديد: ١٠]، فالله غفر لهم وتجاوز عنهم.

قال :

وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ.

كما في حديث عمران بن حصين ، قال النبي : «خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ»، قَالَ عِمْرَانُ لَا أَدْرِي أَذَكَرَ النَّبِيَّ بَعْدَ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، قَالَ النَّبِيُّ : «إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمِنُونَ وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُقُونَ وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ» رواه البخاري (٢٦٥١) و(٣٦٥٠) و(٦٤٢٨) و(٦٦٩٥)، مسلم (٢٥٣٥). وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ النَّبِيِّ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ وَكَانُوا يَضْرِبُونََنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ» أخرجه البخاري (٢٦٥٢) و(٣٦٥١) و(٦٤٢٩) و(٦٦٥٨). وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ زَعَمَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُبْعَثُ مِنْهُمْ الْبُعْثُ فَيَقُولُونَ انْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ فِيكُمْ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ فَيُوجَدُ الرَّجُلُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ بِهِ ثُمَّ يُبْعَثُ الْبُعْثُ الثَّانِي فَيَقُولُونَ هَلْ فِيهِمْ مَنْ رَأَى أَصْحَابَ النَّبِيِّ فَيُفْتَحُ لَهُمْ بِهِ ثُمَّ يُبْعَثُ الْبُعْثُ الثَّالِثُ فَيَقَالُ انْظُرُوا هَلْ تَرَوْنَ فِيهِمْ مَنْ رَأَى مِنْ رَأَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ثُمَّ يَكُونُ الْبُعْثُ الرَّابِعُ فَيَقَالُ انْظُرُوا هَلْ تَرَوْنَ فِيهِمْ أَحَدًا رَأَى مِنْ رَأَى أَحَدًا رَأَى أَصْحَابَ النَّبِيِّ فَيُوجَدُ الرَّجُلُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ بِهِ» رواه مسلم (٢٥٣٢). وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ يُلُونِي ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ» رواه مسلم (٢٥٣٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ بُعِثَتْ فِيهِمْ ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ»، وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَذَكَرَ الثَّالِثَ أَمْ لَا قَالَ: «ثُمَّ يَخْلُفُ قَوْمٌ

يُحِبُّونَ السَّيِّئَةَ يَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا» رواه مسلم (٢٥٣٤). وَعَنْ عَائِشَةَ
قَالَتْ سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ قَالَ : «الْقَرْنُ الَّذِي أَنَا فِيهِ
ثُمَّ الثَّانِي ثُمَّ الثَّلَاثُ» رواه مسلم (٢٥٣٦).

قال :

وَأَنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلٍ أُحْدِ ذَهَبًا مِّنْ
بَعْدَهُمْ.

وهذا الحديث قاله النبيّ في شأن خالد وعبدالرحمن بن عوف ،
ومن المعلوم أنّ خالدًا من أصحاب رسول الله أسلم بعد الأحزاب
وعبدالرحمن بن عوف أسلم قبل وهو من المهاجرين الأوّلين، فلمّا وقع
بين خالد وعبدالرحمن ما وقع قال النبيّ : «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ
أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحْدِ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» من حديث أبي سعيد
عند البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١). يقول هذا لخالد أحد
أصحابه، لكن عبدالرحمن بن عوف له صحبة أكثر؛ لأنّه هاجر الهجرة
الأولى وله سابقة. والمدّ هو جمع اليدين، والنصيف بالكفّ، فإذا كان خالد بن
الوليد لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مدّ عبدالرحمن بن عوف ولا
نصيفه! فكيف بالمتأخّرين الذين يقعون فيهم؟!

قال :

ثُمَّ إِنْ كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ فَقَدْ تَابَ مِنْهُ.

والتوبة من مكفرات الذنوب يدلّ على ذلك قول الله : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، قال النبي : «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»، من حديث عمرو بن العاص عند ابن ماجه (٤٢٥٠)، وأصحّ منه حديث عائشة في البخاري (٢٦٦١) ومسلم (٢٧٧٠)، قال النبي : «فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ».

قال :

أو أتى بحسنات تمحوه.

من حجّ وصيام وجهادٍ ومعلوم أنّ الحسنات تذهب السيئات قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

قال :

أو غُفر له بفضل سابقته.

كما في أصحاب بدر وبيعة الرضوان وقد تقدّم الحديث فيهم.

قال :

أو بشفاعة النبي ﷺ الذين هم أحقّ بشفاعته.

والنبي يقول: «خَيْرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ، أَوْ يَدْخُلُ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ، لِأَنَّهَا أَعَمُّ وَأَكْفَى، أَثَرُومَهَا لِلْمُنْفِقِينَ، لَا وَلَكِنَّهَا لِلْمُتَكَلِّفِينَ الْخَطَّاءُونَ» من حديث عبدالله بن عمر عند أحمد (٥٤٥٢). وعن عوف بن مالك عند الترمذي (٢٤٤١)، وابن ماجه (٤٣١١)، و(٤٣١٧).

قال :

أو ابتلي في الدنيا ببلاء فكفر عنه فإذا كان هذا في الذنوب المحققة.

كما قال الرسول : «لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ أَوْ الْمُؤْمِنَةِ، فِي جَسَدِهِ، وَفِي مَالِهِ، وَفِي وَلَدِهِ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ» من حديث أبي هريرة عند أحمد (٧٨٥٩). وفي الصحيح قال النبي : «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَحُيِّتَ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ» من حديث عائشة عند مسلم (٢٥٧٢). وقال النبي : «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ وَلَا سَقَمٍ وَلَا حَزَنٍ حَتَّى اهِمَّ يَهْمُهُ إِلَّا كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ» من حديث أبي سعيد وأبي هريرة عند مسلم (٢٥٧٣). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] بَلَغَتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَبْلَغًا شَدِيدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «قَارِبُوا وَسَدُّوا فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ حَتَّى النَّكْبَةِ يُنَكَّبُهَا أَوْ الشَّوْكَةَ يُشَاكُهَا» أخرجه مسلم (٢٥٧٤).

قال :

فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدون، إن أصابوا فلهم أجران وإن أخطئوا فلهم أجر واحد والخطأ مغفور ثم القدر الذي يُنكر من فعل بعضهم قليل نَزَرَ مَغْفُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ؛ مِنَ الْإِيْبَانِ بِاللَّهِ، وَرَسُولِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهَجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

ويدل على ذلك ما فعله النبي ، بحاطب بن أبي بلتعة لما كتب إلى قريش كتاباً يُخبرهم بمسير النبي إليهم، فلما قال عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عَنْقَ هَذَا الْمُنَافِقِ قَالَ : «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» من حديث عليّ عند البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤).

قال :

وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ وَمَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنْ الْفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ؛ لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ.

يعني بالعلم أدلة الكتاب والسنة وبصيرة بمعرفة فضلهم وبعدم التعصب والهوى، فيجد ما من الله عليهم به من الفضائل يعلم علماً يقيناً لا ظناً أنهم أفضل الناس بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا كان في الأمم السابقة مثلهم كما لن يكون في اللاحقين، جاءت الرميضاء، أو الغميضاء إلى النبي فيقول لها: «لَقَدْ سَمِعْتُ خَشْخَشَتِكَ فِي الْجَنَّةِ». ويقول لبلال : «يَا بَلَاءُ،

بِمَ سَبَقْتَنِي إِلَى الْجَنَّةِ؟ مَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ قَطُّ إِلَّا سَمِعْتُ خَشْخَشَتَكَ أَمَامِي،
دَخَلْتُ الْبَارِحَةَ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتُ خَشْخَشَتَكَ أَمَامِي» من حديث بريدة عند
الترمذي (٣٦٨٩). وقال النبي : «بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ فَإِذَا امْرَأَةٌ
تَتَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرِ فَقُلْتُ لِمَنْ هَذَا قَالُوا هَذَا لِعُمَرَ» من حديث أبي هريرة
عند البخاري (٥٢٢٧). ويقول لعبدالله بن سلام في الجنة

ولثابت بن قيس في الجنة ويقول لأصحاب بيعة الرضوان وهم
أكثر من ألف وأربع مائة: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ
أَحَدٌ. الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا» من حديث جابر عند مسلم (٢٤٩٦)، هذا لا
يكون لغيرهم يقول هذا مع علمه أنهم بشر وأنهم يُخْطِئُونَ ويعلمون
ويجهلون ومع علم الله الأزلي الأبدي بأحوالهم وبما سيقع منهم ومع ذلك
يقول الله : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، فلا يَنْقُصُهُمْ إِلَّا مَنْ لَمْ
يعرف قدرهم ومنزلتهم والإسلام الحق، فمن كان عارفاً بالإسلام الحق علم
منزلة الصحابة ، فهم الذين نقلوه لنا وبذلوا دماءهم وأموالهم وهاجروا
من بلدانهم وجاعوا وعروا وسهروا وتعبوا ونصبوا من أجل تبليغ هذا الدين
ثم يأتي زنادقة الروافض وجُهَّال المبتدعة ويتكلمون فيهم، الروافض يُكْفَرُونَهُمْ
والمبتدعة يقولون هم رجال ونحن رجال أو طريقتهم أسلم وطريقتنا أعلم
وأحكم، والله ما يقول هذا القول إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ.

قال :

وَأَنَّهُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى
اللَّهِ.

قد تقدّم البيان أنّ الخيريّة هي في القرون الثلاثة وأفضل هذه القرون هم الصحابة وإنّ اللسان ليتعثر عن المجيء بما هم أهله وإنّ القلم لا يعجز عن كتابة فضائلهم وإنّ الوقت ليضيق بذكر محاسنهم هم صفوة خلق الله بعد الأنبياء والمرسلين ولا مثلهم ولن يكون مثلهم.

وتوسّع شيخ الإسلام في باب الصحابة للحاجة إلى ذلك فإنّ المخالفين في باب الصحابة كثير فلهذا أتى على شبههم فلو سلّمنا أنّ الصحابة وقعوا في خطأ فهو مغفور لأسباب:

🕒 **السبب الأول:** لسابقيتهم.

🕒 **السبب الثاني:** أنّ لهم حسنات تذهب تلك السيئات.

🕒 **السبب الثالث:** قد يكونوا مجتهدين في هذا الخطأ والمجتهد إن أصاب له أجران وإن أخطأ فله أجر، فهم مثابون على أيّ حال، وقد يكونوا تابوا منه.

فلا يجوز الطعن في الصحابة والازدراء لهم ولا التحذير منهم بل الواجب كفّ الألسنة عمّا شجر بينهم ولا يُذكرون إلّا بالجميل ولا يُذكرون إلّا بالخير وبالأوصاف التي تؤدّي إلى محبة الناس لهم، أمّا الأوصاف البذيئة المنكرة فلا يجوز أن تُطلق عليهم؛ ولهذا ردّ العلماء على عائض القرني لما قال: (الأقرع بن حابس أحمق)، وعلى غيره، فلا يجوز تنقّص الصحابة بأيّ حال من الأحوال، ولا تُذكر مثالبهم، فلهم من الخير والجميل ما يُغطّي تلك المثالب -إذا وُجدت- فنحن قد نقول في حقّ عالم من العلماء تُدفن في بحر حسناته، فكيف بصحابي من الصحابة الأجلاء الفضلاء الذين هجروا الأهل والأوطان وعادوا الأقارب والخلائ من أجل دين ربّ العالمين، ثم بعد

ذلك يطعن فيهم طاعن ويُزهد فيهم مزهد، أمّا من كفرهم أو فسّتهم فليس من
أهل الإسلام.

القول في كرامات الأولياء

قال :

وَمِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ التَّصَدِيقُ بِكَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَمَا يُجْرِي اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأَثِيرَاتِ، كَالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الْأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ قُرُونِ الْأُمَّةِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وهذه من الأصول التي خالف فيها المعتزلة ومن إليهم من الرافضة، والجهمية، مع أن كرامات الأولياء ثابتة بالكتاب، والسنة، وإجماع السلف الصالحين.

وقد انقسم الناس في كرامات الأولياء إلى ثلاثة أقسام:

❦ **الأول:** هم أهل السنة والجماعة الذين يؤمنون بكرامات الأولياء بما قصَّ الله في القرآن من شأن أهل الكهف، قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، ومكثوا في ذلك الكهف سنوات عديدة وأعوام مديدة ويسخر الله لهم الشمس تدخل عليهم في الصباح والمساء وسلموا من الثعابين والحيات وسلموا من الموت والجوع مع أن الإنسان إذا نام أربع وعشرين ساعة أو اثني عشر ساعة ربما يحتاج إلى طعام وإذا نام ولم يقع له تحوّل من فراشه يقوم وقد أثر الفراش في جنبه فكيف بثلاث مائة وتسعة سنين وحفظهم الله وأكرمهم وهكذا جاءت

كرامات للصحابة رضوان الله عليهم ومنها أن الله كان يُبارك لهم في الطعام القليل ومنها أن الله ربّما جعل لبعضهم نورًا يمشي به كما حصل لأسيد بن حضير وعبّاد بن بشر فعن أنسٍ قال: إنَّ رَجُلَيْنِ خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ وَإِذَا نُورٌ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا حَتَّى تَفَرَّقَا فَتَفَرَّقَ النُّورُ مَعَهُمَا. رواه البخاري (٣٨٢٠). ودخل أبوذرٍ إلى مكّة ومكث أيامًا يشرب من ماء زمزم حيث قال : وَلَقَدْ لَبِثْتُ يَا ابْنَ أَخِي ثَلَاثِينَ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُنْكَ بَطْنِي وَمَا وَجَدْتُ عَلَى كَبِدِي سُخْفَةً جُوعٍ. رواه مسلم (٢٤٧٣). أكرمه الله بالبركة في ذلك الماء، فكان طعام طعم وشفاء سقم.

وما أكرمهم به الله في غزوة بدر وفي غزوة أحد وفي أسفارهم وفي حضرهم ومع ثبوت الكرامات بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة فإنّ الواقع يدلّ عليها، فكم أكرم الله من المؤمنين في سالف الدهر وحاضره ولا تزال الكرامات مستمرة حتى يرث الله الأرض فعن أبي سعيد أن النبي «يَخْرُجُ الدَّجَالُ فَيَتَوَجَّهُ قِبَلَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَلْقَاهُ الْمَسَالِحُ مَسَالِحُ الدَّجَالِ فَيَقُولُونَ لَهُ أَيْنَ تَعْمِدُ فَيَقُولُ أَعْمِدُ إِلَى هَذَا الَّذِي خَرَجَ ، قَالَ: فَيَقُولُونَ لَهُ أَوْ مَا تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا فَيَقُولُ مَا بِرَبِّنَا خَفَاءً. فَيَقُولُونَ اقْتُلُوهُ. فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَلَيْسَ قَدْ نَهَاكُم رَبُّكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا أَحَدًا دُونَهُ ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إِلَى الدَّجَالِ فَإِذَا رَأَاهُ الْمُؤْمِنُ قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَذَا الدَّجَالُ الَّذِي ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ فَيَأْمُرُ الدَّجَالُ بِهِ فَيَسْبَحُ فَيَقُولُ خُذُوهُ وَشَجُّوهُ. فَيُوسَعُ ظَهْرُهُ وَبَطْنُهُ ضَرْبًا ، قَالَ: فَيَقُولُ أَوْ مَا تُؤْمِنُ بِي قَالَ فَيَقُولُ أَنْتَ الْمَسِيحُ الْكَذَّابُ ، قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُؤْشَرُ

بِالْمُشَارِ مِنْ مَفْرِقِهِ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَ رَجُلَيْهِ ، قَالَ : ثُمَّ يَمْشِي الدَّجَالُ بَيْنَ الْقِطْعَتَيْنِ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ قُمْ . فَيَسْتَوِي قَائِمًا ، قَالَ : ثُمَّ يَقُولُ لَهُ أَتُؤْمِنُ بِي فَيَقُولُ مَا أَرَدَدْتُ فِيكَ إِلَّا بَصِيرَةً ، قَالَ : ثُمَّ يَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَفْعَلُ بَعْدِي بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، قَالَ : فَيَأْخُذُهُ الدَّجَالُ لِيَذْبَحَهُ فَيُجْعَلُ مَا بَيْنَ رَقَبَتِهِ إِلَى تَرْقُوْتِهِ نُحَاسًا فَلَا يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، قَالَ : فَيَأْخُذُ بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ فَيَقْدِفُ بِهِ فَيَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّهَا قَذْفُهُ إِلَى النَّارِ وَإِنَّمَا أُلْقِيَ فِي الْجَنَّةِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ « هَذَا أَعْظَمُ النَّاسِ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ » متفق عليه .

ومن الكرامات التي تحصل في ذلك الزمان أن المسلمين حين يُحْصَرُونَ في الجبال ولا يستطيعون النزول ويمنع عنهم الأكل وغير ذلك بسبب يأجوج مأجوج يكون طعامهم التسييح والتحميد والتكبير والتهليل كما صحَّ من طرق عن النبي ، جاء عن أبي أمامة وعائشة وجابر على ما بيَّنته في كتاب تحذير العقول من فتنة المسيح الدجال .

وقد أَلَفَ العلماء في كرامات الأولياء، أَلَفَ الإمام اللالكائي وهكذا من المؤلفات العصرية كتاب الشيخ عبدالرقيب الإبي فيه الصحيح من كرامات الأولياء.

وكرامات الأولياء تُعتبر معجزة للنبي والفرق بين كرامات الأولياء وخرافات الفساق الأشقياء أن الوليَّ يحرص على إخفاء الكرامة، والأمر الثاني أنه لا يتكلف حصولها وإنما يُصَلِّي ويصوم ويحج ويعتمر ويقرأ القرآن ويدع الله فإن حصلت فالحمد لله وإن لم تحصل ما يتكلف حصولها والأمر الثالث أن الكرامة تكون في حقَّ المستقيمين على كتاب ربنا وسنة نبينا حتى قال شيخ

الإسلام : (أفضل كرامة دوام الاستقامة)، أمّا الصنف الثاني فهو يتكلّف في الكرامة، ربّما أجاع نفسه وربّما عرّاهَا وأتعبها ويكون حريصًا على إظهارها وربّما حصلت له خوارق العادات من المكاشفات وغيرها بسبب ما يحصل لنفسه من الجوع وفراغ الذهن من أمور الدنيا وهو مع ذلك على غير طريقة النبيّ فمثل هذا لا تكون في حقّه كرامة وإنّما تكون في حقّه مهانة وقد تكلم الشيخ مقبل تعالى على باب الكرامات وباب الخرافات في كتابه الصحيح المسند من دلائل النبوة ، وتكلّم شيخ الإسلام في كتابه النبوات و الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، فيذكر عن أبي السليل ضريب بن نفير قال: كنت مرافقًا للعلاء بن الحضرمي حين بعث إلى البحرين، فسلكنّا مفازة فعطشنا عطشًا شديدًا حتى خشينا على أنفسنا الهلاك وما ندري ما مسافة الأرض. فذكر ذلك له فنزل فصلى ركعتين ثم قال: يا حليم يا عليم يا علي يا عظيم اسقنا، قال: فإذا نحن بسحابة كأنها جناح طائر قد أظلتنا حتى أتينا على خليج من البحر ماخيض قبل ذلك اليوم ولا خيض بعده فالتمسنا سفنا فلم نجد. فذكرنا ذلك له فصلى ركعتين ثم قال: يا حليم يا عليم يا علي يا عظيم أجرنّا، ثم أخذ بعنان فرسه، ثم قال: جوزوا باسم الله.

قال أبوهريرة فمشينا على الماء فوالله ما ابتلت قدم ولا خف بعير ولا حافر دابة وكان الجيش أربعة آلاف.

فلما جزنا قال: هل تفقدون شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فأتينا البحرين فافتتحها وأقام بها سنة، ثم مات رحمة الله عليه .

ويُذكر عن ابن عمر أن عمر خطب يوماً بالمدينة فقال يا سارية بن زعيم الجبل من استرعى الذئب فقد ظلم.

قال: فقيل له: تذكر سارية وسارية بالعراق؟! فقال الناس لعل: أما سمعت عمر يقول: يا سارية وهو يخطب على المنبر؟! فقال: ويحكم دعوا عمر؛ فإنه ما دخل في شيء إلا خرج منه، فلم يلبث إلا يسيراً حتى قدم سارية، فقال: سمعت صوت عمر فصعدت الجبل. ذكرهما اللالكائي في كرامات الأولياء .

ومما يُذكر في الباب ما حصل لشيخ الإسلام من الكرامات سواء في حربه مع الرافضة أو مع الحشاشين أو التتر، وما زالت الكرامات مستمرة لأوليائه المتقين.

يقول الشيخ ابن باز : تظهر الكرامة للمؤمن في وقت الحاجة، سنة الله في أوليائه وسنة الله في أصفياه أنه يُكرمهم في قوت الحاجة.

ففي يوم بدر أنزل الله على المؤمنين المطر والنعاس أمنة منه، وأنزل عليهم الملائكة قال تعالى، ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿[الأنفال: ٩-١٢].

وفي الصحيحين عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ أَنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ كَانُوا نَاسًا
فُقَرَاءَ وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ مَرَّةً: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامٌ اثْنَيْنِ فَلْيُذْهِبْ بِثَلَاثَةٍ
وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامٌ أَرْبَعَةٍ فَلْيُذْهِبْ بِخَامِسٍ بِسَادِسٍ». أَوْ كَمَا قَالَ. وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ
جَاءَ بِثَلَاثَةٍ وَأَنْطَلَقَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ بِعَشْرَةٍ وَأَبُو بَكْرٍ بِثَلَاثَةٍ، قَالَ: فَهُوَ وَأَنَا وَأَبِي
وَأُمِّي - وَلَا أَدْرِي هَلْ قَالَ وَامْرَأَتِي وَخَادِمٌ بَيْنَ بَيْتِنَا وَبَيْتِ أَبِي بَكْرٍ - قَالَ: وَإِنَّ
أَبَا بَكْرٍ تَعَشَّى عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ. ثُمَّ لَبِثَ حَتَّى صُلِّيَتِ الْعِشَاءُ ثُمَّ رَجَعَ فَلَبِثَ حَتَّى
نَعَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَ بَعْدَ مَا مَضَى مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ مَا
حَبَسَكَ عَنْ أَضْيَافِكَ - أَوْ قَالَتْ - ضَيْفِكَ قَالَ أَوْ مَا عَشَيْتِهِمْ قَالَتْ: أَبُوءَا حَتَّى
تُجِىءَ قَدْ عَرَضُوا عَلَيْهِمْ فَغَلِبُوهُمْ، قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنَا فَاخْتَبَأْتُ وَقَالَ يَا غُنَّزُ.
فَجَدَّعَ وَسَبَّ وَقَالَ: كُلُوا لَا هَنِيئًا. وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَطْعَمُهُ أَبَدًا، قَالَ: فَابْتَغِ اللَّهُ مَا
كُنَّا نَأْخُذُ مِنْ لُقْمَةٍ إِلَّا رَبًّا مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرُ مِنْهَا، قَالَ: حَتَّى شَبِعْنَا وَصَارَتْ
أَكْثَرُ مِمَّا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ فَإِذَا هِيَ كَمَا هِيَ أَوْ أَكْثَرُ. قَالَ لِامْرَأَتِهِ
يَا أُخْتِ بَنِي فِرَاسٍ مَا هَذَا قَالَتْ لَا وَقَرَّةَ عَيْنِي لَهَا الْآنَ أَكْثَرُ مِنْهَا قَبْلَ ذَلِكَ
بِثَلَاثِ مَرَارٍ، قَالَ: فَأَكَلَ مِنْهَا أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: إِنَّهَا كَانَتْ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ - يَعْنِي
يَمِينُهُ - ثُمَّ أَكَلَ مِنْهَا لُقْمَةً ثُمَّ حَمَلَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَضْبَحَتْ عِنْدَهُ، قَالَ:
وَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمٍ عَقْدٌ فَمَضَى الْأَجَلَ فَعَرَفْنَا أَنَّنَا عَشَرُ رَجُلًا مَعَ كُلِّ رَجُلٍ
مِنْهُمْ أَنَا اللهُ أَعْلَمُ كَمْ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ إِلَّا أَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُمْ فَأَكَلُوا مِنْهَا أَجْمَعُونَ.

وفي مسلم: عَنِ الْمُقَدَّادِ قَالَ أَقْبَلْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِي وَقَدْ ذَهَبَتْ أَسْمَاعُنَا
وَأَبْصَارُنَا مِنَ الْجُهْدِ فَجَعَلْنَا نَعْرِضُ أَنْفُسَنَا عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَيْسَ
أَحَدٌ مِنْهُمْ يَقْبَلُنَا فَاتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ فَأَنْطَلَقَ بِنَا إِلَى أَهْلِهِ فَإِذَا ثَلَاثَةٌ أَعْنَزُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ

«اِحْتَلَبُوا هَذَا اللَّبَنَ بَيْنَنَا». قَالَ فَكُنَّا نَحْتَلِبُ فَيَشْرَبُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنَّا نَصِيْبَهُ وَنَرْفَعُ لِلنَّبِيِّ نَصِيْبَهُ ، قَالَ: فَيَجِيءُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُسَلِّمُ تَسْلِيْمًا لَا يُوقِظُ نَائِمًا وَيُسْمِعُ الْيَقْظَانَ ، قَالَ: ثُمَّ يَأْتِي الْمَسْجِدَ فَيُصَلِّي ثُمَّ يَأْتِي شَرَابَهُ فَيَشْرَبُ فَأَتَانِي الشَّيْطَانُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ شَرِبْتُ نَصِيْبِي فَقَالَ مُحَمَّدٌ يَأْتِي الْأَنْصَارَ فَيَتَحَفُّوْنَهُ وَيُصِيبُ عَنْدهُمْ مَا بِهِ حَاجَةٌ إِلَى هَذِهِ الْجُرْعَةِ فَأَتَيْتَهَا فَشَرِبْتُهَا فَلَمَّا أَنْ وَغَلْتُ فِي بَطْنِي وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَيْهَا سَبِيلٌ ، قَالَ: نَدَمْنِي الشَّيْطَانُ فَقَالَ وَيْحَكَ مَا صَنَعْتَ أَشَرِبْتَ شَرَابَ مُحَمَّدٍ فَيَجِيءُ فَلَا يَجِدُهُ فَيَدْعُو عَلَيْكَ فَتَهْلِكُ فَتَذْهَبُ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ. وَعَلَى شَمْلَةٍ إِذَا وَضَعْتُهَا عَلَى قَدَمِي خَرَجَ رَأْسِي وَإِذَا وَضَعْتُهَا عَلَى رَأْسِي خَرَجَ قَدَمَايَ وَجَعَلَ لَا يَحِيْثُنِي النَّوْمُ وَأَمَّا صَاحِبَايَ فَنَامَا وَلَمْ يَصْنَعَا مَا صَنَعْتُ ، قَالَ: فَجَاءَ النَّبِيُّ فَسَلَّمَ كَمَا كَانَ يُسَلِّمُ ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَصَلَّى ثُمَّ أَتَى شَرَابَهُ فَكَشَفَ عَنْهُ فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقُلْتُ الْآنَ يَدْعُو عَلَيَّ فَأَهْلِكُ. فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي وَأَسْقِ مَنْ أَسْقَانِي». قَالَ: فَعَمَدْتُ إِلَى الشَّمْلَةِ فَشَدَدْتُهَا عَلَيَّ وَأَخَذْتُ الشَّفْرَةَ فَأَنْطَلَقْتُ إِلَى الْأَعْزِ أَيْهَا أَسْمَنُ فَأَذْبَحُهَا لِرَسُولِ اللَّهِ فَإِذَا هِيَ حَافِلَةٌ وَإِذَا هُنَّ حُفْلٌ كُلُّهُنَّ فَعَمَدْتُ إِلَى إِنَاءٍ لِّأَلِ مُحَمَّدٍ مَا كَانُوا يَطْمَعُونَ أَنْ يَحْتَلَبُوا فِيهِ ، قَالَ: فَحَلَبْتُ فِيهِ حَتَّى عَلَتْهُ رَغْوَةٌ فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ: «أَشْرَبْتُمْ شَرَابَكُمْ اللَّيْلَةَ». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اشْرَبْ. فَشَرِبَ ثُمَّ نَاوَلَنِي فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ اشْرَبْ. فَشَرِبَ ثُمَّ نَاوَلَنِي فَلَمَّا عَرَفْتُ أَنَّ النَّبِيَّ قَدْ رَوَى وَأَصَبْتُ دَعْوَتَهُ صَحَكْتُ حَتَّى أُلْقَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ «إِحْدَى سَوَاتِكَ يَا مِقْدَادُ». فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَانَ مِنْ أَمْرِي كَذَا وَفَعَلْتُ كَذَا. فَقَالَ النَّبِيُّ «مَا هَذِهِ إِلَّا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ أَفَلَا كُنْتَ آذَنْتَنِي فَنُوقِظَ صَاحِبَيْنَا فَيُصَيِّبَانِ مِنْهَا». قَالَ

فَقُلْتُ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَبَالِي إِذَا أَصَبْتُهَا وَأَصَبْتُهَا مَعَكَ مَنْ أَصَابَهَا مِنَ النَّاسِ.

وما حصل لنا بحمد الله في أيام حصار الرافضة لأهل السنة في دماج من الطمأنينة والسكينة وهدوء البال والنصر والرفق في الجرحى، وما أظهره الله تعالى من جثث القتلى بعد سنة ونصف من دفنهم بحيث لم تأكلهم الأرض، وغير ذلك مما كان يحصل فالله لطيف بعباده ولا يُشترط أن تظهر لك كرامة على صورة كذا وكذا كما يذكرون فأحسن كرامة هي دوام الاستقامة ثم إذا جعل الله ما يظهر، فله الحمد وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

قال السفاريني في منظومته:

وَكُلُّ خَارِقٍ أَتَى عَنْ صَالِحٍ مِنْ تَابِعٍ لِشَرْعِنَا وَنَاصِحٍ
فَإِنَّهَا مِنْ الْكَرَامَاتِ الَّتِي بِهَا نَقُولُ فَاَقْفُ لِلْأَدِلَّةِ
وَمَنْ نَفَاهَا مِنْ ذَوِي الضَّلَالِ فَقَدْ أَتَى فِي ذَاكَ بِالْمُحَالِ
فَإِنَّهَا شَهِيرَةٌ وَلَمْ تَزَلْ فِي كُلِّ عَصْرِ يَا شَقَا أَهْلَ الزَّلِّ

❦ **الثاني:** المعتزلة ومن إليهم الذين يُنكرون حصول الكرامات بالكلية ولا يؤمنون بها، وزعموا أن الخوارق لو جاز ظهورها من الأولياء لالتبس النبي بغيره إذ فرق ما بينهما -عندهم- إنما هو المعجزة، وبنوا على ذلك أنه لا يجوز ظهور خارق إلا لنبي.

❦ **الثالث:** من يتكلف ادعائها وفي البحث عنها وهم الصوفية حتى إنهم يجعلون ما ليس بكرامة كرامة، بل يجعلون ما هو من خصائص الله وحده كرامة

لأوليائهم؛ كقول بعضهم: أن لله عبادًا لو شاءوا من الله ألا يقيم القيامة لما أقامها، وقول بعضهم: إنه يعطى في أي شيء أرادته قول كن فيكون، وقول بعضهم: لا يعزب عن قدرته ممكن كما لا يعزب عن قدرة ربه محال إلى غير ذلك من الضلالات والكفریات، ويثبتونها للفساق والضلال ومن هذا الباب كتاب كرامات الأولياء للنبهاني، و كرامات الأولياء لليافعي، فهي كتب فيها الزندقة والإلحاد وفيها المخاريق الباطلة ومنها زعمهم أن العيدروس أحيا امرأته عائشة بنت عمر المحضار وأحيا الشاب الذي سرق مزرعته، ويتكلفون ادعاء الكرامات وربما أجاعوا أنفسهم وأتعبوها بالسهر وغير ذلك حتى تظهر له كرامة فيما يزعم بل ويجعلون المخاريق التي يقوم بها السحرة والمشعوذون من هذه فتجد أحدهم يسير في البلدان والأوطان وفي يده خنجر ويستغيث بآبن علوان ويطعن نفسه، فيُخَيَّل للناس أنه طعن عينه وهو ما طعنها وإنما هو سحر وشعوذة فهذه ليست من الكرامة في شيء بل هي من أسباب الذلّة والمهانة.

أهمية الاتباع

قال :

ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ اتَّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا.

(ثُمَّ) بضم الثاء المثلثة حرف عطف، وبفتحها اسم إشارة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نِعَمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠]، وقد اختلفوا فيه: هل يدل على الترتيب أو عدمه؟ والصحيح: أنه لا يفيد، حتى قال الشاعر:

إِنْ مَنْ سَادَ ثَمَّ سَادَ أَبْوُهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ

فمن طريقة أهل السنة اتباع الآثار اعتقادًا وعملاً وما سُموا أهل الأثر إلا لهذا والمتابعة تكون للنبي في كل ما جل ودق وكبر وصغر، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، من أعظم وسائل نصره الدعوة: قال الله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

ومن الفتن العظيمة أنهار الدعوات والرجوع إلى القهقري.

وقال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

ومن أعظم الفلاح هو انتصار وتمكن الدعوة السلفية، فكن كما أراد الله
تُكَنَّ في الدنيا والآخرة.

قال الجنيد كما قال السيوطي في الأمر بالاتباع (٥٣): الطرق كلها
مسدودة إلا على المقتفين آثار رسول الله ، والمتبعين سنته وطريقته، فإن
طرق الخير مفتوحة عليه كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال الأوزاعي : (إياك وأقوال الرجال وإن زخرفوا لك بالقول)،
وقال سفيان : (وجدنا الأمر كله في الاتباع) وقال عبدالله بن مسعود
: (اتبعوا ولا تبدعوا فقد كُفيتُم)، ويقول عمر بن الخطاب :
(أصحاب الرأي أعداء السنن أعتهم السنن أن يفهموها فقالوا برأيهم)، ومن

جعل دينه عرضة للرأي والخصومات أكثر التنقل. وقال عبدالله بن عمر لما سأله رجل عن استلام الحجر، فقال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَسْتَلِمُهُ وَيُقَبِّلُهُ. قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ زُجِّمْتُ؟ أَرَأَيْتَ إِنْ غُلِبْتُ؟ قَالَ: (اجْعَلْ أَرَأَيْتَ بِالْيَمَنِ، رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَسْتَلِمُهُ وَيُقَبِّلُهُ). رواه البخاري (١٦١١).

وسهل بن حنيف يقول: (يا أيها الناس اهتموا رأيكم، لقد رأيتني يوم أبي جندل لو أستطيع أن أرد أمر النبي لرددته)، ومع ذلك كادوا أن يهلكوا بسبب ذلك الأمر لولا أن الله من عليهم بمشورة أم سلمة على أن النبي يخرج ويخلق رأسه وينحر هديه فخرج فتتابع المسلمون على متابعة النبي وسبب الضلال الرأي كما في حديث عبدالله بن عمرو عند البخاري (١٠١) واللفظ له، ومسلم (٢٦٧٣)، قال النبي: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»، وفي رواية عند البخاري «أففتوا برأيهم»، فالرأي بلاء ومرض أصاب كثيرا من الأمة حتى سُموا بالرأيين، وقال الإمام أحمد بن حنبل: (عجبت لمن عرف الإسناد وصحته ثم يعمد إلى قول سفيان)، وقال: (لو استطعت أن لا تحك ظهرك إلا بأثر فافعل)، ويذكر أنه عند موته جعل يئن ثم ترك الأنين لحديث بلغه عن طاووس أن الأنين يكتب، وفي فتنة القول بخلق القرآن جعل يقول: (إيتوني بحديث عن رسول الله أو بآية من كتاب الله حتى أقول به)، ومن أعظم ما يدل على أن الاتباع سبب للأستمرار في الخير، والابتداع سبب للانحراف والضير: ما أخرجه الإمام مسلم (١٧٥٩) من حديث عائشة قالت:

وكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبتها مما ترك رسول الله من خير وفدك، وصدقته بالمدينة، فأبى أبوبكر عليها ذلك وقال: لست تاركاً شيئاً كان النبي يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ.

ونقل الإمام الذهبي في السير (٩٨/٨) عن الإمام مالك ابن أنس قوله: سن رسول الله وولاة الأمر بعده سنناً الأخذ بها اتباع لكتاب الله واستكمال بطاعة الله، وقوة على دين الله ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها من اهتدي بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصله جهنم وساءت مصيراً.

وكان السلف رضوان الله عليهم يرون اتباع كالجهاد في سبيل الله، قال أبو عبيد القاسم بن سلام كما في السير (٤٩٩/١٠): المتبع السنة كالقابض على الجمر، وهو اليوم عندي أفضل من ضرب بالسيف في سبيل الله.

ومعلوم أن الضرب بالسيف في سبيل الله من أسباب انتشار الدين واستمرارية عزته، قال: «وَجُعِلَتِ الدُّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي».

والأثر يُطلق ويُراد به آثار الرسول ويُطلق ويراد به آثار الصحابة رضوان الله عليهم.

قال :

وَاتَّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.

ومن طريقهم اتباع سبيل السابقين من المهاجرين والأنصار في فهم الكتاب والسنة لقول الله : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فسبب رضوان الله على العبد اتباع المهاجرين والأنصار في دين الله الذي بعث به محمد وعدم مشاقتهم قال الله : ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

قال :

وَاتَّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَيْثُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي».

الدليل على أنهم وصية رسول الله حديث العرباض بن سارية قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ الْفَجْرَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَوَعظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ لَهَا الْأَعْيُنُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فُلْنَا أَوْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُودَّعٍ، فَأَوْصِنَا. قَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبِشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بِعِدِّي اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» رواه أبو داود (٤٦٠٧)، الترمذي (٢٦٧٦)، ابن ماجه (٤٢)، أحمد (١٧١٤٤)، وهم أبوبكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ وعند التجوز فأصحاب النبيّ كلّهم خلفاء مهديين، من حيث أخذهم للعلم وتعظيمهم له والعمل به والنقل له فكلّهم خلفاء

لرسول الله لكن الحديث يُراد به الخلفاء الأربعة الذين ولوا أمر المسلمين ظاهراً وباطناً.

رشدوا بسبب أخذهم بالرشد وهو الكتاب، قال الله : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ١-٢]، والسنة ففي حديث عدي بن حاتم عند مسلم من يطع الله ورسوله فقد رشد.

وهدوا لأخذهم بالقرآن والسنة فإن الهدى فيهما والضلال في غيرهما، قال الله تعالى: ﴿الْم ۖ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

وقوله: (من بعدي) أي الذين تولّوا أمر المسلمين من بعده ولا يزال الإسلام عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش كما في حديث جابر بن سمرة عند مسلم (١٨٢١)، وهذا الحديث يعتبر قاصمة ظهر للرافضة ومن إليهم فهم يزعمون أنّ زمن بني أمية كان زمن ظلم وبغي وذلة للإسلام والمسلمين والنبى يُخبر أنّ الإسلام مازال عزيزاً منيعاً في هذه الفترة وفيه بيان أنّ حكام بني أمية يُسمّون خلفاء وإن كانوا ليسوا بالخلفاء الأربعة وحديث سفينة عند أحمد (٢١٩٢٨) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «الْخِلَافَةُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ مُلْكًا بَعْدَ ذَلِكَ»، ثُمَّ قَالَ لِي سَفِينَةُ: (أَمْسِكْ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ، وَخِلَافَةَ عُمَرَ، وَخِلَافَةَ عُثْمَانَ، وَأَمْسِكْ خِلَافَةَ عَلِيٍّ)، قَالَ: (فَوَجَدْنَاهَا ثَلَاثِينَ سَنَةً، ثُمَّ نَظَرْتُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْخُلَفَاءِ، فَلَمْ أَجِدْهُ يَتَفَقُّ لَهُمْ ثَلَاثُونَ) أنكره

ابن العربي وقال: هذا يُخالف ما في الصحيح، وهو حديث جابر بن سمرة السابق ذكره.

قال :

«تَمَسَّكُوا بِهَا».

والتمسك بالكتاب والسنة أجره عظيم، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، وقال أبو بكر بن أبي داود في الحائثية:

تَمَسَّكَ بِحَبْلِ اللَّهِ وَاتَّبَعَ الْهُدَى وَلَا تَكُ بِدْعِيًّا لَعَلَّكَ تُفْلِحُ
وَدِنَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَالسُّنَنِ الَّتِي أَتَتْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ تَنْجُ وَتَرْبِحُ
وَلَا تَكُ مِنْ قَوْمٍ تَلْهَوُ بِدِينِهِمْ فَتَطْعَنَ فِي أَهْلِ الْحَدِيثِ وَتَقْدَحُ
فالتمسك بالأثر واجب وحتم لهذه الأدلة وغيرها.

قال :

«وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ».

العَضُّ بالنواجذ وهي الأضراس كناية على شدة التمسك بالسنة لأنك لو مسكت بيدك ربما يفلت الحبل ولو مسكت بأسنانك وثناياك ربما انقلعت لكن النواجذ المسك بها قويُّ فلهذا قال النبي : «تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» من حديث العرباض عند أبي داود (٤٦٠٧) واللفظ له، الترمذي (٢٦٧٦)، ابن ماجه (٤٢) وأحمد (١٧١٤٤)، وفي هذا بيان لحاجة

العبد للتمسك بالسنة والنبي يقول: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ» من حديث أنس عند الترمذي (٢٢٦٠). وهذا الحديث من ثلاثيات الترمذي، ولكن للحديث شواهد، منها: قول النبي : «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ، كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا» من حديث عبدالله بن عمر عند مسلم (١٤٦)، ونحوه عن أبي هريرة .

قال :

«وَيَاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

وفي رواية (كلّ محدثة بدعة) فكلّ محدثة في الدين لم يشرعها الله ولم يُبلِّغها رسول الله فهي بدعة، قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، فكلّ محدثة في الدين بدعة سواء أحدثها هو أو غيره ويدل على ذلك قوله : «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ» من حديث عائشة عند البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)، ومسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ». وفي الأثر المشهور الذي أخرجه الدارمي في مقدمة سننه وهو في آخر مصنف ابن أبي شيبة أن أبا موسى الأشعري جاء إلى باب ابن مسعود فقال: أَخْرَجَ إِلَيْكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ قُلْنَا: لَا، بَعْدُ. فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ، فَلَمَّا خَرَجَ، قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعًا، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ آتِفًا

أَمْرًا أَنْكَرْتُهُ وَلَمْ أَر - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - إِلَّا خَيْرًا. قَالَ: فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: إِنْ عِشْتَ فَسْتَرَاهُ. قَالَ: رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَوْمًا حَلَقًا جُلُوسًا يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ فِي كُلِّ حَلَقَةٍ رَجُلٌ، وَفِي أَيْدِيهِمْ حَصَا، فَيَقُولُ: كَبَرُوا مِائَةً، فَيَكْبَرُونَ مِائَةً، فَيَقُولُ: هَلَّلُوا مِائَةً، فَيَهَلِّلُونَ مِائَةً، وَيَقُولُ: سَبَّحُوا مِائَةً، فَيَسْبِّحُونَ مِائَةً، قَالَ: فَمَاذَا قُلْتُمْ لَهُمْ؟ قَالَ: مَا قُلْتُمْ لَهُمْ شَيْئًا أَنْتَظَارَ رَأْيِكَ أَوْ أَنْتَظَارَ أَمْرِكَ. قَالَ: (أَفَلَا أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ، وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ)، ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلَقَةً مِنْ تِلْكَ الْحَلَقِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: (مَا هَذَا الَّذِي أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟) قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَصَا نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ. قَالَ: (فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ، فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ وَيُحْكَمَ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، مَا أَسْرَعَ هَلَكْتَكُمْ هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ مُتَوَافِرُونَ، وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبَلْ، وَأَنِيتُهُ لَمْ تُكْسَرْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ أَوْ مُفْتَسِّحُو بَابِ ضَلَالَةٍ). قَالُوا: وَاللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا أَرَدْنَا إِلَّا الْخَيْرَ. قَالَ: (وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ)، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ حَدَّثَنَا أَنَّ قَوْمًا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، وَإِنَّمَا اللَّهُ مَا أَذْرِي لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ، ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ. فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ: رَأَيْنَا عَامَّةَ أَوْلِيكَ الْحَلَقِ يُطَاعِنُونَا يَوْمَ النَّهْرِ وَإِنْ مَعَ الْخَوَارِجِ. سنن الدارمي (٢٠٤)، فالشاهد أن كل محدثة في الدين بدعة وضلالة لأمر:

الأول: أن المحدث شرع في الدين ما لم يأذن به الله.

الثاني: أن الإحداث فيه طعن في تبليغ النبي .

الثالث: فيه طعن في الإسلام وإنه ناقص حتى أحدث هذا المحدث.

والبدعة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (هو الدين الذي لم يأذن الله به).

وتقسيم البدع إلى حسنة، وسيئة يرده، قول النبي : «فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٍ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» من حديث العرباض عند أبي داود (٤٦٠٧)، وقوله : «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ» من حديث عائشة عند البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)، وأما قول النبي : «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً» من حديث جرير عند مسلم (١٠١٧)، فهذا محمول على من أحيا سنة من السنن التي شرعها الله وشرعها رسول الله فإن الحديث قاله النبي في شأن ذلك الذي تصدق بصدقة فتتابع الناس، والسنة الحسنة هي طريقة النبي والسنة السيئة هي ما أحدثها غيره وأما قول عمر : (نعمة البدعة) فالمراد بها البدعة اللغوية كما قال أهل العلم ومع ذلك مازال كثير من أهل العلم يرون أن الصلاة في البيت أفضل بل هو قول جماهيرهم عند التحقيق والرسول صلى في المسجد لما كان معتكفاً وصلّى الناس خلفه فمن تأسى بالنبي فلا يُنكر عليه ولا يُبدع لأن الصلاة في المسجد عبادة لها أصل، أما من أحدث حدثاً لم يكن عليه النبي ولم يكن عليه أصحابه فهنا تقع البدعة فالبدعة هي الدين الذي لم يأذن الله به.

قال :

«وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ».

لقول الله : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، فأصدق الكلام كلام الله، قال الله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥]، صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال النبي : «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ، حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ» من حديث خولة بنت حكيم عند مسلم (٢٧٠٨) وجاء عن أبي هريرة عنده (٢٧٠٩)، وهذا الاعتقاد مؤداه إلى الإيمان بما دل عليه كلام الله وكلام رسوله لأنه يجب قبوله، ولا يردّ هذا الخبر إلّا من سفه نفسه فكون الله يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، يجب علينا الإيمان باستواء الله على عرشه على ما يليق بجلاله لأنّ الذي أخبر بهذا هو الله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، وهو أصدق قِيلًا وأحسن حديثًا، وكذا والإيمان بأنّ الله ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل يجب الإيمان به لأنّ المتكلّم به رسول الله وهو أصدق الخلق لسانًا وأفصحهم بيانًا وأعلمهم برّبّه وأنصحهم للأمة وخير الهدي هدي محمد رسول الله وهذا هو الذي دلّ عليه حديث جابر في مسلم (٨٦٧)، قال النبي : «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ»، وفي رواية (فإنّ أصدق الكلام كلام الله)، فطريقة أهل السنّة طريقة رشد مع الله ومع رسوله ومع الصحابة ومع العلم وفي جميع ما يأتيهم من عند الله فهنيئًا لمن حقّق طريقهم وسار على سيرهم.

تقديم أهل السنة للدليل على غيره

قال :

وَيُؤْثِرُونَ كَلَامَ اللَّهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ أَصْنَافِ النَّاسِ.

لأنّ كلام الله أصدق الكلام، وأحسن الكلام وأوضح البيان، قال الله تعالى: ﴿حَمَّ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿الزخرف: ١-٣﴾، وقال : ﴿الرَّكَتُبِ أَحْكَمَتْ أَيْنُهُ، ثُمَّ فَضِلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١]، وقال : ﴿حَمَّ ۝١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿الجاثية: ١-٢﴾، فهو كتاب عظيم، المتكلم به هو العالم العليم بكل شيء لا تخفى عليه خافية وهو أصدق قيلاً وأحسن حديثاً فكيف لا يكون كلامه هو المقدم وهو المأخوذ به، قال الله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلُ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، بينما الناس يصيبون ويخطؤون ويعلمون ويجهلون ووحى الله لا يأتى الباطل لأنه تنزيل من موصوف بصفة الحكمة الذي لا يمكن أن يضع الشيء في غير موضعه، قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وتنزيل من حميد المتصف بالمحامد العظيمة والصفات الجليلة فكلامه لا يأتى الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنّ المتكلم به والمنزل له حكيم حميد ومع ذلك يدخل في قوله حميد العلم والقدرة والإرادة وجميع صفات الكمال لله والناس تتفاوت مداركهم وتختلف أفكارهم ولهذا قال الله : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، أي اضطراباً وتفاوتاً وتبايناً،

لكن كلام الله ليس فيه اختلافًا وما ظنّه المبتدعة اختلاف كالمعتزلة والجهمية ومن إليهم من الممثلة والأشاعرة والجبرية والقدرية إنّما هو لسوء معتقداتهم ولتعمّق جهلهم وإلاّ فعلماء السنّة يعلمون أنّ كلام الله لا يُناقض بعضه بعضًا ولهذا ألّف الإمام الشنقيطي كتاب دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، وبابه الجمع بين الآيات التي يُظنّ أنّ بينها اختلافًا أو تضاربًا فيُبين مراد الله أو مراد رسوله ولهذا قال ابن خزيمة : (لا أُوتى بحديثين صحيحين ظاهرهما التعارض إلّا جمعت بينهما) ، فالفقيه إذا نظر إلى قول النبيّ : «إِنَّمَا الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ» من حديث أبي سعيد الخدري عند مسلم (٣٤٣) ، وحديث : (إِنَّمَا كَانَ الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ رُخْصَةً فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ نُهِى عَنْهَا) من حديث أبي بن كعب عند الترمذي (١١٠) و(١١١) ، فيقال : ليس بينهما تناقض وإنّما هذا متأخّر وهو ناسخ للمتقدّم ويقول المبتدع في قوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] ، وقوله : ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] ، هذه الآيات متضاربات مختلفات فيقول أهل السنّة ليس بينهما اختلافًا ولا اضطرابًا بل نُثبت لله العلوّ كما يليق بجلاله ونُثبت له معيّة تليق بجلاله على ما تقدّم بيانه فهو معنا وهو على عرشه بائن من خلقه معنا بعلمه وقهره وسلطانه وغير ذلك من خصائص ربوبيّته ومن ذلك ما زعمته الزنادقة ، فقالوا في القرآن : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] ، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٨] ، ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] ، وهذا تناقض واختلاف فيّين لهم الإمام أحمد كما في كتابه الردّ على الجهميّة أن لا تناقض ولا اختلاف ، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ المشرق الذي تطلع منه الشمس والمغرب الذي تغرب فيه الشمس ، و﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ مشرق الصيف

ومشرق الشتاء ومغرب الصيف ومغرب الشتاء، وقوله: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ المراد بها منازل الشمس والقمر، كل يوم يطلع من منزلة ويغرب من منزلة وقالوا أنتم تثبتون لله يدًا أم يدين أم تثبتون لله أيادي في قول الله : ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، وقوله : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ [يس: ٧١]؟ فكان جواب أهل السنة أن لا تناقض بل اعتقادهم وكلامهم على مقتضى لغة العرب فإنك عند إن قلت يد فلان وتضيفها تشمل جميع ما يتصف به وإذا جمعت يأتي على التعظيم والله يُعْظَم نفسه وفي قولهم إن أقل الجمع اثنان فيكون على ظاهرها، وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ذكر ما ثبت لله من صفة اليدين وهكذا في جميع ما يظنه المبتدعة تناقضًا، قال الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، قالوا فيها نفى الرؤية وهذا يتعارض مع قول الله : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، فقال لهم أهل السنة بل آية الأنعام موافقة ودالة دلالة صريحة على ما تضمنته آية القيامة وذلك لأن الإدراك رؤية وزيادة فالله يُرى ولا يُدرك وعندنا قاعدة أن الصفات السلبية لا بد أن تتضمن كمال الضد فقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ يثبت به الرؤية ويُنفى به الإدراك على ما تقدّم بيانه، هذه أمثلة نسوقها لكم وإلا فإن المبتدعة يأخذون بمتشابه القرآن ولهذا قال النبي : «فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَأَخَذَرُوهُمْ» من حديث عائشة عند البخاري (٤٥٤٧) ومسلم (٢٦٦٥)، والمبتدعة يتمسكون بالقرآن أكثر من تمسكهم بالسنة لأن السنة مبينة للقرآن وقاضية عليه كما قال يحيى بن أبي كثير وإن كان الإمام أحمد تخرج من قوله

(وقاضية عليه) لكن معنى قاضية أي مبيّنة موضحة مجلّية ولهذا قال عمر بن الخطاب : (أصحاب الرأي أعداء السنن)؛ لأنّ السنن أعيتهم وثقلت عليهم فذهبوا يأخذون بمتشابه القرآن والقرآن قد وُصف أنّه بكلّه متشابه كما قال الله : ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]، ووصف أنّه كله محكم قال الله تعالى: ﴿الرَّكَنُ أَكْثَرُ أَعْيُنُهُ﴾ [هود: ١]، ووصف بأنّ منه المحكم والمتشابه قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، فالتشابه في سورة الزمر يُراد به تشابه ألفاظه وسياقته وأحكامه وقصصه وبيانه والإحكام في سورة هود يريد به الاتقان والبيان والإحكام في سورة آل عمران يراد به البين الواضح المحكم النصّ والمتشابه يراد به المشكل فأهل البدع يذهبون إلى ما يظنّونه مشكلاً من آيات الكتاب ويجعلونه دينهم والله قد حذّرنا من هذا الصنف قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، أي ما يعلم حقيقة هذه الصفات إلا الله والكلام على هذا الباب يطول وإلا فالآيات التي يحتجّ بها المبطلون على فساد مذهبهم كثيرة جداً مثل قوله تعالى: ﴿لَنْ تَرْضَى﴾ [الأعراف: ١٤٣] يُقدّمونها على قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، ومثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، قالوا القرآن شيء فهو مخلوق وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، فقالوا (جعل) بمعنى خلق وقد تقدّم الجواب عنها جميعاً فكلّ آية يستدلّ بها المبتدعة هي ردّ عليهم وفيها بيان لضلالهم، فالضرر الذي يقع على المبتدعة بسبب سوء فهمهم للقرآن لا بسبب

القرآن فالقرآن حق لا باطل فيه ونور لا ظلام فيه وهدى لا ضلال فيه وصدق لا كذب فيه لكن الخلل يقع من فساد معتقد المبتدعة قاتلهم الله أن يؤفكون.

قال :

وَيَقْدُمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ.

لأن هدي محمد أصله القرآن ولما سئلت عائشة عن خلق النبي ، قالت : فإن خلق نبي الله كان القرآن. مسلم (٧٤٦)، وعن أنس بن مالك قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا فَرُبَّمَا تَخْضُرُ الصَّلَاةُ وَهُوَ فِي بَيْتِنَا فَيَأْمُرُ بِالْبَسَاطِ الَّذِي تَحْتَهُ فَيَكْنَسُ ثُمَّ يَنْضَحُ ثُمَّ يَوْمُ رَسُولُ اللَّهِ وَنَقُومُ خَلْفَهُ فَيُصَلِّي بِنَا وَكَانَ بِسَاطُهُمْ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ. متفق عليه. وعن أبي إسحاق قال: سَمِعْتُ الْبَرَاءَ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا وَأَحْسَنَهُمْ خُلُقًا، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الذَّاهِبِ وَلَا بِالْقَصِيرِ. متفق عليه. وقالت له خديجة أبشر فوالله لا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا وَاللهُ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرَى الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ. متفق عليه عن عائشة .

وقال الله تعالى في وصف نبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وكيف لا يكون عظيمًا وهو يتأول القرآن في خروجه ودخوله وفي جميع لحظاته وسكناته، قالت عائشة : كَانَ النَّبِيُّ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» يتأول القرآن. رواه البخاري (٨١٧) ومسلم (٤٨٤)، أي يعمل بالقرآن فهدي رسول الله أفضل الهدى

وأكمل الهدي قال الله : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤]، فكلامه وحى من الله وفعله ناتج عن الوحي من الله واعتقاده كذلك ولهذا كان يقول في خطبه: «فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ» من حديث جابر بن عبد الله عند مسلم (٨٦٧)، ولأن الله أمر بذلك فقال تعالى: ﴿ أَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، وقال : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

قال :

وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الْاجْتِمَاعُ.

وسموا بأهل الكتاب لأخذهم بكتاب الله وبدلالته الحقّة وسموا أهل السنّة لأخذهم بطريقة رسول الله فأسماء أهل السنّة ناتجة عن أفعالهم وعن معتقداتهم فأسمائهم أعلام وأوصاف، وسموا بالجماعة لاجتماعهم على الحق، والسلف لتعظيمهم منهج السلف، وأهل الأثر لجعل الآثار هي المصباح الذي يسرون خلفه، وأهل الحديث لتعظيمهم حديث النبي حتى قال الخواص:

ذَهَبَتْ دَوْلَةُ أَصْحَابِ الْبِدْعِ وَوَهَى حَبْلُهُمْ ثُمَّ انْقَطَعَ
وَتَدَاعَى بِانْصِرَامِ جَمْعُهُمْ جَمْعُ إِبْلِيسَ الَّذِي كَانَ جَمَعَ
هَلْ هُمْ يَا قَوْمٍ فِي بَدْعَتِهِمْ مِنْ فَقِيهِ أَوْ إِمَامٍ يُتَّبَعُ
مِثْلُ سُفْيَانَ أَخِي ثَوْرِ الَّذِي عَلَّمَ النَّاسَ دَقِيقَاتِ الْوَرَعِ
أَوْ سُلَيْمَانَ أَخِي التَّيْمِ الَّذِي تَرَكَ النَّوْمَ لِهَوْلِ الْمُطْلَعِ
أَوْ فَتَى الْإِسْلَامِ أَغْنَى أَحْمَدًا ذَاكَ لَوْ قَارَعَهُ الْقُرَا قَرَعُ
لَمْ يَخَفْ سَوْطَهُمْ إِذْ خَوْفُوا لَا وَلَا سَيْفَهُمْ حِينَ لَمَعَ

قال :

وَصِدُّهَا الْفُرْقَةُ.

أي ضدَّ السنة الفرقة بضم الفاء من الافتراق والاختلاف، قال الله :
﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى
اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، والفرقة ضلالة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ
أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، وحذر
منها بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ
وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢]، وقال النبي :
«إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ» من حديث أنس عند ابن ماجه (٣٩٥٠).

ولهذا بين النبي أسباب ضلال هذه الأمة، ومنها ما تقدم. فعن أبي
سعيد الخدري ، عن النبي قال: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شَبْرًا

شِبْرًا، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحَرَ صَبَّ تَبِعْتُمُوهُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟» رواه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩).

قال النووي : السنن بفتح السين والنون وهو الطريق والمراد بالشبر والذراع وجحر الضب التمثيل بشدة الموافقة لهم والمراد الموافقة في المعاصي والمخالفات لا في الكفر. اهـ

وفي البخاري (٧٣١٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا، شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ» فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَفَّارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «وَمَنْ النَّاسُ إِلَّا أَوْلَئِكَ؟!».

قال محمد بن الحسن الآجري في الشريعة بعد رقم (٣٥): من تصفح أمر هذه الأمة من عالم عاقل، علم أن أكثرهم والعام منهم تجري أمورهم على سنن أهل الكتابين، كما قال النبي ، أو على سنن كسرى وقيصر، أو على سنن الجاهلية، وذلك مثل السلطنة وأحكامهم في العمال والأمراء وغيرهم، وأمر المصائب والأفراح والمساكن واللباس والحلية، والأكل والشرب والولائم، والمراكب والخدام والمجالس والمجالسة، والبيع والشراء، والمكاسب من جهات كثيرة، وأشباه لما ذكرت يطول شرحها، تجري بينهم على خلاف السنة والكتاب، وإنما تجري بينهم على سنن من قبلنا، كما قال النبي . والله المستعان.

ما أقل من يتخلص من البلاء الذي قد عم الناس، وأن يميز هذا: إلا عاقل عالم قد أدبه العلم. اهـ

أقول: هذا في زمنه ، فكيف لو رأى حال الناس في هذه الأعصار وفي كثير من الأمصار، وقد تسلط الكفار، وقويت شوكتهم، فقلدهم الناس في الملبس والمأكّل والمشرب وأمور الدول والجيوش والأعاب، فالله المستعان من غربة الزمان، ومع ذلك لن يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً يحفظه الله إنجازاً لوعده بالطائفة المنصورة والفرقة الناجية.

ومن أسباب الوقوع في الضلال أيضاً اتباع المتشابه من الأدلة لغرض رد الكتاب والسنة بدعوى التعارض، وقد حذرنا رسول الله ﷺ من هذا الصنف كما في حديث عائشة قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧] قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاخَذَرُوهُمْ» رواه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

وقد ضل المبتدعة في باب الأسماء والصفات، وباب الإيثار باليوم الآخر من هذا الباب، حيث زعموا أن أدلته من باب المتشابه الذي لا يعمل به إلا الله والصحيح من الأقوال أن آيات وأحاديث الصفات من باب المحكم البين الواضح.

ومن أسباب الضلال والانحراف عن طريق أهل الحق وعن سبيل السلف: الجدل بالباطل، قال الله ﷻ: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ

كَفَرُوا» [غافر: ٤]، وفي حديث أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ» ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَا صَرِيحُكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾. أخرجه الترمذي (٣٢٥٣).

ويدخل في هذا الاختلاف في الكتاب والتخاصم بالباطل، ففي مسلم (٢٦٦٦) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: هَجَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ يَوْمًا، قَالَ: فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ يُعْرِفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ، فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ».

قال النووي : المراد بهلاك مَنْ قَبْلَنَا هُنَا هَلَاكُهُمْ فِي الدِّينِ بِكُفْرِهِمْ، وَابْتِدَاعِهِمْ، فَحَذَّرَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ مِثْلِ فِعْلِهِمْ. اهـ

ومنها: الغلو في الدين، فإنه سبب للهلاك والانحراف عن طريق السلف وطريق الاستقامة إلى طريق الخلف، ففي مسلم (٢٦٧٠) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلَاثًا.

قال النووي : قَوْلُهُ : (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ) أَيُّ: الْمُتَعَمِّقُونَ الْعَالُونَ الْمَجَاوِزُونَ الْحُدُودَ فِي أَقْوَاهُمْ وَأَفْعَالِهِمْ. اهـ

والأدلة في النهي عن الغلو كثيرة؛ لما فيه من الهلكة على صاحبه لانقطاعه بعد ذلك، وعلى غيره لأنه سبب لتغيرهم وصددهم عن الخير. والغلو يكون بالتفريط والإفراط، قال الله : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧]، وأهل الكتاب يشمل اليهود والنصارى، وكلهم غلا في عيسى ، فالنصارى ألهوه، واليهود اتهموه أنه ولد زنا، والله المستعان.

ومن أسباب الهلكة: الفتور عن السنة وعن الطريقة السلفية، ففي حديث
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «لِكُلِّ عَمَلٍ شَرَّةٌ، وَلِكُلِّ شَرَّةٍ
فِتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فِتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ»
رواه الترمذي (٢٤٥٣)، وأحمد (٢/ ٢١٠) واللفظ له.

ومن أسبابها: علماء السوء وأصحاب الرأي والأقيسة الفاسدة، ففي
البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ
قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ
الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بَقْبِضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ
رُءُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا» وفي رواية للبخاري
(٧٣٠٧): «يفتتون برأيهم».

قال :

وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ.

الجماعة: هي جماعة المسلمين، وهم الصحابة والتابعون ومن سار على
سيرهم إلى يوم الدين.

وسموا بالجماعة لاجتماعهم على الخير والصلاح، والهدى والفلاح، المتمثل
في أخذ الكتاب والسنة على فهم صفوة الأمة، ومن سار على سيرهم من
الأئمة.

وقد أمر ربنا بلزوم الجماعة، ونهى عن الفرقة، فقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا
بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنْ

الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ [الروم: ٣١-٣٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وحدث رسول الله ﷺ على الجماعة؛ لما فيها من نصرة الدين وظهور الحق المبين، ففي حديث عمر عند الأجرى في الشريعة (٦)، و السنة لابن أبي عاصم ص (٨٨)، وأحمد (١٨ / ١) أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَنَالَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزِمِ الْجَمَاعَةَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الْإِثْنَيْنِ أَبْعَدُ».

وبحبوحة الجنة: وسطها كما في النهاية .

وفي حديث الحارث الأشعري عند الترمذي (٢٨٦٣)، قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «وَأَنَا أَمْرُكُمْ بِحَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعُ، وَالطَّاعَةُ، وَالْجِهَادُ، وَالْهَجْرَةُ، وَالْجَمَاعَةُ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ. وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُنَا جَهَنَّمَ». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ: «وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ: الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ».

ولما كانت الجماعة في الأهمية بمكان قال رسول الله ﷺ : «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَمَاتَ؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» أخرجه مسلم (١٨٤٨) عن أبي هريرة .

وتكمن أهمية الجماعة في كونها محفوظة من الاجتماع على الخطأ بعصمة الكتاب والسنة، قال أبو مسعود عليكم بالجماعة فإن الله لا يجمع أمة محمد

على ضلالة. أخرجه ابن أبي عاصم (٨٥). وجاء مرفوعاً عن ابن عباس
أخرجه الحاكم (١/١١٦).

والجماعة هي الإسلام الحق، والسنة تدل على ذلك.

أخرج أحمد (٣/٣٩٧) وغيره عن النّوّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ
عَنْ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَيْهِ الصِّرَاطِ
سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَتَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرَخَّاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ
دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَفَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ
جَوْفِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ! لَا تَفْتَحْهُ،
فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلْجَهُ. وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْأَبْوَابُ
الْمُفْتَحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ ،
وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ».

وقال عبدالله بن مسعود كما في الشريعة رقم (١٦): (إن هذا الصراط
محتضر يحضره الشياطين، ينادون، يا عبدالله هلم هذا الصراط، ليصدوا عن
سبيل الله تعالى، فاعتصموا بحبل الله تبارك وتعالى. فإن حبل الله هو كتاب
الله جل وعلا).

ولا معرفة للصراط الحق إلا بالعلم النافع الذي هو علم الكتاب والسنة
على ما قرره علماء الأمة.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب النجدي: والعلم هو معرفة الله، ومعرفة
نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

وقد بين رسول الله أن الخيرة في هذا العلم، ففي الصحيحين البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) عن معاوية قال: قال رسول الله : «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

وأخرج الآجري رقم (١٩) عن أبي العالية قوله: (تعلموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم فإنه الإسلام، ولا تحرفوا عن الصراط يميناً ولا شمالاً، وعليكم بسنة نبيكم والذي عليه أصحابه، فإننا قد قرأنا القرآن من قبل أن يفعلوا الذي فعلوه خمس عشرة سنة، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء. فحدثت به الحسن فقال: صدق ونصح. وحدثت به حفصة بنت سيرين، فقالت: أحدثت بهذا محمداً؟ قلت: لا. قالت: فحدثه إذا).

فالواجب على المسلمين الاعتصام بالكتاب والسنة، ولن يتم ذلك إلا بالبعد عن الافتراق والبدعة وملازمة الاتباع.

قال الله : ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. هكذا فسرهما السلف.

قال :

وَالْإِجْمَاعُ هُوَ الْأَصْلُ الثَّلَاثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ.

الأدلة عند أهل السنة ثلاثة:

الكتاب، والسنة، والإجماع؛ يدلّ عليه قول الله : ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وبهذه الآية استدلل الإمام الشافعي وغيره من أهل العلم على أن إجماع الصحابة حجة، ومما يستدل به حديث العرباض بن سارية عند أبي داود (٤٦٠٧)، الترمذي (٢٦٧٦)، ابن ماجه (٤٢)، قال النبي : «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَظُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»، فإذا أجمعوا على أمر وجب الأخذ به وإنك لتعجب من بعض من لم يُحقّق العلم حين تستدلّ عليه بقول صحابي فيقول لك ليس بحجة، تقول ليس بحجة إذا خالف الكتاب والسنة أما إذا لم تجد في المسألة إلا قول الصحابي فربما كان عن اجتهاد أو أنه أخذه من عموم نصوص الشرع فلا ينبغي أن يُهمَل ولهذا تجد ابن القيم وغيره من أهل العلم يُقدّمون قول أبي بكر على قول عمر كما أنهم يُقدّمون قول عمر على قول عثمان أما إذا وُجد الدليل فالحجة بالدليل فنكون في حقّ الصحابة وسط، نستفيد من فهمهم ومن علمهم ومن طريقتهم، فالقرآن نزل بلغتهم وعانوا أسباب نزوله وتلقّوه من النبي غصّا طريّا.

ومن أدلة الإجماع قول النبي : «إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ» من حديث أنس عند ابن ماجه (٣٩٥٠). ومنه حديث عمر : «فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَنَالَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ، فَلْيَلْزِمُ الْجَمَاعَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الْإِثْنَيْنِ أَبْعَدُ» رواه أحمد (١٧٧). وأدلة ساقها أهل العلم وإنما ما ينكر

حجّة الإجماع الرافضة والشيعة ومن إليهم، وما نُقل أنّ الشيخ مقبل كان لا يرى حجّة الإجماع فليس كما نُقل وإنّما كان الشيخ مقبل لا يحتجّ بالإجماعات غير الثابتة، ربّما تجد النووي ينقل الإجماع والباقي وابن عبد البرّ والمسألة خلافية بين أهل العلم فمثل هذه الإجماعات ليست بحجّة وإنّما الحجّة الإجماع المتيقّن الذي لا يجوز خلافه ولهذا قال الإمام أحمد : (من أعيته الأمور ادّعى الإجماع)، والإجماع المتيقّن هو الإجماع الذي يكون على نصّ ولا يمكن أن يوجد إجماع خلاف النصّ وقد بيّنت هذه المسألة في كتابي فتح المجيد في القول الراجح في خطبة العيد ، وحتى في كتب الإجماع مثل الإجماع لابن قطن، والإجماع لابن المنذر، ينقلون الإجماع في بعض المسائل ثم يقولون خالف الحسن، الحسن خلافه معتبر، فالحجّة هو الكتاب والسنة والإجماع المنضبط وهو الإجماع الذي يقوم على النصوص الشرعية.

وهل تُثبت الصفات بالإجماع؟ نقل ابن عبد البرّ الإجماع على ذلك، وكذلك شيخ الإسلام ويعنون بالإجماع الإجماع المتيقّن الذي يقوم على النصّ لكن قد يكون النصّ خفي علينا ووجده أسلافنا ولهذا استدلّ شيخ الإسلام على إثبات صفة السكوت لله بالإجماع على ذلك.

وأما القياس فقد اختلف العلماء فيه هل هو من الأدلّة أم لا؟ والصحيح أنّه ليس من الأدلّة الشرعية وهذا هو ما تطمئنّ له النفس ثمّ ما ذهب إليه أصحاب القياس من الاستدلال بأحاديث النبيّ على أنّه قاس استدلال فيه نظر، وإنّما العمل بالعمومات مثل قول النبيّ : «فَلَمْ أَجِدْ فِيهَا إِلَّا قَوْلَ اللَّهِ : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

يَرَهُ ﴿[الزلزلة: ٧-٨]﴾، عندما سئل عن الحُمْر، قال: «مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهَا شَيْءٌ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْجَامِعَةُ الْفَازَّةُ» رواه البخاري (٢٣٧١) ومسلم (٩٨٧) من حديث أبي هريرة ، فهذا استدلال بعموم والحُمْر داخلة تحت هذا العموم. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَدِي غُلَامٌ أَسْوَدُ! فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «مَا أَلَوْنُهَا؟» قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقٍ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَتَى ذَلِكَ؟» قَالَ: لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ، قَالَ: «فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ» رواه البخاري (٥٣٠٥) ومسلم (١٥٠٠)، فهذا ليس بقياس وإنما هذا مثل ضربه النبي ، وقد تكلم الإمام ابن حزم في كتاب (الصادع) على القياس وأبطله وهكذا الشيخ مقبل كان يقول: (القياس ليس بحجة ولا بأس للعالم المتمكن أن يقيس ولا يلزم غيره به)، لكن نقول بدل كلمة القياس نقول العمل بعموم الأدلة فإن أدلة القرآن والسنة منها العام الذي تدخل تحته أفراد كثيرة، فمثلاً الذي يذهب إلى إباحة بعض الحيوان من أصحاب القياس يستدلّ بالقياس فيقول كذا حلال قياساً على الضبع أو كذا حلال قياساً على الحمر الوحشية أو قياس على الدجاج، يأتي الذي ما يرى القياس ويقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: ١٣]، فالحجة عموم الآية والمحرم ما حرّمه الله بأدلة أخرى أو ما حرّمه الرسول بأدلة أخرى وليس هذا بسط هذه المسألة وإنما باب بسطها كتب الأصول لكن هذه إشارة وبعضهم يرى مشروعية الاستصحاب والبراءة الأصلية وغير ذلك لكن الأدلة عند أهل السنة الكتاب والسنة والإجماع، هذه هي الأدلة المجمع عليها والمنضبطة.

قال :

وَالْإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ
الْاِخْتِلَافُ، وَانْتَشَرَ فِي الْأُمَّةِ.

أي إجماع الصحابة أما بعد ذلك حصل الاختلاف وتفرق الناس في
البلدان والشعوب فربما يدعي الإجماع ولا إجماع.

من أصول أهل السنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال :

ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الْأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى مَا تَوْجِبُهُ الشَّرِيعَةُ.

قال الله : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ هَاجَرُوا مَعَ مُحَمَّدٍ ، إِلَى الْمَدِينَةِ. أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٤٦٣)، وَذَهَبَ السَّنَدِي إِلَى أَنَّهَا لَا تَنْزِلُ إِلَّا عَلَيْهِمْ لِقَوْلِ اللَّهِ : ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ دِيَارِهِ وَمِنْ وَطَنِهِ وَيُحَقِّقَ الْجِهَادَ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ وَاللِّسَانِ إِلَّا هُمْ وَمَا بَعْدَهُمْ تَابِعَ لَهُمُ وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَلَى عُمومِهَا وَالْمُهَاجِرُونَ يَدْخُلُونَ فِيهَا دُخُولًا أَوَّلِيًّا وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]، وَقَالَ : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ الْبَيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣]-

[١١٤]، وهذه الآية نزلت في قوم ممن أسلم من أهل الكتاب ومعلوم ما حل بأصحاب السبت ولم ينج منهم إلا الذين كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ۖ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤-١٦٥].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باع نفسه من الله، ووعد بالحسن، فهنيئاً له قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرَّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّتِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٣﴾ التَّائِبُونَ الْعَمِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١-١١٢].

والنبي يقول: «مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» من حديث أبي سعيد الخدري عند مسلم (٤٩). وقال النبي: «لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ فِي حَقِّ إِذَا رَأَاهُ، أَوْ شَهِدَهُ أَوْ سَمِعَهُ» من حديث أبي سعيد عند أحمد (١١٠١٧). وقال النبي: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يَكُونَ فِيهَا يُسْأَلُ عَنْهُ أَنْ يُقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تُنْكَرَ الْمُنْكَرَ إِذْ رَأَيْتَهُ؟ قَالَ: فَمَنْ لَقْنَهُ

اللَّهُ حُجَّتُهُ قَالَ: رَبِّ رَجَوْتُكَ، وَخِفْتُ النَّاسَ» من حديث أبي سعيد عند أحمد (١١٢١٤)، فعسى أن يُعذر هذا ومراتب الأمر بالمعروف ثلاثه على ما تضمّنه حديث أبي سعيد :

المرتبة الأولى: الإنكار باليد وهو أعظم أنواع الإنكار.

المرتبة الثانية: الإنكار باللسان.

المرتبة الثالثة: الإنكار بالقلب.

ولا بدّ من ضوابط للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنّ بعض الناس قد يُغيّر المنكر فيجلب لنفسه ولغيره ما هو أنكر منه فيقولون إن كان المنكر يُغيّر أو يُزال بالكلية فهذا واجب، وإن أزاله بما هو دونه أيضًا واجب وإن أزاله بما هو مثله فلا مصلحة وأن يُزال بأشدّ منه فهذا حرام حتى قال بعضهم:

وَمَنْ أزالَ مُنْكَرًا بِأَنْكَرٍ كَغَاسِلِ الْحَيْضِ بِبَوْلٍ أَغْبَرَا

وقد تكلم الإمام النووي على هذه المرتبة عند الحديث المذكور وذكرنا قوله وقول غيره في كتابنا (الوسائل الجليّة في نصرة الدعوة السلفيّة) فأهل السنّة يُحقّقون هذا الباب، يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر، والمعروف كلّ ما وافق الكتاب والسنّة فيدخل فيه ابتداءً التوحيد وما دونه إلى أن تصل إلى إزالة الأذى عن الطريق، والمنكر كلّ ما خالف الكتاب والسنّة فأعمقه الشرك إلى أن يصل إلى ما دونه ومنها النخامة في المسجد وكلّ معروف صدقة.

قول أهل السنة في إقامة الحجّ والجهاد والجمع والأعياد

قال :

وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجُمُعِ وَالْأَعْيَادِ مَعَ الْأَمْراءِ أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ
فُجَّارًا، وَيَحَافِظُونَ عَلَى الْجَمَاعَاتِ.

في هذا ردّ على الخوارج والروافض والمعتزلة ومن نحى نحوهم ممن يقول لا جهاد ولا حجّ ولا عمرة ولا عيد إلّا مع الأئمة الأبرار وما زال الرافضة إلى زمن قريب لا يُجمعون ولا يُعيّدون حتى جاءهم الحُميني بدعة ولاية الفقيه، ويزعم أنّ الفقيه مفوّض من المهدي فصاروا يعملون نوع من الجمع والأعياد بإذن الفقيه، وفي اعتقادهم أنه لا يجوز جمعة ولا جماعة ولا عيد إلّا مع الإمام المعصوم وهذا الإمام ما زال في السرداب فلا يُعيّدون مع المسلمين وحتى الحجّ فعندهم زيارة للمشاهد فقط وأهل السنة عندهم الحجّ والجهاد والجمعة والأعياد ماضية مع كلّ إمام كان برّاً أو فاجرًا، قال النبيّ : «يُصَلُّونَ لَكُمْ فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَإِنْ أَخْطَأُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٩٤). وقال النبيّ لأبي ذر: «كَيْفَ أَنْتَ إِذَا كَانَتْ عَلَيْكَ أُمَرَاءُ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا أَوْ يُمِيتُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا؟» قَالَ: قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «صَلِّ الصَّلَاةَ لَوَقْتِهَا فَإِنْ أَدْرَكَتْهَا مَعَهُمْ فَصَلِّ فَإِنَّهَا لَكَ نَافِلَةٌ» من حديث أبي ذرّ عند مسلم (٦٤٨). وَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ خِيَارٍ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَهُوَ مُحْصُورٌ فَقَالَ: إِنَّكَ إِمَامٌ عَامَّةٌ وَنَزَلَ بِكَ مَا نَرَى، وَيُصَلِّي لَنَا إِمَامٌ فِتْنَةٌ وَنَتَحَرَّجُ، فَقَالَ: الصَّلَاةُ أَحْسَنُ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ، فَإِذَا أَحْسَنَ

النَّاسُ فَأَحْسِنَ مَعَهُمْ، وَإِذَا أَسَاءُوا فَاجْتَنِبْ إِسَاءَتَهُمْ. أخرجه البخاري (٦٩٥). ولهذا كان الإمام أحمد يرى الجمعة والعيد والجماعة خلف أئمة الجهميّة حتى لا تُضَيِّع الشعيرة وتُعاد الصلاة لأنّه يعتقد أنّهم من أهل الردّة، وقال أحمد بن الدورقي سمعت زهير بن الباي يقول إذا تيقنت أنه جهمي أعدت الصلاة خلفه الجمعة وغيرها، أخرجه عبدالله في السنة.

ومن عقيدة أهل السنّة أنّ ترك الصلاة خلف المبتدع بدعة، إذا لم يوجد إلّا مسجد بدعة، فالسلف قد صلّوا خلف الحجاج، صلّى خلفه أنس بن مالك وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عمر وهم أحرص الناس على الخير وإنّما إذا وُجد مسجد سنّة ومسجد بدعة يُقدّم مسجد السنّة. قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٣٧٤): اعلم -رحمك الله وإيانا- أنه يجوز للرجل أن يصلي خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقاً، باتفاق الأئمة، وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه، ولا أن يمتحنه، فيقول: ماذا تعتقد؟! بل يصلي خلف المستور الحال، ولو صلى خلف مبتدع يدعو إلى بدعته، أو فاسق ظاهر الفسق، وهو الإمام الراتب الذي لا يمكنه الصلاة إلّا خلفه، كإمام الجمعة والعيدين، والإمام في صلاة الحج بعرفة، ونحو ذلك؛ فإن المأموم يصلي خلفه، عند عامة السلف والخلف، ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر، فهو مبتدع عند أكثر العلماء. والصحيح أنه يصليها ولا يعيدها، فإن الصحابة كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون، كما كان عبدالله بن عمر يصلي خلف الحجاج بن يوسف.

وكذلك أنس ، وكذلك عبدالله بن مسعود وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان يشرب الخمر، حتى إنه صلى بهم الصبح مرة أربعاً، ثم قال: أزيدكم؟! فقال له ابن مسعود: ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة!!

وفي صحيح البخاري (٦٩٥): أن عثمان بن عفان لما حصر صلى بالناس شخص، فسأل سائل عثمان: إنك إمام عامة، وهذا الذي صلى بالناس إمام فتنة؟ فقال: يا ابن أخي، إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسنوا فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم، والفاسق والمبتدع صلاته في نفسها صحيحة، فإذا صلى المأموم خلفه لم تبطل صلاته، لكن إنما كره من كره الصلاة خلفه؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب.

ومن ذلك: أن من أظهر بدعة وفجورا لا يرتب إماما للمسلمين، فإنه يستحق التعزير حتى يتوب، فإذا أمكن هجره حتى يتوب كان حسنا، وإذا كان بعض الناس إذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره أثر ذلك في إنكار المنكر حتى يتوب أو يعزل أو ينتهي الناس عن مثل ذنبه - فمثل هذا إذا ترك الصلاة خلفه كان في ذلك مصلحة شرعية، ولم تفت المأموم الجمعة ولا الجماعة.

وأما إذا كان ترك الصلاة خلفه يفوت المأموم الجمعة والجماعة، فهذا لا يترك الصلاة خلفه إلا مبتدع مخالف للصحابة ، وكذلك إذا كان الإمام قد رتب له ولاية الأمور، ليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية، فهذا لا يترك الصلاة خلفه، بل الصلاة خلف الأفضل أفضل، فإذا أمكن الإنسان أن لا يقدم مظهرها للمنكر في الإمامة، وجب عليه ذلك، لكن إذا ولاه غيره، ولم يمكنه

صرفه عن الإمامة، أو كان لا يتمكن من صرفه عن الإمامة إلا بشر أعظم ضرراً من ضرر ما أظهر من المنكر؛ فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير، ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظمهما، فإن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، بحسب الإمكان. فتفويت الجمع والجماعات أعظم فساداً من الاقتداء فيهما بالإمام الفاجر، لا سيما إذا كان التخلف عنها لا يدفع فجوراً، فيبقى تعطيل المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة.

وأما إذا أمكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر، فهذا أولى من فعلها خلف الفاجر وحينئذ، فإذا صلى خلف الفاجر من غير عذر، فهو موضع اجتهد العلماء: منهم من قال: يعيد، ومنهم من قال: لا يعيد، وموضع بسط ذلك في كتب الفروع، وأما الإمام إذا نسي أو أخطأ، ولم يعلم المأموم بحاله، فلا إعادة على المأموم، للحديث المتقدم، وقد صلى عمر وغيره وهو جنب ناسياً للجنباء فأعاد الصلاة، ولم يأمر المأمومين بالإعادة، ولو علم أن إمامه بعد فراغه كان على غير طهارة، أعاد عند أبي حنيفة، خلافاً للمالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه، وكذلك لو فعل الإمام ما لا يسوغ عند المأموم، وفيه تفاصيل موضعها كتب الفروع.

ولو علم أن إمامه يصلي على غير وضوء!! فليس له أن يصلي خلفه، لأنه لاعب، وليس بمصل، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن ولي الأمر، وإمام الصلاة، والحاكم، وأمير الحرب، وعامل الصدقة يطاع في مواضع الاجتهاد، وليس عليه أن يطيع أتباعه في موارد الاجتهاد، بل عليهم

طاعته في ذلك، وترك رأيهم لرأيه، فإن مصلحة الجماعة والائتلاف، ومفسدة الفرقة والاختلاف، أعظم من أمر المسائل الجزئية. ولهذا لم يجز للحكام أن ينقض بعضهم حكم بعض، والصواب المقطوع به صحة صلاة بعض هؤلاء خلف بعض.

ويروى عن أبي يوسف: أنه لما حج مع هارون الرشيد، فاحتجم الخليفة، وأفتاه مالك بأنه لا يتوضأ، وصلى بالناس، فقيل لأبي يوسف: أصليت خلفه؟ قال: سبحان الله! أمير المؤمنين. يريد بذلك أن ترك الصلاة خلف ولاة الأمور من فعل أهل البدع، وحديث أبي هريرة، الذي رواه البخاري (٦٩٤)، أن رسول الله قال: «يُصَلُّونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ، وَإِنْ أَخْطَأُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ». نص صحيح صريح في أن الإمام إذا أخطأ فخطؤه عليه، لا على المأموم.

والمجتهد غايته أنه أخطأ بترك واجب اعتقد أنه ليس واجبا، أو فعل محظورا اعتقد أنه ليس محظورا، ولا يحل لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخالف هذا الحديث الصريح الصحيح بعد أن يبلغه، وهو حجة على من يطلق من الحنفية والشافعية والحنبلية أن الإمام إذا ترك ما يعتقد المأموم وجوبه لم يصح اقتداؤه به!! فإن الاجتماع والائتلاف مما يجب رعايته وترك الخلاف المفضي إلى الفساد. اهـ

والجهاد كذلك مع الأئمة الفجار مازال المسلمون يُجاهدون ويفتحون الأمصار ربما مع ولاة يشربون الخمر ويرتكبون المخالفات والبدع فالجهاد ماضي لا يمنع جوار جائر ولا ظلم ظالم وما جاء من الأحاديث وأن الجهاد

ماضي مع الأئمة الفجار كانوا أو أبرارًا والصلاة مع الأئمة فجارًا كانوا أو أبرارًا لا يثبت فيه شيئًا ولكن هذا هو معتقد السلف المبني على عمومات أدلة الكتاب والسنة.

من أصول أهل السنة الدين بالنصيحة

قال :

وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلأُمَّةِ.

أي: من عقيدة أهل السنة أيضًا النصيحة للأمة وهم أنصح الناس للأمة ويعتقدون معنى قول النبي : «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» من حديث تميم الداري عند مسلم (٥٥)، وقال تعالى مخبرًا عن نوح : ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وقال عن هود يقول: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وقال عن صالح : ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ [الأعراف: ٧٩]، فالرسل بعثوا بالنصيحة وتحقيقًا لحديث النبي : «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا لِمَنْ؟ قَالَ : «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ» من حديث تميم الداري عند مسلم (٥٥)، وفي رواية تكرار لفظة (الدين النصيحة) ثلاثة مرّات، وهذا حصر للدين في النصيحة، فالنصيحة مع الله بتوحيده وإفراده بما يجب له والنصيحة لكتاب الله بالعمل به ويكون العمل باعتقاد خبره وفعل أمره والانتهاه عن نهيه وزجره والنصيحة لرسول الله هي الإيثار به وبما جاء به ويدخل في ذلك طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر والانتهاه عن ما نهى عنه وزجر وإلا يعبد الله إلا بما شرع والنصيحة للمسلمين بدعوتهم إلى الخير وتحذيرهم من الشر، قال جرير بن عبد الله : بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ. أخرجه البخاري (٥٧)، مسلم

(٥٦). وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: كُنَّا إِذَا بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ يَقُولُ لَنَا: «فِيَا اسْتَطَعْتُمْ». رواه البخاري (٧٢٠٢) واللفظ له، ومسلم (١٨٦٧). وفي حديث أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ»، قِيلَ مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «إِذَا لَقِيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَسَمِّتْهُ وَإِذَا مَرَضَ فَعُدُّهُ وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ» رواه مسلم (٢١٦٢). وفي حديث النعمان بن بشير عند البخاري (٢٤٩٣)، قال النبي: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا». فالنصيحة مطلوبة شرعاً وقدرًا، شرعاً لما تقدّم وقدرًا أنّ المجتمع لا يصلح إلّا بالنصيحة فالمجتمع الذي ليس فيه نصيحة يفسد ويكثر شرّه ويقلّ خيره.

اعتقاد الأخوة الدينية

قال :

وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ؛ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ.

حديث أبي موسى الأشعريّ عند البخاري (٤٨١) ومسلم (٢٥٨٥).

قال :

وَقَوْلِهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِأَلْحَمَى وَالسَّهَرِ».

من حديث النعمان بن بشير عند البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦).

ويعتقدون الأخوة في الدين قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ويؤمنون بحديث النبي : «كُلُّكُمْ لِأَدَمَ، وَأَدَمُ مِنْ تُرَابٍ». وقال : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبٍ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى» من حديث أبي نضرة عند أحمد (٢٣٤٨٩).

فيعتقدون معاني الآيات والأحاديث الدالة على الإخاء والقرب من المؤمنين والبراء من المخالفين قال الله تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿[المجادلة: ٢٢]﴾، ومفهوم الآية أن المؤمن يحب المؤمن أين كان وعلى أي لون كان وفي أي قطر كان قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

والناس في هذا الباب كغيره من الأبواب طرفان ووسط، منهم من لا يُبالي بالأخوة ولا يرفع لها رأساً ولا يُبالي هجر إخوانه أو تركهم وصلهم أم قطعهم والنبي يقول: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ» من حديث جبير بن مطعم عند البخاري (٥٩٨٤)، مسلم (٢٥٥٦)، وبعضهم أخوته لكل أحد حتى مع الكافر كما هو قول القرضاوي: (أُتَخَرَّجُ أَنْ أَقُولَ لَهُمْ كُفَّارٌ وَإِنَّمَا هُمْ مُسْلِمُونَ بِالثَّقَافَةِ)، ويواصل المبتدعة ويجالسهم ويأنسهم غير محققٍ لقول الله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقول الله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِائِنَّا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وأهل السنة وسط هم الذين يُحِبُّونَ فِي اللَّهِ وَيُعَادُونَ فِي اللَّهِ فَأَوْثَقَ عَرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللَّهِ وَتُبْغِضَ فِي اللَّهِ،

قال النبي : «إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللَّهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللَّهِ» من حديث البراء بن عازب عند أحمد (١٨٥٢٤). وقال النبي : «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابُّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١)، وهكذا في النصيحة والأمر بالمعروف الناس ينقسمون إلى طرفين ووسط:

﴿الطرف الأول: الخوارج والمعتزلة:﴾ فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عندهم الخروج بالسيف على الحكّام وقتل المسلمين وقطع الطرق ونهب الأموال والتفجيرات.

﴿الطرف الثاني: المرجئة:﴾ لا يُبالون عبّدت الأوثان والأصنام، شربت الخمر ولا ينصحون ولا يُنكرون.

﴿الوسط هم: أهل السنة:﴾ يُنكرون المنكر ويبدلون النصيحة بضوابطها الشرعية محققون للآثار المروية عن النبي محمد خير البرية فهذه من أعلى المراتب ومن أعظم الهبات أن تكون أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر قائماً بشريعة الأنبياء والمرسلين فإن الله أرسل رسله وأنزل كتبه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلّ الرسل يدعون إلى المعروف قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦]، والطواغيت والشرك منكر وكلّهم يُحذّر منه قال تعالى: ﴿وَأَجْتَنِبُوا ظُلُوعَ الشَّجَرِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا

تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴿[النساء: ٣٦]﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴿[الأنعام: ١٥١]﴾، والنصيحة أحياناً تكون بالرفق وأحياناً تحتاج إلى تخشين وأحياناً تكون بالجلاد كما قال الإمام ابن القيم في تفسير قول الله : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ ﴿[النحل: ١٢٥]﴾، فبعض الناس ينظر إلى أول الآية: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾، كلما ما نهيت عن منكر قال الحكمة فلو ضربت ولدك يقول الحكمة، لو كسرت آلة هو وطرب تستطيع كسرهما وما وراءها فتنة يقول الحكمة، فمثلاً إذا كان الرجل المؤمن طائعاً منياً وقعت منه المعصية لغفلة تقول له (هذا حرام) فيترك: ﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾، رجل عنده خير لكن يميل إلى المعاصي، يحتاج إلى تخويف بالله ، وتخويف بالعذاب، وتخويف بالنار، ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقد يكون بالسيف كما فعل رسول الله مع اليهود والنصارى ومع المشركين، جادلهم بالكلام، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، فلما أعرضوا جالدهم بالسيف، والسنان فلا نفرط ولا نفرط بل نعمل بالكتاب والسنة، فعن عائشة قالت: مَا خَيْرَ النَّبِيِّ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَأْتِمْ فَإِذَا كَانَ الْإِثْمُ كَانَ أَبَعَدَهُمَا مِنْهُ وَاللَّهُ مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَىٰ إِلَيْهِ قَطُّ حَتَّى تُنْتَهَكَ حُرْمَاتُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ. أخرجه البخاري (٦٧٨٦).

من أصول أهل السنة الحث على الصبر

قال :

وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلَاءِ.

لقول الله : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧]، ولقوله : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١-٣]، ولقوله الله : ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]، ولقوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ولقوله : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ولقوله النبي : «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» من حديث صهيب عند مسلم (٢٩٩٩). وقال : «لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِبَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ» من حديث أبي الدرداء عند أحمد (٢٧٤٩٠). وقال النبي : «لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ أَوْ الْمُؤْمِنَةِ، فِي جَسَدِهِ، وَفِي مَالِهِ، وَفِي وَلَدِهِ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ» من حديث أبي هريرة عند أحمد (٧٨٥٩). ولما جاء خُبَيْبُ النَّبِيِّ وقال: شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بَرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا، قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُخْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيَجَاءُ بِالْمُنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ

بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللَّهُ لِيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذُّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» رواه البخاري (٣٦١٢) و (٦٩٤٣). وقال النبي «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ» من حديث أبي مالك الأشعري عند مسلم (٢٢٣). وكذلك قال النبي : «مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» من حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣)،

قال ابن القيم في عدة الصابرين (٥٥): الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر على المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها. وقال كقوله: افعل المأمور واجتنب المحذور، واصبر على المقدور، وهذه الثلاثة التي أوصى بها لقمان ابنه في قوله: ﴿يَبْنِىْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]، فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه، وأمر غيره به، وكذلك نهيه عن المنكر، أما من حديث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه، وأما من حيث اللزوم الشرعي، فإن الأمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي، وذكر الله هذه الأصول الثلاثة في قوله: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أُولَئِىَ الْأَلْبَابِ﴾ [١٩] الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ [٢٠] وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ

اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْكَ رَبِّهِمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ
رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرَعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ
لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿الرعد: ١٩-٢٢﴾.

قال: والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام، واشتملت على
فعل المأمور وترك المحذور والصبر على المقدور، وقد ذكر الله تعالى هذه
الأصول في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة، فإنه حقيقة
التقوى فعل المأمور وترك المحذور. اهـ

طريقتهم الشكر عند الرخاء

قال :

والشكر عند الرخاء.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا فَإِنَّ الْمَعَاصِيَ تُزِيلُ النِّعَمَ
وقال النبي : «يَا مُعَاذُ، قَلْبٌ شَاكِرٌ وَلِسَانٌ ذَاكِرٌ وَزَوْجَةٌ صَالِحَةٌ تُعِينُكَ
عَلَى أَمْرِ دُنْيَاكَ وَدِينِكَ، خَيْرٌ مَّا اكْتَنَزَ النَّاسُ» من حديث أبي أمامة عند
البيهقي في الشعب (٤٤٣٠)، ونظمها بعضهم في بيتٍ بقوله:

وَحَيْرٌ مَا يَدَّخِرُ الْإِنْسَانُ فِي دُنْيَاهُ كَيْ مَا يَسْتَقِيمُ دِينُهُ
قَلْبًا شَكُورًا وَلِسَانًا ذَاكِرًا وَزَوْجَةً صَالِحَةً تُعِينُهُ

والنبي كان يقول: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ». وقال معلماً معاذ بن جبل: «يَا مُعَاذُ إِنِّي لِأُحِبُّكَ» فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ: بِأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَنَا أُحِبُّكَ، قَالَ: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدْعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ». قَالَ: وَأَوْصَى بِذَلِكَ مُعَاذُ الصُّنَابِجِيَّ، وَأَوْصَى الصُّنَابِجِيُّ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَأَوْصَى أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عُقْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ. أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، وأحمد (٤٥ / ٥).

وبين رسول الله عظم الشكر في قوله: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَصَابَتُهُ سَرَاءُ شَكَرٍ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» الحديث عند مسلم (٢٩٩٩).

وأخرج أحمد (٢٢٧/١) من حديث ابن عباس أن النبي كان يقول: «رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ، وَانصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ الْهُدَى إِلَيَّ، وَانصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَارًا، لَكَ ذَكَارًا، لَكَ رَهَابًا، لَكَ مَطْوَاعًا، إِلَيْكَ مُحِبًّا، لَكَ أَوَاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي».

والله يقول: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣]، والشكر يكون باللسان والقلب والجوارح، وعن عائشة قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفْطَرِ رِجْلَاهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا» أخرجه مسلم (٢٨٢٠)، ومن حديث المغيرة عند البخاري (١١٣٠) ومسلم (٢٨١٩)، وجاء عن أبي موسى خارج الصحيح. وأخرج أحمد (٢٢٧/١) من حديث ابن عباس أن النبي كان يقول: «رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ، وَانصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ الْهُدَى إِلَيَّ، وَانصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَارًا، لَكَ ذَكَارًا، لَكَ رَهَابًا، لَكَ مَطْوَاعًا، إِلَيْكَ مُحِبًّا، لَكَ أَوَاهًا مُنِيبًا،

رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي،
وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي».

قال محمود الوراق :

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةً اللَّهُ نِعْمَةً عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ وَقُوعُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمُرُ
إِذَا مَسَّ بِالسَّرَاءِ عَمَّ سُرُورُهَا وَإِنْ مَسَّ بِالضَّرَاءِ أَعْقَبَهَا الْأَجْرُ
وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا لَهُ فِيهِ مِنَّةٌ تَضِيقُ بِهَا الْأَوْهَامُ وَالْبُرُّ وَالْبَحْرُ

قال ابن القيم في المدارج (٢/ ٢٤٤): الشكر مبني على خمس قواعد:
خضوع الشاكر للمشكور وحب له، واعترافه بنعمته وثناءه عليه بها، وأن لا
يستعملها فيما يكره، فهذه الخمس هي أساس الشكر وبنائوه عليها، فمتى عدم
منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة، وكل من تكلم بالشكر وحده،
فكلامه إليها يرجع وعليها يدور.

والشكر يجب أن يكون على جميع نعم الله ، وأعظمها الإسلام
والتوحيد، قال ابن القيم: شكر العامة على المطعم والمشرب والملبس وقوت
الأبدان وشكر الخاصة على التوحيد والإيمان وقوت القلوب. اهـ

طريقتهم الرضا بالقضاء

قال :

وَالرَّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ.

أي يرضون بما قضاه الله عليهم من المصائب لعلمهم أنّ الأمور بقدر الله ، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢]، وقال : ﴿ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٢].

ويصبرون على قضاء الله كما قال السّفاريني :

وَلَيْسَ وَاجِبٌ عَلَى الْعَبْدِ الرِّضَا بِكُلِّ مَقْضِيٍّ وَلَكِنْ بِالْقَضَا

فلا ترضى بالكفر والمعصية والشرك والمخالفات وإنّما بما قضاه وقدره لأنّ ما قضاه الله وقدر صادر عن حكمته وعلمه بينما أفعال العباد قد يكون الرضا ببعضها كفر فمن رضي بالسجود للصنم كافر ومن رضي بالزنا عاصٍ ومن رضي بالصيام والصلاة والحجّ مطيع فالمقضيّات منها الطاعات والمعاصي والسيئات ومنها غير ذلك.

دعوتهم إلى مكارم الأخلاق

قال :

ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

لأنَّ النبيُّ بُعث من أجلها كما قال : «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» من حديث أبي هريرة عند أحمد (٨٩٥٢).

ولقول النبيِّ : «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلِيُحَدِّثْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِّحْ ذَبِيحَتَهُ» من حديث شداد بن أوس عند مسلم (١٩٥٥)، وليس له في مسلم إلا هذا الحديث. وله في البخاري حديثاً واحداً نذكره من باب الفائدة وهو حديث سيّد الاستغفار، قال النبيُّ : «سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ قَالَ وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمَسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

ويعتقدون قول الله : ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]،
والنبيُّ قال: «عُرِضَتْ عَلَى أَعْمَالِ أُمَّتِي حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا فَوَجَدْتُ فِي مُحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الْأَدَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِي أَعْمَالِهَا النُّخَاعَةَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لَا تُدْفَنُ» من حديث أبي ذرٍّ عند مسلم (٥٥٣).

وكان النبي يسأل الله أحسن الأخلاق، فعن عليٍّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي فَاعْفُرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» رواه مسلم (٧٧١).

قال :

وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا».

من حديث أبي هريرة عند أبي داود (٤٦٨٢)، الترمذي (١١٦٢)، ابن ماجه (٤٢٥٩)، وله طريق حسن لذاتها.

وحسن الخلق من الإيمان، فعن أبي هريرة قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ» الترمذي (٢٠٠٤). والنبي يقول: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلَ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ» من حديث أبي الدرداء عند أبي داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣). والنبي يقول: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا» من حديث جابر عند الترمذي (٢٠١٨). والنبي كان خلقه

القرآن، فَعَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ، قَالَتْ: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ) أخرجَه مسلم. فأحسن الأخلاق وأقومها التمسك بالقرآن والعمل بالسنة والأخذ بهدي النبي وهذه الشعائر التي تقدم ذكرها بحمد الله تكلمنا عليها بتوسع في كتاب الوسائل الجلية لنصرة الدعوة السلفية ؛ لأن مثل هذه القربات تنصر بها الدعوة السلفية وينصر بها الداعي إلى الله وتحصل به البركات.

الأمر بصلة القاطع

قال :

وَيَنْدُبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ.

أي: يحثون على صلة الرحم وإن قُطعت وأدبرت، لحديث أبي هريرة عند مسلم (٢٥٥٨)، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصْلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ. فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمْ الْمَلَّ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ». وفي الحديث: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِي، وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحْمَةُ وَصَلَهَا» من حديث عبدالله بن عمرو عند البخاري (٥٩٩١).

قوله: (وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ) لقول النبي : «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ» من حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٥٨٨). ولقول الله : ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرٍ﴾ [البقرة: ١٠٩]. وقال أنس : مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ رُفِعَ إِلَيْهِ شَيْءٌ فِيهِ قِصَاصٌ، إِلَّا أَمَرَ فِيهِ بِالْعَفْوِ. رواه أبو داود (٤٤٩٧)، والنسائي (٤٧٨٣). فإن تمَّ العفو وإلا انتقل إلى الأرش والديّة، فإن لم يتمَّ لا الأرش ولا الديّة فالقصاص، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]. ومن حديث ابن عباس قال: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ فَتَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ

يُذْنِبُهُمْ عُمَرُ، وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسٍ عُمَرُ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولًا كَانُوا أَوْ شَبَابًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي، هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ، فَاسْتَأْذِنَ لِي عَلَيْهِ، قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ الْحُرُّ لِعُيَيْنَةَ فَأْذِنَ لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وَإِنَّ هَذَا مِنْ الْجَاهِلِينَ، وَاللَّهُ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ. رواه البخاري (٤٦٤٢). والعفو عن الكريم يؤدي إلى كرمه.

(إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتُهُ)

والعفو عن اللئيم يؤدي إلى تكبره وغطرسته، وكما قيل:

(وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا)

والعفو يُسْتَحَبُّ إِذَا كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وَالنَّبِيُّ يَقُولُ: «أَقِيلُوا ذَوِي الْهُيَئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ إِلَّا الْحُدُودَ» مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ (٤٣٧٥).

قال شيخ الإسلام والشيخ العثيمين رحمة الله عليهما أنه لو وُجد قاتل وكان متسلطاً على الدماء لا يجوز العفو عنه وإنما إذا قتل خطأً أو قتل وندم وكان العفو فيه مصلحة فلا بأس، وأما إن كان يستجري على الأذية لا يجوز العفو عنه.

وهذه الثلاثة التي ذكرها: (أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ،
وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ) تدلّ على مكارم الأخلاق؛ لأنّ النفس مجبولة على قطيعة
القاطع ومجبولة على منع المحرم ومجبولة على الانتقام من الظالم، فحين أن تُجاهد
نفسك وتُقدّم أمر الله وأمر رسوله على هواك فهذا من مكارم
الأخلاق العظيمة.

الأمير ببر الوالدين

قال :

وَيَأْمُرُونَ بِرَّ الْوَالِدَيْنِ.

لأمر الله بذلك، قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال : ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]، فأمر الله بالإحسان إلى الوالدين والبر بهم، فعن أبي هريرة عند البخاري (٥٩٧١) ومسلم (٢٥٤٨)، قال: جاء رجل إلى رسول الله فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثم من؟ قال: «ثُمَّ أُمُّكَ»، قال: ثم من؟ قال: «ثُمَّ أُمُّكَ»، قال: ثم من؟ قال: «ثُمَّ أَبُوكَ». وفي لفظ لمسلم: قال النبي : «أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبُوكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ».

فبر الوالدين من أسباب دخول الجنة والنبي يقول: «الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فأضغ ذلك الباب أو احفظه» من حديث أبي الدرداء عند الترمذي (١٩٠٠)، ابن ماجه (٣٦٦٣). وعن مالك بن الحويرث

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ رَفَى عَتَبَةَ الْمُنْبِرِ فَقَالَ: «آمِينَ»، ثُمَّ رَفَى عَتَبَةَ أُخْرَى، فَقَالَ: «آمِينَ»، ثُمَّ رَفَى عَتَبَةَ أُخْرَى، فَقَالَ: «آمِينَ»، فَقَالَ: «آتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا ثُمَّ دَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، وَمَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، وَمَنْ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ» أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ (٦٤٩).

وصحَّ عن أبي هريرة وعن ابن مسعود قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا» قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ بَرُّ الْوَالِدَيْنِ» قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوْ اسْتَرَدُّنَّهُ لَزَادَنِي. رواه البخاري (٥٢٧) ومسلم (٨٥).

فمن أفضل الأعمال برُّ الوالدين والإحسان إليهم، وهو داخل في العمل، بقول النبي: «لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ» من حديث أبي هريرة عند أبي داود (٤٨١١)، الترمذي (١٩٥٤).

فالذي لا يشكر والديه فهو لمن سواهم أظلم وأبعد، إذا كان الأب الذي يقوم عليك وكان السبب في وجودك وأطعمك وسقاك وكساك ورباك، بعد الله تعالى، وأمك التي سهرت من أجلك وتعبت ونصبت ثم أوديت من قبلك هذا يدل على عدم شكر ولهذا وصَّى الله بالحقوق في آيات كثيرة، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِنَّمَا بَيَّغْنٰ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣﴾

وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي
صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

الأمر بصلة الرحم

قال :

وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ.

لقول الله : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ

﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

ولقول النبي : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ » من حديث جُبَيْرِ بْنِ مطعم عند البخاري (٥٩٨٤) ومسلم (٢٥٥٦).

وقول النبي : « خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهُ قَامَتْ الرَّحِمُ فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ لَهُ: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَاكَ » قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣]. من حديث أبي هريرة عند البخاري (٤٨٣٠) ومسلم (٢٥٥٤).

وقال النبي : « إِنْ الرَّحِمَ شَجَنَتْ مِنَ الرَّحْمَنِ فَقَالَ اللَّهُ مَنْ وَصَلَكَ وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَكَ قَطَعْتُهُ » من حديث أبي هريرة عند البخاري (٥٩٨٨).

ومن علامات الإيمان بالله وباليوم الآخر صلة الرحم والإحسان إلى الرحمن، فعن أبي هريرة ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى قَالَ: « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ صَيفَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ وَمَنْ
كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» رواه البخاري (٦١٣٨).

وقال النبي : «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ
رَحِمَهُ» من حديث أنس عند البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧).

الأمر بحسن الجوار

قال :

وَحُسْنُ الْجَوَارِ.

لأنَّ الله وصَّى به، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا^ط وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦]، الصاحب بالجنب: الزوجة، والجار الجنب: الجار من غير العائلة، والجار ذي القربى: هو الجار من العائلة، فعَنْ عَائِشَةَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي جَارَيْنِ فَإِلَى أَيِّهِمَا أُهْدِي؟ قَالَ: «إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ أَبَا» أخرجه البخاري (٢٢٥٩). وقال النبي : «إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجَوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ» من حديث عائشة عند أحمد (٢٥٢٥٩).

والإحسان إلى الجيران مرتبته عظيمة، قال النبي : «مَا زَالَ يُوصِينِي جِبْرِيلُ بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَّثُهُ» من حديث عائشة عند البخاري (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٥). فجبريل يوصي بالجار والله أمر بتأدية حق الجار، قال النبي : «وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ» قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْجَارُ، جَارٌ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» من حديث أبي هريرة عند أحمد (٧٨٧٨). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» رواه مسلم (٤٦)، أي: لا يدخل دخولا أوليا

وإن كان من المسلمين فهو داخل وهذا وعيد عظيم يدل على أنَّ أذية الجيران كبيرة من كبائر الذنوب.

فالجار حقّه أن يُكرم ويُعان، فلهذا كان من صفة النبيّ الإحسان إلى الجوار، عندما قالت له خديجة : (وتحسن الجوار)، وابن الدغنة يقول لأبي بكر : (إنّك لتحسن الجوار).

الأمر بالإحسان إلى الأيتام

قال :

وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالرَّفْقُ بِالْمَمْلُوكِ.

لعموم الأدلة في ذلك، قال النبي : «وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى وَفَرَجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا» من حديث سهل بن سعد الساعدي عند البخاري (٥٣٠٤) و(٦٠٠٥).

وكذلك المساكين وابن السبيل والرفق بالمملوك، فعن أبي مسعود الأنصاري قال كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ

لَلَّهِ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ»، فَالْتَفَتْتُ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ فَقُلْتُ: يَا

رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ حُرٌّ لَوْجِهَ اللَّهِ، فَقَالَ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلْفَحْتَكَ النَّارُ أَوْ لَمَسْتِكَ النَّارُ» رواه مسلم (١٦٥٩).

وقال النبي : «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ عَضْوًا مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرَجَهُ بِفَرْجِهِ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٧١٥) ومسلم (١٥٠٩).

وعَنْ وَاصِلِ الْأَحْدَبِ، عَنِ الْمَعْرُورِ قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ : «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ أَمْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ

خَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ» رواه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١)، فكان أبوذرّ يُكرمه.

والنبيّ يقول: «إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ فَلْيُنَاوِلْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ أَوْ أُكْلَةً أَوْ أُكْلَتَيْنِ فَإِنَّهُ وَلِيٌّ عِلَاجَهُ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٥٥٧)؛ لأنّه أصلحه وتعب فيه فيُكرم، فالإسلام أمر بالرفق والإحسان إليهم بل قد أمر بمكاتبتهم فإذا أراد الخادم أن يُكاتب يُكاتب ويُعان، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْنِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

النهي عن مساوى الأخلاق

قال :

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ، وَالْخِيَلَاءِ، وَالْبَغْيِ، وَالْاِسْتِطَالَةِ عَلَى الْخَلْقِ بِحَقِّ أَوْ
بِغَيْرِ حَقٍّ.

أي: من طريقة أهل السنّة النهي عن سفاسف الأخلاق، وقد تقدّم حديث عليّ
عند مسلم (٧٧١)، قال النبيّ : «وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي
لأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ».
والفخر والخيلاء والبغي كلّها أمراض عظيمة تدلّ على عدم التواضع والنبيّ
يقول: «وَإِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا
يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» من حديث عياض بن حمار عند مسلم (٢٨٦٥).

وما من ذنب تُعَجَّلَ عقوبته في الدنيا مثل الإثم والبغي كما في حديث أبي
بكرة عند أبي داود (٤٩٠٢)، الترمذي (٢٥١١)، ابن ماجه (٤٢١١)،
قال النبيّ : «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا
أَخَّرَ اللَّهُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ»، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا
بَغْيُكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]، فبغي المرء على نفسه يؤدّي إلى دمارها
وانتكاستها فلا تبغي على الخلق ولا تختال ولا تمشي في الأرض مرحاً ولا تفخر
فأنت وغيرك لآدم وإنّا الفضل بالتقوى، قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَتَقَرَّكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، والتقوى لا تؤدّي إلى التعاضم والتعالي وإنّا نجعل

الرجل كسيرًا خائفًا وجلًا لا يزدرى الخلق، قال النبي : «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعَجِّبُهُ نَفْسُهُ مُرَجِّلٌ جُمَّتُهُ إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» من حديث أبي هريرة عند البخاري (٥٧٨٩). وقال النبي : «مَنْ تَعَاطَمَ فِي نَفْسِهِ، وَاخْتَالَ فِي مَشِيَّتِهِ لَقِيَ اللَّهَ، وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ» من حديث ابن عمر عند الحاكم في مستدركه (٢٠١) وبنحوه عند أحمد (٥٩٩٥) والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٩). والنبي كان يخصف نعله ويخيط ثوبه، فعَنْ عَائِشَةَ ، أَنَّهَا سُئِلَتْ مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: (كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرِّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ) أخرجه أحمد (٢٤٩٠٣). ويحلب شاته فعنها قَالَتْ: سُئِلْتُ مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: (كَانَ بَشْرًا مِنَ الْبَشَرِ يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ) عند أحمد (٢٦١٩٤). وركب على الحمار تواضعًا وأردف خلفه ابن عباس ومعاذ وغيرهم ، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: كُنْتُ رَدَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَهُوَ عَلَى حِمَارٍ، فَرَأَى الشَّمْسَ حِينَ غَرَبَتْ، فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَيْنَ تَغْرُبُ هَذِهِ؟» فَقُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنِ حَامِيَةٍ» غَيْرَ مَهْمُوزَةٍ. رواه الحاكم في المستدرک (٢٩٦١)، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ: أَنَّهُ رَكِبَ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ يَوْمًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ : «يَا غُلَامُ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ...» أخرجه أحمد (٢٦٦٩)، فالكبر والخيلاء مرضان عظيمان يفتكان باستقامة المرء، وقد أخبر الله عن وصية لقمان لابنه وفيها قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ

الْحَمِيرِ ﴿لَقَمَان: ١٨-١٩﴾، وقال الله : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

قال :

وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الْأَخْلَاقِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ سَفَاسِفِهَا.

على ما تقدّم بيانه لقول النبي : «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» من حديث أبي هريرة عند أحمد (٨٩٥٢)، وصالح الأخلاق ما وافق الكتاب والسنة فأهل السنة يأمرّون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفاسفها يعني سقط الأخلاق والأخلاق الرديئة، وسفاسف الأمور أي سقط الأمور، وهذا من العام بعد الخاص.

قال :

وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

ومن اتبع الكتاب والسنة سلم له دينه ودنياه، ونعمت الطريقة طريقهم والسمت سمتهم فينطقون بالكتاب ويعملون به استجابةً لله ولرسوله ، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

مجلد طريقة أهل السنة

قال :

وَطَرِيقَتُهُمْ هِيَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ.

هذا هو الإجمال لطريقة أهل السنة والجماعة، طريقتهم ودينهم وقولهم وفعلهم واعتقادهم صادر عن دين الإسلام الذي بعث الله به محمد فهم أهل الخير والأثر والفقه والنظر.

قال :

لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّارِ؛ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ.

هذا الحديث صحيح لا مطعن فيه على الصحيح، جاء عن معاوية وجاء عن غيره، والحديث مخرج في السلسلة الصحيحة (٢٠٤) وتكلم العلامة الألباني بكلام نفيس عليه وذلك بسبب أن محمد بن إبراهيم الوزير أنكر متنه وهكذا الشوكاني متابعة للوزير وقد ردّ على الإمام الوزير المقبل في كتاب العلم الشامخ على أن الحديث لا نكارة فيه. واستنكره ابن الوزير لأن أكثر أمة محمد من أهل الجنة، فكيف يقول النبي كلّها في النار إلا واحدة. وأمّا المتبذعة لا تبالي باستنكارهم لكن هذا الإمام له وجه فقال العلماء إن أكثر الذين يدخلون الجنة هم أمة محمد على ظاهر تلك الأحاديث وهذا الحديث لا يُعارضها وذلك أن أهل السنة

يدخل فيهم عوام الناس وجُهال الناس معذورون وأهل البدع إذا كانت بدعتهم غير مكفرة مآلهم إلى الجنة وإن عذبوا وهذبوا في النار فيبقى الحديث على دلالاته وهو أن أهل البدع مستحقون للعقوبة والنار، ولفظ (ستفترق هذه الأمة على ثلاثة وسبعين فرقة) فقد صحَّ عن أبي هريرة من دون زيادة (كلها في النار) وهي ثابتة عن معاوية وغيره، وقد أُلِّف كتاب في تصحيح هذا الحديث وبيان معناه، وهذا الحديث فيه علمٌ من أعلام نبوة النبي فقد افتُرقت الأمة إلى ثلاثة وسبعين فرقة وليس معنى ذلك أن العدد للحصر ولكن هذه أصول البدع وإلا فالرافضة وحدها ربما يدخل تحتها أكثر من ثلاثة مائة فرقة والخوارج يدخل تحتها عشرات الفرق والمعتزلة والجهمية كذلك وقد جاء عن يوسف بن أسباط أن أصول المبتدعة أربعة (الجهمية، الروافض، الخوارج، المرجئة).

قال :

وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ ﷺ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي».

وهو متابعة لذلك الحديث وفي بعضها (الذين يعصيه أكثر ممن يطيعهم) وأهل السنة الذين يعصيه أكثر ممن يطيعهم وهم نزع من القبائل يصلحون ما أفسد الناس، فأهل السنة هم المتميزون بهذا كله، ويدل على مثل هذا الحديث قول النبي : «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ» من حديث معاوية عند مسلم (١٠٣٧)، وجاء عن أكثر عن تسعة منها في الصحيح

عن المغيرة بن شعبة وثوبان وجابر بن سمرة وجابر بن عبدالله وسعد بن أبي وقاص .

قال :

صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ الْمُحْضِ الْخَالِصِ عَنِ الشُّوبِ هُمْ أَهْلُ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ.

أي الذين يتمسكون بالإسلام الحق الذي جاء به النبي قليل وهم أهل السنة والجماعة فالمراد بالإسلام المحض والسنة المحضة من تمسك بالدين الحق الذي أنزله الله وشرعه الله، وهذا قول الله : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَبِّلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكُؤُسٍ مِنْ مَّعِينٍ (١٨) لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ (١٩) وَفَكَهْهَ مِمَّا يَتَخَبَّزُونَ (٢٠) وَلَحْمَ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيَمًا (٢٥) إِلَّا قِيْلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَكَهْهَ كَثِيرٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿[الواقعة: ١٠-٤٠]﴾، في أصحاب اليمين.

قال :

وَفِيهِمُ الصَّادِقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ، وَالصَّالِحُونَ.

أي أنهم من أهل السنة والجماعة، فأبي فضل لهذه الأمة يدخل فيه دخولاً
أولياً أهل السنة والجماعة وهم أحق الناس به، قال الله تعالى: ﴿وَكُنُوا أَحَقَّ بِهَا
وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]، وقال تعالى مبيناً ذلك: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ
مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ
أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

قال :

وَمِنْهُمْ أَعْلَامُ الْهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى، أُولُو الْمَنَاقِبِ الْمَثُورَةِ،
وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ، وَفِيهِمُ الْأَبْدَالُ.

المراد بهم أئمة الدين، والعلماء المجددين، وأما قوله الأبدال فهو مصطلح
صوفي كان الأولى تركه والتعبير بغيره.

قال :

وَفِيهِمْ أئِمَّةُ الدِّينِ، الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ.

والمجددون منهم لا يصلح أن يكون مجددًا من الصوفية أو من الإخوان
المسلمين أو من جماعة التبليغ أو من الرافضة أو من المعتزلة لا يصلح ولا يجوز
أن يكون المجدد منهم لأن النبي يقول: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ
كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا» من حديث أبي هريرة عند أبي داود
(٤٢٩١). والمجدد هو الذي يدع إلى السنة ويحذر من البدعة فأما المبتدع فأنى
له التجديد وهو يدعو إلى البدع ويدعو إلى محدثات الأمور وكان من رءوس

المجدّدين في هذا القرن الإمام ابن باز، الإمام الوادعي، الإمام ابن عثيمين والإمام الألباني رحمة الله عليهم أجمعين.

قال :

وَهُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ؛ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

وفي رواية (ظاهرة) والمراد بقيام الساعة قُرب قيام الساعة على ما تقدم، فإنّنا نعلم أنّ الساعة لا تقوم وعلى الأرض من يقول (الله، الله) وهذا لأنّ الله يبعث رجلاً من قبْلِ اليمن ألين من الحرير لا تدع أحداً في قلبه مثقال ذرّة من إيمان إلّا قبضته وإن كان في جوف جبل، فلا يبقى إلّا شرار الخلق عليهم تقوم الساعة فهذا هو الجمع بين هذا الحديث وبين الحديث الآخر.

وختم عقيدته بهذه الخاتمة النفيسة التي لو أراد الشارح أن يتوسّع فيها لطال المقام جدّاً وخرج عن المقصود لأنّها خاتمة تضمّنت مكارم الأخلاق ومعاليتها في أبواب كثيرة فجاءت بكلمات جامعة مانعة ليُبيّن أنّ أهل السنّة طريقتهم لا تنحصر في الفصول التي ذكرها قبلُ وإنّا طريقتهم هي التمسك بالإسلام المحض والإسلام الحقّ الذي جاء به النبيّ ، والإسلام الذي لم يُشبّ ولم يتغيّر ولم يتبدّل في العقيدة والأقوال والمعاملات والعبادات وانظر كم أنواع العبادات (الصوم والصلاة والحجّ والقيام والزكاة...) وكم أنواع المعاملات (برّ الوالدين والإحسان إلى الجيران وصلة الأرحام وطاعة أولياء

الأُمُور والمعاملة مع العدو والصديق والقريب والبعيد مع المؤمن والكافر والبرِّ والفاجر... وكم الاعتقادات التي يعتقدها المسلم وكم من الأقوال التي يتلفظ بها المسلم، فأهل السنَّة والجماعة هم المتمسكون بالإسلام الحقَّ والإسلام المحض على ما جاء به النبيُّ وعلى ما أجمعت عليه الأُمَّة.

قال :

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنَهُمْ وَأَنْ لَا يُزِيعَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ.

وهذا الدعاء في القرآن، قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، فالهداية لطريق الحق والاستقامة رحمة، والثبات عليها منة؛ ولهذا جاء عن أنس عند البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، عن النبي قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَفَ فِي النَّارِ».

وعند أحمد (٣٧٩٧) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، أَنَّهُ كَانَ فِي الْمَسْجِدِ يَدْعُو، فَدَخَلَ النَّبِيُّ وَهُوَ يَدْعُو، فَقَالَ: «سَلْ تُعْطَهُ»، وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيْمَانًا لَا يَرْتَدُّ، وَنَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَمُرَافَقَةً لِلنَّبِيِّ فِي أَعْلَى جَنَاتِ الْخُلْدِ.

وفي الدعاء للطبراني: عن عبدالله بن الحارث أن ابن عمر كَانَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ اهْدِنَا بِالْهُدَى، وَزَيِّنَا بِالتَّقْوَى، وَاعْفِرْ لَنَا فِي

الْآخِرَةَ وَالْأُولَى. ثُمَّ يَخْفِضُ صَوْتَهُ ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ
وَعَطَائِكَ رِزْقًا طَيِّبًا مُبَارَكًا، اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَ بِالدُّعَاءِ، وَقَضَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ
بِالِاسْتِجَابَةِ، وَأَنْتَ لَا تُخْلِفُ وَعْدَكَ، وَلَا تَكْذِبُ عَهْدَكَ، اللَّهُمَّ مَا أَحْبَبْتَ مِنْ
خَيْرٍ فَحَبِّبْهُ إِلَيْنَا وَيَسِّرْهُ لَنَا، وَمَا كَرِهْتَ مِنْ شَيْءٍ فَكَرِّهْهُ إِلَيْنَا وَجَنِّبْنَا، وَلَا تَنْزِعْ
عَنَّا الْإِسْلَامَ بَعْدَ إِذْ أَعْطَيْتَنَا.

قال :

وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

قد تقدّم الكلام على الصلاة على النبيّ في بداية الكتاب.

وبهذا نكون قد انتهينا من تدريس هذا الدرس في ثلاثة وأربعين مجلسًا،
ويُعتبر ليس بالتطويل المملّ ولا بالاختصار المخلّ، وإلاّ فالكتاب حقّه أكثر من
هذا، ويمكن أن يُدرّس في أقلّ من هذا، والحمد لله ربّ العالمين.

وقد زدت فيه، ونقصت، وهذبت ورتبت، تكميلاً للفائدة.

وكان التمام من هذه المراجعة في (٢١ رمضان ١٤٣٤)

في مدينة دار السلام من بلاد تنزانيا

المحتويات